

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة

بوزريعة

- قسم الفلسفة -

أطروحة دكتوراه في الفلسفة:

الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية

إشراف الاستاذ الدكتور:

تومي عبد القادر

إعداد الطالبة:

شبوب مريم

السنة الجامعية 2019 - 2020م

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ"

[الآية 11 من سورة الضحى]

الإهداء

إلى الوالدين الكريمين.

إلى كل الاساتذة الذين تعلمت عندهم.

إلى زوجي وأبنائي.

إلى اخوتي وأخواتي وأصدقائي.

إلى جميع المخلصين للوطن.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع الذي أتشرف به.

الباحثة

مقدمة:

إن المتأمل لتاريخ الفلسفة يكتشف أن الفلسفة إهتمت بدراسة قضايا، ومواضيع كبرى ومعقدة التي مست مختلف نواحي الحياة مهما اختلفت طبيعتها وموضوعاتها كانت تعكس اهتمامات، وانشغالات البيئات التي ظهرت داخلها، ولما كانت الفلسفة منذ فجر تاريخها تسعى إلى البحث عن الحقيقة التي كانت محور اهتمام الفلاسفة فنجدهم يضحون، ويبدلون جهودهم في تفسير القضايا الفلسفية من الناحية الفكرية والنظرية وعلى الرغم من أن مواضيع، أو قضايا التفكير الفلسفي قديمة إلا أنها تظل تطرح بكثرة في كل عصر بسبب كونها أصيلة، وجوهرية، وهي تأخذ في كل زمن مظهرها وشكلا جديدا يتناسب، والمستجدات، والملابسات التي يتميز بها العصر.

فالتفكير الفلسفي باعتباره تأملا فكريا شاملا يهدف إلى الارتقاء بالطبيعة الإنسانية الفردية ومعرفة العالم لتكوين نمط بشري جديد، ففي القرن الثامن عشر كان الفكر الأمريكي سياسيا في جله، ومعظمه يدور حول حقوق الأفراد الطبيعية التي على أساسها أقيمت السياسة، فالفرد الأمريكي كان من حقه أن يفكر حرا، ويعمل حرا وينتج حرا، وكل فرد له الحق في الحياة والحرية، والمشاركة، ومع بداية النصف الأول من القرن التاسع عشر انتقلت هذه الفردية من ميدان السياسة إلى ميدان الفلسفة مع العلم أن الفلسفة التي كانت سائدة في ذلك العصر الفلسفة الهيجيلية الميثالية، وماكادت هذه الفلسفة تنتقل إلى أمريكا حتى أخذت الفلسفة الأمريكية ما يلائمها، ويناسبها، فلم يعد الأفراد مغرقين في المطلق بل أصبح كل فرد حقيقة قائمة بذاته.

أما في نهاية القرن العشرين فقد حصل معه الكثير من الأحداث والقضايا الفلسفية التي شكلت حيزا كبيرا وجدلا بين الفلاسفة، ومن أحدث هذه الفلسفات نجد الفلسفة البرغماتية فهي نظرية أمريكية تتطرق إلى قضايا الفلسفة بطريقة مختلفة لم تسبق إليها فلسفة أخرى جاءت كرد فعل على التيار الميتافيزيقي التأملي في أوروبا فجاءت بمثابة الثورة الحاسمة على التفكير المثالي الذي يباعد بين الفكر، والعمل إذ جعلت معنى الفكرة هو نجاح تطبيقها.

فالفلسفة البرغماتية الأمريكية كان لها تأثير واضح المعالم على نشأة، وتطور الحركة الفكرية، والسياسية، والإقتصادية، والثقافية، والاعلامية في الولايات المتحدة الأمريكية إذ تشير الدراسات التاريخية، والإيديولوجية إلى الدور الفعال الذي مارسته الذرائعية في بناء نظام الحكم السياسي الأيديولوجي الأمريكي، لأن أمريكا قد قدمت للفلسفة البرغماتية الشروط الموضوعية، والعملية لعالميتها، وذلك من خلال التوجه المباشر إلى أرض الواقع، فالأمريكيين يتميزون على سواهم بغرامهم بالتطبيق لأنهم كانوا يتمتعون بالثقة في قدراتهم العلمية، وفي أفعالهم اللامعة لمواجهة المشكلات التي يواجهونها، ولبناء مجتمع يتناسب مع تطلعاتهم، وكان إعتمادهم الرئيسي على أنفسهم بوصفهم أفراد، وتدرجوا في حل المعضلات الإنسانية خاصة بعد تحويلها إلى موقف وهكذا أصبحت الفلسفة البرغماتية الأمريكية التعبير الفلسفي، العملي الإيجابي عن الديمقراطية الأمريكية.

لقد أصبحت البرغماتية منتج حضاري أمريكي عالمي له جذوره الفلسفية في الحضارة الغربية فمن الطبيعي أن لانتجاهل القوة السياسية، والاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية في عالمنا، فمن خلال البرغماتية يتم رسم سياستها الخارجية بل حتى الداخلية فأمريكا، وحلفاؤها الذين يدعون حمايتهم للحقوق الإنسان، وللعدالة الإنسانية تبنا هذه الفلسفة، واعتنقوها.

من هنا تغدو محاولة فهم واستيعاب هذه المستجدات من الضروريات التي يتطلب التعامل معها بوعي، وإيجابية، فالفكر الأمريكي أصبح الترجمة السلوكية الحقيقة للفكر البرغماتي، وهذا من خلال تجسيده لإحدى تجليات الوعي الأمريكي التي طغت فيه المصلحة المادية النفعية على كل شيء، حتى أضحت الحقيقة في هذا الوعي تدور مدار المصلحة العملية بمعنى إنها تربط الفكر بالممارسة.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذه الدراسة في إلقاء المزيد من الضوء على الفلسفة البرغماتية خصوصاً فيما يتعلق بجوانها النظري، لأن الفكر البرغماتي يبحث في واحدة من الأفكار الرئيسة للفكر الأمريكي فقد أثرت تأثيراً مهماً في صياغة الثقافة الأمريكية العالمية، والأطروحة الأمريكية المعاصرة ليس على صعيد السياسة الداخلية فقط وإنما الأهم من ذلك على صعيد السياسة الخارجية، والعلاقات الدولية، ورسم مصلحتها القومية العليا وإستراتيجيتها هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن الفكر البرغماتي جسد دوراً كبيراً ومؤثراً، وملحوظاً في الفكر الأمريكي المعاصر بأبعاده الأيديولوجية، والثقافية والسياسية، والاقتصادية، والاعلامية ليصبح إحدى المرتكزات الرئيسة المهمة السائدة في الولايات المتحدة الأمريكية فمن هنا تكمن أهمية البحث في هذا الفكر، ولقد تعددت الدراسات الفلسفية، والبحوث العلمية السابقة حول الفلسفة البرغماتية، ومع ذلك فإن ما يتصل منها بموضوع الدراسة الحالي يعتبر قليلاً، لذلك اخترت بعض الدراسات التي من شأنها أن تفيد في إظهار بعض الأمور والجوانب التي لها علاقة بموضوع الدراسة، وقد توافر لدينا مجموعة من الدراسات العربية عثر عليها بتقنيات البحث المختلفة، ويمكن إجمالها على النحو التالي:

دراسة العابدين عبد المتعال بعنوان "برغماتية وليم جيمس دراسة تحليلية نقدية

"رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، كلية التربية، سنة 2005م:

هدفت هذه الدراسة إلى معالجة المنهج البرغماتي في إطار عدد من المفاهيم مثل: المعرفة، إرادة الاعتقاد، الدين، والأخلاق، حيث استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي النقدي الفلسفي في دراسته، وتمت المعالجة في إطار عدد من المحاور والتي تكونت من أربعة فصول على النحو التالي، الفصل الأول تناول الخلفية التاريخية لميلاد البرغماتية في أمريكا من حيث جذورها الأولى في التاريخ الفلسفي ونشأتها الأولى في أمريكا، ثم تناول السيرة الذاتية لحياة وليم جيمس، أما في الفصل الثاني فقد تناول فيه مقومات المنهج البرغماتي عند وليم جيمس، والذي احتوى على ماهية المنهج البرغماتي عند وليم جيمس، ومن ثم العوامل التي ساهمت في تشكيل

هذا المنهج، والتي تضم طابع الحياة في أمريكا، مبدأ تشارلز ساندروس بيرس البرغماتي والميتافيزيقي، بالإضافة إلى دور الفلسفة الإنجليزية بتأريها التجريبية والنفعية، وأخيراً العامل الديني، أما الفصل الثالث فقد تناول عدد من المفاهيم في إطار المنهج البرغماتي عند وليم جيمس، وهي مفاهيم المعرفة، إرادة الاعتقاد، وأخيراً الأخلاق أما في الفصل الرابع قد تناول تأثير برغماتية وليم جيمس على أسلوب ونمط الحياة الأمريكية بحيث تناول هذا التأثير على مستوى الحياة الفكرية في أمريكا حيث جون ديوي نموذجاً، ومن ثم على مستوى الحياة الأمريكية عبر عدد من الأطر السياسية والاقتصادية، والثقافية التي تبناها المجتمع الأمريكي، وتوصلت الدراسة إلى أن المجتمع الأمريكي متأثر بالنمط المادي النفعي البحت على حساب الجوانب الأخرى.

دراسة عبد القادرتومي، بعنوان "الأسس الفلسفية للعولمة الاقتصادية" أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، جامعة بوزريعة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الفلسفة، تحت إشراف الدكتور عمار طالبي، سنة 2008م:

هدفت هذه الدراسة إلى إبراز أهم ملامح العولمة الاقتصادية باعتبارها ظاهرة تاريخية متداخلة أشد التداخل، والتشابك، ما زالت قيد التكوين تؤسس لمفاهيم عالمية، تسعى إلى توحيد العالم اقتصادياً، وسياسياً، وثقافياً، وإعلامياً وذلك برفع الحواجز، والقيود أمام المال، والتجارة، والاستثمار، والتوظيف، بآليات تتحكم فيها القوى العظمى وتبرعن هيمنة وسيطرة الأقوياء، وفرض نفوذهم على الأطراف الأخرى، من أجل تحقيق مصالحهم المادية المختلفة.

دراسة محمد خضرعوض شبير بعنوان "دراسة ناقدة للفلسفة البرغماتية في ضوء المعايير الإسلامية" رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة كلية التربية، تحت إشراف الدكتور محمد خليل أبودف، سنة 2010م:

هدفت الدراسة إلى الكشف عن موقف التربية الإسلامية من بعض مبادئ الفلسفة البرغماتية ومنها: الحرية، المعرفة، القيم، الديمقراطية، المساواة، الطبيعة الإنسانية، وبعض عناصر العملية التعليمية كالمناهج، والمعلم، والمتعلم، وأخيراً رأي

التربية الإسلامية في الخبرة، والتجربة، وأظهرت الدراسة أن هناك نقاط قبول لبعضها من قبل التربية الإسلامية حول هذه المبادئ، ورفض لبعضها الآخر.

دراسة صبيح عبدالله غلام العامري بعنوان "الهيمنة الأمريكية في المنطقة العربية" أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه فلسفة في العلوم السياسية، جامعة سانت كلمنتس العالمية، فرع بغداد، تحت إشراف الدكتوروائل محمد إسماعيل سنة 2011م:

تناولت الدراسة موضوع الهيمنة الأمريكية الذي يعتبر من المواضيع التي شغلت الباحثين، والمختصين في العلاقات الدولية لاسيما العقد الأخير من القرن العشرين ولازالت، والسبب يعود إلى أن حركة التغيير التي حدثت في النظام الدولي الذي أطلق عليه الجديد كان بسبب قوة التأثير، والنفوذ، والسيطرة التي اتاحت للقوة الأمريكية كقوة عظمى متفردة في العالم.

ناهيك أن مجمل عمليات التفاعل الدولية الحالية هي محصلة تأثير هذا العامل أما لماذا المنطقة العربية؟ وذلك لأن المنطقة العربية لديها موقع جيواستراتيجي فعال ومهم من خلال الثروات الاقتصادية المهمة؟، وأولها النفط، أو مصادر الطاقة.

دراسة عشوش صبرينة بعنوان "الأصول التجريبية للبرغماتية جون ديوي نموذجاً" مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة، جامعة وهران، تحت إشراف الدكتورصايم عبد الحكيم، سنة 2012م:

تناولت هذه الدراسة التجريبية كمرجعية للبرغماتية خاصة مع جون ديوي، ومنهجه الأداتي في مقابل ضحد الماورائيات، وتبني آليات التجريب الديناميكي من خلال تأثره بالتجريبية التقليدية خاصة الأنجلوساكسونية مثل تجريبية بيكون، ولوك ووليام جيمس، لكن تجريبية ديوي كانت أكثر تميزاً، وفعالية عن سابقاتها بما فيها من جديد داخل الرزمة الاجتماعية الفاعلة من خلال منهجه في الذكاء، والخبرة الحيوية والعملية، والتربية والديمقراطية، وكل متطلبات الفلسفة البرغماتية الإنسانية.

دراسة حسام عبد الوهاب بعنوان "نظرية العلم عند جون ديوي" رسالة ماجستير في الفلسفة، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تحت إشراف الدكتورة فاطمة درويش، سنة 2012م:

حاولت الفلسفة البرغماتية اللجوء إلى العلم، واستخراج ما فيه من نظريات وتطبيقاتها في مجالات العلوم المختلفة، فحاولت الاستفادة من تلك النظريات العلمية التي أثبتت نجاحها في تحقيق غايات الإنسان، ووجوده، وتأكيد سيطرته على الطبيعة، وعملت على إدخال المفاهيم العلمية الجديدة، لتحل محل المفاهيم التقليدية السابقة، في سبيل حسم المنازعات، والصراعات الجدلية، والثنائيات الفكرية التقليدية أمام هذه المعطيات جاء الفيلسوف الأمريكي البرغماتي جون ديوي ليعبر عن هذه النزعة العلمية التي سيطرت على الفكر البرغماتي الأمريكي حيث حاول عبر مشروعه الكبير تجديد، وإصلاح الفلسفة والعلوم.

دراسة صفاء عبيد بعنوان "فلسفة التربية عند جون ديوي" مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة ماستر أكاديمي، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تحت إشراف الدكتور علي حمودة، سنة 2016م:

تناولت هذه الدراسة فلسفة التربية عند جون ديوي هذا الأخير الذي يعتبر من أهم رواد الفلسفة البرغماتية، فمن خلال خبرته الفلسفية التربوية لاحظ أن نظريته للتربية بعيدة عن نظريته الفلسفية، إذ اعتبر هذه الأخيرة نظرية عامة في التربية، وجعل كل منهما شديد الارتباط بالحياة الاجتماعية فهو يقر بتغير الفلسفة في معناها، ووظيفتها ويؤمن بتجدد التربية في مجالاتها المختلفة حتى يأخذ كل منهما طابعه الفعلي والعملي، والواقعي بعيدا على التصورات الميتافيزيقية التجريدية حيث جعل التربية هي المخبر الذي يقف على صدق التصورات الفلسفية، والتربوية، ومدى نجاحتها.

ومما هو ملاحظ من خلال هذه الدراسات أن الفلسفة البرغماتية تركز على الجوانب المادية البحتة، وعلى المنفعة المادية، وأهملت الجانب الأخلاقي، والنفسي في الإنسان، وهذا ما نلتمسه واضحا في جميع الدراسات السابقة التي ناقشت هذا

الموضوع، ولكن أنا اخترت هذه التي لاحظت أنها قصرت في حق النتائج فكانت محاولتي هذه تغطي هذا النقص، إضافة إلى ذلك لم تكن البرغماتية فلسفة مغمورة كما رأى بعض الباحثين، وإنما كان لها دور معاصر، وحضور عالمي واضح وملحوس، أيضا فهي التي شكلت الأساس الذي بنيت عليه السياسات الخارجية الأمريكية اللاحقة.

لكن للأسف فإن هذا الاهتمام لا ينطبق على عالما العربي الذي يظل اعتناؤه بالفلسفة الأمريكية ضعيف بشكل عام مقارنة مع ما يجري في العالم، وينجز من دراسات، وبحوث علمية، ومناقشات، ومؤتمرات فلسفية في أمريكا اللاتينية وفي آسيا على الأقل ذلك أن الفلسفة البرغماتية لاتزال مجهولة نسبيا بالنسبة لدارسي الفلسفة، وطلابه في الوطن العربي، وبدرجة أكثر في الجزائر فضلا عن المشغوفين بالبحث الفلسفي محبي الإطلاع على المجالات الفلسفية المختلفة، وما توجد به قرائح المفكرين من نقد وتنظير، وتحليل، والمثابرين المتطلعين إلى الجديد في عالم الفكر ومتتبعي النظريات الحديثة المعاصرة في ميادين المعرفة البشرية عامة، ولا سيما في جانبها الإنساني.

إن البحث العلمي في أي ميدان كان جهد مضني وهو في الميدان الفلسفي أشد ضناء، والمقبل عليه ينبغي أن يوفر لنفسه قدرا معلوما من الصبر، والتضحية لتحقيق ما يربو إليه، وعليه فإننا لا نخال أن عملنا سوف يشذ عن قاعدة البحوث العملية الأخرى التي يصادف فيها أصحابها صعوبات تعتبر في مراحل من البحث بمثابة تحديات يجب على الباحث تحديدها، ولعل أشد المعوقات والصعوبات في هذا البحث تتعلق بالمادة المعرفية التي حوتها مصادر الفلسفة البرغماتية المعربة حيث كثيرا ما وقفت موقف المستغربة من بعض الأفكار في بعض النصوص، والتي تضمنت الغموض، وعدم الوضوح والالتباس الذي يميل في بعض الأحيان إلى التناقض والسبب يرجع إلى صعوبة الترجمة في ظل عدم وفرة الكتب الأصلية بالإضافة إلى ذلك سيادة الالتباس العام في مسألة دلالات المفهوم، ونادراً ما نعثر على محاولات جادة تتجه للإحاطة به في مستوى مفهوم الكلمة، وتدل على

المرجعيات، والأسس الفلسفية المختلفة التي أطرت وتؤطر عمليات تشكله المتواصلة وتؤسس الظاهرة على قواعدها الفكرية التي أفرزتها وقد شمل هذا الالتباس أيضاً عدم القدرة على ربط المفهوم بالتخصصات المعرفية التي نشأ، وتشكل هذا المفهوم في إطارها، فمن الاقتصاد إلى السياسة إلى المجتمع، والثقافة إلى التاريخ الحديث والإستراتيجية التي تبلورت بعد الحرب الباردة هناك صعوبة أيضاً في تفكيك محتوى النص لكون أكثر النصوص نصوص فلسفية.

وإذا كانت جميع المحاولات التي أحاطت بالموضوع على كثرتها قد اتسمت بالتباين تبعاً لتعدد مستويات الفهم من جهة، أو الإنحياز الأيديولوجي من جهة أخرى، فإن الفلسفة البرغماتية فرضت نفسها على الواقع الخارجي المعاش بتأثيراتها الواضحة والفعالة على كل الميادين، جديرة بالدراسة، والتحليل البعيدين عن المقاربات الوهمية غير الواقعية وغير الموضوعية التي تواجهنا في حالات كثيرة من حياتنا اليومية.

دوافع البحث:

تعد مرحلة اختيار الموضوع القابل للدراسة العلمية ذات أهمية بالغة، وهي من أصعب المراحل التي يمر بها الباحث، لأنها تمثل مرحلة حاسمة تؤثر على سير عملية إنجاز البحث بكامله، فيمكن أن تتعدد أسباب اختيار الباحث لموضوع معين، فهي تكون إما أسباباً ذاتية تفرضها طبيعة تخصصه، أو اهتماماته، وقدراته ورغباته أو ميوله معنى هذا رغبتى الشخصية بدراسة الجانب النظري للفكر البرغماتي بشكل خاص والفكر الأمريكي بشكل عام، وإما لأسباب يفرضها الواقع الاجتماعي المحيط بنا والضرورة الملحة لمواضيع تطرح نفسها بنفسها، ومن بين أهم الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع نجد:

* الرغبة في إعطاء الموضوع الطابع الأكاديمي، وإثراء مكتبة المدرسة العليا لأساتذة في الآداب، والعلوم الإنسانية بدراسة في هذا المجال بالذات.

* كثرة التيارات الفلسفية، والفكرية التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر، وحتى الآن إلا أن البرغماتية تعد لأسباب عديدة أهمها جميعاً فهي عبّرت عن واقع المجتمع الأمريكي بكل أصوله، وعن نجاح

أفراده في التكيف والإنسجام مع البيئة الجديدة التي انتقلوا إليها منذ اكتشاف أمريكا ونزولهم إليها، ومحاولة مواجهة كل الظروف الطبيعية، والاجتماعية، والتغلب عليها وتحويلها إلى أدوات عملية أدت إلى هذا التقدم الهائل الذي تشهده الآن العولمة الأمريكية كما أنها ومن خلال تأثر إعلامها بنظرية التطورات التي تعتبر من الفلسفات الديناميكية التي سعت وسعى أتباعها باستمرار إلى التطور، والتجديد، والتغيير والنظر دائماً إلى المستقبل المزدهر، والبحث عن عوامل النجاح فيه.

* اعتبار هذا الفكر الذي عبر عن واقع المجتمع الأمريكي الجديد الذي صنعه الإنسان في أمريكا الفكر الأكثر انتشاراً، وممارسة، وفعالية في عالم اليوم، إذ أصبح إنسان اليوم في كل بلدان العالم تقريباً إنساناً برغمتانيا مادياً نفعياً بكل ما تحمل الكلمة من معنى يبحث عن مصلحته الفردية الذاتية، فهو لم يعد يستهدف من أي سلوك أو من أي فعل قيمة أخلاقية أو دينية بل أصبح كل همه السؤال والبحث عن النتائج العملية والمربحة التي ستترتب على هذا السلوك أو ذاك.

* واقعية هذا الفكر كانت واحدة من أسباب، ودواعي اختيار الموضوع كذلك من بين الأسباب التي دفعتني إلى هذا البحث هي الطريقة أو الكيفية التي استخدمت فيها الولايات المتحدة الأمريكية هذا الفكر في علاقاتها السياسية المعاصرة لتحقيق مصلحتها القومية العليا، وانفرادها في الصدارة العالمية، وعلى النواحي كافة خالقة بذلك الإمبراطورية الأمريكية المعاصرة، التي لم يشهد لها مثيل في تاريخ البشرية وهذا في ظل ما تمتلكه من تقدم من الموارد البشرية، وغير البشرية، وما تمتلكه من تعامل برغمتاني واقعي نفعي بالدرجة الأولى في سياستها الخارجية العالمية التي مكنتها من بناء تلك السياسة إضافة إلى أنه موضوع حيوي، وعملي، ومعاصر وتوجه الفكر نحو المستقبل، وهذه جملة من الأسباب التي جعلت هذا الموضوع محطة اختيار.

إشكالية البحث:

تتمحور إشكالية هذا البحث في معرفة الجدل القائم بين الباحثين، والفلاسفة حول التأسيس النظري للفكر البرغمتاني الذي عدّه بعضهم فكراً أمريكياً بحثاً لا يتمتع بالعمق الفلسفي، والأصالة الفكرية كما هو الحال بالنسبة للإتجاهات الفلسفية والفكرية

المعاصرة على الساحة الفكرية العالمية، لذلك جاءت الإشكالية العامة لهذا البحث تتمحور حول ماهي الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية؟ والتي انبثقت منها عدت تساؤلات كانت تدور حول جذورها الفكرية، والفلسفية وماهيتها وتطبيقاتها على أرض الواقع الخارجي، وتجلياتها السياسية، والاقتصادية، والثقافية والاتصالية على ساحة الواقع الدولي، إضافة إلى مكانتها في الفكر الإنساني المعاصر، وقد صغنا هذه الأسئلة كما يلي:

ما هو مفهوم الفلسفة البرغماتية؟ كيف نشأت البرغماتية؟ متى؟ ولماذا؟ وهل لها عمق فلسفي تاريخي؟ وما هي سمات هذا الفكر؟ وما الاتجاهات الأمريكية التي مهدت لظهور الفكر البرغماتي؟ وكيف تطوّرت تاريخياً؟.

ثم تساءلنا عن من هم رواد الفلسفة البرغماتية في الفكر الأمريكي؟ وكيف استخدموه؟ هل بنسق واحد؟ أم هناك تعدد، واختلاف في استخدام هذا الفكر؟ ولماذا اضطر بيرس لتغيير برغماتيته إلى اسم آخر؟ وما معيار الحقيقة بالنسبة للفكر البرغماتي؟ وما سر نجاح هذا الفكر في أمريكا؟.

ما هي تجلياتها ؟ في:

- المجال الاقتصادي المعاصر
- المجال السياسي المعاصر
- المجال الثقافي المعاصر
- المجال الإعلامي المعاصر

ماهي الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية عبر التاريخ؟ وهل لها عمق فلسفي تاريخي في التراث اليوناني، والتراث الروماني، و الإسلامي، والحديث؟ أم أنّه نشأ بالمصادفة المجردة في الولايات المتحدة الأمريكية؟.

ما هي مكانة الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني؟ وما سر نجاح هذا الفكر في أمريكا؟ وعلى الساحة العالمية؟ وماهي آثار، وانعكاسات الفلسفة البرغماتية في

صياغة الوعي الفكري، والثقافي والاقتصادي المعاصر؟ ماذا يمكن للفلسفة البرغماتية أن تقدم للبشرية؟.

فرضيات البحث:

للإجابة عن إشكالية البحث قمنا ببناء فرضيات لعلها تكون إجابات مؤقتة لموضع بحثنا حيث افترضنا فرضيتين، أن للفلسفة البرغماتية جانبين أساسيين أحدهما يتمثل في الجانب النظري البرغماتي، والآخر في الجانب العملي.

أولاً- الجانب النظري البرغماتي:

وهي فرضية تجعلنا نبحث عن مدى تغلغل الفكر البرغماتي في العقلية الأمريكية وعن مبادئ الفلسفة البرغماتية يعني هذا هل مبادئ هذا الفكر موجودة في الولايات المتحدة فقط؟، وهل الفلسفة البرغماتية أخذت من أوروبا؟، أم أن الفكر البرغماتي أصيل تولد مع أمريكا فقط؟، وهل تطبق الفلسفة البرغماتية في كل المجالات؟ يعني هل تطبيقها في الدين مثل السياسة؟، وهل تطبيقها في السياسة مثل الاقتصاد؟ وهل تطبيقها في الاقتصاد مثل الثقافة؟، وهل الأمريكي حقيقة يجسد السياسة البرغماتية في دولته مثلما يجسدها، ويطبقها على الدول الضعيفة، والفقيرة؟، وهل البرغماتية تستخدم للمصلحة العامة أم أن هناك أغراض غير مرئية مخفية؟، وهل الفكر البرغماتي يتميز بعمق وأصالة فلسفية تاريخية عبرالتطورالتاريخي؟، بدءاً من الفلسفة اليونانية ومن ثم الفلسفة السوفسطائية التي اعتبرت الإنسان مقياس كل شيء مروراً بسقراط وأفلاطون وأرسطو"، ومن بعدهم المدارس الفلسفية الأخرى "الأبيقورية والرواقية" مروراً بعد ذلك بفلسفة العصورالوسطى، والفلسفة الغربية الحديثة أمثال "كوبرنيك، وجاليلو وميكافلي وباسكال"، ومن ثم جاءت المدرسة التجريبية على يد بيكون ومن بعده "لوك، وهيوم وباركلي" وغيرهم، ثم "كانط وكونت"، وأتباع المدرسة النفعية "بنتام ومل"؟ وهل قدر للبرغماتية أن تعمم وتطور نفسها إلا في زمننا المعاصر؟.

ثانياً - الجانب العملي التطبيقي:

وهي فرضية تجعلنا نبحث عن مدى نجاح الفكرة على أرض الواقع، هذا يعني هل التجلي للفلسفة البرغماتية على مستوى الواقع يتوافق مع التجلي في التنظير؟، وهل الفكرة الناجحة هي التي تُحقق منفعة عملية؟، وهل الفكرة التي لا تحمل في طياتها مشروع قابل للإنتاج أثار عملية تعتبر خرافة؟، وهل المعتقد الديني لا يكون مقبولا إلا إذا حقق منفعة مادية عملية في مجال الحياة؟، وهل الفلسفة البرغماتية تتخذ من النتائج العلمية مقياساً لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية، وصدقها؟، وهل هناك شك بأن البرغماتية في مجال الأعمال، و"البيزنيس" موجودة في السلوك الأميركي؟ هل حقيقة أن الشعب الأميركي شعب رأسمالي برغماتي لا يفكر إلا في المصلحة الشخصية؟ وهل يمكن للسياسة الأمريكية أن تختزل البرغماتية في فلسفة أعمالها الأمريكية؟ وهل البرغماتية تجعل الفائدة العملية معياراً للتقدم، والتطوير بغض النظر عن المحتوى الفكري أو الأخلاقي أو العقائدي؟، وهل البرغماتية مذهب فلسفي نفعي مادي يرى أن الحقيقة توجد من خلال الواقع العملي، والتجربة الإنسانية؟ وأن صدق قضية ما يكمن في مدى كونها مفيدة للناس جميعاً؟، وهل أضحت الفلسفة البرغماتية تسود جميع مفاصل الحياة الأمريكية إلى حد التفاصيل، ومحرك ديناميكيها سواء البسيطة منها، أو المعقدة؟، وسنعمل على ضوء هاتين الفرضيتين لتوضيح التأصيل النظري للفلسفة البرغماتية.

منهجية البحث:

لقد عملنا طيلة سير البحث على اتباع ثلاث مناهج مختلفة فستخدامنا المنهج التحليلي النقدي المقارن في بعض الأحيان، فأما ما تعلق بالجانب التحليلي في طريقة العمل فقد انحصر في استقراء، وفحص الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية والنصوص التي كتبت حولها بغرض الوقوف على معاني، ومفاهيم الفلسفة البرغماتية، والتعمق في الخلفيات التي تتأسس عليها والإرتباطات الكامنة بين تفرعاتها، وإلى جانب هذا فقد عمدنا إلى إجراء موازنات بين أفكار الفلاسفة البرغماتيين مع مثيلاتها عند فلاسفة آخرين في حالات الإتفاق والإختلاف على سواء، وخاصة في المواقف التي تستدعي

المقارنة لاستجلاء نقاط التشابه والتضاد وبقدرا كانت منهجيتنا تعتمد التحليل كآلية للفهم، والإدراك والمقارنة للتعلم فقد استندنا أيضا إلى النقد لإزالة الغموض، والالتباس وتوضيح الآراء الملتبسة، إيماننا منا بأن الفكر الفلسفي البرغماتي لم يثنا عن الرؤية النقدية التي تلزمنا، وهذا من أجل أن نكون على قدر كبير، ومميز من المسؤولية والموضوعية في الحكم والتمسك بروح التساؤل، والنقد حتى لا يخلو جهدنا من المعنى، والغرض المنشود.

كما طبقنا المنهج الوصفي الذي يلزم دراسة الفلسفة البرغماتية، والوصف العلمي لهذه الفلسفة يقتضي تحليل، وتفسير أبعاد هذه الذرائع، والأدوات التي تستخدمها الفلسفة البرغماتية، وفقا لما سبق ذكره فإن مقتضيات البحث، ومادته جعلتني اتبع الخطة المجسدة في العناصر الآتية:

مقدمة، وبابين، وخاتمة، فالمقدمة كانت عبارة عن استهلال للعمل، عرفت فيها بالموضوع، وذكرت خلفيته الفكرية، وعرضت دوافع اختياره، وطرحت إشكاليته وفرضياته كذا المنهج الذي سلكته، ثم مراحلها، أما بخصوص فصول البحث فقد تضمنت جملة الأفكار المطروقة في ثنايا العمل، والبحث والمطروحة للدرس والفحص حيث اشتمل الباب الأول على ثلاثة فصول، والباب الثاني على فصلين يحمل الباب الأول عنوان الفلسفة البرغماتية المفهوم، النشأة، الرواد التجلي، والذي ينقسم بدوره إلى ثلاثة فصول فكان عنوان الفصل الأول البرغماتية مقارنة مفاهيمية أين أوضحنا ذلك وفي مبحثين، وكمبحث ثالث، والذي تمحور حول تطور الفكر البرغماتي عبر التاريخ، يمكن اعتباره تمهيدا للدخول إلى موضوع البحث، ثم انتقلنا إلى عرض الفصل الثاني، وكان عنوانه رواد الفلسفة البرغماتية في الفكر الأمريكي خصصنا المبحث الأول للحديث عن فلسفة تشارلز ساندرس بيرس البرغماتية، وفي المبحث الثاني ناقشنا فلسفة وليام جيمس البرغماتية، ثم انتقلنا إلى المبحث الثالث فتحدثنا عن فلسفة جون ديوي البرغماتية، ثم تناولنا في الفصل الثالث تجليات الفلسفة البرغماتية في الواقع الأمريكي جعلناه في أربعة مباحث الأول منها التجليات الاقتصادية للفلسفة البرغماتية الأمريكية، أما المبحث الثاني فعرضنا فيه التجليات

السياسية للفلسفة البرغماتية الأمريكية، ثم انتقلنا إلى المبحث الثالث فتحدثنا عن التحليلات الثقافية للفلسفة البرغماتية الأمريكية، وفي المبحث الثالث ناقشنا التجليات الاعلامية للفلسفة البرغماتية الأمريكية، أما الباب الثاني والذي كان عنوانه الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية والذي احتوى بدوره على فصلين كان عنوان الفصل الأول الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية عبر التاريخ، والذي عالجنا فيه أربعة مباحث تناولنا في كل واحد منهم، الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث اليوناني الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الروماني، الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الإسلامي، الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الحديث، يحق لنا أن نعتبر هذا الباب خلفية نظرية للفلسفة البرغماتية أو أرضية فكرية. وكفصل أخير في هذا الباب والذي كان عنوانه مكانة الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني، والذي عالجنا فيه ثلاثة مباحث، وكان عنوان المبحث الأول آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر، أما المبحث الثاني تمحور حول آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر، وبعدها يأتي المبحث الثالث، وعنوانه آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر، يعد هذا الفصل تطبيقاً للأفكار التي اعتبرناها خلفية نظرية في الباب الثاني وهي هنا في الجوانب الفكرية، والثقافية، والاقتصادية تشكل مسعى تطبيقياً للأفكار ليست من دون آثار، ولا سيما عند البرغماتيين.

وقد أنهينا عملنا - ككل الأعمال - بخاتمة حاولنا فيها أن نقف على أهم النتائج الجديرة بالذكر، والتي استخلصناها من مجمل ما تطرقنا إليه في البحث.

الباب الأول

الفلسفة البرغماتية (المفهوم، النشأة،
الرواد، التّجلي).

الفصل الأول

البرغماتية مقارنة مفاهيمية.

- 1- **المبحث الأول:** المفهوم اللغوي للفلسفة البرغماتية.
- 2 - **المبحث الثاني:** المفهوم الاصطلاحي للفلسفة البرغماتية.
- 3- **المبحث الثالث:** تطوّر المفهوم عبر التاريخ.

البرغماتية مقارنة مفاهيمية:

تعرف الفلسفة بوصفها شكلا من أشكال التعبير الإنساني تأرجحا، وتضاربا في الآراء بخصوص ما ينبغي أن تؤديه من وظيفة بحسب تصرف كل تيار أو مذهب فلسفي لها فمنذ بداية التفكير الفلسفي تعددت الآراء حول الدور المنوط بالفلسفة¹، فهناك من يجعل دورها التفسير، وهناك من يحصره في التغيير، والبعض يجعل مهمتها البحث عن الحقيقة، أما البعض الآخر فيعتبرها إحدى القنوات المساعدة على إيجاد أفضل الطرق الممكنة من أجل التقدم الإنساني وسط هذه التصورات المتباينة، وأخرى غيرها تطرح التساؤلات حول مدى فعالية الفلسفة، وقربها من مشاكل الإنسان، واتصالها بواقعه ذلك أن الفيلسوف غالبا مايتهم بالإنعزالية، لكن الفلاسفة لم يتراجعوا في الدفاع عن دورهم الفعال في إصلاح مجتمعاتهم المتنامية لتحرير الإنسان من كل أشكال التسلط، وكانوا في طليعة من نادى بالتقدم، والتنوير كلما سادت الفوضى، وسلاحهم في ذلك العقل والحوار.²

لقد أدركت التيارات الفلسفية الحديثة، والمعاصرة التي رفعت لواء الحداثة، والعقلانية والإنسانية المهمة الصعبة التي تنتظرها خاصة، وأنها وجدت في فترة حرجة نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين التي تميزت بالتقدم العلمي الكبير والأزمات الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والإعلامية وغيرها من الظروف التي شهدها هذا القرن، فكان على هذه التيارات أن تضاعف جهودها لإرشاد الناس إلى سبيل الخير والنجاح.

والبرغماتية واحدة من هذه التيارات التي لعبت دورا مهما في تاريخ الفلسفة المعاصرة وكان لها أثر واضح في الفكر المعاصر، وحظيت باهتمام كبير من طرف الفلاسفة

1- عشوش صبرينة : الأصول التجريبية للبرجماتية جون ديوي نموذجا، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، سنة 2012م، ص7.

2- محمد جديدي : فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجا، تقديم فتحي التركي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2004م، ص9.

إذ وقفوا إزاء مبادئها، وما ترتب عليها من مواقف متباينة، وكثر الجدل حول أصالتها الفلسفية، وقيمتها في الفكر الإنساني.¹

ومهما اختلفت الآراء في الفلسفة البرغماتية قبولاً، ورفضاً فإن تلك الآراء جميعاً تتفق عند اتّفق عليها القابلون، والرافضون على حد سواء، وذلك أنّ البرغماتية جاءت تعبيراً عن عصرنا العلمي من بعض وجوهه، وإنّه لا يتعذر على المتعقب لثقافة هذا العصر أن يغمض عينيه عن هذا التيار الفكري.² فلم تبتدع الفلسفة البرغماتية ابتداءً، ولم تفرض على الشعب الأمريكي فرضاً، وقوتاً، ولكن المفكرين في أواخر القرن التاسع عشر رأوا أنّ أليق اسم لتلك الرّوح هو البرغماتية، فجري المذهب على الألسن، وشاع بين النّاس، والأمم، وتحدد معناه ولكي نفهم البرغماتية لابد لنا من تحديد مفهوم البرغماتية لغة، واصطلاحاً.

مفهوم البرغماتية:

لسنا نرمي من التطرق إلى دلالة مصطلح البرغماتية مجرد عرض دلالة المصطلح فقط بقدر ما نود الوقوف أيضاً على ما تفرزه هذه الدلالة من إشكاليات، والتباسات ذات صلة وطيدة بالنّقاش، والحوار الدائر حول الفلسفة البرغماتية، ونحن نعتقد أنّ في آراء ووجهات نظر المفكرين، والفلاسفة المتنوعة، والمختلفة ما يسمح لنا من توظيف، واستثمار هذا التّنوع، والاختلاف بما يخدم موضوع بحثنا. لذا فإنّنا نرى أنّ جزءاً من هذه الاختلافات لا ينفصل عن دلالة مصطلح البرغماتية، ويضاف إلى هذا أن خصوصية الموضوع، ومنهجية البحث الفلسفي تقتضي منا بداية الرّجوع إلى دلالة البرغماتية لغة واصطلاحاً، وذلك لتفكيك معانيها، ودلالاتها بغرض الوقوف على

1 - محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1984م، ص 39.

2 - هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة 1963م، ص 6.

مضامينها الجوهرية قبل الولوج في البحث عن إشكاليات الفلسفة البرغماتية من جانبها النظري.

المفهوم اللغوي للفلسفة البرغماتية:

من المعروف أنّ دلالة أيّ لفظ، أو أيّة كلمة تتبين ابتداء من ناحيتها اللّغوية، أو ما يعرف عادة في عرف علماء اللّغة، واللّسانيات، والمعجميين بالناحية الاشتقاقية التي تُبرز المعنى الأولي الذي يكون للفظ، والذي من المحتمل أنّه لم يستمر مع التّغير الذي يحصل في النّاحيتين الاصطلاحية والتداولية، بحيث يكون المعنى الحالي هو الأكثر بروزاً، وظهوراً مقارنة مع المعنى اللّغوي الذي كان أولياً، لكنّه مع ذلك يظلّ مهماً على مستوى الفهم، والتفسير، والشرح، لا سيما إذا كانت الدلالات اللاحقة متباينة، ومختلفة، وتحمل عدة تأويلات، فيغدو من ثمّ الرّجوع إلى الجانب الاشتقاقي أمراً ذا فائدة جمة، وكبيرة. وإذا كان الأمر واضحاً في مصطلحات كثيرة تبرز لنا معها اختلافات المعنى والدلالة من حيث التّسمية والإشارة، والفهم، والقصد، فإنّ هذا يبدو أكثر وضوحاً، وبروزاً مع مصطلح البرغماتية، فما هي دلالة البرغماتية لغة؟

بادئ ذي بدء، وللتّقرب من مصطلح البرغماتية من ناحيته اللّغوية عدنا إلى معجم **الاند الفلسفي** متفحصين أسطر صفحاته للوقوف على مضامين اللفظ محل البحث فوجدت أنّ **براغماتيكاً** "ذريعي" لفظ اقترحه **موريس بلوندل** للدلالة على علم الفعل بحيث يشكل هذا العلم نظام حقيقة فريدة من نوعها.¹

ولقد احتج بشدة على الذريعة الأنجلو سكسونية التي لا أقبل إطلاقاً بعنائها للعقلانية ولا أرضى عن تجربتها الإلزامية إنّما أستعمله بمعنى مختلف تماماً، إما بمعنى النّظر في الظروف الجسدية التي يفترضها التنظير العقلي الأمثل، وإما بمعنى التّصور من خلال العامل النّفسي والأخلاقي للعملية المنتجة للعمل، وإما بمعنى فحص آثار البيئة التي تقوم بإعلام العامل ذاته، وكأنّها تعد له من خلال اندماجها فيه جزئياً فيترجم

1 - أندري لالاند : **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة خليل أحمد خليل، أحمد عويدات، منشورات عويدات بيروت باريس، المجلد الأول، الطبعة الثانية، سنة 2001م، ص1014.

الفعل دائما بجملة علاقات فريدة من نوعها، ومن ثم تحتل هذه العلاقات إمكان دراستها منهجيا على غرار الموضوع الخاص بمنحى علمي، وكما أنّ هناك فيزياء مثلا للنظر من زوايتها إلى مظاهر الطبيعة، فإنّ من الممكن بل من المفترض أن يكون هناك برغماتية لدراسة حتمية الأفعال الكلية ومسارها الأصلي، وتكافل العناصر المكونة لها والمنطق الذي يحكم تاريخها وقانون تطورها، وتكاثرها واكتمالها.¹ هذا يعني أن هذا العلم يسمح بتوضيح وتحليل، وتوسيع المنهج الذي تستعمله الفلسفة لصالح نظرية المعرفة التي حولت مركز جاذبيتها، واهتمامها لكي تنقله من المقصد المثالي إلى العملية الإجرائية الكلية.

و "البرغماتية"² أيضا لفظ مشتق من نفس الكلمة اليونانية "pragma" بمعنى العمل الذي تؤخذ منه كلمتا "مزاولة"، و"عملي".³

وهناك من يرى أنها اشتقت من "prasso" براسو، أو "prato" براتو، ويشير إلى معنى أفعّل⁴، كما أنّ هناك من أرجعها للفظ اليوناني "payua" بمعنى "Action" أي أداء أو طريقة في العمل أو التصرف⁵، وكان أول من أدخل اللفظ في الفلسفة تشارلز بيرس في مقال بعنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة" ذكر بيرس بعد أن أشار إلا أن عقائدنا هي في الواقع قواعد للعمل والأداء وأننا لكي ننشئ معنى فكرة فكل ما نحتاج إليه فقط هو تحديد أي سلوك لإنتاجه.⁶ فالأفكار التي بحث عن صحتها في

1 - أندري لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية، ص1014 ، 1013.

2 - اللفظ الأجنبي يبدأ بحرف الباء المشددة الساكن، ولما كان علماء اللغة العربية لا يجيزون البدء بالحرف الساكن حركنا الباء بالفتحة إتباعا لحركة الراء.

3 - وليام جيمس: البرغماتية، ترجمة محمد على عريان تقديم زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة القاهرة، سنة 2008م، ص65.

4- وين رالف بارتون : قاموس جون ديوي للتربية، ترجمة محمد على العريان مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة سنة 1964م، ص45.

5 - محمد سعيد العشماوي : البرجماتية نظرة أمريكية للعالم، مجلة العربي مجلة الإعلام الكويتية، الكويت، العدد 471، سنة 1998م، ص41.

6 - محمد سعيد العشماوي : البرجماتية نظرة أمريكية للعالم، ص41.

هذا المقال، ورأى بأنَّ حقيقتها ومعناها لا تعني شيئاً آخر سوى أثارها، ونتائجها المترتبة عنها، مثل هذه الرؤية الفكرية، والمنهجية النّاضجة ظلت كالكنز الدفين إلى أن أعيد اكتشافها ثانية ابتداء من ستينيات القرن الماضي، ومعناها أيضا "الفعل" والفعل يفضي في الممارسة إلى نتيجة، وهذه النّتيجة تحدث تغييرا في الوضع القائم والفعل تسبقه بالضرورة فكرة أي أن الفكرة هي التي تدفع صاحبها إلى الفعل، ولكلّ فعل ردّ فعل هو نتيجة لهذا الفعل فإذا جاءت النتيجة ايجابية فالفكرة صادقة، وإذا جاءت بعكس ذلك تكون كاذبة، ومن هنا يقول جيمس: "إنّ الفكرة لن تكون صادقة إلا بنتائجها العملية".¹

ومن الجلي أن اللفظ يصادف تطبيقا مناسبا، ومريحا على عدد من الاتجاهات ينصب في قلبها وهي اتجاهات افتقرت حتى ذلك الوقت، وقبل أن يتيسر لها هذا اللفظ إلى اسم جمعي، والجلي أنّ اللفظ جاء ليبقى. فلكي نبلغ الوضوح التام في أفكارنا عن موضوع ما فإننا لا نحتاج إلى اعتبار ما قد يترتب من آثار يمكن تصورها ذات طابع عملي قد يتضمنها الشيء أو الموضوع ذلك هو مبدأ بيرس "مبدأ البرغماتية"، وفي سنة 1898م انتشرت كلمة برغماتية وهي الآن ترقش صفحات المجلات الفلسفية أينما نول وجوهنا فثم حديث يتناول الحركة البرغماتية أحيانا باحترام، وأحيانا أخرى بإحتقار وشم ونادرا بفهم واضح.²

أما البرغماتية في ترجمتها العربية فهي مذهب فلسفي معاصر أطلقه في الولايات المتحدة الأمريكية تشارلز بيرس، ووليام جيمس وتبعهما فيه كثير من المفكرين في مختلف الحقول وفي العديد من الحواضر الأوروبية، والعالمية³، لهذا أقترح تسميتها

1 - مراد وهبة : رؤيتي لـ "القرن العشرين" 1907م ، الأهرام اليومي، سنة 2013م.

<http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=560240&eid=76>

2 - وليام جيمس : البرجماتية، ص67.

3 - إميل بديع يعقوب، ميشال عاصي : المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان المجلد الأول، الطبعة الأولى، سنة 1987م، ص 318.

في العربية بالذرائعية نسبة إلى الذريعة، وقد تطلق الذرائعية على مختلف المذاهب البرغماتية.¹

والذريعة في اللغة العربية: ما يدني الإنسان من الشيء ويقربه منه وأصلها أن يرسل البعير مع الوحش يرعى معه حتى يأنس بالوحش، ويأنس الوحش به فإذا أراد الرجل أن يصيدها استتر بالبعير فيسمون البعير ذريعته، ثم جعلت مثلاً لكل شيء أدنى من شيء، وفي اللهجة هذه ذريعة: أي وسيلة للتهرب من عدم القيام بالشيء.² لكن ماهو الفرق بين الذريعة، والوسيلة؟.

الوسيلة: ما تُوصِل إلى الغاية قطعاً أو ظناً.

الذريعة: ما قد يُوصِل إلى الغاية، ولكنه ليس قطعياً ولا ظنياً.³

فالوصول إلى الغايات بالوسائل أقرب من الوصول إلى الغايات بالذرائع لأن الوسيلة كما يدل على ذلك اسمها مُوصِلَةٌ، والسين والصاد دائماً يتعاقبان يقال: "أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"⁴، و"السرّاط"، وسيلة، وصيلة.⁵ يتبين لنا هنا الفرق بين الوسيلة والذريعة والذي يكمن في أن الوصول إلى غايات معينة يكون أسهل من الوصول إليها بالذرائع.

ونقول: **ذريعة** لأنّ الإنسان يتذرّع بها كأنه يمد ذراعه إلى هذا الشيء ليصل إليه فليست الذريعة مُوصِلَةً حتماً أو ظناً لكن قد تكون ذريعة، فمصاحبة رجلٍ السوءِ ذريعة لكن مصادقته، ومودته الظاهر أنها وسيلة، لأنّ المحبة تجعل الإنسان يقتدي بمحبوبه دائماً، حتّى إنّ شيخ الإسلام محمد بن صالح العثيمين رحمه الله "1929-

1 - أسعد محمد علي النجار: المحيط في أصول ألفاظ اللهجة الحلية، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية سنة 2012م، ص98.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - محمد بن صالح العثيمين: شرح الأصول من علم الأصول، دار لبصيرة، مصر، سنة 2001م، ص171.

4 - سورة الفاتحة، الآية 6.

5 - محمد بن صالح العثيمين: شرح الأصول من علم الأصول، ص171.

2001م" ذكر لما تكلم عن الغناء عند الصوفية أنهم يغنون في محبة الله حتى يغيبون عن الدنيا، ويصلي وهو لا يدري أنه يصلي، ويذكر الله وهو لا يدري أنه يذكره في غيب بمحبوبه عن حبه، و بمذكوره عن ذكره، وبمعبوده عن عبادته.¹ يعني أن الإنسان يستخدم الذرائع لتحقيق رغباته، ولكنها ليس بالضرورة توصله إلى تحقيق أهدافه، لكن محبة شخص ما في الظاهر تعتبر وسيلة.

ويقابل هذا المذهب أيضا الذي أخذ به بيرس، وجيمس، وجون ديوي مذاهب فرنسية قريبة منه كقول هنري برغسون Henri Bergson "1959 - 1941م": "أنّ للعقل القدرة على صنع الأدوات". وقول "لوروا": "تقاس قيمة الديانة بما تتضمنه من قواعد سلوكية لا بما تتضمنه من حقائق" وقول الفيلسوف الفرنسي مورييس بلوندل "1861 - 1949م": "أنّ العمل هو المحيط بالعقل فهو يتقدم على الفكر ويهيؤه ويتبعه، ويتخطاه، وهو تركيب داخلي لا تمثيل موضوعي"، ففي هذه المذاهب كما نرى شيئا من البرغماتية، إلا أنها لا تبالغ في إرجاع الحقيقة إلى النجاح العملي ومع أنّ بلوندل يشارك البرغماتيين في بعض أرائهم إلا أنه يسمي مذهبه بفلسفة العمل لا بالفلسفة البرغماتية.² المقصود هنا أننا نلتمس في هذه المذاهب نوع من البرغماتية.

ومن فروع البرغماتية الأداة "instrumentalisme" وهو قول ديوي: "النظرية أداة أو آلة للتأثير في التجربة، والمعرفة النظرية، وسيلة للسيطرة على المواقف الشاذة أو وسيلة لزيادة قيمة التجارب السابقة من حيث دلالتها المباشرة، والعلّة الأداة عند فلاسفة القرون الوسطى هي العلة الفاعلة".³ هذا يعني أنّ تحديد مفهوم أيّ فكرة إنّما باعتبارها أداة فعل.

1 - محمد بن صالح العثيمين : شرح الأصول من علم الأصول، ص171.

2 - جميل صليبا : المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الجزء الأول، سنة 1982م، ص204.

3 - جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ص204 203.

وعندما نقول "أداتية" **instrumentalism** فهي ضرب من البرغماتية قال بها ديوي، وملخصها أنّ المعرفة أداة للعمل ووسيلة للتّجربة.¹ معنى هذا أنّ معيار الأفكار النّاجحة في قيمة نتائجها العملية.² وينجم عن ربط الحقيقة، وصدق الفكرة بالنتائج العملية، والرضا، والمصلحة نسبية الحقيقة، وتعدّها تبعاً لتتوّع مصالح الأفراد.³ ونلاحظ هنا أنّ البرغماتية تتعارض مع المذهب العقلي الذي يعتقد أنّ الحقيقة، وصدق الفكرة مرهون، ومرتبطة بكشفها عن الواقع، ومطابقتها للحقائق الخارجية.

ويقول **موريس بلوندل Maurice Blondel** "1861 - 1949م": "من المحتمل أن يكون اسم ذريعة الذي اقترحه على نفسي منذ أكثر من 12 سنة مناسباً لدلالة على ما يسمى بفلسفة الفعل ذلك لأننا حين ندرس الفعل إنّما ننقاد إلى النّظر في التّكافل بين الحياة والوعي، والتآزر بين المشاعر، والأفكار بين المشيئات والإجراءات التي تشكل في ذاتنا العناصر المتممة للفعل، كما ننقاد أيضاً إلى الإحاطة بفعل كلّ فاعل بالعناصر المتآزرة التي تسبق وتعدل، وتتجاوز شعور الفاعل أو معرفته."⁴ يتبن لنا من خلال هذا التعريف أن الفلسفة البرغماتية هي ذلك الفعل الذي يسعى إلى الإنسجام بين حياتنا اليومية، والوعي الفكري الإنساني.

ويقول أيضاً: "والحال في معنى اشتقاقي حرفي ووضع يميز "برجما ذاتها" من "براكسيس"، ويفرق بين **pragmatisme** "ذريعة"، و **praxéologie** "علم الفعل" أو "تقانة صناعية" **artificialiste technologie**، وهو مصطلح اقترحه ألفريد

1 - إبراهيم مذكور: **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، سنة 1983م، ص5.

2 - أحمد مختار عمر: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، القاهرة، المجلد الأول، الطبعة الأولى، سنة 2008م، ص191.

3 - أحمد مختار عمر: **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ص191.

4 - أندري لالاند : **موسوعة لالاند الفلسفية**، ص1015.

إسبيناس¹ في المجلة الفلسفية، وكان في الأصل يستعمل هذه الكلمة المولدة للدلالة على مذهب يرغب بأن يولف توليفا منهجيا ما هو مسند، وما هو مسند إليه في معرفتنا، مذهب يحصر الدرس الأصلي للأفعال المنجزة التي يسودها دائما تعاون فيطرح بذلك مسألة اندماجنا الشّخصي في النّظام الكلي كما يطرح مسألة موازتنا بين المصادر المستقلة، والمصادر المتنافرة لفعلا مسألة مصيرنا لكن عندما ساد لاحقا تداول هذا المصطلح الجديد، وتطبيقه على جملة مذاهب ذات مشارب مختلفة تماما أُلغيت، وطلبت عن استعمال هذه الكلمة للدلالة على الإبتيمولوجيا النّقدية والمذهبية الأخلاقية، والميتافيزيقية، والدينية.² ونلاحظ هنا البعد الوظيفي للفلسفة البرغماتية حيث يركز على أمرين أساسيين أولهما الاندماج الفردي في النظام الكلي الخارجي و ثانيهما الانسجام بين المصادر المستقلة والمصادر المتنافرة، لكن مع التطور الذي حدث أصبح للبرغماتية دلالات أخرى متعددة.

وكتب لنا الفيلسوف الفرنسي إدوارد لوروا **Edward Lerroy 1870 – 1954م** من جانبه لكلمة ذريعية: "في طريقة استعمالها لها معنى مختلف جدا عن المعنى الذي روجه الأجلو أمريكيون فليس الأمر عندي إطلاقا حصر الحقيقة لصالح المنفعة بل أعتقد فقط سواء في النّظام العلمي، أو في النّظام الأخلاقي أنّ إحدى علامات الفكرة الصحيحة هي قابليتها لـ "الأداء" بفاعلية، وأعتقد أنّ هذه القابلية لا تتجلى إلا بالتّجربة، أي باختبار العقل ووضعه على المحك، وأرى أنّ هذا الاختبار لا يمكنه أن يكون تحقيقا بالفعل إلا شرط أن يكون اختبار متحقّق بالفعل ممارسا بالفعل."³ وهنا يتّضح شيء من البرغماتية، إلا أنه لا يبالغ في إرجاع الحقيقة إلى النجاح العملي.

1 - ألفريد إسبيناس : فيلسوف فرنسي، وعالم اجتماعي، ولد في سان فلورنتين، أستاذ سابق في جامعة دوي أستاذ سابق في جامعة بوردو، أستاذ سابق في جامعة السوربون، من مواليد 1844- 1922.

2 - أندري لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية، ص1015.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ويقول أيضا أن ذريعية فيلاتي **vailati** وهي أيضا الذريعية التي أسلم بها تتعارض مع ذريعية وليام جيمس بوصفها مذهباً نفسياً "**psychologisme**" بينما الأولى هي نظرية طرائقية منهجية للمعرفة، هذا يعني أنّ ذريعية جيمس مذهب ذاتي و ذريعية فيلاتي مذهب موضوعي كالدرويني.¹

أما "البرغماتية"، كما وردت في مقدمة ابن خلدون Ibn Khaldoun، أو كما يعربها المحدثون إلى "البراغماتية"، أو "برجماتيك"، أو "براغماطيقا"، أو ما شابه ذلك أو كما تترجمها القواميس إلى "الذرائعيات"، أو "النفعية"، أو "الغائية"، هي كلمة يونانية الأصل وتعني "العمل" أو "الفعل" كما ذكرنا سابقاً.² ومما سبق نخلص إلى أن كلمة البرغماتية ترى أن صدق الأفكار، والآراء هو في قيمة عواقبها العملية فالحقيقة تعرف بنجاحها والله موجود إذا كان وجوده مفيداً لانتظام المجتمع، وهي وثيقة الصلة بالوسائلية القائلة إنّ الذكاء والنظريات هي وسائل العمل.³ نفهم من هذا تعريف أن الفكرة الصادقة في الفلسفة البرغماتية هي الفكرة الناجحة، والمفيدة في المجتمع.

أما "الموسوعة البريطانية" فإنّها تنسب أول استعمال لها إلى المؤرخ الإغريقي بوليبيوس Polybe المتوفى سنة 118 ق.م الذي أطلق هذه التسمية على كتاباته لتعني آنذاك "تعميم الفائدة العملية، ولتكون منبراً تعليمياً"⁴، والمقصود هنا هو تفسير دراسته التاريخية التي كانت لغرض البحث عن حقائق الماضي كما يستخلص الدروس، والعبر منها لمستقبل الأجيال، بيد أنّها اليوم غدت تعني العملية.⁵ ومنها اشتقت اللغة الإنجليزية جميع المفردات التي ترتبط بكلمة "**practice**"، وأهمها

1 - أندري لالاند : موسوعة لالاند الفلسفية ، ص1017.

2 - دنحا طوبيا كوركيس : البرغماتية والفائداتية، الموصل/ العراق في 1985/11/16م.
<http://www.ankawa.com/forum/index.php?topic=364183.0;wap2>

3 - جبور عبد النور : المعجم الأدبي، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، الطبعة الأولى، سنة 1979م، ص117

4 - دنحا طوبيا كوركيس: البرغماتية، والفائداتية، الموصل/ العراق في 1985/11/16م.
<http://www.ankawa.com/forum/index.php?topic=364183.0;wa>

5 - عمر أحمد الهمشري : مدخل إلى التربية، دار صفاء للنشر والتوزيع عمان، سنة 2001م، ص92.

practical التي من رحمها ولدت ما يسمى بالفلسفة الذرائعية أو البرغماتية **pragmatism** التي ذاع صيتها في القرن التاسع عشر وبشكل خاص في أمريكا ومن هذه الفلسفة تولد مصطلح في القرن العشرين نختلف عليه اليوم في ترجمته إلى العربية، ألا وهو **pragmatics** الذي ترجم قبل عقدين من الزمان إلى "الفائداتية" ثم وجدناه مترجماً إلى "التداولية" قبل سنوات ناهيك عن تعريبه في القواميس بأشكال تتطابق، والمصطلح الأول صيغاً ومعانٍ.¹

وتمتد التداولية بصلاتها بكثير من العلوم كالفلسفة، وعلم الاجتماع، واللسانيات فهي تتصل بالجانب العملي، لذلك وجدنا لها ترجمات عديدة في اللغة العربية منها: "التبادلية، والاتصالية، والنفعية، والذرائعية، والمقصدية، لما يتضمنه مصطلح تداول من دلالة على التفاعل، والواقعية، والممارسة، وكلها معان يسعى هذا العلم إلى استكشافها في نظام اللغة، واستعمالها وعندما نفتش عن جذور مصطلح التداولية "Pragmatics" نجده يعود إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس **Charles W. Morris** "1903-1979م" الذي وظفه سنة 1938م لكي يدل على فرع من فروع علم العلامات غير أنّ التداولية لم تصبح مجالاً يعتد به في الدرس اللغوي إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها، ونشرها ثلاثة من فلاسفة اللغة جون أوستن **John Austin** "1911-1960م"، والفيلسوف وسيرل **John Searle** "1932م" وبول جرايس **Paul Grice** "1913-1988م".²

ولقد تعددت، واختلفت التعاريف التداولية، وذلك حسب ترجمتها، وتوظيفها، إذ يجب أن نميزها عن مصطلح آخر يستعمله بعض الدارسين للدلالة على البرغماتية التي هي نفسها الذرائعية فأغلب الدراسات المتخصصة تشير إلى أنّ البرغماتية

1 - دنحاً طوبيا كوركيس: البرغماتية، والفائداتية، الموصل/ العراق في 16/11/1985م.

<http://www.ankawa.com/forum/index.php?topic=364183.0;wa>

2- عبد اللطيف حني : التداولية الإبداعية في الشعر الثوري الجزائري، مجلة الأثر الجائر، العدد الخاص

أشغال الملتقى الرابع للتحليل الخطاب، بتاريخ 9 فيفيري 2015م. [https://dspace.univ-](https://dspace.univ-ouargla.dz/jspui/bitstream/123456789/6209/1/06.pdf)

[ouargla.dz/jspui/bitstream/123456789/6209/1/06.pdf](https://dspace.univ-ouargla.dz/jspui/bitstream/123456789/6209/1/06.pdf)

¹**pragmatique** توجه معرفي يعنى بخصائص استعمال اللغة، والدوافع النفسية للمتكلمين، وردود أفعال المستقبلين، والنماذج الاجتماعية للخطاب وموضوعه وذلك بمراعاة الخصائص التركيبية ثم تحولت فيما بعد إلى دراسة أفعال اللغة مع الفيلسوف الإنجليزي جون لانغشو أوستين John Langshaw Austin لتمتد كل نماذج الإستعمال والتلفظ، وشروط الصحة، والتحليل الحواري، أما الذرائعية pragmatism فهي نظرية تهتم بالفائدة العملية لفكرة ما من حيث هي معيار لصدقها، وهناك من يوظف مصطلح التداولية للدلالة على البرغماتية وهي تعني عند بعضهم "البراكسيس" وتهتم بإدماج السلوك اللغوي داخل نظرية الفعل وتولي أهمية بالغة للجانب التواصلي للغة والتفاعل بين الأعضاء الحية.² فالفلسفة الذرائعية عبارة عن شتات من الأيديولوجيات المتضاربة، والمختلفة فلم تكن في يوم من الأيام منها فكريا واحدا شاملا، ولا حتى في أيامنا هذه.

وقد عرّفها قاموس ويبستر العالمي "Webster": "بأنّها تيار فلسفي أنشأه تشارلز بيرس، وليام جيمس يدعو إلى حقيقة أنّ كلّ المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية."³ هذا يعني الحقيقة توجد في جملة التجربة العلمية العملية الإنسانية لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع الخارجي.

1 - مصطلح البرغماتية بوصفه واحدا في استعمالنا له باللغة العربية إلا أنه من حيث الدلالة الاصطلاحية يجب تمييزه عن المذهب البرغماتي بوصفه فلسفة، و البرغماتية La pragmatique هي فرع من فروع فلسفة اللغة واللسانيات يدرس اللغة من جهة التخاطب وهي تتميز عن السيمانتيقا المضمون، والسانتاكس الشكل الداخلي وقد تتداخل اليوم مع دراسة أفعال اللغة، انظر :

- Christian Bouchindhomme : **Le vocabulaire de Habermas** , Paris, Ellipses Editions, Marketing S. A., 2002, p 62.

2 - عبد اللطيف حني : **التداولية الإبداعية في الشعر الثوري الجزائري**، مجلة الأثر الجرائر، العدد الخاص أشغال الملتقى الرابع للتحليل الخطاب، بتاريخ 9 فيفري 2015م. <https://dspace.univ-ouargla.dz/jspui/bitstream/123456789/6209/1/06.pdf>

3 - مانع بن حماد الجهني : **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، والأحزاب المعاصرة**، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المجلد الأول، الطبعة الرابعة، 2000م، ص 4، 10.

ومن بين المعاني الأخرى للبرجماتية نجد تعريف "المعجم الفلسفي": بأنها مذهب يرى أن معيار صدق الآراء والأفكار إنما هو في قيمة عواقبها عملاً، وأن المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما هو كونها مفيدة، ولها صورة في الفلسفة والدين، والأخلاق، و الاجتماع.¹ وهذا التعريف يولي أهمية بالغة لقيمة التفوق والنجاح البرغماتي في زمننا المعاصر.

أما البرغماتية في اللغة الفرنسية فنقول "pragmatisme" وفي اللغة الإنجليزية "pragmatism".² ومع العلم أن كلمة برغماتية كانت قليلة الاستعمال في اللغة الإنجليزية، ولم تكن تستعمل مطلقاً في سياق الحديث الفلسفي، حتى أدخلها الفيلسوف الأمريكي بيرس عام 1878م كقاعدة منطقية معرفاً للبرغماتية بأنها النظرية القائلة: "بأن الفكرة إنما تنحصر فيما نتصوره لها من أثر على مسلك الحياة".³ وقد استعار **وليم جيمس** ورفاقه الذرائعيون هذا المصطلح، وأعطوه معان جديدة وفق ما أوضحناه في أفكار، ومعتقدات المذهب مؤكدين على أن كل شيء حتى الفكر لا بد أن يفهم في ضوء الغرض الإنساني.⁴ ويتبين لنا من خلال هذا التعريف أنه لكي نتأكد من وضوح، ونجاح أي فكرة علينا أن ننظر في النتائج العملية التي تحققها في الواقع سواء أكانت هذه النتائج مباشرة، أو غير مباشرة.

إضافة إلى هذا المعنى النفعي، والعملي للبرغماتية فإننا نجد كلمة ذرائعية مصدراً **صناعياً** من ذرائع وهي فلسفة تقول أن الأفكار هي وسائل العمل، وتحدد قيمتها في مدى نجاح العمل.⁵

1 - إبراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، ص32، 33.

2 - المرجع نفسه، ص203، 204.

3 - مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان، والمذاهب، والأحزاب المعاصرة، ص834.

4 - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

5 - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، ص808.

معنى هذا أنّ الفكرة النّاجحة هي الفكرة الّتي يتمّ تحقيقها في الواقع، ونلتزم نتائجها لكن ما معنى هذا؟، أي تعود بالمنفعة للفرد، والمجتمع كما أن "برجماتوس" باليونانية تعني "الفعل"، أو "العمل"، وقد عرفت مجموعة مختلفة من الأسماء كالفلسفة العمليّة "practicalism"، والنّفعيّة "utilitarianism"، والوظيفيّة "functionalism" والأداتيّة "instrumentalist".¹

نستنتج من خلال طرحنا هذا أنّ مصطلح الذرائعية يقوم أساساً على أنّ الحقيقة لا تكمن في التأمّل النظريّ بل في التّطبيق العمليّ، وبالتالي لا قيمة للفكر المجرد إلّا إذا تجسّد في ممارسة عملية، ثم أنّ قيمة الممارسة العملية ليست فقط في كونها الحقيقة الأصليّة بل في مقدار النّفع الذي ينجم عنها، واستناداً إلى النتائج العمليّة والنّفعيّة الّتي حققتها المذاهب، والاتجاهات الفلسفية المعروفة يمكن قبول أو رفض هذا المذهب أو ذاك الاتجاه، باعتبار أنّ معيار الحقيقة هو الفعل النّفعي، وليس المنطق النظري لأيّ فكر فلسفيّ، والمعرفة في الذرائعية أداة فعل ووسيلة عمل وآلة خبرة.²

وإذا كان اسم البرغماتية أو لفظها لغة واضحة، ومفهوماً بشكل من الأشكال، وإن اختلفت التفسيرات أو المعاني الّتي يمكن أن تكون له، فإنّ الجانب الاصطلاحي ليس أكثر وضوحاً من الأوّل.

1 - عمر أحمد الهمشري : مدخل إلى التربية، ص 92.

2 - إميل بديع يعقوب، ميشال عاصي : المعجم المفصل في اللغة والأدب، ص 318.

المفهوم الاصطلاحي للفلسفة البرغماتية:

تعدّ الثقافات الواردة التي حملها العنصر الأبيض للعالم الجديد هي المصدر الأصلي التي تشكلت منه ثقافة المجتمع الأمريكي، إضافة إلى ثقافات المهاجرين الذين اتجهوا إلى أمريكا من كلّ حدب يَنسلون، وبالتّفاعل الحاصل بين المحلي والوافد من ثقافات، وحاجات فكرية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية وثقافية وإعلامية تملّحها طبيعة الحياة تبلورت للآفاق أفكار جديدة معبرة عن الشّخصية الأمريكية، وأسلوبها في رؤية الحياة وهي ما تعرف "بالبرغماتية" فما هي البرغماتية؟. وهل الدّلالات التي نعثر عليها في اللّغة العربية هي نفسها الدّلالات التي نعثر عليها في بعض اللّغات الأجنبية أو على الأقل تتقاطع معها في بعض منها؟.

- مصطلح البرغماتية :

من الصّعوبة الإمساك بمصطلح البرغماتية، وتحديد، أو محاولة التماس ضبط محتواه، ووضع صورة دقيقة له، ومردّد هذه الصّعوبة أسباب كثيرة، وعوامل عدة تتشابه فيما بينها لتزيد من حدّة هذه الصّعوبة، فاختلاف الرّؤى بين الفلاسفة والمفكرين في تحديد تاريخ معين للبرغماتية، وضبط مضمون محدد لدلالاتها هو من بين عناصر التشابه والصّراع، ويضاف إلى هذا المواقف التأويلية، والإيديولوجية والحضارية التي غالبا ما تزيد من تعقيد مسألة التعريف بمنظور شامل مثلما هو على الدّوام سعي الفلسفة في جمع الصّفات داخل رؤية مشتركة تتيح للإنسان إدراك مضمون مفهوم البرغماتية ضمن سياق كلي بعيدا عن كلّ نظرة تجزيئية.¹

1 - محمد سبيلال: **الحداثة، وما بعد الحداثة**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، سنة 2000 م، ص8.

الفلسفة البرغماتية اسم يطلق على عدد من الفلسفات المختلفة التي تشترك في مبدأ عام وهو أنّ صحة الفكرة تعتمد على ماتؤديه هذه الفكرة من نفع أيّا كان نوع هذا النّفع، أو على ما تؤدي إليه من نتائج عملية ناجحة في الحياة.¹

وقد ظهرت هذه الفلسفة في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر وكان أوّل من أطلق عليها اسم البرغماتية الفيلسوف، والعالم الأمريكي تشانز ساندرز بيرس **Charles Sanders Peirce** "1839-1914م" وقد طورها بعد ذلك الفيلسوف، وعالم النفس الأمريكي الشهير وليام جيمس **William James** "1842-1910م" وقد نالت كتاباته اهتماما كبيرا في الأوساط الفلسفية ولعبت دورا ملحوظا في الفلسفة المعاصرة، ثم جاء الفيلسوف الأمريكي الكبير جون ديوي **John Dewey** "1859-1952م" ليطور هذه الفلسفة، ويحاول أن يضع منطقا للتفكير البرغماتي، وأن يفتح لها مجالات عديدة للتطبيق وثمة فلاسفة أقل شهرة من أمثال الفيلسوف الأمريكي تشونسي رايت **Chauncey Wright** "1830-1875م" وعدد من المحامين من أمثال جون جرين **John Green** "1835-1876م"، و أولفر وندل هولمز **Oliver Wendell Holmes** "1841-1935م".²

وقد ساهم هؤلاء في هذه الحركة، وأدخلوا الروح البرغماتية في الكثير من المجالات الفكرية، وقد انتقلت هذه الفلسفة إلى إنجلترا على يد الفيلسوف الإنجليزي شيلر **Schiller** "1864-1937م" الذي طورها، وأطلق عليها اسم "المذهب الإنساني" Humanismk والبرغماتية في معناها العام الذي قدمه ديوي في "قاموس القرن" Century Dictionary سنة 1909م: "هي النّظرية التي ترى أنّ عمليات المعرفة وموادها إنّما تتحدد في حدود الاعتبارات النّظرية العملية، أو الغرضية فليس هناك مجال للقول بأنّ المعرفة تتحدد في حدود الاعتبارات النّظرية التأمّلية الدقيقة أو

1 - محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 41.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الاعتبارات الفكرية المجردة.¹ وهو يبيّن أنّ البرغماتية بهذا المعنى نظرية في المعرفة تقف ضد الفلسفات التأمّلية، أو العقلية الخالصة، وتجعل من الاعتبارات العملية العلمية الأساس الأوّل للمعرفة.

بل قد تبدو البرغماتية، وكأنّها نظرية المعنى أيضا ففي مجموعة المحاضرات التي نشرها جيمس في كتاب يحمل اسم "البرغماتية" يبدأ جيمس المحاضرة الثانية بقصة يقول أنّها حدثت حينما كان مع نفر من رفاقه في نزهة في الجبال فقد عاد من جولة منفردة ليجد الجميع منغمسين في مجادلة ميتافيزيقية، وكان موضوع المجادلة سنجابا حيا من المفروض أن يكون متعلقا بأحد جوانب جذع الشجرة بينما يقف في الجذع المقابل للشجرة إنسانا تخيلوا أنّه يحاول أن يبصر السنجاب بالدوران بسرعة حول الشجرة، ولكنّه مهما أسرع في حركته فإنّ السنجاب يتحرّك بنفس السرعة في الاتجاه المضاد، ويحتفظ دائما بالشجرة سدا منيعا بينه، وبين الرّجل بحيث لم يستطع أبدا أن يلحبه فكانت المشكلة الميتافيزيقية هي: هل يدور الرّجل حول السنجاب أم لا؟ إنّ الرّجل يدور حول الشجرة ما في ذلك ريب، والسنجاب على الشجرة، ولكن هل يدور الرّجل حول السنجاب؟ لقد انقسموا إلى فريقين متساويين وأصرّ كلّ فريق على رأيه بعناد، والتمس كلّ فريق من جيمس أن ينضم إليه ليرجح كفته فقال لهم "إن صواب إيّ فريق يتوقّف على "ما تقصدونه عمليا" بعبارة الدوران حول السنجاب فإن كنتم تقصدون العبور من شماله إلى شرقه، ثم إلى جنوبه، ثم إلى غربه، ثم إلى شماله ثانيا فمن الجلي أنّ الرّجل يدور فعلا حوله لأنّه يحتل هذه المواقع المتتالية ولكن إذا كنتم تقصدون أنّ الرّجل يكون أولا أمامه، ثم يمينه، ثم من خلفه، ثم عن يساره ثم أمامه مرة أخرى، فمن الجلي أنّ الرّجل يخفق في الدوران حوله إذ بالحركات التعويضية التي يتحركها السنجاب فإنّه يظلّ محافظا على بطنه من ناحية الرّجل

1 - محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 41.

طوال الوقت، وعلى ظهره مدبرا عنه" فكلا الفريقين مصيبان، ومخطئان طبقا لما يدركونه من الفعل "يدور حول" بطريقة عملية أو بأخرى.¹

وهنا تبدو البرغماتية وكأنّها نظرية تتعلّق بتحديد معاني الألفاظ والعبارات، ولكن بالرّغم من كلّ المعاني التي توحى بأنّ البرغماتية مذهب فلسفي يعالج ما بين ما تعالجه نظرية المعرفة، ونظرية المعنى فإنّ المدقق في هذه الحركة الفلسفية يلاحظ بحق أنّها ليست في جوهرها مذهباً فلسفياً بالمعنى الدقيق بل هي أقرب إلى أن تكون طريقة في التفكير تحاول وضع حل للتمييز بين ما هو حق، وما هو باطل في الأفكار، والمعتقدات، ولحسم المنازعات الميتافيزيقية فهي على حدّ تعبير **جيمس**: "محاولة تفسير كلّ فكرة بتتبع، واقتفاء أثر نتائجها العملية كلا على حده ويؤكد جيمس مرارا "أنّها مجرد منهج".²

فمصطلح البرغماتية، وبصورة محددة يطلق على أحد المذاهب الفلسفية التي ظهرت في أمريكا على يد تشارلس ساندرس بيرس، وتطوّرت على يد **وليم جيمس**، و**جون ديوي**. إذ يقرر هذا المذهب أنّ "العقل لا يبلغ غايته إلّا إذا قاد صاحبه إلى العمل النّاجح، فالفكرة الصّحيحة هي الفكرة النّاجحة أي الفكرة التي تحقّقها التّجربة، ولا يقاس صدق القضية إلّا بنتائجها العمليّة".³ يتجلى لنا من خلال هذا الطرح أنّ وظيفة العقل هنا مرهونة بما يصنعه من نجاح، وهذا يتمّ عن طريق تحقق الفكرة في أرض الواقع الخارجي، وإذا لم يتسن لها التّحقق، والنجاح فهي فكرة لا أساس لها من الصحة.

1 - وليام جيمس : البرجماتية، ص 61، 62، 63.

2 - المرجع نفسه، ص 72 ، 64.

3 - جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ص 203، 204.

ولقد كتب بيرس أنه استخدم مصطلح البرغماتية بتأثير كتاب إيمانويل كانط Emmanuel Kant¹ "نقد العقل الخالص"، وقد استخدمه كانط لكي يعبر عن علاقة بعض الأهداف الإنسانية بعضها ببعض الآخر، وقد استمر بيرس يقول: "والآن فإنّ العنصر اللافت للنظر أكثر بالنسبة للنظرية الجديدة هو تعريفها للعلاقة المتصلة بين المعرفة العقلية، والهدف العقلي، وبهذا الاعتبار فإنّه يحدّد أفضلية اسم البرغماتية"، وقد فضّل بيرس مصطلح البرغماتية على مصطلح المذهب العملي منذ أن أدرك أن مجال البحث العملي هو مجال للفكر حيث لا يوجد عقل من نوع تجريبي لذلك فإنّ البرغماتية بالنسبة لبيرس لا تتعلق بما هو عملي، ولا كلّ ما يتصل بالعمل أو الممارسة، ولكن ما يتصل بالطريقة التي للمعرفة العقلية لها علاقة بالعمل أو السلوك الإنساني.² نلاحظ هنا التمييز، والاختلاف بين البرغماتية والنزعة العملية التي أصرّ عليها بيرس متّبعا في ذلك خطى إيمانويل كانط هو بالطبع ليس من النوع الذي نراه في الكلام العام كما نشاهد ذلك لدى الإتجاه الشعبي، وعلى وجه الخصوص ما نراه اليوم في الكتابات السياسية التي تخطط بين البرغماتية، وبين النزعة العملية.

ولقد حاول جون ديوي نزع الغموض الذي أحاط بكلمة البرغماتية واصطنع الوسيلية³ "Instrumentalism" كاتجاه برغماتي خاص به، وصارت البرغماتية عنده تستخدم النتائج على أنّها اختبارات لازمة للوقوف على صدق القضايا لتكون عمليات قابلة

1 - إيمانويل كانط : فيلسوف ألماني شهير، أثر في الكثير من الفلاسفة اللذين جاؤوا بعده، غير أن جون ديوي جعل من أفكاره الفلسفية ثورة على الفلسفة الكانطية، ويمكن الوقوف على ذلك وبصورة واضحة من خلال مؤلفيه "البحث عن اليقين وتجديد الفلسفة"، من مواليد 1724 - 1804م.

2 - تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة إبراهيم مصطفى إبراهيم، مؤسسة شباب الجامعة

الإسكندرية، سنة 1996م، ص22، 23.

3 - عرفت فلسفة ديوي بالفلسفة الوسيلية لأنّه لا يرى في التفكير سوى وسيلة، أو أداة، أو آلة لحل مشكلات الناس التي يواجهونها في حياتهم الاجتماعية والخاصة فهم لا يتعلمون العلم حبا في اختزان المعارف في رؤوسهم فحسب، فكل معرفة لا تؤدي في نهاية المطاف إلى عمل فيه خير للفرد وللجماعة ليست بشيء، وكثيرا ما خيل للناس أنّ العلم مقصود للذاته، وأنّ ما يجمعه العلماء الباحثون حتّى من مواده النظرية لا علاقة له بمطالب الحياة الاجتماعية والعملية، ولكن الحق أنّ كلّ سعي وراء الحقيقة إنّما هو خطة منظمة ومنهج من مناهج البحث لإيجاد الوسائل الناجعة التي تساعدنا في حياتنا العملية والنهوض بمستواها. انظر جون ديوي : الحرية، والثقافة ترجمة أمين مرسى قنديل، مطبعة التحرير الإسكندرية، سنة 1955م - المقدمة - .

للنَّطبيق، والإجراء باعتبارها أدوات تؤدي إلى حلّ المشكلات التي تقتضي تلك الإجراءات.¹

وبهذا تحددت معالم البرغماتية مع بروز العقلية الأمريكية، والتي مثلتها أصدق تمثيل ذلك أنّ اللذين هاجروا من البلدان المختلفة، وبدوافع متعددة ومختلفة، إلى هذا العالم الجديد المكتشف حديثاً، وظهرت حاجتهم إلى الاجتماع السياسي الاقتصادي في الوطن الجديد وتعاونوا جميعهم على تحقيق ذلك الأمل.

ويعرفها يعقوب فام²: "البرغماتية قبل أيّ شيء طريقة في الفلسفة، وطريقة البحث في القضايا الفلسفية التي تناولتها النظريات التاريخية المشهورة قبل أن تكون نظرية فلسفية، أو بمعنى آخر أنّ البرغماتية هي وسيلة لمعالجة القضايا الفلسفية قبل أن تكون هي نفسها قضية، أو حلاً لبعض المشاكل الفلسفية فليست أهميتها في الواقع وفي الحقائق الميتافيزيقية التي تتوصل إليها، وإن كانت هذه الحقائق في ذاتها مهمة ولكنها أيضاً في الطريقة التي تعالج بها حقائق الكون في النهج الذي تنتهجه عندما تعالج هذه الحقائق فكأننا في الواقع أمام رأي في الوجود وفي المعرفة أولاً، ثم أمام طريقة نستطيع أن نسلکها في البحث في هذه القضايا الكبرى."³ هذا يعني أن البرغماتية عملية، وطريقة قبل كل شيء، وأنّه يجوز لكلّ أنواع الفلسفة أن تستعمل هذه الطريقة دون أن تكون هي نفسها البرغماتية.

والغرض من هذا الطرح كلّ أنّه لا علم، ولا فكر في الواقع، ولا حقّ ولا صواب، ولا خير ولا عدل أبداً لشيء يوصف بشيء يذكر إلّا للفعل المحسوس الملموس الذي يجلب نفعا أو يدفع ضراً، وقد أصبحت الذرائعية طابعاً مميزاً للسياسة الأمريكية وفلسفة الأعمال الأمريكية لأنّها تجعل الفائدة العملية معياراً للتّقدم بغض النّظر عن

1 - رالف ن. وين : قاموس جون ديوي للتربية "مختارات من مؤلفاته"، ترجمة محمد علي العريان، مكتبة الأنجلو مصرية مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر القاهرة- نيويورك، سنة 1964م، ص45.

2 - أستاذ، ودكتور في التربية من جامعة بيل بأمريكا.

3 - يعقوب فام: البرجماتزم، أو مذهب الذرائع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، سنة 1936م ص141، 142.

المحتوى الفكري، أو الأخلاقي، أو العقائدي.¹ وهذا ما نلتمسه واضحا من خلال الموسوعة الميسرة في الأديان، والمذاهب والأحزاب المعاصرة للتعريف الدكتور مانع بن حماد الجهني لها: "البرغماتية مذهب فلسفي نفعي يرى أنّ الحقيقة توجد من خلال الواقع العملي، والتجربة الإنسانية، وأنّ صدق قضية ما يكمن في مدى كونها مفيدة للناس كما أنّ أفكار الناس هي مجرد ذرائع يستعين بها الإنسان لحفظ بقاءه، ثم البحث عن الكمال، وعندما تتضارب الأفكار فإنّ أصدقها هو الأنفع والأجدى، والعقل لم يخلق لتفسير الغيب المجهول، ولذا فإنّ الاعتقاد الديني لا يخضع للبيانات العقلية، ولما كان نشاط الإنسان يتمثل في العقل والإرادة، وكان العقل ينتج العلم، وحينما يتحقق العلم كإرادة يتجه نحو الدين، لذا فإنّ الصلة بين العلم، والدين ترجع إلى الصلة بين العقل والإرادة."²

نلاحظ هنا أنّ البرغماتية تحبذ إلغاء دور العقل في الإفادة من معطيات النقل أو الوحي، وهي تؤمن بأنّ الشيء النافع أو المفيد بطريقة عملية نفعيهو فقط الشيء الحقيقي، أو الذي يجب وضعه في الاعتبار، وهو الذي يمكن أن يساعدنا على البقاء على قيد الحياة فإذا كانت البرغماتية يطلق عليها المذهب الفلسفي النفعي فهي أيضا: "مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأنّ الحقيقة توجد في جملة التجربة الإنسانية لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع، وأنّ المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأنّ صدق قضية ما هو في كونها مفيدة للناس، وأنّ الفكر في طبيعته غائي."³ من خلال هذا الطرح يتبين لنا البرغماتية مذهب فلسفي اجتماعي نفعي يرى أنّ الحقيقة توجد من خلال الواقع العملي، والتجربة الإنسانية الناجحة.

ويعرفها معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: "بأنّها مذهب تأسس من خلال أعمال شالز ساندريس بيرس، وليام جيمس، وجون ديوي، وهو يقرر أنّ الدليل على

1 - مانع بن حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان، والمذاهب، والأحزاب المعاصرة، ص874.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الحقيقة هو فعاليتها، ونجاح الفعل في التّحصيل على نتيجة مفيدة.¹ نفهم من خلال هذا التعريف أنّ البرغماتية تلتفت دوماً نحو المستقبل في توجّهاتها السّاعية إلى النجاح، والتّطور، والفاعلية، والتّأقلم على مستوى السلوك، والنتائج فيما هو مرتقب من أفعال ونشاطات يقوم بها الإنسان.

في الإطار نفسه يرى **وليام جيمس**: "أنّ البرغماتية تعني الهواء الطّلق، وإمكانات الطبيعة المتاحة ضد الوثوقية التّعسفية، واليقينية الجازمة، والاصطناعية، وادّعاء النّهائية في الحقيقة بإغلاق باب البحث، والاجتهاد استناداً إلى مبدأ العلة الغائية وهي في نفس الوقت لا تظاهر، أوتتوب عن أيّة نتائج خاصة إنّها مجرد طريقة فحسب، مجرد منهاج فقط، وسوف تقوم علاقة وثيقة بين العلم، والميتافيزيقا فيقتربان من بعضهما البعض في تعاون مطلق، ولا ريب أنّ الميتافيزيقا أتبتت سبيلاً بدائياً جداً في المطلب الذي تسعى وراءه، وأنتم تعلمون كيف تاقوا النّاس وهفت نفوسهم للسّحر المحرّم، والدّور الكبير الذي لعبته الكلمات دائماً في السّحر فإذا عرفت مفتاح السّر، وحفظت صيغة التّعويذة، التي تربطه ففي وسعك أن تتحكم في الجن أو أيّ قوة تريد إخضاعها لسحر تعويذتك، وعلى هذا بدا الكون دائماً في نظر العقل الطبيعي كضرب مبهم من اللّغز يجب البحث عن مفتاحه في صورة كلمة تحيل الظلام نورا وتلك القوة تحدّد اسم مبدأ الكون، ومن يملكها يملك الكون نفسه الإله المادّة، العقل المطلق، كلها أسماء من مفاتيح السّر، قادرة على حلّ المشكلات، إذا اتّبعت الطريقة البرغماتية فإنّك لا تستطيع أن تحسب أيّاً من مثل هذه الأسماء، على اعتبار أنّها نهاية مطاف استطلاعك وسعيك، إذا عليك أن تخرج من كلّ كلمة قيمتها النّقدية الفورية العلمية، وأن تمارسها على العمل بإظهار كيفتها في نطاق مجرى خبرتك فهي لا تبدو حلاً، بقدر ما تبدو منهاجاً أو تبدو علاقة للطرق التي يمكن بها تغيير الحقائق الراهنة، أن البرغماتية تفك جمود نظرياتنا وتلّينها، وتحرس كلّ واحدة منها

1 - جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات، والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر تونس، سنة 2004م ص 207 ، 208.

على العمل، ولكونها ليست شيئاً جديداً جوهرياً، فهي تتناغم مع كثير من الاتجاهات الفلسفية القديمة.¹

من خلال تحليلنا الفلسفي لهذا التعريف الذي قدمه لنا **وليام جيمس** نجد البرغماتي يولي ظهره بكلّ عزم لعدد كبير من العادات، والتقاليد الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترفين إنّه يناهز بعيداً عن التجريد، والتأمل، وعن عدم الكفاية ويعرض عن الحلول الكلامية، وعن التحليلات القبلية الفلسفية السابقة على التجربة² وعن المبادئ الثابتة، وعن ضروب المطلق، والأصول المزعومة.

فالبرغماتية أسلوب في توضيح الأفكار، والمعاني لإزالة ما يشوبها من غموض وفي هذا يقول **وليم جيمس**: "لكي نتوصل إلى وضوح كامل، ودقيق لأفكارنا عن شيء ما أو عن موضوع ما، فإننا لا نحتاج إلا أن ندخل في اعتبارنا جميع الآثار الحسية المترتبة عملياً على هذه الفكرة، أو المتضمنة في هذا المفهوم، وكذلك جميع ردود الفعل التي يجب أن ننتهي لها."³ وهذا يعني أنّ نظرية الصدق التي نتوصل إليها من تحليل المعاني، والأفكار، والمعتقدات، ومعنى الصدق عند البرغماتيين مرتبط بالنجاح العملي أو بما يترجم إلى سلوك ناجح ومثمر.

تعريف شسترتون "1874 - 1936": تعرف البرغماتية الحقيقية بأنّها ما يكون ملائماً للحاجة بيد أنّ أول ما نكون بحاجة إليه عندما نبحث عن الحقيقة هو ألا نكون ذوي نزعة برغماتية.³ معنى هذا أنّ المفهوم الصحيح هو الذي يربط الحقيقة بفعاليتها، ونجاح الفعل في التّحصل على نتيجة مفيدة ونافعة بمعنى أنّ أيّ قانون لا يعود بالنّفع، والمصلحة، والنجاح هو قانون لا تقبل به البرغماتية ولا تكون أيّة سياسة صحيحة، إذا لم تكن تخلص البرغماتيين من الشك والإضطراب وما

1 - وليام جيمس : البرغماتية، ص 72، 73، 74 .

2 - المرجع نفسه، ص 65، 66.

3 - جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات، والشواهد الفلسفية، ص 207 ، 208.

من دين صحيح إلّا في حال قدرته على تطوير السلوكيات والأفعال، والأخلاق للأفضل.

يعرفها الدكتور إبراهيم مذكور¹: "البرغماتية مذهب فلسفي يقرّر أنّ العقل لا يبلغ غايته إلّا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة النّاجحة أي الفكرة التي تحقّقها التّجربة فكل ما يتحقّق بالفعل فهو حق، ولا يقاس صدق القضية إلّا بنتائجها العملية"². ويتّضح بجلاء، ووضوح هنا أنّه لا يوجد في العقل معرفة أولية تستنبط منها نتائج صحيحة، وناجحة بصرف النّظر عن جانبها التطبيقي، بل الأمر كله مرهون، ومرتبطة بنتائج التّجربة العملية.

ويصفها **الخبير الاقتصادي محمد علي العريان³** بقوله: "البرغماتية تفك جمود كلّ النظريات من جمودها إلى طراوة وغضاضة، وتمارس كلّ واحدة منها على العمل ولكونها ليست شيئاً جديداً جوهرياً فهي تتناغم مع كثير من الاتجاهات الفلسفية القديمة فهي تتفق مثلاً مع مذهب الإسمية⁴، في كونها تلجأ دائماً للاصطفائية في التفاصيل الجزئية، وتتفق مع مذهب النّفعية⁵، في تأكيدها للنّواحي العملية، ومع الفلسفة الوضعية في ازديادها للحلول الكلامية، والأسئلة العديمة الجدوى والتجريدات الميتافيزيقية.⁶ هذا يعني أنّ الفلسفة البرغماتية تتفق مع العديد من الاتجاهات الفلسفية

1 - إبراهيم مذكور: عالم لغة، ومختص بالفلسفة، وأستاذ جامعي مصري، ومصلح اجتماعي وسياسي، رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ عام 1974م خلفاً لطفه حسين، من مواليد 1902م - 1996م.

2 - إبراهيم مذكور: **المعجم الفلسفي**، ص203، 204.

3 - محمد علي العريان: هو خبير اقتصادي مصري، أمريكي يشغل منصب المدير التنفيذي لبيمكو، نال في عام 2008 جائزة عالمية عن كتابه "عندما تتصادم الأسواق" استعان به باريك أوباما في سنة 2012م لتقوية دعائم الاقتصاد الأمريكي، من مواليد 1958م.

4 - الإسمية: مذهب ينتمي أصحابه بالمعنى الدقيق الواضح إلى فلسفة العصر الوسيط الأوروبي، وهو حركة منطقية و إبستمولوجية، امتد تأثيرها الموصول إلى ميدان العلم الحديث والمعاصر.

5 - النّفعية: مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأن صدق الفكرة في كونها نافعة مفيدة للإنسان، وأن الأخلاق نسبية متغيرة ذرائعية، يستعين بها الإنسان لتحقيق مصالحه الشخصية، وأن الغاية تبرر الوسيلة.

6 - وليام جيمس: **البرغماتية**، ص74.

من خلال إبعادها عن التجريد، والتأمل، والعقم التي يوقعت فيه الكثير من النظريات القديمة.

البرغماتية كفلسفة أمريكية تناولت قضايا، وأفكار الفلسفة بطريقة متفردة لم تسبقها إليها فلسفة أخرى فأهميتها كامنّة في طريقة معالجتها، وحسمها للقضايا، وليست قائمة على الحقائق الميتافيزيقية التي تصيغها كمعتقدات، ولهذا تعتبر البرغماتية منهجا أكثر منها نسقا معرفيا في الفلسفة، وقد أوضحها بأسلوب عملي تمثيلي مفيد أحد الفلاسفة البرغماتيين المعاصرين وهو الفيلسوف الإيطالي بابيني **Papini** بما يلي: "إنّ البرغماتية تكمن وسط نظرياتها مثل الرواق في فندق فهو يفضي إلا عدد لا حصر له من الغرف، ويفتح عليها ففي أحدها قد تجد رجلا يكتب سفرا في علم الجمال وفي الغرفة المجاورة لها قد تجد شخصا ساجدا يدعو الله أن يهبه الإيمان والقوة، وفي الثالثة تجد كيماويا يبحث في خصائص أحد الأجسام وفي الغرفة الرابعة تجد نظاما من الميتافيزيقيات المثالية في طور المخاض، وفي الغرفة الخامسة تجد من يثبت استحالة الميتافيزيقيا، ولكن الرواق ملكهم جميعا ومن المحتم على كلّ منهم أن يجوس خلاله إذا أراد طريقا عمليا للدخول إلى غرفته أو الخروج منها كل على حدا إذن فلا نتائج معينة بالذات وإنما فقط اتجاه من التصرف، وهذا هو ما تعنيه لنا الطريقة البرغماتية."¹

نلاحظ هنا أن الرواق هو البرغماتية كطريقة في الفلسفة تشكل المعيار الحقيقي الذي تستند إليه مختلف المذاهب، والنظريات في تقييم مدى صحتها أو نجاحها في شتى الاتجاهات، والمجالات، والتصورات على اختلاف، وتضارب، وجهات نظرها، وعليه فالبرغماتية تفيد ما هو عملي نفعي أي أنّها تسعى إلى تحويل النّظر بعيدا عن الأشياء الأولية الميتافيزيقية، وتوجيه النّظر نحو الأشياء المثمرة، والمنتجة "الآثار والوقائع".

1 - وليام جيمس : البرغماتية، ص75، 76.

أما شادورت هو دجسون **Shadort Hodgson**: "فيصر دائما على أنّ الحقائق أو الوقائع ليست سوى كما تعرف، بيد أن هؤلاء الرائدتين السابقين للبرغماتية استخدموها بعضا لا كلا لقد كانوا ممهدين لها فقط، إذ لم يقدر لها أن تعمم نفسها إلا في زمننا المعاصر حيث أصبحت واعية برسالة عالمية تدّعي أنّ مصيرها الفوز والغزو.¹

يتجلى لنا من خلال هذا التعريف أنّ الفلسفة البرغماتية بحكم معيارها المميز في الحكم على القضايا من خلال النتائج، والآثار لا تعباً كثيرا للتتقيب، والبحث في الأسباب والعلل، ولا تكثر لمسائل الجذور أو الأسس لذا يجد البرغماتيون أنفسهم مضطرين للفرار إلى الأمام، والمستقبل.

أما بالنسبة للتعريف روبرتو منغابيرا أونغر **Roberto Mingabira Unger**²: "فيرى البرغماتية، على الرغم من أنها منتقصة، ومدججة تمثل الفلسفة الأكثر حياة فهي لا تعيش بين الأساتذة بل تعيش في العالم."³ هذا يعني أنّها تمثل الفلسفة الأكثر تميزا، وشمولية لما تمثله من قوة، ونفوذا في جميع أنحاء العالم.

لم تكن فكرة التقدم التي راودت الأمريكيين مجرد نزوة لامست مشاعرهم، ورغباتهم بل لقد وجدت سبيلها إلى التجسيد بفضل الإصلاح، والتغير الذي صاحب خطابات دعاة التقدم، من منظرين، ومتقنين لإصلاح التعليم، وتحقيق قدر من التوازن الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بين الأفراد في الحقوق، والحريات والمساواة، وهذا

1 - وليام جيمس : البرغماتية، ص75، 76.

2- روبرتو منغابيرا أونغر: حاصل على الدكتوراه في القانون من جامعة هارفارد الأمريكية، من أهم المنظرين الاجتماعيين المعاصرين، عمل بين العامين 2007-2009م وزير للشؤون الاستراتيجية في الحكومة البرازيلية قبل أن يعود في يونيو 2009م للممارسة عمله في جامعة هارفارد ، من مواليد 1947م.

3 - روبرتو منغابيرا أونغر: يقضة الذات برجماتية بلاقيود، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت، العدد 375، سنة 2010م، ص35.

ما يتبن لنا من خلال تعريف بيتر كاز **Peter Kaz**¹: "الفلسفة البرغماتية تشكل قمة ما بلغه التطور الفلسفي في أمريكا، وتبحث هذه الفلسفة في أساسها عن الحقيقة في جانبها العقلي والعملي، وتركز في منهجها عن البحث الجدلي على المعاني باعتبارها جوهر كلّ الحقائق المادية والمعنوية."²

نلاحظ هنا أن حقيقة الفلسفة البرغماتية تكمن في جانبها العقلي، والعملي هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنها فلسفة قريبة من الفلسفة الوضعية كما عبّر عن ذلك بيرس **Charles Senders Pierc** بقوله: "البرغماتية نوع من الوضعية بمعناها الشامل"³ معنى هذا انصرفنا وابتعدت عن التصورات الميتافيزيقية التأملية المجردة وارتبطت بالواقع الموضوعي من الفلسفة التحليلية لتحليل البرغماتيين العديد من المعاني لمعرفة ما هو زائف وحقيقي، وفي هذا الصدد يعرفها **الفيلسوف المصري محمد مصطفى حلمي "1904 - 1969م"**: "تنسب البرغماتية" كفرع فلسفي إلى أصل شجرتها المسماة بـ "الوضعية، فيجب أن نعرّف أولاً بالوضعية ليسهل علينا بعد ذلك فهم معالم الفلسفة البرغماتية."⁴ فالوضعية هي اتجاه فكري يقتنع بما هو كائن، ويفسره، ويحلله، ويرفض ما ينبغي أن يكون ثم أخذت الوضعية الشكل الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية واسمه البرغماتية هذا الشكل الجديد يحدده **الدكتور توفيق الطويل** بقوله: "إذا كانت الوضعية قد رفضت التسليم بالحقائق المطلقة

1 - بيتر كاز: أستاذ بجامعة هانتر، والمدرسة العليا سيتي بنيويورك، ورئيس لجنة الإتحاد الدولي، ورابطة الفلسفة الأمريكية، والتي أشرف من خلالها على الإعداد لعقد، وحضور مجمع الفلسفة بمناسبة الإحتفال بمرور مائتي عام تخرج من جامعة لندن، وأحدث ما نشر له عن سارتر ضمن سلسلة حجج الفلاسفة.

2- بيتر كاز: تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام، ترجمة حسني نصار، ومراجعة مراد وهبة، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة 1983م، ص11.

3- عصام محمد منصور : الفكر التربوي المعاصر، والبرغماتية، دارالخليج عمان، الطبعة الأولى، سنة 2009م ص57.

4 - مصطفى حلمي : الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث، دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة 1997م، ص 203، 216.

والقضايا الميتافيزيقية، فإنّ الفلسفة العملية لا تتردد في قبولها، واعتبارها صادقة متى كانت مفضية إلى نفع يتحقق في حياة الناس.¹

تعقيب:

السؤال الذي يلقي بظلاله هنا، إذا كان هذا المصطلح يحمل في طياته الكثير من الإيجابيات، والمحاسن فلماذا الكثير من الفلاسفة، والمفكرين، والباحثين يعتبرون هذا المصطلح سيء الحظ؟ هذا ما سوف يجيبنا عليه الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس: "عليا أن أعترف أنّ مصطلح البرغماتية بكلّ ما يقترحه من أفعال كان اختيارا سيئا وقد تناوله النقاد كما لو كان استخدامه بين المهندسين، والأطباء ورجال المال، بصفة عامة هم الذين يحتاجون إلى بعض أنواع الصيغ الجاهزة ولكنهم لا يملكون الوقت للدراسة الفلسفة الأصلية، وعادة ما يوصف مصطلح البرغماتية بأنّه حركة أمريكية متميزة " نوع من المشروع العقلي" الفكري الناقص فهو يناسب بدرجة ممتازة رجل الشارع الذي يكره النّظرية، ويريد العائد الفوري مباشرة."²

يتبن لنا هنا أن العمل الإنساني لدى البرغماتيين هو بالتأكيد موضوع اهتمام رئيسي وبالرغم من ذلك فإنّ هذا الاهتمام لا يتركز على حركة، أو نشاط كما أنّه لا يتعلق بأيّة تأثيرات للأفكار على الحياة الإنسانية، فضلا عن عدم تعلقه بأيّة نظرية كاملة متعلقة بالطبيعة الإنسانية البشرية إنّّه يتركز بصفة مبدئية، ولكنه ليس شاملا على جانب واحد فقط من السلوك الإنساني لعمل هادف.

في تقييمه للفلسفة البرغماتية يقول الدكتور والمفكر المصري توفيق الطويل "1909-1991م": "ويكفي أن نعتبر البرغماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة في الأسواق، قيمتها لا تقوم في ذاتها بل في الثمن الذي يدفع فيها فعلا، فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظلّ صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها، ولم يجد أصحاب

1 - مصطفى حلمي : الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث، ص 203، 216.

2 - تشارلز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص 23.

البرغماتية غضاضة في النظر إلى الحق أو الخير، كما ينظرون إلى السلعة التي تطرح في الأسواق هذه هي العقلية الأمريكية في الفلسفة، وفي الأخلاق، وفي السياسة، وفي كل مجال.¹ يرتكز هذا التعريف على الجانب الاقتصادي للفلسفة البرغماتية.

ونضيف إلى ذلك أن هذه الفلسفة كانت ملهمة بالنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة، ثم ظهرت مساوؤه عند التطبيق، واستفحلت أخطاره التي تتضح كما يرى الدكتور الأكاديمي المصري فؤاد زكريا "1927-2010م" في ثلاثة نقاط :

1- اللا أخلاقية بالرغم من التقيد ببعض الفضائل كالأمانة، والدقة ومراعاة المواعيد ولكنها كفضائل ليست مقصودة لذاتها، ولكنها تقيد الرأسمالي في تعامله مع الغير وتظهر "اللا أخلاقية" بوضوح في أساليب الدعاية، والإعلان.

2- الارتباط الوثيق بالحرب.

3- الانحرافات السلوكية وأظهرها الإجرام، إذ أن فتح الباب على مصراعيه للمنافسة والصراعات من شأنه تمجيد العنف، ويتضح الانحراف بصورة أخرى في شرب المسكرات، والمخدرات، وعقاقير الهلوسة وغيرها، وتفسيرها أنها ظاهرة هروب من واقع العنف، والمنافسة المريرة التي لا ترحم.²

ومن الواضح عجز هذا المذهب عند كلّ فلاسفته عن استيعاب علاقات، وروابط إنسانية بين الأفراد أبعد ما تكون عن تحقيق منفعة، أو البحث عن تحقيق رغبات شخصية وأهداف مادية بحتة بل على النقيض، تنبعث من حب التضحية، والفداء بالوقت، إضافة إلى التعاريف السالفة الذكر، فإن من أبرز الدلالات الاصطلاحية التشاؤمية في الفلسفة البرغماتية، ما يشير إليه الفيلسوف البريطاني المنطقي برتراند

1 - مصطفى حلمي : الأخلاق بين الفلاسفة، وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، سنة 1986م ص69،68.

2 - مصطفى حلمي : الأخلاق في الفلسفة العملية "البرجماتية"، بتاريخ 15-09-2012م.

<http://www.alukah.net/sharia/0/44253>

راسل **Bertrand Russell** ¹ في قوله: "أنها فلسفة سطحية تتبع وجهة تجارية وهي تتلاءم مع بلد يعوزه النضج أما أكثر الجوانب سوءاً في البرغماتية حسب راسل فقولها بأنّ الصّدق العقلي هو ما يفيدك أن تعتقده فإذا سلمنا بأنّ الصّدق العقلي مسألة تقديرية، وأنه ينتمي لأحداث بشرية خالصة هي الاعتقادات، فإنه لا يترتب على ذلك أنّ درجة الصّدق في اعتقاد ما تعتمد على ظروف إنسانية بحتة." ² وفي تصور راسل فإنّ تصور الفلسفة البرغماتية للصّدق العقلي تتولّد عنه نتائج سلبية وخطيرة على الفرد، والمجتمع على حد سواء وتكون نهايته مفاجئة، هذا من ناحية الذين يزدرون البرغماتية وموطنها، ومن ناحية ثانية نجد الذين يمتدحون البرغماتية يحاولون إبعاد صيغتها الأمريكية، ويماثلون بين البرغماتية، والديمقراطية إلى حد يجعلهم يوازنون بين معارضة البرغماتية مع معارضة كل شكل للحياة الديمقراطية. ³

والفلسفة البرغماتية هي نظرية للصّدق الذي نتوصل إليه من تحليل المعاني، ومعنى الصّدق عند البرغماتيين هنا قرين بالنّجاح العملي النفعي، بحيث تكون قيمة الفكرة هي نفسها نجاح السلوك الذي يؤديه الإنسان بناء على اعتقاده في صحتها، وهذا ما يتجلى لنا بوضوح في تعريف الفيلسوف الفرنسي **هنري جيلسون Gilson 1884-1978م**: "إنّ البرغماتية على خطأ لما جعلت صّدق القضايا متوقفاً على نجاحها أي على تحقيقها، لكن إذا كان صّدق الأفكار لا يتوقف على نجاحها فإنّ نجاحها يتوقف على صدقها، وبعد أن يقع اختبارها طويلاً بما يجعل البعض منها يصطدم

1 - برتراند راسل : فيلسوف، وعالم رياضي بريطاني ، من أهم فلاسفة القرن العشرين، ومن أعظم علمائه ومفكره الذين أسهموا إسهاماً كبيراً في تأسيس الكثير من المفاهيم الثقافية، والسياسية، والاجتماعية السائدة في العالم اليوم، وفي الغرب على وجه الخصوص. كما كان واحداً من قلائد العباقرة الذين قرّنوا أفكارهم وتنظيراتهم وآراءهم الجدلية بالتطبيق، والانخراط المباشر في العمل الاجتماعي والسياسي، آمن بالسلام والعدل، ونبذ العنف والتطرف، وكان مناصراً لحق الفلسطينيين في العودة إلى بلادهم، من مواليد 1872-1972م.

2 - برتراند راسل : **فلسفة القرن العشرين، ضمن فلسفة القرن العشرين**: مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة، نشرها داجوبرت د. رونز، ترجمة، عثمان نوية، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1963 م، ص 18.

3 - Richard Rorty : **L'espoir au lieu du savoir Introduction au pragmatisme**, Edition française établie par Claudine Cowan et Jacques Poulain, Paris, Editions Albin Michel, 1995, p11.

بصعوبات يتعذر تجاوزها يمكن أن تفرض أنذاك أنّها تتضمن على الأقل جزءا من الخطأ.¹ هي تلك الفلسفة التي ترى أنّ الدلالة الكاملة لأيّ شيء لنا تتمثّل في الآثار الملحوظة المترتبة عليه.

نرغب مما سبق ذكره بخصوص الدلالات الاصطلاحية للفلسفة البرغماتية إجراء خلاصة عامة لجميع التعاريف:

- نلتمس في بعض التعاريف الطابع التّشاؤمي السلبي المشبّع بالرفض كما يتجلى في تعريف **وليام جيمس**، **وتوفيق الطويل**، **وفؤاد زكريا**، **وبرتراند راسل** و **جيسون**.

- لا يثقون بالقواعد، والقوانين المحددة مسبقا، وإثمايثقون بما هو ناتج عن التجربة العملية النّافعة المفيدة المثمرة، بل إنّ البرغماتية ترفض النّظر التأملي، وتطلب التجربة بدلا من الوقوف، والتأمل، وهذا ما نجده في تعريف **مانع بن حماد الجهني محمد مصطفى حلمي**، **شسترتون**، **إبراهيم مذكور**.

- ينادون باختبار الأفكار عمليا لمعرفة قيمتها، وفائدتها، وحقيقتها ومعناها أنّ الفكرة لا بد أن تكون قابلة للتّنفيد والتّطبيق، وأن يكون لدينا اعتقاد بإمكانية تطبيقها فعلاً وأنّ الفكرة التي ليست لها نتائج عملية أو تأثير في السلوك هي قضية أو فكرة لا وجود لها. وهذا ما نجده في تعريف **أوستوالد كيموى لينرج**، **محمد علي العريان** **تشارلز ساندر بيرس بيرس**، **جون ديوي**، **يعقوب فام**، **الإيطالي بابيني**.

- انّصاف الفلسفة البرغماتية بخاصية العالمية كما يجليها تعريف **شادورت هو دجسون روبرتو**، **منغابيرا أونغرا**، **بيتر كاز**.

- الفلسفة البرغماتية ترفض البحث في المبادئ الأولى الميتافيزيقية، وفي كل أشكال المطلق وهذا ما نراه واضحا في تعريف **وليام جيمس** لها.

1 - جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات، والشواهد الفلسفية، ص 207، 208.

إن السؤال الذي يستوجب طرحه في هذا الصدد يتعلّق أساساً بأفكار المذهب البرغماتي، فما هي أهم أفكار، ومعتقدات المذهب الذرائعي "البرغماتية"؟.

* إنّ أفكار الإنسان، وآراءه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً ثم السير نحو السمو، والكمال ثانياً.

* إنّ العقل خلق أداة للحياة، ووسيلة لحفظها، وكمالها، فليست مهمته تفسير عالم الغيب بل يجب أن يتوجّه للحياة العملية الواقعية.

* الاعتقاد الديني لا يخضع للبيئات العقلية، والتّناول التجريبي الوحيد له هو آثاره في حياة الإنسان، والمجتمع إذ يؤدي إلى الكمال، بما فيه من تنظيم وحيوية.

* النشاط الإنساني له وجهتان: فهو عقل، وهو أداة، ونموه كعقل ينتج العلم وحين يتحقق كإرادة يتجه نحو الدين، فالصلة بين العلم، والدين ترد إلى الصلة بين العقل والإرادة.¹

إن القراءة العميقة، والتحليلية، والشّاملة لهذه التعاريف تجعلنا نميز مجموعة من المفاهيم للبرغماتية، وحتى يتسنى لنا تصنيف هذه التعاريف، وهي تختلف في محتواها حسب المنظور المعرفي، الفكري، لوضعها لابد من صياغتها داخل أطرها المعرفية، ويمكن ضبطها كما يلي:

أ- البرغماتية من الناحية الاجتماعية:

يقول الفيلسوف الأمريكي جون ديوي: "البرغماتية رؤية تهدف إلى تحرير العقول من الأهواء، وتخفيف حدة التوتر في الحياة الاجتماعية السائدة في عصرهم.² معنى هذا أن ديوي يوسع من معنى البيئة فيفهم منها كل ما يدور حول الإنسان من ظروف مادية، ومعتقدات، ومعايير وآراء أخلاقية، ولقد كان واضحاً في أنّه أراد أن يؤسّس

1 - مانع بن حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان، والمذاهب، ص 875 ، 876.

2 - جون ديوي : نوابغ الفكر الغربي، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة 1968م، ص 139.

الأخلاق على نوعين من الدّراسات السيكلوجية، من ناحية الدّراسات الاجتماعية، ومن ناحية الدّراسات النّقافية، وكلّ منهما يغوص في البيئة بطريقة أو بأخرى.¹

كذلك تتجلى لنا طبيعة الأصول الاجتماعية للبيئة الأمريكية في وصف راسل لفلسفة ديوي في قوله: "فلسفته هي فلسفة القدرة، وإن لم تكن كفلسفة نيشه فلسفة القدرة الفردية فإننا نحس فيها بقيمة قدرة الجماعة، هذا العنصر لقدرة الجماعة هو الذي كما يلوح لي يجعل فلسفة الأدوات فلسفة جذابة لأولئك الذين يتأثرون بسيطرتنا على القوى الطبيعية بدرجة أكبر من تأثرهم بالقيود التي ما برحت هذه السيطرة تتعرض لها.²

ب - البرغماتية من الناحية الاقتصادية :

يقول الدكتور المصري محمد عزيز نظمى سالم "1938 - 2002م": "إن البرغماتية تعبير صادق عن الفلسفة الأمريكية فهي تدعو إلى العملية، وتتخذ من العمل مقياسا للحقيقة لتوافق بذلك ما يدعو إليه النظام الرأسمالي الذي يربط بين الحقيقة من جهة والذاتية، والنّفعية من جهة أخرى.³ ومنذ ذلك الحين أصبحت البرغماتية المبدأ الإداري، والاقتصادي الحكيم الذي يتعامل مع الواقع، وما يحيط به من ظروف متغيرة بصورة عملية تحقق الأهداف القائمة على مبدأ المنافسة الحرة بكفاءة، وأصبح المصطلح البرغماتي مفهوما مرتبطا بالإدارة، والاقتصاد وتسلل هذا المفهوم إلى

1 - جون ديوي : نوابغ الفكر الغربي ، ص139.

2 - سعيد إسماعيل علي: فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، عالم المعرفة الكويت، سنة 1995م، ص44.

3 - محمد عزيز سالم: الإسلام في مواجهة المذاهب الغربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة 1996م ص282.

مبادئ الاقتصاديين، والإداريين المسلمين، وسلوكيات التجار وأصحاب الأموال فتساهل الممارسون للأعمال التجارية في استخدام جميع الوسائل.¹

ت - البرجماتية من الناحية التاريخية :

يذكر أنّ استخدام مصطلح الذريعة ظهر بشكل مميز عند رجل التاريخ الفرنسي بوليب Polybe من خلال حديثه عن " التاريخ الذريعي " حيث قدم تحديداً لثلاث سمات هي:

أولاً: يعرض الذرائعي دائماً أسباب الحوادث، ومسبباتها.

ثانياً: يبدي الذرائعي رأيه دائماً في صحة أو ملاءمة القرارات، والأعمال المنجزة

ثالثاً : يقرن الذرائعي روايته بتعاليم سياسية، عسكرية أو أخلاقية²، لقد حافظت كلمة ذريعي على هذا المعنى في عبارة "الحكم العملي" "Pragmatique Sanction" أي القرار الأساسي المبرم، بخصوص بعض الشؤون السياسية، كما أطلق هذا الاسم على عدّة قرارات إمبراطورية، وعلى عدّة قرارات المجلس الجرمانى.³

يشير الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط " 1724 - 1804م " في مؤلفه " المبادئ الأولى للمعرفة الميتافيزيقية " أنّه تطلق الأحكام العملية على الأحكام التي لا تنشأ فعلاً من حق الدول بوصفها قوانين لازمة، بل تصدر عن الدراية، كما ورد عند كانط في

1 - أحمد بن عبد الرحمن الشميمري : البرجماتية - نشأتها، وأثرها على سلوك المسلمين، بتاريخ 2002/01/01م.

<http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=120>

2- نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، مجلة كلية العلوم الإسلامية الموصل، العراق، المجلد السابع، العدد الثاني، سنة 2013م، ص5.

3 - أطلق الحكم العملي الصادر في بوج 1438 الذي كان شارل السابع يشرف بموجبه على تدبير الشؤون الدينية في فرنسا، وأيضاً الحكم العملي الذي أصدره شارل السادس في سنة 1713م، والذي رمى إلى ترتيب وتنظيم الخلافة على النمسا وهكذا.

مؤلفه "نقد العقل العملي" مصطلح "الإيمان أو الاعتقاد الذريعي" حيث يفرق في ما بين الموجبات الذريعية" نصائح الحكمة المتعلقة بالرفاه"، والموجبات التقنية أو قواعد المهارة من جهة، وبين الموجبات العملية، أو الوصايا الأخلاقية من جهة ثانية¹، عند كانط إذن التاريخ البرغماتي هو ما يهدف إلى كشف المستقبل في ضوء الحاضر وعنده أيضا الاعتقاد البرغماتي هو التسليم بالأمر لضرورة عملية مثل محاولة الطبيب تشخيص المرض بصفة مبدئية.² وهذا التعريف يولي أهمية بالغة للجانب التاريخي للفلسفة البرغماتية.

كما تابع الفيلسوف الألماني المعروف فريدريك فيلهيلم يوزف شلنج **Friedrich Joseph Wilhelm Schelling** "1775-1854م" نفس المعنى الذي أعطاه كانط للذريعة للدلالة على طريقة التاريخ العملي.³

وبدأ من أواسط القرن التاسع عشر يجد المرء إحالات إلى التاريخ البرغماتي الذي يعني دراسة وقائع التاريخ بالنظر إلى الأسباب، والنتائج، والعبر العملية المستقاة منها، وليس إلا في أواخر القرن التاسع عشر، وبواكر القرن العشرين بدأ مصطلح البرغماتية يكتسب معنى فلسفيا أكثر، ويرتبط ارتباطا معقدا بالمعنى الدارج يكون فيه على سبيل المثال "الحل البرغماتي" مرادفاً "للحل العملي" القابل للتنفيذ.⁴

كثيرة هي الآراء، والأفكار التي ترى أنّ وضع الفلسفة في أمريكا أخذ منحى احترافيا منحصر في الدوائر الأكاديمية، ساهمت فيه بقدر كبير الفلسفة التحليلية التي على

1 - عبدالرحمن بدوي : الأخلاق عند كانط، وكالة المطبوعات الكويت، سنة 1979م، ص 96، 97.

2 - إبراهيم مذكور: المعجم الفلسفي، ص 32، 33.

3 - عبدالرحمن بدوي : شلنج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1981م، ص 314 ، 315.

4 - طوني بينيت ، لورانس غرو سبيرغ، ميغان موريس : مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2010م ص 144.

الرغم من نجاحاتها إلا أنها أخفقت في ربط صلة وثيقة بالجمهور الذي دأب منذ جيمس على الاحتكاك بالجدال، والنقاش الفلسفي، ومع ذلك فالفلسفة تعمل بوتيرة متسارعة وبتقنية ماهرة في طلب الحجج، والأدلة أثناء النقاش الذي تديره بخصوص الموضوعات المدروسة.

ث - البرغماتية من الناحية الفلسفية :

إنّ الحديث عن فلسفة يشترط معه الحديث عن مذاهب وأتاريات فلسفية بما يعني وجود فلاسفة، وإنتاجا فكريا مجسدا لتصورات أصحابها، وبكلمة واحدة عن مضمون فكري يصور أشياء الواقع، والوجود، ويكشف عن علاقات البيئة المادية والاجتماعية كما يتيح لنا الكشف عن إمكانية ردود الفعل في تعامل الإنسان مع محيطه المتنوع والواقع أنّه في الولايات المتحدة تضافرت عوامل عدة، وتعاونت مع وعي لدى أمة ناشئة، ومتجهة نحو العمل أكثر من ميلها صوب النّظر، وبنيات ليبرالية بعيدة في استخلاصها عن أوربا هي ما شيدّ عالما جديدا في الغرب فإنّ حرب الانفصال بما حملته من تقلبات شكلت حقبة اضطراب، وتحول عميق صاحب تلك الحرب سيكون بمثابة إعلان عن بداية عهد جديد، وإذا كان وضع الفلسفة آنذاك يتمثل في الأساس بتقابل تيارين أو نزعتين.¹

التجريبية، والمثالية الكانطية، فلا هذه ولا تلك ستفق مع المعطيات الجديدة بل إنّ العناصر قد اكتملت لميلاد فلسفة جديدة، وبأكثر تدقيق أمريكية، وهي تدل على مدرسة تنصلت من الجزء الأكبر من التقليد الميتافيزيقي لمصلحة ما يبدو وصورة فكر أكثر تواضعا وأرضية يكون فيها كما يعبر جيمس: " **الحقيقي هو فقط الوسيلة النّافعة في طريق تفكيرنا تماما كما أنّ الصحيح هو الوسيلة النّافعة في طريق سلوكنا.**"² نلتمس من خلال هذا التعريف أنّ الفكرة الحقيقية عند البرغماتية هي الفكرة الصحيحة والناجحة، وبالتالي الطريقة النّافعة، والمنتجة على أرض الواقع.

1 - Gauchotte Pierre : **Le Pragmatisme " que sais-je? "**, n°2688, 1re édition , Paris presses universitaires de france, 1992 , p 6.

2 - Gauchotte Pierre : **Le Pragmatisme " que sais-je? "**, p 6.

ومع هذا، فلا ينبغي أن ننفي جملة، وتفصيلا الدور الفعال الذي لعبته الفلسفة وتلعبه اليوم أيضا في حياة وواقع الأمريكيين خاصة في مجالات التربية، الثقافة، والسياسة والاقتصاد بشكل خاص، قد يكون من المناسب التسليم بأن الفلسفة شهدت فترات شد، وجذب في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بما يقربها من الجمهور، ويعطيها صورة أقرب إلى البعد الدين، والبعد الاجتماعي تارة أو بما يحصرها في ثقافة النخبة والمذهبية تارة أخرى.

ج- البرغماتية من الناحية الثقافية:

تنشأ الفلسفة عندما يشعر أشخاص معينون بوجود مشكلات ما في ظروف اجتماعية معينة، وبهذا المعنى فإنّ الفلسفة البرغماتية يمكن أن يقال عنها أنّها تعبر عن قلبها الثقافي حتّى ولو لم تشر بشكل مباشر إلى ذلك القلب، وكما أشار ديوي قد تنظر نظرة تفضيل إلى قلبها الثقافي، أو قد تكون رد فعل في مقابل الموقف الذي تمّ تطويرها، فالفلسفة الأمريكية البرغماتية تعبير عن الثقافة الأمريكية من وجهتين فهي أولاً تقوم بتدعيم بعض النواحي المحددة، وثانياً تقوم بنقد جوانب معينة أخرى منها وهذا يصدق على جميع البرغماتيين المؤسسين.¹ ومن خلال تحليلنا لهذا التعريف نجده يرتكز على الجانب الثقافي للبرغماتية.

ح- البرغماتية من الناحية السياسية :

ترتبط البرغماتية ارتباطا وثيقا بالممارسة والعملية، ونشف عن اقترانها بكلّ ما يتعلق بالأعمال اليومية المباشرة في العالم وأن يدعى المرء برغماتيا في الإستعمال العادي يعني الثناء عليه أو ذمه لفهم الوقائع السياسية، أو القيود الاجتماعية، وحين يثني على البرغماتيين فإنّه يعزي إليه انتباه واقعي لكلّ ما من شأنه أن يجعل الأشياء تتحقق، وحين يذم يقارن البرغماتيين بالشخص المبدئي الذي يغض الطرف عن وقائع العالم السياسية، ويتشبث بالتحديد بتلك الاعتبارات بالخير، والحقيقي التي لا يمكن

1 - تشارلز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص188.

التساهل فيها، أو المساومة عليها لمصلحة تحقيق غاية مرغوبة.¹ وهكذا فإنّ البرغماتي في الجانب السياسة إمّا أن يكون الشخص الذي يتمكن بفاعلية من سن القانون برغم اعتراضات زملائه، أو الشخص الذي يتخلّى عن المبادئ، والأسس في سياق ما يسمى العادة.

ويعود ارتباط البرغماتية بعالم الأعمال اليومية، والشؤون المدنية إلى العصور القديمة حيث كانت كلمة **pragmatikos** الإغريقية تعني "الضليع"، "النشيط في الشؤون العملية"، "المختص في العمل أو الفعل"، وتعني كلمة **pragmaticus** اللاتينية "الماهر في الأعمال ولا سيما القانون" على أنّ البرغماتية التقطت بمرور الزمن بعض المعاني الإيحائية الأقل ألفة فمنذ دخولها على اللغة الإنجليزية في القرن السادس عشر كان مصطلح "المرسوم البرغماتي" يدل في الاصطلاح الشائع على شكل من الأشكال الأمر الحكومي الذي يصدره الحاكم المستبد.² وكان المرسوم البرغماتي يزيح القانون بالمعنى الحرفي، ولاشك أنّ هذا ما يفسّر الإichاءات الثانوية للصفة "برغماتي" منذ القرن السادس عشر حتّى القرن التاسع عشر مثل "متآمر" و"فضولي" و"ديكتاتوري" عن هذا ليدلّ على أنّها برغماتية متباهية، وواحدة تريد أن تستبد على زوجها.³

وهي أيضا مدرسة أثرت تأثيرا كبيرا في الدراسات السياسية الأمريكية وهي تمثّل محاولة لتجنب الدراسات الفقهية، والشكلية، والنظامية التي تركز على العوامل الخارجية في الحياة السياسية، وهي تدعو للواقعية السياسية من خلال الربط بين

1 - طوني بينيت، لورانس غرو سبيرغ، ميغان موريس: مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ص143.

2 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسه.

3- المرجع نفسه ، ص144.

الأفكار النَّفعية، والنَّظريات الفلسفية.¹ معنى هذا أنَّ الفكرة هي وسيلة للعمل الناجح وأنَّ مصلحتها، وفائدتها، ومنفعتنا نتقرر باعتبار نتائجها.

خ- البرغماتية من الناحية المعرفية:

هي القول بأنَّ حقيقة القانون العلمي لا تكون إلَّا عند تطبيق هذا القانون في ظروف عملية، فالمعيار الوحيد للحقيقة هو فعاليتها ونجاحها، والفكرة الصحيحة هي الفكرة التي يكون لها أكثر فعالية، ونجاحا، وفائدة، إنَّ القانون الفيزيائي يكون صحيحا وصادقا إذا أمكن تطبيقه بصورة نافعة، والنَّظرية السياسية تكون صحيحة إذا وجدت ما يبررها عمليا، وتكون النَّظرية الفلسفية صحيحة إذا خلصتنا من الشك، وحققت لنا الرفاهية الفكرية، ولا تكون ديانة صحيحة إلَّا بقدر ما تهديء من روعنا وتطوّر من أخلاقنا.²

فالأداتية تذهب إلى أنَّ العمل يجب أن يكون بصيرا، وصادرا عن تدبر وأنَّ الفكر يجب أن يشغل منزلة رئيسية في الحياة، وهذا هو السرّ في إلحاح الأمريكان على غائية الفكر والمعرفة، وهي غائية يجب أن تتحقق على الأمور الخاصة لا على وجه مجرد.³

1 - إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي : معجم مصطلحات حقوق الإنسان، دار النشر، مصر، سنة 2002 م

ص 96، 97 .

2 - جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، سنة 2004 م
ص 207، 208.

3 - جون ديوي : نوابع الفكر الغربي ، ص 93.

د- البرغماتية من الناحية العلمية :

يقول أحد العلماء: "الإبداعات التكنولوجية تمر بثلاث مراحل مترابطة على شكل دائرة بحيث تقوّي كلّ مرحلة منها المرحلتين الأخيرتين، وهذه المراحل هي وجود الفكرة، وإمكان تطبيقها عملياً، وانتشار الفكرة، والتطبيق".¹

ولما كانت البرغماتية تدعو إلى الاعتقاد بفكرة وإخضاع هذه الفكرة إلى التجربة وما تقدمه هذه الفكرة من فائدة عملية، فالبرغماتية تكون دعوة إلى تطبيق علمي للأفكار الفلسفية المطروحة، وقد كان للآراء البرغماتية دور مهم وصلت إليه التكنولوجيا الأمريكية في يومنا هذا يفوق ما كانت عليه في بداية تكوينها عشرات المرات، حيث قطعت أمريكا في مجال التطور العلمي أشواطاً كبيرة، وبسرعة فائقة لم يعرف لها التاريخ مثيل في عصرنا الحالي.²

وقد كان الفلاسفة البرغماتيون أغلبهم ممن يشتغلون في مجال البحث العلمي، فنرى بيرس مثلاً كان يشتغل في الفيزياء، والكيمياء، والرياضيات عالماً محترفاً وجيمس يشتغل في مجال علم النفس، ونجد أن ديوي يتجه إلى العلوم اتجاهاً كاملاً، ويؤكد بيرس أن "طريقته هي طريقة العلم نفسها"³، والذي يجعل من فلسفة بيرس، وغيره من البرغماتيين فلسفة علمية ذلك أنّها "إذا ما نسبت إلى الكون حقيقة ما اعتمدت في ذلك على تأييد الوقائع التجريبية".⁴ فالفلسفة البرغماتية هي نمط من أنماط الفلسفة العلمية أي أنّها لا تقبل بأن تكون الفلسفة مبنية على شكل نسق مختوم مقفل لا يقبل الزيادة، ولا التعديل، ولا التجديد.

1 - علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2008م، ص 32.

2 - زكي نجيب محمود : من زاوية الفلسفة، ص 204.

3 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ولم يكن "بيرس" يتوقع النّجاح الكبير الذي سيلاقيه هذا المذهب الجديد الذي عبر عنه حيث ظل هذا المذهب زهاء عشرين عاماً مهملاً حتّى بعثه الفيلسوف الأميركي "وليم جيمس" من مرقدّه، وأخرجه إلى حيز الوجود.¹

ذ - البرغماتية من النّاحية الفكرية:

يشير إلى أنّ جوهر البرغماتية الفكرية يتلخص في العبارات التالية: الإنسان مكره على العيش في عالم لاعقلاني يتعذر فهمه، وأنّ كلّ محاولاتنا لإدراك الحقيقة الموضوعية ستبوء بالفشل، لذا يجب النّظر إلى مختلف النظريات العلمية، وإلى الأفكار الاجتماعية، والقيم الأخلاقية نظرة "أداتية" أي من وجهة نظرمنفعتها في تحقيق أهدافنا فما ينفع الناس، و يعود عليهم بالنّجاح هو الصحيح، وهو اليقين.²

فقيمة الفكرة بالنسبة للبرغماتية ليست في الصّور، والأشكال التي تثيرها، وليست في تطابقها مع حقائق الموجودات، وإنّما في الأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة وفي التغييرات التي تنتجها في الدّنيا المحيطة بنا.³

لعلّ أبرز العناصر المشتركة بين المفاهيم كلّها ما يلي:

- القول بالنسبية إنكار الحقائق المطلقة، والقيم الثابتة الغير المتغيرة حيث ترفض البرغماتية كل شكل من أشكال المطلق أو الثابت.

- البرغماتية ذات نزعة فردية ذاتية.

- المصطلح البرغماتي مفهوم مرتبط بالإدارة، والاقتصاد، والثقافة، والساسية.

1 - وليم جيمس: البرجماتية، ص 66.

2 - عدنان عويد: الفلسفة البرجماتية، بتاريخ الخميس 28 شباط 2013م.

<http://www.saotaliassar.org/Writer/AdnanUwaied/PragmatPhilo>

3 - يعقوب فام: البراجماتزم، ص 151.

- تعتبر الفلسفة البرغماتية التجربة هي مصدر المعرفة مع التأكيد على النتائج العملية لأي فكرة، فهي فلسفة عملية تعتمد على العمل، والتجربة في المقام الأول فالتجربة وما يترتب عليها من نتائج عملية نافعة هي المحك لقبول الأفكار أو ردها.

- أن تكون للفلسفة آثار عملية اجتماعية تحقق تطلعات المجتمع التي يتطلبها الواقع المتغير والتطور، ومن غير ذلك فلا قيمة، ولا نفع، ولا جدوى للفلسفة مهما كانت صحتها العقلية.

- تهدف الفلسفة البرغماتية إلى تغيير الوقائع تغييراً فكرياً، وعملياً بما يناسب التقدم العلمي، والصناعي، والتكنولوجي الذي تشهده الحياة.

- البرغماتية فلسفة تركز على المستقبل، وتقاطع الماضي بكل ما فيه من تأمل عقلي مجرد ميتافيزيقي.

- إنَّ التفاعل بين الفكر، والواقع الخارجي هو الذي يحقق النجاح والتفوق، وهو منطلق لكل فرضية أو فكرة برغماتية.

- الفكر ذريعة لخدمة الحياة القائمة على الانسجام بين الفرد ومحيطه، والفكرة الصائبة، والصحيحة في الفلسفة الذرائعية يكمن معناها في نتائجها العملية.

مما سبق نستطيع القول بأن البرغماتية من أكثر الكلمات التي تعرضت لسوء الفهم والتأويل لأن الألسن تناولتها دون تمحيص، وتفسير، وتدقيق في معناها، فقد نظر إليها على أنها مجرد مذهب فلسفي، وليست طريقة أو منهجاً في التفكير، وأياً كان الأمر فيمكن القول أن الفلسفة البرغماتية ليست فكراً مغلقاً فلسفياً لا يقر بالزيادة والتعديل، والإضافة، بل هي فكر منفتح يسعى إلى الاستفادة من الفلسفات السابقة له، وطورته في الوقت نفسه.

لقد ذكر علماء أصول الفقه قاعدة بحثية مفادها أن "الحكم على الشيء فرع عن تصوره".¹ وهي قاعدة مهمة قبل معالجة أي أمر يراد النظر فيه، والحكم له أو عليه وتزداد أهمية هذه القاعدة عند مناقشة الأفكار فبقدر وضوح الفكرة، وانكشاف معانيها يقترب الحكم من الصواب، وإننا إذا حكمنا على الفلسفة البرغماتية في إطار التيارات الفكرية المتضاربة التي تكتظ بها الحياة الأمريكية، فإننا نجد هذه الفلسفة العملية هي أكثر الفلسفات حيوية، وفعالية في ذلك المناخ الفكري الأمريكي، حيث مرت بمراحل تطور عديدة، ومختلفة، فنحن إذن أمام موقف يدفعنا إلى التساؤل عن كيفية تطور المفهوم البرغماتي عبر التاريخ؟

1 - محمد بن صالح العثيمين : الأصول من علم الأصول، دار ابن الجوزي الرياض، الجزء الأول، سنة 2005م ص 83.

تطور المفهوم البرغماتي عبر التاريخ:

قد يتبادر إلى أذهاننا مثلما هو متداول، ومنتشر في أذهان الكثيرين أنّ البرغماتية هي الفلسفة الأمريكية الوحيدة وكأنها هي الفلسفة الرسمية والأصيلة، رسمية بمعنى أنّها هي الفلسفة التي يتبناها الشعب الأمريكي، والدولة الأمريكية، وأصلية بمعنى أنّها الفلسفة التي نشأت، وترعرعت في بيئة أمريكية خالصة بعيدة عن العناصر الأجنبية ومن الصحيح القول أنّ أمريكا شهدت على خلوها من بعد قرن من الزمان من حكم المؤرّخ السياسي الفرنسي ألكسيس دوتوكفيل **Alexis de Tocqueville** 1805-1859 م ميلاد فلسفات، ومدارس فلسفية، وفي ظرف وجيز إليه ينتمي جيل بيرس وجيمس اللذان أدخلتا فلسفة اعترفت أوروبا نفسها بخصوصيتها الأمريكية "الفلسفة الأمريكية الأولى التي سميت البرغماتية".¹ وإذا كان هذا الأمر صحيحا فإنّ الحقيقة تبقى في حاجة إلى الكشف عنها، ومعرفة أصولها وفق معطيات تاريخية بدءا من الإقرار بنشأة البرغماتية التي لم تكن إلّا في نهاية القرن التاسع عشر على يد ساندروس بيرس من خلال مقالاته التي بدأت تظهر في 1878م، هنا وعند هذا التاريخ بالذات وقبله ينبغي البحث عمّا وجد من تيارات فكرية فلسفية قبل هذه الفترة أليس من المعقول الاعتراف بوجود للفلسفة البرغماتية؟ ألم يكن الدرس الفلسفي البرغماتي ممارسا تدريسا، وتأثيرا ببعض الجامعات، وتقليدا متبعا لبعض النزعات الفلسفية؟.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أنّ الدوائر التي لعبت دورا بارزا، وفعالا في نشأة الفلسفة البرغماتية يحصرها كثير من الذين كتبوا عن تاريخ الحركة البرغماتية في دائرتين اثنتين هما "النادي الميتافيزيقي"، و"مدرسة شيكاغو".

أ- النادي الميتافيزيقي: "metaphysical club":

قبل أن تكون البرغماتية مصطلحا فلسفيا لقد سعى بيرس، ومنذ صغره، وبمساعدة والده للسير في مجال البحث العلمي، ولقد كان جل تفكيره أن تصبح له مكانة خاصة

1 - John Rajchman : **La philosophie en Amérique, in, La pensée américaine contemporaine, sous la direction de John Rajchman et Cornel west**, traduction de l'américain par André Lyotard-May, PUF, 1re édition, 1991, p 31.

في الفكر الأمريكي، وربما كان هذا الدافع قد تولد عنده نتيجة شهرة والده آنذاك وقد كانت بدايته في طلب الشهرة هي محاولته أن يجد له مكانا كأستاذ في جامعة هارفارد إلا أنه لم يفلح في ذلك إلا لمدة قصيرة جدا، فما كان منه إلا أن يسعى إلى الشهرة والمجد العلمي من خلال طريق آخر وبمساعدة تشونسي رايت Chauncey Wright¹.

وبعد عشرين من تخرجه من جامعة هارفارد قام مع مجموعة من الشباب المتحمسين الذين يطمحون إلى أن يحتلوا مكانا في الفكر الحديث بتأسيس حلقة فكرية تولى قيادتها فيلسوفنا تشارلس بيرس، سميت هذه الحلقة "بالنادي الميتافيزيقي"، وقد كانت هذه الحلقة هي البذرة الأولى التي أثمرت ما يسمى الآن بـ "البرغماتية" وفي إحدى مذكراته يقول بيرس: "كان ذلك في أوائل السبعينات 1870م عندما اعتادت جماعة منا نحن الشباب في كامبرج العتيدة، دعونا أنفسنا على سبيل السخرية، وعلى سبيل التحدي "النادي الميتافيزيقي" لأن مذهب اللاأدرية² كان عندئذ في أوج رواجه وكان ينظر بازدراء شديد إلى كل الميتافيزيقيات، ولقد اعتادت الجماعة أن تلتقي أحيانا في غرفة مكتبتي، وأحيانا أخرى عند وليم جيمس، ولعل بعض حلفائنا القدامى في العصاة لن يحفلوا اليوم بأن يذاع على الملأ أننا كنا في شهوات الشباب على

1 - تشونسي رايت : أحد مفكري، ومتقفي أمريكا في نهاية القرن التاسع عشر، شارك في تأسيس النواة الأولى للبرغماتية، ومات قبل أن ترى البرغماتية النور تأثر به "بيرس"، وكذلك "جيمس". انظر علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندريس بيرس، ص22.

2 - اللاأدرية هو الاعتقاد بأن وجود الله، وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، وكلمة "اللاأدرية" تعني "بلا دراية أو علم" هناك بعض الاختلافات بين الإلحاد و اللاأدرية، فالإلحاد يدعي أن الله غير موجود ، بينما يدعي مذهب اللاأدرية بأنه لا يمكن إثبات وجود الله، ولكن في نفس الوقت لا توجد طريقة لإثبات عدم وجوده. انظر محمد الغزالي : عن التعصب "توثيق لتاريخ التعصب في الأديان السماوية والمجتمعات العربية"، دار دؤن للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 2014م، ص12.

الرغم من أن كلّ نصيبنا من شهوات الشباب لم يكن سوى الشوفان المسلوق، واللبن والسكر في كلّ ورطة على المائدة المشتركة.¹

ولقد كان نيكولاس سانت جرين **Nicholas St. Green** "1830-1876م" من أكثر الزملاء الأعضاء اهتماما وشغفا، وهو محام ماهر ضليع في مادته، واحد حواربي بنثام كانت قوته الخارقة في تجريد الحقيقة الحية من أثواب المصطلحات البالية هي ما لفتت إليه الأنظار في كل مكان، وكان يرى أهمية خاصة في تعريف باين² للاعتقاد بأنّه "هو الشيء الذي يصبح الإنسان على أساسه مستعداً للفعل **"العمل"**، وغالبا ما كان يحض على أهمية استعمال هذا التجديد، وهذا التجديد يرينا أنّ البرغماتية ليست إلا نتيجة له، ولذلك أميل إلى اعتبار **"باين الجد الأول للبرغماتية"**، وتشونسي رايت وهو شخصية ذائعة الصيت في تلك الفترة لم يكن ليغيب عن اجتماعاتنا أبداً، وكنت على وشك أن أسميه المايسترو "أي قائد الاوركسترا الفرقة".³ ويبدو من خلال حديث ساندريس بيرس السابق أن الفلسفة البرغماتية قد تم تأسيسها في النادي الميتافيزيقي كفكرة قبل أن تنتشر في مقال بيرس مصطلحا متداولاً له معناه.

من الواضح أن تشونسي رايت من أهم الأعضاء في هذا النادي، وله أثر كبير على بيرس، ووليام جيمس حيث كان صاحب مكانة مرموقة في دائرة أصدقائه في كامبرج وقد عده جيمس أستاذا ضليعا في ميدان التفكير العلمي، ويتقبل أرائه على اعتبار أنها حجة مبنية في الدعوة إلى الأهداف، والطرائق العلمية، وقد كان رايت من أشد

1 - رالف بارتون بيرري: آراء وشخصية وليم جيمس، ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية القاهرة سنة 1965م، ص77.

2 - ألكسندر باين Alexander Bain: ينحدر من أصل اسكتلندي شغل كرسي الأستاذية في المنطق في جامعة ايردين، ويرجع الفضل له في احتلال المدرسة التجريبية الانكليزية المكانة التي تستحقها في الأوساط الأكاديمية أهم مؤلفاته "الحواس والعقل"، و"الانفعالات والإرادة"، من مواليد 1818-1903م.

3 - بيرري، رالف بارتون: آراء وشخصية وليم جيمس، ص77.

المتشبهين بالفلسفة التجريبية، وربما كان هذا هو أحد الأسباب المهمة في إعجاب بيرس ووليام جيمس بهذا الرجل.¹

وتبرز النزعة الفردية في الفلسفة البرغماتية منذ التأسيس ابتداء من تسمية" النادي الميتافيزيقي، فالميتافيزيقاعندهم تعني" كلّ ما هو مستقل عن خبرة الإنسان، وهنا يجمعون في سلة واحدة بين عالم الغيب، والعالم الموضوعي المادي لأنه أيضا مستقل عن خبرة الإنسان أو له وجود مستقل²، ومن ثم يبقون فقط على عالم الشهادة بمعنى العالم المحصور داخل نطاق الخبرة الذاتية، وليس كلّ عالم الشهادة بل ما كان له ثمره، ونتيجة فعالة خاضعة للتجربة الفردية، فقط فالبرغماتية منذ قيامها وتأسيسها هي فردية النزعة.³

إلى جانب الدور الذي لعبه "النادي الميتافيزيقي" في نشأة الفلسفة البرغماتية فإنّ هناك مدرسة كان لها كذلك دور حاسما معتبرا في قيام هذه الفلسفة.

ب - مدرسة شيكاغو: "Chicago school":

هي المدرسة التي أسسها ديوي عندما ذهب إلى مدينة شيكاغو في منتصف عمره والتفت حوله جماعة من المفكرين شكلوا نواة الأدوات، فأثمرت جهودها في سنة 1903م كتابا في "رسالات في النظرية المنطقية"⁴، وكان من بين هذه الجماعات فلاسفة أمثال: جورج هيرت ميد George Herbert Mead⁵ جيمس الذي اشترك

1 - علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص23 .

2- شوقي جلال: العقل الأمريكي من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة 2000م، ص117.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 - محمد جديدي : فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجا، ص29 .

5 - جورج هيرت ميد : فيلسوف أمريكي، اهتم ميد بدراسة الرموز في الحياة الاجتماعية، ركز على أهمية اللغة ومعانيها، ودراساتها ، ومال ذلك من تأثيرات على أنماط التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد في جماعات صغيرة ومحددة في الغالب، من مواليد 1813- 1931 م .

معه في كتابه "الأخلاق" وكذلك **جيمس رولاند أنجل James Rowland Angell**¹ وغيرهم، وقد استرعت هذه الجماعة انتباه **وليام جيمس** الذي تطلع إلى تأسيس مدرسة فكرية من خلال البرغماتية، وذلك في رسالة بعث بها **تيودور فلورنوي Théodore Flournoy**² في سنة 1907م يقول فيها: "لم أكن أدري مدى فكرة قوة البرغماتية في تأسيس مدرسة فكرية، ولكنني الآن أتأجج حماسة لها باعتبارها قد زحزحت كل النظم العقلية كلها بلا استثناء."³

وقد رأى الفيلسوف **وليام جيمس** مشروعه يتحقق على يد ديوي وجماعته أي "مدرسة شيكاغو" لما مثلته هذه الجماعة من مدرسة حقيقية، وفكر حقيقي، وكتب جيمس يقول في سنة 1903م: "لقد برزت في جامعة شيكاغو خلال الستة أشهر الأخيرة ثمرة جهود عشرة سنوات من العمل تحت إشراف **جون ديوي**، والنتيجة مذهلة مدرسة حقيقية وفكر حقيقي هل سمعتم شيئاً عن هذه المدينة أو عن هذه الجامعة من قبل؟ هنا في هارفارد⁴ عندنا فكر، ولكن ليس لدينا مدرسة، أما في يال⁵ "yale" توجد مدرسة، ولكن لا يوجد فكر، أما في شيكاغو يوجد الاثنين"، هذه الجماعة التي نمت في مدرسة شيكاغو عرفت باسم الأدوات، أهدت كتاب "دارسات في النظرية المنطقية"

1- جيمس أنجل: من رواد حركة علم النفس الوظيفي في أمريكا، و من مواليد 1869- 1949م. انظر نبيل موسى : موسوعة مشاهير العالم ، أعلام علم النفس أعلام التربية، والطب النفسي، والتحليل النفسي، دار الصداقة العربية بيروت، لبنان، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، سنة 2002م، ص35.

2- تيودور فلورنوي : أستاذ جامعي سويسري، وكان من علماء النفس النابهيين، وهو الذي اقترح من بعد أن يكون **كلابريد** السكرتير العام للمؤتمر الدولي لعلم النفس، وكان رئيساً له 1909م، من مواليد 1853- 1920م.

3- نبيل موسى : موسوعة مشاهير العالم ، أعلام علم النفس أعلام التربية، والطب النفسي، والتحليل النفسي ص35.

4- هارفارد : هي أقدم، وأعرق الجامعات الأمريكية، وإحدى أقدم جامعات العالم وأفضلها، وأكبر جامعة في العالم من حيث المساحة والتجهيزات، والتقنيات، أسسها القس البروتستانتي جون هارفارد عام 1636م لتتأخر جامعتي كامبريدج وأوكسفورد في بريطانيا، تعد الجامعة أحد أصعب جامعات العالم في قبول الطلبة، حيث إن ترتيبها الخامس عالمياً من حيث صعوبة القبول.

5- يال : هي جامعة خاصة تقع في كنتيكت، تأسست عام 1701م، تعتبر ثالث أقدم معهد للتعليم العالي في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي إحدى أعضاء رابطة اللبلاب لأعرق، وأقدم جامعات أمريكا.

إلى جيمس فهو صاحب الفضل في هذا التوجه نحو المذهب البرغماتي من خلال كتابه "مبادئ علم النفس".¹

نستنتج بخصوص هاتين الجماعتين أي جماعة "النادي الميتافيزيقي"، وجماعة "مدرسة شيكاغو" دورهما الأساسي، والبارز، والواضح في نشأة البرغماتية كونهما شكلتا أهم مرحلة ميزت ظهور الفلسفة البرغماتية.

وأحسن ما نفعله الآن أن ندع ديوي يتحدث عن تطور المفهوم من الناحية التاريخية ومن الناحية الفلسفية حيث يقول:

أ- من الناحية التاريخية:

البرغماتية فلسفة تعبر عن مزاج العالم الجديد المعروف بأمريكا²، فهي فلسفة لا ترجع في تاريخها إلى أكثر قرن من الزمان، وهي ثمرة التفاعل بين الأفكار التي حملها المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا، وبين البيئة الجديدة التي نشأوا فيها فقد نزل المهاجرون في أرض واسعة يعتمدون على عقولهم في تذليل الصعاب التي يلقونها واستغلال جميع الإمكانيات الموجودة تحت أيديهم لتيسير لهم عيشة رغدة وقد هاجر هؤلاء القوم فرار من الاضطهاد الديني، أو السياسي في الأغلب فهم أصحاب مبادئ يدينون بالحرية، ولا يبغيون عنها حولا، ولا يرضون عنها بديلا.³

ولا ننسى أن الأمريكيان نالوا حريتهم من حرب الإستقلال، وكانوا أول من أيد الثورة الفرنسية، والتي كان شعارها "الحرية، والإخاء، والسلام، ودافع كل من توماس جفرسون Thomas Jefferso " 1743 - 1862م ورالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson " 1803 - 1882م عن الحرية، وكانت لهما نظرات صائبة، وأقوال خالدة في تمجيد الديمقراطية واستقلال الفرد هذه الروح لا

1 - محمد جديدي : فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجا، ص 29 .

2 - المقصود بأمريكا الولايات المتحدة الأمريكية .

3- أحمد فؤاد الأهواني : نوابع الفكر الغربي جون ديوي، ص 82، 83.

تؤمن بالجبر بل بأن ظروف الحياة يمكن تجسيدها بالتصميم على الأعمال التي سترشد بالعقل، والتي تعتقد أن التفكير مرتبط ارتباطاً ملازماً بالعمل.¹

وأن النظريات، والمذاهب إنما هي فروض للعمل تمتحن بما ينتج عنها في المواقف الفعلية للحياة، وأن المثل الأخلاقية فارغة عميقة إذا انفصلت عن وسائل تحقيقها وأن الحقيقة ليست ثابتة بل الحقيقة عملية جارية في تغيير مستمر، وأن الإنسان ليس العوبة في أيدي قوى خارجية، ولكنه يستطيع إعادة تشكيل الظروف التي تصوغ خبرته بعزمه وإرادته، وأن الناس في استطاعتهم تنمية نشاطهم، ومبادئهم التي تنظم سلوكهم، هذه الروح التي تمثل كل ذلك تعرف باسم البرغماتية، وهي اسم يطلق على الروح الأمريكية.²

وليس من السهل أن يبوح لنا تاريخ الفكر الفلسفي في أمريكا بما كان يعج في تلك البيئة من أفكار في القيم، والمعرفة، والأخلاق فقد تسربت التيارات المثالية إلى واقع الفكر الأمريكي بفعل النزعة البيوريتانية التي ميّزت المهاجرين الذين استوطنوا الجهة الشمالية الشرقية، وفي مقابل هذا التزاوج المثالي- البيوريتاني برز في مناطق وسط وجنوب الضفة الشرقية نشاط اقتصادي "صناعي وزراعي" رأسمالي واهتمام متزايد بالعلم الطبيعي، والتقني الذي عمل رواد، وصناع الأنوار الأمريكيين أمثال بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin³، توماس جيفرسون Benjamin Franklin⁴

1 - أحمد فؤاد الأهواني : نوايغ الفكر الغربي جون ديوي، ص 82، 83.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- بنجامين فرانكلين: واحد من أهم، وأبرز مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية، كان شخصية رئيسية ومهمة في التنوير، وتاريخ الفيزياء، حيث كان صاحب تجارب ونظريات واكتشافات متعلقة بالفيزياء، اخترع مانع الصواعق والنظارة ثنائية البؤرة وعداد المسافة وموقد فرانكلين، كما أنه هو أول من ابتكر كلمة **Electricity** التي تعني كهرباء بالعربية، كما أنه أول من درس الكهرباء علمياً من بعد طالس في حقبة الثورة الصناعية، كما أنه هو من أثبت أن البرق عبارة عن كهرباء عندما قام بتجربة خطيرة كادت أن تؤدي بحياته عرض فيها طائرة هوائية للصواعق فاجذبت نحوها فلما اندلعت بها الصاعقة احترقت من فورها ، من مواليد 1706- 1790م.

1- توماس جفرسون : أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، وثالث رئيس للولايات المتحدة كان متحدثاً باسم الديمقراطية، نادى بمبادئ الجمهورية، وحقوق الإنسان، والحرية، وكان له تأثير عالمي في مطلع الثورة الأمريكية، من مواليد 1743- 1826م.

وتوماس بين Thomas Paine¹ على نيو إنجلاند التي تقع في ركن صغير في الشمال الشرقي للبلاد، ومع العلم أنّ البيوريتانية والمثالية هما تياران نابعان من أصول مختلفة انعكس أثرهما في إمرسون، وتبدى في تعبير أمريكي متميز للفردية الرومانسية، ومن فرجينيا، ومن جاراتها الجنوبية وفد اعتقاد الأجداد المستنير في المثل العليا الجمهورية، والديمقراطية، وفي الفضائل العالمية، بينما في أقصى الجنوب أفضى نظام المزارع إلى الفلاحة الإقليمية، والاقتصاد المعتمد على كدح الأرقاء وبين هذين الإقليمين في المناطق الصناعية الوسطى والشرقية نجد موطن الرأسمالية والعلوم الطبيعية، والعلوم التطبيقية.²

يتبين لنا هنا أثر الفلسفات الوافدة إلى أمريكا، وتأثر رواد الفكر الأمريكيين بمختلف النظريات الفلسفية، والفكرية التي تسربت إلى العالم الجديد، هذا يعني أنّ الفلسفة البرغماتية الأمريكية كغيرها من الفلسفات الأخرى مرت بمراحل بدأت في نشأتها بالتلقي، والاستقبال، وانتقلت إلى المضمون، والمحتوى الذي يعطيها استقلالاً كلياً أو جزئياً، ثم انتقلت بعدها إلى مرحلة التطور، والتجديد التي تجلت فيها بصمات ومعال شخصيتها.

ب- من الناحية الفلسفية :

يرجع أصل البرغماتية إلى "تشارلز ساندرس بيرس" أحد المشاهير الرياضيين في الولايات المتحدة الأمريكية، اتسمت نشأته الفكرية بالطابع العلمي³، والطريقة

2- توماس بين : ثوري، ومنظر سياسي، ومفكر أمريكي من أبرز وأشهر فلاسفة عصر التنوير في الولايات المتحدة ومن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، ألف مطوية مؤثرة مشهورة تحرض على استقلال المستعمرات الأمريكية من مملكة بريطانيا وكتب أيضاً "عصر العلم"، كان لمؤلفه "الحس العام" سنة 1776م أثر كبير جداً في التعجيل بإعلان الاستقلال، لم يقتصر دفاعه عن الثوار في الولايات المتحدة فحسب، بل دافع أيضاً عن الثورة الفرنسية في كتابه "حقوق الإنسان" الذي انقسم إلى جزأين 1791-1792 م، الذي هاجم فيه الحكومة الإنجليزية مما أدى إلى محاكمته، فهرب إلى فرنسا سنة 1792م، وانضم إلى المؤتمر الوطني ولكنه لم يلبث أن سجن في باريس، وكاد يعدم بالمقصلة لا اعتراضه على إعدام الملك، ولم يفرج عنه إلا بواسطة السلطات الأمريكية، من مواليد 1737-1809م.

2 - هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص6.

3 - محمد جديدي : فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجاً، ص30.

البرغماتية التي أنشأها تنطبق على عالم من الفكر الضيق، والمحدود جداً، ولكن لماذا اختار بيرس كلمة **pragmatis** تحديداً؟ وللإجابة عن هذا السؤال تجدر الإشارة إلى طبيعة شخصية بيرس الذي يعد خبيراً من خبراء اللغة والمنطق، فلذلك أراد استخدام كلمات تعبر بدقة عن الفكرة التي يريد طرحها إنه يريد كلمة تدل على معنى الفعل، والعمل.¹

ومع اهتمامه بهذين الجانبين، إلا أنه يراعي جانباً آخر وهو عدم رغبته في أن يستخدم كلمة سهلة يمكن أن يكثر استخدامها في غير المعنى الذي كان تحت كلمة **pragmatism** من الكلمة **"practic"** راغباً في أن تبلغ هذه الكلمات من النّفور، والكراهية حدا يغري بعض المفكرين الفضفاضين بعدم استعمالها على حد تعبيره.²

ويبدو أن هذا أحد الأسباب التي جعلت البرغماتية ضعيفة الانتشار على يد مؤسسها بيرس لما امتاز به من إغراق في المنطق، وحرصه على أن يختار عباراته بدقة متناهية قد تجعل من يستمع إليه أو يقرأ له يمل ففي رسالة منه إلى وليام جيمس رد فيها على طلب **جيمس** حينما طلب منه تقليل مادته في المنطق والرياضيات عند تدريسه، وشرحه للأفكار فقال **بيرس**: "الطلاب الدارسون هم أبعد الناس عن عالم الرياضيات كأني إنسان آخر في نيويورك على أنني أحب التفكير على أن فلسفتي ليست فكرة طفحت، وفاضت بها نفسي، وإنما هي حدث جدي خطير المسالك والجزء الذي يرتبط بالمنطق الشكلي أوثق رباطاً، والذين لا يستطيعون التفكير بدقة وهو النوع الوحيد من التفكير، لا يستطيعون أن يفهموا فلسفتي أنني لا أفكر فإنه خير لجمهوري المستمعين أن يذهب إلى بيوته ويصلي صلاته الأخيرة استعداداً للقائي".³

1 - علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرغماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندريس بيرس، دار الكتب العلمية لبنان، سنة 2008م، ص158.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ويحمل النص السابق قدرا من اعتزاز، وافتخار بيرس بالمنطق وحرصه عليه، وهي سمة بارزة في شخصيته.

فقد تحدث عن نفسه وهو يخاطب **وليام جيمس** بقوله: " لكنّي كما تعرف المستر بيرس صاحب الشهرة، وذئوع الصيت بسبب منجزاتي العلمية العديدة، والمتنوعة، وفوق كلّ شيء بسبب تواضعي الشديد الذي يحدوني إلى تحدي العالم.¹ فيمكن ملاحظة شدة اعتزاز بيرس بنفسه، والتي قد تكون سببا آخر غير السبب المذكور سابقا في عدم انتشار البرغماتية على يد مؤسسها، ثم طورها بعد ذلك الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس وهو على النقيض من شخصية **بيرس** حيث نالت كتاباته اهتماما كبيرا في الأوساط الفلسفية ولعبت دورا ملحوظا في الفلسفة المعاصرة.²

لكن ما حصل من فهم مغاير لما أراده بيرس في الإقرار، والتأثير المباشر على السلوك، ومحاولة ربطه بالعمل في توضيح المعاني جعله يهجر كلمة البرغماتية واقترح عليه بعض أصدقائه تسمية مذهبه "**بالعملي**" غير أنه فضّل كلمة **برغماتيقية** وفي ظنه أنها كلمة سيكون لها من القبح ما يصرف عنها الخاطفين أي أولئك الذين استخدموا البرغماتية أشاعوها في الاتجاه الذي لم يردّه بيرس لها ومن بين هؤلاء **وليام جيمس**.³ فكيف كان تصوره، واستخدامه للفلسفة البرغماتية؟ وما هو خلافه مع بيرس حولها؟.

ويرجع الفضل إلى وليام جيمس في نشر هذا المذهب⁴، ولما كان جيمس قد خرج عما تصوره بيرس أساسا للبرغماتية فقد عرض بيرس هذا المذهب وقال: " إنه ليس فكرة أمريكية بحتة كما يعتقد بعض الناس ذلك أن اصطلاح برغماتيك قد نشأ في

1- علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرغماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندروس بيرس، ص158.

2 - محمد مهران رشوان : مدخل لدراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، سنة 1984م ص 41.

3 - محمد جديدي : فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجا، ص 31.

4- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق بيروت، سنة 2001م، ص122.

ذهن بيرس من دراسته لكانط في كتابه "ميتافيزيقا الأخلاق" بين "برغماتيك"، وبين "عملي"، "فالعَملي" عند كانط ينطبق على القوانين الأخلاقية التي يعدها أولية.¹

أما "البرغماتيك" فينطبق على قواعد الفن التي تعتمد على الخبرة وتقبل التجرب ولما كان بيرس تجريبياً فقد رفض أن يسمى مذهبه المذهب العملي هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه منطقي قبل كل شيء فقد كان يهتم فن التفكير الواقعي أو بوضع تعاريف كاملة، ومثمرة تتلائم مع روح الطريقة العلمية، ويقول بصدد الشخص التجريبي الذي تكون عقله في المعمل: "أي قضية تتقدم بها إليه، فإما أن يفهم منها أن شيئاً ما حين يوضع موضع يمكن دائماً إجراؤه بالفعل حيث يتولد عنه تجربة من نوع معين، وإما أنه لا يفهم لقولك أي معنى على الإطلاق".²

وهكذا أنشأ بيرس نظريته القائلة بأن الدلالة العقلية للفظ تقوم بوجه الإطلاق على أثرها في السلوك، ثم تطورت نظريته في مقالاته المشهورة "كيف نجعل أفكارنا واضحة" قال فيها إننا لا نعرف على وجه التحقيق ماهي الكهرباء في حد ذاتها أي أننا لانملك ماهية عقلية للكهرباء، وكلّ معرفتنا بها محصورة فيما تؤديه لنا الكهرباء أو ماتحققه من أغراض عملية، ومعنى هذا أنّ معنى الكهرباء يتحدّد بالنظر إلى آثاره العملية التي نلمسها في تجربتنا اليومية، فدقة هذا الجرس تعني أنّ المحاضرة قد بدأت، ولكن دقته الثانية تعني أنّ المحاضرة قد انتهت، وقد ترتب على الدقة الأولى سلوك معين هو دخول الطلبة، والأستاذ قاعة المحاضرات وترتب على الدقة الثانية سلوك آخر هو خروجهم، والدقة هي في الحالتين فالفكرة لها مجال فعل خاص بها، ومعناها يتحدّد من خلال هذا المجال، وبالنظر إلى النتائج العملية المترتبة عليها.³ وعلى هذا النحو يتغيّر معنى العقل، فالعقل ليس شيئاً مفروضاً على الخبرة الحسية، وليس ملكة منفصلة على الخبرة تفضي بنا إلى عالم سام من الحقائق الكلّية

1 - أحمد فؤاد الأهواني : نوايغ الفكر الغربي جون ديوي، ص 84.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة، سنة 1993م، ص 134.

ويقترن بها ليخلصنا من شوائبها، وتناقضاتها، ومن عبوديتنا لبعض العادات البالية والقديمة التي تعوق طريق تقدمنا.

وفي هذا الصدد يقول **جون ديوي**: "اتهامان خاطئان ينسبان إلى واضع البرغماتية الأول أنها تجعل العمل غاية الحياة، والثاني أنها تخضع الفكر، والنشاط العقلي لغايات خاصة من المصالح والنفع، ثم يجيب على هذا النقد أن النظرية عند بيرس تستلزم في أساسها علاقة معينة بالعمل، وبالسلوك الإنساني غير أن دور العمل متوسط فلكي يكون أحدا قادرا أن ينسب معنى لتصورات معينة فعليه أن يكون قادرا على تطبيقها في الوجود، وهذا التطبيق يكون عن طريق العمل، وتغير الوجود الذي ينشأ عن هذا التطبيق هو الذي يكون المعنى الصحيح للتصورات.¹

نستنتج هنا أن البرغماتية أبعد ما تكون من تمجيد العمل لذاته مما يعدونه السمة المميزة للحياة الأمريكية، وهكذا تعارض نظرية بيرس أي تحديد لمعنى التصورات بأداء غرض شخصي ذاتي كما تعارض فكرة إخضاع الفكر لخدمة أي نفع مادي بحت.

وواصل "جيمس" ما بدأه "بيرس" غير أن بيرس ضيق المنهج البرغماتي من وجه ووسعه من وجه آخر، وسعه بأن جعل تطبيقه على النتائج الخاصة في المستقبل وضيّقه من جهة تحديد المبدأ العام ذلك أن مقالات بيرس التي كتبها سنة 1878م لم تلق عناية الدوائر الفلسفية التي كانت خاضعة لتأثير المثالية الكانطية.²

وفي سنة 1898م بدأ جيمس الحركة البرغماتية في خطاب له بعنوان "التصورات الفلسفية والنتائج العملية" وأورد ملاحظة بيرس النفسانية من أن الاعتقادات هي قواعد للعمل وليست وظيفة للتفكير إلا خطوة واحدة في إنتاج عادات السلوك، وأن

1 - يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، ص85، 86.

2 - أحمد فؤاد الأهواني : نوابع الفكر الغربي جون ديوي، ص86، 87.

كلّ فكرة نكونها في أنفسنا عن شيء ما إنّما هي في الحقيقة فكرة عن الآثار المحتملة لهذا الشيء.¹

ثم قال جيمس موسعا ما ذكره بيرس: "الإمتحان النهائي عندنا لمعنى الحق هو ما يمليه أو يلهمه من سلوك، وإنّ معنى الفعل لأيّ قضية فلسفية يمكن أن يخضع دائما لنتيجة معيّنة في خبراتنا العملية المستقبلية."² يتبيّن لنا من خلال هذا الطرح أنّه يجب أن تكون عندي نتائج عملية، ومحسوسة، وفردية، وخاصة وفعّالة في مقابل المجرّدة والعامة، والسّاكنة.

لقد كان بيرس منطقيا قبل كلّ شيء، أمّا جيمس فكان مربيا، وإنسانيا فوظيفة الفلسفة في نظر جيمس أنها يجب أن تبحث عن التأثيرات البارزة التي نخضع لها أنا، وأنت في وقت معين من حياتنا إذا كانت إحدى النظريتين عن العالم صحيحة لكن ما الذي يشير إليه جيمس هنا بالضبط؟ إنّّه يشير إلى ثمرة الفلسفة لا إلى موضوعها ويستلزم هذا القول أنّ الصيغ التي نضعها عن العالم موجودة من قبل ولم يبق لنا النّظر سوى في النّتائج التي تنعكس على الحياة عند قبول هذه الصّيغة أو تلك، أمّا وجهة نظر بيرس بأن نضع معاني العالم في صيغ تتفق مع ميولنا ومع عاداتنا ويجب تحديد معاني المادة والله قبل محاولة فهم معتقاداتنا في هذين التصورين.³

ثم تقدّم جيمس بالبرغماتية خطوة جديدة بنظريته في "إرادة الاعتقاد"، أو "الحق في الاعتقاد" كما قال فيما بعد، فالكشف عن اعتقاد ما له أثر معين على الاعتقاد نفسه كأنّ جيمس قد أخذ في حسابه دوافع التّعاطف التي تلعب دورا عظيما وبالغ الأهمية في اختيارنا للمذهب الفلسفي أكثر مما أخذ في حسابه الاستدلالات الشكلية، وعلينا

1 - أحمد فؤاد الأهواني : نوابغ الفكر الغربي جون ديوي ، ص86، 87.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - أحمد فؤاد الأهواني : نوابغ الفكر الغربي جون ديوي ، ص88.

أن نخدم الفلسفة بالاعتراف بالدوافع التي تلهمنا، فمن حق المرء اختيار معتقداته لا عند نقص الأدلة فقط بل عند إنعدامها كذلك.¹

وهنا نصل إلى لب البرغماتية عند جيمس وهي طبيعة الحق، أما نزعتة الفلسفية البرغماتية تتلخص في عبارته المشهورة: "أن نستدبر الأشياء، والمباني والمقولات والضروريات المزعومة الأولى، وأن نستقبل الأشياء، والنتائج، والوقائع الأخيرة" فالبرغماتية إذن امتداد للتجريبية القديمة مع هذا الفارق وهو أننا نعتمد على الظواهر اللاحقة لا السابقة في إمكانيات العمل، والأفكار العامة في البرغماتية لها دور أكثر من مجرد تسجيل، أو تلخيص الخبرات السابقة إنها أساس تنظيم المستقبل فيما يختص بالملاحظة والتجارب، ولقد كان العقل في التجريبية القديمة يلخص الحالات العامة، أما في البرغماتية فللعقل وظيفة بناءة.²

نلاحظ هنا أن العقل له وظيفة خالقة بناءة، وإننا حين نكون الأفكار العامة ونضعها موضع العمل تخرج لنا نتائج ما كانت تنتج على نحو آخر، ولكان العالم مختلفا عما هو عليه لولا تدخل هذه الأفكار العامة. وهنا نبلغ اللون الجديد للبرغماتية التي تسمى بالأداتية فهي محاولة لوضع نظرية منطقية دقيقة عن التصورات، والأحكام في شتى صورها بالنظر قبل كل شيء إلى التفكير كيف يعمل في تحديد النتائج المستقبلية تحديدا تجريبيا.³ معنى هذا أن الأدوات تحاول وضع قواعد، وقوانين منطقية يعترف بها الجميع عن طريق استخلاصها من وظيفة العمل المبدع الجديد الذي تنتسب إليه.

وكان جون ديوي نفسه وشعبيته⁴ التي عاونته في عرض "الأداتية" من أتباع المدرسة بعد الكانطية كما كانت البداية عند ساندريس بيرس هي كانط، وعند جيمس التجريبية

1 - محمد جديدي : فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجا، ص 33.

2 - أحمد فؤاد الأهواني : نوابع الفكر الغربي جون ديوي، ص 88، 89.

3 - المرجع نفسه ، ص 91.

4 - يشير ديوي إلى الحركة التي نمت، وتطورت في شيكاغو بالإشتراك مع طومسون، وأشلي وجور وستيوارت، وكانت ثمرتها الكتاب الذي صدر سنة 1903م بعنوان "دراسات في النظرية المنطقية"، وقد أشار جيمس في محاضراته عن البرغماتية في سنة 1907م إلى هذه الجماعة وسماها مدرسة شيكاغو.

الإنجليزية، فالأداتية تجعل للتفكير، وظيفة وضعية وهي إعادة تكوين الحالة الراهنة للأشياء لا مجرد معرفتها أو اتخاذ نسخة منها، فالتفكير واسطة لاستجابات معقدة مع مؤثرات البيئة.¹

يتضح من خلال هذا العرض لتطور مفهوم البرغماتية عبر التاريخ أنّ الفكر الأمريكي استمرار للفكر الأوروبي، والثقافة الأوروبية في لغتها، وعاداتها، وقوانينها وأخلاقها وكذلك الحال في المذهب الأمريكي الفلسفي، ولم ينشأ من عدم بل كان تعديلا للفلسفات الأوروبية المستوردة بما يلائم الحياة في أمريكا يعكس الفكر البرغماتي الروح العملية للفكر الإنساني أولاً، والروح الأمريكية ثانياً ليتلاءم مع متطلبات المجتمع الجديد فهو فكر عمليّ نفعي بالدرجة الأولى لكونه يهتم بالعمل كقيمة، وهذا ما بدا واضحاً من خلال المعنى اللغوي للمصطلح، يطلق على المذاهب الفلسفية التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية على يد بيرس ووليام جيمس، وجون ديوي الدال على الروح العملية الأمريكية، وهذا ما عكسه المعنى الاصطلاحي للفكر البرغماتي، ولم تكن البرغماتية مختصة بمرحلة معينة فقط أو وليدة حقبة واضحة أو بيئة محددة كما كثر الحديث عن ذلك، إن البرغماتية كانت نتاج لعمل جماعيّ حيث أحاطت بنشأتها مؤثرات عديدة، ومختلفة، وهذا ما يعرف بجماعة "النادي الميتافيزيقي"، وجماعة "مدرسة شيكاغو" ودورهما الأساسي والفعال في نشأة البرغماتية كونهما شكلتا أهم مرحلة مميزة في تطور المفهوم عبر التاريخ وهناك أيضاً خلاصة أمينة لتاريخ البرغماتية كما عرضها ديوي نفسه لأنها تعكس وجهة نظره رغم دور طبيعة الحياة الأمريكية في بناء الفلسفة البرغماتية، إذ يتضح لنا أنّ الفلسفة البرغماتية قد رفضت الحقائق المطلقة المجردة، واعتبرت المعرفة أداة لحل الإشكاليات أو خطة للتغلب على الصعوبة، فإن نجحت المعرفة كانت حقاً وإن أخفقت كانت خطأ لذلك فإنّ نظرية المعرفة عند الفلاسفة البرغماتيين تتمثل في نفي إمكانية المعرفة النظرية المحضة، والمعرفة التأملية الميتافيزيقية، وإرجاع كلّ ما هو حقيقيّ إلى ما

1 - أحمد فؤاد الأهواني : نوابغ الفكر الغربي جون ديوي، ص 91، 92.

هو مفيد، ونافع، إلّا أنّ لكلّ فيلسوف برغماتي طريقته وأفكاره في تفسير الفلسفة البرغماتية، ومع أنّ الفلسفة البرغماتية اتّخذت مسارها التاريخي من خلال متابعة الفلاسفة الأمريكيين للتراث الفلسفي العالمي عبر التاريخ إلّا أنّ تطورها تميز بميزة أساسية هي شمولها لكلّ جوانب الحياة بما فيها السياسية والثقافية، والدينية وسوف نتناول في هذا الفصل ثلاث شخصيات رئيسية في الفلسفة البرغماتية وهم: شارل ساندرس بيرس، ووليام جيمس، وجون ديوي الذين شكّلوا أعمدة الفلسفة البرغماتية في الولايات المتحدة الأمريكية.

الفصل الثاني

رواد الفلسفة البرغماتية في الفكر الأمريكي.

1 - المبحث الأول: فلسفة تشارلز ساندرس بيرس البرغماتية.

- القضية البرغماتية عند بيرس
- نظريتا المعنى والاعتقاد وأهم مناهج تثبيت الاعتقاد عند بيرس
- نظرية المعرفة عند بيرس.
- المنهج البرغماتي عند بيرس.
- أثر إيمانويل كانط في برغماتية بيرس وسبب تغيير بيرس اسم البرغماتية إلى البرغماتيكية.

2 - المبحث الثاني: فلسفة وليام جيمس البرغماتية

- المراحل الرئيسة في تطوره الفكري.
- المنهج البرغماتي عند وليام جيمس.
- الحقيقة في فكر جيمس البرغماتي.
- فردانية التجربة الدينية في فكر جيمس البرغماتي.

3- المبحث الثالث: فلسفة جون ديوي البرغماتية.

- الأدوات عند جون ديوي.
- موقف ديوي من مجالات الفلسفة.
- نظرة ديوي للعالم والمعرفة والقيم.
- نظرية ديوي السياسية في الديمقراطية.

رواد الفلسفة البرغماتية في الفكر الأمريكي:

حدثت الكثير من التطورات العلمية، والفلسفية بعد كانط ، وقد تطورت الفلسفة بعده في اتجاهيها التقليديين الإتجاه المثالي الذي تأثر ممثليه كثيرا بفلسفة كانط المثالية النقدية، والاتجاه التجريبي الذي تأثر ممثليه كثيرا بالتطورات العلمية، وخاصة في العلوم الطبيعية، وعلوم الحياة فقد ظهرت نظرية التطور عند دروين في منتصف القرن التاسع عشر، وتمخض عنها ظهور فلسفات تطورية عديدة كما ظهرت نظريات فلسفية كثيرة كان أهمها نظريات الكم¹، والنظرية النسبية².

وقد أثرت هذه النظريات العلمية أبلغ تأثير على الفلسفات التي ظهرت في القرن التاسع عشر، والقرن العشرين حيث بدأ الفلاسفة أكثر تواضعا، وإيمانا بنسبية الحقيقة مثل العلماء كما بدأوا ينفرون من إقامة الأنساق الفلسفية الشاملة، فغدت فلسفاتهم تهتم بالمنهج أكثر من إهتمامها بوضع المذاهب الشاملة، ومن ثم فقد تركّز اهتمامهم في معالجة القضايا الجزئية العملية، وإن لم يفقدوا في معالجتهم لهذه القضايا نظرتهم الفلسفية العقلية الشاملة التي تتميز بسعة الأفق³.

ورغم كثرة التيارات الفلسفية المعاصرة، إلا أن البرغماتية لأسباب عديدة فهي الفلسفة التي عبّرت عن واقع المجتمع الأمريكي الجديد، وعن نجاح أفرادها في التكيف مع البيئة الجديدة التي انتقلوا إليها منذ اكتشاف أمريكا، ومحاولتهم مواجهة كل الظروف الطبيعية، والبيئية، وتحويلها إلى أدوات أدت إلى هذا التقدم الهائل الذي نشهده حتى الآن، كما أنها ومن خلال تأثر أعلامها بنظرية التطور التي سعت وسعى أتباعها باستمرار إلى التطور، والنظردائما إلى المستقبل، والبحث عن عوامل النجاح فيه ويتم

1- تعد نظرية الكوانتم من أهم النظريات العلمية المعاصرة التي قدمت لنا اكتشافات، واختراعات جديدة عن أسرار المادة، وقد أسهم في إقامتها عدد من عمالقة علماء الطبيعة المعاصرين، وكان رائدهم العالم الطبيعي الألماني "ماكس بلانك".

2 - مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى سنة 1998م، ص161.

3 - المرجع نفسه، ص161، 162.

ذلك من خلال نتائج هذه الفلسفة العملية والتجريبية، وهي من الفلسفات المهمة لأنها عبّرت عن واقع المجتمع الأمريكي، وعن مدى نجاح أفراده في التكيف مع الواقع الذي يعيشونه.¹

فالبرغماتية وجهت التفكير الفلسفي الحديث إلى جهة غير التي كان يسير فيها، فقد فتحت أمامه طريقاً مغلقاً لم يكن يدري وجوده قبل الآن، إذ أن هذا الطريق يقود إلى حقائق فلسفية، وعلمية مهمة كانت غائبة عن الفلاسفة في منعطفات الطرق القديمة التي ساروا عليها، هذه إذن بعض مميزات البرغماتية، فماذا عن أهم الرواد الذين أسسوها، وأوجدوا لها مكانة قيمة ضمن الفكر الحديث في التيارات المتباينة؟ وماهي الأفكار الأساسية لهؤلاء الرجال؟، وماهي أوجه الاتفاق والاختلاف في تناولهم للفلسفة البرغماتية؟.

1 - مصطفى النشار : مدخل جديد إلى الفلسفة، ص161، 162.

أولاً - فلسفة تشارلز ساندرس بيرس البرغماتية :

لا يختلف الفلاسفة، والدارسون حول أهمية، وقيمة شخصية تشارلز ساندرس بيرس الفلسفية حتّى وإن اختلفوا معه في تصوراته وأفكاره، كما يعترفون له بعمق الطّرح والقدرة على الحجاج الفلسفي، وإن دعا إلى خلاف ذلك، ويكثر الجدل حول أفكاره، وأراءه إلى حد معارضتها، وانتقاد جوانب غير هيّنة من فلسفته بنفس القدر الذي لا يتوانى فيه هو بإبداء مواقفه بكلّ جرأة، وحرية وعزيمة، ولعلّ هذا ما جعله يتميّز بين أقرانه من الفلاسفة، والمفكرين المعاصرين فكيف كانت مسيرته الفلسفية ياترى؟

أ - حياته الفلسفية:

ولد في مدينة كمبرج من ولاية ماسا شوستس، وهو الابن الثاني لبنجامين بيرس الذي كان في ذلك الوقت رائد أميركا في العلوم الرّياضية، والكثير من نشأته الأولى كان علميا فقد حصل على الماجستير في الرّياضيات عام 1861م، ولقد استمر بيرس في دراسة الفلسفة، والمنطق، والرّياضيات، والعلوم في وقت واحد، وفي عام 1862م حصل على درجة الماجستير في الآداب من جامعة هارفاردا كما حصل في العام التالي 1863م على درجة البكالوريوس في الكيمياء.¹

وكان بيرس قد تزوج مرتين أولها عام 1876م من هاريت، وتمّ الطلاق بينهما عام 1883م، ثم تزوج بعد ذلك بفترة وجيزة من فتاة فرنسية **جوليت فروازي**، وكان زواجا ناجحا دام حتّى وفاته، وممّا هو جدير بالذّكر أن ساندرس بيرس على الرغم من تعدّد اهتماماته، وإسهامه الكبير في مختلف ميادين البحث العلمي والفلسفي إلّا أنّه لم يحظ بعمل أكاديمي منتظم يتّفق مع أبحاثه، ولقد كانت أطول فترة ارتبط فيها بالبحث الأكاديمي هي تلك الفترة التي قضاها في جامعة جونز هويكنز.²

¹ - عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشارلز ساندرس بيرس، ص 145.

² - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

حيث حاضر في المنطق في الفترة بين عامي 1879-1884م، ولقد كتب وليام جيمس معلقاً على ذلك بقوله: إن بيرس لم يجد فرصة لالتحاق بالجامعة كأستاذ ومما يؤسف له أن لا يجد رجل كهذا على مثل هذه الدرجة من الأصالة، وهذا القدر من الاستعداد لكي يخصص كل جهوده بل وحياته من أجل المنطق والميتافيزيقا مكاناً له بين أساتذة الجامعة.¹

انطلاقاً من رؤيتنا الفلسفية المحضة يمكننا أن نتساءل: ماهو السبب الذي دفع بيرس بعدم الالتحاق بالجامعة كأستاذ؟ بالطبع كان ذلك راجعاً إلى عدّة عوامل منها: حدة طبعه وفي هذا الصدد يروي هنري جيمس شقيق وليام جيمس أثناء مقابلته إياه في باريس أنّه كان إنساناً طيباً دمث الخلق مالم يغضب، أو يضيق لأنّه في هذه الحالة يصبح إنساناً غير محتمل، والسبب الثاني هو طلاقه من زوجته الأولى، كانت من عائلة كبيرة ذات نفوذ في نيو انجلند.²

واتّجه إلى الفلسفة عن طريق قراءته فريدريش شيلر Friedrich von Schiller³ ثم سيطر عليه كانط فيما بعد ولقد اتّصل بيرس بمعظم زعماء الفكر الأمريكيين ومن بينهم جيمس، ورايت، وهولمز فأمضى معظم الشّطر الأخير من حياته في شبه اعتزال حتّى مات في عام 1914م⁴ بعد حياة دامت أكثر من خمسة وسبعين سنة مليئة بالمصاعب، والمشاق أمضى منها بيرس الخمس سنوات الأخيرة في عذاب شديد من آلام السرطان الذي توفي متأثراً به.⁵

1- عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص 145.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

3- فريدريش شيلر : هو شاعر، ومسرحي كلاسيكي، وفيلسوف، ومؤرخ ألماني، ويعتبر من الشخصيات الرئيسية المهمة في التاريخ الأدبي الألماني ، من مواليد 1759- 1805م .

4 - زكي نجيب محمود : الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل، عبد الرشيد الصادق، جلال العشري، دار القلم، بيروت لبنان، بدون تاريخ، ص138.

5 - عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص146.

ولقد عاش بيرس معاناة شديدة جعلت من حياته حياة مأساوية، عاشها فقيراً معوزاً وفي آخر أيامه أنهكه المرض فعاش على إحسان بعض أصدقائه من أبرزهم **وليم جيمس**، ومع كل هذا عاش حياته معتزاً بنفسه إلى درجة الغرور، ومن ذلك قوله عن نفسه في رسالته إلى **جيمس**: "لكنني كما تعرف المستر بيرس صاحب الشهرة وذيوع الصيت بسبب منجزاتي العلمية المتنوعة، والعديدة، وفوق كل شيء بسبب تواضعي الشديد الذي يحدوني إلى تحدي العالم".¹

ويمضي بيرس في الرواية عن نفسه أيضاً بقوله: "أنه عندما كان يدرس المدارس الفلسفية كلها، ويتتبع طرائق الفكر عند أصحابها كان ينظر إليها من وجهة الباحث العلمي في معمله يبحث عن الجديد الذي لم يعرف بعد، لامن وجهة نظر الفيلسوف اللاهوتي الذي يتناول مادته، وكأنها معصومة من الخطأ".² هذا يعني أنه كان يهتم بالإتجاه الفلسفي العلمي القريب من روح العلم، وهو الاتجاه التجريبي الحسي في الفلسفة.

يعتبر بيرس أول فيلسوف أمريكي خرج على العالم بفكر جديد يبلور فيه الحياة العقلية كما تمثلت في القارة الجديدة فهو الذي خلق الفلسفة البرغماتية خلقاً، ثم هو الذي بلغ بها غاية انتشارها، وكمالها حتى إذا ما جاء بعده التابعان الكبيران اللذان سارا على نهجه وهما **وليام جيمس**، و**جون ديوي** لم يسعهما إلا أن يتحركا في الإطار نفسه.³ فماذا عن حياته العلمية؟.

1 - علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرغماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس ، ص158.

2 - زكي نجيب محمود : نافذة على فلسفة العصر ، سلسلة فصييلة تصدرها مجلة العربي ، الكويت، سنة 1990م، ص168.

3 - المرجع نفسه، ص162.

ب- حياته العلمية:

يقول بيرس في مقال كتبه عن نفسه:

أنه منذ اللحظة الأولى التي استطعت فيها أن أفكر، وإلى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور ولي من العمر مايقارب أربعين عاما قد انصرفت إلى التفكير في مناهج البحث التي يصطنعها الباحثون فعلا، والتي يمكن أن يصطنعوها لو أرادوا لأنفسهم الكمال، أقول أنني قد انصرفت إلى التفكير في مناهج البحث انصرافا لم يفتر لحظة واحدة، وقبل أن أخذ نفسي بهذه الدراسة كنت قد أنفقت عشر سنوات من التدريب في معمل كيماوي فكنت على إلمام تام بكل ما كان معروفا عندئذ في الفيزياء، والكيمياء، بل كنت على إلمام تام بالطريقة التي ينتهجها أولئك العلماء الذين تقدمت المعرفة العلمية على أيديهم فحسرت انتباهي حصرا شديدا في المناهج التي تسير عليها أضبط العلوم، واتصلت أوثق اتصالا بطائفة جبابرة في عصرنا بالنسبة إلى علم الفيزياء.¹ نلاحظ هنا ميله الشديد للمنهج العلمي.

بل أنني أضفت إلى العلم إضافات جديدة، إن كنت لا أظنها ذات خطر كبير في الرياضة، وفي نظرية الجاذبية، وعلم البصريات، والكيمياء، والفلك وغيره، ولذا فإنني مشبع من قمة الرأس إلى أسفل القدم بروح العلوم الفيزيائية، وذلك فضلا عن الدراسة الواسعة التي تناولت بها المنطق فقرأت كل ماكتب في موضوعه، مما يعد ذا أهمية في هذا المجال، وانتهيت إلى إقامة مذاهب منطقية في منهج الاستنباط ومنهج الاستقراء على السواء.² يتبين لنا هنا تناوله لقضايا المنطق، والعلوم الفيزيائية.

هذا دليل واضح على عمق مسيرته العلمية حيث أثرت حياة بيرس الأسرية واهتمام والده بالرياضيات في شخصيته، ودفعه إلى الاهتمام بها أيضا حتى أصبح ممن

1- زكي نجيب محمود: نافذة على فلسفة العصر، ص 127، 128.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يشار إليه في مجالها، كما أنه كان ومنذ عمر مبكر صاحب اهتمام شديد بالمنطق والفلسفة.¹

وفي ما يتعلق بالرياضيات أيضا فقد اهتم بها بيرس كثيرا، و كان من الممكن أن يؤدي هذا الاهتمام ثمرته حتى أن سلفستر وهو من كبار الرياضيين في ذلك الوقت كان ينتبأ بأن بيرس سيفوق والده في هذا الصدد، علما بأن أباه كان واحدا من كبار علماء الرياضيات في الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت، إلا أن بيرس حول اهتمامه بالرياضيات إلى الفلسفة الرياضية، ومفاهيم البحث فيها وانتهى إلى منطقة الرياضيات، أي تحليل الرياضيات وردها إلى المنطق فهو مع بداية عام 1867م حاول تعريف الأعداد الطبيعية بواسطة الحدود المنطقية فنشر في ذلك العام بحثا " عن منطق الرياضيات" سبق فيها إلى تقديم بعض الأفكار التي تنبأها فيما بعد ألفرد نورث هويتهد²، ورسل في كتابهما "المبادئ الرياضية".³

كما أعاد بيرس مثل هذه المحاولة مرة أخرى عام 1881م، إلا أنه تبين بعد مرور سبع سنوات بناء على مذكره ديد يكند العالم الرياضي الألماني إنه على الرغم من أن الرياضيات يمكن إقامتها على أساس المنطق، إلا أنه لا يزال هناك فارق جوهري بين المبحثين.⁴

1 - زكي نجيب محمود: من زوايا فلسفية، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة 1993م، ص 203.

2- ألفرد نورث هويتهد : فيلسوف انجليزي مشهور درس في كامبردج حيث كرس نفسه للرياضيات، وعلم هندسة الميكانيكا، ومن عام 1914م إلى عام 1924م درس الرياضيات التطبيقية في الامبريال كوليج في لندن وأصبح أستاذاً للفلسفة في هارفرد حتى 1937م، من مؤلفاته : أسس الرياضيات "ثلاثة مجلدات" بالإشتراك مع رسل، ورسالة في الجبر العام 1903م، والمفاهيم الرياضية للعالم المادي 1905م، وأصول المعرفة الطبيعية 1919م، وفكرة الطبيعة 1920م، ومبدأ النسبية 1922م، ومغامرات الأفكار 1933م، وبديهيات الهندسة الوصفية، وأصول النسبية مع تطبيقات على علم الفيزياء، والعلم والعالم الحديث، والدين في طور التكوين والمذهب الرمزي واهداف التربية، والعملية والواقع، ووظيفة العقل، والطبيعة والحياة، وأنماط الفكر ومقالات في العلم والفلسفة، من مواليد 1861 - 1947م.

3- عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص 147.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وفي مجال المنطق فقد كان له دور فعال في تطوير المنطق المعاصر، وكانت أولى خطواته على درب المنطق الحديث هي رفضه لكثير من مفاهيم المنطق القديم التقليدي فرفض عام 1866م طريقة **كانط** في رد جميع أنواع التفكير الاستدلالي إلى القياس من الضرب الأول من الشكل الأول، كما بدأ في العام نفسه في تكوين فكرة عامة عن إقامة علم صوري لا يتكوّن إلا من رموز فقط، ولايقوم إلا على مجموعة من القوانين الخاصة بصدق الرموز، ولقد زاد اهتمام بيرس بالمنطق الحديث حين قام بتدريسه في جامعة هارفارد 1870م، ونشر في ذلك الوقت أول دراسة له عن النّقسيم الثلاثي للرموز في المنطق كما نشر أيضا عام 1870م بحثا بعنوان "**منطق العلاقات**" قدّم فيه عدّة مفاهيم تعتبر من أبرز المفاهيم الخاصة بالمنطق الرّمزي.¹ فهو يرغب في جعل الفلسفة علما، ويرى بأنّه يجب أن تحاكي الفلسفة العلوم من خلال جعل مقدماتها المنطقية، ومنهجياتها واضحة أكثر.² يتضح لنا هنا أنه يريد من الفلسفة أن لا تكون معزولة عن باقي العلوم الأخرى، بل تكون مشكلاتها، وقضاياها من جنس مشكلات العلوم الأخرى.

يمكننا القول أن ساندرس بيرس هو المؤسس، والرّائد الأول للبرغماتية، وأكثر قطب من أقطابها عمقا في مفهومها، ومعانيها، إلا أنّه أقل واحد فيهم شهرة، لكن رغم ذلك يبقى السؤال المطروح ماهي أهم أعماله، ومؤلفاته؟.

ج- أبرز أعماله ومؤلفاته:

أمّا عن كتاباته فلم ينشر لبيرس الكثير من الكتابات التي كتبها إلا بعد وفاته، قدّم ساندرس بيرس في النّادي بحثا أبستمولوجيا متفردا، نشر فيما بعد في مقالين الأول بعنوان "**تنشيت الاعتقاد**" الذي ظهر في العام 1878م، والثاني بعنوان "**كيف نوضح**

1- عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص147، ص 148.

2 - W. B, Gallie: **Peirce and Pragmatism**, 1 st edition, Great britian for penguin books, Edinburgh, 1952, p 40.

أفكارنا" الذي ظهر بعد سنة من ظهور المقال الأول، وهما المقالان الإستمولوجيان اللذان أعلنّا عن ظهور حركة فلسفية إستمولوجية جديدة "البرجماتزم".¹

إنّ اختيار بيرس للاصطلاح برجماتزم، لم يكن اختياراً عفويّاً، بل جاء انتخاباً مدروساً من الزاوية الأستمولوجية، وذلك من حيث أنّ كلمة برجماتزم جاءت جواباً أستمولوجياً على السؤال الأستمولوجي الذي رفعه بيرس بدايةً، فقد تساءل بيرس عن ما معنى الفكرة؟، وما معنى العبارة؟، ومتى يكون للفكرة معنا؟، ومتى تكون العبارة صادقة؟، ومتى يجوز لنا أن نتكلم عن العبارة بوصفها معبرة عن فكرة ما؟ ومتى لا يجوز؟.²

أما في مقاله التحليلي "تثبيت الاعتقاد" قام بتحليل عدة طرق يجب اتباعها لإيضاح الأفكار،³ كتب بيرس أنّه يتوجب على الفيلسوف الحقّ اتّباع المنهج التجريبي العلمي، وعندما تأمل عمل الفلسفة، واللغة التي يجب على الفيلسوف استخدامها أخذ بتجريبية العالم، واستخدام لغته بوصفهما المثال الذي يجب أن يحتذى به، وعبر عن الإتجاه التجريبي باستخدام المعنى بهذه الطريقة فقال: "أما بالنسبة للعالم التجريبي الحقّ فإنّك مهما أظهرت له من تأكيد فإنّه سيفهم ماتقوله من معنى إذا كان الوصف المعطى له نابعا عن التجربة".⁴ لذا فالإنسان باستطاعته أن يحدّد بدقة كلّ الظواهر التجريبية الحسية التي يمكن رصدها واقعياً وهي التي سوف تكون خاضعة للتثبيت، وبعيدة عن النفي.

1 - محمد جلوب الفرحان : الخطاب الفلسفي التربوي الغربي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، سنة 1999م، ص 147، 148.

2 - Peirce. C.S : **How to make our Ideas Clear, Collected Papers of Charles Sanders Peirce** , Harvard University press, 1959, p33.

3- حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1991م، ص 139.

4 - تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة إبراهيم مصطفى إبراهيم ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، سنة 1996م، ص 35.

ولقد أخذ ساندريس بيرس في اعتباره أربعة مناهج لتثبيت الاعتقاد، ففي **منهج العناد** يحاول الإنسان ببساطة أن يثير الشك بجهد غامض لإعادة الثبات، وبهذا يداوم على الاعتقاد بلا انقطاع، وقد بدأ الإنسان من قبل بالشك¹، وفي **منهج السلطة** يبحث الإنسان عن إثارة حالة من الشك عن طريق اخضاع معتقداته إلى إحدى السلطات المقبولة، وفي **المنهج القبلي** يقبل الإنسان بعد البرهنة على تلك الاعتقادات التي يجدها أكثر ملاءمة، فالإنسان يعتقد فيما هو متعلق بالفكر ويذكر بيرس أن معظم الفلاسفة انتهجوا المنهج القبلي، ويعطينا مثالا على ذلك بالفيلسوف رونييه ديكارت² أما المنهج الرابع، والذي يقبله بيرس ذاته، وسخره في مجال الفلسفة وهو **منهج العلم**، ولم يحاول في مقاله تثبيت الاعتقاد أن يصف المنهج العلمي بشيء من التفصيل، فإن ذلك تم في مقالات آخر.³

لقد كتب بيرس في مضمار الإبستمولوجيا العملية مقالیه السابقي الذكر اللذين حملا الإعلان الإبستمولوجي للبرغماتية، ولكن والحق يقال إن تشالز ساندريس بيرس نشر مقالا إبستمولوجيا في غاية الأهمية، قبل هذين المقالين، وبالتحديد في العام 1868م وكان بعنوان "أسئلة متعلقة بملكات الإنسان"، وهو في تقديرنا المقال الإبستمولوجي المفتاح لعمل بيرس عامة والإبستمولوجيا البرغماتية خاصة ومن ثم تلاه في السنة

1- تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص70.

2- رونييه ديكارت: فيلسوف، وعالم رياضي، وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ"أبو الفلسفة الحديثة"، وكثير من الأطروحات، والدراسات لفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم خصوصا كتاب "تأملات في الفلسفة الأولى" سنة 1641م الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة، كما أن لديكارت تأثير واضح في علم الرياضيات، فقد اخترع نظاما رياضيا سمي بإسمه وهو نظام الإحداثيات الديكارتية الذي شكل النواة الأولى "للهندسة التحليلية"، فكان بذلك من الشخصيات الرئيسية في تاريخ الثورة العلمية، من مواليد 1596-1650م.

3- تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص70.

ذاتها صدور مقاله الرافض للإبستمولوجيا الديكارتية، والذي كان بعنوان "بعض نتائج العجز"، والذي جادل فيه طبيعة أن العلم حقيقي.¹

لقد تعددت اهتمامات بيرس، واتسعت حتى شملت الرياضيات، والمنطق، ومناهج البحث في العلوم، والفلسفة، والعلم الطبيعي التجريبي، وفيما يتعلق بالعلم الطبيعي فإن اهتمامه به يتضح من دراسته الأولى، كما يتضح من العمل الذي اشتغل به فيما بين عامي 1869-1872م مساعدا فلكيا في مرصد جامعة هارفارد، ولقد استمر ساندريس بيرس في دراسته منذ ذلك الوقت، وحتى سنة 1875م، وما بعدها في هذا الميدان، وقام بعدة أبحاث فلكية ضمنها كتابه: "أبحاث في القياس الضوئي" عام 1878م وهو الكتاب الوحيد الذي أكمله بيرس، واستطاع أن ينشره أثناء حياته.²

كما يتضح اهتمامه بالعلوم من خلال الأبحاث التي قام بها أثناء سفره عام 1875م إلى أوروبا عن حركة البندول، والجاذبية الأرضية، كما اشتغل بدراسة المقاييس المتعلقة بالأوزان، هذا فضلا على أن بيرس كان أول من قال أن طول موجة شعاع الضوء على أنها وحدة قياسية، وهو بهذا كان قد سبق الفيزيائي الأمريكي إلبرت مايكلسون **Albert Michelson** 1852-1931م إلى القول باستخدام الموجة الضوئية وحدة في القياس وقد ترتب على اهتمام بيرس بالعلم اهتمامه كذلك بمنهج البحث في العلوم، وهو أمر صاحب بيرس في الجزء الأكبر من رحلة حياته شأنه شأن اهتمامه بموضوع آخر متعلق به هو المنطق.³

ومما هو جدير بالذكر أن منهج البحث في العلوم الطبيعية قائم عند بيرس على أساس الإستقراء الذي يبدأ من الواقع الخارجي منتهيا إلى القانون أو النظرية، وهو

1 -Peirce, C.S : **Writings of Charles S. Peirce**, a Chronological Edition , IndianaUniversity Volume 8, 1890-1892, p36.

2- عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندريس بيرس، ص146.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

يمثل جزءا هاما من أجزاء نظريته المتعلقة "بالبرهان" التي كان بيرس قد وضعها من حوالي 1863م تخطيطا لها.¹

كما حاول إقامة رابطة متينة تربط بين منطق الفئات ومنطق القضايا، وبدأ بحثه العام في جبر المنطق القائم على منطق جورج بول George Boole² منذ عام 1883م، وقد نشر بيرس أثناء الفترة التي قضاها بجامعة جونز هو بكنز محاضرا في المنطق الكتاب التالي: "دراسات في علم المنطق"³ فقد كان هو الناشر، والمؤلف لفصول بنفسه في حين كتب طلبته فصولا أخرى، وترك مخطوطات لم تنشر تجاوزت صفحاتها "100000" صفحة ماعدا ما نشره هوسر تحت عنوان "أوراق بيرس".⁴

وكان أخر عمل منظم قام به في مجال المنطق هو كتابة المقالات الخاصة بالمنطق في قاموس بلدوين الذي نشر بعنوان "قاموس الفلسفة وعلم النفس" في فترة ما بين عامي 1901م-1905م هذا ولقد تمّ تجميع أبحاث، ومقالات بيرس المنطقية الهامة في المجلدين الثاني، والثالث من المجلدات الستة التي شملت أهم ماتمّ نشره من أبحاثه، وذلك بعنوان "مجموعة الأبحاث"⁵، ولقد نشرت المجلدات الست لهذه الأبحاث بالأسماء التالية، وهي من وضع الناشرين، وليس من وضع الفيلسوف ساندرس بيرس: المجلد الأول المتمثل في "مباحث الفلسفة" عام 1931م، والمجلد الثاني "عناصر المنطق" عام 1932م، والمجلد الثالث "المنطق الصحيح" عام 1933م، والمجلد الرابع هو "أبسط الرياضيات" عام 1934م، والمجلد الخامس المتمثل في "البرجماتية

1- عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص 146.

2- جورج بول : عالم رياضيات بريطاني ابتكر، واخترع نوعا من الجبر يتيح التعامل مع الأرقام، والحروف والأشياء والعبارات، والفرضيات كما لو كانت أرقاما بحثة، وقدم للبشرية الجبر المنطقي المستخدم في الحواسيب، من مواليد 1815- 1864م .

3- عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص 8 14 .

4- Houser, NathanM : **The Fortunes and Misfortunes of the Peirce Papers ... of the International Association for Semiotic Studies in Perpignan, France, in 1989**,p35.

5 - عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص 149.

والبرجماتيقية" عام 1934م، المجلد السادس "الميتافيزيقا العلمية" عام 1935م. وقد أعيد نشر بعض هذه الأبحاث في كتب منفصلة فنشر منها: تشلر 27 بحثاً عام 1940م بعنوان "فلسفة بيرس".¹

كما نشر كذلك موريس كوهين بعضها بعنوان "الصدفة والحب والمنطق"، ونشر توماس بعضها بعنوان "مقالات في فلسفة العلم"، كما نشر فينر أيضاً عدداً من أبحاث بيرس بعنوان "القيم في عالم الصدفة" مختارات من كتابات بيرس بين عامي 1839 - 1914م، ولقد ظهر مجلّدان آخران بعد ذلك عام 1958م يحتويان على بعض الأبحاث التي لم يسبق نشرها في الست مجلدات السابقة هما المجلّدان السابع والثامن، ومما هو جدير بالذكر هو أنّه كان أثناء تناوله بعض موضوعات المنطق يفرد لدراستها بحثاً خاصة، وهي التي نجد أهمها في المجلدين الثاني، والثالث من مجموعة أبحاثه، إلّا أنّه كان يعرض لكثير من الموضوعات المنطقية في أغلب أبحاثه الأخرى التي لم يخصصها للمنطق.²

ونجد أيضاً "المنطق الصحيح" وهو المجلد الثالث من مجموعة أبحاث بيرس نشر عام 1933م في 416 صفحة من القطع الكبير مع تمهيد قصير وعدة ملاحظات في صفحات قليلة للنّاشرين، ومن الطّبيعي ألا يكون اسم هذا المجلد من وضع بيرس، إذ أنه نشر بعد وفاته بل هو من وضع من قاموا على نشر هذه الأبحاث وذلك لكي يقابلوا بين الموضوعات التي تدرسها هذه الأبحاث، وبين موضوعات الأبحاث الأخرى لبيرس في المنطق جمعها النّاشران في المجلد الثاني بعنوان "عناصر المنطق" وفيها كان بيرس يمهد لمنطقه الجديد، يحتوى هذا المجلد الخاص "بالمنطق الصحيح" على عشرين بحثاً منها ما هو قائم على الدّراسة، ومنها مايكتفي فيه بيرس بالملاحظة كما هو الحال في البحثين رقم 3 ورقم 9، أوبالنقد كما في البحث رقم 17.

1 - عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص 149.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وفيما يلي بيان مفصل للموضوعات، والدّراسات الواردة في الكتاب:

البحث رقم 1: "عن تطوير الحساب التّحليلي للمنطق عند بول" عام 1876م

البحث رقم 2: "عن منطق الرّياضيات 1876م"، وقد قام به بيرس بتحليل علم الحساب كما تناول فيه الحساب التّحليلي عند بول.

البحث رقم 3: "وصف لعلامة الرّمز الخاصة بمنطق العلامات عام 1870م، وفيه تناول بيرس علامة الرّمز عند دي مورجن مقارنا إياه بالعلامات الجبرية، وقد اقتضاه هذا محاولة تعريف الرّموز الجبرية، وقد قام بيرس في هذا البحث كذلك بمحاولة تطبيق علامات الجبر واستخدامها في المنطق.¹

البحث رقم 4: "عن تطبيق التّحليل المنطقي بالنّسبة للجبر متعدّد القيم" عام 1875م

البحث رقم 5: "ملحوظة على الحساب التّحليلي عند جراسمان" عام 1877م.

البحث رقم 6: "عن جبر المنطق" عام 1880م وينقسم إلى ثلاثة أجزاء، الجزء الأول منه تكلم فيه ساندرس بيرس عن طريقة جبر الرّابطة القياسية في المنطق وعن صور القضايا التي تربط بين حدود القضية، والجزء الثاني منه تناول فيه بيرس الحدود الغيرالعلاقية موضحا بذلك إجراء الضرب الداخلي، وإجراء الجمع في المنطق وكذا كيفية حل المشكلات في المنطق الغير العلاقي، أمّا الجزء الثالث من البحث فقد خصّصه بيرس لمنطق العلاقات فتناول فيه العلاقات من حيث تصنيفها وتركيبها والمفاهيم التي يجب أن تتّبع أثناء إقامة جبر العلاقات منتهيا إلى الصياغة الصّدرية العامة للعلاقات.

1 - عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص101، 149.

البحث رقم 7: "عن منطق العدد" عام 1881م وفيه يقوم **ساندرس بيرس** بتعريف الكم أو المقدار مفرقا بين الكم البسيط والكم المنفصل المتميّز، كما تناول فيه الكم الشبيه باللامتناهي، وكذا الكم المنفصل البسيط اللامتناهي في كلا اتجاهيه، والكم المنفصل البسيط المحدود.

البحث رقم 8: "عن أنواع الجبر" عام 1881م، وفيه يتكلم **شالزساندرس بيرس** عن الصور، والأشكال النسبية للجبر، وعن أنواع الجبر التي يكون التقسيم فيها غامضا غير واضح.

البحث رقم 9: "وصف موجز لجبر العلاقات" عام 1882م.

البحث رقم 10: "عن الصورالعلاقية للرباعيات" عام 1882م.

البحث رقم 11: "عن الفئة الخاصة بأنواع الجبر" عام 1882م.

البحث رقم 12: "منطق العلاقات" عام 1883م.

البحث رقم 13: "عن جبر المنطق" عام 1885م محاولة لإيجاد فلسفة لعلامة الرّمز وفيه تكلم **بيرس** أساسا عن العلامات، وأنواعها، ويحدّد لها ثلاثة أنواع.

البحث رقم 14: "عن نقد البراهين" عام 1892م، وفيه تكلم **بيرس** عن التفكير الصّحيح القويم، وعن البراهين التي يعتمد عليها في التوصل إلى نتائج صحيحة.

البحث رقم 15: "المنطق المتجدّد" عام 1896م.

البحث رقم 16: "منطق العلاقات" عام 1897م، وتكلم فيه **بيرس** عن مستويات الوضوح المنطقي، وعن العلاقات في كلّ مستوى من مستويات الوضوح، كما تناول جبر العلاقات الثنائية من حيث علاقة الجبر العام للمنطق.¹

1- عزمي إسلام : المنطق الصحيح تشالز ساندريس بيرس، ص 102.

البحث رقم 17: "منطق الرياضيات وعلاقته بالتربية" عام 1898م.

البحث رقم 18: "عن الكميات اللامتناهية في الصغر" عام 1900م.

البحث رقم 19: "تسمية العلاقات الثنائية وأقسامها" عام 1903م، وقد ذكر فيه بيرس أربعة أنساق للتقسيم.

البحث رقم 20: "ملاحظات على المنطق الرمزي والرياضيات" عام 1901م-1911م.¹

من العرض السابق نلاحظ أنّ الموضوع الأساسي، والمهم لذي تكاد تدور حوله أبحاث بيرس في هذا المجلّد هو جبر المنطق، ومايتعلّق منه بالعلاقات الخاصة ولكي يتّضح جبر العلاقات، ومنطقها عند بيرس فإنّه من الصّوري بيان هذه الفكرة من نظريته العامة في المنطق.

يعتبر ساندرس بيرس من أهم رواد الفلسفة المعاصرة فهو على الرغم من أهميته البالغة في تاريخ الفكر الفلسفي والمنطقي المعاصر لا يكاد يرد ذكره في كثير من كتب الفلسفة المعاصرة أو المنطق المعاصر، إلّا على سبيل الإشارة دون التّوقف عند أفكاره لفحصها على النّحو الذي يتمّ إزاء الكثير من الفلاسفة والمناطق المعاصرين الذين قد يكون دورهم دون الدور الذي قام به في تطوير الفكر المنطقي المعاصر ولعلّ مرجع ذلك إلى أحد الأمرين أم إلى كليهما عمق الفكرة المنطقية التي يتناولها وصعوبة الأسلوب الذي يستخدمه في التعبير عن أفكاره.²

فلم تكن برغماتية بيرس برغماتية نفعية فردية، وإنّما كانت ذات بعد جماعي، ولم تجعل من العمل غاية في حد ذاته، وإنّما وسيلة للوصول إلى غاية معينة، ولكن إذا

1 - عزمي إسلام: المنطق الصحيح تشالز ساندرس بيرس، ص 103، 102.

2- أنطونيوس نادر: منطق الغموض، وحدوده في النظرية البرغماتية، والدلالة "تشارل ساندرز بيرس أنموذجاً"، بتاريخ 25 أغسطس، سنة 2019م. <https://mana.net/archives/2180>.

أردنا الكثير من التفصيل، والتفسير، والتحليل الفلسفي الإبيستيمولوجي فيما يخص فلسفته فإمكاننا أن نتطرق إلى موضوع القضية البرغماتية عند بيرس.

1- القضية البرغماتية عند بيرس:

لقد كان بيرس تجريبيا مشبعا بعقلية المعمل لهذا رفض تسمية مذهبه بالمذهب العلمي، وكان رجل منطق فاهتم بفن التفكير الحقيقي، وطرائقه، وخاصة الطريقة البرغماتية في فن المدركات العقلية أو ابتكار تعريفات وافية، وكافية، وفعالة طبقا لروح الطريقة العلمية.¹ يتضح لنا هنا أن بيرس كان يسعى إلى البحث عن مفاهيم كافية ومقنعة تتطابق مع الطريقة العلمية، والتفكير الصحيح للفلسفة البرغماتية.

ويقول بيرس أيضا: "أن كثيرا من الناس كانوا يعتزّون بأفكار غامضة، ويجعلونها بمثابة هوايتهم الوحيدة، وهي في حقيقتها أفكار خالية من المعنى، لدرجة أنها يستحيل حتى أن تكون كاذبة فكلّ منهم كان يحبها حبا جما، ويجعلها رفيقته ليلا ونهارا، ويعطيها كلّ قوته، وحياته وباختصار فهو كان يعيش معها، ومن أجلها حتى أصبحت جزءا من كيانه، وإذا به يجدها ذات صباح مشرق قد ذهبت، أو اختفت تماما، فتذوي حياته معها بذهابها، وهكذا قد يتعصب الناس لمعتقداتهم ويصعب عليهم أن يتخلوا عنها حتى لو اكتشفوا أنها لم تكن صحيحة أوحين تصبح موضع شكهم.² المقصود من قول بيرس هنا أن ليس كل تعصب، وتمسك بفكرة من الأفكار والعقائد الدينية المختلفة يعني هذا أن معنى الفكرة عند صاحبها صحيحة، وحقيقية يمكن أن تكون في جوهره خالية من أي معنى.

لقد تأثر الفكر الأمريكي بالمذهب التجريبي الإنجليزي ونهل منه، غير أنه قد تخرج من جامعة هارفارد فلاسفة نقديون، وعلماء كبار، الذي أدرك ما في المنهج

1 - جون ديوي : نمو الفلسفة البرجماتية الأمريكية، في " فلسفة القرن العشرين " نشرها داجوبرت درونز ترجمة عثمان نويه، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1963م، ص 232.

2 - ماجد محمد حسن : الفلسفة البرجماتية، العدد 816 بتاريخ، 26-4-2004م .
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=174>

التجريبي التقليدي من نقص، وأخذ على نفسه تصحيح تلك العيوب فعمل بالمنطق حيث تعامل مع منطق أرسطو بأخذ معظمه، ورفض الجزء الأكبر منه وكذلك منطق جون استورت مل¹، أمّا المنطق المثالي الألماني "منطق إيمانويل كانط، هيغل².." فلم يعتبر به لعدم نجاعته، ثم لإهماله التجربة، وتقليص الهوة بين مباديء العقل الخالص، والوقائع الطبيعية.³ كل هذا دفع بيرس إلى وضع منهج يوضح الأفكار ويجد حلاً مناسباً للمعضلات الفلسفية التي كانت مطروحة، يعتمد فيه على التجربة الحسية، وهدفه تحقيق أسس فكرية فلسفية تضمن له البقاء.

لقد دمج بيرس متأثراً بدراسته هذا الموقف في القضية البرغماتية، وهذا ما ذكره بعدة طرق، وهاهي ثلاث صيغ وضعها لها:

*الصيغة الأولى:

فكر في التأثيرات التي يمكن تصوّرها، ولها معاني عملية نستطيع عن طريقها أن نفهم موضوع تصوّرها، فتصورنا عن هذه التأثيرات هو كلّ تصورنا عن الموضوع.

*الصيغة الثانية:

لكي يمكن التحقق من معنى التّصورالذهني في التجربة، فيجب على الإنسان أن يتأمّل النتائج العملية التي تنتج بالضرورة عن صدق ذلك التّصور، ومن مجموع هذه التّائج نحصل على المعنى الكلي للتّصور.

*الصيغة الثالثة:

1 - جون ستيوارت ميل : هو فيلسوف، واقتصادي بريطاني، ذو منطق استقرائي، وفلسفة تجريبية، وهو من أبرز، وأشهر دعاة مذهب المنفعة، من مواليد 1806 - 1873م.

2 - هيغل : فيلسوف ألماني تأثر كثيراً بأعمال سبينوزا، وكانط ، وروسو ، والثورة الفرنسية، من مواليد 1770م-1831م.

3 - محمود فهمي زيدان: **وليم جيمس**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة 2005م، ص 34، 35.

إذا استطاع إنسان ما أن يحدّد بدقة كلّ الظواهر التجريبية التي يمكن تصوّرها والتي يتضمنها تثبيت، أو نفي تصوّر ما فإنّه سيتوفّر لديه تحديد كامل للتصوّر ولا يوجد مطلقاً أيّ شيء زيادة على ذلك.¹ ويقول بيرس أيضاً: "الظاهرة التجريبية هي الحقيقة التي تؤكد أنّ فعل وصف معين سينتج عنه نوع معين من النتائج التجريبية."²

وهنا يتضح جلياً مدى أهمية التجربة في الوصول إلى الحقيقة، لكن السؤال الذي نطرحه الآن: هل هذا يعني أن بيرس استخدم مصطلح التجريبية في نطاق فلسفي واسع؟ بالطبع إنّ بيرس استخدم مصطلح التجريبية استخداماً واسعاً، وكثيراً ما استخدم عبارات التأمل العملي، والتصورات الذهنية، وهي تساوي لديه تلك التصورات التي يتمّ على أساسها تكوين الأدلة المتعلقة بالحقيقة الموضوعية والتي تتوقّف عليها إقامة هذه التصورات.³

وإذا قمنا بتبسيط هذه الصّيغ للحكم فإنّه يبدو أنّ هذا التبسيط يتضمّن معنى النّصور، والتفكير الذهني العقلي، وفي نفس السياق يمكن طرح سؤال مهم آخر: مامعنى النّصور الذهني العقلي؟، أي ماهي العلاقة الجوهرية بين الفعل والخبرة؟ وهذا ما سنعتبره لب القضية البرغماتية.

* العلاقة الجوهرية بين الفعل، والخبرة:

1. تصرّ القضية البرغماتية على وجود علاقة جوهرية بين الفعل، والخبرة بالنسبة لموضوع المعنى الذي تشير إليه ونتناوله.

1 - تشالز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، ص36.

2 - نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص11.

3 - تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص37.

2. إنَّ التأكيد إنّما هو تأكيد على العمومية، فإنَّ الاستدلال يوجه نحو أنواع من الفعل وأنواع أخرى من الخبرة، وليس نحو أفعال أو خبرات فردية خاصة.

3. إنَّ الصيغ المختلفة تشير بصفة أساسية إلى التّصورات أكثر مما تشير إلى العلامات لذلك فإنَّ العلاقة بين القضية البرغماتية، وعلم العلامات ليست علامة واضحة.¹

يمكننا القول أنّ البرغماتية عند بيرس أساسا هي اقتراح بتبني القضية البرغماتية في الفلسفة، لكي تكتسب الفلسفة ميزة، وطابع العلم التجريبي التراكمي، والتّقدمي في آن واحد.

وقد أوجز شارلز ساندرس بيرس فلسفته بقوله: "إنَّ فلسفتي يمكن وصفها بأنّها محاولة فيزيائي أن يصوّر بنية الكون تصويرا لا يتعدى ما تسمح به مناهج البحث العلمي مستعينا في ذلك بكلّ ما سبقني إليه السالفون، لكنني لن أصطنع في هذا طرائق الميتافيزيقيين في الإستنباط الذي يقيمونه على فروض من عندهم، ويصلون به إلى براهين يصفونها بالصواب القطعي الذي لا يتعرض للتّعديل على ضوء ما قد تكشف عنه البحوث العلمية فيما بعد، بل طريقتي هي طريقة العلم نفسها، وهي أن أقدم صورة للكون على سبيل الافتراض الذي ينتظر الإثبات على أساس ما قد يكشف لنا من حقائق، ولذلك فهو يتميز بقابليته للصواب، وللخطأ وفق ما تقدّمه المشاهدة لنا بعدئذ من شواهد."²

هكذا نخلص إلى أنّ خير الوسائل لإثبات الاعتقاد حسب بيرس هي الوسيلة والبحوث العلمية التي تجعل صواب ما نعتقد أمرا يشاهده كلّ من أراد أن يشاهد فليس الأمر هنا حجاجا عقليا أو لفظيا بين جماعة من النّاس فيما بينهم، كما هي الحال حين يناقش الفلاسفة الميتافيزيقيون بعضهم بعضا، بل الأمر هنا مرجعه التّجارب العملية

1 - تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص38، 39.

2 - زكي نجيب محمود : من زاوية فلسفية، ص204.

التي تجعل الفكر عملاً كما ينبغي له أن يكون، فالطريقة العلمية هي التي تستطيع وحدها أن تخرج بالفكرة من مجرد كونها اعتقاداً ذاتياً عند أحد الأفراد، لتجعلها حقاً عاماً للناس أجمعين.

2 - نظريتي المعنى والاعتقاد وأهم مناهج تثبيت الاعتقاد عند بيرس:

تدور فلسفة بيرس حول محورين أساسيين هما: مشكلة المعنى، ومشكلة الاعتقاد المشكلة الأولى تدور حول سؤال تعتبر الإجابة عنه من وجهة نظر بيرس في فكرة المعنى، والمشكلة الثانية الاعتقاد تمثلها الإجابة عن السؤال التالي: إذا كان لدينا اعتقاد بأن هناك في العالم الخارجي شيئاً ما ذا صفة معينة فما التحليل الصحيح لهذا الاعتقاد؟، وقد استنفذت الإجابة عن هذين السؤالين فلسفة بيرس البرجماتية تقريباً، وبنى على إجابتهما الموقف من معنى الأفكار، والاعتقادات وصحتها الحقيقي منها، وغير الحقيقي¹، وفيما يأتي عرض بشيء من التفصيل لهاتين المشكلتين فما المقصود بالمعنى والاعتقاد عند بيرس؟.

أ- مشكلة المعنى Meaning:

على الرغم من تعدد وجهات النظر حول المقصود بالمعنى، فإنها تكاد تلتقي جميعاً عند معنى واحد وهو: أن شيئاً يرمز إلى شيء آخر، وكلا الشئيين يكون من كائنات العالم الواقع، فقد يلاحظ الإنسان ارتباطاً بين ظاهرتين طبيعيتين، بحيث إذا حدثت إحداها تحدث الأخرى، كارتباط البرودة بالإنكماش، والحرارة بالتمدد، وكما أن العلة قد تكون معنى للمعلول، فقد يكون المعلول معنى للعلة².

وأول فيلسوف كان قد بحث في المعنى بحثاً جدياً، ومقنعاً هو سقراط، الذي وجه جهده الأكبر لمناقشة المعاني المختلفة للمبادئ العقلية الكامنة وراء الظواهر السلوكية

1 - نايف عبد الرازق بن جمادي المطرفي: الفردية في الفلسفة البرجماتية دراسة تحليلية ناقدة من وجهة نظر التربية الإسلامية، مكمّل لنيل درجة الماجستير بقسم التربية الإسلامية والمقارنة كلية التربية، جامعة أم القرى السعودية، سنة 2011م، ص33.

2 - سعيد إسماعيل علي: فلسفات تربوية معاصرة، ص52.

للوقوف على المعنى الواضح السليم لتلك المبادئ، والمفاهيم التي يصدر عنها الناس سلوكياتهم واستمر الفلاسفة يتناقشون في مشكلة المعنى، واتجهوا اتجاهات شتى منها:

1- **المدرسة الشيئية:** التي تجعل المعنى حقيقة قائمة بذاتها في العالم الخارجي مثل الأفراد الجزئيين تماما، فردا كان معنى الإنسان أنه حيوان ناطق، فإنّ هناك في العالم المثل مثلا حقيقيا لهذا المعنى، وزعيمها **أفلاطون**، ووجه الشبه بين المدرسة البرغماتية، والمدرسة الشيئية الأفلاطونية هو في أنّ كليهما تجعل للجانب المجرد وجودا موضوعيا لا يقل عن الوجود الموضوعي.¹

وأما وجه الاختلاف بينهما هو أنّ الجانب المجرد عند المدرسة الأفلاطونية كاف بذاته من الوجهة المنطقية، ولا يتحتم أن يكمله وجود المفردات الجزئية في عالم الحس وأما المدرسة البرغماتية تعتقد أنّ الكيان المنطقي لهذا الجانب المجرد لا يكمل إلا إذا كان وسيلة أداتية تهدي الإنسان في حياته السلوكية العملية إذ لا جدوى في أن تظلّ طريقة السلوك المجردة قائمة بغير أن تتمثل في مواقف سلوكية بعينها.² هذا يعني أن المعنى لكي يكون حقيقيا يجب على الجانب المجرد لأفكار أن يكون أداة ووسيلة يستخدمها الإنسان في حياته اليومية، والتي تعبر بدورها عن مواقف وسلوكيات معين لك فرد من الأفراد.

2- **المدرسة التصورية:** وهي مدرسة **أرسطو** التي تجعل المعنى تصورا ذهنيا قائما في عقل الإنسان أو الذات العارفة يحصل عليه بعد أن يقوم بعملية تجريد لما بين الأفراد الجزئية المتشابهة من صفات جوهرية مشتركة³، ووجه الشبه بين المدرسة البرغماتية، والمدرسة التصورية الأرسطية هو أنّ كليهما تقرر أنّ المعنى العام تصوري فكري في طبيعته، لكنّها تعود فتختلف عنها في أنّ المدرسة الأرسطية تجعل

1 - سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، ص52.

2 - جون ديوي : المنطق نظرية البحث، ترجمة زكي نجيب محمود، دار المعارف، القاهرة، سنة 1960م ص 31، 32.

3- سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، ص52.

قوام المعنى الكلي الصّفات الجوهرية المشتركة على حين تجعله المدرسة البرغماتية في المهمة الأدائية، والنشاط السلوكي المتشابه إزاء الأفراد الذين نضمهم معا في نوع واحد.¹ مهما كان الإتفاق بين المدرستين بأن المعنى العام تصوري فكري في طبيعته، إلا أن الاختلاف قائم في أن المعنى الكلي لدى المدرسة البرغماتية يتمثل في السلوك الفعلي بين الأفراد.

3- المدرسة الإسمية: التي تجعل المعنى كائنا في دلالة اللفظ على مسمياته الجزئية دون أن يكون هناك وجود قائم بذاته، أو قائم في ذهن العارف.²

ووجه الشبه بين المدرسة البرغماتية، والمدرسة التصورية الإسمية هو أن كليهما تصرّ على أن يكون المعنى الكلي مشيرا إلى الكائنات الخارجية، أي أن يكون بمثابة الرمز الذي يشير إلى أفراد النوع القائمة في عالم الأشياء لكنهما تختلفان فإنّ المدرسة الإسمية تكتفي بأن يكون هنالك رمز من جهة ومفرد مرموز إليه من جهة أخرى، بهذا لا يكون هنالك تعميم بالمعنى الصّحيح، وأمّا المدرسة البرغماتية فتجعل للمعنى العام الذي هو طريقة السلوك وجودا موضوعيا خارجيا غير مجموعة الأفراد التي تسلك إزاءها سلوكا متشابها، وبهذا نجعلها أعضاء من نوع واحد.³

4- المدرسة البرغماتية: التي تجعل المعنى قائما في طريقة السلوك إزاء لفظ معين فإذا كان هناك تجريد فإنّه يكون لطريقة السلوك، وليس لصفات الأشياء وهذا هو تفصيل رأي البرغماتية كما عبّر عنه بيرس:

لقد ساهم ساندرس بيرس أسهاما جدّيا في الدّراسات المتعلقة بمنطق الرّموز⁴ أو "السيميوطيقا" والرّمز يعني أنّ شيئا يحل محل شيء آخر بحيث يمكن أن

1- جون ديوي : المنطق نظرية البحث، ص32.

2- محمد الجاغوت : الفلسفة البرجماتية، بتاريخ 17 مارس 2009م.
<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article17553>.

3 - جون ديوي : المنطق نظرية البحث، ص 32.

4- السيميوطيقا هو علم يدرس كل من أنساق العلامات، والإشارات، والأدلة، والرموز.

يكون "رمزه"، ويقرر بيرس أن للرمز صفة يسميها بالصفة الثلاثية "الرمز" هو الحد الأول، و"موضوعه" هو الحد الثاني، أما الحد الثالث فهو ما يسميه بيرس "بالمفسر" وهو الرمز الآخر الذي يوضح الرمز الأصلي.¹

وقد صنف بيرس المفسرات أصنافاً عديدة يهمنها منها المفسر المنطقي الذي يعرفه بأنه: "المعنى الذي يوصف الرمز بموضوعه"²، ونستطيع أن نعبر عن ذلك بقولنا: إنّ المفسر المنطقي لحد ما هو ذكر الخصائص الحسية فقط، وذلك تبعاً لما ينادي به بيرس في مبدئه البرغماتي "تدبر الآثار التي يجوز أن تكون لها نتائج فعلية على الموضوع الذي تفكر فيه، وعندئذ تكون فكرتاعن هذه الآثار هي كلّ فكرتاعن الموضوع".³ المقصود هنا أنّ الوصول إلى الخصائص الحسية الخارجية لكلمة ما معناه إجراء عملي نقوم به ونصل منه إلى النتائج، ويتألف معنى التصور من مجموعة تلك النتائج.

وبمعنى آخر يمكن أن يقال إنّ الأفكار ماهي إلّا خطط للسلوك، والأفعال العملية والفكرة إذا لم تؤد إلى سلوك نسلكه في عالم الواقع الخارجي عدت فكرة زائفة باطلة ولو أردنا أن نخلص لهذا المبدأ فإنّ ذلك سيساعدنا على التخلص من العديد من المشكلات التي حفل بها تاريخ الفلسفة، والتي يرى بيرس أنّها في حقيقة أمرها ماهي إلّا بناءات لا أساس لها من التفكير السليم الصحيح ذلك لأنّها قامت على أفكار غير ذات صلة بعالم الواقع الذي نخبره.

لقد أنفق الإنسان سنين عديدة محاولاً أن يصل إلى حل مثل هذه المشكلات بيد أنّه فشل في ذلك، لكن ماهو سبب فشله؟ يرى بيرس أنّ الفلاسفة الذين كانت الإجابة لديهم بالإيجاب أخطأوا إلى حد كبير فلم يكن ذلك لعجز لدى الإنسان وإنّما لأنّ هذه

1- سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، ص 35 .

2 - Peirce, C.S.: **How to Make our Ideas Clear, in The Philosophy of Peirce**, Selected ed Writings, by Justus Lachler, Harcourt, Brace and Company N.Y.1940,p30.

- Ibid, p30.3

المشكلات يستحيل بحكم طبيعتها أن نصل إزاءها إلى حل، وذلك لأنها قامت على أساس كلمات لا معنى لها مادامت لا تؤدي إلى سلوك معين فعلي في دنيا الواقع والخبرة.¹

يشن بيرس هجوماً على هؤلاء الفلاسفة الذين يتناولون المسائل نفسها التي كان اليونانيون القدماء يناقشونها في المنهج العقلي التأملي البحت نفسه، ومن ثم لا تحرز مناقشاتهم تقدماً إلى أمام، ويقارن هذا ما يحدث في العلم، إنَّ العلم يمضي قدماً في طريق التّقدم بسبب طريقته في تناول الأمور²، فلنسأل أنفسنا مثلاً لماذا يتفق النّاس على معنى كلمة مثل "الصلابة"، عندما يعنون بها مادة صلبة مثل "الحديد" مثلاً؟ السبب في ذلك أنّ النّاس يمكن أن يشتركوا في مشاهدة السلوك الذي تعنيه كلمة "الصلابة"، فالجسم الصلب يستطيع أن يخدش بقية الأجسام دون أن يصيبه خدش ما، مثل هذه الخاصية كلّ إنسان يستطيع أن يراها، ويلمسها تستطيع مثلاً أن تمسك بقطعة من الصلب، وتضغط بها على مادة أخرى، وعندئذ ستجد خدشاً في المادة المضغوط عليها، هذا السلوك الذي قمت به للتحقق من خاصية المادة الصلبة هو "معنى" هذه الخاصية المتعلقة "بالصلابة".³

ولعلنا بعد هذا نستطيع أن نفهم لماذا لا يزال النزاع الجدلي مستمراً للوصول إلى اتفاق حول معاني الكلمات، مثل "الحرية"، و"الديمقراطية" ولم ينته النزاع حول الاتفاق لا شيء إلاّ لأنّه لم يحدث اتفاق على السلوك الناتج عن أمثال هذه الكلمات.⁴

إنّ بيرس كان ينشد من الفلاسفة أن يترسوا خطى العلماء، لكن ما الذي يقصده بالضبط من قوله هذا؟ معنى هذا أنّ الفيلسوف إذا ما أراد أن يحدّد معاني ألفاظه

1 - زكي نجيب محمود: خرافة الميتافيزيقا، الأنجلو مصرية القاهرة، سنة 1953م، ص3، 4.

2 - Buchler, Justus: *Charles Peirce's Empiricism*, Kegan Paul Trench Trubner, London, 1939, p113.

3 - Buchler, Justus: *Charles Peirce's Empiricism*, Kegan Paul Trench Trubner, p113.

4 - زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، الأنجلو مصرية، القاهرة، سنة 1958م، ص 8.

تحديدا يعينه على دقة التفكير تخير له ألا يبدأ بالكلمة ثم يعقب عليها بتعريف بل أن يبدأ بالصفة، أو مجموعة الصفات التي يلاحظها، ويريد لها إسما يميزها ثم يطلق هذا الاسم آخر الأمر على ما قد لاحظته، وبهذا يصبح تعريف الاسم هو الصفات التي كانت قد وقعت في حدود المشاهدة، فإذا ما استخرجنا بعد ذلك من هذا التعريف نتائج مترتبة عليه كانت هذه النتائج متطابقة مع حوادث الواقع المشهور¹.

هذا يعني أن بيرس يقصد بالمعنى هو ما تؤديه الفكرة من سلوك عملي، فإن أي عبارة، أو كلمة تدل على معنى معين عند بيرس أي أن هذه العبارة، أو الكلمة قد أعطت سلوكا، وبخلاف هذا سوف تكون الفكرة المتكوّنة من عبارة أو كلمة خالية من أي معنى، وبذلك فإن الفكرة التي لها معنى هي عبارة عن خطة تؤدي إلى سلوك معين.²

وعلى هذا الأساس فإن مشكلة المعنى قد بدأها بيرس من وجهة النظر التجريبية الحسية فيرى أن أية فكرة إنما ترتبط دائما بالإنطباعات الحسية الخارجية التي نتزود بها عن الأشياء التي هي موضوعات الإدراك، وإننا لو اكتفينا بالعقل وحده دون الحس، والمعرفة الحسية لما استطعنا أن نتوصل إلى المعرفة الصحيحة الحقيقية فالحق، والصواب لدى بيرس مرتبط بالواقع المباشر، والفكرة التي تتمثل في كلمة واحدة، أو مجموعة من الكلمات أي في عبارة ليس لها من الصحة شيء ما لم تخرج إلى الواقع، وتعبّر عنه أحسن تعبير.

يقصد بيرس بالمعنى أيضا: "هو ما يترتب على الفكرة، أو العبارة من سلوك يتحدّد معناها في ضوءه أو" هي مجموعة ما يمكن للإنسان أن يؤديه من أعمال مسترشدا بالكلمة أو العبارة، وما ليس يهدي إلى عمل معين فلا معنى له، فالأفكار إما أن تكون خططا للسلوك العملي، أو لا تكون شيئا على الإطلاق، فإذا وجدت فكرة مهما يكن أمرها لا تدل على أنواع السلوك الذي تسلكه في عالم الواقع فاعلم أنها فكرة

1- زكي نجيب محمود: نحو فلسفة علمية، ص 8.

2- زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، ص 152.

باطلة، ولا يستثني بيرس من هذه القاعدة أي نوع من الأفكار سواء كانت هذه الأفكار تأملية عقلية أو غيبية ميتافيزيقية فيرى أنّ ما أشغل الفلاسفة من مسائل الوجود المتعلقة بالكون، والإنسان، والروح هل هي خالدة أم فانية؟، والعقل، والمادة أهما عنصران مختلفان؟، أم أن أحدهما يمكن رده للآخر.¹

جميع هذه المسائل، وغيرها ليست في نظر بيرس مشكلات حقيقية، بل هي مجرد كلمات لا معنى لها، لأنها لا ترسم سلوكا، وكذلك لا تدخل في حدود الخبرة البشرية فعلا أو مكانا، فينبغي أن لا تكون من اهتمامات الإنسان، إنّ هنالك جملة من المشكلات التي تواجه حياة الإنسان، فمن هذه المشكلات ما يمكن حلها، ومنها ما لا يمكن حلها، فالمشكلات التي لا يمكن حلها هي المشكلات التي لا تؤدي إلى سلوك معين، فهي مشكلات زائفة.²

ومن هذه المشكلات مشكلة الروح، ومشكلة العقل والمادة، إذ تطرح عنهما مجموعة من الأسئلة، من ضمنها هل أنّ العقل والمادة عنصران مختلفان؟ أم أن أحدهما يمكن رده إلى الآخر؟ إن هذه المشكلات غير حقيقية، فهي كلمات لا تحمل معنى لأنها لا ترسم سلوكا معينا.³

وموقف ساندرس بيرس من المشكلات الزائفة شبيها لموقف الوضعية المنطقية لأنّ المشكلات الزائفة عندهم هي تلك التي تصاغ في عبارة زائفة، أو خالية من المعنى، والعبارات الخالية من المعنى عندهم هي تلك التي تحتوي على ألفاظ زائفة وهي التي لا تكون لها دلالة في عالم الأشياء، والمحسوسات.⁴

1 - زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، ص 152.

2 - المرجع نفسه، ص 150.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 - عزمي إسلام: اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، ص 98.

ومن هنا جاء اهتمام ساندريس بيرس الكبير بفلسفة اللّغة، والمنطق، وموقفه المؤيد لموقف الوضعية المنطقية من اللّغة، فاللّغة في نظره يجب أن تكون دقيقة، ومعبّرة عن الواقع بكلّ وضوح، لأنّه ينطلق من الواقع.

إن عبارة من العبارات يكون لها معنا إذا كانت كلّ كلمة في العبارة يمكن تحويلها إلى سلوك¹، وإذا كانت هنالك كلمة واحدة في العبارة لا تدلّ على سلوك معين فإنّ العبارة سوف تفسد بأكملها، ولا يصبح لها معنا، وأصبحت كلاما خاليا من الدلالة فلا فرق في ذلك بين أيّ عبارة يقولها أيّ إنسان، وبين العبارة التي يقولها عالم الطبيعة في معمله، وإنّ هنالك عبارات تتفق في اللفظ إلاّ أنّه يترتب على كلّ منها عمل يختلف عن العمل الذي يترتب على الآخر.²

ويسوق شالزساندرس بيرس أمثلة عديدة يعرف بعض العناصر من خلالها تعريفا برغماتيا، ويضرب لنا مثلا لهذه الطريقة الجديدة في زمنه في تعريف الألفاظ لتوضيح معناها فالتعريف العادي لعنصر "الليثيوم" هو ما وزنه الذري يساوي 7 تقريبا بيد أنّ بيرس يعرف ذلك العنصر كما يلي: "إذا بحثت بين الفلزات على فلز شفاف نوعا ما ينفذ منه الضوء ذو شكل رمادي، أو أبيض صلب يلمع، وله بريق لا يقبل الذوبان تعطي القطعة منه لونا قرمزيا لدخان غير مشتعل، ويمكن أن يذوب نوعا ما في حامض "المورياتيك" إذا مزج مزجا جيدا بالجير، ثم انصهر وإذا تبخّر هذا المحلول ووضع الراسب في حامض الكبريتيك نقيّ حالا يمكن أن يتحوّل إلى كلود "الليثيوم" كلّ هذه الخصائص لعنصر "الليثيوم" إذا وقفت عليها فقد وقفت على تعريف هذا العنصر ومعناه السليم."³

1 - زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص152، 154.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - محمود زيدان : وليم جيمس نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف، القاهرة، سنة 1958م، ص42.

ومن النتائج التي تترتب على مبدأ ساندريس بيرس في المعنى أننا إذا وجدنا أنفسنا إزاء فكرتين مختلفتين في لفظاً "الليثيوم"¹، وعندما نريد أن نقف على ما يترتب عليهما من نتائج سلوكية نجد اتحاداً في النتائج فيمكننا أن نحكم بأن الفكرتين لا تختلفان في المعنى أما إذا وجدنا أنفسنا إزاء فكرتين اتحدتا لفظاً عندما خضعتا للتحقيق التجريبي والتطبيق السلوكي إذا حدث هذا، فالفكرتان ليس بينهما تشابه في المعنى، وإن كان بينهما مثل هذا التشابه في اللفظ، فافرض أن أحداً قال لك: في هذا المكان يوجد شبح وقال آخر كلاً بل لا يوجد مثل هذا الشبح فكرتان مختلفتان لفظاً؟، ولكن هل يختلف الواقع الإجرائي، والسلوكي في الحالة الأولى؟ كلاً بطبيعة الحال فلا خلاف بين الرؤيتين، ومادمت الفكرة لا تختلف في نتائجها من حيث الخطأ، أو الصواب فهي فكرة زائفة.²

يتجلى من خلال هذا الطرح بأن كل كلمة لها دلالة في الواقع، لذلك فإن الشيء المعرف معنى في نظر بيرس، وهناك مشكلة أخرى احتلت بدورها مكانة مهمة في فلسفة بيرس العلمية، وهي لا تنفصل عن مشكلة المعنى، وإنما هي مكملتها.

ب- مشكلة الاعتقاد Belief :

يقصد بيرس بالاعتقاد هو إنشاء عادة سلوكية معينة، والاعتقادات المختلفة تمتاز باختلاف أساليب الفعل التي تؤدي إلى ظهورها³، ومثال ذلك الذي يعنيه بيرس لتحديد معنى الفكرة، إذا رأيت ثقلاً معيناً في غرفة، فسوف ينشأ اعتقاد تجاه ذلك الثقل الذي رأيته في الغرفة، أي أنه طائفة من القواعد تضبط بها سلوكك إزاء ذلك الثقل، فعند مرورك عليه يجب أن تدور من حوله، أو تخطو من أعلاه حتى لا تتعثر

1 - Blau Joseph : "Men and movements in American philosophy " Prentice Hall philosophy series, New York, 1953, p240.

2 - Blau Joseph : "Men and movements in American philosophy " Prentice Hall philosophy series, p240.

3 - مورتون وايت: عصر التحليل فلاسفة القرن العشرين، ترجمة أديب يوسف شيش، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سنة 1975م، ص154.

به، وإذا أردت أن ترفعه فيجب أن تستعد استعدادا عضليا يتناسب مع الثقل، فهذه النتائج العملية المترتبة على هذا الاعتقاد هي نفسها مغزى، ومضمون ذلك الاعتقاد وبذلك يكون الاعتقاد اعتقادا حقيقيا إذا كان دالا على أنماط من السلوك العملي حيال الشيء الذي يتعلّق به ذلك الاعتقاد، أما الاعتقاد الذي لا يترتب عليه سلوك معين فهو اعتقاد ليس بذي معنى، ومثال ذلك اعتقادي حول شيء لا يمكن أن أراه أو ألمسه، أو أحمله، ولا ينعكس عليه الضوء الساقط.¹

ولقد اعتبر بيرس أيضا: "أنّ ماهية الاعتقاد تكمن في تهيئة عادة، وأنّ الاعتقادات المختلفة تتميّز عن بعضها بواسطة طرق مختلفة للفعل الذي تحدثه." ² يشير بيرس هنا إلى الفارق العملي الناتج عن الاعتقادات وفقا للقاعدة البرغماتية التي تنصّ على الأخذ بالنتائج الناجحة على أرض الواقع.

إن تمسكنا في نظر بيرس بكثير من المفاهيم، واعتقادنا في صحتها غالبا ما يوقعنا في الأخطاء، وأنّ التمسك بهذه المعتقدات يجعلنا موقنين بصحتها، مما يترتب على ذلك نوع من الوثوقية³ Dogmatism، والتي تعتبر حاجزا يفصل الإنسان عن المعرفة الصحيحة، وتعيق تفكيره عن تصحيح، ومراجعة الكثير مما كان يعتقد في صحته من قبل.⁴

فبيرس على هذا النحو يدعو دائما إلى البحث عن الحقيقة، ولا يثبت الاعتقاد بصحة الأفكار ما لم تتجسّد هذه الأفكار، والمفاهيم في الواقع، ويكون لها وجود موضوعي خارج فكر الإنسان، ومن هذا المنظور نتساءل: ما هو الفرق الموجود بين الشك والإعتقاد في نظر بيرس؟.

1 - زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، ص 157.

2 - Charles Senders Peirce, **How to make Our Ideas Clear**, in, Pragmatism A reader, edited by Luis Menand, New York, Vintage Books, 1997, p.29.

3 - الوثوقية "الدوجماتية": التي تسمى بالقطعية أو الإعتيادية، مذهب يثق بالعقل، ويؤمن بقدرته، وجدارته على ادراك الحقيقة، والوصول إلى اليقين.

4 - عزمي إسلام : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص102.

هنالك فرق بين الشك، والاعتقاد في نظربيرس من حيث الموضوع، فإنّ الشك والإعتقاد موضوعهما واحد، فالعبارة الواحدة قد يعتقد الإنسان فيها أو يشك بنفس الوقت، أمّا من حيث العمل فالاعتقاد مرتبط بالعمل، كذلك الاعتقاد تتبعه دائما حالة إطمئنان، أمّا الشك فيتبعه قلق، أخيرا إنّ الشك، وإن كان لا يصاحبه عمل إلا أنّ القلق المصاحب له يدفع للوصول إلى اعتقاد جديد عكس الاعتقاد الذي لا يؤدي إلى تغيير السلوك الذي نسلكه.¹

يمكننا أن نستخلص هنا أنّ الشك حالة متغيرة، وليست ثابتة، كما أنّها حالة مشوشة وغير مستقرة بالنسبة للإنسان، وليست واضحة وضوحا تاما كما هو حال الاعتقاد وعلى هذا الأساس فإنّ الفرد يسعى دائما إلى ترك الشك، والإتيان ببديله وهو الاعتقاد.

وأخيرا يتناول بيرس مسألة مهمة، وهي **مسألة البحث Inquiry**، وهذه المسألة في جوهرها هي حالة الانتقال من الشك إلى الاعتقاد، لأنّ كلّ إنسان لا يمكن أن يعيش في حالة شك دائم²، ويعرض بيرس عدّة وسائل لتثبيت الاعتقاد منها: التمسك بالمعتقدات القديمة التي يشترك فيها المجتمع بأسره، والوسيلة الأخرى هي الاستناد إلى سلطة يثبت من خلالها المعتقدات الرئيسة التي تعمل على توفير المصلحة العامة، والتي تصون المجتمع، وأخيرا وسيلة المنهج العلمي التي تعدّ أفضل الوسائل عند بيرس لتثبيت الاعتقاد، فهي عملية إثبات موضوعي لجميع النّاس حتّى يكون معناها واحدا للجميع، فمعناها ثابت في كلّ مكان وزمان، وهذه هي طريقة العلماء في نظربيرس.³

1 - عزمي إسلام : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، ص104، 105.

2 - المرجع نفسه، ص106، 105.

3 - المرجع نفسه، ص 103.

وعلى العموم يتّضح لنا بأنّ فلسفته كانت فلسفة علمية واقعية تسعى دائماً على الوصول إلى النتائج المثمرة هذا من جهة أماجهة أخرى أنّه كان فيلسوفاً تجريبياً لا يؤمن بأيّ فلسفة مثالية تؤمن بالقضايا الميتافيزيقية.

وعليه فإنّ بيرس قصد من وراء نظريته في المعنى، والاعتقاد أن يخضع العبارات والأفكار عندما يريد تحديد معانيها للتجربة المادية لأنّ معنى الأفكار عنده هو ما تمثله من سلوك في الواقع، وصواب أو خطأ أيّ اعتقاد إنّما تحكم به التجربة، ذلك لأنّه يرى أنّه لا معنى للقول، ولا أساس لإعتقاد إلّا إذا كان ذلك المعنى، وذلك الاعتقاد خطة سلوكية يمكن أدائها وإلا أصبح غير ذي معنى، ولا هو بالفكرة التي يصحّ أن تشكل اعتقاداً، وهذه هي خلاصة البرجماتية عند مؤسسها.¹ يبدو أيضاً أنّ نظريتي المعنى، والاعتقاد هما جوهر الفلسفة البرجماتية بالنسبة لبيرس هما نظريتان لمشكلة واحدة، وهدفهما واحد وهو البحث عن الأفعال النتائج المستخلصة من معنى الفكرة واعتقادك بفكرة ما.

لقد درج العقليون من عهد الإغريق إلى القرون الحديثة من أفلاطون، وأرسطو إلى ديكارت، وسبينوزا، ولايبنتز على الزعم بأنّ العقل إنّما هو أداة للمعرفة، وهو وحده الذي يستطيع الوصول إلى الحقائق ذاتها، والمعارف التي تصلنا عن طريقه معارف صائبة حقة، ولا يفسدها علينا خداع الحواس، ثم ظهرت نظرية البرجماتزم فزعمت أنّ الدليل على حقيقة أيّ شيء إنّما هو أثر هذا الشيء، ووظيفته وعمله² ولكن هل تركت العقل كما هو أداة للمعرفة؟.

1- نايف عبد الرازق بن جمادي المطرفي : الفردية في الفلسفة البرجماتية دراسة تحليلية ناقدة من وجهة نظر التربية الإسلامية، مكمّل لنيل درجة الماجستير بقسم التربية الإسلامية، والمقارنة، كلية التربية جامعة أم القرى السعودية، سنة 2011م، ص 34.

2- يعقوب فام: البرجماتزم، أو مذهب الذرائع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1936م ص155.

3- نظرية المعرفة عند بيرس:

كان الفيلسوف البريطاني هربرت سبينسر 1820-1903م يقول: "إنَّ معظم معتقداتنا التي نؤمن بها ليس لها صور حسية نستطيع أن نردها إليها، فالحرية والاختيار مثلا لا يمكن للذهن أن يجد لها صورة، أو شكلا ذهنيا، نستطيع أن نوضحها به."¹

وبعبارة أخرى لا معنى لهذا الاصطلاح في حياتنا التي نحياها، وعلى هذا نستطيع أن نوَفِّر على أنفسنا عناء البحث في هذه الأشياء، هل هي عنصر من عناصر هذه الموجودات أو الكون؟، وهل لها وجود في الخارج أم هي خيال ووهم؟، نستطيع أن نعفي أنفسنا من عناء البحث لأنَّ مثل هذه المصطلحات كالحرية، والقوة لا معنى لها إذ يستطيع الذَّهن البشري أن يتعامل معها أو يقارنها بغيرها فينصبها بجانب الصور و الأشكال الأخرى.²

ثم أتى تشارلس بيرس بعد هذا، وعمَّم هذا المبدأ وجعله يشمل جميع المصطلحات التي ليس لها صور حسية في أذهاننا، وبهذا وضع أساس فلسفة البرجماتزم ودعا بيرس إلى تعميم هذا المبدأ وهو أنَّ معنى كلِّ فكرة ليس لها صورة حسية إنَّما هو في أثر هذه الفكرة أو الاصطلاح في المحسوسات أي في الاختبار والمشاهدة.³ كان الفلاسفة عندما يبحثون في اصطلاح معين كالنقل، والقوة مثلا يحاولون بطرق المنطق أن يتوصلوا إلى القوة ذاتها أي إلى ماهيتها في نفسها بغض النظر عن الأشياء الحسية التي تلبسها هذه القوة، فالقوة شيء له وجود حقيقي، وله معنى ومعناه إنَّما هو في هذه الآثار التي تخلفها فيما نشاهد في الموجودات حولنا.⁴ وهذا يعني أنَّنا لاندل على الموجودات بالمنطق، أو بالقضايا العقلية من مقدمات، ونتائج

1- يعقوب فام: البرجماتزم، أو مذهب الذرائع، ص144، 145.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - المرجع نفسه، ص146.

4 - المرجع نفسه، ص144، 145.

ضرورية تستتبع تلك المقدمات، وإنّما نتوصّل إلى إثبات وجودها بالأثار الحسية الخارجية التي تنتجها هذه الموجودات في الدّنيا التي نعيش فيها.

يجب أن نميّز بين الاصطلاح، والمدلول، فالاصطلاح هو الإسم الذي يعرف به الشيء والمدلول هو الشيء ذاته الأوّل منهما حق عندما يكون لمدلوله وجود حقيقيّ فالأوّل حق، والثّاني حقيقيّ، ولأجل ذلك يزعم بيرس أنّ كل اصطلاح حق إذا كان له مدلوله، والمدلول له وجود حقيقيّ إذا كان ينتج بعض النّتائج في هذه الدّنيا التي نشاهدها، وإلاّ فلا معنى للاصطلاح، و لاوجود للمدلول فكلّ شيء يؤدي عملا معينا في هذه الدّنيا له وجود حقيقيّ.¹

والواقع أنّ الكثير من الأفكار التي لها حظ من الصور المحسوسة إنّما هي دلائل للعمل، وقد ننسى صورها، ولا يبقى منها شيء إلا القدرة على التّوجيه العملي في الحياة، ففي محطة السكة الحديدية مثلا رنين الأجراس لا يعني عددا معينا من أمواج الهواء عند العالم الطبيعي الرياضي، وإنّما يكون معناها عند القطار وموعد سفره، فالمعنى الذي يؤدي إلى العمل هو الحق وهو الصواب.² فالفكرة عند بيرس إنّما هي مشروع أو خطة للعمل الناجح، وليست حقيقة في ذاتها.

ولكي نوضّح هذا النّزاع بين النّظريتين العقلية، والبرغماتزم نضرب مثلا واضحا يبين الحدود بينهما بشكل ظاهر، وليكن هذا المثل فكرتنا عن الله فمعظم النّاس يؤمنون بالله، وهذه الفكرة إمّا أن تكون خطأ، أو صوابا في حكم المنطق.³

فالنّظرية العقلية تقول أنّ الله موجود حقا إذا تبين منطقيا وجوده، أمّا البرغماتزم فتعالج هذه المسألة من ناحية أخرى وتقربها بشكل آخر، ففي رأيها أنّ صواب هذه الفكرة لا يتوقّف على الضرورات المنطقية، وإنّما يتوقّف على صلاحية هذه الفكرة في حياتنا

1- يعقوب فام: البرغماتزم، أو مذهب الذرائع، ص148.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- أبو الحارث التميمي: البرجماتية تحليل وتطبيق، بتاريخ 2006-02-01م <http://www.eltwheed.com>

الراهنة، وفي تصرفاتنا اليومية، فإذا كانت هذه الفكرة تؤدي إلى نتائج مرضية في الحياة فهي صحيحة، وصائبة، وبذلك يكون الله موجودا بغير هذه الطريقة لا نستطيع أن نحكم على هذه الفكرة أولا ثم لا نستطيع أن ننق من حكمنا ثانيا.¹ هذا يعني أن البرغماتية تتناول الفكرة من ناحية وظيفتها لا من ناحية موضوعها كما تفعل النظرية العقلية، فالموضوع موجود إذا كان للفكرة وظيفة تؤديها في نظام الكون المحيط بنا.

وقبل بيرس فكرة الله الذي عرّفه كذات مشخصة، وقادرة قدرة مطلقة على أنها فرض فلسفي، وبرهن على وجوده بعدة طرق مختلفة، ورفض النظرية الديكارتية في وحدة النفس، ولم يكن له رأي ثابت حول الخلود، ولم يكتب كتاب في الفلسفة² لكن كانت له مجموعة من الأبحاث نشرت في وقت حديث نسبيا لتحدث أثر في الفلسفة الحديثة ومن مقولاته المشهورة: "أنّ الإنسان لكي يقتحم الحقيقة فعليه أن يعتلي أكتاف شخص آخر قد مني بالفشل حسب مقاييس الإدراك، لكنّه في الحقيقة نجح لأنّ الفشل أعطى دروسا معينة، هذا هو الجوهر الحقيقي للعلم."³ ومن هذا المنظور نتساءل ماهي المشكلة المركزية في نظرية المعرفة الحديثة؟.

إنّ المشكلة المركزية في نظرية المعرفة الحديثة هي التوفيق بين الطبيعة الذاتية للفكر، وبين دعوانا بأننا نعرف ما هو خارج أفكارنا، وتلك لم تكن المشكلة بالنسبة لأرسطو إذ اعتبر أنّ العقل إنّما يكتشف نظاما كان من قبل موجودا في الواقع حتّى جاء كانط فقلب الوضع الأرسطي، وزعم أنّ النظام في معرفتنا يأتي من العقل وحده، وتقبل بيرس المشكلة الحديثة، وقدم لها الحل الخاص به، واعتقد بأننا على وعي بكوننا نتصل في خبرتنا بالواقع مباشرة، ويتكوّن الواقع من الأشياء الكائنة سواء أفكرنا فيها أم لم نفكر، وإلى هنا يتفق بيرس مع أرسطو، ثم أعتقد أنّ هذه الأشياء

1 - يعقوب فام: البرجماتزم أو مذهب الذرائع، ص148.

2 - زكي نجيب محمود : الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص140، 141.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يتعامل معها الإنسان وفق ما يحمله عنها من أفكار كونها تكوينات عقلية، عناصرها مؤسسة على خبرة جزئية مصبوغة بتاريخنا، وظروفنا، وأهدافنا.¹

تعدّ مشكلة المنهج إذن من أهم مشكلات الفكر العلمي المعاصر فأَيّ نظرية علمية تسعى للموضوعية لابد لها أن تنطلق من قاعدة عامة، أو منهج عام يوضح معالمها ومبادئها وسير عملها.

ومنذ بداية القرن العشرين شعر الفلاسفة، والعلماء بضرورة صياغة منهج علمي جديد يتجاوز الأثر الأرسطي القديم الذي قسّم العلم، والمعرفة إلى أشتات مختلفة، بحيث أصبح لكلّ علم طريقته، ومنهجه الخاص المستقل عن المناهج، والعلوم الأخرى كما لم يعد التفسير العلي الأساس الوحيد للتفسير العلمي، بل أصبح واحداً من التفسيرات العلمية الممكنة في إطار هذا المنهج، والذي برزت معالمه بشكل واضح وبارز مع الفيلسوف البرغماتي بيرس، فما هو المنهج البرغماتي عند بيرس؟.

4- المنهج البرغماتي عند بيرس:

لكن قبل التّطرق إلى المنهج البرغماتي عند ساندرس بيرس تبادر في ذهني سؤال وهو ما معنى كلمة منهج؟ من أهم تعريفات المنهج: "الطريق المؤدي عن الحقيقة في العلم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيم على سير العقل، وتحديد عملياته وبأنه وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة."²

وهذا الوصف يبين لنا مدى أهمية المنهج في الوصول إلى المعرفة والحقيقة المستندة إلى الأدلة والبراهين، وتدل باختلافها على تعدّد المناهج باختلاف أنواع البحوث ومجالاتها، وفروعها، وأهدافها، ومن ثم يرى بعضهم أنّه يجب عدم الاهتمام بمحاولة

1 - زكي نجيب محمود : الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص 138، 139.

2- حسام علي عبد الوهاب: المنهج العلمي بين تشارلز بيرس، وكارل بوبر، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدارسات العلمية سوريا، المجلد 36، العدد 4، سنة 2014م، ص 322.

طرح تعريف عام للمنهج، ولذلك نسعى هنا للكشف عن المنهج العلمي للفيلسوف البرغماتي بيرس.

ارتبطت بداية المنهج البرغماتي بقاعدة بيرس، وأقول المأثور كما تسمى "Maxim" "الأخذ بالنتائج العملية التي ندرك أن تفكيرنا قد يكون على علاقة بها وعندئذ يكون إدراكنا لهذه النتائج هو كلّ مفهومنا عن هذا الموضوع، هذه القاعدة التي عدت النتائج هي مقياس صدق الفكرة أوبطلانها، وبالتالي عدها بيرس الأساس في وصولنا إلى أقصى درجات الوضوح لذا فهو لم يكتف بذكرها ذكراً عابراً، بل يعيد القول بها في أكثر من مكان بين كتاباته.¹

فهو يقول: "لكي نتأكد من معنى أيّ مفهوم عقلي يجب أن نأخذ بعين الاعتبار النتائج العملية التي يمكن أن تحصل بالضرورة من ذلك المفهوم، ومجموع تلك النتائج يشكل المعنى التام لذلك المفهوم."²

انطلاقاً من هذا القول المأثور أصبحت البرغماتية منهجاً في الفلسفة، ولم يتخذ فلاسفتها عند دخولهم مجال البحث الفلسفي طريقة فلسفية خاصة تجعل منهم بناء مذهب فلسفي متكامل قائم بذاته لا يقبل الزيادة أو النقصان كما فعلت المثالية أو التجريبية، بل إنّ المعرفة الإنسانية معرفة محددة، ونسبية قابلة للتغيير بتغير ظروف الإنسان.³

فالبرغماتية عدوة لدودة لكلّ تكلف، أورطانية، أوتعقيد فالفكرة يجب أن تكون واضحة بعيدة عن الغموض، وذات معنى، ولها ما يؤكدّها في عالم التجربة.

فالمنهج العلمي عند ساندريس بيرس هو منهج يعيد العقل إلى الطبيعة، والفكر إلى الواقع بعدما جعلته المدارس السابقة عضواً مقدساً يعلو العالم وظيفته الوصول إلى

1 - وليم جيمس: البرغماتية، ص 63 ، 64.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الجواهر الثابتة الخفية وراء العالم، إنّه منهج للتفكير الواقعي.¹ معنى هذا أن المنهج العلمي ليس اكتشافاً للقوانين التي تسير بمقتضاها الأشياء في الطبيعة لكي نسيطر عليها ونحكم فيها، ونحقق بعض المنافع العملية بل هو البحث الدؤوب والشاق بغية النفاذ، والوصول إلى أعماق الواقع المعاش، والوقوف بدقّة على الحقيقة الكامنة فيه.

يعدّ المنهج البرغماتي كلّ الأفكار التي تطرح لمناقشة "قضية ميتافيزيقيا الوجود هي إمّا رطانة بدون معنى أو لامعقولة، كلمة واحدة تكون معرفة بكلمات أخرى تظلّ هي بحاجة إلى كلمات أخرى من دون أن يكون هناك تصور واقعي قد تمّ بلوغه".²

المقصود هنا أن بيرس يعدّ هذا النوع من البحث محض هراء، ويجب أن يستبعد تماماً، وما يجب أن يبقى من الفلسفة هو سلسلة من القضايا القابلة للتّحصيل وللدراسة العملية، فقيمة الفكرة بالنسبة للبرغماتية ليست في الصّور التي تثيرها وليست في انطباقها على حقائق الموجودات، وإنّما في الأعمال الناجحة التي تؤدي إليها هذه الفكرة.

فالمنهج البرغماتي بهذا المعنى هو "عودة إلى الشخص، و إلى الفعل، فأهمية هذا المنهج يكمن في أنّه قادر على تغيير موقفنا من المشكلات الفلسفية إذا ما اتّخذنا منها دليلاً، ومعيّاراً لسلوكنا، وتفكيرنا وهو يحوّل النّظرية إلى أدوات بعد أن كانت حلولاً لمعضلات، وتهمل السّياق، وأصل الفكرة وماهيتها، والمعطيات والوظائف".³ وهذا بحد ذاته يعدّ تغييراً جديداً في وجهة البحث الفلسفي نحو الإنسان من جديد وترك ما هو نظري تأملي، والإتجاه إلى ما هو عملي مريح.

1 - حسام علي عبد الوهاب: المنهج العلمي بين تشارلز بيرس، وكارل بوبر، ص 323.

2 - يعقوب فام: البرجماتزم، ص 151.

3 - محمود الآغا: المنهج البراجماتي- أصوله ومحتواه، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد الثامن والتاسع سنة 1980-1981م، ص 68.

وبذلك تبقى البرغماتية اتجاهها، وليس مذهباً بالمعنى المألوف للكلمة، فهو أي المنهج البرغماتي لا يأخذ بصحة معتقداته أو مبادئ معينة على سبيل اليقين إنما يمكن اعتباره اتجاهًا يجمع بين عدد من المشتغلين في الفلسفة في إطار من شأنه أن يقرب بين مواقفهم إزاء تناولهم مشكلات الفلسفة التقليدية بالدراسة، والتحليل في عصر البرغماتية يطرح سؤال آخر: هو مامدى تأثير كانط في برغماتية بيرس؟¹

5- أثر إيمانويل كانط في برغماتية بيرس وسبب تغيير بيرس اسم البرغماتية إلى البرغماتيكية.

إنّ القول بطبيعة المعرفة الاختيارية أدى ببيرس للاتفاق مع كانط، ثم أخذ بيرس بعد ذلك يبيّن إمكانية الإمعان في حقيقة "الفكر"، و"المدرّك العقلي" للتوفيق بين ما هو صحيح من بين التفسيرات المتناقضة بين أرسطو، وكانط، وقد صاغ بيرس عام 1878م قاعدته البرغماتية الشهيرة "تدبر الآثار التي يجوز أن يكون لها نتائج فعلية على الموضوع الذي نفكر فيه، وعندئذ تكون فكرتنا عن هذه الآثار هي كلّ فكرتنا عن الموضوع".² معنى هذا أنّ فكرتنا عن أيّ شيء هي فكرتنا عن أثاره المحسوسة الخارجية، وهذه النظرية قدّمتها بيرس للتمييز بين المعرفة الصحيحة والمعرفة الزائفة الخاطئة، لكن ما هو سبب أو الدافع في تغيير بيرس اسم البرغماتية إلى البرغماتيكية؟. أطلق بيرس على مذهبه الفكري البرغماتيكية، ليميّزها عن البرغماتية التي نادى بها جيمس، وآخرون لاعتقاده أنّ البرغماتيكية تذهب إلى أنّ الفكرة يكون لها معنى من خلال أيّ سلوك عملي ممكن تستطيع الفكرة أن تنظمه، أو أن تؤدي إليه، وليس أن تؤدي إلى إدراك حسي مباشر.³ والمقصود هنا أنّ الفكرة أو الفرض يكمن في السلوك الذي يتمخض عنه ذلك المعنى المطلوب.

1 - عزمي إسلام : اتجاهات الفلسفة المعاصرة، ص41.

2 - زكي نجيب محمود : الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص138.

3 - المرجع نفسه ، ص138، 139.

وضع بيرس تصنيفاً لأوجه الحقيقة الرئيسية عن طريق نظرية في المقولات تختلف عن مقولات أرسطو الموضوعية، بأنها تعبر عن جوانب العالم تعبيراً مستمداً من الخبرة الحسية الخارجية المباشرة فصاغ ثلاث مقولات مباشرة.

1- مقولة الرتبة الأولى: المظهر التلقائي للأشياء، وتتمثل بجيشان العقل الحر وهو يصوغ الفروض العلمية، وتشير إلى مافي الكون من تنوع، ونمو.

2- مقولة الرتبة الثانية: عنصر الثنائية في الخبرة، وتتلخص بأن الخبرة تتأتى من خلال مقاومة كائن ثان أو شيء آخر لأن الشيء بلا معارضات لا يكون له وجود بحكم الأمر الواقع.

3- مقولة الرتبة الثالثة: الإستمرار، وخاصة في الفكر الذي يكشف لنا عن الضروب التي عسى أن نجدها في النواحي الأخرى، ويطلق ساندريس بيرس على هذه المقولة اسم القانون.¹ لقد أراد بيرس بمقولاته أن يوجه الانتباه والإهتمام إلا ملامح خبرتنا الأكثر أهمية، وهي الملامح التي لابد كذلك أن يختص بها التفكير الميتافيزيقي.

لقد اتهمت الفلسفة البرغماتية بكثير من النقائص، والمساوئ التي مازالت تدفعها عن نفسها بكل ما تستطيع من قوة، وإنما نريد هنا أن نستعرض بعض النقد والدحض الذي وجه لها لنرى مبلغ صحته.

تعقيب على أراء بيرس:

عاد بيرس إلى الحديث عن القضية البرغماتية عام 1902م بعد أن وضع صيغته المبكرة عنها عام 1878م فقال في المجلد الخامس من أعماله ما يلي: " لقد برهنت القضية عن نفسها للكاتب يقصد بيرس نفسه بعد سنوات كثيرة من المحاولة وذلك بعد أن ظهرت فائدتها العظيمة في قدرتها على أن تؤدي بنا إلى أقصى درجة من

¹ - محمد بن سالم الفيقي: إطلالة على البرجماتية، بتاريخ 2 ديسمبر 2011م.

<http://www.faifaonline.net/faifa/articles-action-show-id-1997.htm>.

وضوح الفكر نسبيا، وسنخاطر بأنّ ماقترحانه بإمكاننا وضعها موضع الممارسة مع الدقة البالغة، ولكن بعد أن يتمّ هذا وليس قبله، مازالت هناك درجة أعلى من وضوح الفكر التي يمكن تحقيقها، وذلك نتذكر فقط أنّ الخير الأسمى للحقائق العلمية الخاصة بتوجيهها نحو القصد الذي يمكن أن يساعد في تطوير أكبر للحقائق الأنا المعقولة لأنّ معنى التّصور أنّه يستحيل تحقيق أيّة ردود فعل فردية على الإطلاق، ولكن المهم هنا الطريقة التي تساهم بها ردود الأفعال.¹

والمقصود من هذا النصّ أنّ الوضوح بالنسبة لمعنى التّصوير العقلي يزداد إذا كان الإنسان يستطيع أن يتحقّق من ذلك بالتّجربة الحسية، بالإضافة إلى إمكان تطبيق القضية البرغماتية، وذلك بالإسهام الذي يقدّمه التّصور لتطوير الأنا المعقولة وبرغم ذلك فإنّ النصّ مليء بالمشكلات، والالتباسات التي تدور حول اللفظ الغامض والمضطرب للمعنى.

ومما يثير عجب الإنسان أنّ الإهتمام لا يتغير فهو يتوجه نحو الأفكار أكثر من توجهه نحو التّوسع في مدلولها العيني المشخص، إلّا أنّه في موضع آخر عندما ناقش فرض واقعية وجود الله تعالى، فإنّ بيرس يكتب أنّ البرغماتي يعتبر أن الأساس الجوهرى المطلق للفرد يجب أن يكمن في قيمته أي في ضبط سلوك الإنسان البالغ في الحياة، فهل لا يخلط بيرس هنا بين المدلول المجرد، والمدلول المشخص للعلامة؟²

ومن جهة أخرى يتضمن تفسير الأنا المعقولة كلّ فلسفة ساندريس بيرس الميتافيزيقية والكوزمولوجية لذلك يبدو أنّ مستوى المعنى يستند على الفلسفة أكثر ممّا يقدم لنا معيارا لمعنى المصطلحات الفلسفية، وليس من الواضح تماما إذا كان هذا المعنى الثري يعلو المعنى المقصود في القضية البرغماتية كما يبدو في الجزء الأوّل من النصّ المقتبس، أو إذا كانت بعض الرّموز المحددة يمكنها أن تساهم في إظهار

1 - تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص 42.

2 - المرجع نفسه ، ص 42.

الأنا المعقولة دون أن تحتوي على المعنى بالمعنى المحدد في القضية البرغماتية كما يقترح بيرس في نهاية النص السابق، والذي جاء فيه أن معنى التصور لا يكمن في أي من ردود الفعل الفردية على الإطلاق، وعلى أية حال فإن هذه النصوص تصبح وثيقة الصلة بالموضوع عندما يتساءل المرء عن نوع المعنى المستخدم في الرموز الرياضية، والفيزيائية.¹

ويبدو أن الموقف الناتج عما سبق أن ساندريس بيرس لم ينكر الصيغة المبكرة للحكم البرغماتي، ولكنه لم يكن يعتقد أن تحليل المعنى الذي تضمنته هذه الصيغة مع تأكيده على الخبرة الحسية التي تأتي عقب الفعل هي كل ما في الموضوع حتى بالنسبة للرموز الخاصة بالمعنى الذهني فالأخيرة بالتأكيد هي القضية، وبالنسبة لبيرس فقد أدركها أيضا، ومع ذلك فإنه يصعب علينا أن نقول أن بيرس أعطى صيغة مقنعة وواضحة لأوجه المعاني المختلفة، فضلا عن أنه لم يعبر عنها في النصوص المبكرة التي قدمها عن الحكم البرغماتي.² وبهذا فإن نظرية العلامات عند بيرس تعدّ نظرية غير كاملة وناقصة، غير أن اقتراح بيرس الأخير بإضافة المعنى إلى ما أشار إليه بطريقة غامضة، وغير مفهومة مازال بحاجة إلى تفسير عميق للعلاقة المعنى بالفعل لذلك فإنه حتى في هذه النقاط، فإن بيرس يتمسك بوجهة النظر التي مؤداها أن هناك علاقة جوهرية مشتركة بين المعنى، والفعل.

ولهذا السبب فإن مانلي طومسون Manley Thompson كتب في بحث بعنوان الفلسفة البرغماتية عن تشارلز ساندريس بيرس يقول: "أنه كان قادرا على أن يذكر أن فلسفة بيرس يمكن النظر إليها كفلسفة برغماتية.³ ومن هذا المنطلق يمكن تلخيص مجمل أفكاره كالآتي:

1 - تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص 42.

2- المرجع نفسه، ص 44.

3- المرجع نفسه، ص 45.

أنّ تأثير العلم الحديث على نظرية المعرفة لديه واضح من خلال:

1. نظريته للأفكار على أنّها جميعا مماثلة للفروض العلمية التي يمكن تحقيقها في نظريته عن البحث التعاوني.
2. حل مشكلة الذات، والموضوع في الفلسفة الحديثة بأنّ قدّم نظرية دينامية عن الصّدق تفسح مكانا للبحث التجريبي، والجهد الأخلاقي.
3. ترك الكثير من المسائل المنطقية دون أن يمسها، ودون أن ينسق نتائجها التي انتهى إليها تنسيقا فيها أدنى درجات الكفاية.¹

وكما هو معروف أنّ بيرس رفض تسمية مذهبه بالمذهب العملي، وظلّ يؤكد بأنّ منهجه هو قاعدة منطقية علمية قبل أيّ شيء آخر، في حين إنّ وليام جيمس استعمل فكرة المنهج البرغماتي في تطبيقات، وقضايا مختلفة، ومواضيع متعددة وهذا التّناول للمنهج البرغماتي شكّل خلافا، واشكالية فلسفية بين جيمس، وبيرس الذي لم يرغب في أن يشغل منهجه في الأخلاق، والدين وما شابه ذلك.

هنا يظهر الخلاف، والتصادم بين مذهب بيرس المؤسس، وجيمس التلميذ، فعلا ما تنطوي فلسفة جيمس؟، وما هي المواضيع، والقضايا التي استعمل فيها المنهج البرغماتي، والتي شكّلت موضع الخلاف بينه، وبين أستاذه؟، أو بالأحرى من هو وليام جيمس؟.

1- زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، ص 150.

ثانياً - فلسفة وليام جيمس البرغماتية:

يعدّ الفيلسوف الأمريكي **وليام جيمس** من أكبر دعاة الفلسفة البرغماتية، فإذا كان بيرس مؤسس الفلسفة البرغماتية وواضع أصولها، وركائزها فإن **جيمس** هو من نشر أفكار الفلسفة البرغماتية بين العامة، والخاصة ذلك بفضل أسلوبه الساحر واستخدامه للكلمات، والعبارات، والمعاني البسيطة التي يفهمها جميع الناس عكس أستاذه **بيرس** تماماً الذي كان يستخدم الأسلوب الصعب في التفسير، ويستعمل العبارات، والكلمات العسيرة الفهم التي يصعب إدراكها، واستيعابها، فكيف كانت مسيرته الفلسفية يا ترى؟.

أ - حياته الفكرية:

ولد **وليام جيمس** في نيويورك عام 1842م، وبعد أن أمضى بضع سنوات في المدارس الأمريكية الخاصة أرسل مع أخيه **هنري Henry James**¹ الذي يكبره بسنة واحدة إلى المدارس الخاصة في فرنسا، وهناك وقع على بعض الكتب في علم النفس وأخذ في مطالعتها، ولقد أمضى أخوه **هنري** معظم حياته في الخارج وتجنّس بالجنسية البريطانية، وبفضل اتّصاله المتواصل بالثقافة الأوروبية اكتسب نضجاً لم يحصل عليه **وليام** الذي عاد إلى أمريكا، وشعر بشباب شعبها، وثروة أمالها المفتوحة أمام الجميع، وفي عام 1870م نال إجازة الدكتوراه من جامعة هارفارد، واشتغل بالتدريس فيها من 1872م إلى أن وافته المنية عام 1910م.²

1 - هنري جيمس: هو أخ وليام جيمس الأصغر، من أعلام القصة الحديثة لا في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها بل في الأدب الحديث كلّ، تلقى مبادئ الدراسة في جنيف ثم في بون على يد أساتذة مختارين، من أهم آثاره "رودريك هدسون" سنة 1876م، ورواية "ديزي ميلر" سنة 1879م ورواية "صورة سيده" سنة 1881م أما أهم أقاصيصه قصة "ما عرفته تيري" 1897م، وقصة "ودورة البرغي" 1898م، وقصة "الينبوع المقدس" سنة 1901م، من مواليد 1843 - 1916م .

2 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف بيروت، الطبعة السادسة، سنة 1988م، ص616.

امتاز وليام جيمس بروعة تحليله الذي انتهى به إلى الإقبال على الفلسفة، والعودة أخيراً إلى الميتافيزيقا نفسها، وهو يقول أن الميتافيزيقا ليست سوى مجرد محاولة للتفكير في الأشياء بوضوح، ويعرّف الفلسفة بطريقته البسيطة بقوله: "إنّها التفكير الوحيد بالأشياء في أفضل طريقة شاملة مدركة".¹ فقد كان هدفه هدم الفلسفة التأملية الميتافيزيقية، والمذاهب المطلقة المجردة، والقبلية المغلقة، وجمع بين الثقافات العلمية التجريبية، والفلسفية النظرية، والدينية، والخلقية معاً، فهو يحتل مكانة فلسفية مرموقة بين الفلاسفة المعاصرين، فهذه نبذة عن حياته الفكرية، فماذا عن حياته العلمية؟.

ب-حياته العلمية:

بدأت حياة جيمس العلمية بدخوله مدرسة "لورنس" العلمية قسم الكيمياء هارفارد سنة 1861م، وكان عمره تسع عشرة سنة لكنّه ترك القسم، واتّجه إلى دراسة التشريح وعلم وظائف الأعضاء، ثم في عام 1864م دخل قسم الطب بجامعة هارفارد، وفي عام 1865م ذهب جيمس في رحلة طلابية إلى الأمازون، وأصيب في تلك الرحلة بمرض الجدري، واشتكى من مصاعب صحية كثيرة، فقطع الرحلة وعاد إلى وطنه ليواصل دراسته إلى أن عين في عام 1867م طبيباً بالمستشفى العام لـ "مساشوتش" ثم عاوده المرض ف شعر بأرق واضطراب الهضم وأوجاع العين، وانحطاط في روحه المعنوية، فرحل إلى أوروبا طلباً للاستشفاء، ثم عاد في عام 1868م، وحصل على شهادة الدكتوراه في الطب عام 1869م²، إلّا أنّ المرض عاوده أشد من ذي قبل فأصيب بالوسوسة، ويبدو أنّ مرض جيمس هو مرض نفسي.³

بعد أن كانت حياة جيمس ذات طابع علمي، عمل على تغيير هذا الطابع في عام 1875م نحو علم النفس، والفلسفة مما جعله يسهم في بروز "المنهج الأداتي" في

1 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص 616، 617.

2 - Benton, William: *Encyclopedia Britannica*, Vol. 12, by a society of Gentlemen in Scotland , Inc. U.S.A. 1973, p 864.

3 - وليام جيمس: البرغماتية، ص 12.

علم النفس، والذي كان العنوان البارز في فلسفة ديوي، وتعتبر ظاهرة الانفعال أشهر القضايا النفسية التي نظر إليها بنظرة علمية، وهي القضية التي عرفت بنظرية جيمس¹، إلا أنّ طابعه العلمي لم يتلاشى لأن علم النفس الذي نحا منحا لم يكن العلم العقلي التقليدي بل كان علم النفس التجريبي، وبذلك عمل جيمس على الربط بين الفسيولوجيا وعلم النفس²، لكن رغم ذلك يبقى السؤال مطروحا: ماهي أهم أعماله ومؤلفاته؟.

ج- أبرز أعماله ومؤلفاته:

لجيمس مجموعة من المؤلفات كان لها صدى واسع في الفكر الأمريكي بشكل خاص، والفكر العالمي بشكل عام، وخاصة مؤلفاته في مجال الفلسفة ذلك بعد أن أصبح أستاذا للفلسفة عام 1885م.³

ومن المشاكل التي شغلت وليام جيمس طوال حياته الفلسفية مشاكل "الواحد والكثير" أي الوحدة والتعدد، وهذه المشاكل تعرّض لها وهو يبحث في الأخلاق حيث كتب مقالا سنة 1884م بعنوان "مصاعب الجبرية" "Dilemma of Déterminism" ناقش فيه مسألة الجبرية، وحرية الإرادة منتهيا إلى رفض الجبرية، وإقرار حرية الإنسان، والجبرية متصلة بشيئين هما فلسفة المطلق، وفلسفة الواحدية، فالقائل بهما في نفس الحين قائل بالجبرية، أمّا القائل بحرية الإنسان فهو قائل بالتعددية لأنها حسب جيمس تضم الجد، والإمكان اللذان يشكلان أهم ركائز الإرادة.⁴

1 - خلف الجراد: معجم الفلاسفة المختصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان الطبعة الأولى، سنة 2007م، ص71، 72.

2 - بيرري رالف بارتون: أفكار، وشخصية وليم جيمس، ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية بيروت سنة 1965م، ص 149، 198.

3 - William James: **Le Pragmatisme**, traduit par E. Le Brun, Introduction de Henri Bergson, Paris , Flammarion, 198 6, p156.

4 - William James: **Le Pragmatisme**, p156.

أما في عام 1891م كان مؤلفه الأول "أصول علم النفس" في مجلدين كبيرين وكان هذا الكتاب فتحاً جديداً في ميدان الدراسات النفسية بسط فيه جيمس وجهة نظره في دراسة علم النفس دراسة مستندة على التجربة، ومبنية على المعارف البيولوجية والفيسيولوجية، ووجه فيه العناية في ميدان علم النفس بالوظائف وتناول التفكير والمعرفة باعتبارهما أداتين نستعين بهما في نضالنا في الحياة ودافع جيمس في دراسته النفسية عن إرادة الإنسان الحرة، وحين جاء جيمس بكتابه في علم النفس بدا وكأن اهتمامه قد فتر في هذا المجال، ومع أنه كان أول من أنشأ معملًا تجريبيًا لعلم النفس في الولايات المتحدة الأمريكية فقد سئم العمل في المعمل، وأحس أنه لا يلائم طبيعته، ولامزاجه، وكان جيمس قد أدرك أن علم النفس يبدو موضوعاً ضامراً نحيلاً أمام مشكلات الفلسفة والدين، وتبعه كتاب آخر في علم النفس كان عنوانه "أحاديث سيكولوجية إلى المدرسين" Talks to teachers on Psychology عام 1899م.¹

أما في مجال الفلسفة فقد بدأ بكتاب "إرادة الاعتقاد"، The will to Believe في عام 1797م، وقد ترجمه الدكتور محمود حسب الله إلى اللغة العربية سنة 1946م ونشره ضمن مؤلفات الجمعية المصرية الفلسفية، وفي هذا الكتاب خمسة فصول ومقدمة تمّ فيها تعريف وليام جيمس، أما الفصل الأول يتحدث فيه عن بعض نتائج البحوث النفسية المسائل التي لم تدخل تحت قاعدة ونظرة العلم إليها، جمعية البحوث النفسية وتاريخها وعنايتها بهذه المسائل، بحث مسائل تجاوب الأرواح والتنويم المغناطيسي، إحصائية لحالات الإضطراب الذهني، بحث مسائل الوساطة، النفس الكامنة التي لا يعبر عنها الحس الظاهر، العلم وموقفه من المسائل التي عنيت بها الجمعية، ومن بحوثها النظرة الميكانيكية للحياة، والنظرة الرومانتيكية لها.²

1 - وليام جيمس : بعض مشكلات الفلسفة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مراجعة زكي نجيب محمود المؤسسة المصرية العامة لتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1962م، ص 8.

2 - وليام جيمس : إرادة الاعتقاد، ترجمة محمود حب الله، دار جياء الكتب العربية، مصر، سنة 1897م ص4.

أما الفصل الثاني يتحدث فيه عن عظماء الرجال، وبيئتهم، ارتباط جزئيات العالم بعضها ببعض، وتضامن الأسباب فيه اضطرار العقل الإنساني للتحديد من دائرة تفكيره، وجود دوائر مختلفة وطبقات متعدّدة في الطبيعة، تفرقة داروين بين أسباب وجود الاختلافات وأسباب الاحتفاظ بها، أسباب وجود العظماء وأسباب الاحتفاظ بهم وأثرهم في البيئة، أراء هيربرت سبنسر¹ والآن في هذا الموضوع ونقدها، اقتباس من أقوال والاس، وجريزا نوسكي، قوانين التاريخ وبيان طبيعتها، أثر البيئة في التطور العقلي نقد لأراء سبنسر في نشأة الأفكار العقلية، أما الفصل الثالث يحتوى على أهمية الأفراد قد تكون المفارقات الضئيلة مهمة، المفارقات الفردية وأهميتها في التطور الاجتماعي مبررا تمجيد العظماء والأبطال.²

أما الفصل الرابع نجد فيه فلسفة الأخلاق والحياة الخلقية، تقترض فلسفة الأخلاق نظاما فلسفيا واحدا منشأ الأحكام الخلقية، منشأ الحسن والقبح، الإلزام وعلاقته بالطلب، تعدّد المثل وتضاربها، هل هناك مخلص من ذلك التّضارب؟، هل من الممكن وجود نظام خلقي ذهني عام؟، التّفارقة بين المزاح الحاد، والمزاح السهل المعتدل، العلاقة بين الدين والأخلاق، أما الفصل الخامس فهو يتحدّث عن قيمة الحياة، المزاح التّفاؤلي والمزاح التّشاؤمي، الملائحوليا الدينية وعلاجها، إخفاق الدين الطبيعي، العلاج النّفسي للتّشاؤم، الأديان السماوية و التزامها اعتقادا في عالم غير مرئي، الدين العلمي للإنسانية وقيمتها، الشك وأثره في تحديد السلوك، العقيدة وبرهنتها على نفسها، **ينطق جيمس في** هذه النّظرية من أن يثبت صحة كلّ شيء لهذا تكون رغباتنا ودوافعنا الذاتية هي الأساس في إثبات وتقرير صحة الأشياء التي لا يمكن للعقول إثباتها، فهناك إذاً طريقتين للاعتقاد هما: طريق العقل وطريق الوجدان.³

1- هيربرت سبنسر فيلسوف بريطاني مؤلف كتاب " الرجل ضد الدولة" الذي قدم فيه رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها، وقد ساهم في ترسيخ، وتثبيت مفهوم الإرتقاء، وأعطى له بعدا اجتماعيا، فيما عرف لاحقا بالدارونية الاجتماعية، وهكذا يعد واحدا من مؤسسي علم الاجتماع الحديث، من مواليد 1820- 1903 م .

2 - وليام جيمس : إرادة الاعتقاد، ص4.

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ثم نجد "كتاب خلود النفس" سنة 1898م، و"أحاديث إلى المعلمين في علم النفس وإلى الطلاب في المثل العليا في الحياة" سنة 1899م¹، وحين أتم كتابه في علم النفس بدأت تأملاته تتجه إلى طبيعة الله، وجوده وخلود النفس، وحرية الإرادة، وقد امتازت دراساته في هذا الميدان بالتجديد، والعطاء، والإنطلاق ذلك لأنه كان ميالا إلى التأمل العملي، بعيدا عن الخوض في المناقشات الجدلية، ثم أعقبه كتابه الشهير "تنوع التجربة الدينية" عام 1902.²

وكان له الدور في إضفاء صبغة دينية على فلسفة وليام جيمس بشكل عام كما جعل هذا المؤلف كثيرا من أصحاب الدين، واللاهوت يغيرون نظرتهم عن الفلسفة البرغماتية على أنها فلسفة إلحادية، وجاء هذا الكتاب مكملًا لكتاب "إرادة الاعتقاد" وجاعلا من الاعتقاد الديني عامة التزاماً إزاء العنصر الإلهي - أوالفائق على الطبيعة- من عناصر الحقيقة الكونية، كما يعد كتاب تنوع التجربة الدينية غوصا إلى أعماق الحياة الباطنة، وكشفاً لحجبها.³ فهو بذلك لا يقتصر على الجانب الديني فقط، بل يذهب أبعد من ذلك ويتناول الجانب "النفسي السيكولوجي"، ويعالج مشكلة الحرية أيضا، وركز وليام جيمس في كتابه هذا على التجربة الفردية الخالصة وأهمل دراسة الدين الذي يستند إلى المبادئ والأسس العقلية، فهو يضيق ذرعا بالجدل اللفظي الذي تتضمنه الكتب الدينية، ويعتبر الدين هو المركز الداخلي واللب الجوهرية للحياة الإنسانية.⁴

ثم جاء بعد ذلك كتابه البرغماتية "Pragmatism" والذي كان بدوره مجموعة من المحاضرات التي ألقيت في معهد "لوول"، وجامعة "كولومبيا"، وفي هذا الكتاب ثمانية فصول، فأما الفصول الثمانية فتبحث على التوالي في ماهي المعضلة الراهنة في

1 - وليام جيمس : بعض مشكلات الفلسفة، ص9.

2 - كامل فؤاد وآخرون: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص181.

3 - وليام جيمس: بعض مشكلات الفلسفة، ص 10، 9.

4- رالف بارتون بيرري: أفكار، وشخصية وليام جيمس، ص 356.

الفلسفة؟ ثم شرّحه لما تعنيه البرغماتية، يعقبه تطبيق على طائفة من مشكلات الميتافيزيقا، وبعد ذلك يفرد فصلا خاصا لمشكلة " الواحد والكثير"، يليه فصل يحدّد فيه العلاقة بين المذهب البرغماتي من جهة، وإحكام الإدراك المشترك من جهة أخرى، وفصل آخر يحدّد فيه معنى الصّدق في المذهب البرغماتي وأخيرا يتناول الجانب الإنساني من هذا المذهب، ثم يوضح موقفه من الدين.¹

تلك هي الفصول الثمانية، أمّا الملحق فكلّه خاص بمعنى الصّدق كما يراه على أساس المذهب البرغماتي، وهذا الكتاب يتضمن عرضا واضحا لمنهج جديد في التّفكير، والعمل مستندا إلى التّجربة الأصيلة، والبرغماتية تتوقى أن تدخل في فلسفة المنهج العملي التّجريبي الذي ثبتت صحته في الكثير من الميادين العلمية وذلك بفضل حرصه على التّحقّق الفعلي من كلّ فكرة أو نظرية.²

ومن مؤلفاته أيضا نجد "بعض مشكلات الفلسفة" وفي هذا الكتاب نجد اثنتي عشرة فصل، بالإضافة إلى المقدمة أمّا الفصل الأوّل يعالج فيه مشكلة الفلسفة ونقاداتها الفلسفة وأولئك الذين يكتبونها ماتعنيه الفلسفة، قيمة الفلسفة، أعداء الفلسفة واعتراضاتهم، الاعتراض القائل بأنّ الفلسفة ليست عملية، هذا الاعتراض في ضوء التّاريخ، الفلسفة في تفكير الإنسان أصل وسائل الإنسان الحالية في التّفكير، العلم فلسفة متخصصة، الفلسفة هي ماتبقى من مشكلات لم يجد لها العلم حلا، لا حاجة بالفلسفة إلى القطيعة، ليست الفلسفة منفكة عن الواقع، الفلسفة ميتافيزيقا.³

أمّا الفصل الثّاني فهو يتكلم عن الميتافيزيقا، نماذج من المشكلات الميتافيزيقية تعريف الميتافيزيقا، طبيعة المشكلات الميتافيزيقية، المذهب العقلي والمذهب التّجريبي في الميتافيزيقا، أمّا الفصل الثّالث فهو يناقش فيه مشكلة الوجود شوبنهاور، طرائق متنوعة في دراسة المشكلة، و طرائق العقلين والتّجريبيين البقاء يعني الخلق، أمّا

1 - وليام جيمس: البرغماتية، ص7.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3 - محمود زيدان : وليم جيمس، ص 15، 16.

الفصل الرابع يعالج فيه المدرك الحسي والتصور، المعرفة التصويرية ووجهة النظر التجريبية مضمون التصورات، القاعدة البرغماتية أصل التصورات هونفعها الاستخدام النظري للتصورات، التصورات تأتي بقيم جديدة.¹

أما الفصل الخامس نجد فيه المدرك الحسي والتصورات، سوء استعمال التصورات المذهب العقلي، نقائص الترجمة التصويرية، أصل النزعة العقلية القصور في النزعة العقلية، أما الفصل السادس يتكلم عن المدرك الحسي، إمكان الابتكار، الأنظمة التصويرية مناطق متميزة، أما الفصول: السابعة، والثامنة والتاسعة، والعاشر والحادي عشر، والثاني عشر والثالث عشر يعالج فيها الواحد والكثرة، مشكلة الجودة، الجودة واللامتناهي وجهة النظر التصويرية الجودة واللامتناهي وجهة النظر الحسية، الجودة والعالية وجهة النظر التصويرية الجودة والعالية وجهة النظر الحسية.²

عقبه كتاب آخر كان بعنوان مقالات في التجريبية الأصيلة "Essays in Radical Empiricism" وفي سنة 1908م ألقى جيمس مجموعة من المحاضرات في كلية مانشستر في اكسفورد، نشرت بعد ذلك تحت عنوان "الكون المتعدد" Pluralistic universe، وقد كرّس وليام جيمس كتابه التالي "معنى الصدق" Meaning of truth الذي صدر 1909م للدفاع عن نظريته البرغماتية في الحق وإعادة عرضها.³

أخذت أبستمولوجيا نظرية الصدق البرغماتية عند جيمس بعدا جديدا، فيه طعم جديد مختلف بالتأكيد عما هو عليه عند مؤسس البرغماتية بيرس، فمثلاً وليام جيمس في محاولته تحديد العقائد الصادقة أكد على أنها تلك العقائد التي ثبتت إنها نافعة للمؤمن بها هذا طرف، والطرف الثاني إنّ نظريته البرغماتية للصدق هي نظرية تركيبية جمعت بين نظرية التطابق، ونظرية الإنساق "أو الإنسجام" مع بعد إضافي وهو أنّ الصدق ممكن التحقق منه من خلال الأفكار والقضايا التي تطابق الأشياء الواقعية

1 - محمود زيدان : وليام جيمس، ص 15، 16.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - محمود زيدان : وليام جيمس، ص 15، 16.

إضافة إلى ربطها سوية بحيث تتسق معا، كما هو الحال في أجزاء لغز متفرقة ينبغي أن تتسجم سوية، وأن هذه الأفكار يمكن التحقق منها عن طريق النتائج الملاحظة أثناء تطبيقات الفكرة في مضمار التجريب الواقعي.¹ نلاحظ في كتابات وليام جيمس الإستمولوجية صدى لمبدأ الوضعية المنطقية في التّحقّق، ويرجع الإهتمام العظيم الذي أحرزته مؤلفاته إلى التأثير العميق الذي قامت به الفلسفة العملية في الفكر الحديث.

1- المراحل الرئيسية في تطوره الفكري:

ومن خلال دراسة، وتتبع مؤلفات جيمس حسب تسلسلها التاريخي، سوف يتّضح لنا بأنّ هناك ثلاث مراحل رئيسية مهمة في تطوره الفكري، المرحلة الأولى هي انشغال جيمس بعلم النفس، أمّا المرحلة الثانية فقد انصب اهتمام جيمس بدفاعه عن البرغماتية بشكل رئيسي، وأخيرا مرحلة ما أسماها جيمس بالواحدية المحايدة، فما هي الأطوار العقلية المهمة التي مرّ بها حتّى وصل إلى بناء منهجه؟.

*اهتماماته ودراساته النظرية في علم النفس:

تناول جيمس نظرياته السيكلوجية في كتابه مبادئ علم النفس، الذي يعدّ من أشهر الكتب التي كتبت في علم النفس، فهو يعرف علم النفس بأنّه وصف وشرح حالات الوعي من حيث كونها حالات وعي.²

وقد استخدم جيمس في دراسته لعلم النفس منهج الملاحظة الإستبطانية³، ولم يكن للمنهج التجريبي دور فعال آنذاك لأنّه كان يعتقد بأنّ المجهود الجبار لتحديد كيفية قيام العقل بوظائفه في التجربة لا يمكن أن يتمّ إلّا بالنظر إلى الباطن، وتعدّ نظرية

1 - محمد الفرحان : مقدمة في الإستمولوجيا تاريخ، ومدارس، مجلة أوراق فلسفية جديدة، المجلد الأول، العدد الأول، سنة 2011م <https://philospaper.wordpress.com/2011/02>

2 - علي زيعور : مذاهب علم النفس، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة 1980م، ص120.

3 - زكي نجيب محمود : الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص 177.

تيار الفكر أهم نظرية لجيمس في مجال علم النفس، فالوعي عنده يتكوّن من حالات مرتبطة مستقلة قائمة بذاتها، وكل حالة من حالات الوعي ترتبط بالكلّ وتتأثر به.¹ وبناء على ذلك فإنّ كلّ حالة مثل العطف أو إحساس فكرة هي جميعها لشخص ما وإنّ كلّ حالة من هذه الحالات في حالة تغير مستمر، فالأحاسيس دائمة التغير في كلّ حادث نفسي، وإنّ الوعي مستمر، وإنّ اهتمامه بأجزائه المتكوّن منها غير متكافئ إنّما يختلف هذا الإهتمام من عنصر إلى آخر فهو يهتم ببعضها، ويهمل البعض الآخر.²

ووفقاً لهذه النظرة فإنّ جيمس قد خالف ما كان يذهب إليه علماء النفس في أوربا³ والذين يرون بأنّ العقل هو سلسلة من الأفكار المنفصلة، والتي ربطت حلقاتها ربطاً آلياً⁴، بل إنّ العقل في نظر جيمس هو أداة إيجابية للنشاط الفعّال الذي يقوم به الإنسان للتكيف مع بيئته، وأصبح العقل عنده مرتبطاً بالسلوك النافع، وهكذا يتّضح بأنّ جيمس قد انطلق في برغماتيته من علم النفس الذي خالف فيه جميع من سبقه إلّا أنّ براجماتيته هنا لم تكن لها ركائز قوية، ومتينة إلّا بعد مجيء مؤلفه "البرجماتية"⁵، وفي مجال علم النفس أيضاً تعدّ نظرية جيمس في الإنفعالات من النظريات التي لاقت شهرة كبيرة آنذاك.⁶

1 - علي زيعور: مذاهب علم النفس، ص 121.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - أمثال هؤلاء، جون لوك، وجورج بركلي، والذين يرون بأنّ موضوعات الإدراك هي انطباعات تقوم منفصلة ومستقلة، فحين ندرك شيء ما على طاولة فإنّ ما يجري هو أنّ الطاولة تترك انطباعات معينة، وخاصة على حواسنا الخارجية، ثم تنقل هذه الانطباعات بواسطة الأعصاب إلى الدماغ، حيث تصبح حينئذ على وعي كاف بتلك الانطباعات التي غدت أفكاراً كلّ منها مستقل ومنفصل، وتشكل بالتالي مادة معرفتنا بأكملها.

4 - هنري توماس، ودانيال توماس: المفكرون من سقراط إلى سارتر، ترجمة عثمان نويه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1970م، ص 435.

5 - سماح رافع محمد: تاريخ الفكر الفلسفي في العصور القديمة، والحديثة، مؤسسة الفرسان طرابلس، سنة 1971م، ص 298.

6 - رالف بارتون بيرري: أفكار، وشخصية وليام جيمس، ص 269.

وبعد هذا العرض الموجز، والمختصر لأهم ما جاء به **وليام جيمس** في مجال علم النفس ننتقل إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوّر جيمس الفكري ألا وهي مرحلة ظهور برغماتيته ودفاعه عنها، وهذه المرحلة مهمة جداً بالنسبة للفلسفة البرغماتية باعتبارها عاملاً مهماً من عوامل إثبات ركانزها وأسسها، وازدهارها على مستوى شاسع عالمياً.

* دفاعه ونشره لمذهب البرغماتية:

لقد دافع، وأمتدح الفيلسوف **وليام جيمس** مذهبه كثيراً في كتابه: "البرجماتية" مبيناً أهمية مذهبه ودوره في بعث البرغماتية مرة أخرى، بعد أن أصابها الركود بما يقارب العشرين عاماً قائلاً على لسانه: "ولقد ظلّ هذا المبدأ - أي مبدأ البرغماتية - مهملاً تماماً قرابة عشرين عاماً ولم يحفل به أحد، حتى قدّر لي أن أبعثه من مرقدته وأخرجه ثانياً إلى حيز الوجود".¹ ومن هذه اللحظة انطلقت، وانتشرت البرغماتية مرة أخرى على يد جيمس بعد أن كان لها القليل من الشهرة على يد **بيرس**.

بما أنّ الفلسفة البرغماتية ترفض جميع صور التمذهب فإن **جيمس** يرى أنّ الفلسفة البرغماتية تتسجم مع مجموعة من المذاهب الفلسفية القديمة فهي تتفق مثلاً مع مذهب الإسمية Nominalism² في كونها تلجأ دائماً للاصطفائية في التفاصيل الجزئية، وتتفق مع مذهب النفعية Utlitarianism³ في توكيدها للنواحي العملية

1 - وليام جيمس: البرجماتية، ص 66.

2 - مذهب الإسمية : تيار في فلسفة العصور الوسطى، يعتبر المفاهيم والمصطلحات الكلية مجرد أسماء للأشياء الجزئية، وأصحاب المذهب الإسمي يؤكدون أن الأشياء الجزئية وحدها وبخصائصها الجزئية هي التي توجد حقاً ومن أصحاب المذهب الإسمي، روسلين، وجون رونزسكوتس، ووليم الاوكامي.

3 - مذهب النفعية : نظرية أخلاقية برجوازية، تعتبر فائدة فعل ما معياراً حقيقياً، أسسها بنثام الذي صاغ مبدئها الأساسي القائل بأن " السعادة الكبرى لأكبر عدد " تتحقق بإرضاء اهتماماته الفردية، وقد أدخل جون ستيورات مل على المذهب النفعي مبدأ التقدير الكيفي للذة، ومطلب اللذة العقلية على اللذة الجسمية.

وتتفق مع الفلسفة الوضعية Positivism¹ في ازدراءها للحلول الكلامية، والأسئلة العديمة الجدوى، والتجريدات الميتافيزيقية.² نلاحظ هنا انسجام الفلسفة البرغماتية مع بعض من المذاهب الفلسفية الأخرى السابقة الذكر.

كان جيمس صريحا في قوله أن القضية البرغماتية للمعنى يجب أن تطبق في مجال تحديد معنى الصدق، ولنتذكر أن جيمس فسّر هذه القضية بطريقة الفصل أو الجمع المنطقي بين الظواهر كما توجد، أمّا في الاحساسات التي نتوقعها أو ردود الفعل التي يجب أن نستعدّ لها وقد كنّا نتوقع هذا الفرق لكي نبينه في نظريته عن الصدق وقد بدأ بالإعتراف أن الفكرة الصادقة تتطابق مع الواقع، ثم اعترف جيمس بعد ذلك فإن كانت العلامة نسخة من الصورة فإنّ صورة نظرية الصدق تصبح مفهومة، لكن ليس كلّ العلامات صورا، وإذا كان المفسر المنطقي صورة كما قال الفيلسوف ساندرس بيرس عادة إذن كيف يمكن أن تتفق العادة مع أيّ شيء آخر؟ لقد فكّر وليام جيمس في استخدام عدة طرق لكي يعبر بها عن مفهوم الصدق ووجد أن النموذج الأصلي لعملية الصدق هو المبدأ الموجه منطقيا، وتصوريا نحو الفكرة إلى ما يمكن أن يتمّ التّحقّق منه تحقّقا كاملا، وعلى سبيل المثال فإنّ الإحساسات تجعل الإنسان يتوقع ما يحدث بالفعل، وخلاف ذلك يكون بالإمكان تحقيق المبدأ الموجه منطقيا أو صوريا بصورة جزئية، وليست بصورة كلية كاملة.³ يعني جيمس هنا أن الفكرة الصادقة هي الفكرة التي تنسجم مع الواقع الحسوس وبالتالي تعطينا نتائج صادقة، وحقيقية.

1 - مذهب الوضعية : يرى هذا المذهب أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر، ولا سيما تلك التي يتيحها العلم وينطوي المذهب عادة على إنكار إمكان وجود معرفة نهائية "معرفة تتجاوز التجربة" ولا سيما فيما يتعلق بالعلل والأسباب النهائية، وتدّل الوضعية في معناها الواسع على تأكيد الوقائع العلمية، في مقابل التأمّلات النظرية الميتافيزيقية مؤسس هذا المذهب الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت.

2 - وليام جيمس: البرغماتية، ص 74.

3- شارلز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص 84.

ولكن التّطابق مع الوجه الثّاني لعبارة **وليام جيمس** عن القضية البرغماتية يبدو في نصوص تفترض أنّ فكرة ما تكون صادقة إذا كانت تمثّل ردود الأفعال التي تشير إلى أنّنا نستعد لها، وثبت أنّها مناسبة لاستمرار مجريات الفعل الذي ارتبطنا به والعبارة الذي نعرضها الآن سوف تبين لنا بوضوح تام وجهتي نظريته معا¹: "أن يتفق مع الواقع بمعناها الواسع يمكن أن تعني فقط بأن يتم الإرشاد إلى الواقع إمّا مباشرة، أو إمّا إلى ما حوله أن يوضع الواقع في مجال العمل المرتبط به إمّا بتناول شيء ما يتّصل به، وهذا أفضل من عدم اتفاقنا، إمّا أن يكون ذهنيا أو عمليا.²"

نفهم من خلال هذا الطرح أن وليام جيمس أخذ من هذه المذاهب ما رآه ينسجم ويتطابق مع فلسفته، فهو لم يرد لمذهبه البرغماتي أن يكون جامدا لا يستفيد من المذاهب الأخرى بل أراد له أن يكون مرناً يأخذ من المذاهب الأخرى ما يوافق ويطور ويوسع من فلسفته، والسؤال الذي يطرحه الذهن هنا ماهي المرحلة الأخيرة من مراحل تطور جيمس الفكري؟.

***نظرية التجريبية الاصلية Radical Empiricism:**

لا يمكن التّغاضي عن نظرية جيمس المسماة بالتّجريبية الاصلية، باعتبارها تمثل المرحلة الأخيرة من مراحل تطوّر جيمس الفكري، كما كان لها تأثير واضح على من جاء بعده خصوصاً الفيلسوف **جون ديوي**³، هذا كما سمى البعض هذه النظرية بـ"الواحدية المحايدة".⁴

1- شارلز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص84.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - محمود زيدان: وليام جيمس، ص 96.

4 - وهي التسمية التي أطلقها بعض الذين اقتفوا أثر جيمس على نظريته، ليستعيضوا بها عن النظريات الثنائية القديمة، ويقرروا بأنّ هناك مادة أساسية، ومهمة واحدة في العالم، ولا يمكن أن تكون ثنائية.

إن السبب الرئيسي في وضع هذه النظرية هو علاج مشكلة المعرفة البرغماتية المتمثلة في رفض كلّ ثنائية تقليدية كانت منتشرة آنذاك، والتي ترى أنّ الشعور والعالم الخارجي متقابلان وكلّ واحد منهما جوهر مستقل عن الآخر، ووصفت الشعور بأنّه شيء دقيق، مجرد وبسيط يُعرف معرفة حدسية، ولا يدرك إدراكا حسيا بهذا أصبحت له الصبغة الروحية.¹

وهو ما يعني أنّه ينكر المطابقة التقليدية، كما يرفض أيّ معارف فطرية أو قبلية ليرى أنّ المعرفة مكتسبة، وتجريبية، ووظيفتها، ومهمتها ليست غاية، وإنّما هي وسيلة فقط لتحقيق حاجيات وأغراض الإنسان في حياته اليومية، وأهدافه سواء النظرية منها أو العملية.

كان **جيمس** يقرّر بأنّ كلّ فصل بين الذات، والموضوع هو فصل مصطنع لا داعي له لأنّ الفكرة، والمادة لهما طبيعة واحدة لا اختلاف فيها، وهذه الطبيعة التي تسبق الفكرة، والمادة تسمى **باليولي المحايدة**، وهي المصدر الذي نبع منها الفكر والمادة فالتجربة التي نراها أمامنا في زمان، ومكان ما تؤثر، وتتأثر بما حولها نطلق على هذه التجربة نفسها تصورا أو انفعالا.²

وضمن نظرية المعرفة كما ذكرنا سابقا ينكر **وليام جيمس** الثنائية الحاسمة فيما يخص العلاقة بين الذات، والموضوع ويقول: الشعور الإنساني، والموضوعات الفيزيائية ليسا من جنسين مختلفين، وإنّما هما نابعان عن مصدر واحد هو التجربة الأصلية أيضا له في الاعتقاد الديني نظرية يثور بها على المسيحية الكنسية والفلسفات اللاهوتية وعلى التجريبية، ويهاجم بها المشككين، والمحايدون الذين يعتبرهم جميعا منكرين وفي

1 - محمود زيدان : **وليام جيمس**، ص 96.

2 - المرجع نفسه ، ص 98

المقابل يدعم الوجدان، والإرادة لأنّ حسبه لهما دورا إيجابيا في ترسيخ الإيمان متى فشل الذهن.¹

وقد وجد **جيمس** في نظريته هذه سندا من بعض علماء المنطق، وبالأخص **برتراند رسل**، إذ قال مادحا **جيمس** على نظريته هذه: "وأنا من جانبي مقتنع بأنّ **جيمس** كان على حق في هذا الأمر، ويستحق على هذا الأساس وحده منزلة عالية بين الفلاسفة، وقد كنت أظن غير ذلك حتى أقنعني هو، وأولئك الذين يتفقون معه بصدق نظريته".² ولهذا كان لنظريته هذه صدا واسعا، وشهرة كبيرة في جميع انحاء العالم، وقد أخذت حيزا كبيرا من الإهتمام من قبل الفلاسفة.

وهكذا تتضح أهمية هذه النظرية في الفلسفة البرغماتية، التي قال عنها **جيمس** نفسه "إنّ فلسفتي هي ما أسميها بالتجريبية الراديكالية، التعددية التقدمية، التي تمثل النظام على اعتبار كونه يكسب تدريجيا ودائم في صيرورته، إنّها فلسفة تعتقد بالله ولكنها ليست بالضرورة كذلك، وهي ترفض كلّ مذاهب المطلق".³

أقام **وليام جيمس** منهجا فلسفيا واسعا رغبة منه في حلّ المشكلات الفلسفية، وهو ما يعرف بالمنهج البرغماتي، فما هي سمات منهجه يأتري؟.

2- المنهج البرغماتي عند وليام جيمس:

ومن الممكن أن يكون أحد أسباب ولادة المنهج البرغماتي هو ذلك الصراع بين التجريبية من جهة التي تخلص للوقائع الجزئية، والأشياء المحسوسة، والعقلية من جهة أخرى التي تعنى بالحاجات الروحية للإنسان، لكنّها تنتكر للوقائع الجزئية وقد وجد المنهج البرغماتي أنّ كلا المدرستين يهمل جانبا ويهتم بجانب آخر، وكلا

1 - زكرياء إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص 33.

2 - برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية "الفلسفة الحديثة"، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الجزء الثالث الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1977م، ص 466.

3 - رالف بارتون بيري : أفكار، وشخصية وليام جيمس، ص 379.

الجانبين مهمين، فجاء المنهج البرغماتي لكي يفي المطلبين.¹ والسؤال الذي نطرحه الآن: ماهي غاية المنهج البرغماتي؟. غاية المنهج البرغماتي هو توضيح الفكرة ومحاولة الوصول إلى حلّ النزاعات الميتافيزيقية التي كانت مطروحة، وإذا كان لهذا المنهج مميزات فماهي هذه المميزات؟ يتميز هذا المنهج بكونه:

1- ثورة على مناهج العقلين لأنّ مشاكلهم حسبه ليست مشاكل بمعنى الكلمة، وأنّ حلولهم اللفظية الكلامية فقط للمعضلات لا قيمة تذكر لها.

2- منهج تجريبي جديد يرى أنّ القيمة النظرية كامنة في النتائج، والآثار على كل من الفكر، والسلوك.²

لقد زعم شارلز ساندرس بيرس في مفتتح البرغماتزم أنّ الفكرة خطوة تمهيدية للعمل وإحداث النتائج في هذا العالم المحسوس الخارجي، ثم أتى بعده الفيلسوف وليام جيمس وزاد على هذا أنّ كلّ عقيدة تؤدي إلى نتيجة مرضية ومقنعة إنّما هي عقيدة حقيقية وليست الفكرة مشروعا للعمل فقط، وإنّما العمل أو النتائج هما الدليل على صحة الفكرة، وبهذا أخرجنا من معنى الفكرة أو مدلولها إلى عالم الحقائق، فأصبح العمل أو النتائج التي ستترتب على الفكرة الحقيقية برهانا حقيقيا على صحة الفكرة ومنفعتها.³

المقصود هنا أن قيمة الفكرة وصدقها ليست في التصورات التي يبعثها الذهن وإنما في الأفعال، والأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة وفي النتائج التي تنتجها في الواقع المعاش، ولا يهم في هذه الحالة حقائق الأشياء في حد ذاتها فما جميع هذه الإحساسات إلّا معالم تقود العقل إلى السلوك النشود.

1 - رالف بارتون بيرس : أفكار، وشخصية وليام جيمس ، ص51.

2 - زكرياء إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة، القاهرة، سنة 1968م، ص 33.

3 - يعقوب فام : البرجماتزم، أو مذهب الذرائع، ص150.

ومن هذا المنظور نتساءل: هل حقاً أنّ وليام جيمس أراد بالفلسفة البرغماتية أن يقف موقفاً وسطاً بين المذهب التجريبي، والمذهب العقلي؟، بالطبع لقد أراد وليام جيمس بالفلسفة البرغماتية أن يقف موقفاً وسطاً بين المذهب التجريبي والمذهب العقلي، ورأى في كليهما النفع والمصلحة، ولكنه رأى أيضاً أنّ كليهما يهمل جانباً مهماً من جوانب الطبيعة الإنسانية البشرية حيث لاحظ أن:

المذهب التجريبي شديد الإخلاص للوقائع الجزئية، والأشياء المحسوسة، وهذه حسنة تحسب له إلاّ أنّه مهمل للقيم الأخلاقية، والدينية في الإنسان الذي له مطالب طبيعية "الإيمان مثلاً"، وحاجة إلى الحرية، ورغبته في تحصيل الخير والسعادة.¹

أمّا المذهب العقلي يلبي هذه الحاجات غير أنّه يتنكر للوقائع الجزئية التجريبية ورأى وليام جيمس أنّ هذين المذهبين يضعان الفيلسوف في مأزق اختيار أحدهما والإنسان لا يستطيع تجاوزهما معاً أو الجمع بينهما معاً، من هذا المنطلق شعر جيمس أنّه في حاجة إلى اتّخاذ موقف وسط بين هذين الإتجاهين يحقق الإخلاص للوقائع والتجربة من جهة، ويعطي الإيمان بالقيم الروحية من جهة ثانية، فنادى بالمذهب البرغماتي إن المذهب البرغماتي في المطلبين معاً يحتفظ بالدين كالعقليين، ويحتفظ بالإخلاص من العميق للوقائع كالتجربتين.²

إنّ الأساس في فلسفة وليام جيمس كما سبق لي ذكره هو إنكار الحقائق القبلية والاعتقاد بأنّ الإنسان هو مصدر الحكم على الأشياء سواء بالصدق، أو الكذب وأنّه لا وجود لحقائق ثابتة خالدة من واجبنا تأملها، إنّ الضروري هو تبرير حياة الإنسان الروحية إذا ما وجد لها دعماً في التجارب الجزئية، وإذا كان الاعتقاد بها ينتج أثراً حسية ملموسة في العالم الذي نعيش فيه، وفي نفس السياق يمكن طرح سؤال مهم آخر ما سبب اتّجاه جيمس نحو الفلسفة البرغماتية؟.

1 - W. James : **Pragmatism** , p 20.

2 -W. James : **Pragmatism** , p 20.

للإجابة على هذا السؤال: كتب جيمس مقالاً شهيراً بعنوان "ميل الإنسان إلى التفكير الفلسفي"، أبرز فيه أنّ الأبحاث النظرية ناقصة، وأنّ الحلول المناسبة للمشاكل الفلسفية ترتبط بالسلوك العملي بالضرورة، في هذا المقال يرى جيمس أنّ للإنسان حاجيات ورغبات نظرية، وأخرى عملية وأوّل شيء نظري يرغب فيه الذهن هو: التبسيط: يقصد جيمس الذهن ينزح إلى البساطة، ويردّ المعقد إلى البسيط، والكثير إلى الواحد لأنّ النتيجة المبسطة توفر للذهن عدة أمور، وتشعره بارتياح حين يعمل على إدراك وقائع مختلفة يمكن ربطها بواقعة واحدة.¹

التمييز: يقصد جيمس رغبة الإنسان في معرفة الأجزاء، وعدم الاكتفاء بالإدراك العقلي للكل.

إن البساطة، والوضوح ضروريان للفكر كما يرى جيمس لكنّه ينتقل من هذا الحكم إلى حكم آخر، وهو أنّ الفلسفة هي التّصنيف الكامل لجزيئات الكون دون إهمالها وحين ناقش جيمس هذه الفلسفة رأى أنّ وجودها مستحيل، وبالتالي استحالة بناء مذهب نظري صادق إذ تبين لوليام جيمس إنعدام الثقة في المطالب النظرية فاتّجه نحو مطالبه العملية.²

ويرى وليام جيمس أنّ معرفتنا للأشياء بشكل صحيح قائم على مدى تتبّنا بتلك الأشياء و يستمر جيمس في رؤيته هاته ويقول: "إنّ حب الاستطلاع فطرة فينا إنّه يحفزنا للوصول إلى نتائج الأشياء وأثارها، فإذا وصلنا إليها يرتاح عقلنا، وتطمئن نفسنا ونحس بالاعتناء أمّا إذا لم تتحقق هذه الرغبة وحدث العكس سنعيش في قلق وحزن دائمين لكن مستقبل الوقائع قد يحدّد بطرق كثيرة منها ما يتوافق وطبيعتنا ومنها ما لا يتوافق معها، والفلسفة الصحيحة هي تلك التي ترسم المستقبل، والكاذبة هي التي تتجاهل رغباتنا الإنسانية."³ هذه هي فلسفة جيمس العملية كما حدّدناها فهي

1 - يعقوب فام : البرجماتزم، أو مذهب الذرائع، ص 25، 26.

2 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ليست وجهة نظر في أمور الحياة اليومية، بل هي طريقة للوصول إلى حلّ مشكلات وقضايا نظرية لا بتحليلها تحليلًا جدليًا، أو افتراض أفكار قبلية مسبقة بل بمتابعة آثارها الملموسة على أرض الواقع، ونتائجها الدقيقة الصحيحة.

ولقد استخدم **جيمس** هذا المنهج في نظريات عدة في "المعرفة والميتافيزيقيا والدين" بغرض توضيح ثلاث مشكلات هامة: "التدبير في الكون، خلاص العالم فردانية التجربة الدينية"¹، وهذا ما سأطرق إليه الآن.

المنهج البرغماتي وتدبير الكون:

اعتقد الإنسان منذ القدم بأنّ العالم نظام تسير عليه الحوادث، والوقائع، وأنّ بعض الأشياء ملائمة، ومكملة لبعضها الآخر، ولا شيء يعرقل ما في العالم من انسجام وتناغم، وهذا الاعتقاد الديني السائد تناوله جيمس برغماتيا فقال: "إنّ داروين قلّص من هذا الاعتقاد حين جعل الصدفة عنصرا مهما في الحوادث"²، ويعتقد جيمس أنّ فكرة تدبير الكون فكرة وهمية بل، والأكثر من هذا هناك ما يثبت ذلك: فمثلا نلاحظ في الطبيعة انقراض العناصر الضعيفة أو التي لا تتناسب، والبيئة.³ حسب اعتقاده هنا أنّ فكرة تدبير الكون فكرة خرافية.

المنهج البرغماتي وخلاص العالم:

لم يقتنع **وليام جيمس** دوماً بآراء الكنيسة حول فكرة الخلاص غير أنّه حذّر من تجاهل الفكرة لأنّ في ذلك نزعة تشاؤمية⁴، وهو لا يرى أنّ الله هو المسؤول عن تخليص النّاس من خطاياهم بعونه ورحمته، بل الإنسان هو من يتخلّص من خطاياهم بما يفعل من عمل، وفعل الخير، فاللحظة التي تحقّق فيها رغبة طيبة هي لحظة

1 - يعقوب فام : البرجماتزم، أومذهب الذرائع، ص25، 26.

2 - زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص 25.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 - W. James : Pragmatism , P 288.

من لحظات الخلاص في هذا العالم الذي نعيش فيه، وليس في عالم آخر إلا أن هذا الكلام لن يكون له أي معنى إذا كان العالم كاملاً خالداً لا يضيف إليه أحد أي جديد أو يسدّ ثغرة من ثغراته.¹

وبإضافتنا الجزئية أنا، وأنت، ونحن، وهم إذا ما رغبتنا في الخلاص، وحقّق كلّ منا غايته أو البعض منها سيكون قد اكتمل النقص واندثر القلق، والخوف وهذا هو المعنى البرغماتي لفكرة الخلاص.² الملاحظ هنا أن جيمس لم يرفض الأبحاث العلمية النظرية لكنه يرض أن تكون الدراسات، والبحوث السابقة لا تخضع للتجربة وهذا هو الذي يميز منهج جيمس البرغماتي.

3- الحقيقة في فكر جيمس البرغماتي:

ويظهر ممّا سبق ذكره الهيكلية الخارجية للبرغماتية جيمس، أمّا الآن فيتمّ الانتقال إلى محتوى، ومضمون برغماتية وليام جيمس ألا وهي نظرية معنى الحقيقة على حدّ تعبير وليام جيمس هذه النظرية تعدّ الجزء المحوري الذي يدور حوله كتاب الموسوم بالبرغماتية.³

وهو كذلك نفس الموقف الذي أعطى عمقا للفلسفة البرغماتية عند من أيدوها فيما ذهبت إليه، ومنهم الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون 1859-1941م الذي أثنى على التّصور البرغماتي للحقيقة ووصفه بأنّه اختراع وذلك في المقدمة التي وضعها لكتاب الفيلسوف وليام جيمس "البرغماتية" Le Pragmatisme حيث قال: "يمكننا فيما يبدو لي تلخيص الأهم في التّصور البرغماتي للحقيقة في صيغة مثل هذه، بينما تعتبر حقيقة جديدة بالنسبة للمذاهب الأخرى اكتشافاً، فإنّها عند البرغماتية اختراع."⁴ الملاحظ هنا أنه عن طريق الاختراع تكمن أهمية الموقف

1 - W. James : **Pragmatism** , P 288

2 - يعقوب فام : البرجماتيزم، أو مذهب الذرائع، ص 30، 32.

3 - وليام جيمس : البرغماتية، ص 351.

4 - William James, **Le Pragmatisme**, p 14.

البرغماتي من حيث التأكيد على الفعل والصنع والعمل، والتدخل البشري، فلا تصبح الحقيقة من ثمة صورة كبقية الصور، أو فكرة كغيرها من الأفكار نحصل عليها، بل يغدو عثورنا عليها هو الاحتفاظ بنفس اللفظ والمعنى بمثابة إنتاج لها في شكل إعادة لما نعتقد أنه حقيقي صادق.

لكن هذا الترحيب، والثناء الذي صادفه التصور البرغماتي من جهة قوبل من جهة أخرى بانتقادات، واعتراضات على ما قدّم من مضمون، ومحتوى فكري بدا للبعض مبتذلاً وغير جدير بالمناقشة الفلسفية¹، بل إنه يصب خاصة في التصورات الساذجة المبهمة، وقد مثل هذه الوجهة من النظر الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل Bertrand Russell 1872-1970م الذي يتعجب من تهليل البرغماتيين لموقف برغسون، والنظر إليه على أنه تدعيم وسند لطروحاتهم حيث يقول رسل: "ومن عجيب الأمر أنّ البرغماتيين قد هلّلوا لبرجسون واعتبروه حليفاً لهم رغم أنّ فلسفته في ظاهرها هي النقيض الكامل لفلسفتهم"²، فبينما يقول البرغماتيون: "إنّ الفائدة هي محك الصّدق العقلي فإنّ برجسون يقول على العكس من ذلك: إنّ عقلنا، وقد شكلته احتياجاتنا العملية يتجاهل كلّ جوانب العالم التي لا تعود عليه ملاحظتها بالفائدة."³

لكن برتراند رسل الذي يبيّن من خلفية نقدية سلبية للبرغماتية ما يميّز برغسون وفلسفته عن جيمس، والبرغماتية لا يتوانى في استدراك نفسه، والقول بأنّ الإثنين يتفقان، وينسجمان ولو في بعض النقاط.

و إذا كان وليام جيمس يدعو إلى أنّ حقيقة كلّ المفاهيم، والمعاني لا تثبت إلّا بالتّجربة العلمية فما هي وظيفة الحقيقة، وما الغاية من امتلاك أفكار صحيحة؟.

1 - برتراند رسل: فلسفة القرن العشرين، ضمن، فلسفة القرن العشرين مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة، نشرها داجوبرت د. رونز، ترجمة عثمان نوية، مراجعة زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، مصر، 1963م، ص 19.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يتّجه جيمس في أفكاره دائماً إلى الأشياء، وإذا كان قد بدأ بعلم النفس فإنّه لم يتّجه في بحثه كميّافيزيقي يجب أن يطلق نفسه في البحث عن أمور سماوية روحية غامضة، ولكن كواقعي ينظر إلى الفكر كمرآة ضرورية للحقيقة الخارجية والطبيعية والفكر مرآة أفضل بكثير ممّا يعتقد البعض فهو لا يعكس مجرد أشياء منفصلة كما ذكر دافيد هيوم **David Hume 1711-1776** م بل يدرك العلاقات بين الأشياء.¹ يعني هذا أن وظيفة الحقيقة تكمن إدراك العلاقة المتكاملة بين الأشياء لأن الأفكار الخاطئة لا تعطي لنا نتائج صحيحة، فالفكرة الصحيحة فكرة ناجحة دوماً.

لكن كيف نضع معنا، ونظاماً لإحساساتنا؟ إنّ المعنى و النظام موجودان من قبل و وليام جيمس ينكر على مذهب الترابط²، ويبين أنّ الظواهر الفكرية تجري في تيار متّصل، و أنّ الفكر شيء يتمتع رده إلى الظواهر الفيزيقية، وأنّ حالاته نوعان حالات يدلّ عليها بأسماء كقولنا تعقل، وتخيل، وحالات متعدية كالعطف والإستدراك تؤلف التيار الفكري نفسه، لقد دفعت الرغبة في الوصول إلى الحقيقة السريعة وليام جيمس إلى البرغماتزم فقد كان يميل إلى الوضوح بحكم دراسته في فرنسا وراح يبحث عن معنى يثبت من خلاله بطلان هذه الأفكار المجردة.³

هذا يعني أنّه ينبغي أن نفحص النتائج العملية الناجمة عن هذه الفكرة فبدون هذا فإنّ النزاع حول معنى الفكرة لا ينتهي، ولا يؤدي إلى فائدة، لقد وجد جيمس في قول بيرس بداية حسنة، وأراد أن يسير في طريقه فراح يفحص الميْتافيزيقا القديمة على هذا الأساس، وتوصّل إلى تعريف جديد للحقيقة هي القيمة الفورية للفكر فعوض

1 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ، ص618.

2 - مذهب الترابط : تأليف الفكر والعقل من ظواهر، وأشياء منفصلة.

3 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ، ص618.

أن نتساءل عن مصدر الفكرة، ومن أين جاءت أو استمدت؟، أو ما هي مقدماتها؟
فإن البرغماتية تفحص نتائجها.¹

فالبرغماتي عندما يسأل سؤاله المميز الذي تحدثه التساؤلات بشأن الحقيقي: هل بإمكاننا القول أنه حقيقي؟، وكيف نعرف حقيقة أنه كذلك حقيقي؟، وبلغة جيمس المتسمة بعبارات الخبرة، والقيمة الفورية يكون رد البرغماتي الأفكار الحقيقية هي التي يمكننا استيعابها وإثبات صحتها، والأفكار الخاطئة هي التي لا نستطيع فعل ذلك معها.²

هذا هو الفرق العملي الذي تحدثه لدينا الأفكار الحقيقية فهذا هو معنى الحقيقة وكل ما يمكن أن تعرف به الحقيقة، ويحيلنا هذا إذن إلى أن القاعدة البرغماتية تعطي الأولوية للفعل والممارسة على حساب النظرية.³ المقصود أنه عوض أن نتساءل عن ما هو الشيء، ونبحث عن جوهر حقيقته، فإن البرغماتية تتساءل عن نتائج الشيء بذلك تحول وجهة الفكر إلى العمل النافع، والمستقبل المزدهر.

تبدو **برغماتية جيمس** نظرية في الحق، وهي على خلاف برغماتية بيرس التي تعتبر نظرية في المعنى، فجيمس يبحث عن منفعة فورية سريعة من كل فكرة وبغض النظر عما تكون هذه المنفعة فردية أم جماعية، المهم الأفكار التي بحوزتنا يمكننا أن نستخلص منها نتائج مثمرة في المجتمع.

وأخيراً لقد أطلق جيمس تسمية **القيمة الفورية Cash Value** على الحقيقة، وهو بهذا قد غالى في مسألة النتائج النافعة مستخدماً على هذا الأساس كلمة النقدي بالمعنى المالي، كما يتم التحدث عن مبلغ يصرف نقداً في مقابل صرفه بشيك⁴

1 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ، ص 618.

2- William James : **Pragmatism's Conception of Truth** , in, Pragmatism A reader, edited by Luis Menand, New York, Vintage Books, 1997, p114.

3 -William James : **Pragmatism's Conception of Truth**, 1997, p114.

4 - برتراند رسل : **حكمة الغرب**، ص 248.

فالأفكار الصحيحة هي تلك التي نفحصها ونتعامل معها، وعلى العكس فسوف تكون الأفكار خاطئة.¹

ويوضح جيمس معنى الحقيقة عند البرجماتية بقوله: "أنّ الأفكار الصحيحة هي تلك الأفكار التي نستطيع هضمها، ودمغها بالمشروعية، وتعزيزها وتوثيقها، وإقامة الدليل عليها، والأفكار الخاطئة هي تلك التي لا نستطيع ذلك معها."² يتبين لنا من خلال هذا الاعتراف أن وليام جيمس عمل على رفض الأفكار الميتافيزيقية جملة وتفصيلاً، واعتبارها أفكاراً خالية من كلّ صحة وصدق، لأنّه لا يمكن إثباتها والبرهنة على وجودها، وإقامة أيّ دليل عليها، وهي في الوقت نفسه أفكار محددة.

4- فردانية التجربة الدينية في فكر جيمس البرغماتي:

غالبا ما يتخذ الدين **La Religion** صبغة جماعية تؤسّس لاختلافها وتميّزها داخل مجال جغرافي وسياسي محدد، وقد يعرف الدين بوصفه شعاراً لإثبات هوية دولة معينة باعتباره ظاهرة سوسولوجية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه بحدّة يتمحور حول هذا "الإنسان"، الذي يجد نفسه معتقاً لديانة ما في الوقت الذي يجهل فيه الكيفية التي صار بها مُتدينًا وسط جماعته فالى أيّ حد يصدق القول بأنّ للتدين قيمة عملية ترتبط بالواقع الفردي؟، وما الذي يجعل النّزوع نحو المقدس خاصية إنسانية ؟ وبأي معنى أسّس رائد الفلسفة البرغماتية لمفهوم التجربة الدينية في فلسفته التعددية والعملية.³

تتبنى أهمية "التجربة الدينية" في تأسيسها لنزعة ارتقائية إنسانية فردية تمكّن الفرد الذي يعتقد في المطلق من تجاوز التشاؤم، فالتخلّص من التشاؤم يتمّ عبر ما يسميه جيمس "النزعة الارتقائية"، إذ ينظر الفرد إلى الأشياء باعتبارها نافعة ويتغلّب على

1 - وليام جيمس: البرجماتية، ص 352.

2 - المرجع نفسه، ص 352.

3 - William James: **La Volonté De Croire**, Trad, Fr. Ed, Seuil, 2005, P 54

الشر بحسبان الفرد سليم العقل، تتوافق عملية تطهير الروح مع "التجربة الدينية" لتخلص الإنسان من الخطايا عبر التجربة الصوفية، حيث يتماشى "الجانب الروحاني" للإنسان مع العالم اللامرئي مُتجاوزا قدرات الإنسان الحسية بهذا المعنى تعدّ عملية التطهير تحريراً للوعي، إذ تشعر الذات أثناء التجربة الدينية باتّحادها مع الله مما يعكس أرقى درجات الشّعور النفسي الذي يستحوذ على الفرد عندما يشعر بوجود كائن أعظم منه، ونعتقد "بالمطلق" رغم عدم وجود أدلة موضوعية تقنع قوانا العقلية برأي وليام جيمس لأنّ الاعتقاد، ولو بالكذب خير من عدم الاعتقاد وانتظار الأدلة الموضوعية.¹

المفهوم من خلال هذا الطرح الفلسفي أنّ الاعتقاد، والتجربة الدينية لا تفترض التّحديد وفق برهنة عقلية، فإثبات وجود الله لا يمكن البرهنة عليه بواسطة العقل، إذ يعدّ الاعتقاد بوجود الله من المنظور البرغماتي اعتقادا صحيحا صادقا لا ينفصل عن الوقائع العملية التي يعيشها الأفراد، ويمارسونها في علاقاتهم العملية.

وإذا كان جيمس لم يكلف نفسه عناء البحث عن الأدلة الأنطولوجية، والخوض في المجادلات، والمنازعات الميتافيزيقية، فإن عمله اتّجه صوب معرفة علاقة الجانب النفسي الإنساني بالإلهي "المتجاوز للحواس"، وهذا راجع إلى كون المفهوم السيكلوجي "للاعتقاد"، لدى جيمس، قائم على التعدّد، الشيء الذي ميّزه وأبرز اختلافه عن رجال الدين، فاعتُبر مؤسساً لـ "علم النفس الديني".² يمكننا القول هنا أنّ اهتمام جيمس بالنتائج يدل على كون الاعتقاد بوجود الله يعطينا نتائج مُرضية صحيحة تساعد الإنسان على تحسين وضعيته الخارجية الواقعية من جهة، وارتقاءه بحالته النفسية السيكلوجية من جهة أخرى.

1- William James: **La Volonté De Croire** P 54

2 - William James :**Le Pragmatisme et la religion ;in Le Pragmatisme** , Traduction Française , Introduction Bergson(h) ,Edition Flammarion ,1947 , P 263.

فقيمة الحياة من منظور وليام جيمس ترتبط بالعالم الواقعي الذي نحيا فيه على اعتبار أنّ الحياة تستحق أن نعيشها عكس الاعتقاد بوجود عالم مفارق جميل وعلى هذا الأساس يتوجّه وليام جيمس إلى الفرد بضرورة الاعتقاد بأنّ الحياة تستحق أن نعيشها دون خوف، وبأنّ الإيمان سيساعد الفرد على خلق هدفه الخاص انطلاقاً من كون كلّ فرد يتصوّر الواقع من خلال علاقته الخاصة به.¹

إنّ لتبرير "الحياة الروحية" لدى جيمس ما يدعمه، إذ بعد أثر التجارب الجزئية الناتجة عن "الاعتقاد" بالعالم ما فوق الطبيعي ثابتاً في العالم الذي نعيش فيه، ولا استقرارية "التجربة الدينية" وزوالها يظهر حسب تصور وليام جيمس أعلى درجات الوعي التي يحس بها الفرد، وذلك لأنّ فردانية "التجربة الدينية"، وتعددتها تتوافق مع تعدّد الأفراد المتديّنين داخل المجتمع.²

المتأمل في فلسفة وليام جيمس يخلص إلى كونه لا يتحدّث عن تجربة واحدة، بل هناك تجارب متعدّدة تطرّق إليها في كتابه: "**Les formes multiples de l'expérience religieuse**", وقد أكّد وليام جيمس على هذا الأساس أنّ الفرد يعدّ فاعلاً في الواقع الذي يعيش فيه لما له من قدرة على تخليص نفسه بنفسه من التشاؤم، وبهذا يكرّس المنهج العملي البراغماتي للنزعة الإنسانية التي تعكس النّقة بقدرات الفرد، وترسخ الإيمان بالقابلية للتّغير، والتّطور الذاتي ما دام كلّ "اعتقاد" حول الواقع يعدّ إنسانياً.³

معنى هذا أن التّجربة الصّوفية لا تعكس من المنظور العملي البراغماتي ابتعاداً عن المحيط الذي يعيش داخله الفرد، بل إنّ التّصوف يبرز فلسفة حياة الأفراد وهدفه

1 - هاجر موحنيطو: فردانية التجربة الدينية " وليام جيمس أنموذجاً"، بتاريخ 31 مايو 2014م.

<https://www.mominoun.com/articles>

2 - William James :**The Principles of Psychology** ,ED Authorized, vol II , 1950 , p 295.

3 - William James :**The Principles of Psychology**, p 295.

العلو والصعود بالنفس الإنسانية البشرية عبر الشعور الوجداني الداخلي من جهة وبلوغ السعادة الروحية الدينية من جهة أخرى، فإلى أي حد يصدق القول بأن تجربة المتدينين المخلصين لإعتقادهم، والتي يفترض جيمس من خلالها وجود عالم يتجاوز العالم الحسي لها نتائج عملية في الحياة اليومية؟.

تتبنى "التجربة الدينية" على مبدأ "الفردانية"¹ المؤسس على اختلاف أنواع الفعل بوصفها موضوعاً حيويًا، وإنّما ليست حالة نفسية منعزلة عن الواقع، ومن هذا المنطلق يتّضح أنّ "التجربة الدينية" ترتبط بشيء حي وواقعي مادّنا بحاجة لواقع عملي يستجيب لرغباتنا وميولنا، ويتلاءم مع حياتنا النفسية.²

لقد قدّم وليام جيمس تصورا جدياً للتجربة الدينية، باعتبارها حالة نفسية لا تنفصل عن الواقع العملي، فلا قيمة للاعتقاد باستقلاله عن الواقع المعاش، ولا يستقل وجود "الحقيقة الدينية" عن الفعل باعتبارنا نعيش في الحياة.³ وعلى هذا الأساس يوصف الارتباط بالحياة في تطورها، وديناميتها بكونه تعبيراً عن حقائق لانهائية وغير ثابتة إذ بالقيمة الفعلية الواقعية، والعملية نفهم مكونات، وحركة الحياة على كافة الأصعدة في الحياة، وننفتح على المستقبل الواسع.

ليس من الشائع أن يؤكد أحد من الباحثين، والفلاسفة على الفروق بين جيمس وبيرس بطريقة قوية لدرجة أنّهما يبدوان بصعوبة، وكأنّهما يدخلان في مجال نفس الحركة الفلسفية، فالسؤال الذي يفرض نفسه للطرح هو هل هناك علاقة بين جيمس و بيرس؟.

1 - الفردانية هي التوجه الخلقى، أو الفلسفة السياسية، أو وجهة النظر الاجتماعية التي تشدد على فكرة الإستقلالية واعتماد الفرد على نفسه في اتخاذ قراراته، وأهدافه، يدعو الفردانيون إلى تنفيذ الفرد لأهدافه ورغباته حتى وإن عارضت المؤثرات الخارجية على اختياره الشخصي، سواء كان هذا المؤثر الخارجي هو المجتمع أو الدولة أو مجموعة أخرى من الناس أو المؤسسات.

2 - William James : **The Principles of Psychology**, p 295.

3 - William James : **La Volonté de croire**, p 56 .

الفرق بين جيمس بيرس:

كتب الفيلسوف الأمريكي رالف بارتون بيرس **Ralph Barton Perry** يقول: "ربما يكون من الصحيح، وتاماً بالنسبة لجميع الأطراف أن نقول إنّ الحركة الفلسفية المعروفة باسم البرغماتية هي نتيجة سوء فهم وليام جيمس لبيرس، ويمكن أن نوضح أنّ لهذه النظرية بعض أوجه الحق من أنّ بيرس غير اسم الفلسفة البرغماتية إلى البرجماتية.¹ يبدو هنا أنّ تأويل وتفسير جيمس للقضية البرغماتية ليس عميقاً جداً.

إنّ الاختلافات الرئيسية المهمة بين بيرس، وجيمس موجودة في الفروق بين مشكلاتهم التي تناولوها بالبحث، ولنذكر بعضها إجمالاً: إن مشكلة بيرس الموجهة كانت بناء صرح فلسفة عملية، أمّا رسالة جيمس فكانت بالنسبة إليه وطبقاً لما يذكره رالف بيرس²: إيجاد صندوق فلسفي يمكنه من تبرير إقامة الدين دون التخلي عن العلم، وكان جيمس مثلاً كان بيرس قد نال قسطاً من العلم والتدريب في مجال العلم وقام بتدريس العلم لسنوات كثيرة قبل أن أصبح فيلسوفاً محترفاً إلا أنّ تدريبه كان في مجال الطب، والبيولوجيا أكثر من مجالي الرياضيات، والعلم الفيزيقي، وقد عانى في أواخر العشرينات من عمره مشكلة شخصية عميقة، وكبيرة، وجاء دفاع الفيلسوف والمفكر الفرنسي تشارلز رينوفييه **Renouvier Charles 1815 - 1903**م عن الحرية كي ينتشله من هذا الإكتئاب، ويخرجه من أزمتته.³

ويحتوي مقال بيرس الذي نشره عام 1902م على فقرة كتبها جيمس لتفسير القضية البرغماتية لدى بيرس، والتي وصفها بيرس بأنها ليست عميقة جداً، فقد كتب جيمس التفسير التالي لنظرية بيرس: إنّ المعنى الكلي للتصوير يعبر عن ذاته من خلال نتائجه العملية فالنتائج إمّا أن تكون في شكل تصرف يوصى به أو على هيئة خبرات تتوقعها، فإذا كان التصور صادقاً فإنّ نتائج الخبرات ستكون مختلفة في حالة عدم

1- تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص46.

2- رالف بيرس: فيلسوف، ومربي أمريكي عرف بتطويره للفلسفة البرغماتية، من مواليد 1876- 1957م.

3- تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص46.

صدقها، بل يجب أن تكون مختلفة عن النتائج التي يعبر بها المعنى عن تصورات أخرى بدورها.¹ المقصود هنا أن المعنى إذا كان صادقا نعرفه من خلال نتائجه العملية، إذن كلما كانت النتائج صحيحة كلما كانت التصورات عن ذلك المعنى صادقة.

قبل مناقشة هذا التفسير للقضية البرغماتية فمن المستحسن أن نضع أمامنا عدة صيغ أخرى تبين لنا وجهة نظر جيمس في المعنى ففي كتابة البرغماتية ذكر أن مبدأ بيرس هو المبدأ البرغماتي، وعبر عن فكرته بقوله:

"لكي نحصل على وضوح تام لأفكارنا من الموضوع فإننا نحتاج فقط إلى أن نأخذ في اعتبارنا التأثيرات المقبولة من نفس نوع الشيء العملي، وما هي الإحساسات التي تتوقعها منه؟، وما هي ردود الأفعال التي يجب أن نستعد لها؟، وهل هي مباشرة أم بعيدة؟ فإنها ستكون بالنسبة إلينا تصوّر كلي من الموضوع طالما أن هذا التصور له دلالة إيجابية مطلقة."² المقصود من قوله هنا أن وضوح الأفكار مرتبط بمدى نجاح الموضوع العملي المراد الوصول إليه.

وأخيرا هناك فقرة وردت في كتابه "بعض مشكلات الفلسفة" يقول فيها: "إن القاعدة البرغماتية هي ذلك المعنى الخاص لتصور ما، والذي يمكن أن يوجد بصفة دائمة فإذا لم يوجد في بعض الإحساسات الخاصة التي يمكن اختيارها بطريقة مباشرة فإنه يوجد إذن في بعض الفروق الخاصة التي نجدها في مجرى الخبرة الإنسانية."³ ومن الواضح أن في هذه العبارات صيغ ذات وجهين أساسيين يختلف فيهما تصوّر جيمس عن القضية البرغماتية عن مثيله لدى بيرس.

1 - تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص46.

2 - المرجع نفسه، ص48،49.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

الوجه الأول: أنّ صيغ جيمس أقلّ طلباً من صيغ بيرس المبكرة فقد جعل بيرس العلاقة بين الفعل، والخبرة الناتجة عن علاقة جوهريّة، وتلك الخبرات هي المقبولة فقط، وتتبع نوع معين من الفعل، هي التي جعلها بيرس ذات علاقة جوهريّة، وذلك عن طريق تقرير المعنى الخاص بتصور معين.

الوجه الثاني: يبيّن بوضوح أكثر الفرق بين نص بيرس عن القضية البرغماتية في الاقتباس الثالث، وبين موقف جيمس، والفرق الموجود في الحياة، يجب أن يكون الفرق جزئياً، أمّا بيرس فقد أكّد على عكس جيمس على أنواع الخبرة وأنواع الفعل.¹

لقد اتفق وليام جيمس مع بيرس في أنّ السلوك العملي هو المعيار الوحيد لقياس الحقيقة، إلّا أنّ جيمس قد اختلف عن بيرس في السلوك بأنّه يجب أن يكون نافعا لأنّ معيار الحقيقة هو السلوك العملي النافع الذي يترتب عليها، ولهذا تكون الفكرة صحيحة، وتصبح الحقيقة كامنّة فيما سوف تؤدي إليه من أعمال، وليس في طبيعتها المجردة.²

بذلك إنّ جيمس يرى أنّ الفكرة الصحيحة هي ما تحقّقه من نتائج ناجحة تنصب في المصلحة الذاتية للفرد، والنجاح بدوره يتوقّف على المنفعة، فكلما كانت النتائج أنفع كانت أنجح على حدّ تعبير جيمس: "إنّ الحقيقي في أوجز عبارة ليس سوى النافع الموافق المطلوب في سبيل تفكيرنا، تماماً كما أنّ الصّواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب في سبيل مسلكنا".³ المقصود من خلال هذا الطرح أن بيرس اهتم بالطريقة التي يوظف بها الأفكار في مجتمع العلماء للوصول إلى نتائج مرضية بينما جيمس وجه إهتمامه إلى الطرق التي تستخدم بها الأفكار في حياة الأفراد الفردية الذاتية.

1 - تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص 50، 51 .

2 - سماح رافع محمد : تاريخ الفكر الفلسفي في العصور القديمة، والحديثة، ص 298.

3 - برتراند رسل : حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة، والفنون، والأدب الكويتي الجزء الثاني، سنة 1983م، ص 248.

كانت موضوعات الدلالة المجردة الحيوية تصوّرات رئيسية في تصوّر **جيمس** من الفلسفة، بينما كانت بالنسبة لـ**بيرس** على الأقلّ من الوجهة الرّسمية خارج نطاق الفلسفة بحسب اقتناعه بها، ولا تقل هذه الفروق بين **بيرس** و**جيمس** من شأنها، ولا من أهمية فهمهما للحركة البرغماتية ككل، ومع ذلك فإنّه بالبحث في مجال المعنى نجد في نهاية الأمر أنّ الفرق ليس كبيرا كما يبدو للوهلة الأولى، أمّا بالنسبة لـ**بيرس** فيجب أن نتذكّر أنّه اعترف بقدر من المعنى يكمن فيما وراء وصف القضية البرغماتية.¹ فمن المؤكّد أنّهما جعلتا استخدامات مختلفة، ومتعددة، وهامة لهذا المعنى في تطوّر فلسفاتهما.

وقد يحيلنا معنى الوجود الذي نتحدّث عنه إلى مستوى تاريخي فردي يبدو في عيني فيلسوف مثل وليام جيمس على أنّه خاص بمزاج الإنسان، وحسب هذا الفيلسوف دائما فإنّ تاريخ الفلسفة إلى حد كبير هو صراع بين أمزجة بشرية²، وقد تمثّل هذا الصّراع في ظهور الفلسفات، وتتابعها كأنها حلقات لسلسلة ليس من الضروري أن نبحث لها عن انسجام بالمعنى الذي يجعلنا نبرر هذا التسلسل في الزمان بعيدا عن المصادفة، والتمسك بطرائق تقليدية في الإثبات، وبمقولات التّقابل بين الأسمى المعقول والأدنى المحسوس، وبين المقدّس الديني، والمدنس الدنيوي وبين الجزء الرّوحي الأرقى والجزء المادي الأخس في الإنسان.³

1 - تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص50، 51.

2 - يقول جيمس عن نادرة السنجاب التي يتخذها كمثال عن الجدالات العقيمة أثناء مناقشة فلسفية ميتافيزيقية تتعلّق بسنجاب يتواجد على جذع شجرة بينما يقف رجل مقابله ويرغب في رؤيته ومعرفته لكنّه كلّما تحرك باتجاهه يتحرّك السنجاب حول الشجرة بخفته، وسرعة تفوق حركة الرجل جاعلا الشجرة حائلا بينه وبين الرّجل وحيث لم ينجح، ويتفوق هذا الأخير من رؤيته، ومن هنا كانت المشكلة الفلسفية الميتافيزيقية: هل يدور الرّجل حول السنجاب، أم لا ؟ بالطبع فهو يدور حول الشجرة والسنجاب على الشجرة، لكن هل يدور على السنجاب نفسه؟ يرى جيمس أنّ "نادرة السنجاب" هي مثال للجدالات الميتافيزيقية التاريخية العقيمة التي جاء المنهج البرغماتي للحسم فيه.

3 - William James : Le Pragmatisme, p47 , 48.

يرى الفيلسوف البرغماتي: " أن يعترف مع **مارتن هيدغر** Martin Heidegger

¹ بأنّ المفكرين الكبارهم الأكثر مزاجية، إنهم أولئك الرجال من قبيل **فريدريك هيغل** **Friedrich Hegel 1770-1831م**، و**فتغنشتاين** Ludwig Wittgenstein²، الذين يجعلون الإستعارات تنبثق من أيّ مكان والبروق تلمع برسمهم سبلا جديدة.³

إنّ الفيلسوف البرغماتي خاصة **جيمس**، و**ديوي** يدفع كل بأفكاره قدما في سبيل تجاوز إزدواجية الفكر، والعالم، ويرغب بخطابه تخطي النزاعات الميتافيزيقية التي توارثها التراث الفلسفي الغربي من الإغريق، فجيمس نظر إلى البرغماتية على أنّها طريقة لفض النزاعات الميتافيزيقية عندما يتّخذ "نادرة السنجاب" مثالا لهذه الخلافات الميتافيزيقية، وبالنسبة له فإنّ الطريقة البرغماتية هي قبل كل شيء طريقة تسمح بحل الخلافات الميتافيزيقية التي من دونها أي الطريقة البرغماتية ستظل عالقة.⁴

هذه الرؤية هي نفسها التي اتّفق عليها **ديوي** مع **جيمس** ورأى أنّ تلك الخلافات الميتافيزيقية الموروثة عن حقب الفكر الفلسفي المختلفة تمثّل عائقا عن تحقيق التقدّم على المستوى الأخلاقي، وهي بمثابة إيديولوجيا سادت الفلسفة اليونانية حين أعلت من شأن النظري، وحطت من العملي، ومجّدت المعرفة النظرية لذاتها وأبعدتها عن

1 - **مارتن هايدغر**: فيلسوف ألماني، ولد جنوب ألمانيا، درس في جامعة فرايبورغ تحت إشراف إدموند هوسرل مؤسس الظاهريات، ثم أصبح أستاذاً فيها عام 1928م، وجه اهتمامه الفكري الفلسفي إلى مشكلات الوجود والتقنية والحرية والحقيقة وغيرها من المسائل، ومن أبرز مؤلفاته : الوجود والزمان 1927م، دروب موصدة 1950م ما الذي يُسمّى فكراً 1954م، المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا 1961م، نداء الحقيقة في ماهية الحرية الإنسانية 1982م، نيتشه 1983م، من مواليد 1889 - 1976 م.

2 - **لودفيغ فتغنشتاين** : واحد من أكبر فلاسفة القرن العشرين، ولد في فيينا بالنمسا، ودرس بجامعة كمبردج بإنجلترا، وعمل بالتدريس، والتعليم هناك، من مواليد سنة 1889 م - 1951م.

3 - William James : **Le Pragmatisme**, p47 , 48.

4 - William James : **Le Pragmatisme**, p 49.

كلّ قيمة واقعية ملموسة، وهذا ما يؤكدّه جون ديوي حين يطلّعون على الشائنة التي ميّزت النّقاة الإغريقية بجعلها العالم منقسم إلى عالين¹:

أحدهما أبدي ثابت تكون المعرفة فيه معقولة بالمعنى الكامل اليقيني، بينما الآخر عالم البشر المتغير، لا تملك المعرفة فيه إلّا صفة الاعتقاد، أو مثلما يؤكّد على ذلك الفيلسوف جون ديوي: "في أنّ الكامل، والتام هو الفكر المعقول وهو الغاية، أمّا ما يتغيّر فهو مادي، فالتّغير يعرّف الأمور الطبيعية، وهو في الأغلب القوة على بلوغ غاية ساكنة ثابتة، ويتعلق بهذين العالين ضربان من المعرفة، أحدهما معرفة بمعنى الكلمة، إنّ العلم وله صورة عقلية ضرورية لا متغيرة فهو يقيني، والآخر الذي يتعلق بالتّغير هو الاعتقاد، هو التجريبي والجزئي، فهو ممكن وموضوع للرجحان لا اليقين."²

فقد فصلت الفلسفة اليونانية³، الفلسفة التي مجدها المذاهب الفلسفية الغربية الوجود عن المعرفة بنفس القدر الذي جعلت فيه الوجود يتقابل مع صنفين من المعرفة والمعرفة تتطابق مع نوعين من الوجود.⁴ لقد تبع ذلك بحسب ديوي ريتشارد رورتى يشاطره ويؤيده في ذلك تقسيم على مستوى النّشاط، فكان هناك نشاط عقلي محض منفصل عن النّشاط السلوكي العملي، وكتب ديوي، يقول⁵:

1 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ترجمة وتقديم أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، سنة 1960م، ص 44 ، 45.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- كان تدقيقنا على نظرة البرغماتيين الكلاسيكيين، وتحليلهم للفلسفة اليونانية على اعتبار أنّ هذه الأخيرة تعتبر في أعين كثير من الفلاسفة والمفكرين الغربيين المحدثين، والمعاصرين تراثاً فكرياً يفتخرون بانتسابه إليه ويجعلونه نقطة انطلاق للفكر الفلسفي الحقيقي الذي أرادوا تعميمه، وانتشاره، وجعله معياراً للفكر العالمي وللعقلانية الكونية العالمية غير أنّ الموقف البرغماتي بنقده للتصورات اليونانية، وإبراز غلوه في التجريد وتعالى تصوراتها الفلسفية أبرز لنا نمطاً من الفكر يبتعد عن النظري، والتأسيسي، ويمد التفكير الفلسفي بروح متغير، وجديد.

4 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص 42.

5 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وانقسم كل من عالمي المعرفة و الفعل إلى منطقتين، ولا ينبغي أن تستنتج من ذلك أن الفلسفة اليونانية فصلت النشاط عن المعرفة إذ أنها ربطت بينهما غير أنها ميّزت النشاط عن الفعل، والعمل، وهذا الضرب من المعرفة كان مثالاً مستقلاً عن التغير ومن ثم عن العالم الذي يتصرّف ويعيش فيه الناس عن العالم الذي نجربه حسياً وعملياً، وقد تميّز النشاط الخالص عن الفعل العملي الذي يعنى به سواء في الفنون الصناعية، أو الجميلة أو السياسة أو لاجتماعية بمنطقة أدنى من الوجود الذي يخضع للتغير، ويضاف إليه الوجود تأدياً لأنه يظهر نقصاً جوهرياً في الوجود من واقع التغير ذاته إنّه مشوب باللاوجود.¹ معنى هذا أن التمايز الذي ندّى به جون ديوي هو تمايز برغماتي يدعو إلى تجاوز هذا التقابل الذي أثر على فهم الإنسان بشكل سلبي ومن ثم فهو بمثابة الشرط البرغماتي.

- تعقيب على آراء وليام جيمس:

إن طريقة وليام جيمس في التفكير طريقة أمريكية فإنّ شهوة الإمتلاك والحركة الأمريكية تبدو واضحة تماماً في أسلوبها وتفكيرها، وقد أطلق ريش هونيكر **Erich Honecker**² على فلسفة جيمس اسم الفلسفة المادية النفعية، والواقع أنّ فيها شيئاً من هذا الاتجاه المادي، وكانت هذه الفلسفة رد فعل دفاعي صغير موجه ضد الميتافيزيقا الأوروبية، والعلم الأوروبي.³

إنّ فحص الحقيقة الذي جاء بها جيمس ليس جديداً طبعاً، وقد اعترف جيمس بهذا بأمانة، وصراحة بقوله أنّ فلسفة البراجماتزم اسم جديد لوسائل فكرية قديمة، فإن كان هذا هو الاختبار الجديد للحقيقة فإنّ الحقيقة هي ما قامت التجربة على صدقها فهي

1 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص 42.

2- ريش هونيكر : هو سياسي ألماني قاد جمهورية ألمانيا الديمقراطية "ألمانيا الشرقية" بصفته الأمين العام لحزب الوحدة الاشتراكية من عام 1971م إلى الأسابيع التي سبقت سقوط جدار برلين في عام 1989م، من مواليد 1912 - 1994م.

3 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص 623.

مقبولة، أمّا إذا كانت تعني بأنّ المصلحة، والمنفعة الشخصية هي المقياس والاختبار لصدق الحقيقة فهو أمر مردود لأنّ المنفعة الشخصية ليست سوى منفعة شخصية.¹ والواقع أنّ ما أراد جيمس أن يفعله هو إزالة الغموض، واللبس الذي أحاط بالفلسفة فقد أراد أن يعيد بطريقة جديدة وعصرية وجهة النظر الإنجليزية القديمة نحو النظرية والعقيدة فقد واصل عمل بيكون من خلال تحويل وجهة الفلسفة مرّة ثانية في اتجاه عالم الأشياء الذي لامفر منه، وهذا بدوره كان له دور وأثر حاسم في الفكر الأمريكي البرغماتي.

وخلاصة القول: إذا كان بيرس منطقيًا، وفيزيائيًا في توجّهه البرغماتي بجعله وظيفة الفلسفة تتمثّل في وضع معاني، وكلمات للعالم تتناسب مع ميول الأفراد الشخصية واستجاباتهم لبيئتهم، فإن جيمس كان مربيا وإنسانيا دفع الناس إلى التحقق من أنّ المشكلات الفلسفية أهمية في حياتهم اليومية فهي تؤدي إلى ألوان وأشكال متنوعة من السلوك، حيث دعا إلى تعليم الفلسفة حتّى يتوفّر التفكير السليم، والناجح في حاجات المجتمع بما يحقّق المنفعة لأفراده أما نظرة ديوي الفلسفية تأخذ موقفا متميّزا ومختلفا من نظرة كلّ منهما باعتباره مجددا في الفلسفة.

1 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ، ص 623.

ثالثا: فلسفة جون ديوي البرغماتية:

لا يختلف اثنان على ما قدّمه الفيلسوف الأمريكي جون ديوي إلى الفكر الأمريكي بشكل خاص والفكر الإنساني بشكل عام، فقد كان عطاؤه غزيرا في مجالات مختلفة "العلم والمعرفة" بالإضافة إلى علمه فقد كان رجلا متواضعا صاحب أخلاق رفيعة.¹

وعلى هذا الأساس نجد برتراند رسل² Bertrand Russell يصفج جون ديوي فيقول: "هو رجل على أسمى خلق، ليبرالي في نظريته، كريم وعطوف في علاقاته الشخصية، لا يتعب في العمل، وأنا أكاد أتفق اتفاقا تاما في معظم آرائه وما أكنّه له من احترام وإعجاب، فكم أتوق إلى أن أوافقه موافقة تامة على آرائه.³ هذا يعني أن ديوي كان فيلسوفا موسوعيا، ملاحظا، ومجربا، ومتعمقا في قضايا عصره. وإذا صحّ أن تتخذ أمريكا لنفسها نموذجا فلسفيا فلن يكون هذا النموذج إلا الفيلسوف المربي جون ديوي، وأعلى حد تعبير جورج هربرت ميد⁴: "إنّ جون ديوي هو فيلسوف أمريكا بالمعنى العميق لهذه الكلمة."⁵ معنى هذا أنه ساهم بشكل فعال في تطوير المنظومة التربوية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان له أيضا دور كبير في تأسيس الحركة الفلسفية البرغماتية.

1- حيرش سمية : الفلسفة الأمريكية بين الليبرالية، والبرجماتية شالز بيرس نموذجا ، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية قسم فلسفة، سنة 2012م ، ص 95.

2 - برتراند رسل: فيلسوف، ومنطقي، وسياسي معروف من عائلة ليبرالية اشتهرت بالسياسية، كما كان من أصحاب الوضعية المنطقية، من أهم مؤلفاته، "الديمقراطية الاجتماعية الألمانية"، و"مدخل الى الفلسفة الرياضية"، و"تحليل العقل"، كانت الحقيقة عنده تامة كما هي الحال عند وليام جيمس، تتكوّن وتتشكل من ذرات من الوعي ومن إحساسات، أو معطيات حسية، وأنّ كليهما يقول بنظرية "الواحدية المحايدة"، من موليد سنة 1872-1970م.

3- برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية " الفلسفة الحديثة"، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الجزء الثالث الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1977م، ص 476.

4- جورج هربرت ميد : فيلسوف أمريكي وعالم في علم النفس، ينتمي بشكل أساسي إلى جامعة شيكاغو حيث كان أحد البرغماتيين المتميزين المشهورين، يعتبر أحد مؤسسي التفاعل الرمزي وما أصبح يشار إليه باسم تقليد شيكاغو الاجتماعي، من مواليد 1863-1931م.

5 - تشارلز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص 21.

ويصحّ أن يكون في جملة من الدلالة المزدوجة تحسب على الفيلسوف كما تحسب على أمريكا، ومن هنا فهو يشكّل مفتاحاً أساسياً لفهم أمريكا، ولفهم أمريكا ينبغي فهم ديوي مثلما أنّ النّفاذ إلى فكر ديوي يستوجب إدراكاً واضحاً لأهمية النزعة الترنسندتالية في الثقافة الأمريكية.¹

معنى هذا أنّ جون ديوي هو فيلسوف الديمقراطية من دون منازع، ومعظم كتاباته و أفكاره كانت تصبّ في خانة كيفية توسيع القاعدة البرغماتية في الإعتماد على السلوك، والفعل البشري في تجاه نسبية الحقيقة بشكل يخدم المؤسسات على المستوى السياسي وفق النظام الديمقراطي، ويحقق غاية النمو في المجالين: الاجتماعي التربوي، والأخلاقي الاقتصادي، وإذا صحّت النّظرية القائلة بأنّ الإنسان ثمرة البيئة التي يعيش فيها فإنّ جون ديوي أعطى مثالا على صحة هذه النّظرية²، وإذا كان الأمر على هذا النّحو فكيف كانت مسيرته الفلسفية يا ترى؟.

أ- حياته الفكرية:

ولد ديوي بمدينة برلنجنون في ولاية فيرمونت في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تلقى تعليمه في جامعة فيرمونت، ثم انتقل إلى جامعة جون هوبكنز فتحصّل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام 1884م،³ ولكنّه سرعان ما أخذ بنصيحة جريلي⁴

واتّجه غرباً يعلّم الفلسفة في "جامعة مينيسوتا" بين عامي 1888 - 1889م، انتقل بعدها إلى "ميشغان" بين 1889 - 1894م⁵، وفي عام 1894م انتقل إلى جامعة

1 - تشارلز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص21.

2- مريم الشهري : قراءة في الفكر التربوي ل جون ديوي، بتاريخ 27-04-2018م. <https://www.new-educ.com/قراءة-في-الفكر-التربوي-جون-ديوي.-john-dewey>

3- جون ديوي : الفردية قديماً، وحديثاً، ترجمة ومراجعة خيرى حماد مروان الجابري، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، سنة 1979م، ص8.

4- جريلي : مؤسس، ورئيس تحرير صحيفة نيو يورك تريبيون، من مواليد 1811 - 1872م.

5 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص625، 626.

شيكاغو وعين رئيساً لقسم الفلسفة، وفي هذه الجامعة برزت ثروته التربوية المسماة بالتربية المتجددة، وانضم إلى كلية المعلمين في جامعة كولومبيا حيث ظلّ يعمل لحين إحالته على التقاعد عام 1930م، بقي جون ديوي عضواً نشيطاً في اتحاد المعلمين في نيويورك، ولماً غدا الاتحاد تحت سيطرة الشيوعية تركه وساعد في تنظيم رقابة المعلمين المعادية للشيوعية.¹

لقد كتب ديوي فلسفة القارة الأمريكية، وهكذا لفت ديوي أنظار العالم لأول مرة أثناء تدريسه في جامعة شيكاغو حيث كشف عن أفكاره في السنوات التي قضاها هناك ولعل أعظم كتاب له هو "الديمقراطية والتعليم"، حيث جمع فيه خطوط فلسفته وركزها حول مهمة النهوض بجيل أفضل.²

وحتى تتجلى لنا بعض خلفيات فلسفته نود أن نخرج على جانب من العلاقات العلمية التي طبعت حياة ديوي الفلسفية في اتصالها، وتعاملها، واحتكاكها ببعض التيارات الفلسفية الفاعلة، والتي لعبت دوراً هاماً واضحاً في إنضاج فكر ديوي وإثرائه.

ب- حياته العلمية:

لقد طالب هربرت سبنسر³ بزيادة تدريس العلوم، والتقليل من دراسة الآداب في برامج التعليم فجاء ديوي وأضاف على ذلك وجوب تدريس العلوم بطريقة عملية تأتي عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف لا عن طريق تعليم الكتب يتدرب فيها التلاميذ بإقامة التجارب العلمية والإستفادة من أخطاء هذه التجارب، وتدريس الفنون والنظم اللازمة بالنسبة إلى النظام الاقتصادي والاجتماعي⁴، وأن ينظر إلى التعليم

1- جون ديوي : الفردية قديماً، وحديثاً، ص8.

2 - ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص 625، 626.

3 - هربرت سبنسر : هو فيلسوف بريطاني مؤلف كتاب " الرّجل ضد الدولة" الذي قدّم فيه رؤية فلسفية متطرّفة في ليبراليتها، كان سبنسر، وليس داروين، هو الذي أوجد مصطلح "البقاء للأصلح"، رغم أنّ القول ينسب عادةً وعامةً لداروين، وقد ساهم في ترسيخ مفهوم الإرتقاء، وأعطى له أبعاداً اجتماعياً فيما عرف لاحقاً بالدارونية الاجتماعية، وهكذا يعدّ واحداً من مؤسسي علم الاجتماع الحديث، من مواليد سنة 1820 - 1903م.

4- ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص 624.

لا على أساس كونه مجرد إعداد للنضوج بل النمو، والنهوض المستمر للعقل، والتّعليم الحقيقي يأتي بعد تخرّجنا من المدارس ويجب أن يستمر معنا طيلة حياتنا.¹ تبين لنا بصورة واضحة هنا أنّ **جون ديوي** فيلسوف من أنبه الفلاسفة الذين أنجبته الدنيا الجديدة، ولاسيما في ميدان التربية والتّعليم.² معنى هذا أنه فيلسوف معطاء واستفادت دولا كثيرة من عطائه الفلسفي التربوي.

ومع أنّه فيلسوف له نظامه الفلسفي فكثيرا ما وجه النقد إلى الفلسفة، ولم يترك ناحية من نواحيها العامة، والاجتماعية منها خاصة من غير أن ينقدها، ويعمل على تعديلها وتوجيهها وجهة جديدة تتلاءم مع مطالب الحياة الجديدة من حرية صحيحة وديمقراطية سليمة فليس نقده للفلسفة بالنقد الهدام، وإنما القصد توجيهها نحو ما يراه خيرا للبشر ورفيهم المتواصل³، رحل عن الدنيا سنة 1952م تاركا الكثير من المؤلفات ترجم العديد منها إلى العربية.⁴

يمكننا القول أنّه ساهم بقدر كبير، وواسع في إحياء البرغماتية من خلال أعماله العديدة والفعالة في المجتمع التي غالبا ما تشير إلى العنصر، والمبدأ البرغماتي في كتاباته سنذكر بعضها مرتبة حسب مجال اهتمامه العلمي، والفلسفي:

ج- مؤلفاته:

أولا: مجال التربية والتعليم: كان له كتب أهمها "المدرسة والمجتمع" سنة 1899م **"The School and Society"** الذي ترجم إلى أمهات لغات العالم إلى جانب من جوانب إنتاجه الضخم الذي قدّمه إلى عالم التربية والفلسفة في العصر الحديث، لقد استطاع الأستاذ ديوي أن يظهر إفلاس التربية القديمة، ويبرهن

1- ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص 624.

2- جون ديوي : الفردية قديما، وحديثا، المقدمة .

3- المرجع نفسه.

4 - أنطوان الخوري : أعلام التربية "حياتهم، وآثارهم"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة 1964 م، ص 197.

على عدم صلاحها للجيل الحاضر المتميّز بمشاكل جديدة لم يصادفها آباؤنا ولا أجدادنا فهي تربية كان قوامها حشو الذهن بطائفة من المعلومات المدوّنة في الكتب والأسفار، وتلقين الطالب حلول المسائل بغية النّجاح في الامتحان، وقد كانت وجهة النظر هذه تمثل الرّأي السائد "أنّ الطفل وجد للمدرسة" ذلك الرّأي ثبتت خرافته فاستحال إلى "أنّ المدرسة وجدت للطفل".¹

إضافة إلى ما تقدّم فإنّ أهم الأغراض الّتي دفعت بالأستاذ ديوي إلى وضع كتاب "المدرسة والمجتمع" بين يدي مربّي الجيل هي حملهم على ربط المدرسة بالحياة وجعلها على أتمّ اتّصال بها، إذ أنّ النظرة الحديثة إلى التّربية هي أنّها لا تتمّ في المدرسة وحدها بل في المنزل والملعب، وميدان العمل، وتبتدئ قبل الولادة وتستمر إلى الشيخوخة، أي أنّها تشمل الحياة في جميع أدوارها، فمن واجب المدرسة أن تتدبّر هذه الحقائق وتوفّق نفسها للقيام بهذه المهمة الشّاملة، وعليها أن تقوم بوظيفة إرشاد الطفل في جميع سنوات الدراسة.²

لدينا أيضاً كتاب "مدارس المستقبل" سنة 1915م، وكتاب الديمقراطية والتّربية سنة 1916م بيّن فيه أنّ التّربية هي أن ننشئ الناشئ على الموافقة بين نفسه وبيئته لا إلى أن يحافظ على النّقايد القديمة مهما تكن آثارها على حياته العملية الجديدة.³ وكتاب الخبرة والتّربية سنة 1938م يوضح فيه ديوي طبيعة الخبرة ويعدها تياراً متصلاً يرتكز على عوامل بيولوجية وثقافية معاً، ويؤدي كلّ جزء منها إلى الجزء الذي يليه وحل كلّ مشكلة، و يعين على حل المشكلات الراهنة في عالم دائم التّطور فمهمة المدرسة عنده هي نقل التراث الثقافي إلى الجيل الجديد وتوفير البيئة المساعدة لتكوين الخبرات الجديدة، والتّربية الحديثة عنده، والتّعبير عن الذات، وتنمية الفرد

1- أنطوان الخوري : أعلام التربية "حياتهم، وآثارهم"، 197.

2- زكي نجيب محمد : من زاوية فلسفية، ص222.

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

بدلاً من فرض قواعد النظام الخارجي والتعلم عن طريق الخبرة بدلاً من التعلم عن طريق الكتب والمدرسين.¹

ثانياً - مجال الأخلاق وعلم النفس: لقد مثلها في كل من كتاب علم النفس والمنهج الفلسفي سنة 1899 "Psychology and Philosophic Method" وكتاب الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني سنة 1922م "human Nature and conduct" ترجمة الدكتور محمد لبيب النجيب يتكوّن من أربعة أجزاء تنقسم إلى فصول الجزء الأول عالج فيه مكان العادة في السلوك الإنساني، أما الجزء الثاني تناول فيه مكان الدافع في السلوك الإنساني، أما الجزء الثالث فقد عالج مكان الذكاء من السلوك الإنساني والجزء الرابع عبارة عن خاتمة أكد فيها ديوي أهمية العملية التربوية في مرحلة الطفولة، وما تتسم به من مطاوعة الشخصية، ومرونتها فالسلوك الإنساني هو نتاج التفاعل بين الطبيعة الإنسانية و البيئة الاجتماعية، إنّه وظيفة اجتماعية تجمع بين الذات الإنسانية والبيئة المحيطة بها في تفاعل مستمر.²

وفي متشجان اتصل ديوي بالأستاذ تافنس وتعاونوا على التفكير، والتأليف، وبلغت الصداقة بينهما حداً جعل تافنس حين نقل إلى شيكاغو طلب من ديوي الاشتغال معه فقبل وقد أثمر تعاونهما تأليف كتاب الأخلاق سنة 1908م "Ethics" بالإضافة إلى كتاب أخلاق الديمقراطية سنة 1888م "The study of Ethics" فهو يرى أنّ الديمقراطية يجب أن تسود التربية، والمجتمع، فدافع عن الديمقراطية في عصر أوشكت سيطرة رأس المال أن تعصف بحرية الفرد، واصطدمت الحريات السياسية والاجتماعية بسلطان أصحاب المال، والشركات الكبرى لذلك رأى الديمقراطية ليست مفهوماً مجرداً بمقدار ما هي متأصلة في الفرد نتيجة التربية.³

1 - زكي نجيب محمد : من زاوية فلسفية، ص222.

2 - جون ديوي : الطبيعة البشرية، والسلوك الإنساني، ص2.

3- جون ديوي : البحث عن اليقين، ص5.

وكتاب " الحرية والثقافة " سنة 1955م ترجمة أمين مرسي قنديل يحتوي الكتاب على خمسة فصول وهو يتساءل في هذه الفصول، عن ماهي الحرية؟ ولما لم يقدّر لها الناس هذا القدر العظيم ياترى؟ إن كان حقا مجرد رفع أو دفع القوى التي تقمع الأفراد كافيًا للحفاظ على الديمقراطية، فلماذا إذن حين ننظر لأحوال العالم يتبين أنّ عددا من الديمقراطيات الموجودة هي ديمقراطيات شكلية، والمؤسسات الحرة التي كان يدّعي وجودها فيها هي مجرد هياكل مؤسسات لا وجود حقيقي لها على أرض الواقع فلماذا تتراجع الحريات في بلدان عاشت الديمقراطية بشكل حقيقي؟، هل الحرية هي حقًا "صفة أصيلة " في الكائن البشري؟، وما المقصود بالطبيعة البشرية هنا؟، وهل يمكن لعامل واحد أيًا كانت أهميته أن يعبر عن هذه الطبيعة البشرية.¹

دائمًا لم يتم اختزال الطبيعة البشرية من قبل المدارس الاجتماعية المختلفة إلى صفة واحدة تعبر عن هذا المذهب كاللذة، والألم مثلا الذين ترجمتهما المدرسة الاقتصادية الكلاسيكية إلى اعتبار المصلحة الشخصية هي القوة الدافعة الأساسية لكل سلوك يصدر عن الإنسان، أو البحث عن القوة حيث كان الكسب والنجاح في تحقيق المكاسب الاقتصادية مرتبطا بشكل كبير بامتلاك قوة متفوقة، يمكن اعتبار مبدأ بقاء الأصلح لداروين أساسا نظريا لهذا المبدأ كما دعا بعض الكتاب منهم نيتشة لشكل من أشكال أخلاقيات القوة.²

و ما حفّز جون ديوي إلى انتهاج هذا الطريق سوى رغبة صادقة ملحة في العمل على ترقية الحياة الاجتماعية، وتحقيق الحرية الثقافية بأكمل وأوسع معانيها في ظلّ الحرية السياسية، والديمقراطية السليمة، والنّظم الاقتصادية التي تتيح للفرد المجال للابتكار فهو مؤمن بأنّ فلسفته تصلح للوصول بالإنسان، والجماعات إلى مثل هذه الحرية المنشودة.³

1 - جون ديوي : الحرية، والثقافة، ص1، 2.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3 - جون ديوي : الحرية، والثقافة، المقدمة.

ثالثاً - مجال المنطق ومناهج البحث: كان له مؤلف معروف اسمه "المنطق نظرية البحث" سنة 1938م "Logic: The Theory of Inquiry" ترجمة وتعليق الدكتور زكي نجيب محمود في هذا الكتاب عرض علينا منطقاً يساير العلم في أوضاعه الزاينة كما ساير المنطق الأرسطي أوضاع العلم في العصر اليوناني، وفي ما شابهه في العصور التالية، كما عرض وجهة النظر في المنطق ثلاثم العلم المعاصر عبّر بها عن رأي البرغماتيين الذين هم من ألصق الجماعات الفلسفية المعاصرة بتيار العلم وطبّق صاحب الكتاب على منطق الجديد اسم "نظرية البحث" عارض بها سائر النظريات المنطقية قديمها وحديثها على السواء.¹

أما فيما يخص محتويات الكتاب فهو يحتوي على أربعة أجزاء، والتي بدورها تنقسم إلى فصول، الجزء الأول عالج مشكلة جذور البحث، أمّا الجزء الثاني ناقش قضية هيكل البحث وتكوين الأحكام، أمّا الجزء الثالث تناول القضايا والحدود، أمّا الجزء الرابع عالج مشكلة منطق المنهج العلمي، وكتاب دراسات في النظرية المنطقية سنة 1903م عبارة عن أحد عشر فصلاً أربعة فصول بقلمه، وسبعة بقلم زملائه وتلامذته.²

حين صدر الكتاب رحّب به وليام جيمس، وأعلن عن مولد مدرسة شيكاغو صاحبة الاتجاه البرغماتي الذي يمتاز بالنزعة الأداتية التي اشتهر بها ديوي وأصبحت عنواناً لمذهبه.³ أما كتاب كيف نفكر؟ سنة 1903م "How we think" "عالج جون ديوي فيه مسألة التفكير التي تتطلب شروطاً يجب توافرها ليتمكن العقل من القيام بوظيفته تجاهها⁴، كما حدّد خمس خطوات للتفكير المنطقي، لكن فيم تمثلت هذه

1 - جون ديوي : المنطق نظرية البحث، ص 11، 12.

2 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص 248.

3- المرجع نفسه، ص 6.

4 - محمد جواد رضا : فلسفة التربية، ومعضلة القصور الذاتي في التربية العربية المعاصرة، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الثانية، سنة 1984م، ص 348، 349.

الخطوات؟ الشّعور بالمشكلة، وتحليل المشكلة بعد دراستها، واختبار فرض من الفروض مع اختيار الحل المناسب والقبول، أو الرفض النهائي لفرض من الفروض بعد إجراء الملاحظة الدقيقة، والتّجربة.¹

أما كتاب "الخبرة والطبيعة" سنة 1925م، و"كتاب تجديد في الفلسفة" سنة 1919م تناول ديوي البحث، والتحليل لخصائص الطبيعة الإنسانية مؤكدا أنّها طبيعة متغيّرة وليست فطرية جامدة.²

عقد جون ديوي مقارنة بين الإنسان الهمجي، والإنسان المتحضر لبيان أثر البيئة في نوع التّغيير ومداه فيقول: "لفرض أنّ كليهما يعيش في صحراء مجدبة فإنّ الهمجي يخضع للأجواء التي تكتنفه، وينفعل بها إلى أقصى حد ممكن، فباستغلال بعض الكهوف، واستخدام بعض الجذور يستطيع أن يعيش عيشة هزيلة خطيرة ليس فيها أيّ مجال للاطمئنان، أمّا الإنسان المتحضر فنراه يمضي إلى الجبال البعيدة ويقيم السدود على مجاري المياه، ويرسل مياهها إلى ما كان من قبل صحاري قاحلة."³ وهكذا فعملية البحث عند جون ديوي سير متصل مستمر خلال الحياة الغاية منه أن يغيّر ما هو كائن وموجود إلى صورة جديدة تخدم أغراض الإنسان إزاء مشكلاته التي تعترضه في يومياته، فالحياة سلسلة من التجارب المختلفة .

ونجد أيضا كتاب آخر ألا وهو "البحث عن اليقين" سنة 1929م **The Quest for Certainty** ترجمة وتقديم محمد فؤاد الأهواني يحتوي على مقدمة المترجم بالإضافة إلى أحد عشر فصل الفصل الأوّل عالج قضية الهروب من الخطر، أمّا الفصل الثاني تعرّض لقضية بحث الفلسفة عن اللا متغير، والفصل الثالث تناول الصّراع بين السّلطات، والفصل الرابع والخامس خصّصه لمشكلة فن القبول وفن التّوجيه والأفكار في مجال العمل، أمّا الفصل السادس والسّابع تطرق فيهما إلى لعب

1 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص 248

2- أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي "نوابع الفكر الغربي"، ص 15، 18.

3- جون ديوي: البحث عن اليقين، ص 3.

الأفكار ثم قاعدة السلطة الفكرية، والفصل الثامن والتاسع عالج مشكلة تطبيع الذكاء سلطان المنهج أما الفصل العاشر وضح لنا كيفية بناء الخير، أما الفصل الأخير جعل عنوانه الثورة الكوبرنيقية، فيعد هذا الكتاب عرضاً لنظريات المعرفة عند السابقين مع نقدها وتبشيرها بنظرية جديدة في المعرفة.¹

وكتاب "إعادة بناء الفلسفة" عرض فيه نشأة المفاهيم الفلسفية، والعوامل الاجتماعية والسياسية، والعلمية المؤثرة على تطورها وبين مدى الحاجة لإعادة بنائها، فالمفاهيم الفلسفية ليست إلا تجسيدا لأمني الإنسان ورغباته لذا يجب أن تتحول مهمة الفلسفة إلى الكشف عن معاني خبراتنا اليومية ومشكلاتنا العملية ليتم إلغاء الفصل بين المثالي والواقعي، والنظري والعملي، والوسائل والغايات ويتم استبدال ملاحظة الماضي بالفرض، والذكاء بالعقل، والتجريب بالخبرة، وتصوّر المستقبل بوصف الماضي، والعلاقات المتغيرة بالكيانات الثابتة، وتتداخل العاطفة مع العلم، والذكاء مع الوجدان، ويتحول الفرد من كيان ثابت "معطى" إلى عملية "تخلق"، فيصبح المجتمع نظاماً يحقق للفرد حريته، والنظام الديمقراطي حافزاً لانطلاق طاقاته الخلاقة.²

رابعاً - مجال الفن والدين:

كانت له مؤلفات مثل كتاب **الفن خبرة سنة 1934م** "Art as Experience" ترجمة زكريا إبراهيم، مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود فيما يخص محتويات هذا الكتاب نجد أربعة عشر فصلاً، الفصل الأول عالج المخلوق الحي، أما الفصول: الثاني والثالث والرابع عالج فيها المخلوق الحي و الأشياء الأثيرية، تحصيل الخبرة فعل التعبير، أما الفصول: الخامس، والسادس، والسابع، والثامن، والتاسع عالج الموضوع التعبيري، المادة والصورة، التاريخ الطبيعي للصورة، تنظيم الطاقات المادة المشتركة بين الفنون، أما الفصول: العاشر والحادي عشر، والثاني عشر والثالث عشر والرابع

1- جون ديوي: البحث عن اليقين، ص3.

2 - جون ديوي : إعادة بناء الفلسفة، ص7.

عشر عالج فيها المادة المتنوعة في الفنون، الدورالإنساني في الخبرة الجمالية تحدي الفلسفة، النقد الفني، التقدير الجمالي، الفن والحضارة على ضوء هذا فلننظر إلى الكتاب الذي بين أيدينا لنرى **جون ديوي** مرة أخرى يصول في ميدان جديد صولة الغاضب الناقم على الأوضاع القائمة التي يراد لنا أن نفصل فيها بين الفن من جهة ومجرى الحياة الواقعية من جهة أخرى.¹

يبدو **جون ديوي** بنظريته في الفن التي أودعها كتابه هذا فيلسوفا مدهشا، ومحيرا في الوقت ذاته، فنظريته في الفن هي من الرحابة وسعة الأفق حيث تختلف مع العديد من النظريات الأخرى، وتتقاطع معها في الوقت ذاته، فهو يختلف مع التيار الكانطي الذي يؤكد على مبدأ النزاهة الجمالية، وعلى تخليص الفن من الطابع العملي.²

ولكنه يتفق معه في القول بأن الجميل لا يتطابق مع النافع أو ما يخدم غرضًا ما وهو يتفق مع الشكلانيين في تقدير أهمية الصورة في الفن، ولكنه يختلف معهم في اتخاذهم الصورة الفنية عنصرا وحيدا لقيمة العمل الفني، إذ لابد أن تعبّر الصورة عن شيء ما دون أن يقتضي ذلك ليكون التعبير عندئذ دلالة مباشرة، وهو يركز على ما هنالك من وشائج قربي بين الخبرات العلمية، ولكنه لا ينسى في الوقت ذاته أن يطلعنا على ما تتميز به الخبرة الجمالية دون غيرها من الخبرات، وكلّ هذا دليل على ثراء وخصوبة نظريته في الفن.³

وكتاب **الإيمان الشائع** سنة 1934م "**A common Faith**" يفرق **ديوي** في كتابه الإيمان الشائع بأمور سماوية غيبية، والذي يخص الأديان السماوية أما القيم الدينية فهو يدخل إلى تجربتنا حينما ندرك اتجاهاً أساسيا في حياتنا، فنبدأ بتنسيق مختلف الأهداف التي ننشدها في موقف يستمر صامداً بالرغم من التغيرات التي تطرأ على

1 - جون ديوي : الفن خبرة، ترجمة زكريا إبراهيم، مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، سنة 2011م، ص3.

2- جون ديوي: الفن خبرة، المقدمة.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

محيطنا، وأنّ الموقف الديني هو متابعة المثل العليا الموجودة¹، وهذه المثل التي تؤخذ من صميم التجربة لمعاشة، وليست مثل خارجة عن نطاق الخبرة، لذلك يحدث تعارض بين القيم الدينية والأديان، وهذا التعارض في نظر ديوي لا يمكن تجاوزه، بل يجب القضاء على ذلك التماثل بين هذه القيم، وبين عقائد الأديان لسبب واحد هو أن تحرر هذه القيم أمر بالغ الأهمية.²

بعد هذا العرض المميّز لأهم ما أنتجه **جون ديوي** من مؤلفات نلاحظ أنّ كتاباته تحمل في طياتها نقدا مباشرا للتربية التقليدية السائدة في عصره، فعلى مر العصور انتقد التربية التي تعتمد على حفظ المعلومات والكتب عن ظهر قلب، وإعداد المتعلّم للمستقبل مع تجاهل الحاضر، وتهميش المرحلة التي يعيشها المتعلّم، وكانت القاعدة هي أنّ المعلم هو المحرك الأول للعملية التربوية، وجاء ديوي ليقلب المنهجية التربوية، وينقل الفكر التربوي إلى المتعلّم واحتياجاته، وإعطاء فرصة له في الاختراع وتكوين ذاته، ومواجهة تجارب جديدة باستمرار، فكانت كتابات **جون ديوي** دعوة قوية، وصارمة حطمت سيادة الأسلوب التقليدي الذي ساد التاريخ الإنساني لفترات طويلة، في المقابل جاء المذهب البرغماتي ليؤكد على دور كلّ من الأسرة والمدرسة والمجتمع في تنمية المتعلّم ليعيش حرا مفكرا، وناقدا، ومنتجا وفعالا، ثم ننقل إلى فلسفته من خلال المحاور الرئيسية التالية وهي مذهب الأدوات وفلسفة، والتعليم.

1- الأدوات عند جون ديوي:

تقوم فلسفة **ديوي** على أساس الفلسفة العملية، أو البرغماتية، وهي فلسفة أشاعها في أمريكا جماعة من كبار المفكرين، والفلاسفة في الثلث الأخير من القرن الماضي وقد شقّ لنفسه في هذه الفلسفة خطة جديدة فعرفت فلسفته بالفلسفة الأدواتية أو الوسولية والسؤال الذي طرحه الآن: لماذا سمى فلسفته بالفلسفة الأدواتية؟.

1- راندال جون هرمان: مدخل إلى الفلسفة، ترجمة ملحم قربان، دار العلم للملايين بيروت، سنة 1963م ص 318.

2 - هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص 39 .

سماها كذلك لأنه لا يرى في التفكير سوى وسيلة، أو أداة لحل مشكلات الناس التي تواجههم في حياتهم الاجتماعية والخاصة، فهم لا يتعلمون العلم حبا في اختزان المعارف في رؤوسهم فحسب، فكل معرفة لا تؤدي في النهاية إلى عمل فيه خير الفرد و الجماعة ليست بشيء.¹

فكثير ما خيل للناس أن العلم مقصود لذاته، وأن ما يجمعه العلماء الباحثون حتى من مواده النظرية المغرقة في التجريد لاعلاقة لها بمطالب الحياة الاجتماعية والعملية، ولكن الحق أن كل سعي وراء الحقيقة إنما هو خطة منظمة، ومنهج من مناهج البحث لإيجاد الوسائل الناجعة التي تساعدنا في حياتنا العملية، يرى ديوي أن العقل قد تطور في أثناء جهاد الإنسان الطويل في سبيل الملاءمة بينه وبين البيئة التي يعيش فيها.² تلك هي وظيفة العقل عند ديوي، وهي وظيفة عملية نشيطة فعالة غايتها صلاح ونجاح الفرد والجماعة، وتقدمهما، أما التمسك بالكليات الشاملة والمثل العليا ليست في نظره من الفلسفة مادامت لا تؤدي إلى نتائج مفيدة وعملية نفعية فيها الخير لأحد.

ومن هذه الأهداف التي رسمها ديوي لفلسفته يمكن إبراز مفهوم الفلسفة عنده وكذا منهجه فيها، فهو يعرف الفلسفة على أنها رؤية تهدف إلى تحرير العقول من الأهواء والتخفيف من حدة التوتر في الحياة الاجتماعية السائدة، وجعل البيئة مصدرا أدواتها لغرس المعايير الأخلاقية في النفوس البشرية³، فيحصر مهمتها في قوله: "إن الوظيفة المميزة للفلسفة إنما تنشأ عما يحدث من ضروب التوتر في الحياة الاجتماعية التي ينشأ منها لون من ألوان الفلسفة بعينه."⁴

1- جون ديوي : الحرية، والثقافة، المقدمة.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - يحي هويدي: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1993م، ص138 .

4 - جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسى قنديل، مراجعة زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة 1947م، ص9، 10.

يعتقد أنّ الفلسفة كان لها دور كبير في ظهور الحركة العلمية كعلم الفلك، والفيزياء والتاريخ كما أثبت أنّ المناقشات الفلسفية التي اكتسحت مجالات الحياة قد أنجزت عملا كبيرا إذ لولاها لما وصل العلم إلى ما هو عليه اليوم.¹

كان أثر **جون ديوي** بارزا في الساحة الأمريكية لقد ساهم الفيلسوف، والمربي بقدر كبير في جعل البرغماتية تيارا فلسفيا من بين أهم التيارات الفلسفية المعاصرة لها طروحاتها المتميزة، ومعالجاتها المتقرّدة للقضايا الفلسفية المثارة من قبل الحقيقة والمعرفة، والتربية، وإعادة وصف الفلسفة بما يتناسب مع أحداث القرن العشرين سياسيا، واقتصاديا، واجتماعيا.²

من هنا انطلقت دعوة **جون ديوي** لمحاولة اصطناع المنهج التجريبي في العلوم الاجتماعية خاصة والشؤون الإنسانية عامة، وهذا من خلال نظريته الشاملة لوظيفة الفلسفة وضرورة تجديدها من خلال معالجة قضايا الحياة الإنسانية المتغيرة بالبحث على أسبابها وحقائقها في هذا يقول: "فمن العمليات التي يجب أن تضطلع بها الفلسفة المجددة عملية مؤداها أن نجمع، ونعرض الأسباب التي تعلّل زوال ما قد كان قائما من فصل بين ما هو نظري وما هو عملي"³، وهنا يستند لما قدّمه جيمس في تصوّره لوظيفة الفلسفة التي رآها لا تخرج عن العمل على تحرير عقول الناس من الهوى، وتعمل على توسيع مدارك الناس للعالم الذي يحيط بهم، بهذا يظهر طموح **ديوي** في إزالة الثنائية التي تميّزت بها الفلسفة التقليدية، والعمل على بيان وجهات النظر المختلفة التي ميّزت تاريخ الفلسفة، وعبرت عنها المذاهب الفلسفية المختلفة، والتي اختلفت فيما بينها حول طبيعة الحقيقة.⁴

1 - جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ص9، 10.

2 - المرجع نفسه، ص27.

3 - جون ديوي : تجديد في الفلسفة، ص27

4 - المرجع نفسه، ص88.

في حين يرى ديوي أنّ الاختلاف كان له أن يكون حول الهدف الاجتماعي الذي يتمّ السعي لبلوغه، ولو لم يكن ذلك الإهتمام منعزلاً على الإنسان في طبيعته وتاريخ مؤسساته الاجتماعية لظفرت الفلسفة بما ظفر به العلم اليوم، وبالتالي تكون مهمة الفلسفة إذا ارتبطت بالقضايا الاجتماعية هي العمل على توضيح أفكار الناس وتبصيرهم بشأن ما يدور فعلاً في عصرهم.¹

لقد منح جون ديوي للثقافة الأمريكية عامة، والفلسفة خاصة مركزاً يليق بمقام دولة كبيرة هي في طور التشكّل، والبروز كقوة فاعلة على الساحة العالمية ضمن مسار تاريخي شهده البلد بدءاً بالثورة على الإنجليز، والانتهاه بحرب أهلية بين تصورين لوضع الدولة وقيمها، ومن هنا فالطموحات الفكرية الأمريكية أكبر من أن تختزل في بعض التيارات الفلسفية التي بلغ أثرها إلى الأمريكيين عن طريق التقليد والإتباع بعيداً عن نزعة التأصيل والتفرد، وإن ديوي بنشره للثقافة الفلسفية بين الجمهور وفتح النقاشات العميقة مع مختلف الأطراف الفاعلة في المجتمع الأمريكي بما في ذلك السياسيين، والتربويين حول مختلف القضايا التي تجسّد بحق الوظيفة التي كان يتصوّرها للفلسفة، وهي مساعدة الناس في التغلّب على المعضلات التي تجابههم في بيئتهم المادية والاجتماعية.² يتبين لنا هنا أن جون ديوي كان له دوراً مرموقاً من الناحية الفلسفية التربوية من خلال أفكاره التربوية البرغماتية في إصلاح أنظمة التعليم، والتغيير الاجتماعي، والسياسي، والتربوي في الولايات المتحدة الأمريكية.

يظهر ممّا سبق، أن الفلسفة في تصوّر جون ديوي تهدف إلى تغيير الوقائع تغيير فكرياً وعملانياً بما يناسب التّقدم العلمي، والصناعي، والتجاري الذي تشهده الحياة ولعل هذا الذي جعله يعترف بفضل الخبرة، والمنهج التجريبي عليه في بناء فلسفته الوسيّلية، فكان بذلك فيلسوفاً برغماتياً متأثراً بالماحولة، لأمعا نظراً لما تضمنته نظريته

1 - جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ص 88.

2 - Jean-François Côté: "Le néo-pragmatisme et l'interprétation postmoderne de la culture américaine contemporaine", p 15.

من أفكار وحلول ساهمت في تطوّر البرغماتية وامتدادها، فمن هنا يمكن الوقوف على سمات برغماتية ديوي من خلال توضيح رؤيته للمجالات الفلسفة.

2- موقف ديوي من مجالات الفلسفة :

يتمثّل موقف ديوي من مجالات الفلسفة في مايلي:

أ- يدعو ديوي إلى ضرورة تغيير الفلسفة من طبيعتها إلى طبيعة عملية، وتصبح فعالة وتجريبية.¹

ب- يعتبر جون ديوي فلسفة بيرس تستلزم في أساسها علاقة معيّنة بالعمل والسلوك الإنساني غير أنّ دور العمل متوسط فلكي يكون الإنسان قادراً على أن ينسب معانٍ لتصورات معيّنة، وأن تكون له القدرة على تطبيقها عن طريق العمل وما ينتج عن هذا التطبيق من نتائج هو الكفيل بتكوين المعاني الصحيحة للتصورات.

ج- رغم تأثر ديوي بأفكار جيمس خصوصاً في فلسفته الوسيّلية إلاّ أنّه يعيب عليه حصر البرغماتية في التصورات التي تبين الحقائق في المستقبل.²

د- ركّز جون ديوي على المجال التطبيقي للفلسفة وحدّده في التربية، ورأى أنّ الفيلسوف يجب أن يدور حولها لأنّها أقصى اهتمام إنساني يرتبط بالمشكلات الكونية والأخلاقية والفكرية كعملية تطوّرية³، وتفكير الإنسان يتقدّم، ويكتسب في كلّ تجربة خبرة تضاف إلى خبرات سابقة تؤهل صاحبها إلى مجابهة معضلات الحياة كلّ ما كانت حيثياتها أقرب إلى تلك الخبرات المتراكمة، ومتشابهة معها فيلجأ الإنسان إلى معطياتها باحثاً عمّا يفيد منه للتأقلم مع الحالة التي يواجهها.⁴ يتبين لنا هنا مدى دينامية فكره، وقابليته الإستجابية كلما اقتضت الضرورة للإصلاح والتغيير من خلال

1 - جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ص 215.

2 - جون ديوي، نمو البراغمتية الأمريكية، ص 240.

3- برتراند راسل : تاريخ الفلسفة الغربية، ص 478.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

رؤيته البرغماتية في تغيير طبيعة الفلسفة إلى طبيعة عملية ومن هذا المنطلق جاءت فلسفته لتأخذ بكل جديد وعملي، ولتعكس حياة المجتمع الأمريكي بكل آرائه وتقلباته ومناهجه، ونظمه المختلفة سواء التربوية، أو السياسية، أو الاجتماعية.

إن البحث الذي قام به جون ديوي في طبيعة التفاعل بين الكائن، والمحيط يشكّل في نهاية المطاف الخبرة من منظور ديوي الوسيلى، وإن مبدأ التطور في المعرفة هو الذي جعل جون ديوي يتصوّر الحقيقة عبارة عن تحقيق فلم تعد الحقيقة تعني شيئاً آخر غير التحقيق وبعبارة أخرى "التحقق والحقيقة إسمان لنفس الشيء نسميه تحققاً حينما ننظر إليه كعملية، ففي التطور تعرض الفكرة على تمحيص كلّ ما من شأنه أن يجعلها حقيقية، ونسميها حقيقة إذا أخذناها كنتيجة، وكعملية ملخّصة وهذا تبعا للمبدأ البرغماتي الذي اهتدى به كل من بيرس، وجيمس، وديوي".¹

من ذلك الوقف تتضح الخصائص التي تميّزت بها الفلسفة البرغماتية بالإضافة إلى العوامل التي أدت إلى ظهورها فكّلها توحى بأنّ الفلسفة البرغماتية بما تحمله من تعدّد، و تنوّع في القضايا التي تطرحها تكون البرغماتية قد أنزلت الفلسفة من برجها العالي إلى العالم الواقعي المعاش، وأرادت أن تجعلها طريقة عمل في الحياة، ولهذا فهي تحتكم إلى التجربة، والنتيجة العملية في معالجة القضايا الفلسفية.²

و بهذا كانت فلسفة ديوي دعوة إلى التفاعل المستمر الذي يجري واقعا بين ذهن الإنسان، وما يحيط به بصورة حركية تجريبية لا تجربة آلية، بل تجربة تتميز بالاستمرار والاتصال **Continuity** هذا الذي جعله يرفض ما ذهب إليه الفلسفات القائمة على ثنائية الروح، والمادّة، والفكر، والعمل، وجعل الفكر جزءا من التجربة

1 -John Dewey : **The Influence of Darwin on Philosophy and Other Essays in Contemporary Thought**, Bloomington USA, Indiana University Press, 1 st Midland Book edition, 1965, P139 ,140.

2- محروس سيد مر سي : **التربية، والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي، وبعض الفلسفات الغربية**، دار المعارف القاهرة، سنة 1988م، ص106.

يتأمل في ما يحيط به ويشارك في مجرى الحياة.¹ معنى هذا أن جون ديوي كان يدعو إلى الإنسجام بين الفكر، والعمل بصورة تجريبية، فكان من المؤكد أن يتأثر بالواقع وما يحيط به، فجاءت فلسفته مرتبطة بهذا الواقع القائم على أساس الخبرة والتجربة، ورفض ماذهبت إليه الفلسفات المثالية.

إنّ الرؤية الفلسفية لديوي تقوم على الرّبط بين الوعي، والطبيعة هذا ما يدل على قيام مذهبه على دعائمي الفكر، والخبرة في ترابط وانسجام، وهذه الأخيرة تتميز بالحركية و النمو، والتّطوّر فهي حصيلة التّفاعل بين الكائن وبيئته، فالفلسفة عنده ليست طريقا خاصا ينتهي إلى أشياء غريبة عن الفكر، بل هي نقد فاحص لكلّ الأفكار التّقليدية لتجديدها، وجعلها متماشية مع المقتضيات الراهنة.² إنّ الخوض في المسائل الفلسفية بالنسبة لجون ديوي يقتضي إبعاد الفكر عن الأوهام وتخليصه من العقائد الجامدة، والسعي وراء الرّبط بين الفكر، والخبرة لحل المشاكل التي يواجهها البشر في حياتهم، وهذا مايجعل المفاهيم، والنظريات الفكرية مفتوحة دائما للتطور من خلال الاستخدام العملي المتقن.

ليس غريبا أن يكون للفيلسوف في نظر ديوي مهمة تقوم على جعل الطبيعة البشرية موضوعا لعمله، يصوغها كما يصوغ الخزاف الطين لأنّه في نظره يستطيع أن يأخذ بيد الإنسان، ويقوده إلى المعرفة وبها يغيّر محيطه ويجدّد واقعه، فهو الذي يؤمن بدورالمنهج التجريبي في تطوّر العلوم، ودورالعلم في تطوّر المجتمعات "فالمعرفة الديوية غرضها تغيير العالم فهي لا تتطلب لذاتها".³ هذا يعني أنّ ديوي اعتمد في فلسفته على منهج التّقييم النقدي للتّجربة التي هي نتيجة التّفاعل بين الكائن الحي وبيئته، ذلك أنّ الفلسفة هي عملية بناء مستمرة للتّجربة البشرية واختيار أيّ أفكار

1 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص7.

2 - رالف ن. وين : قاموس جون ديوي للتربية "مختارات من مؤلفاته"، ص163، 162.

3 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص227 .

فلسفية يتوقّف على ما تصل إليه من نتائج في إطار الخبرة العامة، وبهذا لا يمكن فصل الفلسفة عن جميع الإهتمامات العملية.

إنّ هذه المهمة تقتضي تبصرا قويا من الفيلسوف لفهم الواقع، والعمل على تغييره بتجاوز مشكلاته، وذلك التّوجيه البصير هو ما عبّر عنه ديوي بالذكاء وهو منهج ووسيلة لمواجهة المشاكل التي يثيرها المجتمع.¹

أمّا المعارف التي يتمّ الوصول إليها تكسب قيمتها من مدى اعتمادها على الذكاء فالسعادة الإنسانية تتحقّق بقدرة العقل على تغيير أفكار المجتمع بما يتماشى والتّقدم العلمي حيث يبدو العقل في نظر ديوي ليس أداة للمعرفة وإنّما وسيلة للحياة² كما تبدو قيمة الفرد كبيرة في الفلسفة البرغماتية إذ تضعه في الاعتبار الأوّل لأنّه يحمل الفكر المبدع، ويضع العمل ويصاحب تطبيقه، فهو بعقله مهم في كلّ تغير وتطوّر ذلك أنّ عقله حسب ديوي جزء من الطبيعة يحاول دائما التّكيف معها، وهو بذلك قابل للتربية قبول الطبيعة للتّغير والتّحوّل.³ فالحياة الصالحة، والأنظمة المفيدة والتفكير الصحيح بإعادة تنظيم بيئة معينة بشكل عملي لإزالة بعض العراقيل، ومكانة الإنسان في الكون إنّما تقع جميعها ضمن المجالات الفلسفية المختلفة التي اهتمّ بها جون ديوي، وعلى هذا الأساس نُوجز أهم رؤى ديوي الفلسفية لبعض المجالات الفلسفية "العالم، والمعرفة، والقيم".

3- نظرة ديوي للعالم والمعرفة والقيم:

إنّ نظرة ديوي للعالم هي من نظريته للمعرفة فلقد رفض، ونقد الثنائية القائمة على التّعارض بين العالم العقلي، والعالم الواقعي المحسوس هو يعتبر العالم ليس مجردا كما يرى المثاليون بل هو في كليته واقع يشمل الطبيعة والإنسان في تفاعل مستمر

1 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص 227 .

2 - يعقوب فام : البراجماتيزم، أو مذهب الذرائع، ص 15.

3 - أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي، ص 94 .

وإذا كان النظام البطلمي "بطليموس" يقوم على أنّ الأرض ثابتة، وهي المركز والشمس تدور حولها، والنظام الكوبرنيكي يجعل الشمس مركزا لجميع الكواكب فإنّ النظام الذي يراه ديوي لا يتّخذ من الشّمس أو الأرض مركزا، وإنّما هما وما معهما من كواكب جميعها أجزاء من عالم واحد، كلّ يتحرك باستمرار في تفاعل وترابط بين سائر أجزائه.¹ والمقصود من نظرية ديوي أنّ الكون، والإنسان، والأشياء في حركة دائمة تتميز بالتّطور والنّمو، ففلسفته قبل أي شيء فكرة عن العملية التي تتم في الفكر والعالم فأفكارنا الأخلاقية، والسياسية، والفنية ناتجة عن التبادلات بين الأشخاص، والبيئة المحيطة بنا.

تلك هي الحقيقة البارزة، والواضحة التي أقرّها العلم الطبيعي، بيد أنّ جون ديوي يعتقد رغم شيوع فكرة التّغير في العلم إلّا أنّ أثرها ضئيل، وقليل على عقول البشر حين ينظرون إلى الدين والأخلاق، والاقتصاد، والسياسة، وحيثما تسد فكرة الثبات تسد كذلك فكرة الوحدة.

وفي هذا يقول: "انظر إلى المقدار الذي يشغله التّفكير الشّعبي في البحث عن معنى الحياة وعن الغاية من الكون، ترى النّاس الذين يطلبون مغزا واحدا وغاية واحدة، إمّا أن يصوغوا عنهما فكرة تتفق مع رغباتهم وتقاليدهم، وإمّا أن يقلعوا عن التّفكير إذا لم يجدوا مثل هذه الوحدة الواحدة، وينتهي بهم الأمر إلى أنّ لا وجود لأيّ معنى حقيقي أو قيمة حقيقية في أيّ مرحلة من مراحل الحياة."² فهو يرى أنّ البحث عن الثّبات والوحدة مآله الفشل، وعدم اليقين ممّا يجعل النّاس يفكرون في المتغيّرات والنظريات الجديدة التي تحدث في الكون.

فالكون، والطبيعة يتصفان بالمرونة، والحركية في دلالة عن النمو المستمر ويستدلّ جون ديوي على ذلك بما أكده العلم حيث بيّن أنّ أبسط أجزاء الكائن الحي وهو

1 - جون ديوي: البحث عن اليقين، ص7.

2 - أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي، ص 187.

3- جون ديوي : نمو البرجماتية الأمريكية، ص238.

الخلية الواحدة تتميز بالتّغير، فكذلك الأمر للكون فهو محكوم بقوانين متغيّرة، بهذا يعارض الدعوات التي تدعو إلى تمثّل الكون بهيئة كمالية مطلقة، وطالما أنّ الكون يتّصف بالتّغير لا يعرف الثّبات فكذلك الواقع متغيّر.¹ إن المقصود هنا أن ديوي يدعو لتكوين الفرد الناجح الذي يستطيع التأقلم مع التغيرات، ومواجهة التحديات وتكوين علاقات اجتماعية قائمة على أساس الحركة والتطور في مجالات مختلفة مع العلم أن الحياة في هذا الكون تكون مفرحة كما تكون تعيسة، والفرد القوي والفعال في المجتمع هو الذي يكون قادرا على التكيف مع متطلبات عصره.

كما يتّفق أيضا ديوي، وجيمس على أنّ غاية الكون ليست نهائية ولا محدّدة مسبقا وإنّما تأتي نتيجة التّفاعل المستمر بين الإنسان، والطبيعة، أو بين الوجود الروحي والعالم الواقعي المتحرّك.²

نذكر هنا أنّ جيمس كان يميل إلى المزج بين ماهو نفسي روحي، وما هو واقعي خارجي ممّا يدلّ على ميله الديني العقائدي، في حين كان ديوي أقلّ تطرفا من جيمس برفضه فكرة الجوهر الثّابت في كلّ العلاقات الإنسانية الفردية رغم اعتقاده بوجود كفايات دينية عقائدية في الخبرة.

الفلاسفة البرغماتيون يؤمنون بفكرة التّواصل بين الإنسان، والكون الذي يتجلّى حسب جون ديوي في مشاركة الذهن في مجرى الحياة عن طريق الذكاء بتغيير الأشياء وجعلها أكثر ملاءمة بما يحقّق التّكيف.³ يعني أن نظرة ديوي للكون تمثّل مبدأ من مبادئ مذهب البرغماتي الذي ساعده بشكل كبير في تجديد الفكر حول مسائل التعليم، والبيداغوجيا التجريبية وعلى بناء نظريته ومفاهيمه في التربية التي اهتم بها

1 - رالف ن.وين: قاموس جون ديوي في التربية " مختارات من مؤلفاته "، ص 180 .

2 - هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص 394.

3 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص 8.

اهتماما خاصا، وعميقا طالما أنّها هي مختبر صحة وصدق الأفكار، وأداة تطبيقها في الواقع.

إنّ الفيلسوف البرغماتي خاصة **وليام جيمس**، و**جون ديوي** يدفع بأفكاره قدما في سبيل تجاوز ازدواجية الفكر والعالم، الأخلاق والمعرفة، المظهر والحقيقة، ويرغب بخطابه تخطي النزاعات الميتافيزيقية التي توارثها التراث الفلسفي الغربي منذ الإغريق.¹

هذه الرؤية هي نفسها التي اتفق فيها **جون ديوي** مع **وليام جيمس**، ورأى أنّ تلك الخلافات الميتافيزيقية الموروثة عن حقب الفكر الفلسفي المختلفة تمثّل عائقا عن تحقيق التقدّم على المستوى الأخلاقي، والإنساني، وهي بمثابة إيديولوجيا سادت الفلسفة اليونانية حينما أعلنت من شأن النظري، وحطت من العملي، ومجدت المعرفة النظرية لذاتها وأبعدتها عن كلّ قيمة واقعية عملية ملموسة، هذا ما يؤكّد عليه جون ديوي حينما يطلعنا على الثنائية التي ميّزت الثقافة الإغريقية بجعل العالم منقسما إلى عالمين²:

أحدهما فوق طبيعي وقريب من الآلهة، أبدي وثابت فيه المعرفة بالمعنى الكامل اليقيني، بينما الآخر عالم البشر، فانّ، متغيّر ومحسوس، المعرفة فيه لا تملك إلّا صفة الاعتقاد والرجحان، أو مثلما يؤكّد عليه الفيلسوف **جون ديوي** في أنّ: "الكامل هو الفكر المعقول، وهو الغاية القصوى أو نهاية كلّ حركة طبيعية أمّا ما يتغير فهو مادي والتغيّر يعرف الأمور الطبيعية، وهو في الأغلب القوة على بلوغ غاية ساكنة ثابتة".³

1 - William James: **Le Pragmatisme**, p 49.

2 - جون ديوي : **البحث عن اليقين**، ص 44، 45.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فقد فصلت الفلسفة اليونانية¹، الفلسفة التي مجّدها المذاهب، والمدارس الفلسفية الغربية الوجود عن المعرفة بنفس القدر الذي جعلت فيه الوجود يتقابل مع صنفين من المعرفة، والمعرفة تتطابق مع نوعين من الوجود.²

لقد قسم جون ديوي مستوى النشاط، فكان هناك نشاط عقلي محض منفصل عن النشاط السلوكي العملي، وحول هذه النشاط كتب ديوي يقول: "وانقسم كل من عالمي المعرفة والفعل إلى منطقتين، ولا ينبغي أن تستنتج من ذلك أنّ الفلسفة اليونانية فصلت النشاط عن المعرفة إذ أنّها ربطت بينهما، غير أنّها ميّزت النشاط عن الفعل أي عن الصنع و العمل، وبحثت عن المعرفة العقلية الضرورية المهمة كما مجّدها أرسطو على أنّها قصوى مكتفية، وقائمة بذاتها لنشاط ينشأ بذاته ويتحرّك بذاته، وهذا الضرب من المعرفة كان مثاليا أزلها مستقلا عن التغيّر، ومن ثم عن العالم الذي يتصرّف فيه النّاس والبشر، ويعيشون فيه عن العالم الذي نجربّه حسيا وعمليا."³

تميّز النشاط الخالص عن الفعل العملي الذي يعنى سواء في الفنون الصناعية أو في الأخلاق، أو السياسة، أو الثقافة بمنطقة أدنى من الوجود الذي يخضع للتغيّر والذي يضاف إليه الوجود تأدبا لأنه يظهر نقصا جوهريا في الوجود من واقع التغيّر ذاته إنّه مشوب باللاوجود.⁴ إن تنبيه جون ديوي في حقيقة الأمر إلى مثل هذا التّمايز بين عالمين بما يميّزهما عن بعضهما من قيم، ومعايير متسامية لعالم حقيقي، وأخرى

1 - كان تركيزنا على نظرة البراغماتيين الكلاسيكيين، وتحليلهم للفلسفة اليونانية على اعتبار أن هذه الأخيرة تعتبر في أعين كثير من الفلاسفة الغربيين المحدثين، والمعاصرين تراثا فكريا يفتخرون بانتسابهم إليه ويجعلونه نقطة انطلاق للفكر الفلسفي الحقيقي الذي أرادوا تعميمه وجعله معيارا للفكر العالمي، وللعقلانية الكونية غير أن الموقف البرغماتي بنقده اللاذع للتصورات اليونانية، وإبراز غلوها في التجريد وتعالى تصوراتها الفلسفية أبرز لنا نمطا من الفكر يبتعد عن النظري، والتأسييس، ويمد التفكير الفلسفي بروح جديد.

2 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص 42.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وضيعة لعالم مزيف خيالي، هو بالأصح دعوة برغماتية إلى تجاوز هذا التّقابل الذي أترعلى فهم وعقل الإنسان بشكل سلبي، ومن ثم فهو بمثابة الشرط البرغماتي.

وبما أنّ التّغيّر هو من طبيعة الواقع وسمة الفلسفة البرغماتية، فإنّ الإنسان اليوم أدرك من خلال العلم أنّ ثمة تغيير دائم، ومستمر يشمل كلّ مظاهر الحياة طيلة الوقت كلّهُ وأنّ كلّ شيء يبدو لنا في حالة سكون هو في حقيقته متغيّر، وبالتالي انتقلت هذه النظرة إلى الجانب المعرفي، وتتجلى نظرته للمعرفة في ما يلي¹:

انتهى **جون ديوي** إلى أنّ وظيفة الفلسفة تتجلى في الدور الذي يجب أن تنهض به في سبيل حلّ مشاكل الإنسان عن طريق تغيير الواقع لا بتفسيره كما عهدته الفلسفات السابقة، والذي يتمّ بتغيّر النّاس أنفسهم حتّى يتمكّنوا من إنشاء القوانين التي تتماشى وظروفهم المتغيّرة.²

إنّهُ تغيير يقوم على إحداث ثورة على الواقع برفض كلّ القيم الفاشلة التي أفضت إليها الفلسفات المجردة، هذه الوظيفة لا يمكن للفلسفة أن تؤديها إن بقيت حبيسة التّصور الكلاسيكي في المعرفة، لأنّ ذلك التّصور أبعد الحقيقة عن واقع الإنسان وخبراته، ولم يساير ما تثيره الحياة من قضايا بفعل التّطور الحاصل في مختلف ميادينها.³

بناء على ذلك نظر **جون ديوي** إلى المعرفة بمعيار جديد يواكب التّقدّم العلمي الذي عرفته الإنسانية، فرفض الأفكار المثالية المتعالية، وأكّد على أهمية التّجربة الدينامية الحركية المتطورة، وخالف بهذا كلّ فلسفة تنادي بالثنائية "Dualism" وهي الفلسفات التي أقامت نظرياتها في المعرفة على التّمييز الواضح بين الرّوح والمادّة، أو بين الذات والموضوع، ويرجع جون ديوي سبب ذلك التّفريق الذي تتّسم به الفلسفات

1- محمد جديدي : فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجاً"، ص21.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3 - توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها، وتطورها، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الرابعة سنة 1981م، ص 299.

الثنائية إلى "الحوازر المنيعة التي تفصل بين كل الفئات، والطبقات الاجتماعية كالحوازر بين الغني والفقير، والشريف والوضيع، والحاكم والمحكوم تلك الحواجز معناها انعدام التعامل الحر اليسير، وهذا معناه وضع أنواع مختلفة من الخبرات في الحياة لكلّ منها مادتها، وهدفها في تقدير القيم.¹ يتبين لنا هنا أن ديوي نقد الميتافيزيقا، وبيننا لنا الدور الذي تقدمه لنا الخبرة، والتجربة في تكوين الأفكار والمعلومات من خلال القبول بالتعددية على المستوى الأخلاقي، السياسي والتربوي والاجتماعي.

إنّ نظريته للمعرفة تنطلق من الخبرة الواقعية حيث رفض التساؤل عن إمكانية المعرفة والوسائل المؤدية إليها إذ ليس هناك موضعا للحديث عن ذات عارفة وموضوع معروف، فهذا التقسيم من مخلفات الفلسفة الثنائية.²

دعا جون ديوي إلى ربط الوعي بالطبيعة ربطا مباشرا ينطلق من الخبرة التي هي جزء لا يتجزأ منها³، فنظريته هذه تتماشى والوظيفة التي حدّدها للفلسفة التي تتغيّر تبعا للخبرة بجعل إمكانياتها أمورا قائمة على العقل، فالمعرفة عنده ليست شيئا معزولا قائما بذاته، وإنما هي ضمن الطريق الذي تتطوّر فيه الحياة، ويقوم على توجيه الفكر المتبصر.⁴ نرى وفقا لجون ديوي أن المعرفة أداة لتأقلم مع المواقف الجديدة، وجزء من العملية التي تستمر بها الحياة، فالفكر ينشأ من تفاعل بين الكائن الحي وبيئته فالمعرفة عند البرغماتيين، إذن مهمة دائما نحو هذا التكيف الذي يحقق أكبر قدر من المنفعة والتطور.

1 - جون ديوي: الديمقراطية، والتربية، ترجمة متى عراوي وزكرياء ميخائيل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1946 م، ص 340.

2 - إبراهيم مصطفى إبراهيم: نقد المذاهب المعاصرة، دا الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الجزء الأول سنة 2001 م، ص 131.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص 14.

لهذا فهو يعترف أننا ننظر إلى المعرفة نظرة المتفرد دون اعتبارها أداة للسيطرة على الطبيعة، وهذا الذي جعل الفلسفة الحديثة بعيدة كل البعد عن فهم الإنسان العادي أما السبيل إلى تجاوز ذلك، وجعل كل منهما أي المعرفة، والفلسفة فعاليتين يكون بتصور المعرفة على أنها عملية فعالة أشبه بالتجربة العلمية التي تقوم على الفرضيات والإستدلالات معرفة تعني الظفر بما هو موجود بالفعل.¹ معنى هذا أن المعرفة لها دور بارز في تعزيز التفاعل بين الفرد وما هو كائن في الوجود بطريقو ديناميكية، فهي موجهة دائما نحو تحقيق الهدف البرغماتي العملي.

فهي بمثابة منشطات، وحوافز للعمل حين تحرك الفكر ليتصرف بطريقة معقولة وبالتالي فهي مفاتيح السلوك لا معارف حسية²، نستخلص من كل هذا خصائص المعرفة التي يشير إليها ديوي، ودورها الفعال في بناء فكره، نجملها فيما يلي:

*ليست المعرفة هي التّطابق بين الذات، والموضوع إنّما تسير مع المنهج التجريبي وتتطور بتطوره العلمي.

*ليست المعرفة قبلية إنّما هي نتاج الخبرة وثمره لها، وهي ليست ثابتة نهائية بل أداة للمراجعة وافترض فروض جديدة.

*وسائل اكتساب المعرفة ليست كما رأى العقليون في العقل وحده دون الحواس، ولا كما رأى الواقعيون في الحواس وحدها دون العقل، بل تجاوزت بها البراغماتية الثنائية ووضعت الوسائل لما يتناسب مع طبيعة مذهبها، ومن الوسائل الخبرة التي تعبّر عن الموقف الذي يكون فيه التّفاعل بين الفرد و محيطه.³

1 - جون ديوي : تجديد الفلسفة، ص216.

2 - رالف ن.وين : قاموس جون ديوي في التربية "مختارات من مؤلفاته "، ص207.

3 - جون ديوي : البحث عن اليقين، ص21 ، 223 .

ولهذا كانت الخبرة باعتبارها مصدرا للمعرفة تتضمن التفكير، والبحث كمصدرين آخرين لها¹، أمّا مصدرها الأوّل التفكير يبدأ بشعور الفرد بوجود المشكلة، ثم يفترض فروضا لها ويقوم بجمع المعلومات التي تساعد على حلّها، وأخيرا يتوجّه إلى اختيار الحل المناسب لها، وبهذا يكون التفكير جوهر حل المشكلات، أمّا مصدرها الثّاني البحث يبدأ بالتّجربة التي تتّخذ من المواقف والنتائج وسائل لحلول ممكنة.² من الواضح أن الخبرة عند جون ديوي هي ذلك التفاعل بين الفرد والعوامل المحيطة به في بيئته سواء المادية منها أو الاجتماعية مما يساعده على تنمية، وتطوير مهاراته وقدراته واتجاهاته المختلفة، ومن نظرة ديوي للمعرفة يتجلّى مذهبه الأداتي بصورة ما والتي ستكتمل في عرضنا لنظريته حول مبحث القيم.

نظرة ديوي لمبحث القيم:

إذا كان لنظرية المعرفة أهمية في التّربية والتّدريس فإنّ الحاجة إلى نظرة خلقية ومنطقية تعدّ أساسا في كلّ ممارسة تربوية، الأمر الذي جعل ديوي يهتم بدراسة الظروف المحيطة بمبحث القيم سواء تعلق الأمر بالمنطق في إطار العملية الذهنية الخاصة بالتفكير، أو بالقيم الأخلاقية، ومساهمته في إظهار أهمية الاهتمامات المهنية، والأخلاقية في تطوّر التّجربة الإنسانية.³

حيث اهتم البرغماتيون بمسألة القيم بالتركيز على الجانب المنطقي، فبيرس ركّز على التفسير الإجرائي للمعنى، واهتم وليام جيمس بمشكلة الصدق، حتّى بدأ الاتجاه البراغماتي يمثل فلسفة للقيمة.⁴

1 - فؤاد زكرياء : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجبل، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1993 م، ص120

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص267 .

4 - وليام كلي رايت : تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، تقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام دار الكوثر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2010م، ص515.

ولقد تنوّعت وجهات النّظر بين الفلاسفة البرغماتيين حاول البرغماتي تمثيل فلسفة للقيمة رغم تنوّع وجهات النّظر بين الفلاسفة البرغماتيين حولها، إلّا أنّ جميعها تركّز على النتائج في كل فعل وسلوك، ولكي تفحص موقف جون ديوي على وجه الخصوص من مشكلة القيمة يجب بيان طبيعة القيم وأصنافها.¹

تتنوّع القيم في الفلسفة البرغماتية، وتُصنّف إلى قيم فكرية، واجتماعية وجمالية ودينية، ونظرة ديوي للقيمة الفكرية تتجسّد في كتابه "كيف نفكر" وفيه ربط تصوّره المنطقي بفلسفته التربوية وأوضح أنّه كلما كان التّفكير منطقياً كانت الأفكار والأحكام مترابطة في ما بينها، بحيث يستطيع الفكر أن يتّجه وفق حركة مستمرة نحو الهدف وهو حلّ مشكلة ما، ويتمّ ذلك في خمس مراحل وخمسة أطوار متتالية²:

ميزة النّظرية المنطقية عنده تكمن في تحليل المفاهيم بطريقة علمية³، ولعل هذا ما جعله يثور على المنطق اليوناني القائم على التّمثلات المجردة حيث اعتبره تصوّراً رياضياً يهدف إلى توافق نتائج مع مقدماته دون ضرورة مطابقته للواقع لهذا نظر إلى المنطق الأرسطي على أنّه منطق استنباطي صوري لا يبالي بما يجري في الخبرة حبيس الذهن بعيداً عن الواقع، ولم يكن بمقدوره تجاوز العقم في النتائج⁴ بالمقابل يرى أنّ مهمة المنطق الحديث الذي يردّه إلى بيكون تكمن في الكشف عن الحقائق في الطبيعة، وتنمية روح البحث العلمي فرفض ديوي المنطق القديم بهدف تجديده، وتغيير أسسه باللجوء إلى الأسلوب العلمي حتّى يساير منطق التفكير التّطوّرات العلمية، لقد برهن ديوي على أنّه لا فرق بين مجال الأمور الإنسانية ومجال الأمور الطبيعية إلّا في الدرجة، وعليه كانت نظريته المنطقية

1 - وليام كلي رايت : تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 515.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - تلك هي خطوات منهجه المنطقي، والتي ينتهجها الفكر السليم في حل المشكلات المطروحة، والتي يعتبرها أهم الطرق والوسائل التربوية، وهي على منوال خطوات المنهج التجريبي .

4- سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، عالم المعرفة سلسلة الكتب الثقافية الشهرية يصدرها المجلس الوطني الثقافي للفنون، والأدب، الكويت، العدد 190، سنة 1995م، ص 78.

الجديدة تصلح لكل المجالات الإنسانية والتربوية لأنها تواكب المناهج العلمية وتسايرها.¹ نفهم من خلال هذا الطرح أن ديوي عارض سائر النظريات القديمة، ودعى إلى تغيير، وتجديد أسسه معتمداً في ذلك على الأسلوب العلمي التجريبي.

إذا كان ما يهمنا هو إبراز تأثير نظريته للقيم في بناء فكره التربوي فإننا نلمس ذلك في المكانة التي قد مها **جون ديوي** للتفكير الفعّال في الحياة، والتي سمحت للذهن بالمشاركة الفعلية في كلّ القضايا الاجتماعية من خلال وضع الخطط داخل الخبرة والعمل على مواجهة الواقع بمشكلاته، فيتعلّم الأطفال التفكير المنطقي السليم للتعوّد على الحلول المنطقية، والعلمية لضمان التوازن في المجال الواقعي، وتطوير الحياة.² من كل هذا يمكن توضيح الأسس التي تركز عليها نظرية ديوي المنطقية فيما يلي:

*** الطبيعة الإجرائية للقضية :** تجلت من خلال ثورته على المنطق القديم حيث أصبح مدار القضية ليس صدقها أو كذبها، وإنما لما لها من قوة إجرائية للسير بالعمل نحو النجاح.

*** الصورة المنطقية منبعها الخبرة و الواقع:**

مثلاً ذكرنا سابقاً فإن الصورة المنطقية في نظر ديوي، تنشأ داخل ما يجربّه الباحث من إجراءات عندما يحاول الوصول إلى نتائج مجدية، والخبرة هي التي تثبت نجاح طرق البحث إذ يتمّ أثناء الاحتفاظ بالصورة الناجحة وإهمال الصور الفاشلة، فمثلاً فنّ التعدين لا يأتي بتطبيق معيار خارجي، بل يأتي من الفن نفسه فبعد أن يعرف الإنسان طرقته ونتائجه، يقوم بالعمل على تكييف هذا الفن مع الحاجات المتجدّدة.³ ومعنى ذلك أنّ الصورة المنطقية تنشأ من مجرى البحث ذاته، وتتغيّر بتغيّره.

1- سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، ص 78.

2- المرجع نفسه، ص 84.

3- المرجع نفسه، ص 78.

* النّـمـط المشترك للبحث:

تبدأ عملية البحث المنطقي حينما يجد الإنسان نفسه أمام مواقف باعثة على الشك فيعمل البحث باعتباره عملية منطقية على إزالة الشك، وتحويله إلى موقف محدد وباعث لليقين وما ينتج عنه من حلول ومواقف يمثل في نظر ديوي معرفة لذلك يعتبر البحث مصدرا من مصادرها.¹

وبهذا فالبحث المنطقي هو عملية تحويل موجهة منضبطة نستطيع عن طريقها أن نحيل موقفا غير محدد إلى موقف هو من التّحديد في مقوماته وعلاقاته بحيث يملك إحالة عناصر الموقف الأصلي إلى كلّ موحد.²

ولمّا كان للمربي دور فعال في جعل الطفل ينسجم مع المشكلات التي تجابهه ويهيئ له الظروف التي تساعد على حلّها كان لابد أن يمتلك التفكير المنطقي في مهمته و في قدرته على توفير المادّة، وتنظيمها بصورة منطقية لتسهيل نقلها للفرد لأنّ الفرد عنصر اجتماعي يتميّز بالنموّ، والتّفاعل، والتأثير، فإنّ المهمة الإيجابية للمربي تقتضي أن يقيم الأحداث، والأعمال من خلال نفعها الاجتماعي ثم يتّجه إلى النّظرة العلمية التي تنطوي عليها تلك الأعمال، وذلك عن طريق تنظيم الأفكار بما يوسّع خبرات الأفراد، ومع هذا تتجلّى نظرتة للقيم الاجتماعية.³

المجتمع في نظره كلمة واحدة لأشياء كثيرة لا حصر لها إذ يشمل الطرائق التي يشارك بها النّاس عن طريق الخبرة في تعايشهم، وترابطهم، والمجتمع الصالح هو الذي يتمكّن من حلّ مشاكله، والتأقلم مع المستجدات التي تحملها الحياة الجديدة

1- زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص 67.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3 - رالف ن. وین: قاموس جون ديوي في التربية "مختارات من مؤلفاته، ص 189.

ولا يكون ذلك إلاّ بقدره أفراد على استخدام العلم، وتقنياته لأهداف اجتماعية مشتركة بالتخطيط التربوي الصحيح.¹

وتظهر أهمية القيم الاجتماعية في العلاقة بين أفراد المجتمع، ودورها في بناء الخبرة، وماتقدمه هذه الأخيرة من منفعة لكلّ الأفراد، فالقيمة هي التي تؤدي الوظيفة وتحقق شروطاً معينة، وتدلّ على الإيثار، والترجيح.²

فذلك هو الذي ينطبق على كلّ القيم الاجتماعية بما فيها التربية التي تعتبر وسيلة اجتماعية تضمن المصالح المختلفة، فالتعاطف، والشجاعة، والحب تمثلّ قيماً تكون الخبرة التي يكتسبها كلّ فرد في الحياة عن طريق التربية إذ لا سبيل لبلوغ تلك القيم إلاّ بالممارسة الفعلية، وحتى الحرية باعتبارها أيضاً تعبّر عن المشاركة الجماعية الحرّة داخل الخبرة يجب تحقيقها لبلوغ المجتمع النّاجح وليس غريباً أن يلح ديوي كثيراً على التربية في المجتمع الديمقراطي، وذلك تقديرًا منه لتلك القيم التي أشرنا إليها كالمحبة، والحرية، والمناخ الديمقراطي هو الكفيل بتحقيق تلك القيم في الحياة الإنسانية الاجتماعية، بالتالي يكون المجتمع ديمقراطياً.³

ولمّا كانت القيم الأخلاقية وثيقة الصلة بالقيم الاجتماعية فإنّ نظرة ديوي فيها كنظرة غيره من البرغماتيين، وتمثل نظرياتهم في الأخلاق، وسيلتهم للدفاع عن مواقفهم في مواجهة الموقف المادي من القضايا الاجتماعية.⁴

ولهذا اعتبر جون ديوي القيم الأخلاقية تخضع في أحكامها إلى السلوك الإجرائي كنتيجة للتفاعل داخل الخبر، فالأخلاق عنده تتميز بالفعالية، ونتائجها ليست متعالية

1 - رالف ن. وبن: قاموس جون ديوي في التربية "مختارات من مؤلفاته، ص 189

2 - جون ديوي: البحث عن اليقين، 23 .

3 - جون ديوي: الديمقراطية، والتربية، ص 102.

4 - جون ديوي، ليون ترو تسكي، جورج نوافك: أخلاقهم، وأخلاقنا "وجهتا النظر الماركسية، والليبرالية في المثل الأخلاقية، ترجمة سمير عبده، دار دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1969م، ص 100.

كما زعم أفلاطون وليست مجرد صفة شخصية، وإنما هي ناشئة من الخبرة¹، وهذا المقياس الموضوعي هو الذي ميّز نظريته في الأخلاق على نظرة غيره من المتدينين والعاطفيين الذين يؤسسون الأخلاق على النية والإرادة، وانعكس على توجّهه العلمي في القضايا الإنسانية والتربوية، فدعا إلى تطبيق المنهج التجريبي فيها ممّا يوحي بثبات موقفه المتّسم بميله العلمي.² الملاحظ هنا أن جون ديوي طبق منهج البحث العلمي على القيم الأخلاقية، ورفض المذاهب السابقة المثالية فدعى إلى الإصلاح والتجديد، وإهتم بنتائج الأفكار ومدى صدقها فالأثار الحسنة بالنسبة إليه تساعد صاحبها من إيجاد الحلول الصائبة، ومواجهة التحديات، وهذا هو معيار الحقائق الصادقة، ومقياس القيم الأخلاقية.

والأمر نفسه بالنسبة لرؤيته للقيم الجمالية إذ يعتبرها نتيجة للخبرة المستمرة فكلّ الوسائل الاجتماعية هي أدوات لبلوغ قيم فنية متنوعة، ومختلفة ولكلّ عمل فني لغة تمثل وسيلته للتواصل والتفاعل، والرّسم، والتّمثيل المسرحي لغة خاصة به وكلّ الفنون تتميز بالقيم الجمالية بنسبيتها، وديناميكيّتها، تتغيّر بتغيّر الخبرة وتستمر باستمراريتها وتتجدّد بتجدّد.³

وممّا يستحقّ التطرّق إليه هو أنّ الشّغل الشّاغل لجون ديوي هو تغيير وتجديد القيم في المجتمعات الإنسانية، ويتذرّع ديوي بالمنهج العلمي لإحداث هذا التّغيير في القيم الأخلاقية، والسياسية، والجمالية، والاجتماعية وغيرها... ولهذا سمى مذهبه "بالمذهب الأداتي" لأنه يتّخذ من الفكر أداة ووسيلة للعمل على نحو يحقّق للإنسان ما يبتغيه من تغيير ونمو في مجتمع صناعي ذرائعي ديمقراطي كالمجتمع الأمريكي الذي كان

1- جون ديوي : البحث عن اليقين، ص24.

2 - جون ديوي، ليون ترو تسكي، جورج نوافك : أخلاقهم، وأخلاقنا "وجهتا النظر الماركسية، والليبرالية في المثل الأخلاقية، ص101.

3- المرجع نفسه، ص167.

يعيش فيه، فالفكرة لا تكون صادقة ما لم تتحول إلى سلوك ناجح، ومثمر في حياة الإنسان.

كان ديوي يؤمن بأنّ كلّ شيء في حياة الإنسان قابل للتغيير إن دعت الضرورة إلى تغييره، فلا بد من تغيير قواعد الأخلاق إن اقتضى الإصلاح هذا التغيير في سبيل تغيير الحياة تغييراً يجعلها أكثر ملاءمة لظروف العصر الجديد.¹

والسؤال الذي نطرحه الآن: كيف كانت نظرة ديوي بالنسبة للدين؟.

يؤمن جون ديوي بوجود التجربة الدينية شأنه شأن الفيلسوف **وليام جيمس** ولكنّه يختلف عنه في كون هذا الأخير استشهد بالتجربة الدينية ليبين أنّ الإله ماثل بالفعل في تجربتنا، وأنّ له صفات أخلاقية في الجوهر مرتبطة بالواقع الإنساني²، وتأخذ هذه التجربة ما يأخذه العلم من أهمية لأنّ الإنسان يستخدم العلم، ويعيش على الدين فلا تعارض بينهما في **نظروليام جيمس** في حين نجد الفيلسوف جون ديوي أقلّ تطرفاً إذ يربط الإيمان بالحرية، ويجعل القيم الدينية في خدمة حرية الفرد، ويبقيها بعيدة عن جميع أنواع العلم الكوني، وهو بهذا لا يخفي التعارض بين القيم الدينية كما يتصورها هو وبين الشرائع، والأديان لأنّ الناس يمارسون الإيمان في الواقع ضمن الخبرة، وأنّ الله هو رمز الاتحاد بينهم.³ يتضح جلياً هنا أن جون ديوي قام بإعادة بناء الدين بطريقة جديدة تلائم بينه وبين مذهبه التجريبي.

من هذا المنطلق يكون الفيلسوف **جون ديوي** قد اتّجه بالقيم الدينية إلى الخبرة واعتبر الإخلاص، والتّقاني في العمل، وانتقانه، والمحبة بين الناس، والدّفع بالروح الجماعية داخل المجتمع كلّها من القيم الإيمانية الدينية.

1- فؤاد كامل : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، سنة 1993م، ص 118.

2- هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص 394.

3 - المرجع نفسه، ص 294 ، 295.

وفي نفس السياق يمكن طرح سؤال مهم آخر هو: هل يفرّق جون ديوي بين الدين والتدين؟ بالطبع يفرّق ديوي بين الدين، والتدين، فالدين قوة عليا غير منظورة من قبيل الغيب، وما كان كذلك فلا سبيل لنا إلى معرفته، وإنما نعرف فقط أشخاصا متدينين لهم تجارب دينية، والتدين ظاهرة اجتماعية خاضعة للثقافة فكل إنسان يولد في مجتمع له دين، ولكنه يولد وينشأ في جماعة لها تقاليدها، ويرمز إليها ويحتفل بها في طقوس تصدر عن ديانة جماعية.¹

ومن القيم الإيمانية الدينية انتقل ديوي إلى القيم التربوية التعليمية إذ يراها بحق من أهم وسائل الإصلاح الاجتماعي، وكل مدرس ناشيء يعرف اسم ديوي، ومبادئه واتجاهه في التربية النشطة الفعالة المشتركة، وإتاحة المجال للناشء ليتدرّب على الحرية، والابتكار، والتجديد فليست التربية الحقّة الناجحة مجرد وسيلة للحياة وإنما هي الحياة نفسها، وإذا كان الأمر على هذا النحو فما هي فلسفة التربية، والتعليم بالنسبة لـ "جون ديوي"؟.

فلسفة التربية والتعليم عند ديوي:

إنّ شهرة ديوي تربويا تفوق شهرته فيلسوفا لكونه صاحب نظرية تربوية ثورية، ونجد أكثر مؤلفات ديوي تركز حول معالجة مسائل التربية، وهذا ما تدلّ عليه مؤلفاته مثل "التربية والخبرة"، "الديمقراطية والتربية"، "عقيدتي التربية"، "المدرسة والمجتمع" ومدارس المستقبل وغيرها.²

إنّ مهمة التربية بحسب ديوي هي إعداد الفرد للحياة، فالتربية بداية ليست مجرد وسيلة نحصل بها على المعارف، بل هي عملية تربوية تهتمّ بالجانب النفسي والاجتماعي، ووضع الأهداف التربوية وفق المجتمع، والتربية التي يطالب بها ديوي

1 - كفح يحي صالح العسكري : الغزالي، وجون ديوي، ونظرتهما للطبيعة الإنسانية، لجنة البحث والدراسة في التراث النفسي العربي، سوريا، العدد الثاني، سنة 2010م، ص 52.

2- الشمري عبد الأمير سعيد : الفلسفة الأمريكية " برجماتية جون ديوي في الفكر، والعمل"، مطبعة دار الصنوبر، بغداد، سنة 2008م، ص 277، 278.

تتميّز بأنّها تركّز على الاهتمام بالتّعبير عن الذات، وتأكّدها على النّشاط الحر والتخلّص من المواد الجامدة، وذلك بالاطلاع على عالم متطوّر، ومتغيّر وقد دعا ديوي إلى تجديد التّربية لأنّه رأى أنّ التّربية التّقليدية ممثّلة في المدرسة التّقليدية قد قتلت روح الابتكار بما تدخّره من أنشطة تعليمية لا تتجاوز الحفظ والتّسميع، والنّقل والتّقليد، والتّكرار... إلخ.¹

وقد رسم جون ديوي عددا من الأسس الّتي ينبغي أن تقوم عليها عملية التّعليم، ومن أهمّها إيجاد التّلميذ نفسه في وضع خبرة حقيقيّة ترتكز حول مشكلة تكون بمنزلة حافز للتّفكير، ويشترط أن تكون هذه المشكلة طبيعية المصدر غير مصطنعة وتخص التّلميذ نفسه ليكون التّعلم اكتشافا، وابتكارا وليس مجرد تكديس معلومات.² ويرى أنّ التّربية التّقليدية قد أغفلت عنصر الطبيعة الإنسانيّة، وقيّدت حرية الفرد وأهملت دور، ومهام المتعلّم في العملية التّربويّة، لكنّه في الوقت نفسه لا يخفي إعجابه بأفكار أفلاطون الدّاعية إلى العدالة، والفضيلة على الرغم من رفضه للمسلك الذي اتّخذه في تطبيق هذه الأفكار، وكذلك عبّر عن إعجابه بأفكار روسو بقوله: لقد كان للرأي الذي نادى به روسو من أنّ التّربية عملية نمو طبيعيّ، أثر بالغ من الناحية النظرية على التربية منذ عهده الى يومنا هذا.³

ومن المعروف أنّ علاقة الفيلسوف بالتّربية عموما قديمة، ومهمة جدا في الفكر البشري لأنّ الفلاسفة منذ القدم صرفوا جهدهم للتّربية، والتّعليم باعتبارها الميدان المثالي لتطبيق أفكارهم الفلسفية سواء في إصلاح أوضاع مجتمعاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والأخلاقية.

1- الشمري عبد الأمير سعيد : الفلسفة الأمريكية " برجماتية جون ديوي في الفكر، والعمل"، ص 277-278.

2- جون ديوي : الديمقراطية، والتربية، ص 158.

3- جون ديوي : مدارس المستقبل، ترجمة عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة 1962م ص 71.

يرى ديوي أنّ جميع الأشياء تستخدم من أجل التربية بقوله: "أنّ الفلسفة هي النظرية العامة للتربية"¹، ومن المعروف أنّ التربية بالنسبة لكلّ مفكر هي أداة تقاس بها صحة أفكاره الفلسفية، وتلازمها مع متطلّبات المجتمع الذي يعيش فيه لاسيما أنّ البرغماتية فلسفة ارتبطت بالحياة وشدّدت على ما فيها من تحدّد وتغيّر فلا غرابة هنا أن نجد ديوي ينادي بالتّجديد، ويشعر بالحاجة إلى تطبيق أفكاره في مضمار الخبرة العملية.²

تعد الآثار التي خلفها جون ديوي في مجال التربية والتعليم من أهم الآثار في أمريكا فحسب بل في سائر الأمم الناطقة بالإنجليزية، فيُعد ديوي من أكبر رجال التربية والتعليم في الزمن المعاصر، ويقرن البعض ديوي بأفلاطون في مجال التربية إذ يرى بعضهم أنّ خير ما كتب في التربية في العصور القديمة كان الجمهورية الأفلاطونية، وأنّ خير ما كتب في التربية في العصور الحديثة كان الديمقراطية والتربية لديوي.³ كما يرى البعض الآخر أنّ ديوي يشترك مع أفلاطون بأنّه علّمنا أنّ الفلاسفة هم تربويون معلمون بالمهنة، وأنّ من واجبهم دراسة الإنسان وتعليمه.⁴ فهذه شهادة على أنّ ديوي من خيرة الذين كتبوا في مجال التربية والتعليم وهذا من خلال انتشار نظرياته، وتجاربه التربوية على نطاق عالمي.

كذلك عمل جون ديوي على الرّبط بين البيئة الاجتماعية، والمدرسة، فهو يرى أنّ المدرسة يجب أن تكون بيئة اجتماعية، والمدرسة ليست وسيلة لإعداد التلاميذ للحياة في المجتمع القادم فحسب، بل هي أداة لتغيير المجتمع، والمحافظة على قيمه أيضا

1 - هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص 308.

2- زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص 2، 60.

3 - محمد ناصر: قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الجزء الأول، الطبعة الأولى، سنة 1973م، ص 449.

4 -Blanshard, Brand and others, **Philosophy in American Education**, 1 st Edition, American Book-Stratford press, Inc. , N. Y., 1960, p. 270.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا بد للمجتمع من أن يفسح المجال للمدرسة لأن تربي الأجيال الجديدة، لأنّ هذا ينعكس بدوره على المجتمع فيحقّق التطّور.¹

إنّ هذا الرّبط بين إنجاز المجتمع والمدرسة يتجلّى بوضوح عند **جون ديوي**، إذ يقول في هذا الصدد: "فكل ما أنجزه المجتمع لنفسه قد وضع برعاية المدرسة رصيда لأعضائه في المستقبل، والمجتمع يأمل أن يحقّق أفضل الآراء عن نفسه خلال الإمكانيات الجديدة التي تتفتح في المستقبل حيث تتحدّد الروح الفردية والاجتماعية ولا يمكن للمجتمع أن يكون صادقا مع نفسه بأيّ صورة من الصور إلّا إذا كان صادقا في تسييره لجميع الأفراد الذين يؤلفون ذلك المجتمع."²

يتبيّن لنا من خلال هذا الطرح أنّ العلاقة بين الفرد، والمجتمع في نظر ديوي هي علاقة تفاعلية مشتركة، ولا يمكن الفصل بينهما.

يعدّ أيضا من أكثر الفلاسفة الأمريكيين بروزا، وشهرة ذلك لأنّه حمل على عاتقه مهمة مواجهة مطلب التّغيير الاجتماعي الذي كان مطروحا بإلحاح في ثلاثينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة أين عجزت الديمقراطية الليبرالية آنذاك عن تأمين أسباب الرقي، لجميع أفراد المجتمع ما دفع إلى بروز ظاهرة الفروقات الاجتماعية الصارخة بين طبقة غنية وأخرى فقيرة وإزاء هذا الوضع الإشكالي اقترح ديوي مشروعه للإصلاح، والتّجديد الاجتماعي لبناء الديمقراطية الليبرالية على أساس متين يتمثّل في التّربية التقدّمية الكاشفة لفضائل المنهج العلمي، والخادمة للقيم الديمقراطية.

وصفوة القول من خلال تحليلنا لنظرة ديوي لمبحث القيم تنتهي إلى الإستنتاجات التالية:

1 - الجيار سيد إبراهيم : دراسات في تاريخ الفكر التربوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى سنة 1974م، ص 232.

2 - جون ديوي : المدرسة، والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بغداد، سنة 1964م، ص 31.

- إنه يتحدّث عن القيم بكلّ أنواعها، وأشكالها: المنطقية، الاجتماعية، الأخلاقية الدينية، والجمالية، والتربوية ويردّها جميعاً إلى الخبرة فهي مصدرها، تلك الخبرة القائمة على التّفاعل بين الفرد، والبيئة، وإذا كان من المسلّم به أن جون ديوي فيلسوف الخبرة بحق كان لابد من توفر المخبر الذي تطبّق فيه أفكاره الفلسفية القائمة على الخبرة ولقد وجد في التّربية المحك الذي يمكن أن يختبر صحة تلك الأفكار، ذلك أنّ ما يميّز المجال التربوي هو البحث في الظواهر الاجتماعية والإنسانية والتي تمثّل صميم فلسفة الخبرة التي يركّز عليها فكره عموماً.¹

- تتمييز القيم بواقعيتها لأنّها تتعلّق بالإنسان كعنصر فعّال ومنتج، وآتية من واقعه الخبري وهي قيم متغيّرة، ومتجدّدة بتغيّر الواقع لأنّها نتاج الخبرة التي تتغيّر بتغيّر الأفراد وظروفهم.²

وأخيراً، نجد في قراءتنا لمعظم توجهات جون ديوي الفكرية حول مباحث الفلسفة تظهر أنّ الخبرة هي المحور الرئيسي الذي تدور حوله فلسفته، فهي مصدر المعرفة والقيم وكلّ التّفاعلات الفكرية، والواقعية، وما تتضمنه من معارف ومواقف وأفعال هو الكفيل بضمان استمرارية الحياة، لأنّ الخبرة اليوم تملك مناهج علمية بما يمكنها من تنمية السلوك الإنساني وتنظيمه، وبهذا تكون الخبرة عنده هي مركز العملية التربوية.³ أما السؤال الذي يطرح نفسه الآن: ماهي نظرية جون ديوي السياسية في الديمقراطية؟.

1 - محمد جديدي: فلسفة الخبرة "جون ديوي نموذجاً"، ص 211.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4-نظرية "جون ديوي" السياسية في الديمقراطية:

يعتبر جون ديوي الديمقراطية السياسية: "أفضل وسيلة وجدت حتى الآن لتحقيق الغايات الكامنة في ميدان العلاقات البشرية الواسع ولتطوير الشخصية الإنسانية".¹ إلا أنها تبقى في نظره غير كافية، ذلك أنّ التصويت العام، والأحزاب السياسية والجمعيات، وغيرها... من التجليات السياسية للديمقراطية الليبرالية لا تعبّر عن جوهر الديمقراطية لأنّها، وإن تقادت الوقوع في الاستبداد السياسي لم تحل دون الاستبداد الاجتماعي الذي برزت معالمه في التفاوت الاجتماعي.²

لقد عانت الديمقراطية السياسية فراغا اجتماعيا، وأخلاقيا تطلب سدّهما إيجاد آليات ملائمة لتنظيمها، وتوجيهها صوب تحقيق غايات الديمقراطية الأصلية ذات البعد الإنساني الفعلي، أي الديمقراطية بصفاتها نمط حياة اجتماعي، وفردّي يتضمّن قيما تحتل المرتبة الأولى في سلّم القيم الاجتماعية.³ معنى هذا أن الديمقراطية أداة فعالة ومهمة لأنها تعبّر عن صورة من صور البحث الاجتماعي الإنساني.

حيث يرى أنّ الديمقراطية منهج، وأسلوب للفكر والحياة، فهي شيء أكثر من مجرد شكل من أشكال الحكومة، لأنّها أسلوب في الحياة الاجتماعية وفي الخبرة المشتركة القابلة للانتقال واتساع المكان أوالحيز الذي يشغله عدد الأفراد المشتركين في اهتمام واحد حيث يرجع كلّ واحد منهم في فعله إلى أفعال الآخرين بحيث يتأمّل كلّ واحد منهم فعل الآخرين ليوجّه طبقا لذلك فعله الخاص.⁴ يؤكد جون ديوي على أهمية الديمقراطية باعتبارها حماية لرغبات العامة، وتعبير عن الفردانية ويدعو أيضا إلى

1 – J.Dewey, *Intelligence in the Modern World, John Dewey's philosophy*, edited by Joseph Ratner, N.Y: Modern Library Giant, 1939, p400.

2 - جون ديوي : الديمقراطية، والتربية، ص81.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

ضرورة التحوير والنقاش في صنع القرار الديمقراطي. نحن أمام موقف يدفعنا إلى التساؤل: فيما تتمثل قيم الديمقراطية الليبرالية بالنسبة لجون ديوي؟.

قيم الديمقراطية الليبرالية:

تتمثل أولى هذه القيم في الفردية حيث دعا جون ديوي إلى بناء تصوّر جديد للفردية يقوم على النظر إلى الفرد باعتباره طاقة، وقدرة على التطوّر، وأسلوباً فريداً للفعل في عالم من الأشياء والأشخاص.¹ وهذا معناه أنّ الفرد ليس كيانيا قائماً بذاته بقدر ما هو كيان عقليّ وروحيّ يتفاعل مع تغيّرات المحيط الاجتماعي، إنّهُ شيء يصنع وينجز إنّ الفردية تعني الابتكار، والقدرة على الاختراع وسعة الحيلة وتنوّعها واضطلاع المرء بتبعية اختياره لمعتقداته، وطرق سلوكه وتصرفاته.² معنى هذا أنه يؤكد على ضرورة بناء تصوّر جديد للفردية لأنها في حد ذاتها قيمة من القيم التي يمكن من خلالها حل المشاكل العملية، فالفرد ليس شيئاً ثابتاً جامداً، وإنما هو طرف فعال في المؤسسات الثقافية، والاقتصادية، والقانونية، والسياسية، وعضو يتفاعل مع البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، ويسعى جاهداً لتلبية احتياجاته اليومية العملية وهذا ما يجعله فرداً فعالاً، ومنتجاً، ومبتكراً في مجتمعه.

أمّا ثاني هذه القيم فيتمثل في الحرية التي اعتبرها ديوي جوهر الديمقراطية بصفقتها نمط حياة وهو يقصد الحرية الإيجابية التي تتضمن تحقيق الذات³، والذي يعتبر غاية أخلاقية يجب على كلّ من الفرد، والمجتمع على حد سواء أن يسعى إلى تحقيقها، فليس النماء عملية إكمال ماهية ثابتة معينة كامنّة في الفرد أو المواطن مطابقة لأخلاق محدّدة مسبقاً أو لصياغة أخلاقية شرعتها الطبيعية أو المجتمع إنّهُ

1- جون ديوي: الفردية قديماً، وحديثاً، ص 154.

2- جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ص 314.

3 - تجدر الإشارة هنا إلى أن جون ديوي استعمل مصطلح "تحقيق الذات" في المرحلة الهيجلية، ومصطلح "النماء" بعد إنفصالها عنها. تكرر هذه الكلمة.

مشروع إبداعي يتميز به النمو الفردي ليس على المستوى البيولوجي فقط بل على المستويات الفكرية، والأخلاقية، والجمالية أيضاً¹.

وهنا يتضح أن الحرية قيمة في حد ذاتها بالنسبة لجون ديوي من خلال القدرة في تكوين الذات المتقدمة، وجعل الفرد كائن قوياتصبح له القدرة على إختيارأفعاله وأهدافه ومصالحه، وهذا وقف نظم مشتركة واجتماعية مع الآخرين داخل البيئة التي يعيش بداخلها، ومن هذا المنعطف يمكننا القول أن الحرية هي مساهمة الجميع في شروط الحياة الجديدة، وفي إلى إطار اجتماعي ملائم وأرضية ثقافية مشتركة وحررة.

ويؤكد **جون ديوي** أن الديمقراطية باعتبارها صورة الحياة، لا يمكن أن تبقى ثابتة وجامدة، وإذا كان لها أن تعيش فيجب أن تسير إلى الأمام كي تواجه التغيرات والتحديات الحاضرة والمستقبلية.²

من الجدير بالذكر أن جون ديوي ربط فكرة الديمقراطية بتلك العبارة التاريخية "الحرية المساواة، الإخاء" تلك العبارة التي جاءت الثورة الفرنسية مطالبة بتحقيقها حيث أكدت أنه يجب أن يكون جميع الناس أحراراً ومتساوين، وإلى ذلك ذهب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في 10-12-1948م في مادته الأولى:

"يولد الناس أحراراً متساوين في الكرامة، والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء".³

وتتمثل القيمة الثالثة في تحقيق الذات وهي مهمة تشترط في نظر ديوي مشاركة كل فرد بالغ في تكوين القيم التي تسير حياة الناس مع بعضهم بعضاً فلا ينبغي أن

1 - حنفي جميلة : دور المدرسة في بناء الديمقراطية لدى جون ديوي، الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية قسم الآداب والفلسفة، الجزائر، العدد10، سنة2010م، ص34 .

2 - برنار، غروتويزن: فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات بيروت، سنة 1982م، ص141.

3 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

يُحصر الفرد نشاطه في الأمور الاختصاصية والفنية فقط بل يجب أن يشارك مشاركة فعّالة في التخطيط الاجتماعي، وفي تشكيل سياسة المجتمع.¹

ومن زاوية أخرى فإن تأكيد **جون ديوي** على ديمقراطية التربية نابعا من ثقافته الأمريكية المتشعبة بتعاليم الثورة التثويرية التي ألغت امتيازات النبلاء في المجتمع الأمريكي، وساوت بين الجميع، ووضعت المساواة في الحقوق بين الناس في مقامها الأول ذلك ما تضمنته وثيقة حقوق الشعب التي أحييت على حق الاقتراح، وضمنت الحريات للأمريكيين.²

بالإضافة إلى الأوضاع التي عايشها **ديوي** جعلته يؤمن بالحاجة إلى الديمقراطية وأصبح شديد الحماس بجعل كلّ شيء ديمقراطي لا بالمعنى الحزبي بل بالمعنى الاجتماعي، والواقعي، ودعا إلى المساواة في التعليم الذي يكون متاحا للجميع بغض النظر إلى أجناسهم، ودياناتهم ومكانتهم الاجتماعية، فالتعاون في المجتمع يبعث بالروح الديمقراطية التي ينبغي أن يعيشها الأبناء في منازلهم.³

وهكذا يمكن القول أن **جون ديوي** اختار الإصلاح بدل التغيير الاجتماعي الشامل فسعى إلى إعادة بناء القيم الليبرالية المتمثلة أساسا في الفردية، والحرية وتحقيق الذات الفردية منتقدا نموذج الليبرالية الكلاسيكية الذي أدى في نظره إلى بروز الفروقات، والطبقات الاجتماعية المختلفة، وإلى اغتراب الإنسان، واعتزله، وتتطلب مهمة إعادة بناء الديمقراطية الليبرالية في نظره تربية جديدة متطورة تقوّي القيم الديمقراطية وتنمّيها لدى الناشئة.

1- حنفي جميلة : دور المدرسة في بناء الديمقراطية لدى جون ديوي، ص34.

2 - قصد جون ديوي نظرية أفلاطون الذي يعد أول من عمد إلى تعليم الإنسانية على حد تعبيره، وكذا نظرية جون جاك روسو الذي نادى بالتربية الحرة المستقلة للفرد، بالإضافة إلى نظرية "هيغل"، والتي هدف منها بلوغ الدولة القومية انظر جون ديوي: الديمقراطية، والتربية، ص 91.

3 - وليام كلي رايت : تاريخ الفلسفة الحديثة، ص508، 509..

نستنتج ممّا سبق أنّ هؤلاء الرموز الثلاثة، وإن اتّفقوا على أصول البرغماتية، وعلى أنّ مايجعل أيّ فكرة ذات معنى هو كونها ذات نتائج عملية نافعة، وملموسة يمكننا تنفيذها على أرض الواقع، إلّا أنّ كلّ واحد منهم قد خطى خطأ خاصة به، واتّخذ لونا مغائرا، ومختلفا لصاحبه.

فإنّ بيرس نظر لفكرة البرغماتية باعتبار المعنى، فاهتمّ بالتّفكير المنطقي، وطرائقه ونظرياته في إيضاح المدركات العقلية، فالفكرة الصادقة الصحيحة لديه هي التي تكون لها نتائج عملية ناجحة، ومفيدة.¹

أمّا وليام جيمس فمع موافقته لبيرس إلّا أنّه قد أضفى على معنى البرغماتية الطابع النّفعي، فتعامل مع صدقية الأفكار من منطلق القيمة الفورية العملية، ومقارنة النتائج العملية الناتجة عن نظرية ما فاهتمّ بصدق الكلام: متى يكون؟، وكيف يكون؟، فالعبرة لديه تكون صادقة لا مجرد كونها ذات معنى مفهوم إنّما إذا تصرفنا على أساسها فلم تجد ما يعترض طريقك الذي يوصلك إلى غايتك ويثبت زيفها وتستمر مصدقيتهما ما دامت سارية المفعول فتحقّق بهما ماتريد من أغراض.²

وهذان الرأيان ينظران للحقيقة على أنّها ليست قيمة مستقلة بل منهجا للتّفكير وبهذا تكون الحقيقة عندهما متطورة فما كان صحيحا، وصادقا اليوم يمكن أن يكون كاذبا وخاطئا غدا، إلّا أنّ وليام جيمس بحكم تديّنه فقد اختلف عن بيرس في مفهوم الفكرة الصادقة، فبيرس ينظر إليها من خلال النتائج المباشرة التي يمكن أن تتحقّق عن طريق التّجربة، أمّا جيمس فمع موافقته لبيرس في نظريته للفكرة من خلال النتائج المباشرة التي تترتب عن الإيمان بفكرة، أو التّمسك بعقيدة حيث يكون للإيمان نتائج

1- أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي، ص 84، 85.

2- وليام جيمس: البرغماتية، ص 74.

عملية مرضية، وبهذا يكون جيمس قد وسّع من كلمة نتائج فأدخل في نطاقها الآثار الوجدانية، والغايات العملية.¹

أمّا جون ديوي فقد أدخل الأدوات في مفهوم البرغماتية حيث جعل المعرفة أداة للعمل ووسيلة للتّجربة، فالفكرة أداة فعل لديه فجمع بين المادية العلمية، وبين آراء وليام جيمس الدينية، إلّا أنّه صبّ اهتمامه على ناحية العلوم الطبيعية، وقد انتهى إلى أنّه لا توجد معرفة حقيقية خارج المعرفة التي ينتجها منهج العلوم، وأنّه من غير الممكن البحث عن أسباب الأعمال خارج نطاق التّجربة لذا ينبغي كلّ الأفكار التي تتعلّى على الطبيعة الاتجاه إلى الخبرة التي تعلّمنا كلّ شيء يتغيّر، ولا يوجد سكون في ميدان المادّة، أو العقل.²

تلك هي البرغماتية في مفهوم أقطابها الثلاثة الذين لا تكتمل صورة الفلسفة البرغماتية إلّا بهم فقد وضع أولهم الأساس، وابتكر الاسم، وأقام ثانيهم البناء وأعلى طوابقه طابقاً فوق طابق، وأكمل ثالثهم البناء وجملته وأضاف إليه اللّمسات الجديدة الأخيرة ممّا أحدث نوعاً من الاختلاف، والتمايز، والتّفاوت بين رموزها وأدى إلى تجلّي الفلسفة البرغماتية في عدّة تجلّيات مختلفة منها الاقتصادية والسياسية والثقافية والإجتماعية لكن السؤال الذي يتبادر في ذهني الآن: ماهي تجلّيات الفلسفة البرغماتية في الواقع الأمريكي؟ وهذا مااستمّ الإجابة عليه في الفصل القادم.

1- فؤاد كامل : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، ص 95.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

الفصل الثالث

تجليات الفلسفة البرغماتية في الواقع الأمريكي .

- 1- **المبحث الأول:** التجليات الاقتصادية للفلسفة البرغماتية الأمريكية.
- 2- **المبحث الثاني:** التجليات السياسية للفلسفة البرغماتية الأمريكية.
- 3 - **المبحث الثالث:** التجليات الثقافية للفلسفة البرغماتية الأمريكية.
- 4- **المبحث الرابع:** التجليات الإعلامية للفلسفة البرغماتية الأمريكية.

تجليات الفلسفة البرغماتية في الواقع الأمريكي:

تعتبر البرغماتية هي الفلسفة الوحيدة التي أفرزت الفلسفة التقدمية هذه الأيام وباتت هي خطاب الأمريكيين اليوم، وأصبحت الفرع الأكثر شعبية من بين فروع الفلسفة في أمريكا، بل تمكنت من قلب مذاهب الفلسفة رأساً على عقب فهي على رأي إريك ريتشارد كاندل **Eric Richard Kandel**¹ "تمثل العقل الأمريكي الذي مثل كون الأمة الأمريكية."²

لأنّ تغلغل الفكر البرغماتي في الثقافة الدينية الأمريكية ليس اليوم، وإنّما من خلال ما أكّدت عليه هذه العقيدة، وماشدّدت عليه البروتستانتية على أخلاق العمل ومسؤولية الفرد عن نجاحه أو فشله الشّخصي في الحياة، وما أمن به الأمريكيون من أنّ كلّ فرد يلزم مكانه في الحياة، وأن يعمل في جد من أجل مصلحته الذاتية ومصلحة المجتمع أيضاً، وأن يكون أكثر واقعية، فالتعامل الواقعي، وتمجيد العمل اللذان تتعامل بهما الإدارة الأمريكية ناشئان عن التّرابط البرغماتي الواقعي الذي أصبح الخلفية السياسية الرسمية التي يركز عليها الفكر الأمريكي، وما أكّدت عليه الفلسفة البرغماتية في توجّهاتها النّفعية المادية أصبحت تمثّل الفكر الاقتصادي الأمريكي كما أصبحت واحدة من ديناميات الليبرالية، ومرحلة من مراحل تطبيق الفكر السياسي الأمريكي نتيجة لتوجّهاتها الرأسمالية، ونتيجة لهذا التّغلغل البرغماتي داخل جميع مفاصل الحياة الأمريكية، ولا يمكن استبعاد هذا الفكر عن السياسات الأمريكية برمتها والفكر الأمريكي في جميع توجّهاته السياسية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وغير

1- إريك ريتشارد كاندل: هو عالم أعصاب أمريكي من أصل نمساوي حصل على جائزة نوبل في الطب سنة 2000م بالإشتراك مع مواطنه الأمريكي بول غرينغارد و السويدي أرفيد كارلسون، وذلك لأبحاثه عن الأسس والمبادئ الفسيولوجية لإختزان المعلومات في الخلايا العصبية، يعمل كاندل أستاذاً للكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية بكلية الأطباء والجراحين التابعة لجامعة كولومبيا، وباحثاً رئيسياً بمعهد هوارد هيرز الطبي، كما أنه مؤسس ومدير مركز البيولوجيا العصبية، وعلم السلوك، الذي هو الآن قسم العلوم العصبية بجامعة كولومبيا ومن مؤلفاته "بحثاً عن الذاكرة: بزوغ علم جديد للعقل"، من مواليد 7 نوفمبر 1929م .

2- عبد العزيز صالح : تطور النظرية التربوية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1964م، ص 356، 63.

ذلك بما يضمن الهيمنة، والريادة العالمية للولايات المتحدة ليس لكونه فكراً أمريكياً بامتياز، وإنما رأيت فيه ما يتلاءم مع متطلبات الحياة الأمريكية بكلّ توجهاتها وتطلّعاتها الخارجية التوسّعية.¹

والسؤال الذي نطرحه الآن: ماهي تجليات الفلسفة البرغماتية الأمريكية في المستوى الاقتصادي، والسياسي، والثقافي، والإعلامي؟ وماهي تأثيراتها الحياتية والفكرية عموماً بإيجابياتها، وسلبياتها؟.

1- مهدي فهمي التميمي: البراغمتية في الفكر السياسي الأمريكي المعاصر، بتاريخ الأربعاء، 29 فبراير 2012م . alsafeerint.blogspot.com/2012/02/1432-2011.html

أولاً: التجليات الاقتصادية للفلسفة البرغماتية الأمريكية:

يقول الدكتور المصري محمد عزيز نظمي سالم: "إنّ البرغماتية تعبير صادق عن الفلسفة الأمريكية فهي تدعو إلى "العملية"، وتتخذ من "العمل" مقياساً للحقيقة لتوافق بذلك ما يدعو له النظام الرأسمالي الذي يربط بين الحقيقة من جهة، والذاتية والنفعية من جهة أخرى.¹

يبين لنا هنا أن الفلسفة البرغماتية أصبحت المبدأ الإداري، والاقتصادي الحكيم الذي يتعامل مع الواقع المعاش، وما يحيط به من ظروف متغيرة وجديدة بصورة عملية تحقق الأهداف القائمة على مبدأ المنافسة الحرة بكفاءة واقتدار، وأصبح المصطلح البرغماتي مفهوماً تجارياً مرتبطاً بالإدارة والاقتصاد، وتسّلل هذا المفهوم إلى مبادئ وأسس الاقتصاديين، والإداريين وسلوكيات التجار.

تستند اليوم الفلسفة البرغماتية الأمريكية لإعطاء الأولوية لانتعاش الاقتصاد الأمريكي إلى الاعتقاد بأن القاعدة الأمريكية الكونية لا تستطيع أن تظل صلبة إلا إذا بنيت أرضية اقتصادية صلبة، ذلك أنه كلما ضعف الاقتصاد الأمريكي كلما ضعفت تبعاً له سياسة النفوذ الأمريكية في العالم، وكذلك قابليتها على توجيه الأحداث وإدارتها بما يخدم المصالح الحيوية.² وهذا يعني أن الفلسفة البرغماتية تهتم كثيراً بالاقتصاد العالمي الذي يتصف بالقوة، والسرعة في العطاء، والأخذ في جميع أنحاء العالم.

وفي إطار هذه المصالح البرغماتية الحيوية تبقى المسألة الأخيرة متعلقة بالعلاقة القائمة بين الوسائل والأهداف في ظروف تطوّر قدرات الدولة على تلبية متطلبات تطوّراتها الواسعة، فكلما حافظت الدولة على توازن هذه العلاقة تظل قادرة على

1- أحمد بن عبد الرحمن الشميمري: البرغماتية - نشأتها وأثرها على سلوك المسلمين، بتاريخ 1-1-2002م.

<http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=12092>

2- جواد كاضم البكري: فخ الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م، مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية، بيروت لبنان الطبعة الأولى، سنة 2011م، ص 37.

تحقيق مقاصد استراتيجيتها الشاملة، أما إذا حدث وحملت الدولة نفسها ما فوق طاقتها فسيصيبها الإرهاق، وتصبح مصالحتها البرجماتية عرضة للمنافسة.¹

إن هذه النظرة التي تبدو تفاؤلية، ليست غريبة على رئيس حكم أكبر دولة قادت العالم ولا زالت نحو العولمة التي هي في نظره ظاهرة تفرز العلاقات بين الأفراد والأمم. وتساهم في تسارع عمليات الإنتاج باستخدام الآليات الحديثة، وتسهل انتقال رؤوس الأموال والخدمات، بالشكل الذي يشجع المهارات و المبادرات.

من أفضل الأمور التي حدثت خلال العقود الثلاثة الأخيرة أن الفلسفة البرغماتية الأمريكية صارت متمسكة بفكرة واحدة مبسطة حول الاقتصاد وهذا من خلال المساهمة في تسارع عمليات الإنتاج مستخدمًا في ذلك تقنيات معاصرة مما يسهل انتقال رؤوس الأموال، والخدمات بين الأفراد، وهذا كله من أجل تشجيع المهارات العملية في إطار التجارة العالمية، وفتح مجال للتنافس، وتوسيع السوق بين مختلف المؤسسات التجارية من أجل تحقيق مصالحهم المختلفة، ومن منطلق هذا المدخل نتساءل: ماهي التّجليات الاقتصادية للفلسفة البرغماتية؟.

من مظاهر الفلسفة البرغماتية على المستوى الاقتصادي نجد :

أ- النّفط :

يعتبر النّفط² مصدرا طاقويا له أهمية قصوى للاقتصاد الأمريكي البرغماتي فهو بمثابة الدم الذي يسري في شريان المؤسسات الاقتصادية، وتتبع أهمية النّفط بالنسبة للاقتصاد

1- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م، ص38.

2- النفط : لقد تعددت التعاريف، والمفاهيم التي أطلقت على هاته المادة السحرية، والتي باكتشافها تغير مجرى حياة البشرية جمعاء ، فهناك من وصل به الأمر إلى إطلاق مصطلح الذهب الأسود على النفط وهذا يرجع إلى الأهمية الاقتصادية الكبيرة والتي أصبحت تضاهي أهمية الذهب في الاقتصاد العالمي وبالرجوع إلى معجم مصطلحات البترول والصناعة النفطية نجد أن كلمة النفط تعني البترول أو زيت البترول البترول زيت البترول النفط= "petroleum"، وبالتالي نستنتج أن البترول هو نفسه النفط وبهذا يمكننا أن نقول وبهدف توحيد المصطلحات برميل نفط= برميل بترول، انظر أحمد شفيق الخطيب : معجم مصطلحات البترول والصناعة النفطية، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح، بيروت، الطبعة الجديدة، سنة 1990م، ص 323.

الأمريكي من خلال النظر إلى حجم الاستهلاك الأمريكي لهذا المصدر الطاقوي هو ما جعل مسألة الوصول إلى منابعه الغنية، والهيمنة عليها بصورة متواصلة للحصول عليه بأثمان زهيدة تحتل حيزا كبيرا في الاستراتيجيات الاقتصادية الأمريكية وأولوية من أولويات أهداف سياستها الخارجية منذ عقد الخمسينيات.¹

وبما أنّ النفط هو من أهم مصادر الطاقة في العالم أصبح الاقتصاد البترولي موضع رعاية، واهتمام خاص في الأوساط العلمية، والجامعية، وتحول إلى مادة علمية مستقلة، و متخصصة لدراسته وتدريسه في العديد من الجامعات، والمؤسسات العلمية للعديد من الدول المتقدمة كالولايات المتحدة الأمريكية والقارة الأوروبية، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية توسّع، وازداد الاهتمام بدراسة، وتحليل مراكز وآثار الثروة البترولية اقتصاديا واجتماعيا على الاقتصاد العالمي.² يمكننا القول هنا بأنّ الثروة البترولية النّفطية تعتبر من أقوى وأبرز المواد الأولية في الاقتصاد العالمي وفي اقتصاديات العديد من بلدان العالم بل إنّ اقتصاديات العديد من بلدان العالم، و في مختلف القارات تعتمد، وبنسبة كبيرة على هذه الثّورة الطبيعية.

لقد كان النّفط سببا لنشوب الحروب في القرن العشرين للحصول على مصادر الطاقة و لكن هذه الحروب تطوّرت إلى صراعات خلال فترة استثمار هذه المصادر، ولكونها أكبر مستهلك للطاقة بوصفها دولة صناعية كبرى سعت الولايات المتحدة الأمريكية لأن يكون لها الدور الكبير في صياغة السّمات الجيوسياسية للعلاقات الدولية في مطلع القرن الحادي والعشرين.³

وفي المنطقة العربية دعمت الولايات المتحدة الأنظمة العربية الحليفة لها بهدف الوصول إلى احتياطات النّفط وحتتها على إيداع عائدات نفطها بالدولار الأمريكي

1- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م، ص38، 39 .

2- محمد أحمد الدوري : محاضرات في الاقتصاد البترولي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1983م ص3 .

3- سعد حقي توفيق : التنافس الدولي، وضمان أمن النفط ، مجلة العلوم السياسية، بغداد، العدد 43، سنة 2011م، ص9.

وهكذا وجدت الدول المستوردة نفسها مساهمة لدى البنوك الأمريكية، واقتصاد كلّ برميل أمريكي بقيمة العشر عند شراء نفط خام، وحصلت الدول العربية مقابل عائدات النفط المستخرجة على استثمارها في الدول الغربية، وفي شراء الأسلحة الأمريكية و بالمقابل وعدت أمريكا بحمايتها لهم.¹

تخشى الولايات المتحدة الأمريكية من تغيير الأنظمة السياسية الحليفة في منطقة الخليج العربي خشية إنقطاع إمدادات النفط المهم بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية هو الوصول إلى مصادر النفط في الشرق الأوسط بشكل آمن، وبالتالي الحفاظ على استقرار أسعار النفط.²

لقد تركّز اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة على محاولة ربط أورو آسيا بمنطقة الشرق الأوسط الغنية بالنفط، خاصة العراق في ظل النظام السابق وإيران اللتين كانتا بعيدتين عن دائرة النفوذ، والسيطرة الأمريكية.³

إن السبب في مساعي الولايات المتحدة غير المتسامحة تجاه محاولات العراق سابقا وتجاه المحاولات الإيرانية لامتلاك التكنولوجيا النووية يعود إلى أنّ الاستراتيجية الأمريكية لاتسمح للدول صاحبة المصادر النفطية بامتلاك القوة العسكرية، والموارد الطبيعية في الوقت ذاته ولهذا السبب لاتتعامل الولايات المتحدة مع البرنامج النووي لكوريا الشمالية بالاهتمام والقلق نفسيهما.⁴

وتعود المساعي الأمريكية للحفاظ على هيمنتها على منطقة الشرق الأوسط بشكل خاص، والدول التي خرجت من الاتحاد السوفياتي السابق إلى خشيتها من انضمام هذه الدول إلى النادي النووي، وفي حالة حدوث ذلك سيكون لدول الشرق الأوسط من

1- سعد حقي توفيق: التنافس الدولي وضمان أمن النفط ، ص 9.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- عبد الحي زلوم : حروب البترول الصليبية، والقرن الأمريكي الجديد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، سنة 2005م، ص 43، 44.

4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

القوة مايسمح لها بحماية مواردها، والإستقلال في مواقفها لأنّ موارد دول الشرق الأوسط، ودول الاتحاد السوفياتي السابق، يمكن أن تضاهي مايملكه الغرب إضافة إلى احتكارها للموارد النّفطية الرئيسية في العالم بكل مايعنيه ذلك من تحكّم في أسعار الطاقة، لهذا تسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى القيام بعملية إعادة انتشار عسكريّ واسع النّطاق تستهدف آسيا الوسطى وإيران.¹ بتضح لنا جليا هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية كان لها دور بالغ الأهمية في المجال النفطي، وهذا من خلال سياستها البرغماتية في سيطرتها على منطقة الشرق الأوسط، وسعيها الواسع في استهداف المناطق الأخرى.

وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية أكبر مستورد في الطاقة للعالم، ففي عام 1973م كانت تستورد معدل 3.241 مليون برميل يوميا، في حين أصبحت تنتج معدل 9.209 مليون برميل يوميا ازدادت هذه الفجوة بين الاستيراد، والإنتاج شيئا فشيئا، إذ تطوّرت استراتياتها من النّفط الخام منذ عام 1973م، وحتى عام 2004م بمعدل 32% فيما انخفض إنتاجها للفترة نفسها بمعدل 58%.²

برزت أهمية النّفط للاقتصاد الأمريكي البرغماتي بصورة واضحة بعد حدوث ما سمي بالصّدمة النّفطية الأولى عام 1943م إثر الإرتفاع المفاجئ في أسعار النّفط، نتيجة للعقوبات التي فرضتها الدول العربية المصدرة للنّفط ضد الدول التي وقفت إلى جانب إسرائيل في حرب أكتوبر 1973م.³

لقد كان الإستهلاك المحلي للطاقة في أمريكا عام 1973م يموّله الإنتاج المحلي بدرجة كبيرة بلغت 74%، فيما اعتمدت على الاستيراد 26% فقط من احتياجاتها للطاقة، فيما بدأت هذه النسب بالتغيّرتدريجيا منذ ذلك التاريخ لصالح الاستيراد فقد ازداد اعتماد الولايات المتحدة الأمريكية على النّفط من نسبة 37.9% عام 1980م إلى

1- عبد الحي زلوم : حروب البترول الصليبية، والقرن الأمريكي الجديد، ص 43، 44.

2- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م، ص 39 .

3- المرجع نفسه، ص 39، 40.

44% في عام 1990م، وإلى 60.9% عام 2000م، وإلى 64.9% عام 2004م وفي سوق الطاقة العالمي تستهلك الولايات المتحدة وحدها نسبة 21% من الطاقة العالمية حسب إحصائيات 2003م، فيما يليها الاتحاد بنسبة 17 %، ومن ثم الصين بنسبة 13%، فاليابان بنسبة 5.1%¹

نستنتج هنا أنّ النفط لا يزال مصدرا حيويا، ومهما للطاقة بالرغم من بداية تطوّر موارد الطاقة البديلة، وفي عصر العولمة لازال النفط يشكل عصب، وعمود الاقتصاد العالمي لاسيما في قطاع النقل الذي يشكل قطاعا مهما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية.

لقد توجهت الدول الكبرى إلى تنويع مصادر استيرادها للطاقة، ولاسيما النفط وذلك لتلقّي الضغوط التي قد تتعرض لها عند مواجهتها للأزمات النفطية، فالولايات المتحدة الأمريكية سعت إلى تجنّب الوقوع في مثل هذه الأزمات، وحين سعت إلى التقليل من اعتمادها على نفط الشرق الوسط، ولاسيما أنه يعد إحدى المناطق الغير المستقرة في العالم ظهرت آراء تطالب بتنويع مصادر استيراد الولايات المتحدة للنفط.²

ففي مطلع القرن الحادي والعشرين كانت إمدادات النفط الأمريكي تأتي في المصادر الآتية:

* كندا 8،1 مليون برميل.

* السعودية 4،1 مليون برميل.

* المكسيك 4،1 مليون برميل.

* فنزويلا 4،1 مليون برميل.

وتتصح بعض مراكز القرار الأمريكية بزيادة حصة الولايات المتحدة من النفط الإفريقي، وذلك في ضوء التهديدات التي تمارسها فنزويلا ضد الولايات المتحدة الأمريكية بين

1- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م ص 39، 40.

2- سعد حقي توفيق: التنافس الدولي وضمان أمن النفط، ص 14.

الحين والآخر، بالإضافة إلى المخاطر التي يتعرض لها الشرق الأوسط كما أنّ الولايات المتحدة الأمريكية تستورد ما يقارب من 74 % من إجمالي وارداتها من منطقة أوبك مما قد يشكل ضغطاً عليها خاصة في ضوء رغبة أوبك في عمل توازن بين سقف الإنتاج والأسعار.¹

ولعلّ ما يشير إلى رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في السعي نحو تنويع حقيقي ل وارداتها النفطية هو ما دعا الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش George W. Bush في سنة 2006م إلى الإشارة إلى إدمان الولايات المتحدة الأمريكية على نفط الشرق الأوسط وضرورة العمل على الإستعاضة عنه بمقدار 75% بحلول 2025م من مصادر أخرى، وفي الوقت الذي تستورد فيه الولايات المتحدة الأمريكية 15 % من حاجاتها النفطية من إفريقيا تأمل أن ترتفع هذه الواردات إلى 25% في العام 2010م.²

نلاحظ هنا مدى سيطرة وإدمان الولايات المتحدة الأمريكية على نفط الشرق الأوسط بنسبة كبيرة مقارنة مع إفريقيا، فهذا التقديس للنفط العربي من مهام النظام الاقتصادي الذي يسعى دائماً عن الربح المادي جتى وان كان هذا النظام لا يتوافق مع مبادئها الاجتماعية، والأخلاقية، والثقافية فجنى المال، والهيمنة على السوق العالمية ليس له حدود عند الفرد البرغماتي الأمريكي.

كما تستورد الولايات المتحدة الأمريكية نحو 40 % من الإنتاج النفطي لأنغولا حيث تسيطر شركة شيفرون الأمريكية على 75 % من إنتاج النفط كما تسعى الإدارة الأمريكية لرفع إنتاج أنغولا خلال السنوات القادمة، أمّا الغابون التي تصدر 44 % من إنتاجها النفطي للولايات المتحدة فإنّ الشركات الأمريكية خاصة "اميراداهيس" و"سانتا" و"ادنوكال" تهيمن على إنتاج البلاد، أما في غينيا الاستوائية فإنّ الشركات الأمريكية 41 تهيمن على ثلثي إنتاج البلاد، وهكذا بالتدرج لم تعد السعودية و الكويت المجهزتين

1- سعد حقي توفيق: التنافس الدولي وضمان أمن النفط، ص14.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الرئيسيتين للنفط للولايات المتحدة الأمريكية، فقد شهد العالم 1994م على سبيل المثال ورود أكثر من 4 ملايين برميل من النفط يوميا إلى شاطئ الأطلسي من مناطق أخرى.¹ وفي التقرير الذي رفعته مجموعة من مهندسي السياسة الأمريكية من أمثال "زبغنيو بريجنسكي Zbigniew Brzezinski 1928 - 2017م، هنري كيسنجر Henry Kissinger 1923م، ألكسندر هاملتون Alexander Hamilton 1757 - 1804م" بعنوان السياسة الخارجية الأمريكي في مطلع القرن الحادي والعشرين، و تحديات القيادة الأمريكية إلى الرئيس الأمريكي ورد النفط كأسبوعية أولوية في كل المصالح الحيوية البرغماتية المهمة بين مجموعة من التحديات التي تواجه القيادة الأمريكية للعالم في مطلع القرن الحالي.²

نفهم من خلال هذا الطرح أن الولايات المتحدة الأمريكية من خلال استيرادها للنفط تسيطر على عدد كبير، ومعتبر من دول العالم كما سبق لنا الذكر، وبهذا ظل النظام الاقتصادي الأمريكي محافظا على مكانته العالمية.

ففي بند المصالح البرغماتية الحيوية تم ترتيب الأولويات كالآتي:

1. المحافظة على أمن، واستقرار منطقة الخليج مع ضمان استمرار تدفق النفط والغاز بسهولة.

2. ضمان سلامة إسرائيل.

3. ضمان أمن مصر، والعربية السعودية، والأردن.

4. تطوير التنسيق لمحاربة الإرهاب في منطقة الشرق الأوسط.³

1- سعد حقي توفيق: التنافس الدولي وضمان أمن النفط، ص 17.

2- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008 م، 41.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

معنى هذا أنّ المجتمع الأمريكي مجتمع برغماتي يسعى نحو كلّ ما ينفعه مستبعداً في طريقه كلّ الأعراف الإنسانية، والقيم الأخلاقية، والقوانين الدولية إذا وجد أنّها ستمنعه عن تحقيق مصالحه المادية.

وسوف نوضّح الأمر أكثر توضيحاً من خلال تجلّي الفلسفة البرغماتية في الميدان الاقتصادي النّفطي فمثلاً **المنطقة العربية، ولاسيما منطقة الخليج العربي** تتمتع بأهمية عالية في التفكير الاستراتيجي الأمريكي نظراً لاحتوائها على النّفط صعب الحياة الصناعية إذ أشار الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون **Richard Nixon 1919-1994م** إلى أهمية نفط الخليج العربي¹ للغرب مصلحة حيوية في الإبقاء على وصوله إلى نفط الخليج العربي وأوروبا تعتمد بما يزيد على 75 % واليابان 90 % من حاجاتها للنّفط على الخليج العربي ومع أنّ أمريكا لا تحتاج لغير 6% من نفط هذه المنطقة، فإنّ تأثير وقف تدفقه إليها يعني شل الصناعة الأمريكية، وهو إلحاق أشد الضرر بصناعات حلفائنا في أوروبا الغربية واليابان، ومن هنا تتبع أهمية المحافظة على قدراتنا على الدفاع عن أصدقائنا في منطقة الخليج العربي.²

فالنّفط له أهمية أمنية استراتيجية³ برغماتية عالية بالنسبة لأمريكا فضلاً عن أهميته الاقتصادية وعبر روبرت كومر **Robert Komer 1922-2000م** وكيل وزير الدفاع الأمريكي الأسبق عنه بالقول: " يحتل النفط المرتبة الأولى في سلم أولويات المصالح البرغماتية، وهذا أمر طبيعي لأنّ للنّفط صلة وثيقة للقدرات الذاتية للقوة

1- ريتشارد نيكسون : ما وراء السلام، ترجمة مالك فاضل البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، سنة 1995م، ص 148.

2- ريتشارد نيكسون : ما وراء السلام، ص 148.

3- استراتيجية : تفكير يجيز لصاحبه التعامل بصورة صحيحة ومنطقية مع الأحداث، والمتغيرات المحيطة بالفاعل، وصولاً إلى أهداف يتوخاه الفاعل وعليه ان يختار من بين جملة وسائل، وخيارات ما هو اكبر ملائمة واشد فاعلية اذ لكل موقف استراتيجية تتلائم معه وعالية، فالباحث يعتبر مفهوم الإستراتيجية يشير إلى شقين: الأول المنهج ، والثاني : السياسة الوسيلة لتنفيذ هدف السياسة. انظر عادل عبد الحمزة ثجيل البدوي : الإدراك الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية دراسة في المبادئ الجيوبوليتيكية، دار الجنان للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2015م، ص36.

العظمى، وإذا أصابها الوهن في هذا الطرف فإنّ جسدها السياسي، والاقتصادي والعسكري سيرتعث.¹ لقد ساهم النفط الأمريكي البرغماتي في تغيير طريقة النشاط الاقتصادي في مختلف مجالاته الإستراتيجية والعسكرية، فأصبح عنصرا مهما في التصنيع، والإنتاج والتصميم، والتسويق مما وفر لرجال الأعمال والمال الكثير من الأرباح المادية التي ساعدتهم كثيرا في التحكم في العالم، والسيطرة عليه.

إنّ النّفط يرتبط بالأمن القومي الأمريكي أي في التنمية التي يعدّها وزير الدفاع الأمريكي السابق روبرت مكنمارا **Robert McNamara 1916 - 2009م** هي الأمن إذ يقول: "الأمن معناه التنمية الأمن ليس هو المعدات العسكرية، وليس هو القوة العسكرية الأمن هو التنمية وبدون تنمية لا يمكن أن يوجد الأمن"²، وتبعاً لذلك فقد ترتّب على حرب عام 1973م، والحضر النّفطي الذي رافقها بلورة نمط جديد من المشروعات الأمريكية تجاه منطقة الخليج العربي الغنية بالنّفط، وهي مشروعات التّدخل العسكري المباشر.³

وحاول الأكاديمي الأمريكي السياسي الواقعي "هنري كيسنجر" عندما كان وزيرا للخارجية عام 1974م بحث إمكانية قيام قوة أوربية أمريكية لحماية مصادر النّفط إلّا أنّ شركاء أمريكا في حلف الشّمال الأطلسي لم يبدو حماسهم لمثل هذا المشروع حتّى إذا جاء الرئيس الأمريكي كارتر إلى السلطة بعث فكرة إنشاء قوات للتّدخل السريع.⁴

1- كاظم هاشم نعمة : دراسات في الإستراتيجية والسياسة الدولية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، الطبعة الأولى، سنة 1990م، ص 443.

2- روبرت مكنمارا: **جوهر الأمن**، ترجمة يونس شاهين، المطبعة الثقافية، القاهرة، سنة 1970م، ص 125.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- حسين أغا وآخرون : **قضايا الخليج العربي**، سلسلة الدراسات الاستراتيجية العربية للدراسات والنشر لندن العدد العاشر، سنة 1982م، ص 141.

والتي تمّ تشكيلها بإعلان مبدأ كارتر¹ في 24 كانون الثاني، كما يعد الفكر الفلسفي الاستراتيجي البرغماتي الأمريكي أنّ النّفط أضحى يشكّل أبرز أدوات التّعامل المستعملة من قبل واشنطن في تدعيم تحالفها مع أوروبا الغربية، وأنّ سيطرة السوفيات على مصادرتوريد النّفط يسمح بكل سهولة بفصل علاقات التّحالف القائمة بين واشنطن وحلفائها.²

وبصدد ذلك قال وزير الدفاع في عهد إدارة جيمي كارتر في شهادة له أمام لجنة الشّؤون الخارجية بالكونغرس هارولد براون Harold Brown 1927-2019م: "فلو حرمت الدّول الصناعية في العالم من حرية الوصول إلى مصادر النّفط في الخليج فستكون النتيجة على الأرجح هي الإنهيار لحلفائنا، وللاقتصاد العالمي."³

تنظرالولايات المتحدة الأمريكية إلى إمكانية السوفيات على منطقة الخليج العربي أو على منافذ نقل النّفط منها إلى أوروبا، واليابان سيغيّر من معادلات القوة بل والأرجح سينجم عن ذلك احتمالات انهيار تحالفات الأمن الغربي تمامًا، فأوروبا ستجد نفسها مضطرة وقتها للدخول في علاقات مهادنة مع السوفيات كئمن للوصول إلى نفط الخليج العربي، وستدعن لضغوط السوفيات لفسخ روابطها التحالفية مع أمريكا التي ستجد نفسها مضطرة لتصفية تواجدها العسكري في أوروبا.⁴

1- مبدأ كارتر : سياسة أمريكية تم إعلانها من قبل الرئيس الأميركي السابق جيمي كارتر خلال خطاب حالة الإتحاد السنوي في 23 ينايرم 1980م ينص المبدأ على السماح للولايات المتحدة باستخدام القوة العسكرية للدفاع عن مصالحها، ومنافعها في منطقة الخليج العربي.

2- إسماعيل صبري مقلد : الإستراتيجية الدولية في عالم متغير قضايا، ومشكلات، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، سنة 1983م، ص31.

3- جيفري ريكورد : قوة الإنتشار السريع، والتدخل العسكري الأمريكي في الخليج، ترجمة عبد الهادي ناصيف، دار الوحدة، بيروت، سنة 1983م، ص14.

4- إسماعيل صبري مقلد: الاستراتيجية الدولية في عالم متغير قضايا، ومشكلات، ص31.

وتبعاً لذلك جعلت الولايات المتحدة من أهدافها الاقتصادية البرغماتية الأساسية تأمين الوصول دائماً إلى النفط في الخليج العربي، ومنع السوفيات من الحصول على سيطرة سياسية عسكرية على النفط مباشرة، أو بالوساطة، فهي تسعى بشتى الطرق لتأمين السيطرة على منابع النفط.

وضعت الولايات المتحدة الأمريكية خططا في الثمانينات تدور حول تعرض دول الخليج العربي لتهديد حقيقيٍّ لأمنها، وأسس استقرارها من قبل طرف إقليمي يوجب التدخل الأمريكي¹، بذلك عدّ دخول العراق للكويت في عام 1990م بمثابة التهديد الخطير على المصالح الأمريكية، وأشار وزير الدفاع ديك تشيني **Dick Cheney** 1941م السابق في عهد إدارة جورج بوش إلى أنّ المزاوجة بين القوة العسكرية العراقية المكوّنة 20% من مليون عسكري مع منع نفط العالم يمثلّ تهديداً كبيراً للأمن القومي الأمريكي². يتبين لنا هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى إلى الحفاظ على تفوقها الاقتصادي، وقوتها العسكرية على مختلف الدول العربية، وهذا من أجل تحقيق مصالحها المادية بالدرجة الأولى.

1- محمود بكري : جريمة أمريكا في حرب الخليج الأسرار الكاملة، المطبعة الفنية، القاهرة، سنة 1991م ص130، 109.

2- بوب ودورد: القادة أسرار ما قبل، وبعد أزمة الخليج، ترجمة عمار جولاق، ومحمود العابد، الأهلية للنشر و التوزيع، عمان، سنة 1991م، ص191.

يلاحظ هنا أنّ التفكير الإستراتيجي الأمريكي البرغماتي لم يكن بمعزل عن نظريات الجيو بولتكس التي منحتها المكانة الأولى في صياغة الخطط السياسية، فنظرية جون ما كنذر¹ تعدّ المنطقة العربية جسرا برياً يربط قلب العالم الشمالي بقلب الجنوب.²

فضلا عن أنّ الأمريكي نيكولاس سبيكمان Nicholas Spykman³ وضع المنطقة العربية في منطقة الإطار الذي لها أهمية كبرى في عملية تطويق قلب العالم الذي تحدّث عنه ماكنذر، وتأثر الإستراتيجية بهذه النظرية، إذ عملت الولايات المتحدة على السيطرة على هذه المنطقة بإقامة سلسلة من القواعد العسكرية والسيطرة على طرق ممراتها البرية والبحرية فيها حتّى تمنع القوات السوفياتية من استعمالها في الهجوم عند الضرورة.⁴ أليس هذا لونا من ألوانها البرغماتية النفعية؟ بالطبع هي تسعى إلى تحقيق مصلحتها المادية، وفرض نفوذها، وهيمنتها بشتى الطرق السلمية أو الحربية فهي لايهمها الوسيلة للوصول إلى غايتها المرجوة، وإنما النتائج المترتبة عن ذلك التخطيط الاستراتيجي للسيطرة على المنطقة المراد الوصول إليها.

1- نظرية ماكنذر: وضع هذه النظرية العالم الجغرافي ماكنذر Mckinder، أحد مؤسسي "الجيو بوليتك"، وهو العلم الذي يفسر العلاقات الدولية على أساس المواقع الجغرافية لمختلف البلدان، وقد ظهر أول بحث له في هذا الموضوع عام 1904م، ويمكن إيجاز هذه النظرية بالآتي :

أن البحار تغطي حوالي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية في حين أن اليابسة لا تزيد عن ربعها، وفي هذا الجزء من اليابسة تقع منطقة عمرانية يشغلها حوالي سدسها من السكان وهي آسيا وأوروبا وأفريقيا، ومن الأفكار التي نادى بها أصحاب هذه النظرية أن الذي يسيطر على أوروبا الشرقية تسهل عليه السيطرة والتحكم على المنطقة الرئيسية ومن يسيطر على المنطقة الرئيسية يمكنه أن يحكم العالم بأكمله أو الجزيرة العالمية، وقد تأثرت الحركة النازية في ألمانيا بهذه النظرية، وكان يراد من وصول الجيش الألماني إلى قلب هذه المنطقة السيطرة والهيمنة على بقية جهات العالم. انظر حسين وحيد عزيز الكعبي: نظرية ماكنذر، بتاريخ 27-12-2015م.

www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/lecture.aspx?fid

2- أمين محمود عبدالله: في أصول الجغرافية السياسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة 1976م، ص 294، 302.

3- الأمريكي سبيكمان : جيوستراتيجي هولندي أمريكي ، ويعتبر أحد مؤسسي المدرسة الواقعية الكلاسيكية في الخارجية الأمريكية، يهتم كثيرا بالفكر السياسي لأوروبا الشرقية، وهو أستاذ للعلاقات الدولية، ويقوم بتدريسها في معهد الدراسات الدولية في جامعة ييل، من مواليد 1893-1943م.

4 - أمين محمود عبدالله: في أصول الجغرافية السياسية، ص 294، 302.

دخلت المنطقة العربية ضمن هذه السياسات الأمريكية لاعتبارها جزءاً مهماً من منطقة الإطار، التي تحدّث عنها عالم "الحيو- بولتكس" سبيكمان كما أنّ "الكسندر دي سفيرسكي Alexander de Seversky" ¹صاحب النظرية "القوة الجوية مفتاح للبقاء" جعل المنطقة العربية ضمن منطقة المصير التي تمنح من يسيطر عليها السيطرة على الأجزاء الأخرى من العالم. ² يمكننا القول هنا أنّ هذه النظريات لعبت دوراً برغمتياً بالغ الأهمية في القرارات، والتوجيهات الاستراتيجية الأمريكية تجاه المنطقة العربية، والتي تهدف من خلالها إلى إعادة ترتيب المنطقة جغرافياً وسياسياً وحضارياً والسيطرة الدائمة على النفط وأسواقه، وأسعاره مما يجعل الاقتصاد الأمريكي يستطيع تجاوز كل العقبات، والمشاكل التي تعترضه، والسيطرة الكاملة سياسياً وعسكرياً بفضل المراقبة العسكرية المستمرة.

ومما سبق نخلص إلى أن أهمية المنطقة العربية في الفكر الفلسفي الاستراتيجي البرغماتي الأمريكي تنبع من ثوابت، ومقومات فرضتها طبيعة العلاقة التنصارية بين العملاقين إبان الحرب الباردة، وما تمثّله المنطقة من موقع جيواستراتيجي غني بالثروات الطبيعية، ومهم في استراتيجية لإحتواء الأمريكي البرغماتي، إلى جانب ذلك فإنّ للمنطقة أهمية استراتيجية عليا متأتية من رفد قوتها العسكرية التأثيرية في صراعها مع العملاق السوفيياتي فضلاً عن توظيفه في شد الحلفاء إلى جانبها ومنع إنفلاتهم من فلكها.

1- الكسندر دي سفيرسكي : طيار عسكري روسي أسهم في الحرب العالمية الأولى، ثم عمل بعدها كمصمم في بناء الطائرات، وقدم من إنتاجه ما يدل على مهارته العلمية، وما يؤكد من وجهات نظره عن السلاح الجوي وخصائصه وعوامل النقص في استخدامه الحالي على ما أوضح هذا كله في كتابه "الانتصار بوساطة السلاح الجوي"، من مواليد 1894- 1974 م .

2- أمين محمود عبدالله: في أصول الجغرافية السياسية، ص 294، 302.

ب- الدولار الأمريكي:

السؤال الذي يطرح الآن: ما هي المكانة الذي يحتلها الدولار الأمريكي في النظام النقدي الدولي؟.

لا يزال الدولار يحتل الموقع الرسمي الأول في النظام النقدي الدولي بسبب هيمنته على ثلثي الاحتياطات الدولية للعمليات الحرة إذ يشكل حوالي 60% لدى المصارف المركزية من الاحتياط بالعملة الأجنبية¹، هذا ما يمنح الولايات المتحدة الأمريكية وضعاً مرغماً خاصاً يجعلها قادرة على تسديد قيمة مستورداتها بعملتها الوطنية.²

قبل إصدار الدولار في أمريكا كان الشعب الأمريكي يتعامل بالعملة الفرنسية والإنجليزية، والإسبانية، ولم يكن يسبب ارتباكاً في التعاملات التجارية داخل الولايات إلى أن جاء عام 1785م، تم فرض الدولار كعملة موحدة لاتحاد الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت المصارف في الولايات تتولى إصدار ورق النقد بموجب تراخيص من الولايات، وفي عام 1935م بدأت وزارة الخزانة الأمريكية في إصدار العملة الرئيسية للولايات المتحدة الأمريكية.³ معنى هذا أن الدولار الأمريكي يعتبر أهم عملة في العالم إضافة إلى ذلك نجده يلعب دوراً أساسياً ومهماً في التجارة والتمويل لأنه يستخدم على نطاق واسع في تسوية معاملات الإستيراد والتصدير حول العالم بأكمله.

وإزاء إنهاء موازين مدفوعات الاقتصادات الأوروبية لجأت إلى عقد مؤتمر دولي بحضور 44 دولة سنة 1944م سمي مؤتمر "بريتون وودز" طرح فيه مقترحان:

1- هانس بيتر مارتين- هارالد شومان : فح العولمة الإعتداء على الديمقراطية، والرفاهية، ترجمة عدنان عباس علي، مراجعة، وتقديم رمزي زكي، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة 1998م، ص 140.

2- حميد الجميلي : عناصر قوة الاقتصاد الأمريكي، وضعفه مع إشارة خاصة للمديونية الأمريكية، مجلة منتدى الفكر العربي، عمان، الأردن، المجلد 28، العدد 258، سنة 2013م، ص 4.

3- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008 م، ص 42.

الأول: مقترح الاقتصاد الإنجليزي جون ماينرد كينز John Maynar Keynes

"1883-1946م" الذي دعا إلى تكوين مؤسسة نقدية دولية "الإتحاد الدولي للمقاصة" تستخدم فيه عملة دولية ترتبط قيمتها بوزن معين من الذهب "البانكور" ويقوم الإتحاد بتسوية الحسابات بين الدول الأعضاء على أساس المقاصة بين الديون، والحقوق التي تتحملها، أوتكسبها تلك الدول من خلال التعامل فيما بينها.¹

ومن المعلوم أنّ كينز، في نظريته العامة للنقود، والفائدة، والتوظيف عام 1932م كان قد أثبت في ضوء منهجه التحليلي، وأدواته النظرية أنّ الرأسمالية تتطوي على حدوث الأزمات، وأنّها قد فقدت قدرتها الذاتية على التوازن التلقائي، ولمجابهة هذه المخاطر رأى كينز أنّه من الضروري التّدخل للتأثير في حجم الطلب الكلي الفعّال و أنّ الدولة هي الجهاز الوحيد القادر على إحداث هذا التأثير، واقترح جملة من السياسات الحكومية في مجال المالية العامة.²

الثاني: مقترح الاقتصادي الأمريكي هايت White "1892-1948م" الذي تبني فكرة الإيداع بدلا من فكرة فتح الاعتماد التي اقترحها كينز، ودعا بذلك إلى إنشاء صندوق دولي يستهدف تثبيت أسعار الصرف الدولية، تقوم الدول المشتركة فيها بإيداع جزء من الذهب إضافة على عملاتها الوطنية كما تقوم الدول التي تعاني من سحب العملات الأجنبية والتي تحتاجها لمواجهة العجز.³

وقد وضع مؤتمر "بريتون وودز" أسس النظام النقدي العالمي الرأسمالي الذي أعطى للدولار أهميته العالمية من خلال مقررات ذلك المؤتمر والتي من بينها "اعتبار الذهب والدولار الأمريكي القاعدة الرئيسة لنظام النقد الدولي، والسيولة الدولية، وربط الدولار بالذهب بسعر تعادل ثابت إضافة إلى اعتبار صندوق النقد الدولي، ومقره واشنطن هو

1- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008 م، ص42.

2- حشماوي محمد : الاتجاهات الجديدة للتجارة الدولية في ظل العولمة الاقتصادية، أطروحة لنيل دكتوراه دولة في العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير جامعة الجزائر، سنة 2006م، ص 5.

3- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م، ص44، 45.

المؤسسة الدولية المشرفة على توجيه النظام النقدي الرأسمالي بذلك انتهى مؤتمر "بريتون وودز" إلى تتويج الدولار فوق عرش العملات المقبولة دوليا طالما أنّ فلسفة الولايات المتحدة الأمريكية برغماتيا كانت هي الدولة الوحيدة التي التزمت آنذاك بصرف الدولار المعروض في البنوك المركزية الأخرى بالذهب بسعر ثابت قدره 35 دولار للأونصة الواحدة.¹ المقصود هنا أن هذا المؤتمر ليس وليد الصدفة وإنما كان نتيجة عدة أبحاث، ودراسات، وجهود من بينها تأمين القروض للدول التي تعاني من عجز في ميزان المدفوعات، ومراقبة السياسات النقدية المالية للدول التي تعاني من مشاكل، وأزمات اقتصادية عالمية، والسعي وراء تحقيق توازن تجاري اقتصادي بين كل دول العالم، فبضل اتفاقية بريتون وودز أصبح للدولار الأمريكي مكانة عالمية مرموقة وثقيلة حيث يمكن لأي دولة تحويل الدولار إلى ذهب حسب ما اقترح في نص المؤتمر.

كما أسفرت جهود وأبحاث هذا المؤتمر إلى تحقيق نتيجتين مهمتين هما:

إنشاء مؤسستين نقديتين دوليتين فقد جاءت سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على نشاطاتهما بحكم استحواذهما على الجزء الأكبر من أسهم هاتين المؤسستين وهيمنتهم على قوة التصويت فيهما، وذلك لأنّ الولايات المتحدة كانت تملك 2750 مليون دولار من رأس مال صندوق النقد الدولي عام 1950م الذي يشكّل 31% من رأس المال للصندوق آنذاك، وهو ماسمح لها بالسيطرة على قرابة ربع أصوات المجلس الإداري في هذه المنطقة.²

نظام النقد الدولي هو النظام الذي تمكّنت من خلاله الولايات المتحدة أن تجعل الدولار الأمريكي العملة الدولية، ومصدر السيولة العالمية نظرا لالتزامها بقابلية تحويله للصرف ذهباً على أساس ثابت "35 دولار للأوقية"، وقد استهدف هذا النظام تحقيق الاستقرار في أسعار الصرف، وتوفير السيولة الدولية، وقد لعب نظام النقد الدولي بالذات إبان

1- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م، ص44، 45.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

سنوات تشغيله النّاجحة في الأربعينات، والخمسينات، وحتى النّصف الأوّل من الستينيات دورا مهما في خدمة توسّع الرأسمالية الأمريكية خارج حدودها في دول غرب أوروبا و بلدان المحيط.¹

و من المعلوم أنّ الظاهرة تعبر عن نفسها في ذلك التّدهور الذي تشهده العلاقة النسبية بين أسعار الصادرات للسلع، والمواد الخام التي تنتجها بلدان المحيط في مقابل أسعار السلع المصنعة التي تنتجها بلدان المركز هي الظاهرة التي تتمكّن من خلالها البلدان الأخيرة من نهب جانب كبير من الفائض الاقتصادي المتحقّق في بلدان المحيط، وقد عضدت هذه الظاهرة من حركة تراكم رأس المال في البلدان الرأسمالية الصناعية وشكّلت في الوقت نفسه نفيا جزئيا لبعض تناقضات النّظام الرأسمالي على صعيده المحلي.²

وفضلا عن ذلك، يجب أن نأخذ في الاعتبار، وكجزء من النّظام الأمريكي الشبكة العالمية للتّنظيمات المتخصصة خاصة المؤسسات المالية "الدّولية"، هكذا يمكن القول أنّ صندوق النّقد الدّولي "IMF"، والبنك الدّولي يمثّلان "مصالح برغماتية عالمية"، كما أنّ بنيتهما يمكن أن تفهم على أنّها عالمية.³

لا بد أن نشير إلى أن هذه المؤسّستين "صندوق النّقد الدّولي"، والبنك الدّولي "هي سلطة تملك حق إنشاء القواعد واتّخاذ الإجراءات ضد الذي يخلّ أو لا يلتزم بها وأنّها من خلال آلية عملها لا تتوقّف عند الدور المعنوي، أو الرّقابي بل يمكنها أن تفرض القواعد التي ينبغي على دول الأعضاء احترامها في سياساتها المالية والاقتصادية.⁴ معنى هذا أن المؤسّستين لديهم دور فعال، وقوي، ومؤثر في العلاقات الدولية وهذا من خلال

1- حشماوي محمد : الاتجاهات الجديدة للتجارة الدولية في ظل العولمة الاقتصادية، ص 4.

2- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008 م، ص 45.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4 - يحيى الجياوي : العولمة: أية عولمة؟، منشورات أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، سنة 1999م ص 75.

تقديم يد المساعدة للدول الأوروبية التي دمرتها الحروب وآثارها، ومساعدة الدول الأخرى على التنمية الاقتصادية العالمية.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما هي دلائل استمرارية ريادة الدولار الأمريكي برغمتها في المعاملات النقدية، والمالية الدولية؟.

تستمر الولايات المتحدة الأمريكية في الإحتفاظ بالدولار كعملة احتياط على الرغم من المخاطر المتعددة التي تحيط بهذه العملة، والأسباب، والدوافع التي تقف وراء ذلك تكمن في النقاط التالية:

أولاً: عملة التسعير الدولية:

إنّ الدولار الأمريكي هو عملة التعامل الأساسية للعالم على الرغم من انخفاض نصيب الولايات المتحدة في المعاملات التجارية العالمية كما أنّ الدولار هو عملة التسعير الأساسية للسلع التجارية في العالم على غرار النفط، والغاز الطبيعي، والذهب والحبوب وغيرها.¹

لذا فإنّ دولرة أسواق السلع الدولية تعدّ من أهم المحركات الأساسية في الأداء الاقتصادي، إذ أنّ غالبية الدول المستوردة لهذه السلع تحتاج إلى الدولار لتسديد قيمة مشترياتها كما أنّ مصدري السلع الاستراتيجية بالمقابل يحتفظون باحتياطاتهم النقدية بالدولار، ثمّ يقومون بإعادة استثمارها في الاقتصاد الأمريكي، وهناك بعض الدول عملاتها ترتبط بالدولار بشكل رئيسي حيث نجد معظم عملات دول الخليج ترتبط بالدولار بشكل رئيسي الأمر الذي يعرضنا للضغوط، ممّا أدى بشكل كبير إلى تراجع

1- معزوز لقمان، بريش عبد القادر: التحديات الإستراتيجية التي تواجه الدولار الأمريكي قراءة تحليلية في حاضر، ومستقبل الدولار الأمريكي، ص180.

إيرادات هذه الدول نتيجة تراجع الدولار أمام العملات الأجنبية الأخرى، وعلى رأسها الأورو مما يؤدي كذلك إلى تراجع في حجم استثمارات الدول النفطية بشكل كبير.¹

ثانياً: عملة الملاذ الآمن زمن الأزمات:

يعدّ الدولار الأمريكي من وجهة نظر المستثمرين واحة الأمان في العالم، ففي حالة حدوث أي أزمة يهرع المستثمرون بشكل أساسي نحو الدولار رغم أنّ الولايات المتحدة الأمريكية هي مبعث الأزمة المالية التي مازال الاقتصاد العالمي يعاني من ارتداداتها ومما يدلّ على ذلك أنّه في أوج الركود الاقتصادي بالولايات المتحدة الأمريكية عام 2008م ارتفع الدولار بنسبة 3,4% أمام الأورو، كذلك يعكس هذا التفضيل للسيولة غير العادية التي تتميّز بها أسواق أدوات الدين الدولارية، ومن المعلوم أنّ السيولة هي أهم الخصائص التي يبحث عنها المستثمرون في أوقات الأزمات.²

ثالثاً: النّقل العسكري والسياسي الأمريكي:

هناك عامل آخر يتميّز به الدولار وهو النّقل السياسي، والاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية في العالم، فالتدخل التاريخي المتواصل في قضايا الشعوب، وسياساتها والتدخل العسكري خارج حدودها على غرار التدخل في أفغانستان عام 2001م والعراق 2003م الذي أعطى الإنطباع بأنّ الدولار لا يزال قوة كبيرة تساهم في نشره بقوة في أنحاء العالم لأنّه أحد مظاهر مايسمّيه علماء السياسة بالقوة الصلبة وتكتسب الدولة المصدرة لهذه العملة نفوذاً جغرافياً، وسياسياً.³ المقصود هنا أن التجارة العالمية في العالم اليوم يتم أكثرها بعملة الدولار الأمريكي لأن معظم الدول التجارية تقبل الدفع بالدولار هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي العملة الاحتياطية الأساسية المهمة في

1- معزوز لقمان، بريش عبد القادر: التحديات الإستراتيجية التي تواجه الدولار الأمريكي قراءة تحليلية في حاضر، ومستقبل الدولار الأمريكي، ص180.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- بنجامين كوهين : مستقبل عملات الإحتياط ، مجلة التمويل والتنمية، القاهرة، المجلد 64، العدد الثالث سنة 2009م، ص 26، 27 .

العلاقات الاقتصادية، والعسكرية وغيرها من المجالات الأخرى وهذا هو الذي عزز وأعطى قيمة إيجابية، وقوية للدولار الأمريكي البرغماتي في كل بلدان العالم.

كما لا يمكن إغفال المكانة التي ترتبط بالعملية الدولية، وهو ما يسميه علماء السياسة بالقوة الناعمة، ومثلما كتب "روبرت مونريك" ذات مرة أن القوى العظمى لها عملات عظمى.¹ وهذا ما لاحظناه بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م التي لم تؤثر في قيمة الدولار رغم ضخامة نتائجها السلبية على الاقتصاد الأمريكي بسبب اتخاذ الولايات المتحدة إجراءات مالية ونقدية معتمدة على المكانة الكبيرة التي يحتلها الدولار والاقتصاد الأمريكي في العالم، ومما يؤكد ذلك بأنه بالرغم من انخفاض قيمة الدولار الأمريكي إلا أنه في نظر العديد من المستثمرين الاقتصاديين لا يزال يتمتع الدولار بالملاذ الآمن نظرا لثقل الولايات المتحدة الأمريكية على الصعيد العالمي.² لكن السؤال الذي يطرح هنا: ماهي أسباب ضعف الدولار؟.

بدأت مكانة الدولار بالضعف تدريجيا منذ بداية الستينيات نتيجة لمجموعة من الأسباب أهمها توسع قواعدها العسكرية في الخارج، وتكاليف سلطتها الاقتصادية والسياسية في العالم، ونتيجة لهذه النفقات الواسعة أصبح ميزان المدفوعات الأمريكي يتسم بالعجز ابتداء من عام 1985م على أن عجز ميزان المدفوعات الأمريكي لم يأت كنتيجة لعجز ميزانها التجاري بل بالعكس فقد اتسم الميزان التجاري الأمريكي لمدة طويلة حتى عام 1971م بفائض لذلك كانت الأسباب الرئيسة لعجز ميزان المدفوعات التوسع الكبير في الاستثمارات، والنفقات العسكرية.³

إنّ هذا التغيّر في القوى النقدية العالمية أصبح يؤثر لا محالة على مكانة الدولار، فبعد أن أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تتفق في الخارج أكثر ممّا تحصل عليه من

1- بنجامين كوهين : مستقبل عملات الاحتياط ، ص 26، 27 .

2- معزوز لقمان، بربيش عبد القادر: التحديات الإستراتيجية التي تواجه الدولار الأمريكي قراءة تحليلية في حاضر ، ومستقبل الدولار الأمريكي، ص 182.

3- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008 م، ص 45.

الخارج أصبح لزاماً عليها أن تدفع الفرق بالدولارات التي كانت تعتبر كالذهب في كل مكان، وكنتيجة لذلك فقد تدقق الذهب من الولايات المتحدة الأمريكية نحو الخارج وانخفض احتياطي الذهب فيها من 20.6 مليار دولار عام 1958م إلى 405 مليار دولار عام 1970م.¹

وكمحاولة لإنقاذ الدولار من الإنهيار فقد اتخذ الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون "Richard Nixon 1913 - 1994م في عام 1970م برنامجاً تضمن في أهم فقراته إيقاف تحويل الدولار إلى الذهب، وبالرغم من عدم استطاعة البرنامج المذكور إيصال الدولار الأمريكي إلى قيمته السابقة إلا أن الاقتصاديين الأمريكيين وجدوا أن انخفاض قيمة الدولار الأمريكي بنسبة معينة تحمل فوائد برغماتية كبيرة على الاقتصاد الأمريكي من أهمها²:

- أن الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في دولار ضعيف من أجل تقليل العجز الكبير المتنامي في ميزانيتها من خلال تحويل توازن النمو الأمريكي من الطلب إلى سلع الاستهلاك إلى التصدير بذلك تتيح الفرصة للعائلات بإعادة بناء مدخراتها وتحقيق تخفيض في عجز الحساب الجاري الأمريكي.

- تسويق التجارة الدولية، و75% من نسبة المساهمة في الودائع المصرفية، و60% من نسبة المساهمة في الإحتياطيات الدولية.

- تمثل حركة رأس المال الأمريكي 40% من حرة رأس المال العالمي، و50% من تدفقات التجارة العالمية توجه بالدولار كما أن أكثر من 50% من السندات العالمية مقامة بالدولار.³

1- جواد كاظم البكري : فخ الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008 م، ص 46..

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- حميد الجميلي : عناصر قوة الاقتصاد الأمريكي وضعفه مع إشارة خاصة للمديونية الأمريكية، ص 4.

نستنتج هنا أن المذهب البرغماتي أثرعلى العقلية الأمريكية بشكل واضح بحيث أصبحت الفلسفة الرائدة للمجتمع الأمريكي لأنها لا تركز على ماضي الفرد أصله أو مكانته السابقة، بل على مستقبله، وقدرته، وأفعاله على إيجاد أفكار إيجابية وصالحة ترفع من قيمة الفرد، فالفرد بالنسبة للفلسفة البرغماتية هو القيمة العليا المولدة للأفكار الإيجابية النافعة، والمرجع الوحيد لقياس هذه الأفكار، وهذا مانلاحظه مثلاً في إنتاجها الصناعي.

ج- الإنتاج الصناعي والزراعي:

من التّجليات الاقتصادية للفلسفة البرغماتية الأمريكية أيضاً نجد دعامة أخرى وهي الإنتاج الصناعي، إذ تستأثر الولايات المتحدة الأمريكية بنسبة 21.1% من الإنتاج العالمي في عام 2003م، وأنّ هذه النسبة الكبيرة ينتجها فقط 4.7% من سكان العالم وتختلف هذه النسب بين سلعة وأخرى ففي حين نرى أنّ إنتاج الصلب الأمريكي من سوق الصلب العالمي لا يحتل سوى نسبة 4.3 % عام 2000م وأنّ الصناعات الإلكترونية تشكّل 75% من حجم السوق الإلكترونية في العام نفسه.¹

أمّا من ناحية مصادر الدّعم الدّاخلية، ففي مجال الإنتاج الزراعي تعدّ الولايات المتحدة أكبر منتجي الغذاء في العالم، فرغم أنّ الإنتاج الزراعي يحظى بنسبة 3% من مجموع القوة العاملة الأمريكية وهي نسبة أقل من أولئك العاملين في قطاع التّعليم أو الأبحاث فإنّ الإنتاج الزراعي لا يزال أفضل، وأكثر وفرة.²

فقد بلغ حجم صادرات الحبوب في العام 200مليون طن سنوياً، وتصدّر الولايات المتحدة بمفردها نصف هذه الكمية الأمر الذي يعني أنّ الولايات المتحدة ستكون في المستقبل القوة المتحكمة في إنتاج الغذاء، الأمر الذي سيّتيح الفرصة لإستغلال

1- جواد كاظم البكري : فخ الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008 م، ص 48.

2- سليم كاطع علي : مقومات القوة الأمريكية، وأثرها في النظام الدولي، مركز الدراسات الدولية جامعة بغداد العدد الثاني والأربعون، سنة 2014م، ص158.

الغذاء، وتحويله إلى وسيلة ضغط سياسي برغماتي.¹ يتبين لنا بوضوح من خلال هذا الطرح أن الولايات المتحدة الأمريكية تحتل مكانة قوية على مستوى العالم بأسره مما جعلها قوة اقتصادية كبرى فهي تحتل المركز الأول من حيث الإنتاج الصناعي العالمي ويعود ذلك لوفرة، وجودة المواد الأولية الضرورية في الصناعة.

فضلا عن ذلك فإنّ المكانة الاقتصادية البرغماتية للولايات المتحدة على الصعيد العالمي تأتي من خلال استحواذها على معظم الشركات المتعدّدة الجنسيات في العالم فمن أصل 500 شركة في العالم كان نصيب الولايات المتّحدة منها 164 شركة وتحتل 32 شركة أمريكية المراتب الأولى بين المائة فضلا عن اتساع نشاطها الذي يشمل فروع الإنتاج الاقتصادي، والخدمات كافة بالمقارنة مع الشركات الأخرى اليابانية والأوروبية.² تعدّ الشركات المتعدّدة الجنسيات³ من أكثر الأنماط تعبيرا عن عولمة الاقتصاد الأمريكي البرغماتي لما تملكه من إمكانيات مادية، وبشرية هائلة تمتد إلى مختلف دول العالم، وتنوع نشاطاتها لتشمل قطاعات الإنتاج، والتجارة والمال بغية تنويع مصادر الربح وسعيها لتحويل العالم إلى ساحة اقتصادية واحدة بغية بسط نفوذها وإحكام سيطرتها على قطاعات الأعمال في العالم الأمر الذي أدى إلى تراجع دور الدولة أمام هذه الشركات.⁴ لقد كانت الشركات المتعدّدة الجنسيات وراء تفعيل وتسيير وتشجيع الحركة البرغماتية الأمريكية الاقتصادية المؤدّية إلى تحقيق أرباح مادية ومنافع اقتصادية هائلة.

1- هانس بيتر مارتن، ها رالدشومان: فخ العولمة لاعتداء على الديمقراطية، والرفاهية، ترجمة عدنان عباس علي مراجعة رمزي زكي، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون والآداب الكويت العدد 238، سنة 1998م، ص 73.

2- سليم كاطع علي: مقومات القوة الأمريكية، وأثرها في النظام الدولي، ص 158، 159.

3- الشركات المتعددة الجنسيات : هي شركة أم تسيطر على تجمع كبير من المؤسسات في قوميات عديدة وهي المؤسسة التي تجعل كل تجمع يبدو كما لو أن له مدخلا لمصب مشترك من الموارد المالية والبشرية ويبدو حساسا لعناصر استراتيجية مشتركة، انظر عبد السلام أبو قحف: إدارة الأعمال الدولية ، الدار الجامعية الإسكندرية، سنة 2005م، ص 132.

4- أحمد عبد العزيز، جاسم زكريا : الشركات المتعددة الجنسيات، وأثرها على التنمية، مجلة الإدارة والاقتصاد السفارة السورية في العراق، العدد 85، سنة 2010م ، ص 113.

د- الشركات المتعددة الجنسيات:

تتنوّع صورالنشاط الدولي للشركات المتعدّدة الجنسيات، ومن الشائع أنّ تقسيم هذه الأنشطة بين صورترتبط بملكية أصول معينة في البلاد الأجنبية وصور لا ترتبط بعنصر الملكية، وتتميزهذه الأخيرة بأنّها لاتخلق إلّتزاما طويل الأمد خارج البلاد الأم للشركات الكبرى، وإن كانت تفرض درجة من الإهتمامات الرقابية، والمتعلقة بتحصيل عائد أو مراعاة حقوق هذه الشركات لدى الأطراف التي ترتبط بها خارج البلاد الأم.¹

لقد استثمرت الولايات المتحدة الأمريكية موضوع الشركات المتعددة الجنسيات استثمارا برغماتيا، فبعدما وضعت الحرب العالمية أوزارها، وعاد العالم إلى الحياة المدنية تحوّلت مصانع الإنتاج الحربي الأمريكي إلى الإنتاج المدني، إذ أنّ أوربا كانت مدمّرة تحتاج إلى بناء جديد وإعمار واسع، ومع التطور التكنولوجي قفزت مصانع الإنتاج الأمريكي قفزة هائلة في حجم الإنتاج ونوعيته وكان وراء هذا التحوّل السريع العديد من الشركات الأمريكية الكبرى التي تسيطرعلى أجزاء كبيرة من الأسواق العالمية حتّى بلغت مبيعات أكبر مائة شركة عالمية كبرى 2 تريليون دولار عام 1995م تملك الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي، واليابان 88% منها.²

لعلّ أهم الأهداف التي تطمح إلى تحقيقها الشركات المتعدّدة الجنسيات تحقيق أكبر منفعة برغماتيا بأقل التكاليف، وبكلّ الضمانات، وهذا طبعا من خلال جملة آليات على رأسها البحث في عملية خلق ما يعرف"بالإستثمارات العمودية والأفقية" وهي بذلك تزحف على صلاحيات الدّول من خلال:

- استغلال العمالة المحلية الرّخيصة الأجر في ظل غياب تنظيمات عمالية قوية خصوصا في الدّول النّامية بحيث متوسط الأجر الشهري للعامل 70 دولارا أمريكيا

1- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م، ص 49.

2- المرجع نفسه، ص 51.

لستة أيام عمل أسبوعيا، وثمانى ساعات عمل يوميا، وذلك فى غياب الإلتزام بالتأمين الاجتماعى، أو ساعات عمل يوميا فى الرعاية الصحية أو التعويضات.¹

- لجوء هذه الشركات إلى بعض الممارسات غير المشروعة، واستغلال الوضع السياسى للدول فى تحقيق مصالحها الخاصة فقد أصبحت فى مقدورها التدخل لتغيير نظم الحكم غير المتعاونة، وغير المتفقة معها مثل ما حدث مع حكومة "سلفادور اليندى" فى الشيلي حالة إنقلاب عسكرى.²

كما أنّ الشركات بمقدورها تكوين اتحادات منتجة Cartels غير رسمية للحدّ من المنافسة حول الأسواق العالمية إضافة إلى عمليات الاندماج Mergers التى تتمّ من خلال عملية الشراء Acquisition، بين الشركات العملاقة على المستوى العالمى بدافع تحجيم المنافسة، وزيادة الكفاءة الاقتصادية، واقتسام الأسواق لهذه العمليات أدى إلى التركيز Concentration، بحيث سيطرت مجموعة قليلة من الشركات على الاندماجات Mega Merger على قطاعات الإنتاج بأكملها لذا نجد ثلاث شركات فقط هي: VISA Master Card، و American Express تدير فيما بينها حوالى 95% من الحجم العالمى للمعاملات عن طريق بطاقات الإئتمان.³

من خلال بعض هذه الدلالات العملية البرغماتية للشركات المتعدّدة الجنسيات يتّضح جليا أنّ نظام الدولة الوطنية مخترق من خلال تلك التلاعبات، والإستغلالات المادية والأخلاقية التى تمارسها تلك الشركات، وقدرتها الهائلة والقوية على البيع وكذلك علبة شراء أصول شركات منافسة تفرض مجموعة شروط، وقوانين استثمارية وتمتلك مجموعة آليات ضد الدولة فى حالة شعورها بتكبّد الخسائر.

1- ممدوح محمود منصور: العولمة دراسات فى المفهوم، والظاهرة والأبعاد، المكتب الجامعى الحديث الإسكندرية، سنة 2007 م، 72، 73.

2- المرجع نفسه، الصحة نفسها.

3- المرجع نفسه، ص 73.

لقد أدى نشاط هذه الشركات إلى نتائج سلبية في مختلف مجالات الحياة لهذه الدول خاصة على النشاط الاقتصادي الذي يعكس قوة الدولة، ومدى نجاعة سياستها الاقتصادية، وسنشير إلى أبرز انعكاسات هذه الشركات اقتصاديا على الدول النامية وفق الآتي¹:

أولاً : السياسة الاقتصادية وعملية التنمية:

لقد كان للشركات المتعددة الجنسيات دورا بارزا في تحقيق التنمية الشاملة في الدول النامية من خلال خلق فرص للعمالة، وتحسين مستوى الدخل، وارتفاع تحسين الإنتاجية، وكذا تنمية المنافسة المحلية بكسر حدة الاحتكار المحلي لبعض الشركات الوطنية، بالتالي زيادة حجم المنافسة بين الشركات العالمية سواء أكانت وطنية أم أجنبية، إلا أن تلك المساهمة في عملية التنمية لا ترتبط بتنمية فعلية في الاقتصاد حيث أنها لا تطور النشاط الصناعي، وتعرض الصناعات الوطنية الناشئة في الدول النامية إلى الخطر.²

وتتسابق الدول النامية لتقديم الحوافز بهدف تشجيع عمل هذه الشركات كالإعفاءات الضريبية وتخفيض الرسوم الجمركية، وتحرير الشركات من القيود على تحويل أرباحها للبلد الأم، والسماح لها باستيراد ما يلزمها من مواد و سلع دون ضرائب أو رسوم.³

ثانيا: تدفقات رؤوس الأموال الأجنبية:

1- أحمد عبد العزيز، جاسم زكريا : الشركات المتعددة الجنسيات، وأثرها على التنمية، ص 172.

2- هـدسون جون، هرنر مارك : العلاقات الاقتصادية الدولية، ترجمة منصور طعمة، ومحمد علي عبد الصبور، دار المريخ السعودية للنشر، سنة 1987م، ص 734.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

تستطيع الشركات المتعدّدة الجنسيات بما لديها من موارد مالية ضخمة سد فجوة بين احتياجات الدّول النّامية لتمويل المشاريع التنموية، وبين الأموال المتاحة محليا.¹

لقد انسابت الدّول النّامية خلال السبعينيات، والثمانينيات من القرن الماضي رؤوس أموال بلغت أكثر 62 من بليون دولار، ووصل مجموع الأرباح التي حوّلتها تلك الاستثمارات إلى 139.7 بليون دولار خلال الفترة نفسها، هذا يعني أنّ كلّ دولار استثمرته هذه الشركات قد أعطى 2.3 دولار.²

ثالثا: التشغيل والأجور والتأهيل المهني :

استحوذت الولايات المتّحدة الأمريكية على 18 % من المبادلات التجارية العالمية في عام 1950م، وبالرغم من انخفاض هذه النسبة إلّا أنّها تبقى الأعلى بين دول العالم في عام 1980م استحوذت الولايات المتّحدة الأمريكية على نسبة 13.6 % من الصادرات العالمية، وارتفعت في عام 1990م إلى 14.2 % ثم إلى 15.45 % في عام 2000م، وانخفضت في عام 2003م إلى 12.8 %، أمّا في مجال الواردات فقد كان نصيب الولايات المتّحدة منها في 1980م مانسبته 11.7 ارتفع إلى 13.3 % وإلى 16.5 % في عام 2000م انخفض 14.8 % في عام 2003م وتلي الولايات المتّحدة في مجال السيطرة على الصادرات العالمية كل من "ألمانيا اليابان، والصين بنسب 9.1 %، 6.45 %، 5.2 % في عام 2003م على التوالي، أمّا من ناحية درجة التنافسية للسلع التي تنتجها الدّول الصناعية فإنّ الولايات المتّحدة الأمريكية تأتي في المرتبة الثّانية، بعد فلندا فيما تأتي السويد في المرتبة الثّالثة، والدنمارك في المرتبة الرّابعة حسب احصائيات 2004م.³

1- أحمد عبد العزيز، جاسم زكريا : الشركات المتعددة الجنسيات، وأثرها على النّامية، ص 182.

2- زكي رمزي : السياسات التصحيحية، والتنمية في الوطن العربي، دار الرازي، بيروت، سنة 1989م ص 35.

3- جواد كاظم البكري : فح الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008 م، ص 54 ، 52.

في كتابه المائة سنة المقبلة أكد جورج فريدمان **George Friedman**¹ بأن الاقتصاد الأمريكي البرغماتي سيبقى مسيطراً على الاقتصاد العالمي خلال المائة سنة المقبلة، وأن الرأسمالية الأمريكية ملتزمة بأيدولوجية الليبرالية الاقتصادية الجديدة ستبقي النمط الرأسمالي العالمي السائد، وأن العصر الذي نعيشه الآن هو فجر العصر الأمريكي البرغماتي وفي رأي فريدمان: "أن الصين ليس إلا نمراً من ورق وأن روسيا سوف تتفكك خلال العشرين سنة المقبلة."² يعني أن هذه الأطروحة لا تختلف كثيراً عن أطروحة فوكاياما حول نهاية التاريخ، والتي تخلق هو نفسه عنها في كتاباته الأخيرة.

بناء على ماسبق يمكننا القول أن الولايات المتحدة الأمريكية تشكل قطبا اقتصاديا برغماتيا رئيسيا في العالم فهي شريك تجاري اقتصادي مهم لمعظم الدول المتقدمة وتلك الصاعدة اقتصاديا، ولاسيما النفطية منها، وأي انهيار في التجارة الخارجية الأمريكية سيؤدي إلى نتائج بالغة السلبية والخطورة على بقية اقتصاد العالم.

وإذا كان الاقتصاد الأمريكي البرغماتي يحتل الموقع الأول في التجارة الخارجية فالسؤال المطروح الآن: أين تتجلى المكانة العالمية للاقتصاد الأمريكي؟.

*تعدّ الولايات المتحدة أكبر مستورد في العالم بحيث تشكل وارداتها 16% من إجمالي الواردات العالمية.

* تشكل التجارة الأمريكية أكثر من 10% من التجارة العالمية.³

*تمثل حصة الخدمات في الصادرات الأمريكية إلى دول أوربا المتطورة حوالي 35% رغم أن حصة الخدمات في الإنتاج المحلي الإجمالي لهذه الدول تقدر 70% كما

1- جورج فريدمان : عالم سياسة، ومفكر، وكاتب من الولايات المتحدة الأمريكية، وعضو في الحزب الجمهوري، من مواليد 1949م.

2 - حميد الجميلي : عناصر قوة الاقتصاد الأمريكي، وضعفه مع إشارة خاصة للمديونية الأمريكية، ص10.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

تمثل حصة الخدمات في الصادرات الأمريكية إلى دول أمريكا الوسطى والجنوبية حوالي 25% في تبلغ حصة صادراتها من الخدمات إلى الهند، والصين 18%¹. يعدّ الاقتصاد الأمريكي البرغماتي صاحب أكبر، وأقوى نصيب من الشركات المتعدّدة الجنسيات في العالم، وتؤكد المؤشرات التالية الحقيقة التالية :

- 1- خمسة من أكبر عشرة شركات متعدّدة الجنسيات أمريكية الأصل.
- 2- ثلاث من أكبر خمس شركات متعدّدة الجنسيات في العالم أمريكية الأصل.
- 3- تربعت الولايات المتّحدة الأمريكية على عرش أكبر بلد يتضمّن عدد من الشركات متعدّدة الجنسيات حيث بلغ عدد شركاتها 126 شركة من بين أكبر 500 شركة في العالم أي من بين أكبر 500 شركة متعدّدة الجنسيات في العالم تملك الولايات المتّحدة الأمريكية أكبر 126 شركة متعدّدة الجنسيات.
- 4- بلغت إيرادات شيفرون الأمريكية 200 مليار دولار وبلغت إيرادات شركة أي بي أم 87 مليار دولار، وبذلك بلغت واردات الشركات الخمس الأمريكية المذكورة أعلاه 1189 مليار دولار عام 2006م وتغزو إيرادات هذه الشركات الأمريكية الخمس الناتج المحلي الإجمالي لكلّ الدول العربية بما فيها الصادرات النفطية العربية².
- 5- يشكّل سوق الولايات المتّحدة الأمريكية أكبر سوق استهلاكية في العالم حيث يبلغ نصيب الاستهلاك العائلي في الناتج المحلي الإجمالي حوالي 72% مقابل 57% في اليابان³.

في ختام هذا السيناريو نؤكد أنّه إذا كان الاقتصاد الأمريكي البرغماتي اقتصاد عملاق فمن غير المنطقي أن نتوقّع انهياره، وسقوطه، لكن من غير المنطقي أن نتصوّر بعد الأزمة أن موقع الاقتصاد الأمريكي في الاقتصاد العالمي سيبقى كما كان سابقا في سيطرته وقوته التجارية العالمية.

1- حميد الجميلي : عناصر قوة الاقتصاد الأمريكي، وضعفه مع إشارة خاصة للمديونية الأمريكية، ص10.

2- المرجع نفسه، ص 12، 13.

3- المرجع نفسه، ص13.

وبمجيء السياسي الأمريكي رونالد ريغان **Ronald Reagan** 1911-2004م عاد من جديد، وبقوة حلم "تيودور روزفلت" بأمريكا العالم، والإمتثال لطريقة الحياة الأمريكية، وتوغلت البرغماتية بفرض النظام الاقتصادي، والعالمي الأوحدان لغزو العقول، والأرواح بكل ما تملكه الولايات المتحدة الأمريكية من طاقات كما بدأ يتجسد على الساحة الدولية أمريكا جديدة تجدد شبابها بحمامات الدم في سبيل أمريكا أفضل وعلى نحو أفضل كما قال **ألان تورين Alain Touraine**¹ توازنا مختلفا والتي كان من نتائجها الحرب الخليجية الأولى والثانية بالدعاوي المقيتة المختلفة المعروفة إنَّ "الإنسان الاقتصادي" بشكله الأكثر تطورا ممّا هو عليه في روسيا قادر على استمالة المواهب.²

لكن الجو الذي ينشره اليوم في المجتمع يعيق نمو وتطور المواهب المحلية في التربة الوطنية المعنية، والخاصة، ومن المفيد الكثير، والمستحب بهذا الصدد التنبيه إلى مايلي:

من أين تستورد أمريكا مواهب جديدة، وفعالة إذا تكّلت مشروع أمريكا الشامل بالنجاح فعلا، واحتلت الشمولية الاقتصادية مع ما تحمله من تعصّب تجاه أنواع الدوافع الأخرى كلّها بنصرها على خصومها؟.

إن الإنسان الاقتصادي البرغماتي الأمريكي اليوم مستعد لأن يحصي الثقافة القومية ومستعد لأن يعيب على نحو حثيث كلّ ما يمكن أن يرى فيه الإلهام غير التجاري وشجاعة الاكتفاء الذاتي، إنه مستعد لاستئصال ثقافة الأشكال القيّمة بذاتها والاستعاضة عنها في كلّ مكان بالثقافة التطبيقية الوظيفية العملية التي تذكر

1- ألان تورين: يعتبر من بين أهم علماء الاجتماع المعاصرين، وهو فرنسي الأصل، عمل باحثا في المجلس الوطني للبحوث الفرنسية حتى سنة 1958م، أسس مركز دراسات علم الاجتماع العمل في جامعة تشيلي في سنة 1960م، وأصبح باحثا معروفا في إيكل "إيتوديس" في العلوم بباريس، إشتهر بتطويره مفهوم مجتمع ما بعد الصناعي، إهتم بدراسة الحركات الاجتماع، من مواليد 1925م.

2- الطيب بيتي العلوي: البراغمتية... ذلك المصطلح الفلسفي البغيض بتاريخ، 8 أيلول 2007م.

<http://www.odabasham.net/%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A9/56192-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7-56192>

باستمرار المنفعة، و المردود مثل هذه الثقافة غير قادرة على إنجاب العمالة ليس من قبيل المصادفة أنّ الرواية الأمريكية التي كانت مع بداية القرن تروي عن العمالة بما فيهم العمالة في مجال الاستثمار صارت توصف الآن بدقة اجتماعية متناهية الباعة في المخازن، ومدراء الأعمال.¹

يمكننا القول أيضا أن الإنسان الاقتصادي البرغماتي الأمريكي ينفذ العالم من جديد من أسفله حتى أعلاه مبرزاً فيه منطلقاً واحداً وجوهراً مطلقاً واحداً هو النقود والربح السريع يدور الحديث في كلّ مكان بدءاً من المداولات البرلمانية حول بيع الأراضي، وشرائها وحتى المداولات الجيوسياسية حول إعادة تقسيم العالم عن الأمر ذاته، وتحويل السلطة المالية، إلى سلطة شاملة.²

تعقيب:

إنّ التساؤل عن التّجليات الاقتصادية للفلسفة البرغماتية الأمريكية إيجاباً، وسلباً يدفعنا إلى الإحاطة بالامتيازات التي وفّرتها الفلسفة البرغماتية، والسلبيات التي أفرزتها، ولا شك أنّ هناك امتيازات كثيرة في الاقتصاد الأمريكي برغماتياً كتتنوع مجالات الاستثمار، وتحرير الأسواق، وتسهيل انتقال الخدمات، ورؤوس الأموال فإنّ الاقتصاد الأمريكي يعدّ قاطرة للنمو، وفي حالة نموه يجرّ الاقتصاد العالمي إلى الأمام، وفي حالة الكساد يجرّ الاقتصاد العالمي إلى الخلف.³ ومن أبرز السلبيات التي يعاني منها الاقتصاد الأمريكي البرغماتي ما يلي:

1. عجز الميزان التجاري.

2. عجز الميزانية الفدرالية.

1- ألكسندر بانارين : الإغواء بالعولمة، ترجمة عياد عيد، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة 2005م ص 118.

2- المرجع نفسه، ص 122.

3- حميد الجميلي : عناصر قوة الاقتصاد الأمريكي وضعفه مع إشارة خاصة للمديونية الأمريكية، ص 3.

3. الديون الأسرية وديون الأعمال، والاعتماد على الاستثمارات الأجنبية لتحويل العجز المالي.¹

ولا تبدو السياسة النقدية التي أوصت بها مدرسة شيكاغو مثل خفض سعر الفائدة كافية لوقف التباطؤ الاقتصادي كما أنّ مبادرات ضخ السيولة لن تعالج مثل هذه الاختلالات البنوية، وأنّ مستويات المعيشة الأمريكية باتت مرهونة بسياسة القروض من ناحية، ومرهونة بحجم التدفقات الإستثمارية الوافدة إلى الاقتصاد الأمريكي من جهة أخرى.² يتبين لنا من خلال هذا العرض أنّ الاقتصاد الأمريكي بات مهدد بالتحوّل من اقتصاد قائم على الرفاهية والإزدهار إلى اقتصاد أزمات، ومشاكل خطيرة.

تتلخّص تجلّيات الفلسفة البرغماتية الاقتصادية في قاعدة واحدة هي أنّ التجربة السبيل الوحيد للنجاح، والتطور، والنتيجة هي الحكم النهائي، وهي قاعدة ذهبية مهمة ذات فلاح نفعي عظيم في البحوث العملية، وفي المناهج التربوية كما أنّها ذات نجاح لاشك فيه في الصناعة، والزراعة، فالرجل الأمريكي همه الوحيد هو امتلاك الطبيعة وثروتها، وتسخيرها لحاجاته الخاصة، والسعي للهيمنة والسيطرة الاقتصادية على جميع دول العالم، فالولايات المتحدة الأمريكية تعتمد على آليات اقتصادية عصرية وترتكز على مؤسسات مالية ونقدية ضخمة، وشركات كبرى لتحقيق أهدافها، وغاياتها المادية البرغماتية هذا من الناحية الاقتصادية، أما من الناحية السياسية فالأمر يحتاج إلى نظرة أخرى.

1- حميد الجميلي : عناصر قوة الاقتصاد الأمريكي وضعفه مع إشارة خاصة للمديونية الأمريكية، ص7.

2- المرجع نفسه، ص9.

ثانياً: التجليات السياسية للفلسفة البرغماتية الأمريكية:

إنَّ النقطة الأساسية التي ينطلق منها صاحب سياسة القوة، وخطابها جاءت من خلال عبارة ونستون تشرشل¹ المشهورة: "في السياسة لا صداقة دائمة، ولا عداوة دائمة بل مصلحة دائمة."² والمقصود بالسياسة هنا هي سياسة القوة والباطل التي لا تلتزم بعرف، ولا تعرف معنى صداقة، أو رابطة إنسانية إلا بقدر ما يمت ذلك لمصلحتها ويعمل في إطار منفعتها، وأهدافها.

تعالى نرى معاً ما يقوله المؤرخ الأمريكي ماكس ليرنر Max Lerner 1902-1992م حين يتساءل عن نوايا أمريكا الحقيقية من سلوكها، وأفعالها وهي تبني امبراطوريتها العالمية: "تكران الذات؟ لا، أبداً فبواعثها مصلحة يملئها عليها خوفها من السيطرة الشيوعية من ناحية، ومن ناحية ثانية شبح الكساد الاقتصادي، إذ ينبغي على دولاب الصناعات الدفاعية أن يدور على أكمل وجه."³

في عالم السياسة ثمة ظواهر لا حصر لها تستحق بفعل جاذبيتها أن يجهد المرء نفسه بالتفكير بها، والتأمل فيها لمعرفة أسبابها، وأنماط تفاعلاتها، والنتائج المترتبة عليها فعالم السياسة هذا بظواهره المتنوعة والمتعددة يمثل العالم الواقعي الذي نعيشه ونتفاعل مع حقائقه على نحو يومي ومستمر، حتى أنَّ الأمر دفع بالبعض إلى أن

1- ونستون تشرشل: هو أحد أبرز، وأشهر القادة السياسيين الذين انبلجوا على الساحة السياسية خلال الحروب التي اندلعت في القرن العشرين، قضى تشرشل سنوات حياته الأولى ضابطاً بالجيش البريطاني، ومؤرخاً وكاتباً بل وفناناً، كلُّ في آن واحد، وهو رئيس الوزراء الوحيد الذي يحصل على جائزة نوبل في الأدب، وكان أول من تمنحه الولايات المتحدة المواطنة الفخرية، من مواليد 1874-1965م.

2- عبد الكريم نصيف: خطاب الحق وخطاب القوة، بتاريخ 13-10-2018م.
<https://new.reefnet.sy/book/upload/old/fikr/21/3khitab.pdf>

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يصف وجودنا الذاتي بأنه وجود سياسي بالدرجة الأولى، هذا طبعاً دون أن نسقط من حسابنا اعتبارات أخرى لها صلة بهذا الوجود وكيونته.¹

المقصود هنا أن استخدامات الفلسفة البرغماتية في السياسة الأمريكية تنوعت واختلفت حسب مصالحها نجدها تارة تصبّ في مصبّات المنفعة، والمكاسب مع حلفاء الولايات المتحدة، وتارة أخرى نجدها قد تحوّلت إلى آلة حربية تستخدمها أمريكا لقمع الشعوب.

ولعلنا نجد بوضوح هذه الإزدواجية متأصلة في خطاب الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في رسالته إلى الشعب الأمريكي إبان الإحتفالية بالملئونة الثانية للولايات المتحدة الأمريكية حينما قال: "مهما كانت الأخطاء التي اقترفناها في السياسة الخارجية بإمكاننا الاعتزاز بأننا في الحروب الأربعة التي كان علينا المساعدة فيها خلال قرن من الزمن قد ضحى الأمريكيون بحياتهم لا بهدف السيطرة، والتوسّع بل بهدف تحقيق مهمة غايتها مساعدة الآخرين للتنعم بالحرية التي حصلنا عليها نحن عام 1776م".²

ويشهد واقع اليوم على الطابع النفعي البرغماتي للتجليات السياسية للفلسفة البرغماتية الأمريكية من خلال الإيديولوجيا الأمريكية³ التي تبدو من النظرة الخارجية المباشرة

1- عبد القادر محمد فهمي : الفكر السياسي، و الإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية : دراسة في الأفكار و العقائد و وسائل البناء الإمبراطوري، ص7.

2- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص4.

3- تتميز الولايات المتحدة عن غيرها من الدول في كونها وإلى درجة كبيرة تمثل أمة من المهاجرين من بلاد وثقافات مختلفة ومتنوعة، ومن أجل ذلك التنوع فإنه كان لابد أن يبحثوا عما ينمي وحدة البلاد وهويتها، وأن يطوروا نوعاً من الرباط فيما بينهم يستطيع أن يتجاوز اختلافاتهم العرقية والثقافية والاجتماعية، وقد وجد الأمريكيون ذلك الرباط فيما أصبح يعرف بالإيديولوجية الليبرالية الكلاسيكية، والتي كانت ولا تزال تؤثر بشكل كبير وشاسع في المجتمع الأمريكي، وتقوم على خمسة معتقدات متفاعلة ومنسجمة، وهي الفردية الحرية المساواة الملكية الخاصة، الديمقراطية. انظر عبد الله جمعان محمد الغامدي : الإيديولوجية السياسية الأمريكية : محدداتها.. اتجاهاتها الرئيسية.. وتأثيرها على السياسة العامة، مجلة البيان، 21- 10- 2014م.

albayan.co.uk/RSC/Article2.aspx?id=3344

أنّها تتّسم بالمفارقة بين الاعتقاد والسلوك، وأنّها ليست أكثر من مجموعة ممارسات وأفكار غير متماسكة، ومتناقضة أيضا.¹

ليست مهمّتنا هنا تقديم دراسة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية ولا هو اختبار للمتغيرات السايكولوجية التي تكوّنت منها شخصية المواطن الأمريكي بقدرما هو رصد للتّجليات التي خلّفتها الفلسفة الذرائعية على الواقع للولايات المتّحدة الأمريكية وتحديدًا بعد ظهور الذرائعية في منتصف القرن التاسع عشر على يد مؤسّسها الفيلسوف الأمريكي بيرس كما أشرنا في المبحث الأول.²

لقد شكّلت الفلسفة الأوروبية القارية التي تجد في الفلسفة الأنجلوساكسونية، وهي فلسفة التجربة، والخبرة اللّبنات الأولى لتكوين الفلسفة البرغماتية، وكون الفلسفة الإنجليزيّة هي فلسفة أمبريقية، فإنّنا نجد في الفلسفة البرغماتية الأمريكية فلسفة تجريبية، أو بعبارة أخرى أنّه في الوقت الذي تجد الفكرة الإنجليزيّة حقيقتها في التّجربة الحسية الخاصة تجد الفكرة الأمريكية حقيقتها في التّجربة العامة.³

وبرغم كلّ المزاعم التي زعمها السّاسة الأمريكيين على اختلاف التّبذلات التي مرّت بها الولايات المتّحدة الأمريكية منذ تأسيسها، وتمسكهم المستمر بأنّ أساس فكرهم السياسي هو أنموذج متماثل للفكر البرغماتي الذي اعتبر أنّ الفكرة ناجحة بمقدار معطياتها المفيدة، ونتائجها الإيجابية فإنّ هذا الأخير تحديدًا كان قد تمخّض من رحم الفلسفة الأوروبية الأم فنقول أنّ الواقع عكس ذلك.⁴

1- عبد الستار الراوي : معجم العقل السياسي الأمريكي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص37.

2- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص16.

3- جيرار ديلودال : الفلسفة الأمريكية، ترجمة جورج كتورة، وإلهام الشعراني، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2009م، ص32.

4- عبد الستار الراوي : معجم العقل السياسي الأمريكي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص48.

لذا سوف نبحث هنا في أهم ثلاثة بنود جاءت بمثابة خطاب موجّه لعب دورا مباشرا في تعبئة، وحماسة الجمهور الأمريكي المغامر على مختلف تعدّداته بعد ما تحول إلى مجتمع كلّّي موحد، وهذه البنود الثلاثة هي:

• **المواطنة: أمريكا أرض الميعاد.**

• **الحرية وحقوق الفرد.**

• **الحرية والديمقراطية.**

وسوف يتبيّن لنا هنا أنّ لهذه الأهداف الثلاثة قوالب أيديولوجية برغماتية ساهمت في تشكيل المؤسسات السياسية في أنظمة الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية.

1- المواطنة: أمريكا أرض الميعاد:

قال جون سميث مؤسس مدينة جيمستاون سنة 1607م: "لم تتفق السماء والأرض قبل أحسن من اتفاقهما على إنشاء هذا المكان مسكنا للإنسان".¹ معنى هذا أن أمريكا يمكنها أن تفرض سيطرتها على العالم عن طريق السيطرة، وتعميم النموذج الأمريكي في جميع دول العالم.

لقد نشأت الولايات المتحدة، وتحوّلت متطوّرة خلال القرنين الممتدّين بين أوّل مستوطنة إنجليزية في جيمستاون سنة 1607م، وبداية القرن التاسع عشر، فمن سلسلة المستوطنات الاستعمارية المنعزلة المحاذية للسّاحل الأطلسي، وتطورت الولايات المتحدة إلى دولة جديدة، ولدت من الثورة، يرشدها دستور يجسد المبادئ الديمقراطية للحكم الذاتي.²

1- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البركماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص16.

2- عبد الستار الراوي : معجم العقل السياسي الأمريكي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص37، 38.

ليس غريباً أن يفر معظم المهاجرين الذين يشكّلون الأمة الأمريكية الآن من أوروبا حيث عانوا الاضطهاد بسبب أفكارهم، وحتّى عندما هربوا من بلادهم بسبب الجوع أو البحث عن لقمة العيش في هذه الأرض الموعودة، كانوا يهربون من الإيديولوجيا السائدة التي جوّعتهم وأهانتهم في بلادهم الأصلية.¹

فهم قد هربوا في كلّ الأحوال لإيمانهم بالحياة الجديدة، يقبلون بالحق في الاختلاف وبما أنّ الوافدين إلى الأرض الجديدة كانوا مهمشين فإنّهم قبلوا بحق الرأي الآخر والتسامح مع الآخرين الذين يختلفون عنهم في العرق أو في اللون، أو في الدين.²

ولهذا السبب يلاحظ الباحث الفرنسي جيرار دو لودال Gerard de laudal أنّ الأمريكي خليط من الفردانية والنزعة الاجتماعية في آن واحد إنّه خليط من الحرية الفكرية والإمتثالية التقليديّة، من هنا يظهر سرالتناقض الذي يتراءى لنا من الخارج في الشّخصية الأمريكية.³

وهكذا تبلور الفهم لدى المستوطنين الأوائل، قارة بأكملها لا ينبغي أن تكون مشاعاً إلا بين الرجال الأشداء الذين تركوا أوطانهم وغامروا بحياتهم وركبوا الصّعاب في محيط له بدايات معروفة، ونهايات مجهولة فقادهم القدر إلى أرض الميعاد التي هي بحسب اعتقادهم منحة سموية للأقوياء.⁴

انطلاقاً من رؤيتنا الفلسفية المحضة يمكننا أن نتساءل بعد كلّ هذا، ما الذي أقلق العقل السياسي البرغماتي؟، إلى أيّ حد تزعزعت ثقة الأمريكيين في استثنائية بلادهم التي طالما اعتبروها سمة أساسية ميزة الطابع الأمريكي منذ وصول

1- عبد الستار الراوي : معجم العقل السياسي الأمريكي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص37، 38.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص16 .

4- عصام عبد الحسين نومان : الفكر التوسعي الأمريكي دراسة فلسفية في تأصيل المفهوم، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، العراق، المجلد الثالث، العدد الثاني، سنة 2013م، ص42.

حجاج السفينة هاربين من ديارهم من جراء الاضطهاد الديني مروراً بعهد الآباء المؤسسين وصولاً إلى اليوم الذي أصبحت فيه الولايات المتحدة الأمريكية قوة فوق عظمى "hyper-puissance"؟، أليس من المفارقة أنّ فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama 1952م نفسه صاحب خطاب "نهاية التاريخ"، يرى في أحداث الحادي عشر من أيلول علامات على نهاية الاستثنائية الأمريكية، ولم تبقي لها إلا فرص ضئيلة باعثاً عن شروط الأمريكي الجديد؟¹

كانت للثورة الأمريكية أهمية تجاوزت بكثير حدود قارة أمريكا الشمالية، لقد جذبت اهتمام، وشغف طبقة المثقفين السياسيين في القارة الأوروبية، وانضمّ إلى صفوفها رجال مثاليون بارزون البولندي كتاديوس كوشيو سكو Ktadios Kochiosco "1746-1817م"، والألماني فريدريك فون سنوين Frederick Fon ans "1730-1794م"، والفرنسي مركيز دي لافاييت "1757-1834م" لترسيخ الأفكار المتحررة التي أملوا في نقلها إلى دولهم وتعزيز نجاح الثورة لمفهوم حقوق الإنسان عبر العالم الغربي، وقوى الإنتقاد التّوري العقلاني للنّظام القديم المبني على حكم ملكي وراثي وشكّلت الثورة الأمريكية من ناحية حقيقية فعليا للعناصر المكوّنة لقيام الثورة الفرنسية لكنّها خلّت من العنف والفوضى في الثورة الفرنسية لكونها حدثت في مجتمع كان متحرراً مبدئياً.²

لقد كان الاعتقاد أنّ الولايات المتّحدة ستكون الفرصة الثّانية لبشرية تحرّرت من القمع، والاضطهاد لكن الثورة الأمريكية التي ألهمت أوروبا في القرن الثّامن عشر لم يكن لها صدّى يذكر في ثورات القرن العشرين التي استلهمت في غالبيتها من فكر كارل ماركس، وفلاديمير لينين Vladimir Lénine³ وابتعدت عن التّعالم

1- عصام عبد الحسين نومان : الفكر التوسعي الأمريكي دراسة فلسفية في تأصيل المفهوم، ص41.

2- نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص17.

3- فلاديمير لينين : ثوري روسي ماركسي كان قائد الحزب البلشفي، والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعاً شعاره الأرض، والخبز، والسلام، من مواليد 1870-1924م.

الليبرالية للثورتين الأمريكية والفرنسية تماما كما ابتعد الأمريكيون أنفسهم عن مبادئ ثورتهم بسبب مآلاتها اللاحقة منذ عام 1945م فتوجت رسالتها في الحرية والديمقراطية بتراجيديا المحق الشامل لمدينتي هيروشيما، وكازانكي لتستحيل إلى قوة إمبريالية طليقة.¹

أكد العلماء، والمؤرخون أيضا أنّ القناعة بمبدأ آخر ساهم في انطلاق الثورة هو "الجمهورية" وشددوا على أنّ مبدأ نظام الجمهورية لا ينكر وجود الحقوق الطبيعية بل يخضعها للإيمان بأنّ المحافظة على جمهورية حرة تتطلب وجود شعور قوي بالمسؤولية المشتركة، وتنمية فضيلة إنكار الذات لدى قادة هذا النظام وبدأ بالمقابل التشديد على حقوق الفرد، وحتى السعي في سبيل تحقيق السعادة الفردية أنانيا، وبدأ النظام الجمهوري لبعض الوقت، وكأنّه يهدّد بزعزعة مكانة الحقوق الطبيعية، لكن معظم المؤرخين يتفقون اليوم على أنّه بولغ في التمييز بين هذين المبدأين وتصور معظم الذين فكروا بمثل هذه الأمور في القرن الثامن عشر بأنّ هذين المبدأين وجهان لنفس العملية الفكرية.²

ظلّ النجاح الذي شهدته الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحربين العالمية الأولى والثانية مرهونا بالنهضة الفكرية التي جاءت متناغمة بين دور الفرد والجماعة والتي طالما وجدنا الأمريكيين أنفسهم يربطونها بأبعاد الأرض الأمريكية وبالإيمان بقدرات الإنسان العامل ضمن المجموعة، وأنّ الإيمان علامة على كون العمل جيدا وأنّه يحظى بتأييد الله.³

1- عبد الستار الراوي : معجم العقل السياسي الأمريكي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص 41 .

2- نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص17.

3- يقول الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس في "كتابه إرادة الاعتقاد": " ماذا عسى تكون إرادة الاعتقاد إن لم تكن تعبيراً عن قدرة الإرادة الإنسانية على الفصل في الكثير من المسائل الأخلاقية والدينية بالرجوع إلى التجربة نفسها، انظر زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ، دار مصر للطباعة، القاهرة، الجزء الأول، سنة 1968م، ص 41 .

وهذا مبدأ فلسفي سياسي أيّدته الفلسفة البرغماتية، من خلال مزج أوعطف الممارسة أو الفعل العملي مع الواجب الديني والأخلاقي، وبدوره أيضا مظهر من مظاهر الفلسفة البرغماتية الأمريكية سياسيا.

ف نجد هذه الفكرة وهي أنّ الله قد إختار أمريكا ليحمي الخير والحق والحقيقة، وهكذا يعد الأمريكي نفسه صاحب رسالة، ولأجل هذه الرسالة بالذات رحل إلى أمريكا لبناء عالم جديد، حيث يكون الإنسان بمنأى عن القمع وحرا للأبد، وهذا ما عبر عنه الرئيس الأمريكي هاري ترومان **Harry Truman 1884 - 1972**م يوم توليه الرئاسة عام 1945م في كلمة له: "علينا أن نبني عالما جديدا عالما أفضل بكثير عالما تحترم فيه الكرامة الإنسانية الأزلية للإنسان".¹

هذا يعني بناء عالم جديد يتمتع فيه الإنسان بالحرية، ويتخلص فيه من القمع والاضطهاد يقول أبراهام لنكولن **Abraham Lincoln 1809 - 1865**م أحد المؤسسين الأوائل للولايات المتحدة الأمريكية: ما الذي يشكل الحصن الحصين لحریتنا واستقلالنا؟ ويجب: إنه ليس قلاعنا، ولا حصوننا، ولا شواطئنا الوعرة، والصعبة الإختراق إنما هو الثقة التي نضعها في حب الحرية، وهو حب زرعه الله في قلوبنا، أمّا "جورج واشنطن" بطل حرب الاستقلال وأول رئيس لأمريكا، يقول: إن قدر الشعب الأمريكي يكمن في المحافظة على النار المقدسة للحرية.²

2- الحرية وحقوق الفرد:

في جلّ أطروحات المذاهب، والمدارس الفلسفية إعتبرت الحرية جوهر الكائن البشري فهي غاية الوجود الإنساني، وهي شرط لتحقيق الكمال، والخلق الذاتي وبنفس القدر، وحيثما توفرت أجواء الحرية ساد النّقاها، والتراحم، وتحققت الثقة

1- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص20 .

2- عبد الستار الراوي : معجم العقل السياسي الأمريكي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص43.

بين الأفراد حكاما ومحكومين، وإنعدم الإحساس بالظلم، والاستبداد الذي ينظر إليهما، وتفتقت روح الإبداع، والمبادرة التي يكون فيها الفعل الفلسفي مقترنا بتوفر عنصر الحرية.¹ معنى هذا ليست الحرية رمزا بسيطا ضمن المشروع السياسي الأمريكي، وإنما هي من صميم، وصلب الديمقراطية الليبرالية.

لقد مجّد المفكّرون الليبراليون الأوائل الحرية إلى الحد الذي غدت فيه فيصلا بين نظام أو شكل وغيره من أشكال الحكم، من هنا تحوّلت الحرية إلى غاية في ذاتها بعيدا عن تصوّرها وسيلة لغاية أخرى كالسعادة أو التضامن.² كما أصبحت شعارا للأنظمة والدول الديمقراطية الليبرالية، والتي جعلت من الحرية قيمة أولية من مجموع نظامها القيمي، وسعت إلى إعطاء مفهوم الحرية أبعادها الذاتية الجماعية والسياسية، وإبراز أسباب تراجعها التي تتخذ كذرائع في حالات كثيرة للتدخل في شؤون الدول وكسر حاجز السيادة إلى الحد الذي يمكن معه القول: "أنّ قوة الليبرالية متأّتية ليس فقط من كونها ترفع راية الحرية الفردية، وتعارض نزعة تذويب الفرد في الجماعة، بل أيضا من كونها تطالب بالحرية لجميع أفراد البشر بلا استثناء، رجالا ونساء، والاعتراف المتبادل بهذه الحرية."³

ومن هذا المنظور فالحرية أكثر من كونها فكرة، أو وعيا بفكرة يتجسّد ضمن ثقافة اجتماعية، فالوعي بالحرية لايجري في عالم الفكر المجرد، بل في عالم التجربة الاجتماعية الحية لذلك تندفع ممارسة الحرية إلى ضبط عفوية الحرية في تنظيمات ترافق الثقافة المظهرية لفكرة الحرية، وتتفاعل معها، وهكذا تتألف حضارة الحرية من ثقافة الحرية ومن مؤسسات الحرية، وتتطوّر على الدوام من جيل إلى جيل

1- نا صيف نصار: باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2003م، ص77.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

لابتأثير التفاعل بين نشاط الثقافة، وإيقاع المؤسسات فقط بل بتأثير التحولات داخل الثقافة، وداخل المؤسسات أيضا.¹

لكن عندما لا نؤكد على الجانب النظري للحرية، والخاص بالوعي، فذلك لا ينفي كونها مسألة تطبيقية تتبلور في المؤسسات، والتقاليد الممارسة، والتي تتجسد فيها الفكرة النظرية للحرية فقط بل إن الطرح الصحيح، والصادق بين الجانبين يتبين في تفاعل الجانبين النظري، والتطبيقي.

يقول السياسي الأمريكي جون كينيدي John Kennedy 1917-1963م في خطابه الترشدي عام 1962م: "مواطني الأمريكيين لا تسألوا أبدا ماذا يستطيع بلدكم أن يعمل لكم، بل أسألوا أنفسكم ماذا تستطيعون فعله من أجل بلدكم شركائي في المواطنة في أرجاء العالم، لا تسألوا عما ستفعل أمريكا من أجلكم، بل عما نستطيع جميعا أن نعمله من أجل حرية الإنسان."² هذا الخطاب يعتبر مظهرا من مظاهر الفلسفة البرغماتية في الميدان السياسي، فالحرية تلك اللفظة التي اتخذت معان متعددة تبعا لتغير الرؤية الفلسفية لكل فيلسوف غير أن معناها السياسي يتضمن القدرة على التعبير عن الفكر والرأي³، ورأى فيها جون ديوي مبدأ يسهم في وجوده الأفراد، ويشتركون في الظفر به فهي ليست هبة تمنح للناس، وفي هذا يقول: "نحن أحرار بالدرجة التي نتصرف بها، ونحن عالمون بالذي نحن عليه مقبلون."⁴

هذه الرؤية هي إنعكاس لنظرته للحرية الإنسانية في شقها السياسي والاجتماعي فهو يؤكد على الحرية لا في معناها الميتافيزيقي، وإنما التي تعني تحرر الذكاء

1- ناصيف نصار: باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل، ص 81.

2- نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص 21

3- كميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي، والاجتماعي، دار النشر مكتبة، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2000م، ص 291.

4- رالف ن. وين: قاموس جون ديوي للتربية "مختارات من مؤلفاته"، ص 86.

لتمكين العقل من أداء وظيفته المتمثلة في العمل ووضع الأحداث، فهاته النظرة تركز على الوثوق بقدرات الطبيعة الإنسانية، وبفعالية الذكاء الإنساني، والخبرة الجماعية.¹

كتب أيضا المفكر الثوري والراديكالي الإنجليزي توماس باين Thomas Paine 1737-1809م في رسالته حقوق الإنسان "Rights of Man" يمكن تلخيص واجب الإنسان بنقطتين اثنتين:

واجبه تجاه الله، وهذا مايجب على كل إنسان أن يشعر به وتجاه قريبه الذي يجب أن يعامله كما يريد أن يعامل من جانبه، وحقوقه الطبيعية هي أساس كل حقوقه المدنية والحقوق الطبيعية هي الحقوق التي تعود دائما للإنسان، وإليها يضاف كل هذه الحقوق التي تعطى له للعمل بوصفه فردا من أجل رفاهيته وسعادته، والتي لا تضر أبدا بحقوق الآخر، فالحقوق المدنية هي الحقوق التي تعود للإنسان عبر الحقوق التي تؤول إليه بوصفه عضوا في المجتمع، ولكل حق مدني أساسه في الحق الطبيعي الموجود مسبقا عند الفرد إلا أنه لا يملك دائما القدرة الفردية على التمتع، وبهذا الشكل هم جميعا من يستند إلى الأمان والحماية.²

لقد تطلعت مقدمة الدستور إلى نظام سياسي أمريكي جديد يستند إلى المبادئ الآتية:

* إقامة اتحاد أكثر كمالا، وضمان نعم الحرية لأجيال الحاضر والمستقبل، وقبل هذا أشار إعلان الإستقلال إلى حقوق "لا يجوز التصرف فيها"، ولا يجوز لأي حكم أن يحرمهم منها.³

1- جون ديوي : التربية في العصر الحديث ، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد، ومحمد حسين المقرجي، مراجعة محمد بدران مكتبة النهضة المصرية، الجزء الأول، سنة 1949م، ص7.

2- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص21.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

* أما السبيل الأفضل لضمان العدالة، ونعم الحرية "آنذاك كما اليوم"، فكان موضوع خلافات حزبية حادة عندما صيغ الدستور لأول مرة، وعرض على الولايات المتحدة للمصادقة عليه لم تتضمن مواده أي إشارة إلى الحقوق الفردية أحد التفسيرات، لهذا إن واضعي الدستور افترضوا أن الحكم القومي المنشأ حديثاً كان محدوداً بعناية كبيرة لم تعد معها الحقوق الفردية تستلزم أي مزيد من الحماية إضافة إلى ذلك أظهر مؤيدون آخرون للنظام الفدرالي أن تعداد المزيد من الحقوق يؤدي إلى المزيد من المسؤولية.¹ معنى هذا أن الحقوق التي تعتبر جوهرية، والتي لا يجري تحديدها يمكنها أن تتعرض لتعدي الحكومة.

وإذا كانت الأغلبية تؤمن بفكرة معينة بشدة فلن ترحب بسماع الرأي المعارض ويمكن أن تميل إلى كبت هذا الرأي، ولكن بالإجمال يتأثر رفاه المجتمع بأراء الناس إذا كان معظم السكان في بلد ما يؤمنون بنفس الشدة بدين معين، فإن وجود أديان أخرى تبدو أنها تتحدى هذا الدين لن تحظى بشعبية أكثر من شعبية أفكار من أنواع أخرى غير مرغوب بها.

ولكن كما رأينا، فإن نقطة الإنطلاق للنظام الفلسفي السياسي الأمريكي البرغماتي هو الفرد وحقوقه، فقد أخذت المحاكم الفدرالية دورها في حماية حقوق الإنسان أو كما يشار إليها عادة في الولايات المتحدة بالحريات المدنية، والحقوق المدنية بجدية عظيمة، وبفعلها هذا وسعت نطاق هذه الحقوق بطرق لم يكن لواضعي الدستور قدرة التكهن بها.²

وفي تشديد على حقوق الشعب التزم النظام القضائي بأوامر الدستور دون اعتبار الرغبات الشعبية بطريقة لا تستطيع المحاكم الأقل استقلالية أن تفعله، وأعلن عن هويته بوصفه مؤسسة تشكّل جزءاً من مفهوم التعاون المتبادل في الحياة السياسية

1- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص21.

2- المرجع نفسه، ص24.

عندما صادقت محكمة "أيرل وارن" في العام 1954م بالإجماع على أنّ التمييز العرقي في المدارس ينتهك ضمانات الدستور للحماية المتساوية لكافة أفراد الشعب بأنّها اعترفت، وشجّعت بصورة ضمنية حركة الحقوق المدنية الناشئة، وتوصّلت المحكمة في ما بعد إلى الشعور بأنّها لا تستطيع تفسير الدستور على أنّه يحرم التمييز العرقي الخاص، لكن قرارات المحكمة شجّعت الكونغرس على إبرام قوانين جديدة، وعندما جرى تحدي هذه التشريعات التي أصدرها الكونغرس في المحاكم أيدتها المحكمة العليا عندما قرّرت محكمة "وارن برغر" لأول مرة بأن المساواة بين الجنسين هي من ضمن اهتمامات الدستور.¹ وهذا بدوره أيضا يعتبر تجليا واضحا من تجليات الفلسفة البرغماتية الأمريكية سياسيا.

3- الحرية الديمقراطية:

من المفيد أن نستشهد في هذا المقام بأن أمريكا ما بعد الحرب العالمية الثانية بدت بمنظر الضامن لعالم حر، فقد مكّنت أوروبا والعالم من التخلّص من النّازية والفاشية اللّتين هدّدتا سلم، وأمن أوروبا، والعالم، وبدا كذلك في خمسينيات القرن العشرين أنّ المناخ العام السائد في المجتمع الأمريكي خارج إطار دائرة المثقفين والجامعيين لا يبعث على التساؤل الفلسفي بخصوص شروط التجديد السياسي.²

بل هناك من رأى موتا حتميا للفكر السياسي فقد أعلن المؤرخ الإنجليزي بيتر لاسليت **Peter Laslett 1915 - 2001م** في مقدمته للجزء الأول في جملة محاولات "الفلسفة السياسة المجتمع" المنشور سنة 1956م عن نهاية كلّ إمكانية تنظيرية بخصوص السياسة.³

1- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص24.

2 - Habermas: **Droit et démocratie**: Entre faits et normes, op. cit. p.71.

3- لا يزال إلى حد اليوم هذا الأمر ساريا، ومنتشرا، فأمريكا في سياساتها الخارجية والداخلية على السواء ترفع، شعار الحرية، والديمقراطية، وتعتبر نفسها أكبر دولة قوية ديمقراطية، وحارسة الحرية، وباسم هذه المزاعم تقود حروبها وتنزع إلى الهيمنة، والسيطرة العالمية.

غير أنّ الأمور عرفت انقلاباً جذرياً بفعل التحوّلات السياسية، والاجتماعية في أمريكا داخليا، وخارجيا في الستينيات، وكذلك على إثر ظهور كتاب الفيلسوف الأمريكي جون راولس John Rawls 1921 - 2002م "نظرية العدالة"، وقد وصف يورغن هابرماس Jürgen Habermas¹ كتاب "راولس" بأنّه شكّل تحوّلاً حاسماً في إعادة التّوازن وروح النقّاش إلى المسائل المتعلّقة بالفلسفة التّطبيقية وفلسفة الحق ليس فقط بالنّسبة للفلاسفة ولكن كذلك بالنّسبة للحقوقيين كما عادت معضلات الفلسفة التّطبيقية، وفلسفة الحق لتحتلّ مرتبة الشّرف في البحوث.²

لقد أحسن توماس جيفرسون Thomas Jefferson³ التّعبير على التّقليد المتّبع في بناء المجتمع الأمريكي: "حيث لم يكن المرء في السّعي وراء السّعادة يعني في نظر "جيفرسن" شيئاً أقلّ من حق كلّ إنسان في أن يختار طريقه الذي سيسلكه في الحياة، وأن يكون حراً في أن يعمل بحسب ما اختاره لنفسه، ويسير بحسب رأيه هو من غير أن يتقيّد بأيّ قيد تفرضه عليه إرادة غيره من النّاس فرضاً سواء أكان هؤلاء النّاس من موظفي الحكومة الذين كان جيفرسون يساوره الخوف من ناحيتهم بشكل خاص، أو كانوا ممّن لهم سلطة رأس مال، أو ممّن بأيديهم أن يتحكموا في الفرص التي تتيح للنّاس الاشتغال بعمل ما نافع يحدّ من قدرة هؤلاء

1- يورغن هابرماس : فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر، يعتبر من أهم علماء الاجتماع، والسياسة في عالمنا المعاصر، ولد في دوسلدورف، ألمانيا، وما زال يعيش بألمانيا يعد من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية له ازيد من خمسين مؤلفاً يتحدث عن مواضيع عديدة، ومختلفة في الفلسفة، وعلم الاجتماع، وهو صاحب نظرية الفعل التواصلي، من مواليد 1929م.

2 - L aurent Bouvet: "La renaissance de la philosophie politique aux Etats-Unis", in, magazine littéraire, N°380 Octobre 1999, p 57 .

3- توماس جيفرسون : كاتب سياسي، ورجل دولة أمريكي، وثالث رئيس للولايات المتحدة الأمريكية من 1801-1809م، لعب دوراً أساسياً ومهماً في الحياة السياسية الأمريكية بدءاً من التشريعات التي قادها في ولاية فرجينيا التي كان حاكماً لها والخاصة بالحرية الدينية والملكية الخاصة والتعليم والتربية، أو في دوره كأحد البارزين في صياغة وثيقة الاستقلال أو في دوره في المفاوضات التي انتهت بشرائه لويزيانا من فرنسا أو في كونه سفيراً لأمريكا بباريس، وحضوره لبدايات الثورة الفرنسية، من أهم ما كتب حول أفكاره السياسية والاجتماعية ملاحظات حول فرجينيا، من مواليد 1743-1826م .

على أن يسعوا وراء ما يحقق لهم السعادة الحقيقية التي ينشدونها.¹ وما يستفاد من موقف جيفرسون، ومبدئه في المساواة من دون تمييز لأحد على آخر هو ما يبرلنا قدسية الحرية الفردية، والحقوق الشخصية.

لقد كرّس التقليد الأمريكي الحروالديمقراطي المعبر عنه أحسن تعبير في وثيقة الاستقلال قيم الحرية، والتسامح حيث جرى تثبيتها عمليا إبان الثورة أو بعدها لتفادي الأزمات في وثيقة رسمية اتفق بشأن ما جاء فيها بين الأعضاء الرواد الذين قبلوها، ووقعوا على مضمونها.²

لذا فإنّ هذه الأخيرة التي تعتبر حسب فيلسوف الديمقراطية جون ديوي: خير ما عبر عن المبادئ النظرية التي ينطوي عليها هذا التقليد الذي علمنا بأن بلوغ الحرية هو الهدف الذي يرمي إليه التاريخ السياسي، وأنّ الحكم الذاتي حق للأحرار أصيل فيهم، وأنّ هذا إذا ما تحقّق قدره الناس بأكثر ممّا يقدرّون أي شيء آخر يعزونه.³

لقد تمثّل هذا بشكل واضح في تصوّر جيفرسون في قانون فرجينيا للحرية الدينية "جمعية فرجينيا سنة 1786م" فقد بدا جليا وواضحا أنّ الزعماء التاريخيين في المستعمرات الأمريكية كانوا أكثر إحساسا بأهمية مسألة الحرية الدينية التي يجب الحسم بشأنها لما كانوا بصدد تحرير وثيقة الاستقلال⁴، والتي كان "جيفرسون" أحد محرريها فهؤلاء الزعماء الذين اجتذبهم التّنوير ودعتهم الضرورة التاريخية للتّوحد ضد المستعمر الإنجليزي كانت لديهم رغبة قوية في تجاوز إختلافاتهم حتّى لا تتحوّل الطوائف الدينية إلى عقبة في وجه التّقدّم الذي كانوا ينشدونه ويخطّطون له، لهذا عمدوا إلى إقرار الفصل بين الكنيسة، والدّولة ضمانا للحرية الدينية.⁵

1- جون ديوي : الحرية والثقافة، ص 237 .

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

4 - هربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ص 34.

5- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

قد يكون "بنجامين فرانكلين" من أكثر هؤلاء الزعماء تشدداً تجاه الدين الشيء الذي جعل منه شخصية ثورية في أمريكا هو الطابع العلماني في تفكيره وأخلاقه، وهو في نفس الوقت الطابع الذي دافع عنه جيفرسون بقوة معلناً أن لا تعارض بين الحرية الدينية وهي من الحقوق الطبيعية والحقوق المدنية التي تتضمن الالتزامات الاجتماعية، وقد رأى أن للناس الحرية في اعتناق آرائهم الدينية، والدفاع عنها على ألا يكون من شأن هذه الآراء أن تنقص، أو تزيد، أو تؤثر في كفاءاتهم المدنية.¹

يتبين لنا من خلال هذا أنه يحفظ للفرد حقه في حرية الدين، ولا يضع قيوداً أو شروطاً تجبره على إعتناق ديانة معينة ومحددة عبر إعلان الاستقلال الصادر في عام 1776م عن جوهر نظرية الديمقراطية بإشارته إلى حكومات تستمد سلطاتها العادلة من رضى المحكومين بعد 87 عاماً من ذلك عندما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تخوض حرباً أهلية فيها، وذلك بعد رفض 11 ولاية منها نتيجة انتخابات عام 1860م أعاد الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية أبراهام لينكولن "1809-1865م" طرح مبدأ الرضى بقوله: "حكومة من الشعب يختارها الشعب من أجل الشعب".²

ومهما كانت صياغته فإنّ هذا المبدأ الأساسي يستلزم نظام انتخابات أي نظام الاعتماد على الشعب الذي نوّه به جيمس ماديسون James Maddison³ في

1- جون ديوي: آراء توماس جيفرسون الحية، ص158.

2- نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص 25.

3- جيمس ماديسون: رابع رئيس للولايات المتحدة بالفترة من 1809-1817م، وعرف بأبي الدستور لعب دوراً هاماً، وكبيراً في وضع دستور الولايات المتحدة عام 1787 بالتعاون مع ألكسندر هاميلتون وجون جايوكان من بين الزعماء الرئيسيين المؤيدين لمغزى الدستور في الصحف الفيدرالية في عام 1788م، قام بإنشاء الحزب الجمهوري الديمقراطي في منتصف التسعينيات من القرن الثامن عشر بالتعاون الوطيد مع توماس جيفرسون وأسس حركة جراس روتس جنور العشب ذات النشاط السياسي، والتي انتصرت، ونجحت في انتخابات عام 1800م والتي يشار إليها بثورة 1800م، وقام بمضاعفة مساحة الدولة عندما قام بصفقة شراء لويزيانا من فرنسا أثناء توليه منصب سكرتير دولة، من مواليد 1751-1863م.

العدد 51 من مجلة الفدرالي باعتباره السّيطرة الأساسية للحكم.¹ المقصود هنا أن الديمقراطية لها قيمة جوهرية، وفريدة في بنية الحياة لأنها مرتبطة بالتجربة العملية البرغماتية للفرد.

فالديمقراطية تعني تصارع الآراء داخل السّاحة الاجتماعية والفكرة التي تتجح في الاختبار بعد وضعها على المحك هي الفكرة الصّائبة فالنّجاح في العقل الأمريكي البرغماتي هو امتحان لقيمة الأفكار، وامتحان لمدلولها، ومعناها في سياق محدود تماما.²

ليس غريبا أن يكون نظام الحكم الأمريكي الذي بدأ بوصفه تجربة في الحرية والديمقراطية سنة 1776م أثبت أنّه مرّن، وقابل للتكيّف بشكل لافت في حين تصف الولايات المتّحدة الأمريكية أحيانا كثيرة وعديدة بوصفها ديمقراطية، وأنّها تعرف بصورة أدق بكونها جمهورية دستورية فدرالية ماذا يعني هذا؟، إنّ عبارة "دستورية" تشير إلى كون الحكومة في الولايات المتّحدة تستند إلى الدّستور وهو القانون الأعلى للولايات المتّحدة فالدستور لا يؤمّن إطار العمل لكيفية تركيب الحكومة الفدرالية، وحكومات الولايات فحسب بل أيضا يضع قيودا ذات شأن على سلطاتها.³

وعبارة "فدرالية" تعني أنّ هناك حكومة قومية كحكومات الولايات الخمسين، أمّا "الجمهورية" فهي شكل من أشكال الحكم يملك فيه الشعب السّطة لكنه ينتخب ممثلين عنه لممارسة تلك السّطة.⁴

كان للفلسفة السياسية عند الفيلسوف الإنجليزي التجريبي "جون لوك" الذي عاش في القرن السابع عشر تأثير كبير على التّفكير الأمريكي بشأن هذه العلاقة وأكّد

1- نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص 25 .

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين ، ص 25.

4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

لوك أنّ الشعب يوافق على العيش في كومنولث "مجتمع في الدولة" ¹ كي تتمكّن الحكومة من تطبيق القانون الطبيعي. ²

وضع هؤلاء المندوبون في الدستور الأمريكي شكلا جمهوريا للحكم يوازن بين المصالح، ويحتوي عناصر إقامة حكومة مختلطة يدمج مفهوم الحكومة المختلطة بين العناصر التاريخية لكلّ من الحكم الملكي، والأرستقراطية، و الحكومة الشعبية يميل كلّ واحد من هذه الأشكال الثلاثة للحكم إلى التّحيّز لذاته فإن هي تركت دون مراقبة دستورية فقد تقود كلّ منها إلى شكل متطرّف من الإستبداد، أوحّى الديمقراطية كما قد تقود هذه الميول لإستلام من هذه المصالح التي تحتاج إلى نظام من الممثلين لها للمحافظة على مجتمع حسن التّنظيم ينص على الحل الذي اعتمده المندوبون في المؤتمر الدستوري على فصل السّلاطات بين فروع الحكم لكنّه أنشأ تشابكا في وظائف الإدارات الحكومية. ³

يمكن القول هنا أنّ الجدل المطروح بخصوص السياسة الأخلاقية، والأفكار المطروحة للنقاش كانت محل تحليل، ونظر من قبل الفلاسفة، والمنظرين على مدى تاريخ الفكر الفلسفي الأخلاقي والسياسي، ولكنّها كانت تعرف فترات من التّقدم والتّقهقر حسب معطيات الواقع الاجتماعي. وهكذا نجد بروزا قويا لنظرية العقد الاجتماعي في الفلسفة الاجتماعية، والسياسية الحديثة مع هوبز، وجون لوك وروسو، وكانط وفي معظم كتابات الفلاسفة المحدثين نعث على القضايا الأخلاقية من الفردانية، والتّسامح، والحرية مبنوثة في نصوص الفلاسفة ثم يتواصل الحوار والنّقاش مع فلاسفة القرن التّاسع عشر، ومطلع القرن العشرين بالخصوص مع

1- يتفق ديوي مع هذا المبدأ من خلال رؤيته بأن الأشخاص الذين يطبق عليهم هذه القوانين هم أعضاء في المجتمع السياسي، والأشخاص الذين يقومون بتنفيذ هذه القوانين يكونون الحكومة، انظر موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص 125.

2- نزار نجيب حميد: الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، ص 27 .

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

مل، هيغل، ماركس نيتشه، ديوي وغيرهم من الفلاسفة الذين كانوا يؤيدون هذا النمط الليبرالي، أو الإشتراكي.¹

لكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن: ماهو تعريف كلمة الليبرالية؟.

فهي من الكلمات الجميلة التي يزخر بها قاموس الفلسفة، لكلمة ليبرالية سحر خاص عامة، والسياسية منها خاصة، وتمتلك هذه الكلمة جاذبية لا تقاوم لكن بالرغم من الجمالية المفرطة، والجاذبية الكبيرة التي تتضمنها لفظة الليبرالية بإحالتها المباشرة إلى الحرية، وهي غاية إنسانية نبيلة لكن الغموض يلفها، وهي اليوم أكثر غموضاً من ذي قبل بحكم التأويلات التي تتنازعها والقناعات التي تفرض أحادية طرحها وهيمنة تصوراتها ومواقفها خارج نطاق الحوار.²

يعنى هذا أنها مصطلح فلسفي، وتشير إلى مجموعة من الأفكار، والقناعات التي ترتبط بالحرية الفكرية عند الأفراد، واحترام أفكار الآخرين في التعامل المشترك داخل المجتمع الواحد، والإبتعاد قدر الإيمان عن التمييز بين الأفراد.

الليبرالية فكرة إنسانية أوربية الولادة، والمنشأ لرفع معاناة الإنسان الأوروبي من ذوي السلطة الدينية والدنيوية، ومضمون فكرتها التمرد، والرفض لكل أشكال السلطة الخارجية المانعة من تحقيق الإستقلال الذاتي الفردي.³

بناء على ماسبق يمكننا أن نقول أنّ العلاقات الإنسانية البشرية ضمن تاريخ بناءاتها الاجتماعية، والثقافية لم تعرف مجتمعا تدافع فيه عن رغبات وطموحات الأفراد، وتتقاطع على إختلافها كالمجتمع الليبرالي، ولم تعرف مجتمعا يتحمل مسؤولية فتح آفاق التاريخ كالمجتمع الليبرالي الحر ولا يعني ذلك بالضرورة التّقدّم المطّرد والقدرة الفعلية على الوفاء بالوعود وتحقيق الأحلام.

1- حسن عبد ربه حسن : عقل أمريكا مؤسسات صناعة الرؤية، والفكر في الولايات المتحدة الأمريكية نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، سنة 2009م، ص123.

2- نصيف نصار: باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل، ص 332.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بيّنت الدّراسة وهي بعنوان " الحرية في العالم 2000-2001م أنّ اتجاها بدأ قبل عشر سنوات نحو المكاسب الإيجابية التدريجية في مجال الحرية، وأنّه تواصل في العام 2000م، وفي المسح الذي تجريه المنظمة سنويا تمّ تصنيف 86 بلدا مجموع سكانها 2500 مليون نسمة أو نسبة 4.70 بالمئة من سكان العالم، وهي أكبر نسبة تسجّل في المسح الذي تجريه المنظمة "على أنّها بلدان حرة".¹

هذا الدراسة بينت لنا نتائج التقرير السنوي لمعدل، ودرجات الحريات المدنية والحقوق السياسية في كل جميع أنحاء العالم، مع العلم هذا التقرير يتم في الولايات المتحدة الأمريكية.

يعزّز المسح الذي أجرته "فريدوم هاوس"² الاعتقاد الشائع أنّه لم تعد للديمقراطية بدائل، يمكن لاعتماد آخر من تراث مرحلة ما بعد الحرب الباردة أن يشكّل قدرا كبيرا من التّحدي، والمشاكل للمفكرين السياسيين.³

فهناك بعض الأنظمة المنتخبة ديمقراطيا غالبا من تلك التي أعيد انتخابها تتجاهل بصورة روتينية الحدود الدستورية المفروضة على سلطتها، ففي العديد من مناطق العالم نشهد بروز ظاهرة مقلقة في الحياة الدولية هي ظاهرة الديمقراطية غير الليبرالية كان ديوي يرى في التجربة الروسية اختبارا جديدا لشكل جديد للمجتمع الديمقراطي لكن ظهر فجأة عبر التّطهيرات سنة 1930م بالدليل القاطع على أنّ التّجربة الروسية ليست ديمقراطية.⁴

إنّ المزيج من الحريات التي تقوم عليها الليبرالية الدستورية هو من النّاحية النّظرية مستقل عن الديمقراطية، ومنذ أيام الفيلسوف أفلاطون هذه النظرة إلى الديمقراطية

1- نصيف نصار: باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل، ص 332.

2- فريدوم هاوس هي منظمة غير حكومية مقرها الولايات المتحدة الأمريكية تدعم، وتجري فيها البحوث والدراسات حول الديمقراطية، والحرية السياسية، وحقوق الإنسان.

3- جيرار ديلو دال: الفلسفة الأمريكية، ص 291 ، 264.

4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بوصفها عملية لاختيار الحكومات، عبّر عنها مفكرون عديدون بدءاً من المؤرخ السياسي الفرنسي ألكسيس دو توكفيل "1805-1859م" إلى العالم الاقتصادي الأمريكي جوزف شومبتر Joseph Schumpeter "1883-1950م" والعالم السياسي الأمريكي روبرت دال Robert Alan Dahl 1915-2014م، وقد أوضح المفكر والعالم السياسي الأمريكي صامويل هانتينغتون Samue Huntington 1927-2008م سبب ذلك، إذ قال: إنّ الانتخابات الحرّة والنّزاهة هي جوهر الديمقراطية الأساس الذي لا مفرّ منه، ومع ذلك قد تكون الحكومات التي تنتجها انتخابات حكومات لا تتمتع بالكفاءة وحكومات فاسدة وقصيرة النظر وغير مسؤولة تسيطر عليها المصالح الخاصة.¹

يتبيّن لنا من خلال هذا الطّرح أنّ الخطب، والكلمات السياسية تمثّل عامل قوة وهيمنة في النّظام السياسي للولايات المتّحدة، فالخطابات والكلمات السياسية تعدّ مرحلة من مراحل المنهج البرغماتي بحيث تقابل مرحلة الفكرة والموضوع الذي سوف يتحوّل بالتّجربة والعمل النافع إلى نتائج مثمرة ومربحة، غير أنّ سياسة أمريكا لا تعير اهتماماً كبيراً لنتائج ممارساتها السياسية بقدر تحقيق أفعالها بالشّكل المباشر على أرض الواقع الفعلي، فالرؤية الأمريكية البرغماتية للعالم تحدد وفق مفهوم القوة والسيطرة أي أن المصالح الأمريكية لا تتحقّق إلا باستخدام القوة، والقيم الأمريكية لا تنتشر عالمياً إلا بالقوة، ووفق تخطيط سياسي محكم، وهذه النتيجة تؤكدها الخبرة الأمريكية من خلال موقف مفكريها، وفلاسفتها.

والسؤال الذي قد يتبع السّابق هو فيما تتمثل برغماتية العقل السياسي الأمريكي؟.

1- برغماتية العقل السياسي الأمريكي:

لقد شكّلت الفلسفة البرغماتية العقل السياسي الأمريكي خاصة عندما تستلهم التّجربة الواقعية باعتبارها خبرة إيجابية في التاريخ تستطيع أن تبرز قيمها الإنسانية لكن يظلّ المشكل الأساسي في ذلك أنّها قد صبغت رؤيتها للتّاريخ بصفة التّجزئية التي ورطتها

1- نصيف نصار: باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل، ص 332.

أحيانا في سياسات خاطئة على منوال العراق إزاء عدم تقديرها بشكل كاف لأهمية القوى المعنوية لدى الشعوب، وقدرتها على إنتاج توارخ جديدة ونظم مغايرة وهي رؤية تتبّع من قصر تجربتها التاريخية وصعودها السّاحق السّريع.¹

قد يتفق الجميع على أن الولايات المتحدة الأمريكية القوة العظمى الكونية الأولى والوحيدة التي تملك قيما عالمية، وتمتلك قدرة لانظير لها، إلا أنها أحيانا تورط نفسها في سياسات خاطئة، وهذا نتيجة قلة خبرتها التاريخية، وبالرغم من هذا تبقى دولة قوية ومهيمنة على الكثير من دول العالم، وأي رفض للقيم الأمريكية يعني رفض للسيادة وخروج عنها.

لكن ربط البرغماتية بأمريكا لا يعني الإقرار مبدئيا بربطها بالإمبريالية، بل على العكس فإذا كانت أمريكا قد استلهمت النّظرالبرغماتي، ومارسته فإنّ البرغماتية ممارسة يمكن أن تكون عالمية وليس فقط أمريكية، فمثلا ونحن بصدد الحديث عن الدّول العربية فإنّ الأنظمة العربية بدورها أصبحت تتميّز بميزة البرغماتية فكأنّ صار كلّ العرب غارقون في البرغماتية يلهثون وراء الممكن الذي لا يشفي للشّعب العربي غليلا وباسم البرغماتية أيضا تتدافع الأنظمة العربية على الخضوع للقوى المهيمنة على الصعيد العالمي لهذا لا يمكن ربط الممارسة البرغماتية فقط بالإمبريالي، أو المهيمن بل على العكس فقد صارت الممارسة على نحو عالمي إذا صحّ التعبير فتضاربت المصالح ثم عمل البرغماتيون على حكمة عدم إضاعة الممكن من أجل المستحيل.² يعني هنا أن الفلسفة البرغماتية أصبحت فلسفة شاملة وعاليمة، وكونية لا تقتصر على الولايات المتحدة الأمريكية فقط، وإنما حتى الدول العربية أصبحت تسعى لتحقيق مصلحتها.

1- هشام آيت باحسين: الفلسفة البرجماتية سر الهيمنة الأمريكية، بتاريخ 2013م.

http://www.philopress.net/2013/07/blog-post_22.html

2- المرجع نفسه.

كثير من القادة غيروا مجرى التاريخ الوطني لبلادهم وتبنوا الفكر البرغماتي، فقد أصبح من غير الممكن تحقيق المبادئ القومية أو الوطنية دون الأخذ بعين الاعتبار السياق والمتغيرات الدولية في المنطقة، فالنظرية البرغماتية تعكس الواقع الحالي لأن كل دولة تبحث عن مصالحها، وأهدافها أينما وجدت حتى لو كانت هذه الأهداف تتعارض مع المعايير الأخلاقية.¹

إنّ المعيار الأخلاقي الوحيد الثابت لدى السياسيين البرغماتيين هو المصلحة القومية العليا لبلادهم بغض النظر عن الوسائل التي من خلالها يمكن تحقيقها فهل يعدّ توقيع الهند لإتفاقيات تجارية ضخمة مع الولايات المتحدة الأمريكية خيانة لدول "البريكس" أم ضمانا للمصلحة والأمن القومي الهنديين؟، وهل يمكن لتركيا معاداة إيران دون الأخذ بعين الاعتبار المصالح الاقتصادية التي تربطها مع هذه الأخيرة؟ يجيب الفكر البرغماتي عن هذه التساؤلات بالتأكيد على أنّ المبادئ النظرية من دون تطبيق عملي على أرض الواقع تصبح بيزنطية جامدة، و مفرغة من محتواها الفكري غير قادرة على تحقيق المصلحة الوطنية، والقومية.² يتجلى لنا واضحا هنا تحقيق المصلحة الاقتصادية البرغماتية لا يكون إلا بالتطبيق الخارجي الواقعي، والإستعانة بالتجربة، والخبرة العملية في العلاقات التجارية والإبتعاد قدر الإمكان عن المبادئ النظرية.

ويتجلى لنا أيضا تأثير البرغماتية الفكري، وقوة حضورها الأداتي النفعي على الصعيدين الداخلي والخارجي ابتداء من استقلال الولايات المتحدة الأمريكية حتى وقتنا الحاضر، وهو مابدا واضحا وملموسا على صعيد السياسة الخارجية والعلاقات الدولية بقوة في زمن الحرب الباردة وما تلاها من تفكيك الاتحاد السوفيتي وتداعي منظومته الفكرية، وقد تجلى بشكل فعلي في أطروحة

1- بشار الجعفري : الجذور الفلسفية للبرغماتية السياسية، في تشرين الثاني 06 - 2014م.

<http://ncro.sy/?p=1262>.

2- المرجع نفسه.

فوكوياما "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"، وفي كتاب صمويل هنتنجتون "صدام الحضارات" حيث بلغ فيهما العقل الأمريكي ذروته البرغماتية.¹

كلّ هذا يوحي بانتصار الغرب الذي كتب عنه فوكوياما قائلاً: "إنّ انتصار الغرب والفكرة الغربية إنّما يتّضح أولاً وقبل كلّ شيء من الإنهاك الكامل لأيّ بدائل منظمة وقادرة على الحياة الليبرالية للغرب".² والمقصود بذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية هي مصدر القوة في نشاط النمو الاقتصادي، وصياغة الشؤون العالمية وذلك من خلال الاقتصاد المنفتح، والحر على جميع دول العالم.

إنّ انتصار الديمقراطية لايشير إلى نهاية الإيديولوجيا³، أو نقاط التقاء بين الاشتراكية والرأسمالية فحسب، بل إنّ ذلك يعني أيضاً نهاية التاريخ بما يتضمّن من ثورة ليبرالية تشمل العالم أو التوجّه نحو التاريخ العالمي صوب الديمقراطية الليبرالية وهي نفس الدعوى التي كانت الماركسية تقول بها من حيث التوجّه العالمي الذي سيعمّ كافة المناطق.⁴ يمكننا القول بأنّ هذه المرحلة في التاريخ ستنتهي إلى الشيوعية بوصفها نقطة النهاية، وفيها سعادة الإنسان، والبشرية جمعاء.

1- عبد الستار الراوي : معجم العقل السياسي الأمريكي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص 49، 50.

2- راسل جاكوبي : نهاية اليوتوبيا السياسية، والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون، والآداب، الكويت، العدد 269، سنة 2001م، ص 20.

3- أعلن عدد غير يسير من المثقفين اليساريين أنفسهم عن نهاية الإيديولوجيا واليوتوبيا حلم المثقف، لكن هذا الحلم تبخر وقضت الستالينية على عصر، المناضل في نظام عادل غير طبقي لا إغتراب معه الإيديولوجيا وغذت الماركسية أفيون المثقفين فمن ريمون أرون إلى كامي كانت القناعة واحدة بعدم عقد مصالحة بين الماركسية والأخلاق ما دامت العقيدة الماركسية تضيء مشروعاً على القتل، كما بدأت كثير من أقدام المثقفين في مختلف الدراسات السياسية والاجتماعية في استخدام مصطلح نهاية الإيديولوجيا سواء مع جون ستوارت هيوز أو جوديث شكلاّر أو كذلك دانيال بيل في إشارة واضحة إلى انهيار الماركسية وشعور مثقفي اليسار بالصدمة واقتناعهم بحقائق الواقع السياسي، والاقتصادي، والثقافي، وتحولهم عن الأدوار الثورية إلى أدوار ثقافية لكن الأحداث التي عرفتتها بعض الدول بدءاً من الستينيات في فرنسا والولايات المتحدة، ثم بعد ذلك دول أوروبا الشرقية بما أعاد التفكير في الإيديولوجيا، وظهور ما يسمى بنهاية نهاية الإيديولوجيا، انظر راسل جاكوبي: نهاية اليوتوبيا السياسية، والثقافة في زمن اللامبالاة، ص 17، 13.

4 - زبغنيو بريجنسكي : رقعة الشطرنج الكبرى السيطرة الأميركية، وما يترتب عليها جيواستراتيجية، ص 31.

حكمت هاتان الأطروحتان العقل الأمريكي بعد الحرب الباردة، وأسهمت إلى حد كبير في تنمية النزعة الأمبراطورية للولايات المتحدة وفي تحديد ملامح الاستراتيجية الأمريكية في الألفية الجديدة، وفق معطيات الديمقراطية الليبرالية وحقوق الإنسان، والحرب على الإرهاب وغيرها من المغالطات، والذرائع التي عبرت عن تجليات الفكر البرغماتي الأمريكي الجديد.¹

إنّ السيطرة العالمية لأميركا تعتمد بشكل مباشر على المدى الزمني، والمدى الفعّال لاستمرار هذه السيطرة و التّقوّ الأمريكي على القارة الأوروبية، ومن الواضح أنّ هذا الوضع مؤقت، ولكن استمراره و ما سيأتي بعده يتّسمان بأهمية حرجة ليس للرفاه الأميركي فحسب، بل أيضا للسلام الدولي عامة، وهكذا فإنّ الظهور المفاجئ للقوة الدولة العالمية الأولى والوحيدة خلق وضعاً سيؤدي إلى الانتهاء السريع لسيطرتها وقد كان العالم السياسي في جامعة هارفارد صموئيل ب. هانتينغتون على حق عندما أكد بجرأة ما يلي²:

"إنّ عالماً دون سيادة أمريكية سيكون عالماً متّسماً بدرجة أكبر من العنف، وبدرجة من الديمقراطية، والنمو الاقتصادي أقلّ من العالم الذي تستمر فيه الولايات المتحدة في ممارسة النفوذ أكثر من أيّ بلد آخر في إدارة الشؤون العالمية، إنّ السيادة الدولية المستمرة للولايات المتحدة هي أمر رئيسي ومهم لرفاه وأمن الأميركيين ومستقبل الحرية، والنّظام الدولي في العالم."³ يتبيّن لنا من خلال هذا القول أنّ الولايات المتحدة الأمريكية هي دولة الحرية، والديمقراطية، والمساواة وأنّ انسحاب أميركا من العالم سوف يؤدي إلى انتشار فوضى عالمية.

1- عبد الستار الراوي : معجم العقل السياسي الأمريكي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص 51.

2- زبغنيو بريجنسكي : رقعة الشطرنج الكبرى السيطرة الأمريكية، وما يترتب عليها جيواستراتيجياً، ص 31.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

كلّ ما ذكرناه سلفا لا يمكن أن نقول في حقه إلّا أنّه أكسب الرجل الأمريكي خصوصية في التفكير مكنته من امتلاك خصوصية في العمل، وهذا ما يظهر على التّوجّه الذي يسلكه المجتمع الأمريكي المعاصر بالحروب التي تشنها أمريكا الآن ما هي إلّا نتائج عملية للبرجماتية، وابتغاء المنفعة التي يلبسونها لباس الحقيقة قد ينتج عنه استعمال كلّ الوسائل الضرورية لبلوغ تلك المنفعة وهذا يظهر بكلّ وضوح في الحروب الأخيرة خاصة في منطقة الشرق الأوسط، منطقة الهلال الخصيب المنطقة التي تمتلك الحقيقة أو المنفعة بالنسبة للأمريكيين.¹

نستخلص مما سبق أن البرغماتية ليست فلسفة تأملية نظرية، وجامدة فقط، بل غدت منهجا يعمل به في كلّ الميادين السياسية منها، والاقتصادية، والاجتماعية هذا ما جعلنا نقر منذ البداية أن وليام جيمس هو المؤسس الحقيقي لهذا المذهب بحكم أنّ نظريته هي الأكثر استعمالا وشيوعا، وهي متعلقة أساسا بالصدق ومرتبطة أشد ارتباطا بالمنفعة المادية من خلال ملامستها للواقع الفعلي، هذا الواقع الذي أصبح مسيرا، ومسيطر عليه من طرف أمريكا التي تستعمل البرغماتية كمرجع فكري سياسي أساسي في جميع استراتيجيتها الداخلية والخارجية.

لقد تبنى الأمريكيون نموذجا برغماتيا في السياسة والحياة من أجل تحقيق النجاح باعتبار أنّ السياسة هي صراع مصالح، وطالما أنّ المصالح طبيعية، ودينامية متغيرة، فإنّ السياسة هي الأخرى متغيرة لا تلتزم بمبادئ ثابتة بل تلتزم بالمصلحة وهذا الأمر لم يكن محصورا على صعيد السياسة الداخلية فحسب، بل برز على تصريح تعاملاتها، وسياساتها تحقيقا لأهداف استراتيجيتها العليا، وهذا ما نلتزمه بوضوح من خلال النماذج التالية:²

1- هشام آيت باحسين: الفلسفة البرجماتية سر الهيمنة الأمريكية، بتاريخ 2013م.

http://www.philopress.net/2013/07/blog-post_22.html

2- تود إيمانويل: ما بعد الإمبراطورية، دراسة في تفكك النظام الأمريكي، دار الساقي، بيروت، سنة 2004م ص12.

1- ظهر شغف أمريكي بممارسة سياسة أحادية، كانت بوادره قد برزت في النصف الثاني من التسعينيات عندما رفضت واشنطن في كانون الأول عام 1997م معاهدة أوتوا المتعلقة بالألغام ضد الأفراد، وفي تموز عام 1998م رفضت الاتفاقية الدولية المتعلقة بإنشاء محكمة الجنايات الدولية، كما رفضت بروتوكول كيوتو المتعلق بالانبعاث غاز الكرب، وقد بلغت الاستبدادية بالسياسة الأمريكية أن فرضت على العالم الحرب ضد ما أسمته الإرهاب بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م.¹

2- أجبرت العالم على أن يقبل معها مقولة وجود "محور الشر" تاركة لنفسها حق تحديده في العراق، وإيران، وكوريا الشمالية، وكذلك تهديد الولايات المتحدة بنشر درع الدفاع الفضائي الصاروخي، الذي من شأنه كسر التوازن النووي، وتمكين الولايات المتحدة في حال اكتماله من اكمال سيطرتها على العالم.²

3- عملت الولايات المتحدة الأمريكية على تحويل الحلف الأطلسي إلى ذراع لتنفيذ سياستها القومية واستخدامه للتدخل في نزاعات دون مشورة الأمم المتحدة مثل نزاع الصومال، وعملية ثعلب الصحراء التي استهدفت العراق في العام 1998م، وفي عام 2001م انسحبت الولايات المتحدة الأمريكية من مؤتمر الأمم المتحدة لمناهضة العنصرية الذي عقد في دربن جنوب إفريقيا احتجاجا على وضع مسألة الاحتلال الإسرائيلي، والعنصرية الإسرائيلية، ومسألة الاعتذار في موضوع العبودية السوداء والتعويض عنها.³

اشتترطت الولايات المتحدة الأمريكية على الفلسطينيين التنازل عن جميع القرارات التي اتخذتها الجمعية العمومية لمصلحتهم، ومن ذلك القرار /194/ الخاص بعودة

1- تود إيمانويل: ما بعد الإمبراطورية، دراسة في تفكك النظام الأمريكي، ص12.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- شاهر إسماعيل الشاهر: أولويات السياسة الخارجية الأمريكية بعد أحداث 11 أيلول 2001م، ص8.

اللاجئين والقرار /181/ عام 1947م الخاص بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية.¹

يمكننا القول أنّ الفكر السياسي البرغماتي يعتمد بشكل أساسي ومطلق على الدارونية القائلة ببقاء للأقوى والأصلح، وإذا قمنا بدراسة تاريخية للعلاقات الدولية نرى بأنّ هذه المقولة صحيحة، فالدولة الضعيفة والفقيرة، وغير القادرة على تحقيق مصالحها وحماية شعبها تفقد احترامها بين القوى العظمى، وتصبح عرضة للاحتلال والتفكك والاستغلال، فالسياسة الأمريكية البرغماتية على وجه الخصوص سياسة نفعية مادية لا تعرف غير لغة المصالح والمكاسب، والربح السريع، فلا وجود للقيم والمبادئ في الولايات المتحدة الأمريكية إذا كانت هذ القيم تعارض مصالحها الخاصة.

فخطاب الرئيس أوباما Obama الأخير، خطاب أمريكي نفعي برغماتي بحت بالدرجة الأولى:

لا شيء غير المصلحة يمكنه أن يتحكّم في علاقات دولة كأمریکا بغيرها من الدول لاسيما الدول العربية والإسلامية، وقد ظهر هذا النفس النفعي بشكل فج في الخطاب الأخير الذي ألقاه الرئيس الأمريكي "باراك أوباما"² أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة منذ أيام قليلة.³

ففي هذا الخطاب جاء التصريح الصريح من الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" بدعمه للأنظمة التي تحقّق مصالح أمريكا والأمريكيين، وإن خالفت المسار الديمقراطي فقال

1- غليون برهان : العرب وعالم ما بعد 11 سبتمبر، دار الفكر، دمشق، سنة 2005م، ص26.

2- باراك أوباما: هو الرئيس الرابع والأربعون للولايات المتحدة الأمريكية، وأول رئيس من أصول أفريقية يصل للبيت الأبيض، من مواليد 1961م.

3- رمضان الغنام : أمريكا دولة المصالح، لا المثل والقيم، موقع طريق الإسلام، بتاريخ 2014/5/12 م.

<http://ar.islamway.net/article>

مشيرا إلى علاقة أمريكا بالحكومة المصرية الحالية: "سنبقي علاقة بناءة مع الحكومة الانتقالية، التي تدعم مصالحنا الأساسية مثل "اتفاق كامب ديفيد ومكافحة الإرهاب"¹.

موضحاً أن: "الولايات المتحدة الأمريكية ستعمل أحياناً مع حكومات لا تتماشى مع التوقعات الدولية، ولكن ستعمل معنّامن أجل مصالحنا البرغماتية الأساسية."² يتبيّن لنا من خلال هذا الطرح أنّ خطابه نفعي برغماتي بالدرجة الأولى فالمصلحة وتحقيق الربح المادي بشتى الطرق المختلفة هو السبيل لبقاء أمريكا اليوم من أقوى الدول سياسياً، وعسكرياً.

وما تناولنا للعلاقات العربية الأمريكية إلّا لما لها من خصوصية وتميّز، وما يبرز فيها من محاور هامة، ومثيرة للجدل بين المفكرين، والأهم من ذلك كله هو ما استجدّ فيها من تطوّرات كبيرة، وخطيرة خلال الفترة الأخيرة.

أولاً: خصوصية العلاقات العربية الأمريكية:

تعدّ العلاقات السياسية العربية الأمريكية متميزة على الساحة الدولية لإرتكازها على محاور خاصة، إضافة إلى مسارها التاريخي، وتأثيرها على المحيط الدولي بما يملكه كلّ طرف من وزن، وبعد استراتيجي يمكن تلخيص أبرز تلك المحاور في الآتي³:

1- هي اتفاقية سلام بين إسرائيل ومصر، تم صياغتها في عام 1978م، في المقر الرئاسي كامب ديفيد الأمريكي، ووقّعت بشكل رسمي في عام 1979م في واشنطن، من قبل الرئيس المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيغن، والرئيس الأمريكي جيمي كارتر كشاهد على الاتفاقية، وبموجب الاتفاقية وافقت إسرائيل على إعادة سيناء إلى مصر، وتم تنفيذ، وتطبيق الأمر عام 1982م، وأيضاً وافقت الدولتان على التفاوض بشأن الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية، وقطاع غزة، وتمت التحركات الفعلية الحقيقية بهذا الشأن في التسعينات فقط. انظر عادة الحلايقة : ماهي اتفاقية كامب ديفيد، بتاريخ 16 افريل 2018م.

<https://mawdoo3.com>

2- رمضان الغنام : أمريكا دولة المصالح، لا المثل والقيم، موقع طريق الإسلام، بتاريخ 2014/5/12 م.

<http://ar.islamway.net/article>

3- حموش عبد الرزاق : العلاقات العربية الأمريكية في وسائل الإعلام خلال مرحلة الثورات العربية الأخيرة ص 66.

1- إسرائيل:

يدرك أغلب المختصين أنّ الانحياز الأمريكي لإسرائيل ليس وليد الساعة، بل هو قضية تمتد بجذورها إلى الماضي البعيد ولقد عرفت العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وهذه الدولة الناشئة تطوّراً كبيراً حتى صارت توصف من الطرفين بالعلاقة الفريدة والتميّزة، وهو الأمر الذي حير الكثيرين، فإسرائيل ليست مستعمرة أمريكية أو عربية في المنطقة كما أنّها لا تمثل مجرد موقع استراتيجي كجبل طارق مثلاً، إضافة إلى عدم وجود تحالف واضح عسكري أو اقتصادي يربط الطرفين فماذا تمثل إسرائيل للولايات المتحدة؟¹

حاول البعض الإجابة عن هذا السؤال بالقول: إنّ العلاقة التي تربط الولايات المتحدة الأمريكية بإسرائيل قائمة أساساً على الدور الذي تقوم به إسرائيل في خدمة المصالح البرغماتية الأمريكية في الشرق الأوسط، فعندما بدأ الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في هذه المنطقة إبان الحرب الباردة أصبح الأمريكيون أكثر تأييداً لإسرائيل التي صاروا يعتبرونها الحليف الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه هناك، ويرى مؤيدو إسرائيل أنّ الولايات المتحدة أكثر حماسة للمنطقة باعتبارها المجتمع الديمقراطي الوحيد في المنطقة، التي تمثل نموذجاً للتقدّم والتنمية تحتاج إليه الدول العربية نفسها.²

وعليه فإنّهم يرون أنّ نمو إسرائيل يعتبر مصلحة أمريكية حيوية، ويصل هذا الرأي ذروته إلى حد الإقتراح بأن تكون إسرائيل حجر الزاوية، والأداة السياسية المختارة في التعامل مع الدول العربية المحيطة بها التي زادت الضغوط عليها لتوطين اللاجئين الفلسطينيين وضمان عدم عودتهم إلى إسرائيل التي من مصلحة هذه

1- حموش عبد الرزاق : العلاقات العربية الأمريكية في وسائل الإعلام خلال مرحلة الثورات العربية الأخيرة ص 66.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

الدول تطبيع العلاقات معها باعتبارها النموذج السياسي والاقتصادي الناجح الذي سيدير عجلة التّقدّم في المنطقة.¹

وبهذا المعنى لم تعد إسرائيل مجرد أداة للحفاظ على المصالح الأمريكية فحسب ولكنها فوق ذلك كله قوة غربية تمثّل من ناحية الحضارة الغربية كلّ قيمها ورموزها، وبالتالي فإنّ العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل حسب كثير من المحلّلين هي في الأساس علاقة التزام من جانب الولايات المتحدة الأمريكية تجاه إسرائيل حيث يتّفق جميع هؤلاء على أنّ إسرائيل من المنظور الأمريكي هي تجسيد للدولة اليهودية المنشودة.²

غير أنّ التّحليلات العربية تتباين حول حدود ونطاق هذه المصلحة، وحول ما إذا كانت مصالح إسرائيل، ورؤيتها للمنطقة تتطابق مع مصالح، ورؤى الولايات المتحدة، فمن قال بأنّ إسرائيل مجرد أداة وظيفية تستخدمها الولايات المتّحدة لتحقيق أهدافها الاستراتيجية فالصراع الأساسي هو مع الولايات المتحدة الأمريكية الموالية لإسرائيل هي نتاج النفوذ القوي لجماعات الضغط واللوبي اليهودي في أمريكا، الذي تقوده "لجنة الصداقة الأمريكية الإسرائيلية" "AIPAC"، وبالتالي يمكن لسياسة عربية رشيدة تحسين موقف الولايات المتحدة من الصراع الدائر في المنطقة بين العرب، والإسرائيليين.³

ومن دون الدخول في تفاصيل هذا الجدل السياسي البرغماتي فإنّه يمكن القول أنّ التّحليل الموضوعي لهذا الموقف يفضي إلى عدد من الحقائق يمكن إجمالها فيما يأتي:

1- حموش عبد الرزاق : العلاقات العربية الأمريكية في وسائل الإعلام خلال مرحلة الثورات العربية الأخيرة ص 66.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أولاً: أنّ قدرة إسرائيل على الولوج إلى أعماق التفكير الأمريكي، والتأثير على الرؤية الأمريكية لصالح إسرائيل ليس دليلاً على نفوذ اللوبي الصهيوني وحده رغم أهميته وإنّما لعوامل أخرى عديدة تاريخية ودينية وحضارية إضافة إلى الإعتبارات الاستراتيجية، والأمنية.¹

ثانياً: إثبات إسرائيل لفعاليتها كحليف للولايات المتحدة في مقاومة الأعداء المشتركين: الاتحاد السوفياتي سابقاً، والنظم الراديكالية ذات التوجّه القومي أو الإسلامي في المنطقة.

ثالثاً: تعتبر إسرائيل نواة لمشروع صهيوني كبير لم يكتمل بعد وما تزال مستمرة في العمل لاستكمالها وفق آليات تحرص على أن لا تضعها في مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة، وفي المرات العديدة التي حدثت فيها خلافات كبيرة وعلنية بين البلدين حول قضايا بعينها ثبت أنّ إسرائيل هي الأقدر دائماً على تطويع الموقف الأمريكي في اتجاهها، ولصالحها، وليس بالعكس.²

المقصود من هذا الطرح أن العلاقات الإسرائيلية الأمريكية كانت لها نتائج واضحة المعالم على تطوّر العلاقات العربية الأمريكية من ناحيتين أساسيتين تمثلت الجهة الأولى في إشكالية الأمن الإسرائيلي والأمن القومي العربي، أما الجهة الثانية فتتمثلت في نتائج تأثير العلاقات الإسرائيلية الأمريكية على العلاقات العربية الأمريكية، والتي ظهرت بوضوح تام من خلال الدور الأمريكي في عملية السلام والأمن العالمي.

2- العراق :

تتجلّى البرغماتية السياسية الأمريكية في أوضح صورها في حرب الولايات المتحدة على العراق عندما تذرّعت بتملّك العراق أسلحة دمار شامل، وشنّت حربها على هذا

1- حموش عبد الرزاق : العلاقات العربية الأمريكية في وسائل الإعلام خلال مرحلة الثورات العربية الأخيرة ص 67.

2- المرجع نفسه ، ص 68.

الأساس بغض النظر عن كلّ الكوارث التي حدثت جراء هذه الحرب، وكذلك موقف الولايات المتحدة من الدخول السوري العسكري إلى لبنان عام 1975م وموقفها لإخراج القوات السورية من لبنان حيث السياسة لا تحكمها المشاعر المنبثقة عن الإيديولوجيا بل تحكمها المصالح، فهي التي تفرّق، وتجمع، وليس ببعيد الموقف الفرنسي لإخراج القوات السورية من لبنان حيث اجتمعت المصلحة الأمريكية مع المصلحة الفرنسية باتحاد برغماتي واضح.¹

وخلاصة الأمر هنا أنّ الفلسفة البرغماتية السياسية الأمريكية حقّقت مكانة دولية سياسية كبيرة لم يكن لها مثل في الماضي والحاضر، باتّباع أسلوب ونمط واحد لم يتغيّر طول القرن العشرين، وهو مدّ النفوذ، والسيطرة، والهيمنة على سياسة دول العالم، وانتهاز الفرصة لتنفيذ طموحها المادي الأمبراطوري مستخدمة الإمكانيات العلمية العملية في التفكير الاستراتيجي، والتخطيط، لكن هل هذا يعني أنّها تخلو من نقائص، وسلبيات في تخطيطها، وتطبيقها السياسية؟، هذا ماسنحاول الإجابة عليه في هذا المقام.

تعقيب:

يرى عبد القادر محمد فهمي أستاذ العلاقات الدولية والاستراتيجية في كلية العلوم السياسية التابعة لجامعة بغداد، أنّ القيم السّامية التي ترفعها الولايات المتحدة كشعار معن، والتي تجسّدّها الحرية، والعدالة، والمساواة، والديمقراطية، والإحترام لا تظهر دلالاتها في الغالب إلى على الشعب الأمريكي في حين تضعف قيمة وفعالية هذا الشّعار شعار القيم السّامية بكلّ مفرداته عندما يحملها الخطاب السياسي والإعلامي، ويروجّ لها خارج حدود الولايات المتحدة، وليس أدل على صحة هذا الإدّعاء من التّنديد، والنقد الجارح الذي يصل إلى حد التّشكيك بمصداقية المناداة

1- منير الشواف: السياسة الأميركية بين الأيديولوجية، والبراغماتية، قضايا فكرية بتاريخ 2005/6/16م
<http://thawra.alwehda.gov.sy/>

الأمريكية بنشر الحرية، وتطبيق العدالة، والمساواة، والديمقراطية... إلخ، وهو النقد الذي يوجهه كثير من الكتاب، والمسؤولين من داخل الولايات قبل أن يأتي من خارجها.¹ المعنى من قول الأستاذ أن الولايات المتحدة الأمريكية شعارتها التي تدعو بهازائفة، ولا أساس من الوجود في الواقع الأمريكي، ولكن الموجود ما الذي تريده هي أن يكون من أفعال وقيم سامية حسب مصالحها ورغباتها الذاتية وخاصة المادية، فبيان صحة القيم وصدقها يكون من خلال النتائج التي ترغب هي فيها وبذلك أخضعت كل شيء لمبدأ المنفعة، وجعلت النتيجة هي معيار الحكم على صدق الفعل أو بطلانه، وهذا ماجعل العديد من المفكرين والكتاب ينتقدونها.

إنّ البرغماتية التي أدت إلى نجاح الأمريكيين في المسائل المادية أوصلتهم إلى اضطراب شديد في السياسة الدولية ذلك أنّهم تعاملوا بمنطق التجربة مع الإنسان والشعوب وهي جواهر كيفية لا يسوغ أن تكون بصفة عامة محل تجارب، وإن ساء أن تكون التجربة جزئية واعية مسبوقة بفهم، ودراسة وواقعية بأسلوب آخر تماماً لا بد أن يدخل في التقدير عناصر التاريخ، والثقافة، والشخصية وغيرها ممّا هو من صميم الطبيعة الإنسانية.² هذا يعني أن السياسة الأمريكية البرغماتية لا تخلو من نقائص مما أدى إلى تنافر الناس فيما بينهم، وعدم تقاعلهم في المجتمع الواحد لأنها سياسة تعتمد على منفعة الإنسان بالدرجة الأولى، ونجدها أيضاً تبالغ في تقديس واحترام حرية الإنسان مما فتح المجال للرذيلة والبقاء للأقوى، وتستخدم السياسة الأمريكية البرغماتية كل الوسائل لتحقيق منفعتها المادية المربحة، ونرى صدق قولنا هذا من خلال استعراض تاريخ السياسة والاقتصاد، والآليات المتبعة بدقة في تجسيد غايتها

1- عبد القادر محمد فهمي : الفكر السياسي، والإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية : دراسة في الأفكار دراسة في الأفكار، والعقائد، ووسائل البناء الإمبراطوري، دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2008م ، ص9، 10.

2- محمد سعيد العشماوي : البرجماتية نظرة أمريكية للعالم، مجلة شهرية ثقافية مصورة تأسست، عام 1958 م تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت للوطن العربي، العدد 471، سنة 1998م.

<http://www.alarabimag.com/Article.asp?ART=5419&ID=204>

وأهدافها السياسية، ومنهج الحضارة المتبع في الدول الغربية عامة، والدول الأمريكية خاصة.

تعتبر الفلسفة البرغماتية الأمريكية تعبيراً إيجابياً ملموساً عن بعض الأحداث، والمتغيرات والمستجدات التي وقعت في التاريخ الأمريكي، وبوجه عام في الديمقراطية عندما يتم النظر إليها، وتفسيرها تفسيراً أخلاقياً، فالنظريات السياسية في الفلسفة البرغماتية الأمريكية لم تستند إلى الواقع التجريبي فحسب، بل كانت فلسفة أخلاقية توجّهت صوب الحقائق البديهية، والصادقة بحد ذاتها، كما في جعل جميع الناس متساويين وأنّ لهم حقوق لا يجوز التّصرف بها فهذه دلالات أخلاقية محترمة ارتبطت بمفاهيم دينية فقط، هذا يعني أنّ العمل السياسي برغماتي بطبعه، وهو بهذا يعلن عن نفسه بأنّه نفعي، يزن خياراته في ميزان المصالح النّفعية المادية لكن ليس المجال السياسي وحده الذي تتجلى فيه الفلسفة البرغماتية وقيمها بل هناك مجال آخريكون لهذه القيم والمفاهيم دورها الواضح في تغيير وتجديد بنية الواجهة الثقافية لشعب ما وأمة ما وهو المجال الثقافي.

ثالثا: التجليات الثقافية للفلسفة البرغماتية الأمريكية:

تعد الثقافة، والبناء الثقافي الفلسفي البرغماتي الأمريكي من المكونات الأساسية في أي مجتمع، حيث يظهر الفرق بشكل أساسي بين تقدّم أيّ شعب من الشعوب وآخر في مدى رقي، وتطوّر الثقافة الاجتماعية، وقدرتها على التفاعل مع التطوّر الذي يلحق بفروع الحياة المختلفة على أساس أنّ الثقافة الاجتماعية تعبر عن الخبرة الإنسانية في أيّ مجتمع من المجتمعات، و يعنى بها أسلوب التعامل مع الحياة بفروعها المختلفة.¹ يتبين لنا هنا أن الفلسفة البرغماتية تدخلت في جميع مناحي الحياة في أمريكا، وخاصة في البناء الثقافي من خلال تحقيق أهدافها الإنسانية الثقافية والنهوض بالحياة وفق منهجها، ونظرتها الخاصة مما يؤدي إلى التطور والرقى الثقافي داخل المجتمعات، والذي يقوم أساسا على التجربة، والخبرة العملية والعلمية.

تميّز المجتمع الأمريكي بامتزاج ثقافي يذكّرنا بذلك الامتزاج الحاصل في الفترة الهلينية من تاريخ الفلسفة عندما امتزجت الثقافات الفارسية، والمشرقية وكذا اليونانية في ثقافة واحدة سميت بالثقافة الهلينية، بل ما أثارنا أكثر هو أنّ نفس مبادئ الفلسفة البرغماتية نجد مثيلتها في فلسفات خلال العصر الهليني وخير نموذج هو نموذج الرواقية ثم الأبيقورية، فكلا المذهبين يحمل نفس النظرة البرغماتية للعالم، فبفضل العدد الهائل من المهاجرين، وكذا التّوّع الحاصل في الأجناس ثم الثقافات بين آسيا وأوروبا، ثم أفريقيا تشكلت ثقافة واحدة ستولّد لاحقا فلسفة اسمها البرغماتية.²

لقد كان للهجرة دور حاسم في نشأة دولة الولايات المتحدة الأمريكية دولة قوية حرة ومتقدّمة ذلك أنّ الذين هاجروا إليها كانوا على وعي بما ينتظرهم إن لم يدافعوا على حريتهم بوجه خاص، وأنّ هذه الحرية هي الأساس في كلّ الميادين

1- عزمي عاشور: التحديث الموسوعة السياسية للشباب، نهضة مصر للطباعة، والنشر، والتوزيع، القاهرة الطبعة الأولى، سنة 2007م، ص 53.

2- هشام آيت باحسين: الفلسفة البرجماتية سر الهيمنة الأمريكية، بتاريخ 2013م.

http://www.philopress.net/2013/07/blog-post_22.html

الأخرى بحيث لا تزال إلى اليوم الحرية من أقرب الأشياء وأعزّها إلى أذهان و قلوب الأمريكيين.¹

هذه الهجرات المتواصلة منذ القرن الخامس عشر إلى غاية اليوم هي في النهاية ما شكّل فسيشفاء المجتمع الأمريكي المختلفة أعرافه، وأديانه، ولغاته، وثقافته كلّ هذه العناصر المتباينة لم تمنع هذا المجتمع من التمتع بوحدة سياسية تحت راية نظام جمهوري ديمقراطي فيدرالي سياسيا، ومن انتهاج مسلكا رأسماليا في الاقتصاد من مبادئه حرية المبادرة، وتنظيم السوق ليبراليا.² يعني هذا أن الولايات المتحدة الأمريكية بلد متعدد الديانات، والعادات، والتقاليد، ولكنهم يسرون وفق نمط واحد وهي تحقيق الحرية، والمنفعة المادية مستخدمة في ذلك كل الوسائل المباحة.

كما برز من الناحية الثقافية نموذج اصطلاح عليه بأنّه إمركي تميّزه اللغة الإنجليزية كوسيلة خطاب يؤمن بالتنوّع الإعلامي وبالتسامح، والحرية، والتفتح في الآداب والفنون، والعلوم بفضل ما جسّدته طموحات الأنواريين الأمريكيين أمثال: بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin³، وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson⁴ و

¹ - John Rajchman : **L a philosophie en Amérique in, L a pensée américaine contemporaine sous la direction de John Rajchman et Cornel west t** raduction del'américain par André Lyotard-May, PUF, 1re édition, 1991, p56.

1- دافيد و مارسيل : **فلسفة التقدم ديوي، بيرد جيمس وفكرة التقدم الأمريكية**، ترجمة خالد المنصور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1987م، ص42.

2- بنجامين فرانكلين : واحد من أهم وأبرز مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية، كان مؤلفا طابعا صاحب هجاء سياسي، عالم ومخترع ورجل الدولة ودبلوماسي. كان شخصية رئيسية في التنوير وتاريخ الفيزياء حيث كان صاحب تجارب ونظريات، ومفاهيم، واكتشافات متعلقة بالفيزياء، من مواليد 1706-1790م.

3- توماس جيفرسون: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لعهدتين 1801-1804م، ورفض ترشيحه للمرة الثالثة بدأ حياته المهنية العملية محاميا، وسرعان ما تحول إلى السياسة حيث انتخب في المجلس التمثيلي لفرجينيا ساهم في الإعلان الأمريكي لحقوق الإنسان كما هاجم سياسة انجلترا تجاه المستعمرات الأمريكية، من مواليد 1743-1826م .

أبراهام لنكولن Abraham Lincoln¹، وجون آدامز John Adams²، ورالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson³، وغيرهم كثير ضمن سلسلة من الرواد والفاعلين في المجالات السياسية، والاقتصادية والثقافية والبارزين في الحكمة، والمعارف بصورة عامة، والذين يبدو أنهم كانوا على وعي ودراية بالصعوبات التي تنتظر المجتمع الجديد فعمدوا إلى التّظهير ووضع التّصورات والخطط الواقعية الكفيلة بتجاوز العراقيل.⁴

ومن ذلك أنهم سارعوا إلى وضع إصلاحات سياسية تمثّلت في إقرار دستور للبلاد يحدّد الصلاحيات، ويفصل بين السّطات التشريعية، والقضائية، والتنفيذية ويكون مرشدا لسياسة البلاد في الداخل والخارج كما أقرّوا إصلاحات اجتماعية لا سيما في مضمار التّربية والتّعليم بغرض تحقيق قيم التّسامح، والتّضامن.⁵

لقد أدرك هؤلاء الرواد أنّه بواسطة الحرية، والتّعليم سيتمكّن الفرد الأمريكي من إكمال ما عابه عليه الأوروبيون من نقص في الثقافة البرجوازية الرفيعة والفكر النظري الحر كما تمكّن الفرد الأمريكي من الرّد على الهجمات التي شنّها علماء أوربا، وفلاسفتها، ومفكرها في منتصف القرن الثامن عشر على العالم الجديد واعتبروا أنّ مناخه، وبيئته النباتية والحيوانية سيئة ودون المستوى غير أنّ المثقّفين

1- أبراهام لنكولن: كان الرئيس السّادس عشر للولايات المتّحدة الأمريكية في الفترة ما بين 1861م إلى 1865م، من مواليد 1809-1865م.

2- وجون آدامز: هو أول من تقلّد منصب نائب الرئيس في الولايات المتّحدة الأمريكية ما بين الأعوام 1789-1797م كما أنّه ثاني رؤساء الولايات المتّحدة الأمريكية، والتي تولى رئاستها من عام 1797م إلى عام 1801م ينتمي جون آدامز إلى الحزب الفيدرالي، من مواليد 1735-1826م.

3- رالف والدو إمرسون: فيلسوف وشاعر أمريكي، كان أحد أبرز، وأشهر أعلام الفلسفة المتعالية في أوائل القرن التاسع عشر وكان من دعاة الفردانية، من مواليد 1803-1882م.

4- دافيد ومارسيل: فلسفة التّقدم ديوي، بيرد جيمس، وفكرة التّقدم الأمريكية، ترجمة خالد المنصور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1987م، ص42.

5- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الأمريكيين عاودوا دراسة بيئتهم، وأمكنهم التعرف من خلالها على المزايا التي تتفرد بها أرضهم، وقد كان الردّ عملياً من خلال النتائج المحققة في الميدان.¹

المقصود هنا أن الفلسفة البرغماتية ليست مجرد السيطرة السياسية والاقتصادية فحسب، ولكنها بفضل الحرية، والتعليم يمكنها أن تذهب إلى أبعد من ذلك فهي تهدف وتسعى بكل قوتها إلى تحقيق أنماط، وسلوك من القيم، والعادات، والتقاليد التي تحمل في طياتها ثقافة معينة تريد أن ترسخها في عقول، وتفكير المجتمعات الأخرى.

إنّ بروز الولايات المتحدة الأمريكية قوة عظمى بعد الحرب العالمية الثانية محاولة أن تخلف الاستعمار القديم المتمثل في إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا قد مكّنها من تحقيق أهدافها في **النّفوذ الثقافي البرغماتي** التربوي على وجه التّحديد، وعلى سبيل المثال قد حظيت كتب المؤسس الأول للتربية البرغماتية **جون ديوي** بنصيب الأسد من حركة الترجمة العربية التي شهدتها حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث قامت مؤسسة "فرانكلين" بدور الداعم والمغذي لعملية الترجمة في ميدان التربية والتعليم إلى جانب قيادات تعليمية عربية، ولابد أن نتذكّر ماتمّ التلميح إليه من أنّ تأثير ديوي تعدى محيط المناهج الأمريكية ليصل إلى التربية العالمية.²

تسعى الولايات المتحدة الأمريكية من خلال فلسفتها البرغماتية إلى تعميم نموذجها الثقافي العالمي على الدول، والمجتمعات الأخرى من خلال التأثير في المفاهيم الحضارية، والقيم الثقافية الاجتماعية، والأنماط السلوكية لأفراد هذه المجتمعات بوسائل اقتصادية، وثقافية، وسياسية متعددة، وذلك من خلال الإختراق الثقافي.

وهذا النمط من التفكير البرغماتي، والآلية الحركية لسلوك المنفعة والاحتواء يلقي رواجاً في تكتيك الإدارة السياسية في الولايات المتحدة واستراتيجيتها باختلاف رموز

1- دافيد و مارسيل : فلسفة التقدم ديوي، بيرد جيمس، وفكرة التقدم الأمريكية، ص42.

2- عبد العزيز المنصور: العولمة، والخيارات العربية المستقبلية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 25، العدد الثاني، سنة 2009م، ص568.

هذه الإدارة في شبه إجماع تمّ التعبير عنه في أكثر من مكان، وأكثر من مناسبة ومن أجل هذا التوجه وظّف الخبراء، والمؤسسات الثقافية الإعلامية الكبرى وأجهزة المخابرات الأمريكية، وبهذا الصدد يقول الصحفي الأمريكي جيمس روستون 1909-1995م: "إنّ الصحفيين ورؤساء تحرير الصحف الجامعية ليسوا بالطّبع أغنياء جداً، وبعضهم ضعيف أمام الإفساد المالي، ولن تتردد وكالة الاستخبارات المركزية CIA، في استمالتهم عندما تستطيع أن تفعل ذلك وهذا ما تفعله CIA التي لديها جيش من الصحفيين، والباحثين مهمتهم فقط طرح نظريات وصياغة أخبار، وصناعة الدّعايات المؤيّدّة للسياسة الأمريكية وتبرير كلّ ما تفعله بالشّعوب الأخرى".¹ ولهذا تعدّ التّكنولوجيا الحديثة الأمريكية البرغماتية واحدة من أهم ميادين القوة الأمريكية النّقّافية المؤثّرة، والمهيمنة سواء على الصّعيد المدني أو الصّعيد العسكري.

ففي مجال المنتجات ذات التّكنولوجيا العالية فقد احتلت الولايات المتّحدة المركز الأول في إنتاج الإلكترونيات بنسبة 40 % مقابل 28% لليابان كما حافظت على موقع الصدارة في مجال تصدير الطائرات، والكيميائيات الصناعية والزراعية والمحركات، والآلات المكتبية والاحصائية في حين احتلت المركز الثاني في صادرات الأدوات الكهربائية، والمواد البلاستيكية، والعقاقير الطبية كما تحتل الولايات المتحدة مركز الصدارة بالنسبة لإعداد الحاسبات الموجودة فيها، فمن إجمالي 227 مليون جهاز حاسوب في العالم تملك الولايات المتّحدة الأمريكية أكثر من 100 مليون جهاز بنسبة تصل إلى 45% من العالم، كما أنّ سوق الحاسبات الصغيرة بها يعادل 36% من حجم السوق العالمي والذي يبلغ 70 مليون جهاز.²

1- عبد العزيز المنصور: العولمة والخيارات العربية المستقبلية، ص 568، 569.

2- سليم كاطع علي: مقومات القوة الأمريكية، وأثرها في النظام الدولي، دراسات دولية جامعة، بغداد العدد 42، سنة 2014م، ص 165.

يتبين لنا هنا المكانة التكنولوجية الثقافية المرموقة التي تحتلها الولايات المتحدة الأمريكية عالميا.

لقد كانت السيطرة الثقافية البرغماتية الأمريكية، ولا زالت إحدى سمات القوة العالمية الأمريكية التي لم تقدر حق قدرها، ومهما فكّر المرء في القيم الجمالية، فإنّ الثقافة الشاملة في أمريكا تمارس إغراء مغناطيسيا، ويمكن أن يكون إغراؤها نابعا من نوعية مذهب المتعة الذي تحفل به أسلوب الحياة الأمريكية البرغماتية.¹

ولكن إغراءها العالمي لا يمكن إنكاره فبرامج التلفزيون، والأفلام الأمريكية تحتل نحو ثلاثة أرباع السوق العالمية، والموسيقى الشعبية الأمريكية تسيطر هي الأخرى على نحو مماثل، بينما نجد أيضا العالم كلّه يقلّد وعلى نحو متزايد الهوايات أو البدع والموديلات "جمع موديل أو موضة"، وعادات الطعام، وحتى طريقة ارتداء الملابس والملابس ذاتها.²

وقد أدى الانتشار الواسع للغة الإنجليزية فضلا عن تطوّر وسائل الإعلام الأمريكية إلى استغلال ذلك من قبل الولايات المتحدة لفرض أنموذجها الثقافي البرغماتي على العالم، ومما ساعد على هذه الهيمنة الثقافية فضلا عن بعض أشكال الجاذبية في الأسلوب الأمريكي قدرة الولايات المتحدة، وأدواتها على نشر هذا الأنموذج و براعتها في استخدام وسائل الاعلام التي تغزو الآن كل بيت.³

نستخلص هنا أنّ فلسفة الإعلام البرغماتي الثقافي الأمريكي يجري توظيفها في إطار الغزو الفكري المنظم للتبشير لنمط الحياة الأمريكية، وفلسفة النّجاح

1- زبغنيو بريجنسكي : رقعة الشطرنج الكبرى السيطرة الأمريكية، وما يترتب عليها جيواستراتيجيا، ص 27، 28.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3- سليم كاطع علي : مقومات القوة الأمريكية، وأثرها في النظام الدولي ، ص 168.

والمشروع الأمريكي العالمي الكوني لبسط السيطرة، والنفوذ بما يحقق أهداف الرأسمالية الأمريكية، فالإنتشار الواسع للغة الإنجليزية، ومن ثمة الثقافة الإنجليزية لم يؤد إلى جعلها انموذجا للغات في مختلف الميادين، وإنما كذلك ساعد الولايات المتحدة على توظيفها لنشر أنموذج الحياة الأمريكية في العالم بما يدعم هيمنتها الثقافية، والاقتصادية، والعسكرية العالمية.¹

لذلك نجد أسلوب الكثيرين من الساسة الديمقراطيين الأجانب يشبه الأسلوب الأمريكي البرغماتي، ولم يكن جون كينيدي John F. Kennedy "1917-1963م" الوحيد الذي وجد من يقلده في الخارج، ولكن حتى آخر القادة والزعماء السياسيين الأمريكيين أصبح موضع دراسة دقيقة، وتقليد سياسي وهكذا، فإن السياسيين من ثقافات متباينة كالبريطانيين، واليابانيين على سبيل المثال رئيس الوزراء الياباني في منتصف التسعينيات ريوتارو هاشيموتو، ورئيس وزراء بريطانيا توني بلير Tony Blair "1953م" لاحظ تقليد بلير جيمي كارتر Jimmy Carter 1924م، وبيل كلينتون Bill Clinton 1946م، دول الذين يجدون من الملائم تماما أن يقلدوا عادات كلينتون الداخلية وتقنيات أو أساليب علاقاته العامة.²

هذا يعني أن ثقافة الفلسفة البرغماتية الأمريكية مؤثرة بكل تأكيد، وبشكل فعال من خلال هيمنة منتجاتها، وقيمها في أنماط حياة الآخرين، هي لاشك المؤثر المهيمن والمسيطر على عقول، وأفكار العديد من الناس، فالثقافة البرغماتية إذن تمثل قوة اقتصادية عالمية هامة في الوقت الحاضر.

فالثقافة الأمريكية البرغماتية هي ثقافة قوية، وتعمل على إقصاء الثقافات الأخرى المحلية الآيلة نحو الدونية و التلاشي، و هذه السيطرة هي التي يعبر عنها بأمركة العالم، والتي تجلت بكل صراحة على أفواه بعض المسؤولين الأمريكيين وهذا الرئيس

1- زبغنيو بريجنسكي : رقعة الشطرنج الكبرى السيطرة الأميركية، وما يترتب عليها جيواستراتيجيا، ص 27 28.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الأمريكي جورج بوش George W. Bush 1946م يقول أن القرن القادم سوف يشهد انتشار القيم الأمريكية وأنماط العيش والسلوك الأمريكي إن أمريكا تعمل على فرض التبعية الثقافية من خلال غزو الثقافات الأخرى وتخريب قيم الآخرين بعد التشكيك فيها باستقطاب الأجيال الصاعدة عن طريق دغدغة المشاعر، والتحكم في الميول والأذواق، مستغلة في كل هذا تفوقها العلمي والتقني وسيطرتها العسكرية والسياسية، ويلعب التلفزيون دورهم في تبليغ الثقافة وفي الحالة التي تعترف بوجود ثقافة قوية فإن الخطر كله يكمن في العيش داخل ما يعرف بالامبريالية الثقافية.¹

وفي هذا المجال تتحدث الكاتبة الأمريكية عن هيمنة الثقافة الأمريكية فتقول أن أمركة الثقافة العالمية تكشف عن الأذواق الثقافية للعالم، و بذلك لا تفرق بين ما يرغب في مشاهدته الجمهور الأمريكي، وبين ما ترغب في مشاهدته الجماهير الأخرى في العالم. و من أبسط الأدلة على اجتياح الثقافة الأمريكية حسب تقرير لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي أن أمريكا تصدر 2,1 مليون ساعة من البرامج التلفزيونية، و في دراسة أخرى **لليونسكو** تجاوز بث الإنتاج الأمريكي في تلفزيونات العالم ثلاثة أرباع ذلك البث أي بنسبة 85 % وتتوزع نسبة الجزء الباقي بين الإنتاج المحلي، و بين الإنتاج غير الأمريكي، و 88% من معطيات الإنترنت تبث باللغة الإنجليزية مقابل 9% بالألمانية، و 2% بالفرنسية، و 1% تتوزع على اللغات الأخرى، كما تذكر بعض الإحصائيات أن 80% من إيرادات دور السينما هي من الإعلام الأمريكية، و 60% منها ما يعرض في فرنسا.² إذن نستنتج أن الولايات المتحدة الأمريكية مهتمة بشكل كبير بالهيمنة الثقافية، وهذا من خلال تعزيزها الاجتماعي، والتوسيع في الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات في جميع أنحاء العالم هذا من جهة، ومن جهة أخرى توزيع المنتجات الإعلامية والثقافية من خلال الإعلانات التي نجده في كل مكان يعني هذا أن الثقافة الأمريكية لها تأثير قوي

1- عبد القادر تومي: **العولمة الاقتصادية**، ص 115.

2- المرجع نفسه، ص 116.

ومباشرة على العديد من القيم ونمط حياة الأفراد القائم على الإستهلاك بشكل سريع جدا.

هكذا تنتشر الصورة الأمريكية في العالم بشكل كبير، ولا يعقل أن الصور الأمريكية بريئة بل العكس هي تحتل جوهر الثقافة الأمريكية، وبالتالي فهي تركز قوة النظام الأمريكي الذي يتجلى في النواحي العسكرية، والاقتصادية، والسياسية، والإعلامية و لعل ما يقف وراء انتشار هذه الثقافة بهذا الشكل هو خصوصية المجتمع الأمريكي و خصوصيته الثقافية.¹

أما إذا انتقلنا إلى الجانب الفكري التربوي نجد أن أثريوي كان بارزا في الساحة الثقافية الأمريكية، فقد ساهم الفيلسوف جون ديوي بقدر كبير في جعل البرغماتية تيارا فلسفيا من بين أهم التيارات الفلسفية المعاصرة له أطروحاته المتميزة ومعالجته المنقّدة للقضايا الفلسفية المثارة من قبيل الحقيقة والمعرفة، السلطة والتربية، الخبرة والثقافة، وبشكل الإسهام الجاد في إعادة صياغة، ووصف الفلسفة بما يتناسب مع أحداث القرن العشرين سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا، ومن هنا انطلقت دعوة جون ديوي لمحاولة اصطناع المنهج التجريبي في العلوم الاجتماعية خاصة والشؤون الإنسانية عامة، وهذا من خلال نظريته الشاملة لوظيفة الفلسفة وضرورة تجديدها بما يتلاءم مع ما يحصل من تغيرات.² يعنى هذا أن الجانب التربوي كان له حضور شاسع وواسع في الثقافة الأمريكية من خلال قيادته للحركة التقدمية في التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية، وإدخال المنهج التجريبي في الحياة الإنسانية والاجتماعية معنى هذا أنه أعتمد على أهمية التحقيق التجريبي فرفض كل وجود ثابت ومطلق وفتح المجال للحرية الفردية التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يواجه كل التحديات والصعوبات التي تواجهه في الوقت المعاصر.

1- عبد القادر تومي: العولمة الاقتصادية، ص 115.

2- جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ص 54.

حيث يقول جون ديوي: " فمن أول الواجبات العاجلة في التجديد الفلسفي من حيث إيجاد وسائل قابلة للنمو والتطور، ومن حيث ترقيتها إلى وسائل للبحث في الحقائق الإنسانية، أو الأمور الأخلاقية أن نعالج في نظام واتساق ما يدخل في الحياة الإنسانية من عمليات التغير.¹ لذلك نجد الأمريكيون اليوم، ومنذ فترة يحققون أرقاماً قياسية في الإنتاج الفكري عامة، والدرس الفلسفي منه على وجه الخصوص إلى درجة أن باتت الجامعات الأمريكية هي وجهة الفلاسفة الكبار الأحياء.²

علاوة على ذلك، فأمريكا الإمبراطورية العظمى شأنها شأن كل الإمبراطوريات عبر التاريخ ترى أن اكتمال قوتها، وعظمتها لن يكتمل إلا بما تحقّقه من إنجازات في الفلسفة وهي في اعتقاد رورتي تعتبر في حكم التاريخ الدولة التي حملت العبء الأكبر في هذه القضية أي ما اعتبرته البرغماتية على لسان سيدني هوك أهم قضية لها ألا وهي تعزيز حرية الإنسان في عالم مأساوي غير مأمون أكثر ممّا حملته أية إمبراطورية من الإمبراطوريات العظمى، فليس ثمة سبب للسؤال لماذا يحتاج الفلاسفة في كلّ أمة أو مفكروها أن يثبتوا ذواتهم أمام التاريخ ليسجلوا لأنفسهم نفس المزايا التي تتّصف بها الأنظمة السياسية والاجتماعية.³

وربّما كان من الأجدر أن لا نتساءل كيف يحتاج الفلاسفة، والمفكرون إلى إثبات ذواتهم، وأفكارهم أمام التاريخ، وإنّما ينبغي التساؤل عمّا يمكن أن يقدموه لأممهم ومجتمعاتهم ذلك أنّ المجتمعات المتقدّمة، والأمم العظيمة إنّما علا شأنها، ونالت المراكز الأولى في النّقد بفضل عظمائها من العلماء، والفلاسفة.

1- جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ص54.

2- يكفي أن نذكر هنا من الأسماء الكبيرة خاصة من التحليليين، أو الوضعيين التجريبيين عموماً أو من أصحاب النظرية النقدية التي عرفت الساحة الفلسفية الأمريكية كارناب، رايشنباخ، تارسكي، همبل، هابرماس فكانت الظروف السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية قد لعبت دورها المتميز في توجه هؤلاء صوب العالم الجديد .

3- محمد جديدي : الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي ، ص31.

إنّ ما نلاحظه من استدراك ممارس من قبل الأمريكيين أمام نظرائهم الأوروبيين الذين يتّهمونهم غالبا بعدم التّجذّر تاريخيا، وبقلّة الخبرة في مجالات الفلسفة والفكر هو ما حفّزهم إلى مضاعفة الجهد الفلسفي، والدّليل على ذلك كثرة الإنتاج في مضمار الكتابة الفلسفية، والوتيرة المكثّفة للنّشاطات الفلسفية المتنوّعة، وتلك المتعلّقة بنشاط الجمعيات الفلسفية المتمثّل في المؤتمرات الفلسفية التي تعقد هنا وهناك في المدن الأمريكية.¹

وأیضا لما تحظى به مؤلفات الفلاسفة الأمريكيين من ترجمة إلى مختلف اللّغات وقد ازداد هذا النّشاط في نقل الجهد الفلسفي الأمريكي من اللّغة الأمريكية² الإنكليزية إلى لغات عدّة ومنها الفرنسية مثلما هو ملاحظ في نموذج رورتي وازدياد وتيرة ترجمة أعماله لا سيما مع بداية تسعينيات القرن الماضي بشكل ملفت للإنتباه فلا يكاد يصدر كتاب أو ينشر مقال له أو لأحد زملائه في المهنة إلّا ويحظى بالترجمة السّريعة عكس ما كان معروفا قبل سنوات التسعينيات من القرن الماضي وما كتاب جون راولس John Rawls "1921-2002م" "نظرية العدل" إلّا دليل على ذلك بحيث ظلّ منذ صدوره سنة 1971م من دون ترجمة، ولم تظهر النّسخة الفرنسية إلّا في سنة 1987م.³

نستنتج مما سبق أنّ التّجاليات الثقافية للفلسفة البرغماتية الأمريكية جوهرها ذارئعي مطلق، ولذلك لم تكثف السياسة في الولايات المتّحدة باتّخاذ البرغماتية قاعدة استناد

1- محمد جديدي : الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي ، ص31.

2- المعروف أنّ لغات كثيرة يتكلمها الأمريكيون كلغات قبائل الهنود المختلفة والإسبانية وغيرها من اللّغات غير أنّ اللّغة الرسمية والمتداولة في أمريكا هي اللّغة الإنكليزية، وإن اختلفت في بعض مفرداتها ونطقها فهذا معروف على مستوى المعاجم عن الإنكليزية الكاثوليكية البريطانية غير أنّ بعض الترجمات من الإنكليزية إلى لغات أخرى أصبحت تشير إلى أنّ الترجمة من اللّغة الأمريكية إلى اللّغة الفرنسية مثلا وكأن الأمريكية لغة غير الإنكليزية، وهو ما يحيل إلى بعض آراء الباحثين في اللّغة، ومتنبعي تطوّر اللّغات الذين يذهبون إلى أنّ اللّغة الأمريكية قد تتطوّر إلى لغة بعينها غير الإنكليزية. انظر محمد جديدي : الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، ص 32.

3- محمد جديدي : الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي ، ص31.

من بين القواعد الأخرى المتعارف عليها في العمل السياسي، بل اتخذتها عقيدة ثابتة، ولم يعكف سياسي أميركي على تدوين تجربته السياسية إلا وتغنى في نفس الوقت بعظمة الولايات المتحدة، وبأن عظمتها متأصلة على أسس المنطق الذرائعي.¹

لقد أصبحت الثقافة الأمريكية البرغماتية² نموذجا للديمقراطية الليبرالية والسياسات الإصلاحية التي تصدر، وتفرض على مناطق كثيرة على الرغم مما تقابله من مقاومة في العالم من آسيا والشرق الأوسط الكبير إلى إفريقيا، وأمريكا الجنوبية مروراً بالبلقان وأوروبا الشرقية ونموذجاً للثقافة العالمية التي تعاونت التطبيقات التكنولوجية المتسارعة، ووسائل الإعلام، والاتصال الحديثة، والصناعات المتطورة والدقيقة لاسيما في ميادين السينما، والسمعي البصري التي تستحوذ فيها أمريكا على حصة الأسد على الترويج لها.³

ومن الجدير بالذكر أن السينما العالمية، وبالتحديد هوليوود الأمريكية تدعم من الحكومة الأمريكية، وأيضاً من الصهيونية بالمليارات لإنجاح أفلامها التي انتشرت بشكل واسع في بقاع العالم كافة من أفلام درامية إلى كوميدية أو سياسية، وهذا الدعم يهدف لأكثر من جانب أولها الجانب التجاري، والاقتصادي الذي يتحقق من الأرباح التي تحققها هذه الأفلام على مستوى العالم، والجانب الثاني هو تحقيق

1- جيرال ديلودال: الفلسفة الأمريكية، ترجمة جورج كنتورة، وإلهام الشعراني، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2009م، ص 32.

2- يشير جون ديوي إلى هذه القضية في كتابه الفردية قديماً، وحديثاً ضمن سياق توازن المادي والروحي في الحضارة الأمريكية متناولاً بالحديث قول النقاد والشرح في أن الأمريكية هي في طريقها إلى العالمية الاهتمام بالكمية، والتصنيع الآلي، والقياس، وإذا كان لهذه الرموز محاسن وإيجابيات في تحسين المعيشة، وتحقيق بعض السعادة، والمنفعة للإنسان إلا أنها لا تخلو من المساوئ والسلبيات التي احتلت العقل، والشخصية معاً بحسب ديوي دائماً.

3- جون ديوي: الفردية قديماً وحديثاً، ص 24، 25.

المصالح المشتركة مع الحركة الصهيونية، والتي تتحكّم بشكل كبير في صناعة السينما العالمية.¹

نفهم من هذا الطرح أن السينما في أمريكا اليوم من أهم الصناعات السينمائية في العالم حيث نجد سينما هوليوود الأمريكية تجني أرباحاً مالية باهضة تقدر بمئات الدولارات، زيادة عن ذلك انتشارها الواسع والسريع عبر العالم، وهذا من أجل تحقيق مصالحها البرغماتية، ونفوذها المادي بالدرجة الأولى كل هذا جعل السينما الأمريكية تأثر، وتسيطر على صناعة السينما في العديد من دول العالم.

والسؤال الذي نطرحه الآن: لماذا السينما البرغماتية الأمريكية بالضبط؟، وما أسباب انتشارها في العالم؟، وماهي القيم، والمبادئ التي تنشرها السينما البرغماتية الأمريكية؟.

أسئلة تراود الكثيرون، ويمكن أن يجيب عليها الغالبية، كلّ بوجهة نظره الخاصة ولكننا سنقوم بمناقشة لبعض أهم العناصر الفنية، والمحطات التي جعلت من هذه السينما الأمريكية، هي السائدة اليوم في العالم.

ولكي نكون أكثر دقة، وشفافية في طرح قضية هامة مثل هذه القضية علينا أولاً القيام برصد موجز وسريع يتناول نشوء السينما الأمريكية، كيف بدأت وتطورت وإستمرت إلى هذا اليوم؟، ونحن بهذا لن نقدم تاريخاً شاملاً كافياً لهذه السينما وإنما سنتحدث عن محطات هامة كوّنّت ما يسمى بالسينما الأمريكية.

بالرغم من أن السينما قد بدأت في فرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، والنمسا، وأمريكا في نفس الفترة تقريباً بين 1895-1900م بل ربما جاءت السينما الأمريكية فيما بعد، إلا أن ذلك لم يمنع من أن تكون أمريكا هي السبّاقة في المجال الفني و

1- حسن حداد : تعال إلى حيث النكهة روى نقدية في السينما، المؤسسة العربية للدراسات، والنشر، بيروت الطبعة الأولى، سنة 2009م، ص6.

الشعبي كالسينما فقد اهتم الأمريكيان كثيرا بصالات العرض السينمائي معتقدين بشكل جازم أنها العنصر الأساسي لإزدهار هذا الجانب الترفيهي والثقافي.¹

المهم بالنسبة للناس ففي الوقت الذي كانت فيه فرنسا تملك مائتي إلى ثلاثمائة صالة عرض في عام 1909م ولا يملك العالم بأسره سوى ألفين إلى ثلاثة آلاف صالة، كان عدد صالات العرض في أمريكا في نفس الفترة قد تجاوز عددها في العالم بأسره ففي غضون ثلاث سنوات فقط ارتفع عدد صالات العرض في أمريكا بشكل خرافي من عشر صالات فقط إلى عشرة آلاف صالة، إن انتشار صالات العرض بهذا الشكل قد ساهم بشكل واضح ومتميز في زيادة الإنتاج السينمائي.²

1- هوليوود والحرب:

كانت السنوات العشر التي تبعت الحرب العالمية الأولى بالنسبة للسينما الأمريكية سنوات ازدهار، وتطور وليست كذلك بالنسبة للسينما الأوروبية لأسباب موضوعية أهمها حذف الأفلام الأجنبية من برامج عروض عشرين ألف صالة في الولايات المتحدة هذا إضافة إلى أن الأفلام الأمريكية قد سيطرت في بقية أنحاء العالم على 60% إلى 90% من برامج العروض كما، وخصّصت مائتا مليون دولار سنويا للإنتاج السينمائي وتجاوز الـ 800 فيلم ممّا أدى إلى طرح مليار ونصف من الدولارات للاستثمار إلى تحويل السينما إلى مشروع يشبه بهذه الرساميل المخصّصة له أكبر الصناعات الأمريكية كصناعة السيارات والفولاذ، والبترو.³

وسيطرت بعض الشركات الكبرى على الإنتاج الثقافي، والتوزيع العالمي أمثال: بارامونت، ولوي، وفوكس، وميترو، ويونيفيرسال، وربطتها علاقات قويّة بالشركات المالية الكبرى في حي وول ستريت هذه الشركات التي لم تعد تعتمد

1- حسن حداد : تعال إلى حيث النكهة روى نقدية في السينما، ص6.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، ص7.

على المخرجين، بل على النجوم والمنتجين، فأصبح المنتجون هم أسياد الفيلم منذ ذلك الوقت، إذ سيطروا على الصلاحيات السينمائية كافة، ومع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، ظهر نظام النجوم في هوليوود¹، الذي استحوذ على نتاج هوليوود فيما بعد، وصار نظام النجوم أساس سيطرة هوليوود العالمية، هنا بدأت هوليوود تستقطب الكثير من أبرز السينمائيين في أوربا، والعالم، الذين عرفوا بأن العمل في هوليوود سيعطيهم الشهرة التي يريدون.²

تمثل صناعة السينما الأمريكية نموذجا للهيمنة البرغماتية الأمريكية الثقافية والإعلامية، حيث توجد سيطرة هائلة للسينما الأمريكية على سوق الأفلام المتداولة في العالم، رغم أنها في المرتبة الثانية بعد الهند من حيث عدد الأفلام، إلا أن السينما الأمريكية تمثل الصناعة الأكثر تفوقا والأكثر ربحا في العالم، حيث تمثل الأفلام الأمريكية ميزة فريدة في الميزان التجاري الأمريكي مقارنة بجميع الصناعات الأمريكية الأخرى فهي الصناعة الوحيدة التي تتمتع بفائض في الميزان التجاري مع كل دولة من دول العالم، وليس بوسع أي مشروع تجاري أمريكي آخر أن يدّعي مثل هذا الإنجاز.³ المقصود هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية واحدة من أكثر منتجي الأفلام إنتاجا في العالم اليوم، مستخدما في ذلك تكنولوجيا الصور المتحركة العصرية والتقنيات العلمية الحديثة.

تشير الإحصائيات أن مبيعات الأفلام السينمائية، والبرامج التلفزيونية، وأشرطة الفيديو الأمريكية في الخارج بلغت على سبيل المثال في العام 2001م 15 مليار دولار وذلك بزيادة قدرها بحجم 109 في المائة خلال عشر سنوات، وهذا الرقم يبدو متواضعا إذا

1- هوليوود : هي منطقة في مقاطعة لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية تقع بين الغرب والشمال الغربي لمركز مدينة لوس أنجلوس سبب شهرتها الكبيرة، والواسعة ووجود استوديوهات السينما العالمية، والنجوم الكبار العالميين فيها، تعد المركز التاريخي العالمي للسينما الإعلامية الأمريكية والممثلين الأمريكيين، مع العلم أن تستخدم كلمة "هوليوود" غالبا كناية للسينما في الولايات المتحدة.. انظر عادة الحلايقة : أين تقع مدينة هوليوود، بتاريخ 8 نوفمبر 2012م. <https://mawdoo3.com>

2- حسن حداد : تعال إلى حيث النكهة رؤى نقدية في السينما، ص 7 .

3- محمود الزواوي : صناعة الأفلام محاور السينما الأمريكية، ص 204.

ما قيس بحجم صناعة السينما الأمريكية، وما تحقّقه بعض الأفلام الأمريكية من مبيعات وأرباح هائلة.¹ هذه الدراسة تبين لنا أن الولايات المتحدة الأمريكية أكبر الدول إنتاجاً للأفلام في العالم، فهذه الأفلام تحقق العديد من الأرباح التجارية المالية مقارنة بالدول الأخرى.

فمثلاً حقّق فيلم "أفاتار" الذي أخرجه جيمس كامرون James Francis Cameron "1954م"، وكلف إنتاجه 300 مليون دولار، وخلال أسابيع قليلة مبلغ 1.34 مليار دولار تمّ عرضه في شهر أيلول 2009م وخلال ستة أسابيع تجاوزت عوائده ملياري دولار وهو مبلغ يعادل نصف عوائد قناة السويس خلال سنة، حيث بلغت عوائدها 4.3 مليار دولار عام 2009م وهو بذلك تجاوز عوائد فيلم تاي تانك للمخرج نفسه عام 1997م، والذي حقّق مبلغ 1.84 خلال 4 أسابيع من عرضه وهناك العديد من الأفلام الأمريكية التي تحقّق عدّة مئات من الملايين من الأرباح وهي أرباح هائلة ومعظم هذه الأرباح تحقّق من خلال التوزيع الخارجي في السوق الأجنبية.² معنى هذا أن أفلام هوليوود كانت أكثر الأفلام الناجحة تجارياً في العالم وهذا من خلال تطبيق سياستها البرغماتية في هذا المجال.

إنّ طغيان السينما الأمريكية التي زاد عدد الأفلام التي أنتجتها سنوياً على ما تمّ إنتاجه في أيّ بلد آخر، ففي عام 1927م أنتجت هوليوود نحو 700 فيلم طويل مقابل 21 في ألمانيا، و44 فقط في بريطانيا وتراوحت حصة هوليوود في العروض السينمائية الإجمالية في معظم بلدان العالم 75 و90%، وهذه النسبة مازالت تمثّل تقريباً معدل عرض الأفلام الأمريكية في دول العالم المختلفة.³ وتمثّل هذه الهيمنة نموذجاً للهيمنة، وسيطرة وسائل الإعلام الأمريكية على المضمون الإعلامي العالمي،

1- سوّد فؤاد الألوسي : العنف ووسائل الإعلام، دار أسامة للنشر، والتوزيع، عمان، الأردن سنة، الطبعة الأولى، سنة 2012م، ص237.

2- سوّد فؤاد الألوسي : العنف ووسائل الإعلام، ص237.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وما يمثل ذلك من تكريس الهيمنة الثقافية الأمريكية البرغماتية ونقل النموذج الثقافي الأمريكي إلى مختلف الشعوب والدول.

من خلال هذا الطرح نقول أن السينما الأمريكية سينما عالمية عريقة بكلّ المقاييس وبرغماتية بالدرجة الأولى، كانت ولا تزال لدى الغالبية منهم تجارة غنية تدر عليهم الكثير من الأرباح.

هنا سنعرض بعض الأفلام التي أنتجتها استوديوهات هوليوود الأمريكية، وتمثل السينما الأمريكية البرغماتية أفضل تمثيل من حيث الجودة والعمق اللذان صاحب هذه الأفلام:

نظرية دعم "هوليوود" للسياسة الأمريكية تعود للواجهة من خلال فيلم **Argo** للنجم بن أفليك "Ben Affleck" "1972م"، فأبرز، وأهم الأفلام الأمريكية كثيرا ما مررت رسائل سياسية برغماتية لخدمة المصلحة العامة الأمريكية.¹

1- فيلم **Argo** يسرد عملية احتجاز الرهائن الأمريكيين عام 1979م:

بعد الثورة الإسلامية بإيران عندما تم الهجوم على السفارة الأمريكية، واحتجاز بعض الرهائن وقتها هرب 6 من الموظفين في السفارة، واختبأوا في منزل السفير الكندي بإيران، فكانت الـCIA تحت ضغوط كثيرة لإخراجهم.² هذا يعني أن السينما ليست فقط أداة للترفيه، بل هي أداة مهمة جدا وسلاح خطير يستخدم لتمرير رسائل معينة ولتمرير أجندات سياسية برغماتية، ونشر أيديولوجيات خاصة ببعض الدول وبعض الثقافات.

لقد ضلت الفصائيات التلفزيونية الأمريكية البرغماتية وسائل مسيطرة على الساحة الإعلامية لفترة طويلة، وقنوات أساسية لنقل الأخبار للجمهور، حيث استطاعت

1- مجدوب : واشنطن تقرر مضمون الفيلم، ونيويورك تمول، وهوليوود تنفذ، دبي قناة العربية بتاريخ 19 نوفمبر 2012م. <http://www.alarabiya.net/articles/2012/11/19/250521.html>.

2- المرجع نفسه.

التكنولوجيات الحديثة أن تحول وسائل الإعلام من مجرد أداة لنقل الأخبار والمعلومات إلى متحكم أساسي في توجيه الأفكار، والسلوكيات.¹

إن السينما الأمريكية السينما القائمة على عرض أفلام في كافة أنحاء العالم تساهم في بناء منظومة الوعي الكوني وثقافته البرغماتية، وتوجهه بحسب الرسالة التي رسمها مبدع تلك الأفلام.

2- فيلم في وادي إيلاه الوطن في خطر سنة 2007م :

المشاهد لفيلم في وادي إيلاه لابد أنه سيتعاطف كثيرا مع بطله، ويخرج من الصالة وهو في حالة حزينة لما آل إليه الوضع بالنسبة للبطل المتحمس لحب وطنه إلى أن أصبح يستتجد ويعلن بأن أمريكا أمة منكوبة، وفي حالة خطر بالفعل هذه هي المقولة التي يصل إليها الفيلم دون صخب أو مباشرة حيث يقدم لنا المخرج بول هاجيس **Bolhajes**² إدانة للحكومة الأمريكية، وشجب لقرارها بقيامها بالحرب على العراق كما يعلن المخرج هاجيس بأنه فكر في تصوير الفيلم بعد مشاهدته للقطات فيديو على الإنترنت حول الحرب على العراق تلك التي تصور عددا من القتلى في صفوف المدنيين في مشاهد تهز المشاعر لذا فقد قرر الغوص في هذا الموضوع بسبب غياب التقارير حول هذه الحرب في وسائل الإعلام الرسمية، ويؤكد المخرج خلافا للحرب في فيتنام، فإن وسائل الإعلام تطبق تعليمات الحكومة في عدم نشر صور القتلى في هذه الحرب الجديدة، وهو بذلك قد قدم رسالة من خلال فيلمه تطرح أسئلة صعبة ليتمكن الجميع من مناقشتها

1- حموش عبد الرزاق : العلاقات العربية الأمريكية في وسائل الإعلام خلال مرحلة الثورات العربية الأخيرة مجلة العلوم الإنسانية، والاجتماعية، الجزائر، العدد 11، سنة 2013م، ص 720.

2- بول هاجيس : سيناريست، ومنتج، ومخرج كندي، سافر إلى إنجلترا لرغبته في أن يصبح مصورا لعروض الأزياء، لكنه بعد ذلك عاد إلى كندا مجدداً حتى ينمي دراسته العلمية في التصوير، ومنها انتقل إلى "لوس أنجلوس" عام 1975 حيث بدأ عمله في مجال كتابة وصناعة الترفيه.

من أشهر أفلامه : "The Next Three Days" عام 2010 م، و "Third Person" عام 2013م، من مواليد 1953م.

وإيجاد أجوبة لها.¹ يتبين لنا من خلال هذا الفيلم قوة الإعلام الأمريكي البرغماتي الثقافي في التأثير والسيطرة على عقول، وتفكير الناس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

3- فيلم حرب تشارلي ويلسون هل هي حقيقية؟ سنة 2007م:

إن الفيلم مع نهاية آخر مشاهده يؤكد بأن حرب تحرير أفغانستان من الإحتلال السوفيتي في أواخر الثمانينات من القرن الماضي جاء تحقيقا لرغبة شخصية لعضو الكونغرس الأمريكي تشارلي ويلسون بالارتباط بثرية حسناء من تكساس وإن كافة الأسلحة، والعتاد الحربي الذي أرسلته أمريكا إلى المجاهدين الأفغان ومكنهم من الانتصار على العدو المحتل، كان وراءه جهود، ودوافع شخصية هذا ما يقوله الفيلم بل ويؤكد بالحقائق، والأحداث، ويقول بأن حكاية الفيلم حقيقية ومأخوذة من كتاب للسيناتور الأمريكي تشارلي ويلسون **Charlie Wilson** "1933 - 2010م"، إذن ليس هناك شكوك في حقيقة الموضوع إنها الحقيقة.²

نلتمس من خلال هذا الطرح الذي قدمناه أن الولايات المتحدة الأمريكية تستخدم سلاح السينما كقوى ناعمة لتحقيق أهدافها، وسياستها، ومصالحها البرغماتية المادية في زعزعة أمن وإستقرار دول المنطقة خاصة مصر.

من زاوية أخرى فإن ثقافة الفلسفة البرغماتية الأمريكية تطرح نفسها كنموذج وحيد يجب أن تخضع له جميع الثقافات الأخرى، هذا لايعني أنها تخلو من عدة سلبيات ومخاطر فماهي سلبيات التجليات الثقافية للفلسفة البرغماتية الأمريكية؟.

سلبيات التجليات الثقافية للفلسفة البرغماتية الأمريكية:

تهدف الفلسفة البرغماتية الأمريكية في بعدها الثقافي إلى الإختراق الثقافي حيث السيطرة على الإدراك، والهيمنة الثقافية الأمريكية، وهنا يؤكد مايك "فذرستون" إن التمدد والتدخل الثقافي العالمي يؤدي إلى نشأة كيان عالي يعرف بأنه "نطاق من

1- حسن حداد : تعال إلى حيث النكهة رؤى نقدية في السينما، ص 13.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

التفاعل، والتبادل الثقافي" فهو عملية تقوم فيها سلسلة من التدفقات الثقافية لإفراز تجانس ثقافي وفوضى ثقافية في آن واحد حيث ردود أفعال داعمة داعمة للقوميات وإفراز ثقافات عابرة للقوميات، وفي هذا تتشكل ثقافة تتجه إلى ما وراء الحدود القومية، والتي أطلق عليها فذرستون ثقافة الثالثة.¹

وهنا نجد أنفسنا أمام تكوين ثقافي مغرب وهو ما يعايشه المجتمع العربي الآن بصفة خاصة حيث يشكل بدوره خليطاً ومزيجاً غريباً من هنا، وهناك يقرب بين إيديولوجيات مستوردة تجمع بين المحافظة والراديكالية.²

ونتيجة لذلك يصبح الإنسان العربي المعاصر منفصلاً عن ذاته مغترباً في ثقافته لا يعرف كيف يواجه التحديات الثقافية للفلسفة البرغماتية الأمريكية فيعيش عالماً من الوهم ونسقا من الخيال يصنعه لنفسه، إما هرباً من واقعه أو عجزاً عن الفكاهة منه.

وفي نفس السياق فإن احتلال العقل أخطر من الغزو العسكري، وعلامة على ذلك أن الغزو العسكري يستمد قوته من آليات الإخضاع الخارجي من خلال البث الفضائي في التلفزيون، والإنترنت، والسينما، ولو أخذنا النموذج الأمريكي في صناعة السينما وهو النموذج الأقوى، والأكثر انتشاراً، والمتغلغل في المجتمع العربي نجد أنه يفرض نموذجاً كنسخة منه، أو ليجعلنا عبيداً وهذا هو الأصح هذا جانب

1- شريف محمد عوض: صناعة الثقافة في عصر العولمة، وأثرها في تغيير ملامح الهوية الثقافية، مجلة هرمس القاهرة، المجلد الثاني، العدد الأول، سنة 2013م، ص 105، 106.

2- الراديكالية : مصطلح "راديكالي"، أو "جذري" من الكلمة اليونانية Radix والتي تعني الجذر إلى أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وتعزف هذه الكلمة مؤيدي الإصلاح الديمقراطي، وهذا ما أصبح بعد ذلك الحركة الراديكالية البرلمانية.

راديكالية هي الميل إلى إخضاع الأنظمة القائمة لتساؤلات نقدية مع الاستعداد للدعوة إلى إصلاح إذا ما ثبت عدم استنادها إلى مبادئ محددة تبرر وجودها، ومن ثم فإن العديد من علماء السياسة يعتبرون الراديكالية موقف أكثر منها عقيدة سياسية، والراديكاليون في ميدان السياسة هي ضد المحافظة ذلك أنها تؤمن بأن التحرك السياسي يمكنه أن يصلح من أوضاع الأفراد في المجتمع. انظر خالد أحمد الشنتوت : الراديكالية، بتاريخ 1 أبريل 2016م.

www.dr-khaled.net/index.php?option

آخر من تفرعات مجتمع المعلومات، والوسائط الذي بات واضحا بعد عشرات أفلام الكوارث والكائنات الغريبة، وانطلاقا من فكرة الخوف من المجهول التي سيطرت على الإنسان منذ الأزل، وما للسينما من قدرة على التأثير في الجميع باعتبارها لغة عالمية.¹

يعبر الغزو الثقافي عن آليته، أساسا بالانتميط الثقافي الذي يعني إنتاج نمط ثقافي واحد وفق إرادة المنتج المهيمن، ويكون ذلك عبر وسائل السيطرة المختلفة كال تقنية والمعلوماتية، ولا سيما استعمال الأقمار الصناعية، ولا شك أن أخطر مظاهر الانتميط وسيلة، هو شيوع ثقافة الصورة بديلا عن ثقافة الكلمة، وانتشار الكتاب الإلكتروني "أقراص CD-ROM" بديلا عن الكتاب المطبوع مما يضع جمهور الأطفال والناشئة أمام الإستبداد التقني الأمريكي الذي يقلل الخيال والإبداع والإختراع بعد ذلك ناهيك عن سرقة الوقت، والأفكار ووضع هذا الجمهور في حالة عتالة ذهنية وثقافية أمام منتجات الانتميط الثقافي وقوتها الهائلة.²

وبصفة عامة يتضح مما سبق كيف أصبحت الثقافة الأمريكية سلعة متداولة ووسيلة إعلانية متحركة في تسويق ما ينتج، وكيف تحول الاستهلاك إلى ثقافة مفروضة، ومصطنعة من أجل الترويج، والتشويق، والتسويق في كل أنحاء دول العالم.

بعد أن سلطنا الضوء على تجليات الفلسفة البرغماتية في المجال الثقافي نصل إلى الحديث عن تجلياتها الإعلامية بعد أن أضحت النشاط الإعلامي الأمريكي حقيقة واضحة في نطاق العلاقات الدولية مع المتغيرات التي طرأت على خصائص المجتمع المعاصر ممثلة بطغيان الأبعاد الإيديولوجية، وانهايار الحواجز بين المجتمعات

1- محمد جاسم ولي: مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثاني عشر "ثقافة الصور" الصورة وتأثيراتها النفسية والتربوية، والاجتماعية، والسياسية، مركز البحوث التربوية والنفسية، بغداد، سنة 2007م، ص 6، 7.

2- عبد الله أبو هيف : الغزو الثقافي، والمفاهيم المتصلة به، مجلة النبأ، العدد 63، سنة 2001م.

<http://annabaa.org/nba63/qazo.htm>

السياسية، وسيطرة النواحي الجماهيرية على السلوك السياسي ثم التطور الهائل، والسريع في تكنولوجيا أدوات الإتصال، والإعلام، وهذا التطور قاد إلى أن يكون الإتصال الإعلامي إحدى أدوات تنفيذ السياسة الخارجية لأية دولة حيث تحول العالم بفضل هذه الوسائل الاعلامية، ونتيجة لهذا الضخ الاعلامي المليء بالأفكار والإيدولوجيات إلى تغير في منظومة القيم، والنظم والأفكار في مختلف أصقاع العالم، وهذا هو هدف الإعلام الأمريكي البرغماتي الموجه، والذي كان عامل حاسم في كثير من المواقف والصراعات الدينية والسياسية والاقتصادية، وحتى العسكرية فما هي التجليات الاعلامية للفلسفة البرغماتية الأمريكية؟.

رابعاً: التجليات الإعلامية للفلسفة البرغماتية الأمريكية :

الهيمنة قديمة قدم الإنسان ذاته، ولكن السيطرة العالمية الراهنة للبرغماتية الأمريكية تتميز بسرعة ظهورها، وبحجمها العالمي، وبطريقة ممارستها فخلال قرن واحد حولت أميركا نفسها، وحولت أيضاً بواسطة ديناميات دولية، من دولة معزولة نسبياً في نصف الكرة الغربي إلى قوة تصل سلطتها إلى أرجاء العالم كلها، وتمسك بهذه الأرجاء على نحو لم يسبق له مثيل قط¹، فالإعلام الأمريكي هو إعلام الدولة التي تحكم العالم، وسياستها، وقراراتها الدولية، من ناحية النقل الإعلامي والموارد المالية هي الأهم في العالم يتم استخدامها بشكل واضح وكبير لخدمة أغراض السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية.² لكن السؤال المطروح هنا: ماهي مظاهر الهيمنة الأمريكية البرغماتية، والآليات السامحة لها في فرض سيطرتها على العالم؟.

1- الثورة المعلوماتية:

تعتبر الثورة المعلوماتية، والاتصالية عالية الفعالية، والرشادة والسرعة، ورغم ما جاد به روبرت دارنتوا **Robert Darnetwa** المؤرخ من جامعة "برينستون"، أن كل عصر هو عصر معلومات بطريقته الخاصة به.³

إلا أن الكثير من المفارقات صبغت مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وفي هذا الصدد يقر جوزيف صموئيل ناي الابن **Joseph Samuel Nye** " ⁴ بأنه رغم أن رجل

1- زبغنيو بريجنسكي : رقعة الشطرنج الكبرى السيطرة الأمريكية، وما يترتب عليها جيواستراتيجياً، ص 7

2- سلافة فاروق الزغبى : فلسفة الإعلام الأمريكي، والشبكات الفضائية، مجلة الباحث الإعلامي، الأردن، العدد 8 سنة 2010م، ص 128.

3- جوزيف ناي : مفارقة القوة الأمريكية، تعريب محمد توفيق البجيرمي، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، سنة 2003م، ص 92 .

4 - جوزيف صموئيل ناي، الابن: أمريكي، وأستاذ العلوم السياسية، وعميد سابق لمدرسة جون كينيدي الحكومية في جامعة هارفارد، أسس بالإشتراك مع روبرت كوهين، مركز الدراسات الليبرالية الجديدة في العلاقات الدولية العالمية، وتولى عدة مناصب رسمية منها مساعد وزير الدفاع للشؤون الأمنية الدولية في حكومة بل كلينتون، ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني، اشتهر، وعرف بابتكاره مصطلحي القوة الناعمة والقوة الذكية وشكلت مؤلفاته مصدراً رئيسياً لتطوير السياسة الخارجية الأمريكية في عهد باراك أوباما، من مواليد 1937م.

الدولة، والفيلسوف الإنجليزي "Francis Bacon" أكد أن المعلومات قوة، فإنه لم يكن يستطيع أن يتصور ثورة المعلومات في عصرنا الحالي قبيل بداية الألفية الثالثة إن ثورة المعلومات الأمريكية الحالية تقوم على قفزات التقدم التكنولوجي في أجهزة الكمبيوتر، والاتصالات التي أدت بدورها إلى إنخفاضات كبيرة، ومفاجئة في كلفة معالجة المعلومات، ونقلها ذلك أن ثمن الكمبيوتر الجديد راح يتناقص بمقدار الخمس (1/5) في كل سنة منذ سنة 1954م وارتفعت تكنولوجيات المعلومات من 7% على نحو 50% من الإستثمار الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن القوة الكمبيوترية راحت تتضاعف مرة كل ثمانية عشر شهرا طيلة السنوات الثلاثين الماضية بل أسرع من ذلك في الآونة الأخيرة.¹

يعني هذا أن النمو السريع لكمية المعلومات الأمريكية البرغماتية أدى إلى التقدم التكنولوجي الهائل في تاريخ البشرية هذا من جهة، ومن جهة أخرى أعطى القدرة الفائقة للحركة المعلوماتية على المستوى العالمي، والدولي.

وهي الآن تكلف أقل من 1% من كلفتها في أوائل سبعينيات القرن العشرين ويؤكد جوزيف ناي الإبن أن حركة المرور على الأنترنت قد ظلت تتضاعف مرة كل مئة يوم على مدى السنوات الماضية، وفي سنة 1993م كان هناك 50 موقعا على الشبكة العنكبوتية في العالم، ومع حلول نهاية عقد التسعينات زاد العدد على 5 ملايين بإعتبارها أحد المكونات الفعالة على الساحة العالمية.²

فالثورة المعلوماتية البرغماتية الأمريكية إذن تتضمن ذلك الانفجار المعرفي الضخم و تضاعف الإنتاج الفكري، والعملية في مختلف المجالات الأخرى، وظهور الحاجة إلى تحقيق أقصى سيطرة، ومصلحة ممكنة على حجم المعلومات المتدفقة.

1- جوزيف ناي : مفارقة القوة الأمريكية، ص 93.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إن استخدام الحاسوب أيضا هو مؤشر للمعرفة المتزايدة في فن الحرب، وكما يذهب آلن د كامبن Alan de Camben المدير الأسبق لقسم التخطيط والقيادة العسكرية في وزارة الدفاع الأمريكية عام 1991م: "إن الحروب إذا ما قدر لها أن تقع فإن للحاسوب دورا أكبر من تأثير الأسلحة التقليدية في تقرير سير المعارك وتحديد نتائجها، ويضيف آلن د كامبن قائلا: "إن كل مظاهر الحرب ستكون مبرمجة ومعتمدة على نظم المعلومات حيث تدير الحواسيب بشكل تلقائي مهام توجيه العمليات العسكرية في متابعة الأهداف وتدميرها.¹ يتبين لنا أن استخدام التقنيات الحديثة للحاسوب يزيد من فن الحروب في العالم، وهذا ما يجعلنا نقول نحن في عصر التقدم، والإنفجار المعلوماتي والمعرفي.

وفي ضوء حقائق العصر المعلوماتي الأمريكي فإن حروب المستقبل ستعتمد على الذكاء الصناعي في ميدان التسليح العسكري، ومنظومات الأسلحة التقليدية لتجعل من ميدان المعركة حقيقة صورية، وقوة حاسوبية تحدد الأهداف، وطريقة معالجتها نظم عرض العمليات، ونتائجها، والتقنيات المتعلقة بها ويقول في هذا الصدد جيري هاريسون Jerry Harrison المدير السابق لمختبرات البحوث والإنماء في الجيش الأمريكي: "أن البرمجة وحدها ستسمح بتحديد النتائج الباهرة في حروب المستقبل.² نفهم من قول جيري أن البرمجة تعتبر إحدى المهارات المطلوبة في سوق العمل الأمريكي، وهذا ما يجعلها تحقق نتائج خيالية فيما يخص استراتيجية قيادة الحروب وهذا بالفعل مايقع اليوم من خلال تقنياتها الحديثة، والعصرية في غزوها واحتلالها للعديد من الدول العالم.

لقد تطورت وسائل الإعلام الأمريكية البرغماتية في الآونة الأخيرة بشكل مذهل جعلها تتحول من مجرد ناقل للأخبار، والمعلومات إلى مؤثر قوى، ومتحكم في

1- عبد القادر محمد فهمي : الفكر السياسي، والإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية، دراسة في الأفكار والعقائد، ووسائل البناء الإمبراطوري، ص 151.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

توجيه الرأي العام فوظيفة الإعلام الأمريكي لم تعد تقتصر على المتابعة، والنقل و التحليل بل تعددت ذلك إلى المساهمة الفعالة في إتخاذ القرارات المصيرية على المستوى الدولي، برز هذا الأمر بوضوح كبير خلال مرحلة ما سمي بـ: الثورات العربية الأخيرة التي انطلقت من تونس، ثم انتقلت إلى مصر، وليبيا، ثم اليمن وسوريا والبحرين، وهي في طريقها لتعم أقطارا أخرى في المنطقة.¹

ولوحظ في كل ذلك الدور البارز الذي لعبته وسائل الإعلام البرغماتية الأمريكية بمختلف أشكالها في متابعة هذه العلاقات، وتغطيتها بل وفي التأثير عليها أيضا حيث سجلت الساحة الإعلامية ظهور القنوات الغربية الناطقة بالعربية على رأسها قناة "الحرّة"²، ورايو "سو" "الممولين من وزارة الخارجية الأمريكية، وتبعتها قنوات "البي بي سي العربية"³ البريطانية، و "فرانس" 24 الفرنسية⁴، ثم الروسية والألمانية، وغيرها إضافة للصحف، ومواقع التواصل الاجتماعي من أبرزها "اليوتوب والتويتر" كنوع من الإعلام الجديد على الأنترنت الذي تحول فيه المواطن العادي إلى صحفي، يصور مقاطع الفيديو بهاتفه النقال، ويرسلها لتصبح متداولة على

1- حموش عبد الرزاق : العلاقات العربية الأمريكية في وسائل الإعلام خلال مرحلة الثورات العربية الأخيرة ص 65.

2- قناة الحرّة : مقرها في الولايات المتحدة الأمريكية، وتمولها الحكومة الأمريكية بدأت البث في 14 فبراير 2004 م وتصل إلى 22 بلد عبر الشرق الأوسط ومثل كل أشكال، وصور الدبلوماسية العامة الأمريكية، فإن القناة ممنوعة من البث في داخل الولايات المتحدة نفسها بسبب قانون سميث موندت 1948 م بشأن بث الدعاية الدبلوماسية.

3- البي بي سي العربية : هي شبكة لنقل الأخبار والمعلومات إلى العالم العربي عبر عدة وسائط ، تشمل الإنترنت، والراديو، والتلفزيون، والهواتف المحمولة، وتعد بي بي سي العربية أكبر وأقدم وأشهر خدمة اعلامية تطلقها بي بي سي بلغة غير الإنجليزية، وقد واصلت تطورها منذ انطلاقتها في 3 يناير/ كانون الثاني عام 1938 م حتى صارت في مقدمة المحطات الإعلامية المعلوماتية في العالم، وكانت تعرف منذ نشأتها وحتى التسعينات بـ "القسم العربي ب هيئة الإذاعة البريطانية.

4 - فرانس" 24 الفرنسية : هي قناة إخبارية تهدف إلى تقديم، ونشر الأخبار من وجهة نظر غربية، وفرنسية بدأت بثها يوم 6 ديسمبر 2006م، تستهدف القناة دول ما وراء البحار وتشبه قناة بي بي سي ورلد نيوز، و دي دبليوتي في، و إن إتش كي وورلد، وروسيا اليوم، تبثت فرانس 24 برامجها عبر خدمة الكابل، و الأقمار الصناعية في عام 2010 م، بدأت القناة في بث برامجها الإعلامية عبر برنامج أي فون الحكومة الفرنسية تمويل قناة فرانس 24 بميزانية سنوية 80 مليون يورو تقريبًا ، تبث القناة من قرب باريس، وتقوم ببث الأخبار الدولية عبر ثلاث نسخ فرنسية، وعربية، وإنجليزية.

نطاق واسع في شبكات المعلومات وسائل الإعلام العالمية، وذلك دون مراعاة مصداقية المصدر أو أخلاقيات تداول المعلومات.¹

يتبين لنا هنا أن وسائل الإعلام الأمريكية كان لها تأثير قوي في ظهور القنوات الغربية الناطقة باللغة العربية، والتي مازالت مستمرة إلى يومنا هذا، فالتطورات التقنية الإعلامية غيرت الحياة حول العالم.

ويذهب عدد كبير من المحللين إلى التأكيد بأن كل تلك الوسائل كان لها دور ما في الثورات العربية الأخيرة، وهو ما يدل على أن وسائل الإعلام استخدمت بشكل ما للتهييج، وتوجيه الرأي العام في العالم العربي فتصريحات الرئيس أوباما **Obama** 1961م، أو وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون **Hillary Clinton** 1947م أو الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي **Nicolas Sarkozy** 1955م أو حتى أحد الرؤساء والملوك العرب ومن يدور في هذا الفلك تحولت إلى مؤشرات حقيقية لحدث أو تغيير ما سيحدث قريباً، تتبعها حملات إعلامية واسعة على كل القنوات التي يبدو جلياً أنها أصبحت تعمل وفق أجندة وخطة مدروسة، لتنفيذ سياسة معينة لصالح تلك الجهات على الساحة العربية والدولية.²

وهو ما يجعلنا نقول أن الولايات المتحدة الأمريكية تستخدم الإعلام البرغماتي سلاحاً لتحديد ممارسة الحريات العامة، والتعبير في دول أخرى، حيث تعتبر حرية الإعلام حقاً لازماً وأسلوباً مشجعاً على المشاركة الشعبية، هذه الدولة هي ذاتها التي تستخدم إعلامها، وشبكات الإعلام لخدمة مآربها السياسية في العالم، والتي يجب أن تتفق مع سياساتها الداخلية أولاً، أو النقيض تماماً، وحرمان وسائل إعلامها من حرية متابعة أمورها السياسية تماماً حيث كان حدث في تغطية نتائج الحرب المدمر في كل من أفغانستان، والعراق لمبدأ المصلحة وذلك توظيفاً لمبدأ المصلحة البرغماتية

1- حموش عبد الرزاق : العلاقات العربية الأمريكية في وسائل الإعلام خلال مرحلة الثورات العربية الأخيرة ص 65.

2- المرجع نفسه، ص 65، 66.

الأمريكية، لكن هذا المبدأ يغيب عند الحديث عن الإعلام في الدول الأخرى.¹ ولنتساءل هنا: ماهو المبدأ الذي تنطلق منه فلسفة الغزو البرغماتي الإعلامي الأمريكي؟.

تنطلق فلسفة الغزو البرغماتي الإعلامي الأمريكي من مبدأ التدفق الحر للإعلام والمعلومات ومن جانب واحد، حيث تستمد مبادئها الفكرية من المدرسة الأمريكية والرأسمالية التي تؤمن بأن النظام الحر لتدفق المعلومات هو الصيغة المثلى لسريان المعلومات من دون قيود، وبقدر مايقوم به الإعلام من خدمات كبرى من تطوير الحياة، وتنمية المجتمعات بالإتجاه الذي يؤدي إلى زيادة المعارف، وتعبئة الرأي العام فيما يتعلق بالقضايا التي تتحكم في تطوير الإنسان فإنه بسبب إرتباطه بالمصالح، وبقدرات الدول الكبرى تكنولوجيا وتقنيا فقد أضحى أداة خطيرة للهيمنة والغزو الثقافي² لإختراق العقل البشري، وهذا مايفسر استخدام الدول المتقدمة للإعلام الدولي بقصد الغزو والسيطرة.³

ووفقا لهذه النظرية فإن الفلسفة البرغماتية التي طرحتها الولايات المتحدة الأمريكية منذ القرن التاسع عشر، وحتى الآن بما يتعلق بمبدأ التدفق الحر للمعلومات يستند إلى تسويغات عديدة منها⁴:

1- سلافة فاروق الزغيبي : فلسفة الإعلام الأمريكي والشبكات الفضائية، ص128 .

2- الغزو الفكري أو الثقافي : فهو أن تقوم مجموعة سياسية، أو اقتصادية بالهجوم على الأسس، والمقومات الثقافية لأمة من الأمم، بقصد تحقيق مآربها، وفي سياق هذا الغزو تعمد المجموعة الغازية إلى أن تحلّ في ذلك البلد وبالقسر، معتقدات وثقافة جديدة مكان الثقافة والمعتقدات الوطنية لتلك الأمة، وتزرع قيم أخلاقية وعادات وتقاليد غير عادات وقيم ذلك المجتمع، وهو نوع من الاستضعاف والاستتباع هبّ على بلداننا الإسلامية في عصرنا هذا أكثر من أي وقت مضى مع انتشار رياح العولمة، وتطور أجهزة الاتصال ووسائله. انظرعبد الهادي الطهمازي : الغزو الثقافي، وأهم أدواته، بتاريخ الثلاثاء 11 كانون الأول 2018م.

<https://afaq.tv/articles/view/details?id=2337>

3- عماد خالد رحمة : فلسفة الغزو الإعلامي الغرب أمريكي، مجلة الأسبوع الأدبي بدمشق، العدد 1299، سنة 2012م، ص 4.

4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

إن إبقاء مبدأ "التدفق الحر للمعلومات والإعلام"¹ كوسيلة من وسائل الغزو الفكري المنظم للشعوب، هو بمثابة تكريس لنظام سياسي دولي، وهو نظام الاحتكارات الرأسمالية، وتقاليدها بقصد إيجاد أنماط الاستعمار الإعلامي، والهيمنة الفكرية لتحقيق هدفين:

1- الهدف السياسي وهو دعم القيم الأمريكية البرغماتية في أنحاء المجتمع الدولي لتحقيق السيطرة، واحتلال عقول البشر، وتعميق الموديل الأمريكي في الحياة.

2- الهدف الاقتصادي لتحقيق مكاسب للاحتكارات الإعلامية الكبرى، وزيادة الأرباح وتوسيع شبكة الأعمال الأمريكية لأهداف اقتصادية وسياسية معا.²

إن السياسة المنظمة في تصدير القيم، والثقافات في إطار التعامل مع الآخرين لا يمكن أن يكتب لها نجاح من دون توظيف أدوات منظمة، وهنا يشكل احتكار وسائل الإتصال امتيازاً لمن يستطيع امتلاكه، وهذا ما تمكنت منه الولايات المتحدة على إمتداد تاريخها إذ أن نجاحها في تعميم نمط حياتها، ونشر ثقافتها قام وما يزال على الإستخدام المنظم لوسائل الإتصال، ورغم أن هذه الوسائل كانت من اختصاص الأنظمة الفاشية، والماركسية فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تتردد عن إستخدامها ومما ساعدها في ذلك خبرتها التاريخية الطويلة في مجال الإعلام فمنذ وقت مبكر وضع الأمريكيون يدهم على وسائل الإعلام الأساسية هذه الوسائل مكونة من وكالات

1- لقد بدأ التدفق الإعلامي الحر للأخبار بهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية كقوة مؤثرة في تشكيل النظام الدولي، واستطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تدعم نظامها الحر لتدفق المعلومات من خلال المعاهدات والاتفاقيات مع دول العالم، وذلك بسبب احتكار الغرب الرأسمالي لوسائل الاتصال الرئيسية، والتكنولوجيا المتقدمة أكثر من المشرق، ودول العالم الثالث بكثير، ويؤكد الباحث الأمريكي Schiller أنّ التركيز على مبدأ التدفق الحر للمعلومات يمثل جزءاً من المخطط الأمريكي الرأسمالي للحصول على شرعية دولية لهذا المبدأ وأنّ الرأسمالية استغلت تزايد الحديث عن الحرية كمطلب أساسي للمجتمع الدولي، لتدعم مبادئها على المستوى الدولي هذه الحرية تشمل حرية رأس المال، وكذلك حرية تدفق المعلومات، وقد عقدت اليونسكو عدة مؤتمرات وأصدرت تقارير من أجل أن يكون الإعلام أكثر عدلاً بين دول العالم، إلا أنّ هيمنة الغرب باتت واضحة حتى على تقارير اليونسكو، وتقارير اللجان الدولية. انظر فاروق خالد : التدفق الإخباري الدولي، والإعلام الدولي

بتاريخ 2014-01-12م. <https://www.balagh.com/mosoa/article>

2- عماد خالد رحمة : فلسفة الغزو الإعلامي الغرب أمريكي، ص 4.

الصحافة، والإعلان، والسما، والتلفزة، والاتصالات الهاتفية.¹ يعني هذا أن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت بفضل ثقافتها البرغماتية أن تستغل وسائل الإعلام أفضل استغلال من خلال التدفق الهائل للمعلومات، وفي شتى مجالات المعرفة المختلفة.

ولقد سمحت لهم الهيمنة على هذه الوسائل الأساسية بأن يمارسوا منذ مرحلة ما بين الحربين الأولى، والثانية نفوذا مؤثرا في العناصر التي تشكل الفضاء الروحي للشعوب الآداب اللغة التربية هذه العناصر الثلاثة تمثل مجموع كل النشاطات التي يتميز بها شعب عن شعوب أخرى على صعيد وكالات الأنباء والوكالات الصحفية هناك²:

أ- وكالات الأنباء الأمريكية والعالمية :

إن وكالات الأنباء لديها القدرة على أن تصل الى بقع جغرافية متعددة، ويمكن لووكالة أنباء واحدة أن تغطي كل العالم بمجرد استخدام مرسلات ذات طاقة محددة وبتوجيه البث نحو منطقة جغرافية محددة فهذه الإمكانية في الأجهزة المستخدمة والخاصة بوكالات الأنباء تعطيها ميزه أقوى، وأكثر في التأثير من باقي وسائل الإعلام لأن الطاقة، والمرسلة التي تحتاجها الكلمة المطبوعة للبث هي أقل بكثير من الطاقة التي تحتاجها الكلمة الصحفية، أو التي يحتاجها الصوت، أو الصورة في النقل إلى أماكن بعيدة، ولذلك فمن السهل جدا استخدام مرسلات بطاقة محددة من أجل إيصال الكلمة المطبوعة إلى أي مكان في العالم.³ وبشكل عام يمكن إيجاز أبرز الوكالات العالمية

1- عبد القادر محمد فهمي : الفكر السياسي، والإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية ، دراسة في الأفكار والعقائد، ووسائل البناء الأمبراطوري، ص141.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- صالح شاكر وتوت : أهمية وكالات الأنباء كمصدر من مصادر الاعلام، مجلة أهل البيت، العراق، العدد الأول، سنة 2004م، ص324.

والتي تشكل مصدرا رئيسيا لأخبار ومعلومات دول العالم اليوم، وخاصة دول العالم الثالث وهي:

ب- وكالة اسيو شيتد برس AP : ترجع أصولها إلى عام 1848م حيث قدمت نفسها لأوروبا كمؤسسة غير عادية باسم الجمعية التعاونية لأصحاب الصحف واكتسبت بالتدرج صفتها العمومية لكل البلاد، والتي إحتكرت فيما بعد العمل الاعلامي والإخباري في كل الولايات المتحدة الأمريكية.¹

ومنذ عام 1931م فتحت هذه الوكالة فروعها في لندن وباريس وبرلين ثم تغلغت في السوق الأوروبية للأخبار، وتقوم حاليا بتقديم خدماتها إلى أكثر من "15" ألف جريدة وإلى محطات الإذاعة، والتلفزيون في أكثر من (115) بلد أو لديها أكثر من (1100) مكتب داخل الولايات المتحدة، و(70) مكتب خارج الولايات المتحدة وعدد موظفيها يزيد على (5) آلاف موظف، ومعدل حجم الاخبار المغطاة أربع وعشرين ساعة يعادل (20) مليون كلمة.²

ج- وكالة اليوناييتد برس انترناشنال UP1 : وجدت هذه الوكالة عام 1958م نتيجة دمج وكالة اليوناييتد برس (UP) مع وكالة الأنباء الدولية (NS) وتعد هذه الوكالة من أهم الوكالات في أمريكا ولها (100) مكتب داخل الولايات المتحدة و(528) مكتب في دول العالم ومعدل البث اليومي لها (14) مليون كلمة، وتبث أخبارها بخمسين لغة، وتعمل لمدة (24) ساعة يوميا.³

د- وكالة رويترز: تعد وكالة رويترز البريطانية من أكبر الوكالات العالمية في مجال الأخبار، والمعلومات أسسها يوليوس رويتر عام (1851م) في لندن وتشرف على إدارتها أربع جمعيات للاتحادات الصحفية، وهي جمعيتا مالكي الصحف البريطانية

1- عبد القادر محمد فهمي : الفكر السياسي، والإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية، دراسة في الأفكار والعقائد، ووسائل البناء الأمبراطوري، ص141.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- صالح شاكور وتوت : أهمية وكالات الأنباء كمصدر من مصادر، ص 326.

ووكالة الصحافة المتحدة الأسترالية، ووكالة الصحافة النيوزيلندية ووكالة برس اسوشيشن وتزود وكالة رويترز بالمواد الصحفية أكثر من (120) بلدا وتشنر أخبارها بشكل منتظم ولديها (4100) مشترك وعدد مكاتبها (163) مكتب موزعه في العديد من دول العالم فيما يبلغ بثها اليومي (5) ملايين كلمة.¹

هـ - وكالة الصحافة الفرنسية AFP : تعد هذه الوكالة امتداد لوكالة هافاس التي تأسست عام 1835م، واستمرت حتى الحرب العالمية الثانية، وقد عاودت نشاطها بعد أن تحررت فرنسا من سيطرة ألمانيا عام 1944م، وكانت مدعومة من قبل الحكومة الفرنسية إلا أنها إستقلت كليا عام 1957م، وأخذ يشرف على إدارتها مجلس يمثل الصحف، والإذاعة، والشعب إضافة إلى ممثل عن الوكالة نفسها وتقدم هذه الوكالة خدماتها بخمس لغات هي الفرنسية، والألمانية، والعربية والإسبانية والإنجليزية، ولها 12.500 ألف مشترك، و 187 مكتب منتشرة في العديد من دول العالم، ويبلغ معدل بثها اليومي (2) مليوني كلمة.²

تعد وكالات الأنباء الأربع وهي الاسيوشيتد برس واليونايتد برس -الأمريكتان- ورويترز -البريطانية- ووكالة الصحافة الفرنسية مصدرا رئيسيا للأنباء للكثير من وسائل الإعلام في دول العالم، وخاصة العالم الثالث بحيث أصبحت هذه الوكالات تحتكر معظم الأنباء الدولية، وتهيمن على النشاط الاعلامي لكثير من الدول، وهو ما يدل على أن الحاجة تزداد إلى هذه الوكالات العالمية بسبب سعه إمكانياتها وقدراتها، وصاحبة الفضل في الحصول على الخبر من مصادره الأصلية.³

1- صالح شاكر وتوت : أهمية وكالات الأنباء كمصدر من مصادر، ص 326.

2- المرجع نفسه، ص 327.

3- المرجع نفسه ، ص 326 .

ما نلاحظه أن الأخبار لها الدور الفعال في التوجيه، والإثارة في القنوات الفضائية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية لأنها الموجهة للسوق، وللإعلام الذي يوافق مصالحها البرغماتية، كونها تتحكم في أوسع شبكات الإعلام العالمية.

ومن مظاهر الفلسفة البرغماتية الأمريكية إعلامياً نجد أيضاً التقرير الذي يحمل عنوان **The State of the News Media** "حالة وسائل الإعلام الإخبارية 2006 م" أن الأمريكيين لسنوات طويلة، وخاصة منذ بداية الثمانينات من القرن الماضي كانوا ينظرون لوسائل الإعلام بأنها صارت أقل عناية وإهتماماً بالحقائق.¹

فاستنتج الباحث، والمفكر الأمريكي الشهير في علم استطلاعات² الرأي **أندرو كوهت Andrew Cohen 1969م** من قراءته للواقع الأمريكي أن الأمريكيين يعتقدون بأن المؤسسات الإعلامية تعمل غالباً من أجل مصالحها البرغماتية الخاصة الاقتصادية، وأن الصحفيين لا يدفعون إلى الأمام إلا الأجندة الخاصة بهم رغم تكرار تأكيدهم بأنهم يدافعون عن المصلحة البرغماتية العامة، ويسجل التقرير أن الغالبية العظمى من الأمريكيين يدعمون فكرة أن تكون الصحافة القاضي العادل.³

2- التليفزيونات الأمريكية المحلية:

يذكر التقرير أن شبكات التلفزيون المحلية عملية مربحة للغاية، وهذه هي غاية الفلسفة البرغماتية الفكرة الناجحة، خاصة أنها تعد المصدر الرئيسي لحالة الطقس

1- توماس جورجيسيان : حالة الإعلام الأمريكي، مستقبل الراديو، والتليفزيون، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن، بتاريخ 8-4-2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)

2- نشأت استطلاعات الرأي العام في الدول الديمقراطية كتوأم للانتخابات الرئاسية والبرلمانية، ويذكر أن الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة كانت هي سبب ميلاد استطلاعات الرأي العام، وإنها كانت الدافع وراء الاهتمام المتزايد والتطوير المستمر لطرق قياس الرأي العام، وأيضاً لتحسين دقة التنبؤ بنتائج الانتخابات. انظر: فتحي حسين عامر: علم استطلاعات الرأي العام على الأنترنت، العربي للنشر والتوزيع مصر، سنة 2013م، ص153.

3- توماس جورجيسيان : حالة الإعلام الأمريكي، مستقبل الراديو، والتليفزيون، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن، بتاريخ 8-4-2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)

والمرور، وأخبار الجريمة الخاصة بالمنطقة كما أنها تتعرض لحياة المجتمع المحلي وتعكس بشكل كبير اهتمامات وهموم الناس العاديين.¹

نستنتج هنا أن تكنولوجيا الإتصال التليفزيونية ليست كغيرها من أنواع التكنولوجيا الأخرى فهي تتحدى نفسها، وتسابق الزمن، والمكان، وتتميز عن غيرها باعتبارها عملية متكاملة أكثر من كونها مجرد أدوات، فإستخدامها يقود إلى إعادة إبتكارها من جديد وهو ما يؤدي إلى مزيد من الإستخدام، وهكذا فهي دائرة لا تنتهي.

ويشير أيضا نفتالي بينيت Naftali Bennett² في سنة 1999م، إلى أن إعتداد وسائل الإعلام الأمريكية على المسؤولين الحكوميين كمصدر رئيسي للغالبية العظمى من الأخبار اليومية يرجع إلى إحتكار المسؤولين للأخبار مما يؤدي إلى الحد من التنوع في سوق الأفكار.³

إن تنوع المصادر الإخبارية الاعلامية يشير إلى تمثيل متنوع، ومختلف للنخب السياسية، والاجتماعية، وكذلك تمثيل لمختلف فئات الجمهور، هذا فضلا عن المسؤولين الحكوميين، وغير الحكوميين.

3- الراديو - الإذاعة :

تعد الإذاعة تقليدا راسخا في الحياة الأمريكية لم يتم الإستغناء عنه مهما تطورت أو تنوعت الوسائط الإعلامية، وحسب ما جاء في التقرير فإن عدد المستمعين للراديو أو الإذاعة بشكلها التقليدي يصل إلى 24,7 مليونا وعلى الرغم من توافد أو تواجد

1- توماس جورجيسيان : حالة الإعلام الأمريكي، مستقبل الراديو، والتليفزيون، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن، بتاريخ 4-8-2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)

2- نفتالي بينيت : هو رجل أعمال، وسياسي إسرائيلي، وقد شغل وزيرا في ثلاث وزارات في آن واحد إذ كان وزير الاقتصاد ووزير الخدمات الدينية ووزير القدس والشتات، وهو رئيس قائمة البيت اليهودي في الكنيست التاسعة عشرة، وشغل مناصب عسكرية كثيرة في وحدة النخبة، وعمل في مجال التكنولوجيا المتطورة، من مواليد 25 مارس 1972 م.

3 -W. Lance Bennett : **Toward a Theory of Press-State Relations in The United States** , Journal of Communication, vol 40, No 2, Spring 1990, p103,125

وسائل جديدة وعصرية مثل X M و Sirius الراديو الساتلايت أو Podcasts، إلا أن الوسيلة التقليدية (الراديو) ما زالت هي المسيطرة على أذان الأمريكيين، وتكشف دراسة أجراها مركز بيو للأبحاث أن 22 % من الأمريكيين يرون أن الإذاعة هي مصدرهم الرئيسي للتعرف على الأخبار الأمريكية والعالمية.¹

هذا يعني أنها تعمل على حدوث سرعة بالغة في نقل المعلومات وتشابكها، ونقلها بسرعة فائقة حاملة معها العديد من الأفكار، والثقافات من مجتمع إلى آخر بغرض تحقيق هدف معين ألا وهو المصلحة المالية.

إن ظهور تقنيات الاتصال الحديثة التي جعلت التغطية الإعلامية للشؤون الدولية شاملة، وفورية واضحة صانع القرار وجها لوجه أمام تحديات فعلية تتطلب ردود سريعة، و قد لوحظت أهمية هذا العامل بشكل واسع في الأوساط السياسية الإعلامية، على سواء فقد اشتكى وزير الخارجية الأمريكية الأسبق جورج شولتز **George Shultz 1920م** من أن البث التلفزيوني الحي يجعل كل شخص جزءا من الحدث لأن كل شخص يرى الشيء نفسه في الوقت نفسه إن ظهور تقنيات الإتصال الحديثة، وتأثيرها الملحوظ في صنع السياسة الخارجية أصبح يعرف بين الأكاديميين والنقاد باسم ظاهرة السي إن إن.²

في المقابل نجد أن البرامج الإخبارية الصباحية تجذب نحو 14 مليونا فقط من المشاهدين، أما البرنامج الإخباري الأسبوعي الشهير "Minutes 60" الذي يذاع مساء كل يوم أحد مازال يتصدر رأس قائمة البرامج التلفزيونية الأكثر شعبية بمتوسط عدد

1- توماس جورجيسيان : حالة الإعلام الأمريكي مستقبل الراديو، والتلفزيون، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن، بتاريخ 4-8-2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)

2 - Haward Wilson : **Education foreigners in policy and international relations in Robert Blum cultural and affairs foreign relations**, N,J, Prentica, Hall, I.n.c1973 , p.82-90

مشاهدين يصل إلى 15 مليون مشاهد.¹ ألا يتجلى لنا هنا الجانب الرغماتي النفغي في السياسة الإعلامية للحياة الأمريكية.

فالأخبار ليست مجرد سلسلة من الوقائع، ولكنها منتج ثقافي ووصف للعالم الذي تقدمه ويتم إنتاجها من خلال إطار تفسيري محدد، كما أن الأخبار تعد منتجا ينبثق من خلال ممارسات مهنية في المؤسسات الإعلامية التي تعمل وفق ضغوط ومحددات الوقت، والموارد المتاحة، وكل هذه العوامل تشكل الممارسات المهنية التي تقدم للصحفيين السبيل لرؤية العالم، والكيفية التي يتم من خلالها صياغة التقارير الصحفية عن الأحداث المختلفة.²

4- شبكات الكابل الإخبارية :

في هذا العالم المستجد نسبيا، والمتجدد دائما في الإعلام الأمريكي، والذي يشمل **CNN**، و**FOX**، و**MSNBC** يرى التقرير وجود مؤشرات وسيلة إعلامية أخذت في النضوج، وأن شبكات كابل الإخبارية تنمو ماليا، وبالتالي تستثمر أموالها في جمع الأخبار وأعداد البرامج الإخبارية، إلا أن مضمون هذه الشبكات مازال موضع تساؤل وأيضا انتقاد لأنه غالبا ما يحوي آراء أكثر من احتوائه على أخبار، وأن ما يقوله مراسلوها في الغالب آراء ومشاعر.³

1- توماس جورجيسيان: حالة الإعلام الأمريكي مستقبل الراديو، والتلفزيون، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن، بتاريخ 4-8-2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)

2 - Jan E. Servaes : "European Press Coverage of the Grenada Crisis", Journal of Communication, 41, 4, Autumn 1991, p. 30

3- توماس جورجيسيان : حالة الإعلام الأمريكي مستقبل الراديو، والتلفزيون، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن بتاريخ 4-8-2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)

وفي رصده لشبكة فوكس نيوز¹ الشهيرة يشير التقرير أن مشاهد فوكس يمضي وقتاً أطول مع هذه الشبكة خاصة في وقت الأزمات السياسية، وأن أغلب المشاهدين لفوكس كما هو معروف من المحافظين وأن إيراداتها في السنة الماضية وصلت إلى 614 مليوناً من الدولارات، في وقت بلغ فيه نصيب ال سي ان ان 878 مليوناً إلا أن القفزات التي تقوم بها فوكس لا يمكن تجاهلها خصوصاً أنها تقوم الآن بتوسيع إمكانياتها التحريرية من أجل تحسين أدائها الإخباري.² وهنا يتضح طغيان الجانب الإعلامي البرغماتي لأن الأخبار هدفها ترويج السلع، والمعلومات فهي العمود الفقري للعملية الإعلامية.

5- المجالات الإخبارية:

شهد عالم المجالات في العام الماضي عاماً من المتاعب المعتادة خصوصاً في انخفاض توزيع كبريات المجالات "تايم"، و"نيوزويك"، و"يو اس نيوز"، وذلك لأن المجلة كوسيلة إعلام ومصدر أخبار لم تعد تحتل إلا مركزاً متأخراً في قائمة اهتمامات القارئ الأمريكي، كما أن المجالات الشهيرة تراجعت قدرتها على جذب الإعلانات إذ حدث انخفاض بنسبة تتراوح ما بين 10-12% في مواردها الإعلانية وهذا كان حال كلا من مجلتي "تايم"، و"نيوزويك" على وجه التحديد، ولعل الظاهرة الملفتة للانتباه

1- قناة فوكس نيوز: هي قناة إعلامية إخبارية أمريكية تُعرض في الولايات المتحدة، والعالم من خلال الباقات الأساسية لشبكات التليفزيون الكبلي الأرضية، القناة تعتبر واحدة من أهم القنوات التي تعبّر عن وجهة نظر المحافظين في الولايات المتحدة وواحدة من أهم القنوات التي تنحاز في تغطيتها الإخبارية لإسرائيل في المطلق، وتعادي القضية الفلسطينية والعرب والمسلمين بشكل علني، ساندت بقوة كبيرة المرشح الجمهوري للانتخابات الأمريكية 2008 م جون ماكين، ووقفت ضد الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما الذي كان خصماً لماكين بشدة واتهمته بالإرهاب، والآراء الاشتراكية وقلة الخبرة والممارسة، والكثير من الإشاعات والانتهاكات ومنها أنه ذو أصل عربي وانتماءاته إسلامية، جدير بالذكر أنها كانت ثاني قناة تعلن عن فوز باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة بعد قناة سي إن إن . انظر روبرت ماردوخ : فوكس نيوز، موسوعة الجزيرة، بتاريخ 22-10-

2015م. <https://www.aljazeera.net/encyclopedia>

2- توماس جورجيسيان : حالة الإعلام الأمريكي مستقبل الراديو، والتلفزيون، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن، بتاريخ 8-4-2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)

هي مجلة "The Week" التي ولدت عام 2001م، وتقدم فقط على امتداد صفحاتها المختصر من كل ما في عالم المطبوعات بطريقة ذكية وسلسلة وسهلة القراءة.¹

إذ نجحت هذه المجلة الأسبوعية خلال العام الماضي في زيادة توزيعها بنسبة 38% ليصل إلى 367 ألفاً، وأيضاً في زيادة صفحات الإعلانات بها بنسبة 9% وإيراداتها الإعلانية بنسبة 63%.² يتبين لنا من خلال هذا الطرح أن الأخبار تسعى إلى جذب إنتباه الجمهور إلى المعلومات والأخبار التي تحتويها، وتتعلق بجميع مناحي حياتهم.

وهو ما يجعلنا نقول أن أضخم إعلام دعائي اليوم، وبلانازع هو الإعلامي الدعائي الأمريكي لأسباب تتعلق بالإقتصاد الكبير الذي تتمتع به الولايات المتحدة الأمريكية وللميزانيات الضخمة التي ترصد للوسائل الإعلام، وللدور السياسي الذي تضطلع به واشنطن بوصف الأخيرة مركزاً للقرارات السياسية الدولية في الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، ومقرهما في نيويورك، والدليل على حجم هذه المكانة هو الميزانية المالية السنوية لمؤسسة إعلامية واحدة هي صحيفة واشنطن بوست التي تبلغ على ما ينيف عن ملياري دولار سنوياً في وقت هي أكثر من ميزانيات جميع وسائل الإعلام العربية مجتمعة التي تبلغ مليار، و400 مليون دولار للعام 2002م.³

5- صحافة أون لاين – الإلكترونية وأهمية عام 2017م :

هذه الظاهرة الإعلامية مازالت تتشكل، وتتجدد، وتبديل كل يوم، كما أن الصحف الكبرى استغلت مواقعها الإلكترونية لتزيد من حيويتها، وتأثيرها ودورها الإعلامي وأيضاً مواردها المالية، والسؤال الذي يقف أمامه خبراء الإعلام هو ماذا يعني عام 2017 م للصحافة الإلكترونية؟، ومبرر الاهتمام بسيط للغاية لأن صحافة الأون لاين أو الصحافة الإلكترونية أصبحت آلة اقتصادية مالية ضخمة، إذ أن موارد

1- توماس جورجيسيان : حالة الإعلام الأمريكي مستقبل الراديو، والتلفزيون ، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن، بتاريخ 8- 4- 2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)

2- المرجع نفسه.

3- سلافة فاروق الزغبى : فلسفة الاعلام الأمريكي، والشبكات الفضائية، ص139.

الصحف من مواقعها الإلكترونية تنامت بنسبة 33 % سنوياً وإذا استمرت هذه النسبة كما هي سنوياً فإنه من المتوقع أن تتساوى مواردها من "أون لاين" مع مواردها من النسخة المطبوعة عام 2017م إذا حافظت الصحف على نموها السنوي بنسبة 3%.¹

أصبحت وسائل الاعلام الأمريكية البرغماتية إحدى عناصر القوة، وأصبح من البديهي القول أن من يملك وسائل الإعلام في هذا الزمن يملك زمام تفكير الشعوب وتوجهاتهم حيث تحول العالم بفضل هذه الوسائل الإعلامية، ونتيجة لهذا الضخ الإعلامي المليء بالأفكار، والإيدولوجيات إلى تغير في منظومة القيم والأفكار في مختلف أصقاع العالم، وهذا هو هدف الإعلام الموجه، والذي كان عامل حسم في كثير من المواقف والصراعات الدينية، والسياسية، والاقتصادية، وحتى العسكرية.²

نستخلص مما سبق أن أي وسيلة معلوماتية إخبارية تحرص على الالتزام بالمعايير الواجب توفرها في الخبر، وإلى جانب إلزامها بالقيم الإخبارية التي تساهم في بنية الخبر الذي من شأنه أن يحقق أعلى معدلات متابعة من الجمهور المتلقى لهذه الأخبار الإعلامية العالمية، حينما يجد الوسيلة تحرص على أن يكون الخبر ملتزماً بكل المعايير والقيم التي تعمل على لها بناء الثقة، والمصادقية بين الوسيلة الإخبارية والجمهور المتابع.

إن مظاهر التبعية كما يعتقد محمود أمين العالم³ لاتزال الطابع البارز في الحياة العربية سواء كانت تبعيته للمفاهيم، والقيم التي تنتسب إلى واقع الخبرة الإبداعية الغربية، فالكم الهائل من طوفان المعلومات والإعلام التي دخلت المنطقة العربية ضمن مخطط مبرمج، شكل جبهة عريضة من المعارف، والأفكار، لإختراق العقل العربي، وإشاعة الأنماط الثقافية المستوردة، وذلك ضمن عمليات دعائية نفسية

1- توماس جورجيسيان : حالة الإعلام الأمريكي مستقبل الراديو، والتلفزيون، والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن بتاريخ -4-8-2006م. [http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm).

2- رعد حميد توفيق صالح البياتي : أثر البعد الديني في الإعلام الأمريكي العولمي الجديد، مجلة المستنصرية للدراسات العربية، والدولية، العراق، العدد 37، سنة 2012 م، ص 108.

3- محمود أمين العالم : مفكر يساري، وأحد أقطاب حركة اليسار في مصر، من مواليد 1922-2009م.

استهدفت غسل العقل العربي، وإعادة تشكيل الذاكرة العربية من جديد، وإيجاد الإنسان العربي النمطي.¹

ويمكن تحديد بعض مظاهر الغزو الفلسفي البرغماتي الإعلامي الدولي للوطن العربي:

أولاً: التدفق الإخباري الدولي: وهو التدفق الذي تمارسه وكالات الأنباء العالمية في عملية نقل المعلومات دولياً للمنطقة العربية، حيث تسيطر هذه الوكالات على حوالي 80% من الأخبار التي يتم توزيعها دولياً.

ثانياً: البرامج والأفلام المستوردة: تزداد مناطق الافتراق في الوطن العربي إذا ما حاولنا تقصي الكم الهائل، والطوفان الكبير للبرامج، والأفلام الأمريكية والغربية لتشكل مناطق حيوية وخطرة على الأمن القومي العربي بشكل خاص.²

فالمنطقة العربية مازالت تعتمد اعتماداً رئيساً على ظاهرة استيراد البرامج التلفزيونية والأفلام السينمائية الغربية بشكل عام، والأمريكية بشكل خاص، فقد ظهر في تحليل أجرته اليونيسكو³ لمواد برامج التلفزيون أن نصف البرامج في الأقل مستورد لمصلحة الأقطار العربية وإن 70% من هذه البرامج منتج في الولايات المتحدة الأمريكية.⁴

1- عماد خالد رحمة: فلسفة الغزو الإعلامي الغرب أمريكي، ص 4.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- اليونسكو هي منظمة الأمم المتحدة للتربية، والعلم، والثقافة، وهي وكالة متخصصة تابعة للأمم المتحدة مقرها مدينة باريس تأسست في عام 1945م، وأصبحت تابعة للأمم المتحدة في عام 1946م، ولها 195 عضواً، و8 أعضاء عمل اليونسكو على تهيئة الظروف الملائمة للحوار بين الحضارات، والثقافات والشعوب على أساس احترام القيم والمبادئ المشتركة، لتحقيق الرؤى العالمية للتنمية المستدامة، والتي تشمل احترام حقوق الإنسان، والاحترام المتبادل، والتخفيف من حدة الفقر، انظرايمان بطمة: تعريف منظمة اليونسكو بتاريخ 3يناير2019م. <https://mawdoo3.com>

4 - عماد خالد رحمة: فلسفة الغزو الإعلامي الغرب أمريكي، ص 4.

ويؤكد الباحث الأمريكي هربرت شيللر¹ Herbert Schiller أن التركيز على مبدأ التدفق الحر للمعلومات يمثل جزء من المخطط الأمريكي الرأسمالي للحصول على شرعية دولية لهذا المبدأ.²

ولابد من الإشارة هنا إلى ظاهرة دور السينما العربية، وما تعرضه من كم هائل وشاسع من الأفلام الأمريكية والغربية، واختراق الأفلام الصهيونية لهذه الدور الثقافية التي تتنوع بأشكالها، وتختلف باختلاف المكان، والزمان، وتنوع الأفلام وجمهورها وأهدافها ما يجعل عملية التفريق بينها، وبين الأفلام الأخرى صعبة وهي تخترق السوق السينمائي العربي.³ المقصود هنا أن هناك اختراقات واضحة لدور السينما ومحطات التلفاز العربية لمجموعة كبيرة من الأفلام التي تقف وراء إنتاجها حلقات صهيونية استطاعت أن تخترق هوليوود، والشركات السينمائية، والتلفازية.

ثالثاً: الإعلان الدولي: من الثابت أن وكالات الإعلان الأمريكية بالذات تشكل هي الأخرى منطقة أخرى للاختراق الحاد، فالأسواق العالمية هي حكر لعدد من وكالات الإعلان الأمريكية التي يبلغ عددها (22) وكالة إعلان كبرى من مجموع (25) وكالة دولية، وهناك (71) دولة من (91) دولة نامية تعتمد إذاعتها المرئية والمسموعة على الإعلانات كما أن الوكالات الأمريكية تسيطر على ثلثي الشركات الإعلامية في (46) دولة نامية.⁴

يمكننا القول هنا أن الإعلام في المنطقة العربية ازداد حجمه، وتطور بشكل سريع حيث أصبح تأثيره واضحاً في الحياة العربية، وخاصة الإعلانات الأمريكية والغربية

1- هربرت شيللر : عالم اجتماع ومؤلف وناقد وباحث، حصل على الدكتوراه من جامعة نيويورك عام 1960م وأصدر الكثير، والعديد من الكتب التي كان له أثر كبير على تغيير الكثير من العقول، من مواليد 1919-2000م.

2- خالد فاروق : الإعلام الدولي والعولمة الجديدة، دار أسامة للنشر، والتوزيع، عمان، الأردن، سنة 2008م، ص 145.

3- عماد خالد رحمة : فلسفة الغزو الإعلامي الغرب أمريكي، ص 4.

4- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

التي حاولت اختراق العقل والتفكير العربي، وإيجاد نماذج ثقافية استهلاكية هدفها إيجاد منافذ لها في السوق العربي لتكريس نموذجها الإستعماري.

إن ظاهرة الهيمنة الاتصالية ترتبط بشكل مباشر بأنشطة الحكومة الأمريكية على الصعيد الدولي بالتعاون مع الشركات متعددة الجنسيات، وإن الظروف الخاصة التي سمحت للحكومة الأمريكية بالدخول بحرية إلى عقول الناس، أينما كانوا في العالم ترجع إلى هذا الحضور الصناعي، والاتصالي المتمكن للشركات الأمريكية على الصعيد الدولي، وهو الحضور الذي يتزايد يوميا من خلال بناء محكم من الدعم المشترك للمصلحة الذاتية.¹ والسؤال الذي نطرحه الآن: ماهي مخاطر السيطرة الإعلامية البرغماتية الأمريكية؟.

تعقيب :

يقول روبرت ماكنزي Robert McKen أحد منتقدي النظام الاعلامي الأمريكي: "إن هذا النظام لم يتشكل نتيجة لإرادة شعبية، ولكن هناك مصالح قوية قامت بتشكيله ويعتبر الإحتكار والتركيز أهم سمات النظام الإعلامي الأمريكي، حيث يسيطر عليه عدد قليل من الشركات العملاقة التي تسيطر على مجمل صناعة الإعلام، والثقافة وتلعب تلك المصالح في الترويج لما يعوف بالصورة النمطية."² معنى هذا أن مصالح هذه الشركات ورؤيتها السياسية، هما اللتان تتحكمان في المادة الإعلامية وفي الترويج للصورة النمطية.

إن وسائل الإعلام في الغرب خصوصا الولايات المتحدة مكلفة من قبل المستفيدين من تجارة السلاح بإكتشاف العدو تلو العدو لنمط الحياة الغربي أو كما قال "ألبرت أينشتاين Albert Einstein" عام 1950م: "إن أصحاب السلطة الحقيقية في

1- ياس خضير البياتي: الغزو الإعلامي، و"تعليب الأفكار الفاسدة" للوطن العربي، بتاريخ 21-04-2012م.
www.alkhaleej.ae/alkhaleej/page/178dba4b-b232-4286-a2ca-15e106287b9f

2- عزت إبراهيم : ورقة بحثية حول دور وسائل الإعلام في تشكيل صورة أمريكا، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة 2009م، ص5.

الولايات المتحدة لانية لديهم أن ينهوا الحرب أبدا فإن انقضى خطر الإتحاد السوفيتي والشيوعية فهناك اليابان أو الإسلام.¹ يتجلى لنا هنا التضليل الإعلامي في وسائل الإعلام الأمريكية.

ويبدو أن المواطن الأمريكي لديه حاجة نفسية ملحة إلى أن تطالعه جهة عليا على هوية عدوه الجديد، انطلاقا من اقتناعه العميق بأنه لا بد من وجود عدو يتربص به وذلك بسبب إحساسه بأن العالم الجائع، والضعيف خارج بلاده يحسده على مستوى معيشته وقوة بلاده.²

لقد بلغ التضليل الإعلامي أعلى درجاته في الولايات المتحدة بوصفه أداة للهيمنة ومن ألوان التضليل الإعلامي الأمريكي نجد:

نشرت مجلة التايم الأمريكية تقريرا في عام 2009م يتحدث عن المواجهات الصعبة التي يخوضها الجيش الأمريكي ضد من أسماهم "المدافعين عن زراعة المخدرات في أفغانستان، والذين يسمون بالطالبان" وعند قراءة هذا التقرير يتضح إصابة دوائر التضليل الأمريكي بالعجز، إلى درجة أن "حرفة" التضليل التي اشتهروا بها قد تدنت إلى حد السذاجة فبعد حرب طاحنة بين طالبان، والولايات المتحدة الأمريكية والضربات الموجعة التي تلقتها أمريكا في أفغانستان وباكستان وبعد اعتراف ما يسمى بقوات التحالف على أن حركة طالبان تسيطر فعليا على ثلاثة أرباع أفغانستان، ولا تملك قوات الغزو الأمريكي وميليشيات كرازي سوى مناطق محدودة داخل المدن الرئيسية، بل إن الرئيس المنصب من قوات الاحتلال لا يتحرك إلا بحماية خاصة من شركات أمن أمريكية.³

1- حارص صابر : الإعلام العربي والعولمة الإعلامية، والثقافية، والسياسية من الترغيب والتنويم إلى الصارع والتدمير، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، سنة 2008م، ص98.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- جمال سلطان : طالبان وأمريكا، والتضليل الإعلامي، بتاريخ 29-1-2009م.

<http://articles.islamweb.net>

المقصود هنا أن التضليل الإعلامي الأمريكي هو أداة أساسية للهيمنة الثقافية على دول الشعوب الأخرى، وتتم السيطرة عليها من خلال إمتلاك أجهزة المعلومات ووسائل الإعلام العصرية في البث الإعلامي المباشر، والغير المباشر معتمدة في ذلك على العديد من الصحف، والتلفزيون، والإنترنت، والإذاعة، والإعلانات التجارية فالمضامين الإعلامية يتم إختيارها من الإطار المرجعي نفسه ففي حقيقة الأمر كلها دواعي تجارية مبنية على أساس تحقيق الأرباح المادية الباهضة والمصلحة الشخصية النفعية في المقام الأول، وهكذا تصبح وسائل الإعلام الدور الفعال في عملية التضليل.

يقول الدكتور مصطفى المصمودي¹ في كتابه "النظام الإعلامي الجديد": إن الإعلان، والمحلات وبرامج التلفزيون تمثل اليوم أدوات للسيطرة الثقافية، والتنقيف من الخارج حيث ترسل إلى البلدان النامية رسائل تسيء إلى ثقافتها، وتتعارض مع قيمها، وتضرب أهدافها، وجهودها الإنمائية²، وعلى ذلك لنا أن نتساءل ماذا يفعل الإعلام الأمريكي الذي تسيطر عليه الأفكار، والقيم البرغماتية في شعوب العالم وفي شعوب الدول الفقيرة على وجه الخصوص؟ يجب على هذا السؤال عالم الإتصال الأمريكي هربرت شيلر **Herbert Schiller** 1919 - 2000م فيقول: يقوم مديروأجهزة الإعلام في أمريكا بوضع أسس عملية تداول الصور والمعلومات ويشرفون على معالجتها، وتنقيحها، وإحكام السيطرة عليها تلك الصور والمعلومات التي تحدد معتقداتنا ومواقفنا بل وتحدد سلوكنا في النهاية" ويشرح شيلر الدور الذي

1- مصطفى المصمودي: ولد في صفاقس بتونس، درس الإعلام والحقوق، والعلوم الاقتصادية في جامعتي باريس وتونس، وحصل على دكتوراه الدولة في العلوم السياسية من جامعة باريس، شغل عددا كبيرا من المناصب الإدارية، والسياسية، والأكاديمية، كان منها منصب وزير الإعلام، وممثلا لتونس لدى منظمة اليونسكو، وشارك في عمل اللجنة الدولية التي شكلتها منظمة اليونسكو لدراسة نظام الإعلام العالمي ووضعت تقريرا شهيرا بعنوان "عالم واحد وأصوات متعددة"، من مؤلفاته، اقتصاديات الإعلام في تونس، من النظام العالمي الجديد للإعلام والاتصال إلى النظام العربي، من مواليد 1937 - 2013م.

2- محمد إبراهيم مبروك: الإسلام النفعي "الإسلام الذي تريده أمريكا"، والآثار المدمرة لأفكار النفعية على المجتمعات الإسلامية، مركز الحضارة العربية للإعلام، والنشر، والدراسات القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2010م، ص 109.

يفعله هؤلاء فيقول: عندما يعمد مديرو أجهزة الإعلام إلى طرح أفكار، وتوجيهات لا تتطابق مع حقائق الوجود الاجتماعي، فإنهم يتحولون إلى سائسي عقول ذلك أن الأفكار التي تنحو عن عمد لإستحداث معنى زائف، وإلى إنتاج وعي لا يستطيع أن يستوعب إرادته الشروط الفعلية للحياة القائمة، وأن يرفضها سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي ليست في الواقع سوى أفكار مضللة.¹

يمكننا القول هنا أن الإعلام الأمريكي يتمتع بقوة فريدة، وفعالة من نوعها في عملية الإختراق الثقافي السريع لأفراد الشعوب النامية، فهي تتلقى عن طريق القنوات الفضائية، وشبكة الأنترنت، والمنتجات التجارية العالمية مختلف أنواع الصور والأفكار، والقيم، والعادات، والتوجهات الأيديولوجية الثقافية المنبثقة عن المرجعيات والخلفيات الثقافية الغربية الأمريكية، والتي تتسم بصفات منها الغلو في النزعة المادية الاستهلاكية البرغماتية مما يجعل عدد كبير من أفراد الشعوب النامية يتقبل هذه المضامين، والمفاهيم، والقيم الغربية الأمريكية المختلفة تماما عن قيمه وخلفياته مما يؤثر على تطوّر ثقافات تلك الشعوب بدون وعي منها، والمتأمل اليوم فيما يحدث في الدول النامية يكتشف أنها تتقبل جوانب عديدة من الثقافة الغربية خاصة الأمريكية دون البحث عن خلفياتها الثقافية، ونتائجها السلبية.

فالحقيقة التي يمكن إقرارها في نهاية هذا المبحث بأن فلسفة الإعلام البرغماتي الأمريكي الداخلي والخارجي هي انعكاس لمبدأ التفوق الإعلامي الأمريكي، والتي تعكس ظلالها على حياة الأمريكيين، وحياة الأفراد في جميع أنحاء العالم وتوجهاتهم الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية من خلال قوة مركزية أصبحت تتحكم في الشعب الأمريكي، ومصالحه هذا أولا، أما ثانيا فإن وسائل الإعلام البرغماتي الأمريكي تعمل سندا لهذه الفلسفة البرغماتية، وهذا من خلال تحقيق المصالح المشتركة التي تربطها بالإدارة الأمريكية وتحقيق الهيمنة السياسية والعسكرية

1- محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي "الإسلام الذي تريده أمريكا"، والآثار المدمرة لأفكار النفعية على المجتمعات الإسلامية، ص 109.

والاقتصادية، والثقافية، والإعلامية مستخدمة في ذلك أحدث التقنيات المعلوماتية المعاصرة.

ومما سبق نستخلص أن الفلسفة البرغماتية تتجلى في مختلف المستويات من خلال التغيرات التي أحدثتها على الواقع الأمريكي، وأصبحت الفلسفة البرغماتية حقيقة ملموسة، وأثارها متجلية في كل النواحي، فمن الناحية الاقتصادية تسعى الفلسفة البرغماتية تسعى إلى تحقيق إرتقاء الرأسمالية كما تشتهي البرجوازية العالمية وإضفاء البعد الإنساني على حركتها، والعمل على تطوير العلوم، والتقنيات ووسائل الإنتاج ومحاولة التحكم في المنظومة الاقتصادية، والمالية، والإعلامية وهي تعتمد على اقتصاد السوق المبني على الإستثمار الحر، والمنافسة التجارية، فالتوظيف البرغماتي للقيم الأمريكية، وتسويقها للعالم الخارجي جعل منها قيم عالمية، ومحط أنظار المتلقين منذ البدايات التأسيسية الأولى للولايات المتحدة، لكن الواقع يكشف لنا تورط الرأسمالية في عمليات المقامرة، والجريمة المنظمة، والتهرب من الضرائب والمراقبة ونزوعها إلى التهور هذا فضلا عن الصراعات، والتناقضات الاجتماعية المتفاقمة. أما من الناحية السياسية فإنها تجلت بشكل جلي في السياسات العامة للدول، والأفراد على حد سواء فقد اتسقت مع الطروحات الدينية للإباء المؤسسين لاسيما مع التوظيف "السياسي، الديني، العملي" ومع الطروحات السياسية الاقتصادية "الفردية والحرية، والليبرالية" حتى أصبحت هذه الفلسفة أحد تجليات الفكر السياسي والاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية، وتجلت بالفعل في الخطاب الأمريكي الرسمي وغير الرسمي كل ذلك يعكس الكيفية التي وظفت فيها الطبقة السياسية الأمريكية القيم السياسية، والدينية الأمريكية، وطريقة تسويقها من خلال التأكيد على الثوابت الوطنية الداخلية التي لا تقبل التسوية سواء بالنسبة لشكل النظام السياسي أو القيم السياسية، والاجتماعية بشكل عام حتى أصبح مفهوم البرغماتية من المفاهيم الشائعة بشكل كبير في مجال السياسة على المستوى العالمي، وأصبحت أغلب الأنظمة السياسية أنظمة برغماتية نفعية تبحث عن مصالحها، وتحقيق إنجازاتها في الميدان العالمي والإقليمي وعادة ما تعكس تلك الأنظمة ثوابتها الوطنية في سلوكياتها

الخارجية. أما من الناحية الثقافية تتضح من خلال عرض المشهد الثقافي العالمي في هذا العصر فهي تهدف إلى تغيير الواقع تغييرا فكريا، وعمليا بما يتناسب مع التقدم العلمي، والثقافي الذي تشهده الحياة المعاصرة، فالثقافة أصبحت من أهم مصادر القوة في عصر المعلومات حيث أن الثقافة بفضل التطور الرأسمالي القائم على التطور المستمر خارج الحدود أصبحت سلعة نطبق عليها من الأحكام والإجراءات ما ينطبق على سواها، وتتجلى أكثر في الاختراق الثقافي للدول النامية من خلال السيطرة على الإدراك وسلب الوعي، والهيمنة الثقافية، ولعل العالم اليوم يدرك مدى، وأهمية الدور الفعال الذي لعبته وسائل الثقافة البرغماتية في فرض خلفياتها والسيطرة على الشعوب، وتغيير هويتها، وثقافتها بفرض قيم وثقافة مختلفة تماما عن ثقافتها الأصلية بل ومتناقضة معها، فهي تسعى إلى تدمير الذات وتغريبها عن نفسها وعن مجتمعتها وواقعها. أما من الناحية الإعلامية فالإعلام الحديث بكل تقنياته وتطوراته لم يعد مجرد ناقل للأحداث والمعلومات بل فاعلا ومؤثرا، وأداة لصياغة العلاقات الدولية الحديثة الأمر الذي استغل غربيا، وأمريكا بالتحديد في بعث علاقات جديدة مع الشباب، والرأي العام الذي يمكن التأثير عليه بطرق جديدة، وبالتالي إعادة صياغة العلاقات العربية الأمريكية بما يخدم المصالح الاستراتيجية، والأهداف المخطط لها، فالإعلام الأمريكي البرغماتي أصبح إحدى عناصر القوة، وأصبح من البديهي القول أن من يملك وسائل الإعلام في هذا الزمن يملك زمام تفكير الشعوب، وتوجهاتهم حيث تحول العالم بفضل هذه الوسائل الإعلامية، ونتيجة لهذا الضخ الاعلامي المليء بالأفكار، والإيدولوجيات المختلفة إلى تغير في منظومة القيم والأفكار في مختلف أصقاع، والذي كان عامل قوة في كثير من المواقف والصراعات الدينية، والسياسية، والاقتصادية، فالولايات المتحدة الأمريكية سيطرت على معظم آليات، وتقنيات الإعلام، وأخذت وبصورة انتقالية سريعة بإنشاء ما يعرف بالنظام العالمي الجديد، لقد تجلت الفلسفة البرغماتية بأفكارها النفعية في عقلية وسلوك الفرد الأمريكي من خلال الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية والإعلامية، وإذا كانت الفلسفة البرغماتية أكثر الفلسفات نفوذا في الولايات

المتحدة الأمريكية فقد إرتبطت أشد الإرتباط بالنشاط الفلسفي في ثوبه الأمريكي فكان تركيزها على ما هو عملي مباشر واضح الفائدة فهي رافد من روافد التيار المادي في معناه الواسع، لكن السؤال الذي نطرحه الآن: هل الفلسفة البرغماتية منقطعة الصلة بالماضي؟ بمعنى آخر ماهي الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية؟ وهذا ما سوف تتم الإجابة، والتطرق إليه في هذا الفصل.

الباب الثاني

الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية

الفصل الأول

الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية عبر التاريخ

- 1- **المبحث الأول** : الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث اليوناني.
- 2- **المبحث الثاني** : الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الروماني.
- 3- **المبحث الثالث** : الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الإسلامي.
- 4- **المبحث الرابع** : الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الحديث.

الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية عبر التاريخ:

ليست الفلسفة البرغماتية فلسفة أصلية كلياً جديدة في كل أفكارها، ومعتقداتها بل هي امتداد لغيرها من الفلسفات السابقة لها، وتجسيد لبعض النظريات المعاصرة لنشأتها حالها في ذلك حال الكثير من الفلسفات المعاصرة، ويرى جيمس كما رأى من قبله بيرس أنه لا يوجد أي شيء جديد في الطريقة البرغماتية لقد كان سقراط بارعا صادقا فيها "أي البرغماتية" فيقول: "تبدو البرغماتية أنها كانت فلسفة سقراط بصورة فعلية"¹، إلا أن **وليام جيمس** يعود فيقول بيد أن هؤلاء الرواد السابقين للبرغماتية استخدموها بعضا لاكلا، واستعملوها أجزاء وكسرا شظايا لقد كانوا ممهدين فقط إذ لم يقدر للبرغماتية أن تعمم نفسها إلا في زمننا الحاضر.²

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: كيف تنادي البرغماتية بالقطيع مع الماضي وليست هي في حقيقتها إلا إمتداد لأفكار، وفلسفات سابقة لها ألا يعد هذا من التناقض؟.

وعليه يمكن القول أن البرغماتية ليست فلسفة جديدة كلياً بل تمتد جذورها الفكرية إلى أعماق التاريخ الفلسفي القديم فلها جذورها الممتدة إلى الفلسفة اليونانية القديمة بالإضافة إلى تأثرها بالفلسفات، والنظريات الحديثة، ومن هنا يكتسب هذا الباب أهميته في الدراسة فهو بمثابة الكاشف الذي يلقي بالضوء على أهم المفاصل التاريخية للفلسفة البرغماتية، وهل هي فلسفة أصيلة الفكرة، أم أنها امتدادا لمدارس وفلسفات سابقة لها؟، وإذا كانت كذلك فما هي أوجه الاتفاق، والإختلاف بينها وبين تلك الفلسفات، وفي هذا الفصل، وامتداد لهذه المقدمة سوف نتناول الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية.

1- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، دار الكتب، لبنان، سنة 2008م، ص37.

2- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1984م، ص50.

أولاً : الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث اليوناني:

إن أهمية البرغماتية كفلسفة معاصرة حاكمة، أو بالأحرى أهمية آثارها العملية على عالمنا الحديث من ناحية، وعدم الاهتمام عند كثيرين من الباحثين بالتدقيق في بديهية الأصول اليونانية للبرغماتية هو الذي أدى بنا أساساً إلى تقديم هذا المبحث وقد اقتصر اهتمامنا هنا على اقتفاء الأصول التاريخية للبرغماتية في الفكر اليوناني أو بعبارة أخرى تأصيل الفلسفة البرغماتية في الفكر القديم، إن السؤال الذي يستوجب طرحه في هذا الصدد يتعلق أساساً بالآثار البرغماتية في الفكر اليونان أي ما هو الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث اليوناني؟.

لقد أثار بعض نقاد البرغماتية الكثير من الشكوك حول الأصالة الفلسفية لهذه الفلسفة ورأوا فيها - كما سنعرف فيما بعد - مجرد انعكاس لطبيعة المجتمع الأمريكي ونظمه السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية ولذلك جعلوا المصدر الأول لهذا الاتجاه الفلسفي هو طبيعة الحياة الأمريكية ذاتها بصناعاتها الضخمة وتجاريتها الهائلة، إلا أن بعض الباحثين حاولوا إلتماس أصول هذه الفلسفة من تاريخ الفكر الفلسفي القديم والحديث على سواء، كما حاولوا إلتماس جذور هذه الفلسفة ضاربة في نتائج العلم الحديث ونظرياته، وبذلك حاول بعض الباحثين أن يظهر أصالة التفكير البرغماتي بالرجوع به إلى كثير من الفلاسفة بدءاً من فلاسفة اليونان حتى فلاسفة العصر الحديث.¹

أ- المدرسة السفسطائية :

ربما تكون المدرسة السفسطائية هي من أولى المدارس التي تأثرت بها المدرسة البرغماتية، ذلك أن السفسطائية قد سبقت غيرها في المدارس الفلسفية لتوجيه الأنظار نحو دراسة الإنسان، فالخدمة الدائمة التي قدمها السفسطائيون للفلسفة هي أنهم وجهوا الأنظار نحو دراسة الإنسان، ووضع الأساس للتربية النظامية بعد أن كان

1- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 45.

الاتجاه الفلسفي السابق لها يهتم وبشكل واسع في البحث عن أسباب الوجود وعن أصل الموجودات، والبحث عن الحقيقة المطلقة.¹

أما السفسطائية فقد كانت تؤمن بالحقيقة النسبية "قولاً وفعلاً"، وماكانت البرغماتية بعيدة عن ذلك فالإنسان هو موضوعها، والبحث عن فائدة الإنسان هو غايتها محاولة في ذلك إرضاء الإنسان، مختلفة عن السفسطائية في تركه الإنسان في أن يختار ما يرتضيه تركه الحكم على قضاياه وصدق أفكاره للمستقبل.²

لم يكن للفلسفة اليونانية أية اهتمامات بالإنسان، والفرد على وجه الخصوص فمن المعروف أن الفلسفة اليونانية قد ركزت على تفسير الظواهر الطبيعية، وفهم قواها المحركة فاتجهت للدراسة ما وراء الطبيعة، والبحث عن الكليات، والمطلق، وتجاهلت الجزئي، والفردى، والنسبي، واهتمت بالموضوع، وتجاهلت الذات فكان السوفسطائيون أول من أخرج لنا فلسفة ذاتية تؤكد أهمية الذات.³

لقد أكد بروتاغورس "481-411 م" على النزعة الفردية، والذاتية بقوله "أن الإنسان مقياس الأشياء كلها"⁴، وقد أقروا بأن الخبرة الحسية تختلف من فرد إلى آخر لذلك كان لبد لهم من أن يصلوا إلى القول بأن الواقع هو ما يبدو عليه الفرد، هذا يعني أن البرغماتية إنسانية في مزاجها، وتؤيد المبدأ اليوناني القديم القائل "بأن إنسان مقياس كل شيء"⁵، ولكن أي إنسان يقصده بروتاغوراس؟، هل يقصد الإنسان الفرد أم يقصد بالإنسان اسم جنس أي مجموع الناس؟.

1- علي عبد الهادي المرهج: الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2008م، ص34.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- حسن الكلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2004م ص 62.

4 - محمد مهران رشوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 45.

5- عزة محمد مصطفى الجندي: البرجماتية الأدائية عند جون ديوي "عرض ونقد"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر، الإسكندرية، العدد الخامس، سنة 2017م، ص2386.

وتكمن أهمية الإجابة عن هذا التساؤل أنه يساعد في معرفة العلاقة القائمة بين السفسطائية، والفلسفة البرغماتية.

كثير من الفلاسفة الذين عاصروا بروتاغوراس يقولون إنه قصد به الإنسان الفرد وليس الكل، ومن هؤلاء أفلاطون، الذي يؤكد على أن ما يعنيه بروتاغوراس هو الإنسان الفرد، ومع العلم أن أفلاطون لم ينفرد بهذا بل إن ديموقريطس **Démocrite**¹ نفسه وقد كان معاصراً لبروتاغوراس، ومن أبناء بلده فذهب إلى أن بروتاغوراس يقصد الإنسان الفرد.²

يقول أفلاطون **Platon**³ شارحاً عبارة بروتاغوراس في قوله: "يتبين معناها بالجمع بين رأي هرقليطس في التغير المتصل، وقول ديموقريطس: "إن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة فيخرج منها أن الأشياء هي بالنسبة لي على ما تبدو لي وهي بالنسبة إليك على ما تبدو لك، وأنت إنسان، وأنا إنسان فالمقصود بالإنسان هنا الفرد، من حيث هو كذلك لا الماهية النوعية."⁴

ويعتقد ويل ديورانت **Will Durant**⁵ في تفسير أفلاطون لمقولة بروتاغوراس تفسيراً صحيحاً بل إن العبارة معناها الانتقال بالمعرفة من الموضوع إلى الذات ويرى أنه على يد بروتاغوراس بدأت الذاتية في الفلسفة.⁶ وبهذا جعل السفسطائيون الإنسان

1- ديموقريطس : كان أحد الفلاسفة المؤثرين في عصر ما قبل سقراط وكان تلميذاً للفيلسوف ليوكيبوس، الذي صاغ النظرية الذرية للكون ورث من والده أموال طائلة، واستنفذ أمواله في الرحلات التي كان مولعاً بها لدرجة كبيرة، وزار مصر وتعلم الرياضيات من الكهنة المصريين، ثم ذهب إلى بلاد فارس ثم إلى الهند وحاور الفلاسفة العراة فيها ثم عاد إلى أثينا، وقابل سقراط وتعرف عليه، من مواليد 460 - 370 ق.م.

2- هاني محمد رشاد بخيت : البرجماتية الأمريكية المعاصرة أصولها اليونانية، المكتبة المصرية الإسكندرية سنة 2006م، ص 190.

3- أفلاطون : فيلسوف يوناني كلاسيكي، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع أفلاطون الأسس والمبادئ الأولى للفلسفة الغربية والعلوم كان تلميذاً لسقراط، وتأثر بأفكاره كما تأثر بإعدامه الظالم، من مواليد 427 ق.م - 347 ق.م.

4- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة 2009م، ص 59.

5- ويليام جيمس ديورانت : فيلسوف، مؤرخ، وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته كتاب قصة الحضارة، والذي شاركته زوجته أربيل ديورانت في تأليفه، من مواليد 1885-1981م.

6- هاني محمد رشاد بخيت : البرجماتية الأمريكية المعاصرة أصولها اليونانية، ص 190.

الفرد معياراً تحاكم إليه الأخلاق والمعرفة، والخير فصارت أمورا نسبية، بناء على مذهبهم الذاتي النسبي الذي لا يعترف بالحقائق المطلقة، التي تنفصل عن ذات الإنسان وتجربته وإدراكه.¹

فإن تفسير كلمة الإنسان مقياس كما يلاحظ ديورانت معناها أن الحقيقة كلها والخير والجمال أمور نسبية، وأن الفردية بهذا الشكل قد وجدت لها صوتاً ينادي بها وفلسفة تؤيدها، فكل إنسان هو مقياس كل الأشياء جميعاً، وأنه إذا اختلف الناس فليس هناك حقيقة موضوعية يمكن الرجوع إليها لتصويب المصيب، وتخطئة المخطئ.² وهذه الفردية التي نادى بها السفسطائية هي ذاتها التي نادى بها الفلسفة البرغماتية، فما كانت البرغماتية بعيدة عن ذلك، فالإنسان هو موضوعها، والبحث عن فائدة الإنسان هو غايتها، محاولة في ذلك إرضاء الإنسان.³

وبذلك وصلوا إلى مذهب أداتي، ونسبي في الاعتقادات، والأخلاق، والمعرفة وهناك أفكار مشابهة تتردد عند البرغماتيين.⁴ معنى هذا أن بروتاغوراس قد أكد على نسبية الحقيقة فقد يكون شخص ما على حق، والآخر على خطأ، وهذا الاختلاف يعود إلى الأساس الذاتي الخاص بكل فرد، وهذا ما نجده أيضاً في الفلسفة البرغماتية. فلقد كان السفسطائيون أول من أخرجوا لنا فلسفة ذاتية تؤكد أهمية الذات، ولقد سبقوا بها ديكارت، وكانط فيما بعد فلقد وجه السوفسطائيون النظر إلى الإنسان بعد أن كان النظر متجه إلى الأساطير في المرحلة الأولى، وامتجه إلى الطبيعة في المرحلة الثانية.⁵ فلا بد لنا هنا من التأكيد على أسبقية الفلسفة السفسطائية في مجال إقرار الذات المفكرة.

1- هاني محمد رشاد بخيت : البرجماتية الأمريكية المعاصرة أصولها اليونانية، ص 190.

2- المرجع نفسه، ص 191.

3- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 43.

4 - محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 45، 46.

5- علي عبد المعطي محمد : الفكر السياسي الغربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة 1996م ص 27.

وكان السفسطائيون كذلك أول من أكدوا التوجه إلى الفرد الإنساني، إذ يبدو أنه كان للنزعة السفسطائية تأثير واضح على المجتمع اليوناني، وكذلك على الفكر اليوناني فبعد ما كان الفرد مغمورا في ظل نظام جماعي وجه السفسطائيون النظر إلى كيانه الفردي، وإلى ذاته.¹ يتبين لنا هنا أن السفسطائيون حاولوا تهيئة المجتمع اليوناني للنظام الديمقراطي فظهرت الديمقراطية لأول مرة في المجتمع اليوناني، وحالوا تطبيقها على الواقع العملي، وهذه الأفكار نجدها لدى الفلاسفة البرغماتيين أيضا.

فالعاملين التقوا مع السفسطائية في رد القيم إلى الإنسان، ولكنهم خالفوا السفسطائية في جعل الإنسان، وليس الفرد، معيار القيم، فقصدوا بهذه التجربة الإنسانية، وهي تجربة تصطبغ في نهاية المطاف بطابع اجتماعي.²

فمقولة بروتاغوراس ساهمت في تمسك الفرد اليوناني بحريته، وحقه في الاختيار والتفكير، والتعبير إلى أقصى حد، وكان من نتائج هذه القاعدة زحزة المعتقدات الراسخة لدى اليونانيين بخصوص الرق حين تساءل السوفسطائي هل الرق مصدره قانون الطبيعة أم مرجعه اتفاق اصطنعه البشر؟.³

انتهى السوفسطائي لتأكيد أن التركيز على التفاوت وإقراره بين البشر يخفي النية في الحفاظ على الطبقة ويحمل تميزا إلى مجموعة بشرية بالذات هي الطبقة الأسقراطية واستخدام مواقفها الفلسفية كغطاء تبريري لتكريس إنتصارتها، وإمتيازاتها إلى الأبد تبريرا معبرا عن إنسانيتها المنافية لكل روح إنساني، إنمقولة السوفسطائي السالفة الذكر تبين أن الإنسان مقياس كل الأشياء في الواقع إنه مقياس الخير والشر والوجود، والعدم، والحق، والباطل، ومعيار للوجود البشري ومنبعا لجميع القيم أليس هذا التصور

1- حسن الكحلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2004م، ص68.

2- إسماعيل المهدي : معنى الديمقراطية في الإيديولوجية الجديدة، دار النشر، القاهرة، سنة 1989م ص68.

3- مصطفى النشار : مدخل لقراءة الفكر الفلسفي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر، مصر، سنة 1998م ص73.

مضمونه الاعتراف بقدسية الذات البشرية؟ والإقرار بأن الإنسان موضوع جدير بالبحث، والتأمل، وهذا مالفت إليه الإنتباه **سقراط** فيما بعد.¹

نستنتج من هذا الطرح الفلسفي أن السفستائية تعتبر من أول المدارس الفلسفية التي ساعدت البرغماتية في تكوين جزء من طروحاتها الفلسفية، ذات الأبعاد الإنسانية العالمية.

1- سقراط :

من التأثيرات الأخرى للفلسفة القديمة هو تأثير فكر سقراط، وربما يكون أثر سقراط متأثراً من نظريته الأخلاقية فكيف ينظر إلى فضيلة الخير وارتباطها بعلم الإنسان وإلى الشر، واتباطه بجهله؟، ولهذا يمكن أن تكون الأخلاق السقراطية أخلاقاً نفعية كذلك فإن سقراط نادى بأن العمل أساس الفضائل لكل إنسان، وهذه النظرية السقراطية من الممكن أن يكون لها أثر في الفلسفة البرغماتية.²

إلا أن **سقراط Socrate**³ فقد كان أول ضحية من ضحايا الديمقراطية، وأول شهيد دافع عن كرامة الإنسان في دولة المدينة فقد عبر عن إحتقاره للديمقراطية الدهمائية وكان يعيب عليها أنها لا تشترط في الحكام درجة كافية من المعرفة النظرية، والخبرة السياسية العملية، وإنها تجعل أراء كل المواطنين عن الأخلاق والعدالة، والسياسة على قدم المساواة في القيمة دون تمييز بين الجاهل، وغير الجاهل.⁴

يعني هذا أن **سقراط** لا يرى في الديمقراطية الأسلوب الأمثل للحكم لأنها تلغي التمييز والتفرد، وتختار الحكام بالقرعة، فسقراط ينتقد اختيار الحكام بالقرعة لأن ذلك الأسلوب يترك مسألة الكفاءة للصدفة إن السياسة في نظر **سقراط** هي فن وأكثر من فن في

1- حسن الكلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص68.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- سقراط : فيلسوف يوناني كلاسيكي، لم يترك سقراط كتابات، وجل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلامذته عنه، ومن بين ما تبقى لنا من العصور القديمة، تعتبر حوارات "أفلاطون" من أكثر الروايات شمولية وإلماماً بشخصية "سقراط" بحسب وصف شخصية "سقراط" كما ورد في حوارات "أفلاطون"، فقد أصبح "سقراط" مشهوراً كبيراً بإسهاماته وأعماله في مجال علم الأخلاق، من مواليد 470 ق.م - 399 ق.م.

4- حسن الكلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص68.

آن واحد، ولهذا لبد من إعداد الرجل السياسي كما يعد ربان السفينة أو الطبيب من أجل السيطرة على فنه الخاص.¹ وهذامانلتمسه أيضا عند الفلسفة البرغماتية، فالنجاح يشكل وحدة معيارالحقيقة بالنسبة لكل الأمريكيين وطريقتهم نحو الحرية، والفردية والديمقراطية الفعلية والحقيقة المتولدة عن الواقع وبعيدا عن أي شعارات مجردة أيا كان مضمونها ومصدرها.

لقد كان **سقراط** من أنصار النزعة العقلية لتقديسه للعقل، ولتوظيفه في مجال المعرفة ومعرفة الذات الإنسانية، والكشف عن حقيقتها بوجه خاص بينما نجد السوفسطائيون على العكس من ذلك مناصرين للطبيعة البشرية داعين لتلبية نداء الفطرة، والميول الحسية للإنسان.²

ولقد كان أيضا أول من اهتم بالإنسان ككائن عاقل في الفكر اليوناني القديم ووجهه للبحث في التصورات، والماهية، والفضيلة بحثا تأمليا تحليليا عقليا لذلك فهو مؤسس المذهب العقلاني في الفكر اليوناني، والذي نلتمس فيه بواذر نزعة إنسانية برغماتية متأصلة سارعلى نهجها كل من **أفلاطون وأرسطو Aristote**³، واستمر أثارها ساريا في روح معظم تيارات الفلسفة الغربية لأن سقراط وضع منهاجا عقليا ودعا للشك كخطوة أولى للتفكير، وهو لم يستخدم منهج التحليل العقلي لمعرفة الفضيلة وفهم سلوك الإنسان العملي، وتعريف الشجاعة، والعفة، والعدالة، وإنما لكشف مكانم الفطرة الإنسانية.⁴

فقد اهتم بميول الطبيعة الإنسانية التي راعاها بمعيار الفضيلة، والتمييز بين الخير والشر، والسعي لتهذيب سلوك الإنسان، وتربيته الخلقية لهذا اعتبر الدور الأساسي لسقراط اهتمامه بالأخلاق لا بالمعرفة كغاية، فالمعرفة وسيلة لإهتداء الإنسان للطريق

1- حسن الكلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص68.

2- يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر، والتوزيع، القاهرة، سنة 1993م، ص25، 24.

3- أرسطو: فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون، ومعلم الإسكندر الأكبر، وواحد من عظماء المفكرين والفلاسفة تغطي كتاباته مجالات عدة وكثيرة ، منها الفيزياء، والميتافيزيقيا، والشعر والمسرح، والموسيقى، والمنطق واللغويات والسياسة، والحكومة، والأخلاقيات، وعلم الأحياء، وعلم الحيوان، من مواليد 384 ق.م - 322 ق.م.

4 - يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، ص 26، 27.

المستقيم طريق الفضيلة، والخير إنسانية سقراط تتجلى في تركيزه على الإنسان ونيته الصادقة في تربيته، وإعانته على السمو الأخلاقي والمعرفي إن سقراط يريد إصلاح المجتمع الإنساني بإصلاح الإنسان الذي لا يمكن أن يصلح إلا برفع المستوى العقلي والأخلاقي لهذا الكائن.¹

فقد قال بيرس بأن سقراط استحم في هذه المياه "ويقصد بالمياه البرغماتية" فالخير الحقيقي بالنسبة لسقراط اتصال عمل كل فرد لخير المجموع ويتحقق الخير الأقصى وبرغماتية بيرس تناقض كل تحديد لمعنى المدرك في حدود بلوغ غاية محددة ناهيك عن تحقيق غاية شخصية وهي أشد معارضة لفكرة وضع العقل في خدمة أي غرض مالي، ويرى جيمس كما يرى من قبله بيرس سقراط كان بارعا حاذقا فيها "البرغماتية" وبذلك يمكن أن نعد سقراط أحد الجذور المعرفية للبرغماتية حيث تبدو البرغماتية أنها كانت فلسفة سقراط بصورة فعلية كما صرح بيرس.²

فالنزعة الإنسانية عند سقراط ترادف الإعراف بقدسية الذات البشرية، واحترام كرامة وقيمة الإنسان عند البرغماتيين.

لكن ماهي أهم الجوامع المشتركة بين البرغماتية والسفسطائية؟

هنا تبرز الجوامع المشتركة بين البرغماتية والسفسطائية، وهي اهتمام كليهما بالإنسان الفرد، وجعله مصدرا للحكم على الأخلاق والمعرفة ما ترتب عليه أمر آخر وهو القول بنسبية المعرفة، وبأن هناك حقائق متعددة بتعدد الأفراد، بل بتعدد حالات الفرد الواحد وهو جانب آخر من جوانب الاشتراك بينهما.

يقول جون ديوي: "إن عمل الفلسفة قديما، وحديثا هو تناول تنظيم تلك المجموعة من التقاليد التي تشكل العقل الفعلي للإنسان نحو الاتجاهات العلمية، والتطلعات السياسية التي تعد غريبة مع تلك التي تقول بها السلطات، والفلاسفة جزء من حركة

1- يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية ، ص 28.

2- علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 37.

التاريخ، ويشتركون في صنع مستقبله بمعنى آخر، ولكنهم بالتأكيد يعبرون عن ماضيه.¹

معنى هذا أنه إعترف أن الفلسفة صوت الداعي أي الحاجة إليها يعتبر جزءا من القصة فقط فهناك أشخاص مختلفون في أوقات مختلفة لهم مشكلات متشابهة إلى حد ما، وبسبب هذا تستطيع الفلسفة أن تثبت أنها وثيقة الصلة بموضوعها بصرف النظر عن الداعي إليها تماما مثل أية قصيدة أو نتيجة لتجربة علمية وأبعد من ذلك فهناك تساؤلات هامة يمكن أن تثار حول الفلسفة، ولا تتضمن أية إشارة إلى اعتبارات اجتماعية أو شخصية أدت إلى نشأتها.²

ولكن إذا منحناها هذه الصفات فإنها تظل حقيقة إن أحد إيضاحات الفلسفة هو أن نسأل ماهي المشكلات التي تحاول حلها، وتحت أي اعتبارات، وماذا تكون الفلسفة إن لم تكن كما يصفها ديوي تعبيرا عقليا عن الصراع الداخلي الذي يسري في ثقافة العصر؟.³

مهمة الفلسفة هي أن تتعقب خيوط هذا الصراع إلى أصولها لتضع أمام النظر مصادر القوى التي تتجاذب عقول الناس، والحق إذا أمعنت النظر في أي فلسفة شئت فهمها كانت هذه الفلسفة في ظاهرها منعزلة عن تيارات الحياة العملية فستجدها في الحقيقة معبرة عما تتطوي عليه تلك الحياة في عصرها من مبادئ أساسية يسير الناس في نشاطهم العملي على مقتضاها، فهكذا كانت فلسفة أفلاطون، وأرسطو مثلا مدافعا في صميمها عن المثل العليا التي كانت هدف المدينة اليونانية يدافعون عنها إزاء هجمات الشكاك فلولا تلك الهجمات الانقلابية لكان من المحتمل ألا ينشأ سقراط مدافعا عن القيم الأخلاقية الثابتة، أو ألا ينشأ أفلاطون ليقم الحجة على

1- تشارلز موريس : رواد الفلسفة البرجماتية، ص 15.

2- زكي نجيب محمد : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 63.

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وجود عالم فكري ثابت رغم ماقد يبدو للعين من صيرورة، وتغير أو ألا ينشأ أرسطو ليستهدف الغاية نفسها في الأخلاق وغيرها.¹

2- أفلاطون و أرسطو:

لقد شكلت الحضارة اليونانية مصدرا من المصادر التاريخية البارزة في ظهور وانتشار الفلسفة البرغماتية، وقد كان لها أثر أساسي في تطور الممارسة الديمقراطية وانتشارها على مر الأزمان في هذا الصدد يقول **المفكر جورج شفالير George Chvalier** في كتابه **النفس اليونانية**: "إن النور الذي وصلنا من اليونان القديمة ليس هو وحده الذي ينير العصور الحديثة، ولكن كان من الصعب بدونه استيعاب الحضارة، والأفكار الأوروبية وفهمهما."²

انطلاقاً من هنا فإن هذه الحضارة كانت مليئة بالمبادرات الفكرية و العملية، إذ أن المفكرين اليونانيين أسهموا بشكل متميز وفعال في معالجة الفكر السياسي و إثرائه حتى أن القرن الرابع قبل الميلاد كان علامة بارزة على طريق الفكر السياسي.

وبالرغم من أن التقاليد السقراطية الأفلاطونية، والأرسطية كانت سدا منيعا في وجه جميع صور النسبية والذاتية، إلا أن كل من أفلاطون، وأرسطو قد ساهم مساهمة كبيرة في الأسس النظرية للبرغماتية، وعلى سبيل المثال فإن أرسطو بتركيزه على التجربة بوصفها مكونا ضروريا من مكونات المعرفة، وعلى الجزئي المتعين على أنه هو الواقع قد وجه الكثير من المفكرين اللاحقين مرة أخرى إلى الحس المشترك وبصورة بعيدة عن النزعة المتعالية التي ارتبطت بأفلاطون، وأيضا جعل أفلاطون التكهن بالمستقبل مقدما في مجال المعرفة كان موضع تركيز كبير من جانب البرغماتيين المعاصرين.³

1- زكي نجيب محمد : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 63.

2- مارسيل بريلو ، جورج ليسكيه : تاريخ الأفكار السياسية، الأهلية للنشر، والتوزيع، بيروت، سنة 1986م ص 8.

3- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة ، ص 46.

إذا كان الطابع العام لفلسفة ديوي يتسم بالنزعة الآداتية، وترجع دعائم منهجه الآداتي إلى دراسته للطريقة التي يعمل بها الفكر في مواجهته للمشكلات وبحثه عن الحلول الناجحة حيث توصل إلى الحقيقة، والتي مفادها أن التفكير في جوهره هو حل لكل المشكلات.¹

وأن المعرفة ليست سوى أدوات لمواقف أخرى تتطلب الحلول فمن المفيد أن نعرف كيف أقام ديوي منهجه الآداتي على اعتبار أنه جعله المنهج الملائم للتفكير في الحياة المعاصرة، عندما وضع منهجه هذا كان يهدف إلى الرجوع إلى مذهب أرسطو من اتخاذ المنطق أداة للتفكير لا كما فعل كانط وأتباعه من جعلهم المنطق صورياً، وأن في العقل صوراً أولية للتفكير.²

وتحت تأثير المنهج التجريبي رأى ديوي ضرورة وجود منهج جديد فأخذ برأي بيكون في معارضته للمنطق الأرسطي لما اعتبره منطقاً يهدف إلى السيطرة العقلية لا الواقعية، وقد صرح بهذا في كتابه **تجديد في الفلسفة** حينما قال: "ولكن لم يفت بيكون مع ذلك أن يحمل على طريقة أرسطو ذاتها، فقد كانت في أدق أشكالها ترمي إلى الإقناع، ولكن البرهنة، والإقناع كليهما يرميان إلى السيطرة على العقل لا على الطبيعة، فضلاً عن أنهما يفترضان أن أحداً قد حصل من قبل على حقيقة معينة أو اعتقاد خاص وأن المشكلة التي يواجهها لا تخرج عن أن يقنع آخر بهذه الحقيقة أو بذلك الاعتقاد، وفي المقابل يدافع عن منطق بيكون الجديد، ويسميه بالمنطق الاستكشافي، ويختلف عن المنطق الجدلي القديم، فالمنطق الجديد ينمي روح البحث العلمي ويطورها."³

ولذا نجد أفلاطون في الكتاب السادس من الجمهورية حين يتحدث بلسان سقراط يضع أسس النقرد، والتميز، وأسس الفردانية السياسية حينما يفرق بين من هو أزلي

1- زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ، ص 65.

2- أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي، ص 100.

3- جون ديوي : تجديد في الفلسفة، ص 95 .

ومن لا يدرك شيئاً ويفرق بين القلة المتميزة، والكثرة اللا واعية، ويؤسس على هذا ضرورة إسناد الحكم لمن يعرفون لكونهم أقدر على تحمل مسؤولية الكل، فإذا كان الفلاسفة هم أولئك الذي يمكنهم أن يدركوا ماهو أزلّي ثابت على حين أن من يعجزون على ذلك ويضلون طريقهم وسط الكثرة والتغيير فأيهما ينبغي أن نعهد بالإشراف على الدولة؟، وفي بقية الحوار يشدد أفلاطون على ضرورة إسناد الحكم والحراسة للأكفاء لمن يدركون خفايا الأشياء، ولكنه يضع شرطاً آخر هو حصولهم على الخبرة والممارسة إلى جانب العلم ثم يضيف شرط الصدق، ومحبة الحق وعدم قبول الكذب في أي صورة من صوره، ويؤكد أفلاطون على الشجاعة التي يجب أن يتسم بها الفيلسوف الحاكم لأنه إذا كان جباناً لا يستطيع أن يساهم في الفلسفة الحقبة بنصيب.¹

وهذا ما تدعو إليه الفلسفة البرغماتية حيث تعتبر الخبرة أداة للربط بين الفكر والعمل بين التفكير، والنشاط، بين الرمز، والمعنى، بين الفرد والمجتمع، إنها عملية الحياة نفسها، والخبرة هي السبيل إلى بناء الحياة الديمقراطية القائمة على إحترام الفرد كما ربطت البرغماتية الخبرة بالديمقراطية، فالخبرة بفضل تنوعها وتعددتها هي التي تحقق الاهتمام بالفرد، والمساواة بين أعضاء المجتمع، والتعاون بالشكل الذي يسمح باكتشاف المواهب.²

وهكذا نجد التعارض بين الفرد، والجمهور منذ بداية الفلسفة اليونانية إذ يرى سقراط في محاربة الجمهورية لأفلاطون أن الفلاسفة لا يمكن أن يتعلموا، وأن الأفراد لا يمكن أن يتميزوا وسط الجمهور ذلك أن الجمهور يربي الكبار، والصغار الرجال والنساء على أكمل وجه ينسجم مع الطبيعة التي يود أن يراهم عليها فعندما يجتمع عدد كبير من أفراد الجمهور معا في مجلس عام، وهناك يجلسون معربين بالصراخ على إستحسانهم، وإستهجانهم لأي شيء يقال أو يفعل وهم في كلتا الحالتين مبالغون فيصيحون ويصفقون، ويتضاعف وقع الإستحسان والإستهجان، فكيف نتوقع أن

1- حسن الكلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص68.

2- إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرجماتي في فن الباوهاوس، ص10، 15.

تكون الحالة الذهنية للشباب؟ وأي تعليم خاص يستطيع أن يضيف عليه القوة الذي تمكنه من مقاومة ذلك السيل الجارف ألن يكون حكمه على ما هو صواب وخطأ مما ثلا لحكمهم؟ ألن يفعل مايفعلون.¹

هذا هو التأثير الذي يمارسه الجمهور على الفرد ويضيف سقراط أنه في وسط الجمهور لايمكن ظهور الفلاسفة، ولايمكن للجمهور أن يحب الفلسفة ولا الفلاسفة لأن هؤلاء سيتميزون عنه فمن المحال أن يغدو الجمهور فيلسوفا، وعلى ذلك فمن الضروري أن ينتقد الجمهور الفلاسفة، ومن الضروري أيضا أن ينتقدهم أولئك الأفراد الذين يندمجون بالجمهور ويحرصون على تملقه.² نلاحظ هذا التصور عن العلاقة بين الفرد، والجمهور سيتكرر عند الفلاسفة البرغماتيين.

ويؤسس أفلاطون الفردية المستبدة كما سيفعل هوبز من بعده ففي الجمهورية يجري حوارضخم بين سقراط الناطق بإسم أفلاطون، وبين السوفسطائي براسيماك وشقيقي أفلاطون أديمنت وجلوكون يتمركز الحوار حول المدينة وموضوعه هو العدالة ماهي العدالة؟ جواب السوفسطائي براسيماك إنها مصلحة الأقوى.³

يتضح لنا هنا أن هذين المبدئين يستمران إلا يومنا هذا فقد ظهرت نظرية القوة ونظرية العقد الاجتماعي الأولى عند ميكافيلي، ونيشه، والثانية عند هوبز وروسو ولوك فنظرية القوة تؤكد الفردية التي بدأت مع السوفسطائيين بينما نجد نظرية العقد الاجتماعي تمثل سيادة الروح الجماعية التي تقهروتستبد الفرد.

ومن زاوية أخرى فإن أفلاطون لايمثل الفردية في الجانب المعرفي لكونه يؤمن بالمطلق وبالعالم المثل، وهذا ينطلق مع الفردية التي تنطلق من الجزئي، وليس الكلي إذ يرى أفلاطون أنه يتحتم الإنكباب أولا على العدالة في المدينة، وفيما بعد على

1- حسن الكحلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص68، 69.

2- المرجع نفسه، 69.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

العدالة على الفرد إن العدالة تقرأ في المجتمع بشكل أفضل مما تقرأ على الفرد، وفيما بعد يمكن التعرف عليها في الفرد.¹

فباستثناء السفستائيين يمكن القول أن الفلاسفة الإغريق حتى أرسطو لم ينادوا بمذهب الفردية بل على العكس من ذلك كانت أفكارهم تتجه نحو الإنسان وكونه عضوا في المجتمع وأن هذه العضوية تفرض عليه بعض الإلتزامات، والقيود التي يمكن أن يقوم عليها المجتمع الصالح ولا تحفل كثيرا بالفرد إلا أنه على أساس عضو في المجتمع.²

وفي المجتمع اليوناني لم يكن للفرد إلا للخضوع للدولة المدينة هكذا شرع أفلاطون وأرسطو، وأكدوا العبودية بتقسيمهما المجتمع تقسيما ترتيبيا وفي هذا التقسيم لا يوجد حراك اجتماعي، ولا وجود للفردية إلا كجزء من الكل كعالم المثل الذي يحتوي كل الأجزاء كما أن العدالة لدى أفلاطون ليست خاصة بالفرد بل بالكل الاجتماعي وبالمدينة، إن العدالة بكلمتين ليست إلا بقاء كل واحد في مكانه ففي هذا تكمن صحة المدينة، وانسجامها.³

أيضا فإن أرسطو كان له أثر في الفكر البرغماتي "بتركيزه على التجربة بوصفها مكونا ضروريا من مكونات المعرفة".⁴ فهو يقرر أن الإنسان حيوان اجتماعي ويضع نظرية في العبودية، فالإوناني حر بطبعه أما البرابرة فعم العبيد.⁵

1- جان جاك شوفالبييه : تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة محمد عرب صاصيلا المؤسسة الجامة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1985م، ص 40.

2- حسن الكحلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 30 .

3- جان جاك شوفالبييه : تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ص 342.

4- محمد مهران رشوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1984م، ص 46.

5- جان جاك شوفالبييه : تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ص 42.

والحرية ليست لجميع أفراد المجتمع اليونان بل للأقلية، فالمرأة لبد أن تخضع للرجل وسيطرته، وأوامره ففي المجتمع اليوناني القديم، وفي العصر الكلاسيكي شهر أفلاطون وأرسطو حارسا المدينة القلقان بالفردية باعتبارها نفورا للفرد من الإكراهات الاجتماعية ومن الوجبات الثقيلة للمواطن إن صفة عضو المدينة الواعي للإلتزاماته نحوها كانت تتغلب متوجهة نظرهما على صفة الفرد المبهمة التي لاقيمة لها.¹

بعد كل هذا نستخلص أن الفكر اليوناني قد تجاهل الفرد، ولكن بماذا عارضه؟ عارضه بالمجتمع، والدولة باستثناء الفلسفة السوفسطائية التي اهتمت بالإنسان الفرد وأكدت نسبية الحقيقة فكانت هي الأساس الأول للنزعة الفردية، ثم أتى سقراط على الرغم من هجومه على السوفسطائيين، فأكد النزعة الذاتية، وكان أول شهيد يقتله الجمهور، والديمقراطية التي تسيرها الأغلبية الجاهلة، أما أفلاطون وأرسطو فقد كرسا النزعة الشمولية، والعبودية غير أن أفلاطون قد أسس الفردية والأستقراتية حين دعا إلى حكم الفيلسوف الذي يجمع بين الدولة، والقوة معا إن المتصفح للنظام السياسي لدولة المدينة، وبالتحديد لنموذج أثينا، يجد أن الروح البرغماتية كانت موجودة.

أصبحت قيمة الأفكار فيما ينتج عنها من آثار عملية تفيدنا في حياتنا، كما أن حقيقة الفكرة أصبحت تقاس ليست بمدى تناسقها في عقولنا كما يقول المثاليون ولا بمدى تطابقها مع الواقع الخارجي، كما يقول الواقعيون، إنما حقيقة الفكرة تتمثل في الممارسة العملية التي تدفعنا للقيام بها و بمدى الانتفاع منها، ولكي نبلغ الوضوح التام في أفكارنا عن موضوع ما²، فإننا لا نحتاج إلا اعتبار ما قد يترتب من آثار يمكن تصورها، ذات طابع عملي، وقد يتضمنها الشيء أو الموضوع، وما هي الأحاسيس التي يتعين علينا أن نتوقعها منه، وما هي ردود الأفعال التي

1- جان جاك شوفالبييه : تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ص 358.

2- إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرجماتي في فن الباو هاوس، ص 1014.

ينبغي أن نعدّها، فادراكنا وتصورنا للمعاني الكلية لهذه الآثار والنتائج سواء كانت مباشرة أم بعيدة بالنسبة لنا كل تصورنا للموضوع.¹

تعقيب:

إن الفلاسفة الإغريقين عندما أخذوا يتفلسفون، لم يستطيعوا أن يقضوا على كل النظم الفكرية التي تحكمت في عقول الناس عصورا طويلة، بل دخلوا رحاب الفلسفة وهم مثقلون بكثير من الآراء، والنظريات التي كانت سائدة على التفكير الإنساني قبل عصر الفلسفة بمعناها الصحيح، دخلوا ميدان الفلسفة وهم يحملون بذور تفضيل العالم المعنوي على العالم المادي، عالجهوا وهم يحملون جراثيم الغضب من قيمة الأمور المادية، والأشياء المتغيرة الخاضعة للزمان وضعوا أسس الفلسفة الحديثة وهم مايزالون يحنون إلى الإستقرار، ويخشون التغير، والتطور.²

وبعبارة أخرى أسسوا هذه الفلسفة وهم مايزالون بعد متحيزين إلى عالم الأفكار والمعاني دون عالم الحوادث والحس، وعندما يسعون وراء الحقيقة، كان هذا السعي مايزال متأثرا بتفضيل العالم لغير منظور على هذا العالم المنظور، وما كادوا يسألون "أين هي الحقيقة وعلى أي صورة توجد؟" حتى وجدوا الجواب حاضرا أمامهم وهو أن الحقيقة لا يستطيع إكتشافها إلا في عالم المعاني والآراء والأفكار دون الأشياء المحسوسة، فكان أسهل عليهم أن يزعموا أن الحقيقة هي من موضوعات العقل وليست من موضوعات الحس.³

ولما كانت هذه الأخيرة متغيرة متقلبة، فقد كان من الميسور والسهل عليهم أن يظنوا أن عالم الحس هذا عالم خيالي لا وجود له في ذاته، وما هو في الواقع إلا مظهر الحقيقة، وشكلها الخارجي الوقتي أما الحقيقة ذاتها فهي عقلية، هي المعنى والفكرة

1- إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرجماتي في فن الباو هاوس، ص1014.

2- يعقوب فام : البرجماتيزم، ص224.

3- المرجع نفسه، ص225.

والعلاقات بين الأشياء، وبعضها وبينها وبين المعاني والمصطلحات ومن هنا أصبح زيد ليس له وجود حقيقي والموجود الحقيقي إنما هو "الإنسان" ذلك المعنى المجرد عن المادة، أو تلك الفكرة التي تصلح لأن تكون موضوعا للعقل يتناوله ويتعامل معه، وأما محمد، وحسن، وفهمي فهذه جميعا من موضوعات الحس وعلى ذلك فهي ظل الحقيقة، أو شكلها الذي تتشكل به هذه الحقيقة¹.

نستنتج أن البرغماتية إتجاهها تقدما في الفكر الفلسفي، وثورة على الفلسفات التي تؤمن بالتأمل العقلي، والأمور النظرية للوصول إلى الحقائق الأولية في الكون فهي ترى أن كل شيء لا يكون صحيحا ما لم يخضع إلى التجربة والبرهان لإثبات صحته، إن البرغماتيين يرون أن الطبيعة الإنسانية مرنة وظيفية، وأن الحقيقة يمكن معرفتها من نتائجها التجريبية عندما توضع في موقف عملي فعلي وأن العالم قائم بذاته، وبهذا يلتقون مع الواقعيين فهم عندهم ليس مجرد اسقاط من جانب العقل وأنه ليس مستقلا عن الذات الإنسانية دائما، أما الحقيقة عندهم هي من صنع التفاعل بين الإنسان وما يحيط به، وبهذا يخالفون المثاليين والحقيقة هي المجموع الكلي لخبرة الانسان، وعليه فالإنسان وبيئته مسئولان عما هو حقيقي على حد سواء، فيما ترى المثالية أن العقل الإنساني وحده هو الذي يدرك الحقيقة لذلك فإن البرغماتيين يؤمنون بمبدأ التعلم بالعمل، والإبتعاد عن التلقين وتخزين المعلومات.²

معنى هذا أن الفلسفة البرغماتية شأنها شأن الفلسفة المثالية مدرسة أحادية، إلا أن البرغماتية تؤمن بالوجود المادي النفعي وحده في حين أن الفلسفة المثالية تؤمن بالوجود الروحي وحده، ويرفض البرغماتيون البحث في المشكلات الميتافيزيقية ويعتبرون البحث فيها مضيعة للوقت، لأن أي نتائج يتوصل إليها أي باحث فيها ليس لها معنى.

1- إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرجماتي في فن البواهراس، ص1013.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بعد أرسطو ظهرت في أثينا مدرستان متعاصرتان، ومتعارضتان هما المدرسة الأبيقورية على يد مؤسسها أبيقور، والمدرسة الرواقية على يد مؤسسها زينون وكان لها أثر كبير في نهاية العالم القديم، وأوائل العهد المسيحي كانتا تتنافسان في دعوة الناس إلى السعادة، والأخلاق فجعلت الأبيقورية الغاية من فلسفتها طلب السعادة ومحاولة إخراج الناس من الشك، والألم الذي كان يعذبها إلى أحضان الطمأنينة والسعادة ولذلك عرفت الأبيقورية الفلسفة بأنها: "الحكمة العملية التي توفر السعادة بالأدلة والأفكار".¹

ولهذا فإنهم لم يعنوا بالمنطق، وإنما عنوا بشئ آخر قريب من المنطق هو نظرية المعرفة وسموه القانون، أما الطبيعيات فلا فائدة فيها إلا من حيث أنها تعطي الطمأنينة التي ينشدها المرء في سلوكه فلم يبق من الفلسفة بالمعنى الحقيقي إلا الأخلاق، وإذا كانت الفلسفة بالنسبة لأبيقور على هذا النحو فهل هذا يعني أنها ساهمت في خلفية البرغماتية؟.

أ- الأبيقورية:

من الجدير بالذكر أن المدرسة الأبيقورية التي ظهرت على يد أبيقور "342 - 270 ق.م" والتي سميت باسمه، آخر المدارس الفلسفية القديمة التي أثرت في الفلسفة البرغماتية بشكل واضح.²

صلة القرابة بين الفكر البرغماتي والمدرسة الأبيقورية هو أن هذه الأخيرة دعت إلى استخدام ألفاظ واضحة، وقريبة من أذهان الناس، وهذه الدعوة كانت من أهم النقاط التي شغلت الفلاسفة البرغماتيون.³

1- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 268.

2- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرغماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 38.

3- المرجع نفسه، ص 39.

يرى الأبيقوريون أن هذا الخير ليس له وجود مستقل بعيد عن تفكير الإنسان هذا الخير في الواقع من خلق العقل الإنساني، ولذلك ليس فيه قوة ملزمة لنا، ولسنا مطالبين أن نتبعه دون بحث، وعلى ذلك يكون هذا الخير وسيلة أو أداة، وليس غرضاً هو شيئاً نستعمله استعمالاً وقتياً لغاية نسعى إليها.¹

فإذا كان الخير ليس غاية فما هي الغاية؟، إذا كانت الفضيلة، والأخلاق وسيلة لشيء آخر فما هو هذا الشيء الآخر الذي يعمده المنفعيون الغاية والغرض الذي يجب أن نسعى إليهما؟ هذه الغاية هي المنفعة كما يستدل عليها من الكلمة التي نطلقها على هذا النوع من الفلسفة، "وأول من شرع هذه الفلسفة، أو هذه النظرة للكون هو أرسططس أحد تلاميذ سقراط وقصد منها عندما وضعها أصلاً أن تكون الغاية من الحياة هذه اللذة الجسمية أو البدنية من الأكل، والشرب، والعلاقات الجنسية والراحة البدنية."²

وهنا نجد أن فكرة المنفعة مرتبطة بإشباع الحاجات العضوية، ولم تتخذ أي طابع عقلائي، ثم بعد ذلك إتخذت فكرة المنفعة منحى آخر فتحوّلت عند فلاسفة اليونان أنفسهم من اللذة البدنية إلى المنفعة العقلية أو اللذة العقلية "حيث أتى أبيقور Épicure³، ونفخ هذه الفكرة، ورفع مستواها عن الأمور المادية الحيوانية إلى المسائل العقلية، فالغاية من الحياة أن يعيش الفرد عيشة عقلية مهيبة وراقية."⁴

1- يعقوب فام : البرجماتيزم، ص50.

2- المرجع نفسه، ص51.

3- أبيقور : هو فيلسوف يوناني قديم، وصاحب مدرسة فلسفية معروفة سميت باسمه "الإبيقورية" قام بكتابة حوالي ثلاثمائة منجز لم يصلنا منهم إلا بعض الأجزاء والرسائل والنصوص، ومعظم ما وصلنا من الفلسفة الإبيقورية مستمد من التابعين لها وبعض المؤرخين، ومنها النصوص التي حفظها ديوجينيس اللايرسي Diogène، فهي رسالة موجهة مباشرة إلى هيرودوت في الطبيعيات، ورسالة موجهة إلى فيتوكليس في الآثار العلوية، ورسالة موجهة إلى ميناقايوس في الأخلاق، ومئة وإحدى وعشرون فكرة هي ملخص المذهب.

4- يعقوب فام : البرجماتيزم، ص51.

من هنا يمكننا القول بأن أبيقور قد ساهم في خلفية البرغماتية في عدة وجوه يكفينا هنا أن نشير إلى أحد هذه الوجوه، وهو أن الأبيقورية كفلسفة ابتعدت عن القول التقليدي بالصدق المطلق ذلك أن الحقيقة الفلسفية بالنسبة للأبيقوري هي تلك التي تحقق وظيفة عملية لإصلاح حال المعتقد بها، وذلك بتحقيق الألم إلى أدنى حد والوصول به إلى أقصى درجات اللذة، وعلى ذلك، فالأبيقوريون يتصورون التفلسف بصورة نشاط عملي وهم من هذه الناحية يعدون الأسلاف المباشرين للبرغماتية.¹

وأما عن اتفاق البرغماتية، والمدرسة الأبيقورية فقد اتفقتا على مبدأ المنفعة المترتبة على العمل، والتي سمّتها الأبيقورية اللذة، ونجد ذلك واضحا جليا في قول أبيقوروس: "تشهد التجربة أننا نطلب اللذة، وأن الحيوان يطلبها مثلنا دون تفكير ولا تعليم فالت طبيعة هي التي تحكم بما يلائمها لا العقل الذي هو في الحقيقة عاجز عن تصور خير مجرد من كل عنصر حسي، وكيف يستطيع ذلك، وجميع أفكارنا ترجع إلى إحساسات ومن ثمة إلى لذات والآم، وإذا نحن استبعدنا الحس من الإنسان فليس يبقى شيء."² ثم ربط بين اللذة وما يوصل إليها من وسائل، وبين الحكم الأخلاقي على تلك الوسائل فقال: "ومتى نقرر أن اللذة غاية لزم أن الوسيلة فضيلة فليس من الحق وصف اللذة بأنها جميلة أو قبيحة شريفة أو خسيصة، فإن كل لذة خير، وكل وسيلة إلى اللذة خير كذلك."³

فأصبحت المنفعة المترتبة عن تحصيل اللذة ومفارقة الألم هي المعيار المطلق للحكم الأخلاقي، ويقول أبيقور: "إن مقياس الخير هو اللذة ومفارقة الألم، وهذا شيء لا حاجة بنا إلى البرهنة عليه، فالأصل إذن في كل أخلاق خيرة أن نتجه نحو تحصيل

1- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 46.

2- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية سنة 2012م، ص 262

3- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 302.

اللذة والإبتعاد عن الألم.¹ معنى هذا أنهم أخضعوا كل شيء للمنفعة وجعلوها بذلك معيارا للحقيقة.

وبهذا اتفقت المدرستان على القول بالعلاقة الوثيقة بين الفكر، والعمل، فأنكرت الأبيقورية على الإنسان حق الاشتغال بالعلم من أجل العلم، لأن العلم من أجل العلم لا يفيد شيئاً إذا لم يكن تحته عمل أو إذا لم يكن مؤدياً إلى السعادة عن طريق العمل والتطبيق.²

وهو عين ما قال به رواد البرغماتية فهذا جيمس يقول: "الفكرة مفيدة لأنها صحيحة أو أنها صحيحة لأنها مفيدة، إن كلتا هاتين العبارتين تعنيان بالضبط نفس الشيء ألا وهو أن لدينا هنا فكرة تحققت، ويمكن تحقيقها وإقامة الدليل عليها."³

فالأبيقورية ابتعدت عن القول التقليدي بالصدق المطلق، ذلك لأن الحقيقة الفلسفية بالنسبة للأبيقوري هي تلك التي تحقق وظيفة عملية لإصلاح حال معتقدتها، وذلك بتخفيف الألم إلى أدنى حد والوصول به إلى أقصى درجات اللذة.⁴

ومن جهة أخرى فإن من معالم تأثر البرغماتية بالمدرسة الأبيقورية أن هذه الأخيرة دعت إلى استخدام ألفاظ واضحة، وقريبة من أذهان الناس فأبيقوروس اهتم كثيراً بالمنطق واشتغل به و"وجه همه لنقد المعرفة، والنظر في علامات الحقيقة، وفي الطريق إلى اليقين أو الطمأنينة العقلية التي تؤدي إلى السعادة."⁵ وقد كان بيرس يؤكد على كيفية جعل الأفكار واضحة عن طريق ألفاظ واضحة فالغرض الرئيسي من برغماتية بيرس، هو مساعدتنا على شرح معاني المصطلحات

1- عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الجزء الأول سنة 1984م، ص 86.

2- عبد الرحمن بدوي: الموسوعة الفلسفية، ص 86.

3- وليم جيمس: البرجماتية، ص 241.

4 - محمد مهران رشوان: مدخل لدراسة الفلسفة المعاصرة، ص 18.

5- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 258.

العامّة أي الأسماء أو الصفات أو غيرها¹، من هنا كان لبد أن نقول أن الأبيقورية اقتربت كثيراً من الفكر البرغماتي في نقاط عديدة منها:

"الحقيقة الفلسفية بالنسبة للأبيقوري هي تلك التي تحقق وظيفة عملية لإصلاح حال المعتقد بها وذلك بتخفيف الألم إلى أقصى حد والوصول به إلى أقصى درجات اللذة، وعلى ذلك، فالأبيقوريون يتصورون التفلسف بصورة نشاط عملي بصورة اختيارات حسيّة للوسائل المؤدية إلى الغايات، وهم من هذه الناحية يعدون الأسلاف المباشرين للبرغماتية.² لقد كان أبيقور يرى غاية الأخلاق هي السعادة الذاتية فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة، وليست الرذيلة رذيلة إلا لأنها ألماً، ولا قيمة لأي عمل في نفسه إلا بنسبته إلا اللذائذ والآلام، وكان يحدد مهمة الأخلاق بتعليم بني البشر فن الحصول على اللذة، وإجتنب الألم كل بحسب تحديده لهذه اللذة، وهذا الألم وحسب قدراته في الحصول على ذلك حيث كان ينصح أبيقور بتنظيم الرغبات بحسب القدرات.³

أراد بيرس أن يكون مقياس الفكرة هو نفسه المقياس العام للفكرة العملية وهو أن تكون عامّة، ويشهد بنتائجها الجميع، فالفكر يجب أن يشتغل منزلة في الحياة والمنفعة الأبيقورية ترى أن ما قد خلا من العمل ولم يؤد إليه أو لم يكن نحوه لا فائدة فيه للفيلسوف، وهذه النظرة الأبيقورية للعمل تطوّر عند البرغماتية، وأصبح النظر للفكر من خلال ما يقدمه من عمل أي العلاقة الوثيقة بين الفكر والعمل وما يقدم هذان العاملان من نتائج تكون ذات فائدة للإنسان في حاضره، ومستقبله ومكان مبدأ الأبيقورية في اللغة والوصول من خلاله إلى السعادة غير ما أراد البرغماتيون

1- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 37.

2- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 46 .

3- محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي "الإسلام الذي تريده أمريكا"، والآثار المدمرة لأفكار النفعية على المجتمعات الإسلامية، ص 90.

فالصحيح هو الاسم الدال على ما ثبت أنه صالح، وخير كما أكد وليام جيمس وهذا فالبرغماتية تعد طريقة جديدة في التفكير، وامتدادا للمنفعة الأبيقورية أولا.¹

ثم جاء بعد ذلك الفيلسوف وليم جيمس فكان أكثر نفوذا في الولايات المتحدة الأمريكية فدعا مريديه إلى كل ما ينفعهم، ويمتعمهم ويحقق لهم مصلحتهم دون مبالاة لموقف الآخرين، فعرض هذه المفاهيم، والمضامين، والخلفيات في ثوب برغماتي أمريكي أنيق من التبرير والدعوة إلى الإقبال على الحياة، والمستقبل السعيد للإنسان.

تعقيب :

أهمل أبيقور علم الطبيعة إلا من ناحية فائدته في إزالة المخاوف الخرافية من عقل الإنسان كما يعتقد فهو يقول: "إن الإنسان مليء بالخوف من الله، ومن عقابه وهذا الخوف أكبر منغص لحياة الإنسان، فإذا ذهب الخوف تخلصنا من أكبر عائق يعوق السعادة ولاوسيلة لإزالة الخوف إلا بدراسة الطبيعة."²

وهكذا نجد أن الأبيقوريين قد جعلوا المقياس، والمصدر في المعرفة الصحيحة هو الإحساس في باب المعرفة كما جعلوا المقياس هو اللذة، والخلو من الألم في باب الأخلاق.³ على هذا النحو ظل الأبيقوريون لم يحدثوا أي تغيير في تعاليم مؤسس فرقتهم أبيقور فلم يحصل أي تطوير على النحو ما حصل في المدرسة الرواقية.

وخلاصة الأمر، أن إشتراك الفلسفتين البرغماتية، والأبيقورية القديمة ظاهر في إعتداد النفعية الذرائعية، وعلاقة الفكر بالعمل، والقول بنسبية الحقيقة، وترك القول بالمطلق، والإهتمام بالمنطق، والتركيز على استخدام الألفاظ الواضحة التي تبين المعنى في أذهان الناس، وهو ما يؤكد تلك الجذور التاريخية القديمة التي تربط بين الفلسفتين.

1- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص39، 40.

2- شرف الدين عبد الحميد : العلاقة بين الفلسفة، والدين عند فلاسفة اليونان، دار الوراق للنشر والتوزيع الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2014م، ص269.

3- المرجع نفسه، ص269.

ب- الرواقية :

إن مبادئ المدرسة الرواقية التي تميزت كإتجاه فلسفي أخلاقي يستهدف الغاية العملية والسلوكية ألا وهي السعادة، ولهذا فالنزعة المذهبية لهذا الإتجاه تتحدد في الممارسة العملية لقواعد السلوك الأخلاقي التي تؤسس مواقف المدرسة النظرية في مجالات المعرفة، والطبيعة، والوجود، والمنطق، فالفلسفة الرواقية ليست مجرد فلسفة بقدر ما هي سلوك وأفعال أخلاقية، أو ممارسة عملية للواجب الأخلاقي هدفها تحقيق الفضيلة والخير، والسعادة.¹ معنى هذا أن الرواقية ليست مجرد مجموعة من المعتقدات والخلفيات الخلاقية، وإنما هي نمط حياة معين يعتمد على الممارسة النفعية المستمرة والتدريب من أجل البقاء في هذا العالم.

وهذا ما نجد خلفيته أيضا في الفلسفة البرغماتية، فقيمة الفكرة عند البرغماتيين ليست في الصور، والأشكال التي تثيرها في الذهن، وليست في انطباقها على حقائق الموجودات، وإنما في الأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة، وفي التغيرات التي تنتجها في الدنيا المحيطة بنا.²

والنقطة الأخرى من ناحية تأثير المنطق الرواقي في المنطق البرغماتي هو اهتمام الرواقية بالجانب الدلالي للغة وبشكل أوسع الاهتمام بالدلالة اللغوية لـ "اللفظ"، وهذا الجانب من اهتمام الرواقية يقترب من اهتمام بيرس بعلم الدلالة أو السيميائ والمنطق كما يعرفه بيرس كل تفكير يكون منجزا بواسطة العلامات، ولكن بيرس يميل إلى عد العلامة التي تتكون منها دلالة الموضوع هي الأساس الحقيقي لكل معرفة، وهي نقطة تعريف كل شيء حتى نفسها، فهو يحسب كل شيء علامة ومن الممكن اعتبار نظرية بيرس في العلامة، وعلم الدلالة كتوسيع للنظرية الرواقية في المنطق الدلالي.³

1- بن طرات جلول : اللغة وجدلية الفكر، والمادة مقارنة فلسفية بين هيغل وماركس، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة الموسومة، جامعة وهران الجزائر، سنة 2012- 2013م، ص 35.

2- يعقوب فام : البرجماتيزم، ص 151.

3- علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 37، 38.

اهتم بيرس إلى جانب اهتمامه بعلم الدلالة من ناحية المنطق بالقياس الشرطي مثلما اهتمت الرواقية به قبله كذلك أكد بيرس أن الطريقة البرغماتية قد مارسها الرواقيون وقد كان للجانب الأخلاقي لدى الرواقية تأثير في البرغماتية فقد استمدت من قول الرواقية غاية الإنسان في العمل اهتمامها بالجانب العملي، والذي عدته أي الجانب العملي أكثر قرابة من روح التفكير الإنساني، فالإنسان يميل بطبعه إلى البحث عن العمل المثمر، والحصول على الثمار من أي قضية يريد التفكير بها، وقد اهتمت الرواقية وبشكل واضح بتحصيل النتائج المترتبة عن الفعل الذي كانت البرغماتية أكثر المدارس إن لم نقل المدرسة الوحيدة في الفكر المعاصر التي اهتمت بالجانب العملي الذاتي كما فعلت الرواقية من قبلها، وهذه النظرية الرواقية واضحة بشكل بارز عند جيمس الذي اهتم بالجانب العملي الذاتي.¹

نستنتج مما سبق أن كل من البرغماتية، والرواقية تتفق في إعتادهما على الحس لأنه يعتبر الأساس الفعال للوصول لكل معرفة، ونتيجة إيجابية، فالمدرسة الرواقية مدرسة مادية حسية تزيد من قوة ذهنك وصلابة فكرك فكل معرفة عندهم حسية إلا أن الجانب الأبرز والواضح في اتفاق كلتا الفلسفتين، هو السعي وراء الجمع بين المعرفة العقلية، والمعرفة الحسية، وغاية المنطق البرغماتي في الأخير هو التوفيق بين الجانب العقلي، والجانب الحسي، وبهذا الجمع يمكننا تحقيق أكبر قدر ممكن من مصالحنا البرغماتية النفعية، ولكن بالرغم من هذه الصفات الإيجابية السابقة الذكر إلا أن كلا منهما يحمل في ثناياها العديد من السلبيات.

تعقيب:

على الرغم من أن الفلسفة البرغماتية تتفق مع الرواقية بأن الحس أساس كل معرفة إلا أن هذا ليس هو السبب أو مصدر التأثير المباشر للفلسفة الرواقية على الفلسفة البرغماتية لأن القول بأن الحس مصدر المعرفة قد قالت به مدارس أخرى سبقت الرواقية، والبرغماتية لاتهم بهذا الجانب كثيرا إلا أنها اهتمت بالمنطق الرواقي لأن

1- علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرجمتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص37، 38.

الرواقين حالوا أن يقيموا منطقاً جديداً لا تتعارض فيه المعرفة الحسية مع المعرفة العقلية، وغاية المنطق البرغماتي هو التوفيق بين الحسي والعقلي، وقد كان هذا السبب هو أحد أهم الأسباب في تصنيف البرغماتية كاتجاه فلسفي.¹

يعني هذا أن إنتهاج المصدر الحسي للوصول إلى المعرفة لا يكفي وحده، ولم تهتم به الفلسفة البرغماتية كثيراً إلا أنها أهتمت بالتفكير الرواقي، ولكن في حياتنا العملية قد لا يكون التفكير المنشود الذي نسعى إلى تحقيقه، وتجسيده على أرض الواقع ضمن هذا المجتمع المليء بالمعارف المختلفة.

إن طريقة حياة الحكيم الضابط لنفسه كما يريد أهل الرواق تدخل في روعنا صورة كائن صناعي متضخم العقل على حساب الروح والعاطفة، وليس الإنسان كذلك بل هو مزيج من العقل، والوجدان، والعاطفة، ولا تتحقق سعادته الأرضية إلا بالموازنة بين هذه العناصر لتتحقق الوسطية بينها فينتج عنها السعادة، وهو المنهج الذي رسمه الإسلام بتشريعه المحدد للسلوك الإنساني في دائرة "الحلال" دون "الحرام" مستجيباً لدواعي الفطرة في الإنسان، وضابطاً لنوازعها بلا تفريط، ولا إفراط.² المقصود هنا أن تحقيق السعادة الحقيقية، والمعرفة الصحيحة لا يكون إلا إذا اجتمعت العناصر الثلاثة السابقة الذكر، وهذا لا يكون إلا بإتباع المنهج الإسلامي الحق.

يمكننا القول في ختام هذا المبحث أن الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث اليوناني نجده كله في هذا المبدأ المادي العلماني القديم، وهذا المبدأ مستمد من الفلسفات الوثنية اليونانية القديمة، لكنه عاد يهيمن على مباحث علم النفس الحديث بعد انفصاله، وانقطاعه في أواخر القرن الماضي عن الفلسفة، وإصطناعه للمنهج العلمي التجريبي الحسي، والمبدأ بسيط للغاية فهو ينظر إلى الوجود البشري بمعزل عن أي وجود أوسع، أي بمعزل عن الألوهية ووحيتها وسننها، ولا يرى سوى هذا

1- علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص37.

2- مصطفى حلمي : الفلسفة الرواقية، ومعالمها الأخلاق، والصلة بين الطبيعة، والعقل ونقد المذهب، بتاريخ 2012-12-29 م . <http://www.alukah.net/sharia/0/4838>

الوجود البشري كما يرى أن هدفه وسعيه، ومغزاه إنما هو تحقيق السعادة الحقيقية للبشر في هذا العالم.

ثم جاء بعد ذلك عصر الدولة الرومانية، وعرفت الدولة الرومانية أيضا نوعا من الديمقراطية المحكومة بواسطة النبلاء " الطبقة الأرستقراطية" التي كانت تستحوذ على عملية اتخاذ القرار لأنها أكثر علما، وفهما، وحضارتا من عامة الناس والغوغاء ومورست السلطة التنفيذية بمساعدة مجلس للشيوخ، ومجلس شعب يمثل مصدرا للسلطة التشريعية، وهذا ماسنتطرق إليه هنا من خلال الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الروماني.

ثانياً: الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الروماني:

بعد أن رأينا في المبحث السابق الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث اليوناني، نتناول في هذا المبحث الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الروماني.

لقد اقتبس الرومان البرغماتية من فلسفة الإغريق، وأضافوا لها بعض المبادئ إلا أن إسهاماتهم لم ترق إلى مرتبة، وقوة ما قدم من طرف أفلاطون، وأرسطو، و هذا يعود إلى طبيعة الرومان، إذ لم يكونوا ميالين إلى الفلسفة، و لكن رغم هذا كان لهم دور في تنظيم الحياة السياسية، والاجتماعية.¹

ترجع الأصول النظرية للفلسفة البرغماتية في التراث الروماني إلى المدرس والخطيب الروماني المشهور كونتيليان الذي عاش في الفترة ما بين 95 إلى 35 قبل الميلاد، الذي كان يؤمن بأن الممارسة العملية هي الأساس في الوصول إلى المعرفة.²

المقصود هنا أن التعمق في دراسة الفلسفة البرغماتية يكشف لنا أن أصولها تعود للفكر الروماني، حيث أن الوسيلة الحقيقية للوصول إلى الغاية المنشودة، ومعرفة أصول الأفكار، والتراكم المعرفي لا يكون إلا عن طريق الممارسة العملية النفعية و الناجحة على أرض الواقع.

قامت الدول الرومانية على مبدأ القوة، ولا تفهم منطق غير القوة، ولهذا فلقد كان من الطبيعي جداً أن يقوم القانون الروماني القديم، وهو المصدر الأساسي لكافة القوانين الغربية حتى الآن على منطق القوة، والإعتراف بحق القائم على القوة وعلى أن يحافظ

1- بطرس غالي : مدخل إلى علم السياسة، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة 1986م، ص35.

2- عبد العزيز صالح : التربية الحديثة مبادئها، مبادئها، تطبيقاتها العملية، الجزء الثالث، الطبعة الرابعة دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة 1985م، ص85.

كل المحافظة على المراكز القانونية التي أنشأتها القوة مهما صاحب هذا النشوء من ظلم وعدوان.¹

ومع قدوم العصر الهيليني تغيرت الأمور فقد ظهرت فكرة أن للإنسان قيمة نابغة فقط من صفته كفرد إنساني، وكوحدة إنسانية متميزة ومنتمية للمدينة العالمية الواسعة وقد تضمن ذلك الإيمان، والإقرار بأولوية هذا الفرد بالنسبة للأبي مجموعة.² ثم أتت المسيحية على إثر الرواقية لتؤكد استقلالية الحياة الروحية لكل فرد، وقد نجم عن هذا الأمر الإعتراف بالقيمة المطلقة لكل كائن بشري ذلك أن الأديان السماوية جميعها قد أكدت المسؤولية الفردية، والعلاقة الروحية المباشرة بين الإنسان وخالقه إلا أن الفردية قد اختفت في الديانة اليهودية بشكل مبكر حينما أكد رجال الدين اليهود أن الآلهة تفضل الشعب اليهودي على غيره من الشعوب، وأنها مهتمة ببني إسرائيل.³

نستنتج هنا أنه مع ظهور الدين بدأت فردية الإنسان بالحرية، والتفتح، وأصبح الفرد مسؤولاً عن أفعاله وتصرفاته، وليس مسؤول عن أفعال غيره من الناس كما هو الحال في المجتمعات البدائية، فالمسؤولية الفردية تظهر في الديانات السماوية من خلال مبدأ الثواب والعقاب حيث يحاسب، ويعاقب الفرد على ما قام به من أعمال بحريته، وإرادته الخاصة دون تدخل أي طرف آخر في تصرفاته، وأفعاله.

وخلاصة لما سبق يمكن الإقرار بأن الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في روما لم يعرف إزدهارا، وتطورا على شاكلة ما عرفه اليونان، وهذا يعود إلى عدم اهتمام الرومان بالحرية، وتركيزهم الأساسي على الوحدة، وهذا لتشكل قناعة لديهم مفادها أن سبب فشل اليونان، وتقهقرهم يعود إلى فتح هامش كبير من الحريات الذي أدى إلى إنزلاقات خطيرة.

1- محمد ابراهيم مبروك : الإسلام النفعي "الإسلام الذي تريده أمريكا"، والآثار المدمرة لأفكار النفعية على المجتمعات الإسلامية، ص 21 .

2- جان جاك شوفالبييه : تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ص 358.

3- حسن الكلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 32.

وعليه فإن الفلسفة البرغماتية لم تعرف تألقاً كبيراً وشاسعاً عند الرومان، وظل الإمبراطور المصدر الأساسي للسلطة انطلاقاً من كونه المفوض الوحيد من طرف الشعب، ومن الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الروماني ننتقل إلى الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الإسلامي، لكن السؤال الذي يستوجب طرحه في هذا الصدد: إلى أي مدى تتقارب، وتتباين مبادئ وأصول الإسلام مع الفلسفة البرغماتية بمعنى آخر هل هناك نقاط اتفاق، أو نقاط افتراق بين الإسلام والبرغماتية؟.

ثالثا: الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الإسلامي:

لو أراد الله جلت قدرته لجعل الناس أمة واحدة، ولكن اقتضت حكمته أن تتعدد الآراء، وتختلف وجهات النظر في القضايا الكبرى "الكون، الإنسان، الوجود وما قبلها وما بعدها" التي شغلت بال الإنسان عبر تاريخه الطويل، لكن رحمة الله اقتضت أن يرسل للناس رسالات إلهية، تهدي العقول القاصرة المحدود سعيها عن الوصول إلى معرفة جوهر الحقيقة التي تتشدها، حتى لا تضل ولا تشقى¹ كما بين الحق سبحانه أن أفضل المجتمعات هو المجتمع الإسلامي شريطة اتباع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بعد الإيمان بالله الذي قال عنه سبحانه وتعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ"²، لا يستطيع أحد أن ينكر أن الدين الإسلامي هو الأساس المتين لحضارة عالم اليوم، فقد قدس الإسلام العلم، والعلماء وخاصة التربية الروحية والدينية والخلقية، ونادى بالحرية والمساواة وبالعودة إلى الفلسفة البرغماتية نلتمس بعض امتدادات التراث الإسلامي عند روادها.

فقد أشار بيرس رائد البرغماتية للدور الذي لعبه الفكر البرغماتي منذ زمن في دعمهما للديمقراطية الأمريكية، وخاصة لمفهوم الحرية حتى لا يفرغ من مضمونه برفعها لشعار الفاعلية، والأثر كمعيار للحقيقة وللعمل وباعتبار هذا الفكر البرغماتي قد نجح أخيرا في التوفيق، والمزاوجة بين الدين، وبين العمل.³

1- عبد المنعم حسن محسن عواد: أصول الفكر التربوي عند أبي حامد الغزالي أصول الفكر التربوي عند أبي حامد الغزالي، وابن رشد، وابن خلدون : مقارنة تحليلية مقارنة دراسة تحليلية الحديث، أطروحة دكتوراه في فلسفة التربية، تخصص أصول التربية في جامعة عمان العربية للدراسات العليا، سنة 2007م ص2.

2- سورة آل عمران، الآية 110.

3- حيرش سمية : الحقيقة البرغماتية بين الاعتقاد، والعمل شارل سندرس بيرس نموذجاً، مجلة الحوار الثقافي، مستغانم، وهران، العدد التاسع، سنة 2016م، ص19.

كما أشار بيرس أيضا في مقاله "تثبيت الاعتقاد"، و "كيف نجعل أفكارنا واضحة " إلى تلك المقاربات الصوفية التجريبية الذي سبق أبو حامد الغزالي¹ فيها بيرس ممن اتخذوا الشك طريقا للاعتقاد الديني، وللإيمان، وللعمل، ومن خلال الدين أن الاعتقاد في الدين أيا كان يجب أن يصل عمليا بصاحبه إلى الله من خلال تأثيره الإيجابي في سلوك الفرد.² فالمعرفة دون العمل ضرب من العبث، والجنون كما يقول أبو حامد الغزالي، والفعل دون المعرفة يبقى مستحيلا.³

وهي مقولته التي تعني بأن الاعتقاد في الدين يدفع إلى العمل، ولأن البرغماتية الفلسفة الوحيدة التي استطاعت أن توفق بين الإيمان الديني خاصة، وبين العمل حيث عاد بيرس إلى الدين، والتصوف ليقول أن الزهد هو الذي يؤدي بنا إلى الاعتقاد وإلى ترسيخ الإيمان، والعمل، فلا بد أن ننتظر دائما قبل أن نعتقد حتى نجد ما يبرر حسيا وعمليا مثل هذا الاعتقاد، وإذا لم يكن لمثل هذه الأدلة من وجود، فلا نمتلك مبررا سوى العزوف عن ما يمليه علينا هذا الاعتقاد من سلوك ليس عليك أن تعتقد في شيء من غير أن يكون لهذا الشيء ما يعبر عنه سلوكك عمليا.⁴

فالبرغماتية ترى أن حقيقة أي شيء هي مجموع أثاره، وإنها كامنة في التجربة الإنسانية، وإنها الأثر التي تحدثه الفكرة، فور تحولها إلى عادة وبمجرد حصولها على الاعتقاد المفضية إلى ترسيخه، لأن الحقيقة تتمثل في الأثر والنجاح التي تولده فكرة ما أو معرفة ما، لأن الاعتقاد هو ما يبدأ الإنسان عنده بالفعل المجسد لمثل ذلك الفعل، فالفرد لا يؤمن بفكرة ولا يعتقد بصحتها إلا بقدر استعداداته للنشاط والعمل

1- أبو حامد الغزالي : أبو أحد أعلام عصره وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري، كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً، وكان صوفي الطريقة، شافعي الفقه إذ لم يكن للشافعية في آخر عصره مثله، وكان على مذهب الأشاعرة في العقيدة، وقد عُرف كأحد مؤسسي المدرسة الأشعرية في علم الكلام، وأحد أصولها الثلاثة بعد أبي الحسن الأشعري، من مواليد 450 هـ - 505 هـ / 1058 م - 1111 م.

2- حيرش سمية : الحقيقة البراغماتية بين الاعتقاد، والعمل شارل سندرس بيرس نموذجاً، ص19.

3- المرجع نفسه، ص20.

4 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

وفقها.¹ المقصود هنا أن الفلسفة البرغماتية ترى أن الحقيقة تكمن في النتائج المترتبة عن الفعل والتي تحقق لنا ما ينفع الناس، وما يعود عليهم بالنجاح، والربح المادي.

إن مثل هذا المفهوم المزدوج، الحسي، والحدسي، والعقلي، والروحي، النظري والتجريبي للاعتقاد، وللحقيقة المتولدتين عنه الذي وصل بيرس إليهما بدوره مثلما وصل إليها الغزالي من قبل ويمثل هذا الإستلزام للحدس عند الغزالي، عمل بيرس وبالتالي مثلما فعل الغزالي على الخروج بالإنسان وبوعيه من حالة الشك واللايقين المفرغين من المحتوى وعلى الوصول به إلى الاعتقاد، الذي لا تصور لأي نشاط عملي للإنسان في حياته بدونه.²

هكذا جاءت البرغماتية بتلك الإزدواجية، العقلانية والصوفية، والروحية، والواقعية والمثالية، وهي الإزدواجية التي كان بيرس أول من أكد ضرورتها حين قال: إن لم نتحول إلى زهاد فكيف نرسخ الاعتقاد لدى فرد واحد فضلا عن كل المجتمع.³ وبذلك كانت أيضا البرغماتية خاصة، والبرغماتية البوررساوية عامة، ومن خلال امتدادتها الفلسفية، والنفسية، والروحية، والسياسية، والاجتماعية الخ، الفلسفة الأمريكية الأولى والوحيدة التي نجحت في التوفيق، أو في المزاوجة بين النزعات المادية ممثلة أساسا في الرأسمالية من جهة وبين التصور الديني للعالم وللكون البروتستانتي سلبية الليبرالية، من جهة أخرى.⁴

من القضايا التي تطرقت إليها الفلسفة البرغماتية قضية العقل والجسم وهل هما منفصلان عن بعضهما البعض؟، أم هناك تكامل بينهما؟، أما بالنسبة لوحدة الطبيعة وتكاملها فترى الفلسفة البرغماتية أنه من العسير عزل العقل عن الجسد فما يمكن وصفه بأنه العقل يظهر في أفعال الجسد، وفي السلوك، والحواس وتلك التفرقة تشوه

1- حيرش سمية : الحقيقة البرغماتية بين الاعتقاد، والعمل شارل سندر بيرس نموذجاً، ص20.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

وحدة الإنسان، ولذلك ترفض البرغماتية التفرقة بين العقل، والجسم وترى وجوب النظر إلى النشاط الإنساني نظرة متكاملة.¹

وتتفق هذه النظرة للطبيعة الإنسانية مع نظرة الدين الإسلامي لها حيث أن الإسلام عمد إلى عدم الفصل بين أجزاء هذه الطبيعة فينظر إلى الإنسان ككيان متكامل له جسد، وعقل، وروح وشعور، وإحساس، فالكائن الإنساني وحدة مترابطة الأجزاء لقوله تعالى: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"²، كما يركز الدين الإسلامي على الخبرة لأن حياة المسلم كلها خبرات مستمرة تهدف إلى صلاح المسلم وسعادته³، والحديث على الخبرة يقتضي الحديث عن التفكير الذي يعد ركيزة هامة في التربية الإسلامية، فالإيمان الصادق يقوم على التفكير لا التقليد لأن الإسلام جاء محررا للعقول، والقرآن الكريم مليء بالآيات الدالة على ذلك بل يعده الإسلام مصدرا من مصادر التشريع فالقياس مثلا يقوم على حدة العقل إذ يتم اقتباس الكثير من الأحكام التكليفية عن طريق التفكير العقلي للفقهاء وبها يتم تربية الناس⁴، لقوله تعالى: "فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ"⁵ معنى هذا أن الله تعالى أمر بالاعتبار والقياس نوع منه.

والتاريخ الإسلامي يقدم نماذجاً عن المفكرين المسلمين الذين أولوا اهتماماً خاصاً بالبرغماتية كما ذكرنا آنفاً، فالإمام الغزالي يرى أن التكوينات للشخصية الإنسانية

1- محمد خصر عوص شبيب: دراسة ناقدة للفلسفة البرجماتية في ضوء المعايير الإسلامية، قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير قسم أصول التربية تخصص التربية الإسلامية بالجامعة الإسلامية، بغزة، سنة 2010م، ص19.

2- سورة القصص، الآية 77.

3- محمود سيد مرسي: التربية والطبيعة الإنسانية، ص330.

4 - البار عبد الحفيظ: فلسفة التربية عند جون ديوي، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، سنة 2010م، ص36.

5- سورة الحشر، الآية 2.

هي من روح وبدن لكل هذه التكوينات هدفها للوصول إلى غاية الإنسان النهائية ومعنى هذا أن الغزالي يرتفع من مستوى التقسيم الثنائي للشخصية الإنسانية إلى مستوى التكامل بين جميع أجزائها لكي تؤدي وظيفة واحدة هي الوصول إلى تحقيق هدف الإنسان الأعلى على أن هذا الانسجام والتكامل يتحققان تحت سيطرة الروح وهذا الانسجام الكامل تحت سيطرة الروح هو الخطوة الأولى نحو اكتساب قدر معين من اليقين، ولكن الأمر يتطلب مجهوداً أكبر حتى يتحقق التكامل الذاتي وحتى يصل الإنسان إلى تفهم المستويات العليا من الوجود.¹ فالإنسان في نظر الفلسفة البرغماتية هو نتاج تفاعل البيئة الطبيعية مع البيئة الاجتماعية، والثقافية وهذه النظرة تتباين بشكل واضح ومسموح مع نظرة الدين الإسلامي، فالدين الإسلامي يوافق الفطرة السليمة للإنسان.

وبالرغم من تأثر ابن خلدون² بالإمام الغزالي في بعض مواقفه إزاء الفلسفة والعلوم العقلية فإنه لم يلغى دور العقل في تحصيل بعض العلوم "الرياضيات، والطبيعات التي تقع في دائرته، وتتوافق مع طبيعته التي تشكل أحد جانبي المعرفة كما أعطى للعلوم الشرعية الجانب الآخر من المعرفة الإنسانية، والتي هي متممة للإنسانية الإنسان.³

وأما من حيث المنهج، والطريقة فإننا نجده ينتهج منهجاً مغايراً عن منهج الفقهاء وغيرهم فهو يدعو المتعلمين على أخذ العلوم من أصحابه مباشرة وبطرق مختلفة وإن كان يؤكد على طريقة المحاكاة، والممارسة، بشد الرحال والتجوال بحثاً عن العلم، ويتطلب ذلك راحة العقل من المتعلم فيتأمل ويتيقن فيما يأخذه ويرى أن

1- محمد النجحي : مقدمة في فلسفة التربية، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1981م، ص 90.

2- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلسي حضرمي الأصل، ويعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث، ومن علماء التاريخ والاقتصاد المشهورين، من مواليد 1332-1406 م .

3- عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند ابن خلدون، وابن الأزرق، دار اقرأ للنشر، والتوزيع والطباعة بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1984م، ص72.

تعلم الفنون يكون بحسب رغبة المتعلم فيختار الفن الذي يناسبه ويكون تلقين العلوم مفيدا إذا كان على التدرج شيئا فشيئا ويتناسب وقوة عقله واستعداده لقبول ما يقدم له من علوم.¹

ما نلاحظه أن ابن خلدون قد سبق رجال التربية المحدثين في تأكيده على قدرات المتعلمين، واهتماماتهم، وكذا تأكيده على الممارسة الفعلية كطريقة من طرق التعلم دون التركيز على الجانب النظري، وهذا هو جوهر التربية التقدمية عند الفيلسوف جون ديوي.

ويعد أيضا ابن خلدون من السابقين في ظهور المذهب الزراعي في الفكر الإسلامي وقد سبق الأوربيين، والأمريكان في استخدام هذا المفهوم، وسمي مذهبه التربوي بالذرائعية إشارة إلى أن أهداف التربية لديه أهداف عملية مرتبطة بأغراض الاجتماع البشري بكلمة أخرى إن أهداف التربية خدمة النظام الاجتماعي، وتحقيق مصالحه فعملية التعليم، والعلوم ليست غاية بحد ذاتها، وإنما وسيلة لخدمة الإنسان وإن الغاية من اكتساب المعرفة هي مساعدة الإنسان على تحصيل معاشه والتعاون مع أبناء جنسه، وهذا الرأي يشبه إلى حد كبير نظرية المنفعة لجون ديوي، وتتضح أبعاد البرغماتية لدى ابن خلدون من خلال النظر إلى التعليم كصناعة من جملة الصنائع كما أنه أكد على الطبيعة العملية للتعليم.

1- عبد الأمير شمس الدين : الفكر التربوي عند ابن خلدون، وابن الأزرقي، ص78.

هذه النظرة المهنية التي أنفرد بها ابن خلدون لم يسبقه إليها إلا إخوان الصفا¹ الذين ادخلوا التعليم في باب الصنائع.² نلاحظ هنا أيضا أن ابن خلدون كان له دور فعال في استخدام مفهوم البرغماتية، وهذا من خلال اعترافه بأن أهداف التربية تعتبر أهداف عملية نفعية قائمة على أساس التجربة، والخبرة المكتسبة من الحياة.

ويعتقد الدكتور العراقي محمد جواد رضا بأن المذهب الذراعي النفعي الذي جاء به ابن خلدون هو فتح جديد في الفكر التربوي الإسلامي، فإذا كان المحافظون قد ضيقوا أفق الدنيا أمام العقل الإسلامي، وربطوه بما روى عن السلف، وإذا كان العقليين فكروا في المنهج التربوي تفكيراً مثالياً حيث ضموا إليه كل العلوم التي عدوها قيمة بحد ذاتها فإن ابن خلدون قد رضي من العلوم بما كان موصولاً بحاجات الإنسان المباشرة روحياً، ومادياً هذا الرأي ينسجم مع مفهوم البراجماتية لدى جون ديوي.³ وهذا ما يؤكد عليه محمد جواد بأن المذهب البرغماتي الذي جاء به ابن خلدون طريق مفتوح، ومتطور للفكر التربوي الإسلامي.

كثيراً ما يضرب القرآن الأمثلة في تأسيس المعرفة اليقينية على الإدراك الحسي فهو حين يرد على إفتراءات المشركين يقول عنهم: "مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا"⁴، فهو قد نفى دعواهم لإنشاء

1- إخوان الصفا: هم جماعة من فلاسفة المسلمين من أهل القرن الثالث الهجري والعاشر الميلادي بالبصرة اتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في ذلك العهد فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها "تحف إخوان الصفا" وهنالك كتاب آخر ألفه الحكيم المجريطي القرطبي المتوفى سنة 395 هـ وضعه على نمط تحفة إخوان الصفا وسماه "رسائل إخوان الصفا"، انبثقت جماعة إخوان الصفا تحت تأثير فكر مذهب الإسماعيلية في البصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكانت اهتمامات هذه الجماعة متنوعة وتمتد من العلم والرياضيات إلى الفلك السياسة وقاموا بكتابة فلسفتهم عن طريق 52 رسالة مشهورة ذاع صيتها حتى في الأندلس، ويعتبر البعض هذه الرسائل بمثابة موسوعة للعلوم الفلسفية، كان الهدف المعلن من هذه الحركة "التصاغر للسعي إلى سعادة النفس عن طريق العلوم التي تظهر النفس" من الأسماء المشهورة في هذه الحركة كانت أبو سليمان محمد بن مشير البستي المشهور بالمقدسي، وأبو الحسن علي ابن هارون الزنجاني. انظر حسام حداد: إخوان الصفا، 10 نوفمبر 2018م. <https://www.islamist-movements.com>

2- تركي البيرماني : البرجماتية فلسفة وتربية، الحوار المتمدن، العدد 2116 ، بتاريخ 1-12-2007م. <http://www.ahewar.org/debat/print.art.asp?t=0&aid=117074&ac=1>

3- المرجع نفسه.

4- سورة الكهف، الآية 51.

المشاهدة فمن أين قد أتو بتلك الدعوى؟ إلا أن القرآن يشترط في الحس لكي يكون طريقا للمعرفة.¹

ولقد بات معلوما أن المسلمين هم الواضعون الحقيقيون لأسس المنهج التجريبي ولكن الذي قد لا يكون معلوما للبعض أن متقدمي المفكرين المسلمين كانوا يستخدمون التجربة الحسية أيضا في الاستدلال على صحة معارفهم الإنسانية فنجد مثلا العبارة الآتية " وهذا أمر يشهد به الحس، والتجربة" تتكرر باستمرار في كتابات عالمين كبيرين كابن تيمية²، وابن خلدون للاستدلال على صحة آرائهما المتعلقة بالمعارف الإنسانية وخصوصا مايتعلق بسلوك الإنسان.³ وعلى هذا الأساس لم يكن غريبا أن المفكرين المسلمين كانوا أشد المتحمسين للمنهج التجريبي كطريق علمي لإلتماس المعرفة الصحيحة.

يمكننا القول أن للبرغماتية جذور إسلامية عريقة فأركانها الأساسية الثلاثة العم والتجريب، والمنفعة تعد من المبادئ الأساسية التي نادى بها الدين الإسلامي، وأكد عليها القرآن الكريم في العديد من الآيات، ومن هذا المنظور يمكن ملاحظة المصادر الروحية للبرغماتية، وخاصة عند وليم جيمس الذي قال بأن الفلسفة ثنائية الإتجاه تستوعب الدين، والعلم معا ماداما يبرهنان على قيمتهما العملية النفعية.

لقد امتازت الفلسفة البرغماتية عن الفلسفة القديمة بالمبدأ التجريبي، وتتبع النتائج والوعي الواقعي، إلا أن هذا الامتياز ليس جديدا فإن المذهب التجريبي قد نشأ على

1- محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي " الإسلام الذي تريده أمريكا "، والآثار المدمرة للأفكار النفعية علي المجتمعات الإسلامية، ص30، 31.

2- ابن تيمية هو فقيه، ومحدث، ومفسر، وعالم مسلم مجتهد من علماء أهل السنة والجماعة، وهو أحد أبرز وأشهر العلماء المسلمين خلال النصف الثاني من القرن السابع والثالث الأول من القرن الثامن الهجري، نشأ ابن تيمية حنبلي المذهب فأخذ الفقه الحنبلي وأصوله عن أبيه وجده، من مواليد 1263-1328 م .

3- محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي " الإسلام الذي تريده أمريكا "، والآثار المدمرة للأفكار النفعية علي المجتمعات الإسلامية، ص31 .

أيدي الفلاسفة المسلمين الذين أخضعوا الفلسفة اليونانية الذهنية للتجربة العملية.¹ و تحديداً على يد العالم الكيميائي جابر بن حيان الذي يؤكد على التجربة إذ قد تكون الظاهرة المشاهدة حدثاً عابراً لا يدل على إطراد في الطبيعة، وكذلك الحال في استنباط النتائج واستقرائها التي تغنى بها الغربيون كثيراً، وعدوها من انجازاتهم الفكرية غير المسبوق.²

معنى هذا أن الفلسفة البرغماتية تعتبر التجربة هي مصدر المعرفة الحقيقية مع التأكيد على النتائج العملية لأي فكرة أو تجربة، فهي فلسفة عملية مادية تعتمد على التجربة في المقام الأول.

فالتجربة، وما يترتب عليها من نتائج عملية هي المحك لقبول الأفكار أو ردها، كما يقول بيرس: "فالفرضية يجب أن تكون قابلة للاختبار بواسطة التجربة بقدر ما هي قابلة للعمل".³ ويقول: "أي فرضية يمكن أن تكون مقبولة شريطة أن تكون قابلة للتحقيق التجريبي وفقط بقدر ما تكون قابلة لمثل هذا التحقيق، وهذا على نحو تقريبي اتجاه البرغماتية"⁴، ويضيف أيضاً: "لكي نتأكد من معنى أي مفهوم عقلي يجب أن نأخذ بعين الاعتبار النتائج العلمية التي يمكن أن تحصل بالضرورة من ذلك المفهوم، ومجموع تلك النتائج يشكل المعنى التام لذلك المفهوم".⁵ المقصود من قول بيرس أنه لا يمكن الوصول إلى معاني الأفكار، وتفسيرها إلا من خلال النتائج العملية المترتبة عليها عبر الممارسة، والعمل.

1- أنور الجندي: الفكر الغربي دراسة نقدية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى سنة 2001م، ص 25.

2- منصور بن عبدالعزيز الحجيلي: البرجماتية عرض ونقد، دار الكتب الجديدة المتحدة، لبنان، سنة 2004م ص 313.

3- علي عبد الهادي المراهج: الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 14.

4 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

5- محمد خصر عوض شبير: دراسة ناقدة للفلسفة البرجماتية في ضوء المعايير الإسلامية، ص 20.

ولم يسلم الدين الإسلامي أيضاً من التفسير النفعي في ضوء الفلسفة البرغماتية فإن اعتبار شروط وجود الدين، وأصوله، ونشأته لا أهمية لها عند من يسأل عن قيمة الدين لأن قيمته فيما ينتجه.¹

وهذه هي النظرة البرغماتية للدين لأن الدين عند البرغماتي لم يكن موضعاً للبحث في ذاته، وجوهره، وإنما أثار الإنفعال الديني هي موضع البحث، انطلاقاً من رؤيتنا الفلسفية المحضة يمكننا أن نتساءل: هل هذه الآثار الحسنة تحقق الأمل أم لا تحققه؟، وهل يمكن الحصول عليها بطريق أخرى خلاف الطريق الديني؟، مما يعد تجاوزاً للعقل في تفكيره وإرهاقاً له، ناهيك عن كونه تحويل الدين إلى قيمة مادية ملموسة لها نفع وفي يوم آخر لانفع لها.

كثيرة هي الآيات القرآنية التي قرنت بين العمل والإيمان بالله تعالى، ومن هذه الآيات على سبيل المثال قوله تعالى: "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"²، وإن كان لذلك من دلالة فإنما يدل على المنزلة التي أولاها الإسلام للعمل، حيث لا تقل مرتبته عن مرتبة الإيمان بالله سبحانه وتعالى.³ لقد دعا الإسلام إلى التجارة براً وبحراً طلباً للرزق، فقد قال تعالى في كتابه الحكيم: "فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ"⁴، وكذلك قوله تعالى: "تَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ"⁵.

1- أميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1973م، ص247.

2- سورة البقرة، الآية 25.

3- ماهر أحمد السوسي: مفهوم العمل في الإسلام، بتاريخ 29-01-2016م.
www.alkhaleej.ae/supplements/page/b8611b28-30e9-4676-a140-9a237a78b3b

4- سورة الجمعة، الآية 10.

5- سورة النحل، الآية 14.

كما رفع الإسلام من قيمة الزراعة، وشجع الناس عليها ووعد بثواب عظيم، ذلك لأنهم يعمرون الأرض ويستخرجون خيراتها، ويفيدون العباد، فقد قال تعالى في كتابه الكريم: "وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ".¹ معنى هذا أن الله أجرى الينابيع في الأرض لتروى بها الزراعة، ويأكل الناس من ثمارها.

ويتضح من كل ما سبق أن مفهوم الإسلام، والمسلمين للعمل كان شاملاً، فكل جهد وعمل مشروع مادي أو معنوي هو مجال عمل يحث عليه الإسلام، ويثيب على القيام به²، وهذا مانجده أيضاً لدى البرغماتيين، فالعمل الإنساني هو بالتأكيد موضوع اهتمام رئيسي، وبرغم ذلك من فإن هذا الاهتمام لا يتركز على حركة أو نشاط.³

يذهب ديوي إلى أن حرية الفرد الخلقية، تعتمد على ثلاثة عناصر رئيسية لكي تتحقق، وبإنتقاء واحداً منها تنتفي معها الحرية، وهذه العناصر هي أولاً: القدرة في العمل، ثانياً: إمكانيات جديدة، ثالثاً: قوة الرغبة، أما بالنسبة للقدرة في العمل تعد هذه القدرة أساسية ومهمة في تحديد وتعريف الحرية، ذلك أن الإنسان إذا كانت لديه القدرة في القيام بعمل معين، كان حراً في القياس بهذا العمل، وهذه القدرة في نظر ديوي تعتمد أساساً على الذكاء، الذكاء هو مفتاح الحرية في العمل، فنحن نميل إلى أن نكون قادرين على التقدم بنجاح بالدرجة التي نكون فيها قد استثمرنا الظروف وشكلنا مخططاً يسجل تعاون هذه الظروف واتفاقها معه.⁴

1- سورة يس، الآيات 33، 35.

2- شيخة بنت سيف آل نهيان : مفهوم العمل في القرآن الكريم ، مجلة المسلم المعاصر، لبنان، العدد 144 سنة 2012م ، ص 138، 109.

3- تشارلز موريس : رواد الفلسفة البرجماتية، ص 24 .

4 - جون ديوي : الطبيعة البشرية، والسلوك الإنساني، ص 318.

يتبين لنا من خلال هذا الطرح أن الحرية الميتافيزيقية عكس الحرية الواقعية، لأن الحرية الواقعية تؤدي إلى زيادة في القدرة، والكفاءة في العمل مما يؤدي ذلك إلى الانسجام بين الإنسان، وبيئته الطبيعية.

من أبرز سمات المنهج الإسلامي أنه منهج عبادة إن العبادة في الإسلام هي الوسيلة الوحيدة لتربية الروح العبادات المفروضة من من صلاة، وزكاة، وصيام وحج كلها قد قصد بها تربية الروح، وهي تواجه الحياة الواقعة بما فيها من مشكلات وعقبات، والصلاة خاصة هي جوهر العبادة، وركنها الركين، ومن ثم كانت العناية الشديدة التي يوجهها إليها الإسلام¹. في قوله تعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"² وفي الصيام قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"³ معنى هذا أن فضل الصوم عظيم، وثوابه جسيم.

وفي الزكاة قال الله تعالى: "فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"⁴ يظهر لنا من خلال هذه الآية أن الزكاة تطهرنا من شح النفس، إنها إحساس بالأخوة النبيلة التي تجمع الأسرة البشرية الواحدة.⁵

وفي الحج قال الله تعالى: "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لِيُقْضَىٰ أَفْئَتُهُمْ وَلِيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ

1- محمد قطب : منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، بيروت، لبنان، الجزء الأول، سنة 1993م، ص 63.

2- سورة البقر، الآية 110.

3- سورة البقرة، الآية 183.

4- سورة التوبة، الآية 11.

5- محمد قطب : مناهج التربية الإسلامية، ص 65.

لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ.¹

تلك هي العبادات المفروضة، ولكنها ليست كل عبادة الإسلام، إن الإسلام يوسع معنى العبادة حتى تشمل كل الحياة وحدة الشعائر التعبدية من صلاة، وصيام وزكاة وحج، وتوجه إلى قبلة واحدة.. إلخ، ووحدة الهدف وهو بلوغ رضوان الله تعالى ووحدة في المعاملات التي أمر الله بالقيام بها، ووحدة في الأوطان، وبذلك يكون الإسلام قد اهتم بالعمل بكلا المفهومين الاقتصادي والديني، وأثاب عليه وحث على القيام به.²

وهذا مانجده أيضا عند البرغماتية عندما ربطت الإيمان الفردي بالعمل كما ربطت الديمقراطية الأمريكية، والحقيقة بالفاعلية، وربما أيضا القول بالعمل باعتبار أن البرغماتية هي الفلسفة الوحيدة التي حتى اليوم ما زال يلعب فيها الفعل والأثر دورا سياسيا، واقتصاديا، وتقنيا، فالبرغماتية دعمت الديمقراطية وحمتها من الفوضى لأي مصداقية أو مضمون كما أنها قد أسهمت في توطيد الديمقراطية الفاعلة وفتحت من من خلالها كل الأبواب أمام حرية التعبير، والتفكير، والعمل وهي الحرية التي لا تقيم مثل صاحبها إلا بأثرها العملي في الواقع هذا بالإضافة، إلا أنها كانت من الفلسفات المتقابلة بالإنسان.³ فالفلسفة البرغماتية من الفلسفات التي اهتمت بالإنسان الفرد، ووضعت في المقام الأول، وذلك أن الفرد حامل الفكر المبدع وصانع العمل وصاحب تطبيقه كما تقول.⁴ بالرغم من ربط البرغماتية الإيمان الفردي بالممارسة العملية، وجعل الفرد في المركز الأول ووضع أفضل فالمبرر الوحيد للإيمان الديني بأي شيء هو العمل به وتطبيقه، وبالتالي تحقيق المصالح والوصول إلى الأهداف

1- سورة الحج، الآية 27 ، 30.

2- محمد قطب : مناهج التربية الإسلامية، ص 66.

3- حيرش سمية : الحقيقة البرغماتية بين الاعتقاد، والعمل شارل سندر بيرس نموذجاً، ص 20.

4 - محمد جلوب فرحان : دراسات في فلسفة التربية، مطبعة التعليم العالي بجامعة الموصل، العراق، سنة 1989م، ص 114.

المنشودة والحياة الفاعلة المفعمة بالخبرات الناجحة والمثمرة، فالفلسفة البرغماتية كان تركيزها على الخبرة، والممارسة، والفكر العملي في خدمة المجتمع الديمقراطي، وحل الصعوبات التي تواجهه في حياته اليومية، ولكن بالرغم من هذه الإيجابيات إلى أنها لا تخلو من السلبيات.

تعقيب:

لقد آمنت الفلسفة البرغماتية بنسبية القيم، واعتبرت الخبرة مصدر هذه القيم، وركزت على جانب النفع المادي للقيم دون الجانب الروحي، وهو ما كان مرفوضاً من قبل الدين الإسلامي حيث أن القيم في الإسلام نسبية، ومطلقة، ومصدرها القرآن والسنة النبوية المطهرة، والتي اهتمت بالجانب الروحي وبالنفع المادي، والمعنوي من أجل الفرد والمجتمع.¹

ومن زاوية أخرى فإن هناك فروق شاسعة بين الإسلام، والبرغماتية فليست الأفكار في الإسلام بنتائجها بقدر ماهي بمقاصدها، وكذلك فإن شمولية الإسلام التي هي من أهم خصائص الإسلام نظرت إلى منافع ومصالح الناس في الدنيا والآخرة كما أن الإسلام نظم العلاقات النفعية المتبادلة بين الأفراد، والجماعات دون إعتداء طرف على طرف أوجهة على جهة، وهذا ما لانجده عند الفلسفة البرغماتية، فهل الإسلام ضد القوة؟، وهل هو ضد اللذة؟، أو المنفعة؟² المقصود هنا أن الفلسفة البرغماتية تسعى إلى تحقيق مصالحها في الدنيا، أي نتائج مادية بحتة بدون النظر إلى عواقب هذه الأفعال، المهم الربح السريع، والشهرة، والحرية التي ليس لها أي حدود، أما الدين الإسلامي غايته أبعد من هذا بكثير فإنه يجمع بين الدنيا والآخرة هذا من جهة ومن جهة أخرى حرية الفرد مرتبطة بحكم الشرع، وهكذا يفوز الإنسان المسلم بسعادة الدارين.

1- محمد خضر عوض شبير: دراسة ناقدة للفلسفة البرجماتية في ضوء المعايير الإسلامية، ص 65.

2- أحمد إدريس الطعان : أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي، والغربي دراسة مقارنة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية، والقانونية، المجلد 27 ، العدد الثالث، سنة 2011م، ص 335.

لا مرأ في أن الإسلام هو دين القوة فقد قال سبحانه: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ".¹

و لا بد هنا من ملاحظة أن الآية الكريمة تشمل كل أنواع القوة، بما في ذلك القوة العسكرية، والمادية، والجسدية، فضلاً عن القوة المعنوية، والنفسية، وخصوصاً أن الآية الكريمة تلفت النظر مباشرة إلى جانب من جوانب القوة النفسية، وهو الانتصار على عنصر البخل الذي لا ينفك عن النفس البشرية، والدعوة للتغلب عليه بالإنفاق في سبيل الله، وتعويد النفس على البذل والعطاء.²

ففي الوقت الذي تريد الفلسفة البرغماتية التخلص من الضعفاء، وإبادتهم وقد فعل الأمريكيون ذلك في إفريقيا وفي البلاد العربية، والإسلامية، فإن الإسلام يعد الحياة لاتخلو من الضعفاء، والفقراء يلغيان إنسانية الإنسان، وكرامته بل فيهما خير وقد يكون خيراً عظيماً.³

وهكذا فالقوة في الإسلام تكون بالرحمة، والإنصاف، والفرق بين المنظور الإسلامي للقوة، والمنظور البرغماتي هو أن القوة في الإسلام لردع الشر، أما في الفلسفة البرغماتية فكما رأينا القوة هي الفرعة، وهي ليست لخدمة الإنسانية، وإنما لخدمة لون من ألوان الإنسان هو الإنسان الأبيض.⁴ معنى هذا أن الدين الإسلامي رحيم بالعباد على عكس الفلسفة البرغماتية التي تستخدم القوة في جميع المجالات، وهذا ما نلاحظه اليوم في العديد من الدول المستعمرة.

1- سورة الأنفال، الآية 60.

2- أحمد إدريس الطعان : أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي، والغربي دراسة مقارنة، ص335.

3- المرجع نفسه، ص336.

4 - المرجع نفسه، ص335.

فقد أباح الإسلام للإنسان الاستمتاع بالطيبات من الحياة الدنيا قال عزو جل: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ".¹

إن الإسلام يلبي حاجات الإنسان، ومنافعه بواقعية، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: "اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ" وحيثما كانت المنفعة والمصلحة فثم شرع الله²، ولكنه يمزج هذه الدعوة بالإيثار، والتفاني ويحذر من الأنانية قال عزوجل: "وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ".³

معنى هذا أن المصالح في الإسلام مترتبة بحسب الأهمية الدين فالنفس، فالعقل فالعرض، فالمال كذلك فإن مصلحة الجماعة البشرية مقدمة على المصلحة الفردية لكن الفارق الأهم بين الدين الإسلامي، والفلسفة البرغماتية في هذه المسألة هو أن المصلحة والمنفعة في دين الله عزوجل ليست قاصرة فقط على المنظور الدنيوي والأصل في دعوة الإسلام أنها دعوة إلى الآخرة، والفوز بالجنة.

لقد جعلت المفاهيم البرغماتية من المنافع، والملذات المعايير القيمية للمجتمع التي تقاس عليها باقي القيم الأخرى، أي أن الشيء الذي ينظر إليه بإزدراء شديد من وجهة نظر الإسلام صار هو القاعدة الأساسية للقيم ذاتها لدى البرغماتيين، ولذلك فإن المسلم الحقيقي، والإنسان البرغماتي يسيران في خطين متعاكسين تماما.⁴

1- سورة الأعراف، الآية 32.

2- أحمد إدريس الطعان : أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي، والغربي دراسة مقارنة، ص337.

3- سورة الحشر، الآية 9.

4 - محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي "الإسلام الذي تريده أمريكا" ، والآثار المدمرة للأفكار النفعية علي المجتمعات الإسلامية، ص92 .

فأين هذه المفاهيم المتدنية التي يريدون أن يجعلوا منها الأساس القيمي للإنسان من المفاهيم الإسلامية السامية التي يقيم الإنسان على أساسها يقول تعالى: "زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَإِ".¹

من هنا كان لبد القول أن المجتمع الأمريكي مجتمع لا يهدأ من الصراع، لا يقوم إلا على تحقيق المصالح الشخصية، ودون اعتبار لأي أمر آخر، يقول الشهيد المصري سيد قطب "1906-1966م" في إحدى مقالاته التي كتبها عن إنطباعاته الخاصة عن المجتمع الأمريكي: "إن الحيوية المادية عند الأمريكي مقدسة والضعف أي كانت أسبابه جريمة لا يغتفرها شيء، وحكاية المبادئ، والحقوق خرافة في الضمير الأمريكي لا يتذوق لها طعاما كن قويا، ولك كل شيء أو كن ضعيفا فلا يسعفك مبدأ ولا يكون لك مكان في مجال الحياة الفسيح".² معنى هذا الترسخ في الأذهان أن المصالح الفردية هي الغايات الوحيدة للبشر، والمجتمع ومن ثم فإن معيار القوة قد صار يعني مدى القدرة على تحقيق هذه المصالح، والمنافع المادية، ولأن ذلك يرتبط بدوره بمدى قدرة الإنسان على إنتهاج الأساليب البرغماتية الإنتهازية.

فلا غرابة إذا وجدنا البرغماتي يتناول المسائل الدينية من وجهة نظر الحاجات الإنسانية ذاتها، فلا يشغل نفسه كثيرا بالبحث عن أدلة لإثبات وجود الله تعالى، وإنما هو يمضي مباشرة إلى الوقائع، فيجعل بدئه هي "التجارب الدينية" وانطلاقا من هذا الموقف يمكننا أن نفهم قول مؤسس البرغماتية وليم جيمس عندما سئل عن الدين فقال: " لست أدري هل هو حقيقي أم لا ؟ ولذا سأضعه موضع التجربة".³

1- سورة آل عمران، الآية 14.

2- محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي "الإسلام الذي تريده أمريكا"، والآثار المدمرة للأفكار النفعية علي المجتمعات الإسلامية، ص95.

³ - W. James: **Varieties of Religious Experience Pragmatism**, Meridian Books, Newyork ,1959, p.477

ولذلك فهو لا ينظر إلى الدين باعتباره طقوساً أو فرائض، وإنما ينظر إليه باعتباره شعوراً أو عاطفة ذات فائدة مباشرة، فعلى الرغم مما يكتنف التجربة الدينية من قلق وصراع، فإنّ من المؤكد أنّ شعور الإنسان بوجود قوة عليا تستطيع أن تجد لديها العون من شأنه أن يأخذ بيدها دائماً في هذه الحياة.¹

والدين عند البرغماتيين أمر شخصي في جوهره، وليس من المهم أن نعرف الأسس النظرية التي تقوم عليها عقائد الدين، بل المهم أن نقف على ثماره ونتأججه، وأفعاله وذلك على مستوى الدين كله من أعلى قمته وهو "الله" سبحانه وتعالى إلى آخر ما يمكن أن تعتبره أمراً دينياً، فالله عندهم كما يقول جيمس في كتابه "البرجماتية": "إذا كان فرض الله يعمل عملاً مشبهاً بأوسع معنى للكلمة، فهو صادق وذلك لأن البرجماتية لا تنبذ أي فرض إذا كانت هناك نتائج مفيدة للحياة كامنة فيه."²

وإذا عدنا للتاريخ قد نجد تأكيداً لفكرة الفلسفة البرغماتية في التراث الإسلامي، حيث أن جيمس يقبل، وأتباعه البرغماتيون كلّ القيم الدينية مادام لها فائدة عملية في حياة البشر، ومن ثمّ فلا مانع أبداً عند الغربيين من تقديس ما هو سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي إذا كان سيعود بالنفع المباشر عليهم، فلا غرابة أن يقول جورج بوش George Bush عندما قام بغزو العراق زاعماً أنّ ما يقوم به هو "حرب صليبية" والآن تقول الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إنّ الحرب على سوريا "حرب مقدّسة."³

وهذا عين ما قصدته بالإستخدام النفعي للدين في المجتمعات الغربية القديمة والمعاصرة، لكن نمط التعامل مع الدين بمنظور نفعي هو جوهر باطن الإثم الذي

1- غيضان السيد علي : الإستخدام النفعي للدين في الغرب، الحوار اليوم، بتاريخ 4-18-2016م.

<http://www.alhiwartoday.net/node/10600>

2- المرجع نفسه.

3- محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي "الإسلام الذي تريده أمريكا"، و الآثار المدمرة للأفكار النفعية على المجتمعات الإسلامية، ص15.

قال عنه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي¹ إنه الخطر الأكبر الذي يواجه المسلمين، وهو أحد الأشكال المهمة للتدين الفاسد الذي يندد به دائما به دائما شيخنا الجليل محمد الغزالي². المقصود من قول محمد سعيد رمضان البوطي أن الفلسفة البرغماتية تسعى إلى تحقق منافعها باسم الدين، وهذا في حقيقة الأمر يشكل خطر كبير على المسلمين، والأمة الإسلامية جمعاء.

من خلال ماتقدم يمكننا القول أن الفلسفة البرغماتية هي التي تجعل من المنفعة العملية المعيار الوحيد، والفيصل للحكم على المعطيات الفكرية، فالحقيقي هو كل ما يأتي عن التجربة والخبرة، أما كل ما هو غير ذلك فهو لاشيء، وفي الحقيقة فإن الأفكار، والممارسات العملية النفعية البرغماتية ليست جديدة تماما على الفكر والسلوك الإنساني، ولكنها تمثل تطورا، وتنسيقا لبعض الأنماط الفكرية، والسلوكية القديمة، وهذا مانجده في التراث الإسلامي بالرغم من الكثير من الاختلافات بينهم وبناء على هذه المعطيات إتضح لمعظم المفكرين، والعلماء المحدثين أن الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية ترتبط ارتباطا واضحا بتاريخ الفكر الغربي الحديث وبالتالي فإذا أردنا تتبع تطورها بصورة دقيقة، ومفصلة فإن الأمر يتطلب استعادة هذا التاريخ بكامله، وهو ما لا يمكننا القيام به في هذا المجال، فكل مانستطيع القيام به هو الإشارة إلى المنعطقات البارزة التي مهدت وأعطت الدافع للظهور وتبلور الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية في التراث الحديث.

1- محمد سعيد رمضان البوطي : عالم سوري متخصص في العلوم الإسلامية، ومن المرجعيات الدينية الهامة على مستوى العالم الإسلامي، حظي باحترام، وتقدير كبير من قبل العديد من كبار العلماء في العالم الإسلامي اختارته جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في دورتها الثامنة عام 2004 م ليكون "شخصية العالم الإسلامي" من مواليد 1929 - 2013م.

2- محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي " الإسلام الذي تريده أمريكا"، و الآثار المدمرة للأفكار النفعية على المجتمعات الإسلامية، ص15 .

رابعاً: الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الحديث:

سوف نقفز قفزة مديدة نتجاوز مدة ألف سنة هي مدة العصر الوسيط التي تعدها أوروبا مدة ظلام في تاريخها لنطل الآن على عصر النهضة، وعصر التنوير إن المكونات التي جاء بها عصر النهضة، والتنوير، والتي حملها الآباء المؤسسون شكلت اللبنة الأولى لمنهج التفكير الجمعي للمجتمع الأمريكي منذ بداية تشكله وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتبدأ معه تحولات فكرية جديدة تشكلت وفق معطيات، ومتغيرات اجتماعية جديدة أيضاً، وعلى هذا إذا كان القرن الثامن عشر يمثل القرن الذي ترسخت فيه أفكار، ومبادئ الحرية الفردية فإن القرن التاسع عشر، وخصوصاً في نصفه الثاني مثل الرحم الذي يخلق فيه جنين فكر جديد هو الفكر البرغماتي الذي أصطلح الجميع على أنه يمثل الفكر الأمريكي الرسمي الأمر الذي دفع بالبعض إلى وصفه بالعصر الذهبي للفلسفة الأمريكية أو أنه العصر الذهبي للفلسفة البرغماتية على حد قول "أ.ك. جينوفا Niccolò Giustiniani Génova: "الذي يؤكد على أن البرغماتية فلسفة أمريكية المولد والنشأة".¹ يعني هذا أن الفلسفة البرغماتية فلسفة أمريكية تركز على نتائج الأفعال وترفض البحث النظري الذي يبحث عن جوهر الأشياء، ومصادرها.

ينظر إلى البرغماتية بوجه عام باعتبارها وليدة الفلسفة الأمريكية، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه الآن: هل حقيقة أن البرغماتية وليدة الفلسفة الأمريكية؟، الواقع إنها ترتبط بالتراث التجريبي البريطاني الذي يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف إلا خبراتنا الحسية.² فديوي، وهو يشرح جانباً من تاريخ المذهب البرغماتي وفي جزء واسع منه مع وليام جيمس الذي عمل على توسيع مضمون البرغماتية، يقول واصفاً ذلك: وهكذا تبدو البرغماتية كما لو كانت توسعا في التجريبية التاريخية، مع فارق أساسي

1- عبد القادر محمد فهمي: الفكر السياسي، والاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية دراسة في الأفكار والعقائد ووسائل البناء الإمبراطوري، ص 56.

2- جون ديوي: نمو الفلسفة البرغماتية الأمريكية، في "فلسفة القرن العشرين"، نشرها داجوبرت د رونز ترجمة عثمان نويه، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1963م، ص 242.

هو أنها لا تركز عنايتها في ظواهر سابقة، بل في ظواهر لاحقة، وهذا التغير في وجهة النظر يكاد يكون ثوريا في نتائجه.¹ المقصود هنا أن الفلسفة البرغماتية فلسفة عملية مرتبطة بحياة الأفراد، وتحقيق مصالحهم من خلال أسلوب برغماتي نفعي، يسعى لحل المشكلات الإنسانية.

ثم يضيف شرحه للتمييز الذي أوضح فيه الفارق بين برغماتية جيمس وهي تجريبية منحدر من النزعة الإنجليزية فيقول: "إن التجريبية التي تقنع بتكرار وقائع مضت بالفعل لأمجال فيها للإمكان، ولا للحرية، ولا يمكنها أن تجد مكانا للنظريات، إلا في صورة تسجيلات لكن إذا نظرنا نظرة برجماتية، وجدنا أن الأفكار العامة لها دور يختلف جدا عن دور رواية التجارب الماضية وتسجيلها، إنها الأسس التي يقوم عليها تنظيم ملاحظات المستقبل، وتجاربه وبينما التجريبي الذي يتناول عالما تم بنيانه ألا يكون للعقل من معنى عنده غير تلخيص حالات خاصة، فإن البرغماتي الذي لا يكون المستقبل عنده مجرد لفظ من الألفاظ تكون عنده النظريات، والأفكار العامة لها نتائج عملية، وبهذا يكون للعقل بالضرورة وظيفة إنشائية".²

يؤكد جون ديوي إذن، في نصه السالف الذكر على نقطتين:

1- من جهة أولى يدفع اتهام خصوم البرغماتية القاضي بخلوها من كل تفكير عقلائي، رغم أنها لا تقتصر إلى مثل هذا التفكير بقدر ما ترفض الغلو في الجانب النظري.³

2- ومن جهة ثانية فهو يقدم صورة عن طموحات الفعل الفلسفي البرغماتي الذي لا يرى ضرورة من التبرير العديم الجدوى، بل يريد أن يحقق نتائج في الواقع الفعلي الملموس، نتائج عملية تكون بدورها عاملا مساعدا في صياغة النظريات، هذا يعني

1- جون ديوي: نمو الفلسفة البرجماتية الأمريكية في "فلسفة القرن العشرين"، ص 242.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

William James **Le Pragmatisme**, p 14³

أن الفلسفة البرغماتية في حقيقة الأمر ليست نباتا جديدا منقطع الصلة بالماضي فيها هو ذا أحد أعلامها **وليام جيمس** أيضا يقول عنها بأنها: " اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير".¹

فماذا يعني هذا؟، أكان التفكير فيما مضى مصطبغا بنفس الصبغة العلمية العملية التي تميز الفلسفة البرغماتية؟، وإن كان الأمر كذلك فأين الجديد؟، أم هي جدة في الاسم وحده؟، أما الطريقة فقديمية كما هو ظاهر المعنى في عبارة **وليام جيمس**؟ الجواب على ذلك يردنا إلى الفلسفة الإنجليزية التي كانت بغير شك وثيقة الصلة بالاتجاهات الفكرية في الولايات المتحدة الأمريكية حتى لقد ظلت هذه الاتجاهات لها صدى قبل أن تتمخض عن لون أمريكي صريح، وطابع متميز فريد فالوجهة السائدة بين فلاسفة الإنجليز **فرنسيس بيكون**، و **جون لوك**، و **بركلي**، و **دفيد هيوم** و **جون ستيوارت ميل** هي الاعتماد على الخبرة الحسية أي على التجربة كما تأتي بها الحواس.² فلا جديد من هذه الناحية أعني أنه لا جديد في انصراف المذهب البرغماتي إلى عالم الواقع كما يتبدى لخبراتنا الحسية لكن الجديد هو في استبدال النظر إلى المستقبل بالنظر إلى الماضي، فالتجريبية الإنجليزية تلتفت إلى الماضي والبرغماتية الأمريكية تنظر إلى المستقبل ذلك أن الفيلسوف الإنجليزي عندما أراد تحليل المعرفة الإنسانية شغل نفسه بردها إلى أصولها، وبالنظر في كيفية اتصالها بتلك الأصول.³

أما المذهب البرغماتي فيربط معارفنا بعالم التجربة لا من حيث النشأة بل من حيث النتائج، فالفيلسوف البرغماتي الأمريكي يقف أمام فكرة تعبر عن واحدة من أفكارنا لا يسأل كما يسأل زميله الإنجليزي كيف نشأت؟، بل يسأل نفسه عن ما هي النتائج التي تترتب على هذه الفكرة في عالم الواقع؟، ومما هو ملفت للنظر أن التجريبية

1-William James **Le Pragmatisme** p 14

2- زكي نجيب محمود: **حياة الفكر في العالم الجديد**، دار الشروق بيروت، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2001م، ص115، 117.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الإنجليزية قد اتجهت نحو النتائج في مجالين من مجالات التفكير في مجال العلوم ومجال الأخلاق لكنها لم تتجه هذه الوجهة في بقية التفكير النظري.¹

فجاءت البرغماتية الأمريكية لتكمل هذا النقص، وتجعل النظر إلى النتائج مبدأ شاملاً للميادين الفكر جميعاً، نعم لقد كان النظر إلى النتائج العملية هو رائد الباحث في العلوم، فلم يكن مقياس الفرض العلمي الذي يفرضه العالم في محاولته لتفسير الظاهرة الطبيعية إلا ما يترتب على هذا الفرض من نتائج، فإذا وجدت النتائج المترتبة على الفرض مطابقة لما يحدث في الواقع أصبح الفرض نظرية علمية مأخوذاً بها كما هو الحال في **مذهب المنفعة الذي أخذ به مل**، ومؤداه أن الفعل يكون فضيلة أو رذيلة حسب ما يترتب عليه من نتائج تسعد الناس أو تشقيهم، فإذا كان النظر إلى النتائج العملية في عالم الواقع هو مقياس الحكم على الفروض العلمية، ومقياس الحكم على الأفعال حكماً خلقياً، فلماذا لا يكون هو نفسه مقياس الحكم كائناً ما كانت؟، لماذا وأنت إزاء فكرة ما تريد الحكم عليها بصواب أو بخطأ لا تنظر إليها من حيث نتائجها؟، فإن أنتجت عملاً تصلح به حياة الإنسان كانت فكرة صائبة، وإلا فهي فكرة خاطئة هذا هو أساس الفلسفة البرغماتية التي هي طابع الفكر الأمريكي الحديث.²

فإذا كانت البرغماتية الأمريكية اسماً جديداً لطريقة قديمة فذلك لأن الطريقة كانت متبعة، ولا تزال متبعة في ميدان العلوم وفي ميدان الحياة اليومية، ثم أمسك الفلاسفة عن تطبيقها في مجال تفكيرهم النظري، **"فالطريقة قديمة كانت ولا تزال قائمة، وأما الجديد فهو تعميمها على كل ظروف الفكر"**، والفضل في هذا الجديد هو أولاً لبيرس الذي وضع الأساس ثم لـ جيمس، وديوي اللذين سار على نهجه بعد القيام بشيء من التعديل عند كل واحد منهما.³

1- زكي نجيب محمود: **حياة الفكر في العالم الجديد**، ص 115، 117.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- زكي نجيب محمود : **حياة الفكر في العالم الجديد**، ص 115، 118.

لكن إذا أردنا أن نتعمق أكثر في إمتداداتها الجذرية في التراث الفلسفي الأوروبي فإننا سنتطرق إلى بعض فلاسفة العصر الحديث، ونبين مدى تأثيرهم العميق في الفلسفة البرغماتية.

1- نيكولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus "1473-1543م"، و جاليليو جاليلي Galileo Galilei "1623-1662م":

كوبرنيكوس أقام نظرية في الفلك مغالة للنظرية البطليموسية التي كانت قائمة على أساس المركزية الجغرافية للأرض ومع أن الفرض الكوبرنيقي قد يبدو مفتقرا في تأييده للملاحظات، والحساب المحكم فقد رأى كوبرنيك أن صحة الفرض تقوم على ملائمة للواقع، ومن هذه الناحية كانت نظريته صحيحة، وقد ذهب جاليليو إلى أن المنهج العلمي كما يمارسه لا يضمن لنا معرفة أصلية لطبيعة الواقع لأنه يتعلق بنظم رياضية للعالم الملاحظ وليست هناك وسيلة للتعامل مع الواقع المتحول.¹

ويرى الفيلسوف الأمريكي وليام كلباتريك Kelpatric "1871-1965م" أن أهم عامل ساعد على أن يوصف العصر الحديث بأنه عصر التغيير هو ما يسميه بـ "الفكر المختبر"، ويقصد به ذلك النوع من الفكر الذي يخضع للاختبار، وتكون نتيجة الاختبار هي الحاكمة في عملية القبول فمثل هذا النطق يؤدي إلى المراجعة الدائمة، والتجديد المستمر، وهو في هذا الشأن يستشهد ما قام به جاليليو من إخضاع رأي لأرسطو للاختبار، وبعد أن ظل العالم قرونا ثابتا على رأي أرسطو دون اختباره إذا بجاليليو يثبت خطأه فيفتح الباب بذلك لتدفق في الفكر العلمي الذي أدى بدوره إلى الكثير من صور التغيير.²

ولم يكن تراكم الأفكار الموثوق بها وحده هو العامل الذي أدى إلى خلق العالم الحديث، وإنما صاحب هذا التراكم ميل إلى تطبيق هذه الأفكار لتحسين الحياة الإنسانية حقا إن الأمر لم يسر على هذا المنوال دائما ففي بلاد الإغريق لم يكن للتطبيق العملي شأن

2- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 47.

3- سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 198، سنة 1995م، ص 72 .

يذكر، ولم يكن هدفا يسعى إليه. أما الآن فإن الميل إلى تطبيق الفكر يبلغ أقصاه أن بعض مظاهر هذا التطبيق العملي تلقى معارضة من بعض الأوساط، ولكننا لا ننشد هنا بيان قيمة التطبيق، وإنما ننشد الإشارة إليه فقط.¹

2- نيكولو ميكافيلي "Niccolò Machiavelli" 1469-1527 م "وتوماس هوبز Thomas Hobbes" 1588 - 1679م:

وجه ميكافلي ضربة قوية للأخلاق المسيحية لأنها بنظره أوهنت من عزيمة الإنسان، وأسلمت الدنيا لأهل الجراءة، ولذلك فهو يفضل الوثنية على المسيحية لأن الوثنية بنظره توجه تمجد الصحة، والقوة وتضفي هيبة على القادة في حين المسيحية تحض على التواضع، والضعف، وهكذا بعد ألف سنة من سيادة المسيحية التي رفعت شعارى المحبة، والتواضع حين قال المسيح عليه السلام: "من لطمك على خدك الأيمن فأدر الأيسر".²

والأساس الثانى للأخلاق عند ميكافلي هو "أن الغاية تبرر الوسيلة" ولذلك يجب على الحاكم بنظره أن يكون مكرما مكر الذنب، غادرا غدر الثعلب وأن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة، والخير، وأن يحسن استخدام مبدأ فرق تسد ولكن عليه فى الوقت نفسه أن يكون ماهرا فى إخفاء صفاته المرذولة بارعا فى الرياء، وإظهار الصفات الحميدة بل، وحتى التدين الشديد.³

ويدعو الفيلسوف ميكافلي المستعمر إلى التخريب فهو الوسيلة للإبقاء على المستعمرات السيطرة، فمن يصبح حاكما لمدينة حرة، ولا يدمرها فليتوقع أن تقضى عليه وبالطبع هذا ما مارسه الاستعمار قديما فى الجزائر، ومصر وسوريا وهو ما تفعله اليوم أمريكا فى العراق، وأفغانستان.⁴

1- سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، ص 72 .

2- أحمد إدريس الطعان : أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامى، والغربى دراسة مقارنة، ص 327.

3- ميكافلي : الأمير، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة، سنة 2004م، ص 91 ، 90 ، 98.

4 - المرجع نفسه، ص 37.

ولذلك فإن الطغاة اعتنوا كثيرا بقراءة كتاب **مكيافلي**، واحتفظوا به عندهم وتتلّمذوا عليه فقد كان موضوعا لرسالة الدكتوراه **لموسولينى**، وكان **هتلر** يضع هذا الكتاب بالقرب من سريره ويقرأ فيه كل يوم قبل النوم، وكذلك فإن كلا من **لينين** "1870-1924م" و**ستالين** "1878-1953م" تتلّمذا عليه أما الحكام العرب فيشرفهم أنهم تلاميذ مخلصون، ونجباء، ومتفوقون في مدرسة أستاذهم **مكيافلي**.¹

هذه الأخلاق المكيافلية اكتملت بعده بقرن من الزمان حين آزرتها ذنبية **توماس هوبز** فإذا كان **مكيافلي** قد إجتز من الفلسفة اليونانية أخلاق القوة السوفسطائية وأضاف إليها أن الغاية تبرر الوسيلة، فإن **توماس هوبز** قرر أن يجتز من الفلسفة اليونانية الأخلاق الأبيقورية القائمة على مبدأ اللذة، وأضاف إليها سيكولوجية الأنانية²، وتناول ذلك تحت الذنبية الإنسانية فعد "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان" فإن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب.³ ويشهد واقع اليوم أن طابع الأخلاق يقوم على المادة والمنفعة البرغماتية، والمصلحة الذاتية، وأخلاق السوق.

لقد طرح النّقد الصناعى مشكلات علمية جديدة تستلزم الحل، وتعطي نظرة جديدة إلى العلم، وإلى الإنسان، ومن هنا جاءت نظرية القانون الطبيعى في ثوبها الجديد أوصيغتا المغايرة للصورة التقليدية الموروثة، وبدأت هذه الصورة مع **مكيافلي**، ثم **توماس هوبز** اللذان أكدا أن القانون الطبيعى ليس كما كان الاعتقاد سابقا وليد السماء بل وليد الإنسان نفسه أي نابعا من طبيعة الإنسان ذاته، وتعبيرا ذلك أن الطبيعة لا تقدم لنا نموذجا للدولة الجيدة بل إنه لا توجد في حالة الطبيعة دولة أو حكومة، وإنما

1- أحمد إدريس الطعان : أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامى، والغربى دراسة مقارنة، ص328.

2- إمام عبد الفتاح إمام : **توماس هوبز** فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1985م ص300، 261.

3- المرجع نفسه، ص 297.

حرية فردية ولكل فرد الحق المطلق في الحفاظ على نفسه وممتلكاته وتجنباً للصراع لضمان السلام.¹

إلا أن أبرز ممثل لأخلاق القوة في الفلسفة الغربية الحديثة هو فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche الذي اجتمع لديه كل ماكان من تراث فلسفي سابق يحض على القوة، ويدعو إليها فطرح نيتشه مبدأ الإنسان الأرقى، واستوحى ذلك من فلسفة زاردشت واستعان بعلم الأحياء الدرويني، وأعجب جداً ببسمارك، ونابليون.²

إن القوة هي الفضيلة الأساسية، والضعف هو النقيضة الوحيدة، وإن الحكم الفصل في جميع الخلافات، ومصائر الأمور هو القوة لا العدالة، وهكذا كان المستشار الألماني أوتو فون بسمارك Otto von Bismarck "1815 - 1898م" يقول³:
إنه لا محبة للغير بين الأمم، وإن قضايا الدول الحديثة لا ينبغي أن تقررهما أصوات الناخبين، ولا بلاغة الخطب، وإنما الدم والحديد.⁴ يعني هذا أن مصير الأمم والدول يكون بالدم، والحديد، والفضيلة الأساسية هي القوة.

كان بسمارك رمزا لهذه الأخلاق النيتشوية، وإذا كان نيتشه هو فيلسوف القوة فإن بسمارك كان سياسي القوة، ومن هنا تم رفض المسيحية لدى هؤلاء، لأنها كما هو معلن عنه ديانة الحب، والسلام وهي بنظر الفلاسفة لا تصلح لتبرير القوة العسكرية، ولذا فإن بسمارك الذي فرض سيادته على النمسا، وأخضع فرنسا في شهور قليلة ودمج الدويلات الألمانية في امبراطورية عظمى، لم يكن يؤمن بأخلاق التسامح والتواضع، ومن هنا تم استبدال السوبرمان أو الإنسان الأعلى إله نيتشه الجديد بأله المسيحية إن أقوى وأسمى إرادة للحياة لا تجد تعبيراً لها في الصراع

1- شوقي جلال : العقل الأمريكي يفكر من الحرية الفردية إلى مسح الكائنات، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة 2000م، ص 26.

2- أحمد إدريس الطعان : أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي، والغربي دراسة مقارنة، ص 329

3- أوتو فون بسمارك : رجل دولة، وسياسي بروسي ، ألماني، شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي 1862 و 1890م، من مواليد 1815 - 1898م .

4 - أحمد إدريس الطعان : أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي، والغربي دراسة مقارنة، ص 330.

البائس من أجل البقاء، ولكن في إرادة الحرب، وإرادة القوة، وإرادة السيادة.¹ وهذا ماتحاول أمريكا اليوم أن تفرضه على العالم بأكمله.

لم يكن نيتشة فيلسوف القوة فقط، بل كان فيلسوف العنصرية أيضا فقد كان يؤسس للعنصرية الألمانية التي سيتبناها فيما بعد هتلر ويكوي العالم بنارها كما تكويه اليوم أمريكا فرأى نيتشة أخلاق السادة هي أخلاق رومانية، وأما أخلاق الضمير فهي أخلاق سامية، وأن الشعب الألماني يمتاز بطبيعة رزينة، وعمق يبعث على الأمل في أن تنهض ألمانيا يوماً لتخلص العالم.²

وهذا مانجده أيضا عند الفلسفة البرغماتية حين جعلت المقياس الأول، والأخير للأخلاق هو المصلحة، والمنفعة الشخصية.

3- بليز باسكال "Blaise Pascal" 1623 - 1662م:

جاءت الأهمية التاريخية لبسكال بالنسبة للبرغماتية بطريقة غير مباشرة أكثر منها بطريقة مباشرة، ففي تمييزه للمعرفة العلمية بأنها عقلية "أي أنها آتية عن طريق التكنيك الرياضي"، والمعرفة الدينية على أنها في أساسها معرفة غير عقلية رفض أية محالة يراد بها رد كل معرفة إلى المعرفة العلمية من ناحية، ومن ناحية أخرى رفض دعاوى المعرفة القائلة بأن الدين مجرد تأمل، وهكذا فتح بسكال الباب أمام حركة مضادة للأصحاب المناهج العلمية، وهي الحركة التي تبناها الرومانسيون من أمثال جون جاك روسو Jean-Jacques Rousseau "1712 - 1778م" والإراديون وهم الذين ركزوا أساسا على الإرادة من أمثال أرتور شوبنهاور Arthur Schopenhauer³، وتربط هذه الحركة بما رآه البرغماتيون المحدثون من أننا نجد هناك مناهج أخرى لاعتقاد في العلم والدين، وأن ما هو أكثر ثباتا حتى داخل نطاق

1- أحمد إدريس الطعان : أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي دراسة مقارنة، ص330.

2- المرجع نفسه، ص331.

3- أرتور شوبنهاور : فيلسوف ألماني، معروف، ومشهور بفلسفته التشاؤمية يرى في الحياة شر مطلق، وقد كتب كتاب العالم فكرة، وإرادة الذي سطر فيه فلسفته، فلذلك تراه يربط بين الإرادة والعقل، من مواليد 1788-1860م.

البحث العلمي أن الاعتقاد في نظرية أكثر من الاعتقاد بأخرى إنما يمثل فعل الإرادة.¹ ثم جاءت المدرسة التجريبية على يد بيكون، ومن بعده لوك وهيوم وباركلي وغيرهم.

4- فرنسيس بيكون Francis Bacon "1561-1626م":

لقد ساهم فرنسيس بيكون بنصيب وافر في خلفية التفكير البرغماتي، وهذا من خلال إدراكه للدور الأساسي الذي تلعبه **الملاحظة** في مجال المعرفة، وقد رفض جميع صور المذهب العقلي، وأكد على أن **"المعرفة قوة"** أي أن المعرفة تتيح لنا أن نخضع الطبيعة لسيطرتنا، وبذلك تتحقق الغايات الإنسانية إلا أنه يختلف عن البرغماتيين جميعهم بقوله أن الملاحظ يكون منفعلاً أكثر منه فاعلاً في اكتساب المعرفة ويختلف عن بعض البرغماتيين في أنه لم يجعل للإرادة والشعور أي دور في تقدير المعرفة.² إن فحص الحقيقة التي جاء بها الفيلسوف ليام جيمس ليس جديداً طبعاً، وقد اعترف وليام جيمس بهذا بأمانة، وصراحة بقوله أن فلسفة البراجماتزم اسم جديد لوسائل فكرية قديمة، فإن كان هذا الاختبار الجديد للحقيقة يعني بأن الحقيقة هي ما قامت التجربة الواقعية، والاختبار على صدقها فهو مقبول، أما إذا كانت تعني بأن المصلحة والمنفعة الشخصية هي المقياس والمعيار، والاختبار لصدق الحقيقة فهو أمر مردود.³ والواقع أن ما أراد جيمس أن يفعله هو إزالة الغشاء الذي أحاط بالفلسفة فقد أراد أن يعيد بطريقة جديدة وجهة النظر الانجليزية القديمة نحو النظرية، والعقيدة فقد واصل عمل بيكون في تحويل وجهة الفلسفة مرة ثانية في اتجاه عالم الأشياء الذي لا مهرب منه، وستذكره الأجيال بفضل تأكيده على الناحية التجريدية، وهذه الواقعية الجديدة أكثر من نظريته عن الحقيقة، وقد تعظمه الأجيال كعالم نفساني أكثر منه كفيلسوف

1- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 47، 48.

2- المرجع نفسه، ص 47.

3- ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص 623، 624.

وهو يعرف بأنه لم يجد حلاً أو جواباً للأسئلة القديمة، واعترف بهذا بصراحة بقوله أنه لم يأت بجديد.¹

يتضح مما سبق أن المدرسة التجريبية دعت إلى القول بأن التجربة هي مصدر المعرفة، وكان للآراء فرنسيس بيكون أثرها البالغ في تأسيس المدرسة التجريبية التي أعطت دوراً مهماً للتجربة، وذلك لتخليص العقل من أوهامه التي يسميها بيكون أصنام العقل "idola mentis" فالعقل عنده أداة تجريد، وتصنيف، ومساواة ومماثلة فإذا ترك بحرية إنقاد لأوهام طبيعية فيه، ومضى في جدل عقيم يقوم في تمييزات لاطائل تحتها فلذا ابتكر المنهج الاستقرائي الذي يقوم على التجريب.² معنى هذا أن مصدر المعرفة هو التجربة، وهذا ما تنادي به الفلسفة البرغماتية أيضاً.

5- جون لوك John Locke 1632-1704م: ثم جاء جون لوك³ الذي أكد: "أن النفس كلوح مصقول لم ينقش فيه شيء، وأن التجربة هي التي تنقش فيها المعاني والمبادئ جميعاً"⁴، والفلسفة البرغماتية فلسفة تجريبية قائمة على التجريب فلذا تجد رواد البرغماتية يصرحون بانتمائهم لهذه المدرسة يقول جيمس: "لقد أسهم كل من لوك، وبركلي، وهيوم بقسط خطير ذي شأن في خدمة الحقيقة بوساطة البرغماتية" ويقول أيضاً: "أن البرغماتية تمثل إتجاهاً مؤلوفاً تماماً في الفلسفة ألا وهو الإتجاه

1- ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ص 623، 624.

2- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، سنة 2012م، ص 56.

3- يعتبر الفيلسوف الإنجليزي جون لوك من أهم المفكرين الغربيين في القرن السابع عشر، " فحركة التحرير الكبرى التي سادت أوربا في القرن الثامن عشر لم تكن سوى امتداد طبيعي لفلسفته، تلك الفلسفة التي كانت تقوم على احترام القيم الإنسانية والحرية الفردية سواء في الدين أو الفكر أو السياسة " وكانت أفكار لوك لها تأثير مباشر في نجاح الثورة الفرنسية، وذلك نتيجة لتأثير آراءه في فلسفة التحرير الفرنسيين مثل فولتير ومنتسكيو وجان جاك روسو، فقد تبنى فولتير أفكار لوك عن الحرية والتسامح، وظل طول حياته يهاجم كل تعصب وخاصة الديني منه وينادي بالحرية، بينما أخذ منتسكيو عن لوك نظريته في فصل السلطات، واخذ روسو عنه نظرية العقد الاجتماعي. انظر سعدي العنيزي : جون لوك، وأثره في الفلسفة الغربية، بتاريخ 29 يناير 2016م.

<http://www.arabrenewal.info>

4 - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 160.

التجريبي.¹ المقصود هنا الفلسفة البرغماتية فلسفة تعتمد على التجربة، وهذا لدورها الإيجابي العملي تجاه المعرفة.

عرف جيمس أول ما عرف بإشتغاله بعلم النفس، وقد أخرج في كتابه "أصول علم النفس" من جزءين كبيرين فكان تحول، وانتقال في هذا العالم من عصر إلى عصر فعلم النفس قبل كتابه كان محوره ترابط الإحساسات، والأفكار ترابطا آليا قائما على أساس من فلسفة التجريبيين الإنجليز، وعلى رأسهم **لوك وهيوم**، فالفكر عند هؤلاء مصدره الانطباعات الحسية، وهذه الانطباعات تأتي أشتاتا فرادى، ثم تتلاقى في الداخل أفكارا لكن كيف تتلاقى.²

تتلاقى بالتداعي بعضها مع بعض فهذه الفكرة، أو هذا الانطباع الحسي زميله لما بينهما من تضاد أو غير ذلك من قوانين الترابط التي فصلوا القول فيها، والتداعي يحدث من تلقاء نفسه كما يحدث التجارب بين الذرات المادية مثلا فكأنما العقل فاعل لا فاعلية فيه ساكن بغير حركة أو كأنه لوحة بيضاء كما قال الفيلسوف **جون لوك** ترسم عليه الانطباعات، وتتجاذب، ولاحيلة له فيما يتلقاه إلا ما يسجله على صفحته تلك.³

أما بعد كتاب **جيمس** فقد بدأ علم النفس عهدا جديدا أنه جعل العقل أداة فعالة نشيطة ومهمته كمهمة أي عضو أما إذا جئنا إلى الجانب السياسي، فإن تأثير **لوك** السياسي والفكري لم يقتصر على فرنسا، ولا أوروبا فقط بل تعدته كذلك إلى أمريكا إذ أنه يعتبر مصدر التفكير السياسي الذي ساد الولايات المتحدة إبان ثورتها، وليس هو بالمصدر الذي نستنتجه استنتاجا مما كان يدور عندئذ على ألسنة الناس.⁴ يتضح لنا هنا أن

1- وليام جيمس : البرغماتية، ص70.

2- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 139، 140.

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

4- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 13 .

مصدر التفكير السياسي، والايديولوجي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية كان تحت تأثير أفكار جون لوك.

بل هو المصدر الذي كان يتردد ذكره صراحة على أنه المعين الذي استقى منه القادة مبادئهم بطريق مباشر فمن كتابات جون لوك استمد الأمريكيون سلاح الحجج التي هاجموا بها الملك، والبرلمان في حكمهما المتعسف، ولو كان هناك رجل واحد يجوز أن يقول أنه ساد الفلسفة السياسية في عهد الثورة الأمريكية، فذلك هو جون لوك إذا لم يكن الفكر السياسي الأمريكي إلا تويلا لما كتبه لوك¹. فماذا قال الفيلسوف جون لوك، مما جعل الأمريكيين أنفسهم يصفونه بقولهم إنه فيلسوف أمريكا، وواضع الأساس لفكرها السياسي؟.

لقد سبق ديكارت جون لوك في استخراج النتائج الفلسفية للعلم الحديث، وحلوا مضمون هذا العالم تحليلا ينتزع مدلوله بالنسبة إلى السياسة والأخلاق، ولعله مما يجدر ذكره في هذا الموضوع أن مهمة الفلسفة في صميمها في هذا التحليل للمبادئ العلمية بحيث تستخرج من هذه المبادئ ما تنطوي عليه من مضمون يتغير العلم السائد عصرا بعد عصر فتتغير معه الفلسفة لأنها تحليل لمبادئ العلم، فإن تغير العلم تغيرت كان العلم السائد أيام اليونان الأقدمين هو الرياضة². يظهر لنا هنا قوة، وجدارة جون لوك في استخراج النتائج الفلسفية للعلم الحديث.

وكان اليقين الثابت هو معيار الحق فهل يسع الفلسفة إزاء ذلك، إلا أن تبحث عما يتضمنه هذا اليقين الثابت المنشود المتمثل في الرياضة لتجد أصوله الأولى في مبادئ عقلية مفارقة لهذا العالم المحسوس الذي هو عالم الأشياء المتغيرة التي لا تثبت ولا تدوم؟، ثم جاءت النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر، وما بعده ليسود بمجئها علم الطبيعة الذي لم تكن له سيادة من قبل، وكيف يجوز لمن ينشد الحقيقة الثابتة الدائمة أن يجعل الطبيعة المتغيرة موضوع بحثه؟، لكن النهضة الأوروبية قد

1- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 13.

2- المرجع نفسه، ص 14.

غيرت من وجهة النظر، وجعلت الحواس مصدر العلم بعد أن لم تكن عند اليونان
الأقدامين إلا مصدر الضن.¹

وبهذا يقترح جون لوك حلاً قد يكون هو الفيصل لو تم تطبيقه، وتنزيله على أرض
الواقع، وبإمكانه أن يشكل دعامة أساسية للدين، وهو أنه "ينبغي التمييز بين أمور
المدينة وأمور الدين، وأن توضع حدود دقيقة عادلة بين الكنيسة والدولة، وإلا فلن
يكون ممكناً إيراد أي حل للمنازعات التي تقوم بين أولئك الحريصين حقاً وبين من
يتظاهرون بأنهم حريصون، إما على نجاة النفوس، وإما على نجاة الدولة."²

فمجال السياسة الذي لا يعطي أي اعتبار لما هو روحي، وعقلي، وفلسفي لدى الفرد
ويعمل فقط على تحقيق المصالح، وبلوغ الأهداف ينبغي أن يُفصل عن المؤسسة أو
الجهة التي تُعنى بما هو ديني روحاني، ولعل أخطر ما يمكن أن يهدد المجتمع هو
استغلال المؤسسات الدينية، لتحقيق أهداف سياسية، لما لذلك من أثر خطير على
مشاعر الأفراد وتوجهاتهم، وقيمهم، ومعتقداتهم.

إن التسامح الذي أسس له جون لوك في كتابه المهم "رسالة في التسامح" هو أقرب
إلى مجال السياسة، وتنظيم شؤون الدولة منه إلى مجال الأخلاق فمن خلاله وضع
حدوداً لكل من الكنيسة، والدولة في ما يتعلق بتدبير الشأن الديني، وذلك بتقزيمه
لهامش تدخلهما في هذا الأمر، لأنه يخص الفرد في علاقته بربه ولهذا نجده قد
قلص من سلطة الحاكم، التي اعتبرها ضرورية وعلى قدر كبير من الأهمية.³

1- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 14.

2- جون لوك : رسالة التسامح، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة
1988م، ص 52.

3- جون لوك : رسالة التسامح، ص 52.

يقول جون لوك: "لقد أثبتنا أن رعاية النفوس ليست من اختصاص الحاكم، مادامت سلطته تقتصر على وضع القوانين، والإجبار على تنفيذها عن طريق العقوبات".¹ فالدور الذي ينبغي للحاكم القيام به يتجلى في الحفاظ على أمن الأمة، وسلامها والسهر على وضع القوانين التي من شأنها ضمان الاستقرار، والتعايش بين الأفراد وكذا العمل على تطبيقها، والتصدي لكل من سولت له نفسه انتهاكها، هذا دون أن يعطي "أي الحاكم" لنفسه الحق في التدخل في ما هو روعي وديني أي الجانب العقائدي للفرد.² نفهم من خلال طرح لوك أنه على الحاكم عدم التدخل في الجانب الديني، والروحي بل دوره الحفاظ على أمن الدولة والمجتمع.

يفصل لوك بين الكنيسة، والدولة فصلاً حاداً، لأن الكنيسة "جماعة من الناس التقوا بإرادتهم، واتفاقهم من أجل العبادة العلنية لله على النحو الذي يرون فيه رضاه، ومن أجل نجاه أرواحهم أما الدولة، فلا شأن لها بهذا كله، وكل شأنها هو الصالح العام، والمحافظة على حياة المواطنين، وحرّيتهم وممتلكاتهم، وليست للدولة أية سلطة في أمور الروح وما هو قانوني في الدولة لا يمكن الكنيسة أن تجعله محرّماً وممنوعاً.³ فحسب هنا رأيه أن الفصل بين الكنيسة، والدولة هو الحل الوحيد للمحافظة على حياة الشعب، وأفكارهم، وحرّيتهم.

بهذا ننتهي إلى نظرية جون لوك في الدولة، وهي النظرية التي بني عليها "إعلان الإستقلال" في الولايات المتحدة الأمريكية بناءً مباشراً، فإذا كان الإنسان الفرد بحكم طبيعته العقلية حرّ حرية مطلقة ومستقلاً بذاته، فليس هنالك من طبيعة الإنسان ما

1- جون لوك : رسالة التسامح، ص52.

2- عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، سنة 1984 م، ص 380.

3- عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ص 380.

يبرر قيام إلا رضى الإنسان نفسه أى أنه ليس جزء من طبيعته أن يتصل بغيره كما ذهب أرسطو حين زعم أن الإنسان إجتماعي بطبعه.¹

فليس للدولة سند يؤيد وجودها سوى العرف كذلك فهكذا اتفق الناس أن تقوم فيهم دولة تصون حقوقهم، ومن هنا تنشأ المقدمتان الرئيسيتان اللتان استند إليهما إعلان الإستقلال في الولايات المتحدة الأمريكية، وهما ولد الناس أحرار وسواسية وأساس الحكومة هو موافقة المحكومين على قيامها.²

ولد الناس أحرار وسواسية لأن العنصر العقلي في مذهب جون لوك يولد صفحة بيضاء، ثم تأتي الخبرات عن طريق الحواس فتؤثر في تلك الصفحة، وبذلك يبدأ الاختلاف بين الناس في مدى خبراتهم، لكنهم من حيث الحالة الطبيعية متساوون ومادامت نظرية جاليليو نيوتن **Galileo Galilei 1564 - 1942م** في الطبيعة تجعل الظواهر المحسنة غير حقائق الأشياء بحيث يحس الإنسان لونا، وطعما ورائحة مما ليس في الأشياء، فالطبيعة كما تقع في حس الإنسان إنما تقع غرار واحد في الناس جميعا على سواء ولد الناس في طبائعهم الواعية، فكل يدرك ظواهر الأشياء كما يدركها زميله وكل يخلق هذه الظواهر كما يخلقها زميله، فليس هذا التفاوت في طبيعة العنصر العقلي الروحاني بل هو في أجزاء البدن المادية كتركيب المخ وما إلى ذلك.³ نفهم من خلال ما طرحه لوك هنا مصدر الخبرات هي التجربة، والحواس ولهذا ولد الناس أحرار، وبدورها الفلسفة البرغماتية تنادي بالحرية، ومدى نجاح أي فكرة هو تبيان ثمارها على أرض الواقع.

وهكذا ينجم عن علم الطبيعة الحديث تصور حديث للإنسان، وهو الذي ذهب إليه لوك أخذه عنه قادة الثورة الأمريكية، وهذا ليختلف الناس ماشاءت لهم حظوظهم في

1- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 22، 23.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، ص 23.

تركيب المخ، وفي الطبقة الاجتماعية، وفي الثراء، وفي درجة التعليم لكن كل إنسان رغم هذا التفاوت كله هو ككل انسان آخر باعتباره إنساناً.¹

يقول لوك في مقاله عن الحكومة المدنية: "إنه مادام الناس سواسية أحرار مستقلاً بعضهم عن بعض، فلا يجوز أن يحرم أحداً من حالته الطبيعية ليخضع لقوة سياسة يملكها شخص آخر، وأن يكون هذا الخضوع بغير إرادته لكن هنا تنشأ المشكلة الكبرى التي ماقتت قائمة في تحديد العلاقة بين الفرد، والدولة فمهما حدثت الدولة من سلطانها فهو السلطان على كل حال، ولا يكون هذا السلطان إلا بتنازل الفرد عن حريته وإستقلاله"²، في هذا السياق يمكن طرح سؤال مهم هو: لماذا يتنازل الأفراد عن حقوقهم؟ جواب ذلك هو أنه في الحالة الطبيعية كان غير المنتج يسطو إذا استطاع على إنتاج المنتج فيسلبه إياه وقد يفتك به فأراد الإنسان الحرالمستقل إن يتنازل للدولة عن بعض حريته ليحمى أملاكه عن عبث العابثين.³

فالمبرر الوحيد لوجود الحكومة هو حماية الملكية الفردية، ويدخل الجسد في الملكية لأن المالك الحقيقي هو العنصر العقلي من الإنسان فقيام الحكومة شر لكنه أهون سر من تعرض الجسد وسائر الممتلكات المادية للنهب ليس قيام الحكومة في الناس هو الخير الأسمى، وإنما الخير الأسمى هو الحالة الطبيعية التي تخلو من الحكومة إذا خلت كذلك من احتمال إعتداء الأفراد بعضهم على بعض وعلى ذلك لايدخل الإنسان عضو في المجتمع الخاضع للدولة بسبب كونه اجتماعياً بالطبع بل يدخل عضو بإختياره ليصون حقوقه، فإن لم يجد تلك الحقوق مصونة كان له أن يخرج عن الجماعة، ويثور عليها، ومن النتائج الخطيرة لهذا الرأي ألا يكون من حق الدولة حرمان الطفل من ملكه إلا بموافقه لأن صيانة الملكية هي الغاية الأولى

1- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 23.

2- المرجع نفسه، ص 24.

3- المرجع نفسه، ص 23.

والأخيرة من قيام الدولة.¹ ذلك هو جون لوك الذي اتخذه الأمريكيون في عهد ثورتهم فيلسوفا لهم بحيث جعلوا مذهبهم، وأفكاره أساس إعلان استقلالهم.

ومن الأخطاء الخطيرة التي وقعت فيها نظرية لوك إنما كانت بالطبع محاولة لمعالجة مشكلة الكليات التي تركتها نظرية المعرفة عند لوك دون حل، والصعوبة هي أننا لو جردنا من أمثلة محددة لما تبقى في النهاية شيء على الإطلاق ويضرب لوك لذلك مثلا بالفكرة المجردة للمثلث، وهي الفكرة التي لا ينبغي أن تكون منحرفة أو قائمة، ولا متساوية الأضلاع، ولا متساوية الساقين، ولا حادة وإنما كل هذه الأفكار ولا أحد منها في آن معا، ومن هنا كان نقد نظرية الأفكار المجردة هو البدء في فلسفة بركلي.²

وعلى الرغم من أن لوك لم يكن من أعمق المفكرين أو من أكثرهم أصالة إلا أن أعماله قد كان صدى قويا، وباقيا في الفلسفة، والسياسة معا فهو في الفلسفة واحد ممن درسوا المذهب التجريبي الحديث، وهواتجاه فكري طوره بعد ذلك بركلي وهيوم.

6- جورج بركلي George Berkeley 1685 - 1753م "ودافيد هيوم David Hume 1711-1776م":

لقد جاءت فلسفة بركلي منقبة لفلسفة جون لوك من العناصر المنافية للتجريبية ووضع أساسا لفلسفته "مبدأ الوجود إدراك" أي أن المعرفة الحقة هي المقصورة على ما يبدوا للشعور بأعراض حسية، وأن ما لا يبدو محسوسا وهم محض.³

تأثر بيرس كما تأثر غيره من البرغماتيين الذين تلوه بالمدرسة التجريبية، وأكد بيرس أن أفكاره تكتسي بالنبرة الإنجليزية حتى أنه يقول إن بركلي على العموم يحق له أكثر

1- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص 25.

2- يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1993م، ص 91.

3- علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 42.

أن يعتبر مقدم البرغماتية في الفلسفة على الرغم من أنني كنت أكثر ظهوراً في إعلانها وقد يكون رأي بيرس هذابركلي نتيجة لفرض هذا الأخير لنظرية التجريد فعلى الرغم من قناعة بركلي من قوة التخيل التي يمتلكها، ويضيفها على الأشياء إلا أنه لا يمكن له أن يتصور تلك الأشياء من دون مقوماتها الحسية، فهذه المقومات الحسية هي الرموز أو الدلالة على وجود تلك الأشياء، وهي التي تجعل عملية المعرفة ممكنة قبل الذهن.¹ معنى هذا أن الفلاسفة البرغماتيين تأثروا بالمدرسة التجريبية، وخاصة بيرس الذي تشربت أفكاره بالنبرة الإنجليزية.

ذهب جيمس إلى عد البرغماتية اسماً جديداً لطريقة قديمة، بل يرى كل من **لوك وبركلي**، و**دفيد هيوم** قد أسهموا بقسط كبير في خدمة الحقيقة بواسطة البرغماتية فالبرغماتية تمثل إتجاهاً مألوفاً تماماً في الفلسفة ألا وهو الإتجاه التجريبي.² نفهم من خلال فكر جيمس أن كل من **لوك**، و**بركلي**، و**دفيد هيوم** كانوا لهم دوراً فعالاً وحاسماً في الوصول للحقيقة بواسطة البرغماتية.

وقد عد **جيمس** معالجة **بركلي** للجوهر المادي معالجة برغماتية لأن قول **بركلي** ألغى هذا الجوهر وأعتقد أن الله الذي بوسعك أن تفهمه يرسل إليك العالم المحسوس مباشرة وإن تأكد العالم المحسوس بسلطته القدسية، ومن ثم نقد **بركلي** للمادة كان نقداً برجماتياً على الإطلاق، فالمادة تعرف كما يؤكد **وليام جيمس** "كإحساسات لنا كاللون والشكل، والصلابة" وماشاكل ذلك، والفرق الذي تحدثه المادة بالنسبة إلينا بوجوده حقاً هو أننا عندئذ نحصل على مثل هذه الأحاسيس وبدون وجوده هو أننا نفتقر إليها ومن ثم فإن هذه الإحساسات هي معناها الوحيد وعلى هذا فإن **بركلي** لا ينكر المادة، وإنما يخبرنا بما تتألف فحسب، وكذلك يرى **جيمس** أن كلا من **لوك** و**هيوم** قد طبقا

1- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 42، 43.

2- المرجع نفسه، ص 43.

النقد البرغماتي نفسه في فكرة الروحية.¹ هنا الموقف الفلسفي المطروح يتمثل في أن تحليل بركلي للجوهر المادي كانت معالجة برغماتية هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن كل من **لوك** و**هيوم** قد استعانا بالدحض البرغماتي في الفكرة الروحانية.

ومن الجدير بالذكر أن **ديفيد هيوم** وافق **بركلي** بالقول: "بأن لا دليل على وجود الأشياء في حد ذاتها على نحو مستقل، وأن كل ما نعلم عن الأشياء هو من حيث تبلورها في أذهاننا فحسب."² وهي مقولة تعبر على أن الإحساسات ليست طرقاً من طرق معرفة الأشياء تختلف قوتاً، وضعفاً، وتزيد في قيمتها، أو تقل عن الصور الذهنية، والعقلية، وطريقة التفكير البرهاني، وإنما هي منبهات للتفكير.

ولما جاء **جون جاك روسو** **Jean-Jacques Rousseau** 1712-1778م أثرى نظرية العقد الاجتماعي من جديد، ووضع لها بنداً أساسياً، يتمثل في أن يعدل كل فرد عن أنانيته، ليصبح جميع الأفراد خاضعين للقانون، والقانون لا يقر إلا المنفعة العامة، وهو يختلف مع **جون لوك** ليحول حق الشعب الذي كان يسيطر عليه الملوك والنبلاء، والكهنوت إلى الأفراد لكي يمارسوا حقهم في الحرية.³ أما هنا فإننا نلاحظ أن **جون جاك روسو** يختلف مع **لوك** في نظرية العقد الاجتماعي حيث حول حقوق الشعب إلى الأفراد من أجل ممارسة حريتهم الشخصية، وهذا ماكنت الفلسفة البرغماتية تنادي به أيضاً.

أن السيادة للشعب، وأن الحكومة توجد لتخدم الشعب لا العكس، فكرة تواردت لدى **جون لوك**، و**جون جاك روسو** على نحو متقارب قال **روسو** أن السيادة للشعب يأتونها لدى الحكومة عندما يبرم معها عقداً اجتماعياً على صيانة الحرية وتحقيق

1- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 44، 43.

2- صادق جواد سليمان : البعد الفلسفي في الخبرة الأمريكية، اللجنة العربية لحقوق الإنسان، بتاريخ 09-02-2002م . <http://www.achr.eu/art577.htm>

3- عبد القادر تومي : الأسس الفلسفية للعولمة الاقتصادية، ص 179.

الصالح العام، وله "الشعب" أن يستردها عند إخلال الحكومة بالعقد أيضا من روسو جاءت عبارة: "يولد الناس جميعا متساوين" تلك التي نقلها توماس جيفرسن حرفيا إلى إعلان الاستقلال، والتي استند إليها الرئيس أبراهام لينكولن **Abraham Lincoln 1861-1865م** في قرار إلغاء الرق، وعتق الرقيق في نسق متماثل آخر مع لوك، دعا روسو إلى حصروظيفه الدين في مجال القيم الأخلاقية، أما في غير ذلك فدعا إلى اعتماد منظور فكري متسق مع العلم المستكشف دأبا سنن الطبيعية، وحقائق الكون.¹ معنى هذا أن الدولة دورها يكمن في خدمة الشعب لا العكس في نظر جون جاك روسو.

هكذا جاء البناء الدستوري الأول للخبرة الأمريكية، مقوما بأفكار مقتبسة في جلها من التنظيرالفلسفي الأوروبي، أضيفت إليها في وقته، ولاحقا أفكار تبلورت من نظرأمريكي ذاتي، كفكرة التمتع المتكافئ بحماية القانون، فكرة المراجعة القضائية فكرة دستور مكتوب قابل للتعديل وفق إجراءات معينة، فكرة نبذ ألقاب ارسنقراطية وأفكار أخرى تتعلق بالحقوق الشخصية، والحريات المدنية.²

أراد بيرس منذ البداية أن لا يكون المعتقد معتقدا فرديا بل جماعيا، وذلك لأن المعتقد الحق هو الذي يعتقده مجموعة من الناس، وهكذا فإن المعتقد الصحيح هو الذي يمكن تعميمه على عدد كبير من الناس، أما المعتقد الذي أومن به أنا وحدي فلا يستحق شرف تسميته بالمعتقد لأن ماهية الاعتقاد قائمة في تحقيق السعادة لأكبر عدد من أفراد المجتمع³. يقصد بيرس هنا أن المعتقد الحقيقي هو الذي يؤمن به أغلبية الناس، وليس المعتقد فردي، وهذا بالذات ما يحقق النجاح، والسعادة لأكبرقدر من البشر.

1- صادق جواد سليمان : البعد الفلسفي في الخبرة الأمريكية، اللجنة العربية لحقوق الإنسان، بتاريخ 09-02-2002م. <http://www.achr.eu/art577htm>

2- المرجع نفسه.

3- يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، ص135، 136.

وقد توسع كل من **وليام جيمس**، و**جون ديوي** في أفكار **بيرس**، وأضافا إلى الفلسفة البرغماتية آفاقا جديدة فذهب جيمس مثلا إلى أن الحقيقة ليست إلا مايقودنا للنجاح في الحياة، وقال إن المعتقدات الصحيحة هي وحدها التي تنتهي بنا إلى تحقيق أغراضنا الفعلية، وذلك أن الحق لا يوجد أبدا منفصلا عن الفعل، ولاوجود لفكرة حقيقية لذاتها إذ أن الفكرة، أو المعتقد في دنيا الواقع، ويعبر بالفعل عن قيمته المنصرفة فورا.¹

من هذا نرى أن الفلاسفة البرغماتيين مع الحسيين، أوالتجريبيين الذي يوجهون هم أيضا النقد ضد الصورالذهنية، ويقولون عن هذه الأخيرة إنها انطباعات ضعيفة ولكن البرغماتيين يختلفون عن الحسيين في أنهم فهموا من التجربة معنى أكثر اتساعا من معناها عند الحسيين، فالفلاسفة الحسيون التجربة عندهم العقل الذي يشمل جميع الإدراكات، والانطباعات الحسية، أما البرغماتيون فالإحساسات عندهم كما يقول جون ديوي ليست أجزاء من أية معرفة كانت ناقصة أو كاملة، ولكنها منبهات، وأنواع من التحدي للقيام ببحث ينتهيان بالمعرفة.² وحتى وأن كان الفلاسفة البرغماتيين مع الحسيين، أوالتجريبيين يوجهون النقد ضد الصورالعقلية، إلا أن البرغماتيين لا يتفقون مع الحسيين لأنهم اعتبروا التجربة مثل المنبهات للبحث عن الحقيقة، والنتائج المثمرة.

ومع إتفاق الفلسفتين في الإعتماد على الحس، والتجربة إلا أن هناك فروقا بين المدرسة التجريبية، والفلسفة البرغماتية، وفي هذا الصدد يقول **جيمس**: "في الإنسان ميول وحاجات، وأن العقل وسيط تحقيقها في عالم التجربة بما يؤد من مقترحات تستلزم التحقق".³ وهو ما يعني أن نجعل من التفكير العقلي الذهني مرحلة من

1- يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، ص135، 136.

2- المرجع نفسه ، الصحة نفسها.

3- محمود فهمي زيدان : **وليام جيمس**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، سنة 2005م، ص18.

مراحل التجربة حيث يكون هذا التفكير في لحظة استراحة نضع خلالها الفروض، ثم نعود بها إلى الواقع للتأكد من صحتها ونفعها.

فالبرغماتية تتجاوز قضية التجربة الحسية إلى قضية الأثر النافع، وما يترتب على التجربة من فائدة، ومنفعة سواء التجربة المادية الحسية أو حتى منفعة الفكرة المجردة المطلقة، وهذا هو سبب قبول جيمس لفكرة الدين لأنه يرى أنها فكرة نافعة.

وفضلا عن هذا فإن البرغماتية تختلف عن التجربة التقليدية من ناحية أن هذه الأخيرة كانت قد ذهبت إلى أن الحقيقة معطاة أمانا، وأن دور الإنسان محصور فقط في تسجيلها مادامت قائمة في الوقائع الخارجية، وفي الروابط القائمة بينها أما البرغماتية فقد رفضت هذا التصور الاستاتيكي للحقيقة، وقدمت بدلا منه تصورا ديناميكيا أصبحت فيه الحقيقة مرتبطة ارتباطا وظيفيا بالفعل، وأصبحت كذلك حقيقة متحركة تتصل بنشاط الإنسان، وتتوقف على ما يستطيع من منفعة من ورائه الحقيقة أو المعرفة في الفلسفة البرغماتية لم تعد قائمة في الأشياء وموجودة في الخارج، بل أصبحت تقبل على الأشياء من خلال النشاط البشري، والسلوك الذي يقوم به الإنسان في الإستجابة لها.¹ وهذا معنى آخر لما يقصده وليام جيمس من وراء قوله بأن فلسفته تمثل التجريبية الحسية الأصلية.

أما الفيلسوف الفرنسي رونييه ديكارت فقد كان له فكان له دور بارز في بروز البراغماتية، وهذا ماسوف نتطرق إليه الآن.

7- رونييه ديكارت René Descartes 1596-1750م:

من المعلوم لدارسي تاريخ الفلسفة الحديثة أنها ابتدأت بالنظرية العقلية على يد ديكارت في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، وبمعنى آخر أن مطلع الفلسفة الحديثة كان على يد النظرية العقلية في الميتافيزيقا وأعلام هذه النظرية

1- يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، ص136، 137.

هم ديكارت، وسبينوزا، وليبنز.¹ معنى هذا أن مصدر المعرفة هو العقل عند أعلام هذه النظرية.

وإن هؤلاء الثلاثة من أعلام العلوم الرياضية، ولهم فيها نظريات مشهورة عند الرياضيين في نهاية القرون الوسطى، وعند مفتتح العصر الحديث كان القول الفصل في المعارف، والمعلومات للتقاليد الدينية فكانت الحقيقة هي ما زعمت الكنيسة أنها حقيقة، وما ترفضه هو الباطل الذي ليس له وجود حقيقي في هذا النظام الكوني وقد ترعرع ديكارت، ونشأ على هذا الزعم فنستطيع أن نعرف الحقيقة لأن الحقيقة تقدم إلينا فلا يحسن بنا أن ستعمل عقولنا لمعرفة الحقيقة لأن العقول لا تستعمل لمثل هذه الشؤون العليا.² وانطلاقاً من رؤيتنا الفلسفية المحضة يمكننا أن نتساءل: ماهي نتيجة هذا الصراع الفلسفي؟.

شهد الصراع ميلاد مفهوم الإنسان، وانتقلت قضية الإنسان لتحتل الصدارة في انشغالات فلاسفة النهضة، وعصر النهضة. لقد كانت الكنيسة ناطقة باسم الوحي الأمر الذي جعلها تجاهر بعجز العقل عن الوصول إلى الحقيقة بذاته، وأنه لا وجود لأي حقيقة خارج مجال الدين أو تعاليم الكنيسة الموحى بها هذه الهرطقة مردودة بالنسبة للموقف التتويري العقلاني مع مؤسسه ديكارت لقد صرح في مطلع كتابه "مقالة في الطريقة:" إن العقل الأشياء قسمة بين البشر، وأنه قبس من نور إلهي وضع فينا ليدلنا على وجود الله.³ معنى هذا أن بفضل القدرات العقلية يستطيع الإنسان الوصول للحقيقة، والتحكم في الخبرات المستقبلية، وبالتالي تحقيق النجاح.

1- يعقوب فام : البرجماتيزم، ص 97، 98 .

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3- يحي هويدي : قصة الفلسفة الغربية، ص50.

إن المقصود بالوساطة فكرة تمثيل الله في الأرض وهي الفكرة التي رفضها عصر الأنوار، ودعا لقيام نظرية بديلة يكون الإنسان فيها مصدر الأمر والسلطة.¹

وليس الله الذي تخفي ورائه إرادة الكنيسة مدعية الوساطة الرسمية بهذا حاربوا الدين الكنيسي، ودعوا لقيام الدين الطبيعي المستمد من الطبيعة البشرية، والذي هو قبس من نور إلهي في الإنسان على حد اعتقاد ديكارت فهو يؤمن بقيمة الإنسان وقدراته العقلية إنه يريد أن يوضح في عصره أن المعرفة للجميع، وأن أبواب الثقافة مفتوحة أمام كل الناس، فالحقيقة ليست وقفا على رجال الدين، والعلم والمعرفة لا يخص طبقة النبلاء دون سواها، فالطبيعة البشرية واحدة عند جميع الناس، والكل متساوون بالفطرة.² المقصود بقول روني ديكارت أن الحقيقة ليست مرتبطة بالوحي الديني فقط، وإنما تحصيل الحقيقة مفتوح للجميع البشر، وهذا ما تأثرت به أيضا الفلسفة البرغماتية، أي أن الوصول للحقيقة متوفر للجميع وخاصة إذا كانت نتائجه مثمرة، وهادفة.

إن الدعوة لإبعاد الكنيسة عن شؤون الإنسان لاترادف القول بإبعاد الإله نهائيا وفصله، وإنما تفيد القول بتعليق دوره في الحياة البشرية الاجتماعية خاصة، وهو إعلان بأن البشر وحدهم قادرون على تدبير شؤون حياتهم وتقرير مصيرهم ولا ضرورة لتدخل إله في ذلك، إلا أن بعض فلاسفة النهضة ذهبوا لأبعد من هذا وسموا أنفسهم في كبرياء ملحدين على حد تعبير المؤرخ الأمريكي كرين برينتون **Crane Brinton 1898-1968م**.³

1- بول ها زار : الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من منتسكيو إلى ليسنج، ترجمة محمد غلاب مراجعة إبراهيم بيومي مذكور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دمشق، الجزء الأول، سنة 1957م، ص141م.

2- يحيى الهويدي : قصة الفلسفة الغربية، ص51، 50.

3- كرين برينتون : تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، العدد 82، سنة 1984م، ص185.

لقد كان الهدف من حملة الماديين على التفكير الديني هو دعوة الناس إلى طريق العلم، والعقل الذي يمكن أن يؤدي لأقامة شكل من أشكال الفردوس الأرضي، ولقد كان ماحرص هؤلاء جميعا على تأكيده هو أولوية العقل، ومادامت النزعة البرجماتية الإنسانية تقوم أساسا على الإيمان بأولوية التجربة¹، فهي تمت بصلة لفلسفة ديكارت بداية لعصر النزعة الإنسانية الحديثة التي تتلخص في فهمه الفلسفي للإنسان، والذي أقام الوجود إنطلاقا من الكوجيتو.² معنى هذا أن الدعوة الحقيقية للفلاسفة الماديين هي جلب أكبر قدر من الناس لسبيل العلم، وهذا ماتتادي به الفلسفة البرغماتية التي تعطي الأسبقية للعقل، والإرادة في تحقيق المعرفة الحققة، والنتائج الملموسة على أرض الواقع.

بهذا أسس ديكارت نظرية في المعرفة الذي يكون عقل الإنسان، وقوانينه الفطرية مصدرها، وهكذا تكون فلسفة ديكارت بإقرارها للذاتية كمبدأ لكل ما هو موجود وللوعي الذاتي كحكم وحيد على الحقيقة قد ساهمت في وضع الإنسان في مركز الكون وبالتالي في تغيير نظرتة إلى الأشياء معلنة بذلك عن نشأة الكون، وظهور المدلول الحديث للذات البشرية المالكة لزمان أمرها.³ من خلال تحليلنا للفلسفة البرغماتية يتبين لدينا أنها كانت تنادي بالذاتية الفردية، وهذا بالذات ما اقتبسته من الفلسفة الديكارتية.

1- عبد الرزاق الداوي : موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1992م، ص8.

2- المرجع نفسه، ص 56، 57.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

فمقولة ديكارت: " أن أفكر إذن فأنا موجود"¹، التي تشكل حجر الزاوية في بناءه الفلسفي كله فأساس المعرفة جريا على هذا النسق يختلف من فرد لآخر لأن البدء بالنسبة لكل هي وجوده هو وليس وجود غيره من الأفراد، أو وجود المجتمع.²

وتبدأ الفردية مع رونه ديكارت للظهور لأول مرة في الاطار الفلسفي إذ كان أول من نقلها من الجانب الديني إلى الجانب الفلسفي، وقد كان للفلسفة الفردية صراع دائم مع الفلسفات التي أهملت الذات متجهة نحو الطبيعة، والموضوع بدلا من الذات فعلى الرغم من الصراع المتعدد الأوجه بين الفلسفة الذاتية الإنسانية والفلسفة الموضوعية إلا أن الذات حاولت تأكيد وجودها عبر العديد من المؤلفات الضخمة وعبر اتجاهات إنسانية متعددة" فإقرار الذات المفكرة لدى رونه ديكارت هو الثورة الفلسفية التي وجهت التفكير الميتافيزيقي، والابستمولوجي نحو الخوض في مشاكل الانسان: يقول هيجل "إننا مع ديكارت ندخل إلى فلسفة مستقلة بالمعنى المحدد يمكننا القول بأننا في بيتنا."³ يتبين لنا هنا أن مع رونه ديكارت تعلن الفلسفة تمردها على النزعة الموضوعية لتعلن حقيقة الوجود العقلي الإنساني وأهمية محور الفلسفة انطلاقا منه، وإليه فهو مركز الكون، ومقياس الأشياء جميعا كما قال بروتاجوراس من قبل.

هكذا كانت فلسفة رونه ديكارت مثلا عند خروج أوروبا من عصرها الوسيط إلى عصرها الحديث حين دعا الناس إلى تغيير منهج التفكير، وهكذا أيضا ديوي الذي لم يسعه إلا أن يكون بفلسفته داعيا إلى تغيير القيم، لأن الحياة التي أحاطت به كانت تسير بالفعل نحو هذا التغيير فلو استطعنا أن نحدد الأهداف التي ارتسمت في تصوره، والوسائل التي رآها موصلة إلى تلك الأهداف استطعنا فهم فلسفته وعندئذ

1- حسن الكحلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2004 م، ص 38 .

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- حسن الكحلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 38.

نرى كيف تتكامل آراؤه التي أدلى بها في ميادين مختلفة لكنها مع ذلك تتكامل في نظرة واحدة شاملة لما عساه أن يحقق التقدم في مجتمعنا.¹ معنى هذا أن الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الحديث عند ديكارت في تغيير منهج التفكير نلتزمه أيضا عند ديوي في تغيير القيم من أجل النهوض بأمة متطورة في جميع المجالات.

وقد كان التأكيد على القيمة الفردية لإنسان كقيمة عليا جديدا ليس قديما على الفكر الأوروبي بعد عصر الإقطاع الذي لم يكن يعرف أفراداً مستقلين، ومنفصلين عن الأنساق الاقتصادية، والسياسية، والدينية، والاجتماعية التي تشملهم، وبذلك ظهر حق الفرد في تقرير مصيره وحرية، وفي اختيار عقيدته ودينه، وشكل الحكم الذي يلتزم به.

وتتضح لنا الفردية بوضوح باعتبارها خاصية للفكر الحديث بمقارنتها بما ساد في الفكر المعاصر إذ لم تعد قيم الفردية تمثل تلك الأهمية التي كانت لها، فقد ظهر المجتمع في الفكر المعاصر باعتباره كيانا مستقلا عن الأفراد، يمتلك حقوقا تختلف عن الحقوق الفردية وظهر ذلك على يد هيجل، وماركس، وكل المذاهب الفكرية التي تنظر إلى المجتمع على أنه كيان عضوي مثل الجسد الإنساني الذي يشمل أعضاء متكاملة الوظائف حيث يصبح الأفراد أعضاء متكاملين منسجمين في هذا الجسد

1- حسن الكحلاني: الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 38.

الاجتماعي الواحد، وتمثل ذلك في علماء الاجتماع عند فرديناند تونيز¹ وإميل دوركايم²، ومعظم المذاهب الاشتراكية المعاصرة.³

ونفهم من هذا أن عصر الفلسفة الحديثة كان عصر الفردية الذاتية التي تنادي بها الفلسفة البرغماتية بدون نقاش ولاجدال، لأن مقولة المجتمع باعتباره كياناً مستقلاً عن الأفراد لم تكن قد ظهرت بعد، وعندما ظهرت في القرن التاسع عشر لن تعود الفردية هي النزعة المسيطرة، والمتحكمة على الفكر الأوروبي، إذ سوف تنافسها نزعات أخرى، مختلفة عضوية، وجماعية، واشتراكية، والملاحظ أن هذه النزعات سوف تضمحل في النصف الثاني من القرن العشرين، الذي سوف يشهد رجوع إلى ظهور النزعات الفردية مرة أخرى، والمتمثلة في المذاهب الليبرالية الجديدة، وبالرغم من كل الإيجابيات المذكورة إلا أن هذا لا يعني أنها لا تخلو من سلبيات.

تعقيب:

كانت الحركة البرغماتية منذ البداية تعادي الفلسفة الديكارتية بصفة أساسية، وتعادي تلك النظريات الخاصة بالتجريبية الإنجليزية التي تشترك مع الديكارتية، وحاول بيرس في ثلاث مقالات طويلة نشرها عام 1868م في "مجلة الفلسفة التصورية أو النظرية"

1- رديناند تونيز : عالم اجتماع ألماني معروف ، كان أحد المساهمين الرئيسيين في إرساء النظرية الاجتماعية والدراسات الميدانية، اشتهر وعرف تونيز بتمييز بين نوعين من الفئات الاجتماعية وهي المجتمعات العامة والجماعات المحلية. كما شارك في تأسيس الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع، وتولى رئاستها بين عامي 1909-1933م عندما أطاح به النازيين، ويعتبر تونيز المؤسس الحقيقي الشهير لعلم الاجتماع في ألمانيا المعاصرة، وقد ألف كتباً في علم الاجتماع منها كتاب "الجماعة المحلية والمجتمع العام" وقسم علم الاجتماع إلى ثلاث فروع:

* علم الاجتماع النظري : وهو دراسة الحقائق الاجتماعية المجردة.

* علم الاجتماع التطبيقي : وهو دراسة العمليات المؤدية إلى التطور الاجتماعي.

* علم الاجتماع التجريبي : وهو استخدام الحقائق النظرية في الدراسات البيئية، من مواليد 1855-1936م .

2- إميل دوركايم : فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية، والتجريب في آن معا ، من مواليد 1858-1917م .

3- أشرف حسن منصور: الفلسفة الحديثة عوامل نشأتها، وخصائصها العامة، الحوار المتمدن، العدد

3213، بتاريخ 12- 12 - 2010م. <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=238064>

أن يصيغ "الروح الديكارتية"، وأنكر بالبرهان الطويل المبادئ الرئيسية التي تقوم عليها، وذكر النتائج التي توصل إليها في المجلد الخامس، وهذه النتائج هي¹:

- ليس لدينا فكرة عن الحدس، ولكن كل معرفة يمكن تحديدها منطقياً عن طريق المعارف السابقة.

- ليس لدينا فكرة عن التفكير بدون استخدام العلامات.

- ليس لدينا تصور عن اللامعرفة المطلقة.

ومن ثم فإنه بالنسبة للمعرفة عند بيرس لم تكن لتفهم على أنها عملية تستند إلى المعرفة الحدسية لأنفسنا، والتي تحاول بطريقة ما أن تشتمل على الموضوعات الأخرى الخارجة عن ذواتنا التي لم نحدها، ولكن إذا كان العلم، وما ينتج عنه من معرفة لم ندركه داخل إطار الفلسفة الديكارتية، فإين، وكيف تمت دراستها؟ ومن ثم فإن الإجابة القاطعة للحركة البرغماتية نجدها في دراسة البحث، وهي تختص بالبحث في البحث.²

لقد أدت أعمال ديكارت الفلسفية إلى تيارين رئيسيين للتطور: أحدهما هو إحياء التراث العقلي الذي كان أكبر دعائه في القرن السابع عشر سبينوزا³، وليبنتز⁴ والثاني ما يطلق عليه بوجه عام اسم التجريبية الإنجليزية.⁵

1- تشارلز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص69.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- سبينوزا : هو فيلسوف هولندي مشهور في مطلع شبابه كان موافقاً مع فلسفة رينيه ديكارت عن ثنائية الجسد والعقل باعتبارهما شيئين منفصلين، ولكنه عاد وغير وجهة نظره في وقت لاحق، وأكد أنهما غير منفصلين، لكونهما كيان واحد، من مواليد 1632-1677م.

4- لايبنتز: فيلسوف ألماني معروف، أسس علم التفاضل، والتكامل الرياضي بشكل مستقل عن إسحاق نيوتن، من مواليد 1646-1716م .

5- برتراند راسل : **حكمة الغرب الفلسفة الحديثة، والمعاصرة**، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون، والأدب الكويت، الجزء الثاني، سنة 1983م، ص82.

ولكن من المهم أن لا نستخدم هذين الوصفين العقلية، والتجريبية بطريقة مبالغة في التحجر، ذلك لأن من أكبر العقبات التي تعترض سبيل الفهم في الفلسفة بل في أي ميدان آخر تصنيف المفكرين بطريقة عمياء مفرطة في الجمود وفقا لأوصاف ثابتة نطلقها عليهم، ومع ذلك فإن التقسيم المؤلف ليس جزافيا، وإنما يشير إلى بعض السمات البارزة والواضحة في كلا التراثين، ويظل هذا الحكم صحيحا حتى على الرغم من أن التجريبيين الإنجليز قد كشفوا في نظريتهم السياسية عن نزعة عقلية ظاهرة، وواضحة في أسلوب تفكيرهم.¹

ثم جاء "امانويل كانط، وكونت، واتباع المدرسة النفعية " بنثام ومل " ليثبت الفكر البرغماتي بعد ذلك نفسه، ونظرياته الفلسفية العملية بقوة وجدارة، وفعالية على الساحة الفلسفية الفكرية العالمية المعاصرة.

**وإيمانويل كانط Immanuel Kant "1724 - 1804م" أوغست كونت
Auguste Comt 1798 - 1857م، وجون ستيوارت ميل John Stuart Mill
1806 - 1873م:**

بينما كان العلم يتمتع بمكانة سامية في ذلك الوقت، كان الاعتقاد القديم بأن الفلسفة لها مكانتها العليا، وأصبح الإنسان بالعقل الخالص وحده قادرا على وصف الطبيعة المطلقة للكون، والتي وضعت في صورة تساؤلات في أعمال كل من **دفيد هيوم** وإيمانويل كانط، وكان من نتيجة تحليلاتهم أن قويت مكانة النزعة الإمبريقية أي التجريبية في الفلسفة، وأنه يجب زعزعة كل النظريات التي يستدل بها على العالم وإخضاعها للخبرة التي يمكن ملاحظتها، فالمنهج العلمي نفسه منهاجا تجريبيا بمعنى أنه في الوقت الذي يسمح فيه بقدر كبير من الشجاعة في تكوين النظريات، فإن هذه

1- برتراند راسل : **حكمة الغرب الفلسفة الحديثة، والمعاصرة**، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون، والآداب الكويت، الجزء الثاني، سنة 1983م، ص 82.

النظريات يجب التحقق منها عن طريق المعطيات التي تم إختبارها.¹ يمكننا قول هنا أن الفلاسفة البرغماتيين كانوا يعتمدون على التجربة للوصول للمعرفة، وذلك من خلال إخضاع كل النظريات للتجربة العملية، والمنهج العلمي.

وبهذا المعنى فإن كل البرغماتيين كانوا تجربيين، ومع ذلك فقد كان وليم جيمس هو الذي أكد بشدة على مقولة الخبرة مقترحا منهج التجريبية الأصيلة، وتصور الواقع على أساس أنه عالم الخبرة الخالصة، وهذا التأكيد يتفق تماما مع الحقيقة المعروفة بأن جيمس تدرب فترة كبيولوجي ثم أصبح سيكولوجيا، وتطورت المكونات النظرية بدرجة أقل مما تطورت بها العلوم الفيزيقية كما يتفق هذا مع تعاطفه القوي مع رواد الفلسفة السابقين عليه، وهما التجريبيان الإنجليزيان **ديفيد هيوم**، و**جون ستيوارت مل**.² ومع ذلك فقد كانت تجريبية جيمس تزداد توجهها نحو البيولوجيا أكثر من توجهه المتزايد نحو نصوص الفلسفة الإنجليزية التقليدية.³

من هنا كان لبد أن نقول بأن الفلسفة الكانطية تحتل مكانة هامة في تاريخ الفلسفة وذلك بالنظر إلى التأثير الذي أحدثته في الفلسفات التي جاءت من بعدها، فلقد شطرت فلسفة كانط الفلسفة الحديثة إلى شطرين ما قبل كانط وما بعده، حتى أن شوبنهاور⁴ قال: "بأن المرء يظل طفلا حتى يفهم كانط".⁵ المقصود من قول الفيلسوف شوبنهاور أن فلسفة كانط كان لها صدى واسع النطاق من خلال التأثير الذي تركته في أفكار المفكرين، والفلاسفة، والنظريات الفلسفية التي جاءت بعدها. إن الفلسفة الكانطية فلسفة مترامية الأطراف، فالمتصفح للإنتاج الفلسفي الكانطي الذي امتد إلى حوالي خمسين سنة يجد أنه قد شمل كل مجالات المعرفة الإنسانية

1- تشالز موريس : رواد الفلسفة الأمريكية، ص 19 .

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- بومانة محمد : مكانة التربية في فلسفة كانط ، التربية والابستمولوجيا مجلة علمية محكمة تصدر عن مخبر التربية والابستمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، العدد الأول، سنة 2011م ، ص53.

4- شوبنهاور: فيلسوف ألماني مشهور، ومعروف بفلسفته التشاؤمية، من مواليد 1788-1860م.

5- بومانة محمد : مكانة التربية في فلسفة كانط، ص53.

العلمية منها والفلسفية، وهو ما أعطاه حضورا دائما لدى الدراسين اليوم، فكانط هو واحد من أولئك المفكرين الذين تترد إليهم الإنسانية بين الحين، والآخر واثقة من أنها لا بد واجدة عندهم شهادة فكرية حية تجعل منهم دائما أبدا مفكرين أحياء في كل عصر من العصور.¹ حقا الفلسفة الكانطية من الفلسفات الشاملة، والواسعة في شتى ميادين المعرفة الإنسانية العلمية منها، والفلسفية.

ورغم أن كانط لا يتفق مع البرغماتية في موقفها الفلسفي الأساسي فقد كان رائدا لها في عدة وجوه:

أولاً: في تمييزه بين أنشطة العقل الخالص، وأنشطة العقل العملي أقر بالنسبة للمجال الأخير، وأن السلوك الأخلاقي لا يمكن أن يقوم إلا من خلال بعض الأفكار التي لا بد من التسليم بها مثل حرية الإرادة، وقد توسع البرغماتيون في هذا المجال وربطوا معاني جميع الأفكار بالوظائف التي تحققها.

ثانياً: يقر البرغماتي بما ذهب إليه كانط من أهمية الذهن بوصفه العامل الفعال في تفسير التجربة، ولكنه بالطبع لم يقرب المقولات الذهنية التي تلعب الدور الأساسي في نظرية المعرفة الكانطية.²

ثالثاً: يقر البرغماتي بالنقد الكانطي للميتافيزيقا التأملية، ويصر تماماً بأن الأفكار لا يمكن أن تشير إلى موضوعات تقع خارج نطاق الخبرة الحسية.³

من هنا يمكننا القول بأن كانط كان له تأثير واضح في البرغماتية عندما بين أن للعقل وظيفة مزدوجة فهناك، العقل النقدي بالمعنى الصحيح، والعقل النظري بالمعنى المحض، الأول يدرك معطيات التجربة، والثاني يدرك طبيعة العلاقات بين الحوادث بهدف الوصول إلى القانون، وهناك أيضا العقل العملي بالمعنى الصحيح الذي يهدف إلى إدراك الغاية من الفعل، وهناك العقل العملي بالمعنى

1- بومانة محمد : مكانة التربية في فلسفة كانط، ص53.

2- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 47، 49.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المحض الذي يقوم على إطاعة الواجب لأنه واجب بغض النظر عن النتائج، وقد حاول كانط نقد الميتافيزيقا التأملية.¹

حيث أكد أن الأفكار لا يمكن أن تشير إلى موضوعات تقع خارج نطاق التجربة لذا فإن البرغماتية على حد قول الفيلسوف الفرنسي **جان فال جان Jean Val Jean 1769-1833م**: "اتبعت الطريق الذي رسمه كانط عندما قال أننا نصنع معرفتنا وإن كان البرغماتيون قد جعلوا للفكرة صنع المعرفة معنى بعيدا عن المعنى الذي حدده كانط بحيث يحسن الفصل بين المعنيين".²

وخلاصة الأمر أن **كانط** كان أحد مصادر التفكير الفلسفي العملي البرغماتي من خلال النقاط التي أشرنا إليها لكن يجب علينا ألا نتجاهل الفرق الكبير، والشاسع بين **الفكر البرغماتي والفكر الكانطي**، فالفكر البرغماتي لا يعترف بالمقولات الذهنية العقلية التي تلعب الدور الأساسي، والمهم في نظرية المعرفة الكانطية.

أما أوجست كونت فقد كان رائدا ملما للبرغماتية للأسباب التالية:

- أقرب الرافض الكانطي للميتافيزيقا التأملية فقد رأى فيها مرحلة لا مفر منها في المعرفة الإنسانية.
- رأى أن الفكر متحد مع العمل، وأن الناس، والإنسان كلاهما مكمل للآخر وأن التطور ليس مجرد حركة بل هو تقدم.
- كان بالنسبة للمنهج العلمي تجريبيا متطرفا، معنى هذا أنه كان يعتقد أن جميع المعرفة إنما ترد إلى فروض عن موضوعات الحس، وعلاقاتها التي يمكن أن تقع تحت الملاحظة.³ فالمعرفة الإنسانية عند أوجست كونت مصدرها الحس والتجربة من أجل الوصول إلى الحقيقة.

1- جان فال : طريق الفيلسوف، ترجمة أحمد حمدي محمود، مراجعة أبو العلا عفيفي، مؤسسة سجل العرب القاهرة، سنة 1967م، ص 273.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3- محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 49.

أما الفيلسوف جون ستيوارت ميل 1806-1873م فيعد أيضا من رواد البرغماتية فقد كان تجربيا متطرفا أنكر الفلسفة التأملية، وجميع المبادئ الأولية التي قال بها كانط أو غيره حتى في مجال الرياضيات فقد أنكر "أولية" الحقائق الرياضية، ورآها تعميمات مجردة من الخبرات الواقعية.¹

ولا أدل على مدى تأثير البرغماتية بهذا الفيلسوف من أن "وليام جيمس" قد أهدى كتابه عن البرجماتية "إليه قائلا: "إلى ذكرى جون ستيوارت ميل الذي كان أول من علمني سعة الأفق البرغماتية، والذي يطيب لخيالي أن يتصوره قائدا لنا لو كان اليوم حيا".² هؤلاء وربما كان غيرهم هم رواد الفلسفة البرغماتية الذين مهدوا السبيل لظهورها بصورتها الدقيقة، والواضحة في أواخر القرن التاسع عشر، وهذا يعني أنها لم تكن من هذه الناحية بدعة فلسفية معاصرة كما يقول البعض.

يتبين لنا من خلال ما عرضناه أن الفلسفة البرغماتية ذات صلة بالتراث الأوروبي الحديث، إذ عرفت على أيدي كل من بيكون، وجاليلو، وبسكال وكانط، وكونت وميل، فقد كانت البرغماتية تعبر عن أسلوب الحياة أيا كان هذا الأسلوب، وتؤمن بحقيقة التغيير على الديمومة، والصيرورة، ونسبية قيم الطبيعة الإنسانية، والبيولوجية للإنسان، وبأهمية الديمقراطية كطريقة، ووسيلة في الحياة لتحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح المادية.

فريدريش هيجل Friedrich Hegel " 1770 - 1831م:

واضح أن ديوي ينطلق من الفكر الهيجلي الذي تأثر به في بداية حياته الفلسفية فتعبر الفلسفة عن عصرها، وتجسد مراحل التاريخ في تطورها، فكر العقل المطلق يعيد ربط الفكر بالواقع وأن كان الواقع، ورغبات الإنسان توجه الفكر، وتفرض نفسها على المفاهيم، والتصورات فافتراض أن مشكلة الفلسفة الحديثة تمثلت في تقليل العلم من شأن الأخلاق، ومن شأن تلك الأمور التي يقدرها الإنسان، ولها في الوقت

1- حمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، ص 49.

2- وليام جيمس: البرجماتية، ص 13.

نفسه سلطة حاكمة في توجيه سلوكه.¹ يعني أن ديوي تأثر بأفكار الفيلسوف هيجل من خلال ربط الفكرة بمدى نجاحها على أرض الواقع.

ومن جهة أخرى نجده يتفق مع وليام جيمس في التأكيد على الوظيفة العملية للفلسفة وفي التقليل من شأن المفاهيم العامة، فليست الفلسفة تأملات خالصة، أكد على ضرورة أن تصبح الفلسفة علما اجتماعيا ونفسيا.² المقصود هنا أن عمل الفلسفة لا ينحصر في التأملات الميتافيزيقية، وإنما في الوظيفة العملية الناجحة للفلسفة.

فمن إذن المفروض أن تتجه إلى حل المشكلات الإنسانية، ولن يتحقق ذلك إلا بتحويل المنهج التجريبي من الميدان الفني للتجربة الفيزيائية إلى ميدان الحياة الاجتماعية والأخلاقية، وبالتالي واجه ديوي نفس الإشكال الذي واجهه وليام جيمس بالرغم من رفضه **لنفعية بنتام**، ومثالية أفلاطون حين قرر أن النتائج المطلوب تحقيقها في الجوانب السياسية والاجتماعية هي النتائج المرغوب فيها، فجعل الطابع النفعي معيارا للصدق لم يتحرر ديوي تماما من القول بالغاية الواحدة المطلقة التي رفضها حين نعد المذاهب المثالية، والفلسفات النفعية في الأخلاق تأكيدهم على وجود غاية واحدة بالرغم من اختلافهم في تحديدها فجعل النمو الغاية القصوى، والنهائية.³

أما البرغماتيون فقد رأوا أن التصور لا يمس لب الواقع في شيء، لأنه إذا كان هذا صحيحا وحقيقيا، فما هو المعيار الذي يجعلنا نفضل تصور على آخر ونصفه بأنه صحيح وبأن الآخر فاسد؟ إن العبرة هنا ليست في التصور نفسه بقدر ماهي في الأثر الفعلي الذي يحدثه التصور في حياتنا، وفي الأفعال التي نقوم بها إستجابة له فصحة المعتقد مرتبطة بالفعل الذي تحقق به منفعتة.⁴ معنى هذا أن التجريبية الأصلية عند الفلاسفة البرغماتيين تختلف مع المثالية الهيجلية، والفرق يكمن في أن مصدر

1- جون ديوي : إعادة البناء في الفلسفة، ص 8.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3- جون ديوي : إعادة البناء في الفلسفة، ص 9.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المعرفة عند هيجل هو الأفكار الذهنية، وهذه الأفكار تمثل الواقع المعاش، بينما عند البرغماتيين التصور الذهني ليس له علاقة مع الوقع المحيط بنا. وعلى هذا فإن الفعل، والمنفعة هما الأصل لا التصور العقلي، وإذا كانت الصورة العقلية التي لدينا عن موضوع ما، أو إذا كان هذا التصور العقلي الخاص بهذا الموضوع ليس صورة جوفاء، أو ليس تصورا فارغا فإنها ستتحد في نهاية الأمر إلى مجموعة من الآثار العملية سواء كانت آثار قريبة مباشرة، أو بعيدة غير مباشرة فالتصور الصحيح له مقولاته العملية التي ليست في حقيقتها إلا مسارات تجاربنا التي نسلوها بإزائها، ففي هذا الانتقال المستمر من تجربة سلوكية إلى أخرى ترتبط جهودنا في توضيح معنى هذا التصور.¹

المقصود هنا أن التفكير الناجح والتصور الصحيح قائم على أساس مدى نجاح أفكارنا العملية، وتحقيق تجاربنا السلوكية في حياتنا اليومية، فكل ما هو نافع مفيد ومن هذا المنوال ننتقل على مدرسة أخرى ألا وهي المدرسة النفعية.

المدرسة النفعية:

تعد المدرسة النفعية إحدى المدارس الفلسفية التي لها تأثير في الفلسفة البرغماتية² ظهرت في انجلترا على يد آدم سميث Adam Smith "1723 - 1790م"، ثم تطورت على يد الفيلسوف جريمي بنتام Bentham Jeremy "1784 - 1823م" وجيمس ميل "1773 - 1836م" الذي جعل من ابنه جون ستيوارت ميل John Stuart Mill "1806 - 1876م" داعية آخر للمذهب في المنفعة الذي بدوره نقلها إلى تلميذه الكسندر باين 1818 - 1903م"، والذي كان أستاذا جامعيا صنف كتباً عدة وترجم لحياة أستاذه جون ميل.³ اهتمت المدرسة النفعية الإنجليزية التي تزعمها

1- يحيى هويدى : قصة الفلسفة الغربية، ص 137.

2- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرغماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندروس بيرس، ص 45.

3- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 373، 383.

جريمي بنتام بإبراز دور ، ومكانة الفرد المهمة، والفعالة في سير الحياة الإنسانية اليومية اعتمادا على أنه أعرف، وأدري بمصلحته، ومنفعته الشخصية.

لقد بقيت فكرة المنفعة زمنا طويلا تتأرجح بين الإستماع المادي، والإستماع العقلي إلا أن جاء الفلاسفة الإنجليز وعلى رأسهم جريمي بنتام، وجون ستيوارت ميل وحولاهما إلى الناحية الاجتماعية، فأصبحت الغاية من الحياة ليس الفرد، وإنما الجماعة البشرية ليس سعادتي وسعادتك، وإنما سعادة المجموع، فالخير ليس ما يجلب لك ولغيرك السعادة، وإنما ما يجلب السعادة لأكبر عدد من الناس، وكلما كثر عدد الناس الذين يسعدون من أي تصرف معين كان هذا التصرف خيرا وفاضلا، وبعبارة أخرى أن الفضيلة هي الوسيلة للسعادة.¹

وبذلك يكون بنتام، وميل قد أقدما على تغيير جذري في مفهوم المنفعة حيث ربطاها بالسعادة، ولكن ليست السعادة الذاتية الأنانية الفردية بل الجمعية التي تهدف إلى سعادة أكبر عدد من الناس، أي تعميم المنفعة على أكبر مجموع من الأفراد بمعنى أن قيمة المنفعة تقاس بمدى قدرتها على شمول أكبر عدد من البشر بالإضافة إلى أن امتداد المنفعة من الفرد الواحد إلى الكل سوف يؤدي بدوره إلى امتداد السعادة الجماعية.

كما يمكننا أن نفهم أن مذهب المنفعة عنده يقوم على أساس نفسي وثيق، وهو أن الإنسان بطبعه يسعى إلى تحصيل اللذة، وتجنب الألم يقول بنتام: "أن الطبيعة وضعت بني الإنسان تحت سيطرة حاكمين ذوي سيادة هما: الألم واللذة، وهما يحكماننا في كل ما نفعل وكل ما نقول، وفي كل ما نفكر فيه، وكل محاولة يمكن أن نبذلها من أجل التخلص من استعبادنا لهما لن تفلح إلا في إثبات هذه الحقيقة وتوكيدها وربما زعم الإنسان بالقول رفض سلطانهما، أما بالفعل وفي الواقع فإنه سيبقى

1- يعقوب فام : البرجماتيزم، ص51.

خاضعا لهما دائما".¹ المقصود من قول بنتام أن الإنسان بطبيعته يحرص تحقيق اللذة، والمتعة، والسعادة، ويتعد بطبيعته عن الألم والمعاناة، فمبدأ اللذة والألم يلعب دورا حاسما، وفعالا في توجيه الاهتمامات، والنفس البشرية، والخلفيات الفكرية الخاصة بكل فرد من الأفراد.

وفي سؤال يبرز لبنتام ماهي هذه المنفعة التي ستجلب السعادة الحقيقية لكل فرد من الناس؟، وما هو المبدأ الذي بفضلها ستعم السعادة الحقيقية في أرجاء المجتمع شتى؟ فيجيب بنتام بأن المنفعة هي القدرة الكافية في غرض معين على إنتاج أو نفع أو لذة أو سعادة.²

وعليه فالمنفعة بمثابة الوسيلة، أو الآلة التي تنتج لنا عملا، أو فعلا مهما كانت طبيعة الفعل خير، أو فضيلة، أو غير ذلك، فوظيفتها عملية غايتها في نتائجها، وهذا ما تتفق فيه مع الفلسفة البرغماتية كذلك في مبدأ أن المنفعة هي التي تجلب لنا السعادة، والمتعة، والتوازن والنضج لكافة الناس.

في مناقشة جيمس لفكرة القول بالمطلق يقول: "إذا كان مانؤديه صالحا، فإنكم ستسمحون للفكرة نفسها بأن تكون صالحة.... ذلك لأن إمتلاكنا لها يعود علينا بالنفع ونحن خيرنا بدونها".³ يعني هذا أن الفرد كائن يحب إصلاح وتغيير عدة أمور في حياته اليومية، فالطبيعة الإنسانية طبيعة عملية نفعية على جميع الأصعدة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والنفسية.

فمن أهم النقاط الالتقاء بين البرغماتية، والمدرسة النفعية إضافة إلى تأثر الإثنين بالمدرسة التجريبية الإنجليزية هو في الغاية التي تبحث عنها المدرستان وهي النفع

1- عبد الرحمن بدوي : الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الجزء الأول، سنة 1849م، ص 364.

2- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 45.

3- وليام جيمس : البرجماتية، ص 99.

حيث ترى هاتان المدرستان أن البحث عن المنفعة هو الذي يجلب السعادة والخير للإنسان.¹ وإذا عدنا للواقع قد نجد تأكيداً لفكرة المنفعة العملية التي نادى بها كل البرغماتية والمدرسة النفعية، حيث تأثر الناس بفكرة المصلحة، والمنفعة، وأصبحت وسيلتهم في التفكير، وغايتهم في التطبيق، ولكن بالرغم من الإيجابيات التي ذكرناها إلا أن هذا لا يعني أنها لا تخلو من سلبيات.

تعقيب:

إن نظرية المنفعة في الفلسفة ضاقت، وذهب رونقها، وطرحت جانبا إلى حد محدود ولم تعد هي النظرية الفلسفية الغالبة، والشئ الذي ذهب بأهمية هذه النظرية هو علم النفس، وتجاربه المتعددة، والحقائق التي اكتشفها.²

فإن هذا العلم قد اكتشف بما لا يدع مجالا للشك أن الدوافع النفسية لتصرفاتنا ليست السعادة أو ما يشبه السعادة، ويقول يعقوب فام في هذا الصدد: "نحن لانسعى في الأرض، وننشط للحصول على السعادة، وإنما ننشط في الواقع للحصول على أشياء معينة، ونرغب في أشياء معلومة هذا من جهة الدوافع الداخلية لتصرفات الفرد، وأما من جهة أقدار الأشياء، وقيمتها فنحن لانضع السعادة في مقدمة القائمة بل نفضل عليها الإخلاص والشجاعة والخدمة العامة".³ إن المقصود هنا أن النظرية الفلسفية النفعية في السعادة الحقيقية كغاية، وغرض للحياة قد أخذت تتهاروتتبعثر من أساسها لأن السيكولوجية الحديثة، قد اكتشفت أن الناس تتصرف بمقتضى دوافع نفسية أخرى غير السعادة.

نستنتج مما سبق أن الفلسفة البرغماتية كانت لها امتدادات جذرية في التراث الفلسفي الأوروبي، إنها ذات صلة وثيقة بالفلسفة التجريبية الإنجليزية التي يتزعمها جون

1- علي عبد الهادي المراهج : الفلسفة البرغماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندرس بيرس، ص 46.

2- يعقوب فام : البرجماتيزم، ص 52، 53 .

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

لوك، ودفيد هيوم، وجون ستيوارت ميل، وذات إتصال قوي أيضا بالعقلانية النقدية الكانطية، فالسياق التاريخي للبرغماتية يمت بالصلة للفلسفة المثالية الألمانية، لقد أعلن كانط أن الذهن يفرض مبادئه على الطبيعة، والمعرفة عالما منظما للمزيج من المعطيات الحسية هذا الإعلاء من شأن العقل نعثر عليه عند البرغماتية إلا إنها وقفت موقفا سلبيا اتجاه الهيكلية، وهي جد متفاعلة مع مذهب المنفعة عند ميل.¹ يظهر لنا جليا هنا أن البرغماتية مسلحة تسليحاً كاملاً لاتمثل أي نتائج معينة بذاتها وليس لها أية عقائد يقينية اللهم سوى طريقتها، ومناهجها فهي تحول جمود كل النظريات إلى مرونة، وتمرس كل واحدة منها على العمل وبذلك فهي تتفق وتتآلف وتقترب مع كثير من الإتجاهات الفلسفية فقيمة أي فكرة تكمن في فائدتها العملية أولاً، ويعتبر هذا نتيجة منطقية لأنعدام الحس التاريخي لدى الشعب الأمريكي الذي يحاول أن يكون صانع مستقبل، وليحقق ما يهدف إليه ببناء قاعدة معرفية ينطلق منها الفرد الأمريكي لايسأل عن الماضي بقدر مايسأل عن المستقبل.² يعني أن الفلسفة البرغماتية تتفق مع كثير من النظريات الفلسفية في قيمة الفكرة في حد ذاتها أي ما ينتج عن هذه الفكرة من نتائج مثمرة، فالإنسان الأمريكي يسعى دائماً إلى التقدم والإزدهار مهما كلفه الثمن، وهذا مانلاحظه في يومنا هذا من اختراعات، وانتصارات، واكتشافات في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية، والثقافية والاجتماعية المهم تطبيق الفكرة على أرض الواقع، وتعود في نهاية المطاف بالمنفعة للفرد والمجتمع.

اثبت الفكر البرغماتي حقيقته كفكر معاصر، وبعمق وأصاله فلسفية تاريخية عبر التطور التاريخي لهذا الفكر بدءاً من الفلسفة اليونانية، واستخدام مصطلح "براغما" في النواحي العملية في الحياة، ومن ثم الفلسفة السوفسطائية التي أعتبرت الإنسان مقياس كل شئ وهو نفس المبدأ البرغماتي الذي يجعل الحقيقة نسبية وتختلف من

1- يعقوب فام: البرجماتيزم، ص 141، 142.

2- إيلاف سعد البصري : الفكر الجمالي في الفلسفة البرجماتية، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية العراق، العدد 50، سنة 2007م، ص343.

شخص لأخر بحسب ماتحققه له من فائدة ونفع، وساهم كل من "سقراط وأفلاطون وأرسطو" في تركيس مبدأ التركيز على التجربة بوصفها مكونا ضروريا من مكونات المعرفة الأمر الذي كان موضع تركيز كبير من جانب البرغماتيين المعاصرين ومن بعدهم المدارس الفلسفية الأخرى "الأبيقورية، والرواقية" التي ابتعدت عن القول التقليدي بالقول المطلق أو الحقيقة المطلقة ذلك أن الحقيقة الفلسفية بالنسبة لهم هي تلك التي تحقق وظيفة عملية لإصلاح حال المعتقد بها مرورا بعد ذلك بفلسفة التراث الروماني التي لم تعرف تألقا كبيرا عند الرومان، وظل الإمبراطور المصدر الأساسي للسلطة انطلاقا من كونه المفوض الوحيد من طرف الشعب¹ أما التراث الإسلامي فإن الدين لم يسلم من التفسير النفعي الفلسفي في ضوء الفلسفة البرغماتية لأن الدين عند البرغماتي لم يكن موضعا للبحث في ذاته، وإنما أثار الإنفعال الديني في موضوع البحث، فجعلت الفلسفة البرغماتية أهدافها وغاياتها منصبة على الجانب المادي من حياة الإنسان فقط، وأغفلت الإهتمام بالروح واحتياجاتها كما أنها اهتمت بالحياة الدنيا فقط، وأهملت الآخرة، بالعكس التاريخ الإسلامي كان أكثر شمولاً، أما الفلسفة الغربية الحديثة من أمثال: "كوبرنيق، وجاليلو، وميكافلي، وباسكال" فالبرغماتية كانت أسلوب حياة وطريقة عمل، وتتمثل أهم العناصر التي أثرت في ظهورها، ظهور الإستقراء كطريقة جديدة في التفكير، كما في أعمال فرانسيس بيكون، وإلى أهمية الخبرة الإنسانية كما أبرزها جون لوك، وهيوم وبركلي، وإلى الإنسانية الطبيعية كما يقدم لها جان جاك روسو، وإلى العلاقة بين العلم والمجتمع كما في أعمال اوجست كونت، وغيرهم ثم "كانط، وكونت، واتباع المدرسة النفعية بنثام ومل" وبهذا أصبح الفكر البرغماتي منتشر بقوة على الساحة الفلسفية الفكرية العالمية المعاصرة، لا بل تعدى كل أشكال الفلسفة والفكر اليوم ليرد على كل الذين شككوا في أصالته وبعمق تاريخي فلسفي طويل إلا أن هؤلاء الرواد كانوا ممهدين فقط للفكر البرغماتي على حد تعبير ليم جيمس، واستخدموه بعضالا كلا ولم يُقدر

1- وليام جيمس : البرجماتية، ص 70.

للبرغماتية أن تعمم نفسها إلا في زمننا المعاصر.¹ حيث أصبحت الفلسفة البرغماتية الأمريكية هادفة، وواعية برسالة عالمية تدعي أن مصيرها الفوز، والتألق في جمع مجالات الحياة اليومية، والغزو، هذه هي إذن الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية على مر التاريخ، وهي الأسس التي انتصرت، وكان لها صدى في الواقع العالمي بالأمس واليوم.

وبعد التعريف بالأسس النظرية للفلسفة البرغماتية عبر التاريخ أصبح من اليسير علينا الانتقال إلى مكانة الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني.

1- وليام جيمس : البرجماتية، ص 70.

الفصل الثاني

مكانة الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني.

1- **المبحث الأول:** آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر.

2- **المبحث الثاني:** آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر.

3- **المبحث الثالث:** آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر.

مكانة الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني:

لقد استطاعت البرغماتية أن تتطور في الولايات المتحدة، لأن أميركا كانت قد قدمت للفلسفة الشروط الموضوعية الضرورية، والكافية لعالميتها، وذلك من خلال التوجه المباشر للفيلسوف الذرائعي إلى قلب الواقع الإنساني، بعد نزوله من علياء الأفكار والنظريات المثالية، فكن للفلسفة البرغماتية أثر على سلوك الأفراد وعلى سلوك الجماعات¹، وفي هذا الإطار يقول الفيلسوف الإنجليزي الكبير برتراند رسل: "الفلاسفة إنما هم أولئك الأفراد الذين تتركز في مذهبهم تلك الأفكار المهمة التي ظلت غامضة مستترة في الوسط الاجتماعي المحيط بهم، فهم العلة الفعالة لتلك المعتقدات التي سوف تأتي فتشكل الحياة الاجتماعية في العصور التالية، إن ثمة تفاعلا مستمرا بين حياة المجتمع، وفلسفات مفكريه، بحيث يصح لنا أن نقول أن لكل مجتمع من الفلسفات ما تتطلبه حاجاته، وما يتلائم مع مثله العليا، وتبعاً لذلك فإن مذاهب الفلاسفة لابد أن تكون لها صدى لما في المجتمع من تيارات."²

جاءت الفلسفة البرغماتية تعبيراً عن ذلك الشعور البرغماتي العملي الذي كان مسيطراً على المجتمع الأمريكي، ولما كانت لكل فلسفه إطارها الحضاري فإن مهمتنا هنا تكمن في الوقوف على أنواع التغيرات، والتطورات التي طرأت على المجتمع الأمريكي نتيجة لإعتقاده في البرغماتية، فأثر البرغماتية لم يكن واسعاً في أي منطقة بالعالم، مثلما كان في الولايات المتحدة الأمريكية، إن هذه المكانة المرموقة التي تحتلها البرغماتية في الفكر الإنساني، وفي الحياة الأمريكية لا تزال فاعلة في المجتمع الأمريكي، فالبرغماتية نظرية تجريبية في المعرفة كما تعرف أنها الفلسفة الأولى، والوحيدة حتى الآن التي يلعب فيها الفعل، والعمل دوراً أساسياً فإذا كانت الفلسفة البرغماتية تعبر عن معالم الفلسفة المعاصرة العالمية التي عرفت النشأة والتطور، والتطبيق في مختلف مجالات الحياة الأمريكية، فما هي آثارها في

1- زكريا إبراهيم : مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة 1967م، ص176.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

صياغة الوعي الفكري المعاصر؟، وصياغة الوعي الثقافي المعاصر؟، وصياغة
الوعي الاقتصادي المعاصر؟.

آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر:

ما المقصود بالوعي الفكري؟ إن الأفكار في أي أمة من الأمم هي أعظم ثروة تتألفها الأمة في حياتها إذا كانت أمة ناشئة، وأعظم هبة يتسلمها الجيل من سلفه إذا كانت أمة عريقة في الفكر المستنير، وأما الثروة المادية، والاكتشافات العلمية والمخترعات الصناعية العصرية، وما شاكلها، فإن مكانها دون الأفكار بكثير بل يتوقف الوصول إليها على الأفكار، والمراد بالأفكار هو وجود عملية التفكير عند الأمة في وقائع حياتها بأن يستعمل أفرادها في جملتهم ما لديهم من أفكار يبدعون ويتقنون بإستعمالها في الحياة فينتج عندهم من تكرار استعمالها بنجاح طريقة تفكير منتجة وفعالة.¹ وقد وردت الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تحض على التفكير يقول تعالى: "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"²، وقال تعالى: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى"³ وقال تعالى "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"⁴ والتفكير المطلوب لا بد أن يكون مستنداً لأساس فكري أو قاعدة فكرية حتى يكون تفكيراً منتجا ومثمرا، والذي يبدأ بالإحساس بالواقع الخارجي إحساساً فكرياً يكون الفكر مصدراً له، وليس هو مجرد الإحساس بالشيء الذي يأتي طبيعياً لمجرد الشعور بالواقع فيتجاوب معه الإنسان من غير تفكير، أي إحساساً ناتجاً عن فهم، وإدراك في إطار ما لديه من مفاهيم ومعايير وهذا هو المكون الأول للوعي الفكري.

1- أشرف يوسف : الوعي، والوعي الفكري، ملتقى رابطة الواحة الثقافية، منبر الفكر والمعرفة، بتاريخ 19-03-2009م. <http://www.rabitat-alwaha.net/moltaqa/showthread.php?t=35504>

2- سورة البقرة، الآية 219.

3- سورة الروم، الآية 8.

4 - سورة الروم، الآية 21.

قبل الولوج إلى الحديث عن أثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر لا بد أن نحدد مفهوم الوعي لغة واصطلاحاً.

الوعي Cognition: كلمة تدلُّ على ضمِّ شيء، وفي قواميس اللغة العربية وَعَيْتُ العِلْمَ أَعِيهِ وَغِيًّا، ووَعَى الشيء والحديث يَعِيهِ وَغِيًّا وَأَوْعَاه: حَفِظَهُ وَفَهِمَهُ وَقَبِلَهُ فهو واعي، وفلان أَوْعَى من فلان أَي أَحْفَظُ وَأَفْهَمُ، وفي الحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تَضَرَّ الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى من سَامِعٍ" والْوَعِيُّ الحَافِظُ الكَيِّسُ الفَقِيه.¹ وعليه لا وعي دون علم، وبحث فكلما ازداد المرء علماً وفهماً ازداد وعياً.

الوعي أيضاً هو أعلى أشكال انعكاس الواقع الموضوعي، وهو كامن في الإنسان وحده، و هو المجلد الكلي للعمليات العقلية التي تشترك إيجابياً في فهم الإنسان للعالم الموضوعي، ولوجوده الشخصي، ويرجع أصله إلى العمل، وإلى نشاط الناس الإنتاجي الاجتماعي، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بظهور اللغة، إن الوعي نتاج للتطور الاجتماعي، ولا يوجد خارج المجتمع هذا، وقد أثبت فلاديمير لينين **Vladimir Ilitch Lénine**²: "أن وعي الإنسان لا يعكس فحسب العالم الموضوعي، وإنما يخلقه."³ وبديهي جداً أن يكون الوعي شكل من أشكال الواقع الخارجي الموضوعي لأنه لو لا الوعي لماتمكن الإنسان من فهم العالم المحيط به الذي يكون قائم على أساس العمل المثمر، والنافع لجميع المجتمعات والأمم.

بالإضافة إلى ذلك نجد أن الوعي مفهوم مشترك بين الفلسفة، وعلم النفس، ويشير في العادة إلى معرفة النفس لذاتها، وبذاتها تتم من خلال معرفتها، واتصالها بموضوع

1- أشرف يوسف : الوعي والوعي الفكري، ملتقى رابطة الواحة الثقافية، منبر الفكر والمعرفة، بتاريخ 19-03-2009م. <http://www.rabitat-alwaha.net/moltaqa/showthread.php?t=35504>

2- فلاديمير لينين : كان ثوري روسي ماركسي معروف، وقائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعاً شعاره الأرض والخبز والسلام، من مواليد 1870-1924م .

3- م. روزنتال، ي. يودين: الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفييتيين، ترجمة سمير كرم دار الطليعة بيروت، الطبعة الرابعة، سنة 1981م، ص 586، 587.

خارجي، كما يفيد المفهوم معنى الخبرات، والتجارب التي تحصل لفرد ما في فترة ما، ويربطه برغسون بالذاكرة في سياق علاقة تجعل الماضي ممتدا في الحاضر.¹ معنى هذا أن الوعي يهتم بالجانب الفلسفي، والنفسي للإنسان من خلال الخبرات التي تحدث للفرد في معرفة ذاته.

وقد أخذ مدلول "الوعي" يتفرع ويتوسع، ليدخل العديد من المجالات النفسية، والفكرية فقد كثرت المجالات التي يضاف إليها الوعي، فهناك الوعي الاجتماعي، والوعي الطبقي، والوعي الفكري، والوعي السياسي.²

غير أن الناظر إلى الواقع العالمي المعاصر، والحال الحاضرة عصر الانفجارات المعرفية والتدفقات المعلوماتية، والتغيرات التقنية يرى فيه تحولات كبيرة ومستجدات عديدة، وعلى أصعدة مختلفة، وميادين متعددة، ومن أخطر هذه التحولات ما يشهده العالم على صعيد الفرق، والتيارات وعلى صعيد الأفكار، والمناهج والنظريات فقد تطورت فرق قديمة، وظهرت تيارات جديدة ومعاصرة، وانتشرت أفكار متباينة قديمة وحديثة، وكانت الحداثة، وما بعد الحداثة والماركسية، وما بعد الماركسية والليبرالية وما بعد الليبرالية، والوجودية كلها تيارات فكرية تشكل الوعي الفكري المعاصر لدى الناس، لكن السؤال المطروح هنا: ماهو أثر الفكر البرغماتي على هذا الأمر هل عمقت منه، وهل وضعته في دائرة ضيقة؟، ماذا فعلت للوجودية؟، ماذا فعلت للفكر المثالي؟، ماذا فعلت للفكر العربي والعلاقة مع الآخر؟، الحضارة الغربية الآن التي تقوم على أساس الجهة التي تنادي بحوار الحضارات؟، على أي أساس تأسس أفكارها؟ رأيتها للديمقراطية حتى العولمة، وفتح الحدود ماذا فعلت الفلسفة البرغماتية لهذه التيارات كلها؟، يعني هل الناس استفادوا من فعل الفلسفة البرغماتية؟، أننا نجد

1- هنري برغسون : بحث في المعطيات المباشرة للوعي، ترجمة الحسين الزاوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2009م، ص9.

2- أشرف يوسف أبو عطايا : دور القرآن الكريم في تشكيل وعي الأمة، القرآن الكريم ودوره في معالجة قضايا الأمة، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي مركز القرآن الكريم، والدعوة الإسلامية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، سنة 2008م، ص159.

هذا التيار البرغماتية الذي ترعرع في أمريكا استطاع أن يفرض وجوده وبجدارة، ويحتل مكانة مرموقة عالمية في مسار الفكر الإنساني الفكري المعاصر ذلك من خلال أهم المدارس التي ظهرت في أمريكا، وأثرت فيها الفلسفة البرغماتية نجد منها:

الحداثة ومابعد الحداثة، الماركسية ومابعد الماركسية، والليبرالية والنيوليبرالية والوجودية، والمدارس التي نتجت عنها.

1- الحداثة ومابعد الحداثة :

استقطب مفهوم الحداثة La modernité اهتمام الأدباء، والفلاسفة، وعلماء الاجتماع، منذ عصر النهضة حتى اليوم، واحتل مكانه المميز في الأنساق الفكرية الكلاسيكية عند كارل ماركس¹ Karl Marx، وإميل دوركهايم² Émile Durkheim وماكس فيبر³ Max Weber، واستطاع لاحقاً أن يأخذ مركز الأهمية في أعمال المحدثين، ولا سيما هابرماس⁴ Habermas، وليوتارد⁵ Lyotard.

يطلق مصطلح الحداثة بوجه عام على مسيرة المجتمعات الغربية منذ عصر النهضة إلى اليوم، ويغطي مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية

1- كارل ماركس : فيلسوف ألماني، واقتصادي، وعالم اجتماع، ومؤرخ، لعبت أفكاره دوراً هاماً في تأسيس علم الاجتماع وفي تطوير الحركات الاشتراكية، نشر العديد من الكتب خلال حياته، أهمها بيان الحزب الشيوعي 1848م، و رأس المال 1867 م، من موليد 1818م-1883م.

2- ماكس فيبر: عالماً ألمانياً مشهوراً في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة، وهو من أتى بتعريف البيروقراطية، وعمله الأكثر شهرة هو كتاب الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، من موليد 1864-1920م.

3- يورغن هابرماس: فيلسوف، وعالم اجتماع ألماني معروف معاصر يعتبر من أهم علماء الاجتماع والسياسة في عالمنا المعاصر، من موليد 1929م.

4 - آلان تورين: **نقد الحداثة**، ترجمة أنور مغيت، المجلس الأعلى للثقافة، المطابع الأميرية، القاهرة، سنة 1992 م، ص16.

والأدبية.¹ معنى هذا أن مصطلح الحادثة يهتم بجميع ميادين الحياة منذ عصر النهضة إلى يومنا هذا.

فالتيار الفكري المسمى بالحادثة، وهو الذي عمل على تخلص أوروبا من فكر العصور الوسطى، وربط الفكر الأوروبي بواقعه، لقد نسف فكر ديكارت جميع الدعائم التي قام عليها فكر القرون الوسطى ليقوم محله صرحا فلسفيا متكاملا مبنيا أساسا على مطابقة العقل مع الواقع، فكما يتطابق هذا العقل مع الأشياء، كذلك تطابق الأشياء معه، فالحادثة جعلت من الإنسان أسمى كائنات هذه الأرض محورا للفلسفة وربطت مسؤوليته بمصيره، وأنه صانع تاريخه، ويأتي تنوير كائنات ليحث الإنسان على تحمل هذه المسؤولية، وذلك بتحرير العقل من جميع العوائق، فلا شرط لإعمال العقل سوى الحرية.² فالحادثة جعلت الإنسان يتخلص من الأفكار الميتافيزيقية وربطت مواقفه ومستقبله بمصيره، وأفكاره، وبهذا أصبح الإنسان حر في اختيار قراراته وأهدافه الفلسفية والعملية.

ومن زاوية أخرى فإن الحادثة هي استكمال الدورة الجدلية للتفاعل الحضاري بين الشعوب والأمم، وهي حركة دائما تستبدل بالقديم جديدا، وذلك بالاعتماد على المنجزات العلمية، والثقافية، والعقلية في جميع الحضارات، فالحادثة هي قبل كل شيء مجموعة من العمليات التراكمية التي تطور المجتمع بتطوير اقتصاده، وأنماط حياته وتفكيره، وتعبيراته المتنوعة معتمدة في ذلك على جدلية العودة، والتجاوز.³ معنى هذا أن الحادثة ذاك الكل المتكامل في ازدهار المجتمع اقتصاديا، وسياسيا واجتماعيا، وثقافي هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإننا نجد على الساحة الفكرية العربية عدة عبارات، ومن بين هذه العبارات مفهوم ما بعد الحادثة.

1- آلان تورين: نقد الحادثة، ص16.

2- عبد القادر تومي: التربية والمجتمع في زمن العولمة، وأسئلة الأولويات نحو رؤية تحليلية، مجلة علمية محكمة تصدر عن مخبر التربية والابستمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، العدد الأول، سنة 2011م، ص9، 10.

3- اسراء حامد علي الجبوري: سمات الاغتراب في فن ما بعد الحادثة، ص1062.

يعتبر مفهوم ما بعد الحادثة¹ من العبارات الرائجة في الساحة الفكرية العربية في هذه الأيام فهو يستخدم على نطاق واسع في الدراسات الفكرية والأدبية والنقدية وتستند إليه اتجاهات فلسفية متزايدة الحضور، كما أن بعض الأوساط والمؤسسات الثقافية تضطلع بدور المنبر لهذا الاتجاه الجديد، ومنها بعض الهيئات والمننديات الفاعلة التي تصدر منشورات وأدبيات رائجة، وعلى الرغم من أن ما بعد الحادثة تشخيص لكل ما يحدث، إلا أنها لم تعط حتى الآن تعريفاً، بل أن هذا المفهوم نادراً ما خضع للتحقيق والتدقيق، وغالباً ما يستخدم بغموض للتعبير عن دلالات متباينة متغايرة حيث تتسم وجهات النظر حول هذا المفهوم بالكثير من التنوع والتدرج بشكل يصعب معها إيجاد تعريف واضح ومحدد له، وهو مادفع كثير من المفكرين إلى عدم إعطاء تعريف لـ "ما بعد الحادثة" لصعوبة ذلك، وتقديم بدلاً من ذلك توصيف لأهم الأسس التي يقوم عليها وذلك بمقارنته بنقيضة الحادثة.² معنى هذا أن مفهوم الحادثة لتسم بالتنوع وصعوبة التعريف بين الفلاسفة والمفكرين.

ولكن الفكرة الأساسية وراء ذلك المفهوم تقوم على الاعتقاد بأن أساليب العالم الأمريكي البرغماتي في الرؤية، والمعرفة، والتعبير طرأ عليها في السنوات الأخيرة تغيير جذري نجم في الأغلب عن التقدم الهائل في وسائل الإعلام، وتطور نظم المعلومات في العالم ككل مما ترتب عليه حدوث تغيرات في اقتصاديات العالم

1- تعبر كلمة ما بعد الحادثة عن مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة الغربية تتميز بالشعور بالإحباط من الحادثة ومحاولة نقد هذه المرحلة، والبحث عن خيارات جديدة مختلفة، إن حركات الحادثة وما بعد الحادثة تُفهم على أنها مشاريع ثقافية، وهي تُستخدم في النظرية النقدية لتشير إلى نقطة انطلاق أعمال الأدب الصحافة والتصميم، وفي تفسير التاريخ، والقانون، والثقافة، والدين في وقت متأخر من أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. انظر خضر حيدر: ما بعد الغرب بحث في معاني، ودلالات مفاهيم، ومصطلحات تأسيسية، بتاريخ 2019م <https://istighrab.iicss.iq/files/investigations>.

2- جمال على الدهشان : ما بعد الحادثة، والتربية، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر العلمي الأول لقسم أصول التربية "التربية في مجتمع ما بعد الحادثة"، كلية التربية - جامعة بنها الفترة من 21-22 يوليو 2010م، بتاريخ الخميس، 19 ديسمبر، 2013م. http://geldahshancom.blogspot.fr/2013/12/blog-post_3671.html

الغربي التي تعتمد على التصنيع، وازدياد الميل إلى الانصراف عن هذا النمط من الحياة الاقتصادية، وظهور مجتمع وثقافة من نوع جديد.¹

لا بد أن تثير ما بعد الحداثة موجة كبيرة من الدحض، والنقد، فهناك من لا يرى فيها جديداً، وهناك العكس، مثل بيتر برجر Peter Ludwig Berger²، وهو أخطر نقادها، وأكثرهم تأثيراً، وهابرماس ممثلاً للحداثة الجديدة كما تطرحها مدرسة فرانكفورت، وفرانسوا ليوتار³ رائد تنظير ما بعد الحداثة وواحد من أبرز، وأوضح ملامح المشهد الثقافي العالمي، هذا الأمر يدفعنا إلى التساؤل أكثر عن ماهي حداثة مدرسة فرانكفورت؟، وعلى ماذا تعتمد هذه المدرسة؟، وماهي مراحل تطورها؟.

حداثة مدرسة فرانكفورت:

تعتبر مدرسة فرانكفورت حركة مؤثرة في الماركسية المعاصرة حيث كانت تعتمد في المقام الأول على أعمال ماركس، ولكن أيضاً مدينة ل فرويد، وماكس فيبر فكرياً لقد اعتبر علماء، وفلاسفة مدرسة فرانكفورت أعمالهم النظرية جزءاً من النضال الثوري ضد الرأسمالية، و كان الموضوع الرئيسي لنقدهم هو الاقتصاد السياسي بمعنى أنهم كرسوا جهودهم لتحليل التناقضات الاقتصادية للرأسمالية، ولكن مع التغيرات التي طرأت على المجتمع الرأسمالي، وما ارتبط بهذه التغيرات من صراعات جديدة تحول اهتمام نقاد مدرسة فرانكفورت من التركيز على التناقضات الاقتصادية إلى نقد النظم السياسية، والثقافية للرأسمالية الحديثة.⁴ نفهم من هنا أن مدرسة فرانكفورت مدرسة نقدية للنظم السياسية، والثقافية للرأسمالية الحديثة.

1- أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع مابعد الحداثي، ص11.

2- بيتر برجر: هو اجتماعي، وثيولوجي، وأستاذ جامعي معروف من الولايات المتحدة الأمريكية، ولد في فيينا، هو عضو في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، من مواليد 1929-2017م.

3- جان فرانسوا ليوتار: فيلسوف، وعالم إجتماع فرنسي، اشتهر، وعرف بأنه أول من أدخل مصطلح ما بعد الحداثة إلى الفلسفة و العلوم الاجتماعية، من مواليد 1924-1998م.

4- أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع مابعد الحداثي، ص 105.

لقد دأب الفلاسفة، والمفكرين المختصون في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت على تقسيم مراحل تطورها إلى ثلاث مراحل أساسية المرحلة الأولى التي تأسست فيها هذه المدرسة في بداية العشرينات من القرن السابق عندما تجمعت مجموعة من الباحثين وعلى رأسهم "ماكس هوركهايمر Max Horkheimer"¹ و"فريدريك بولوك Frederick Willia Bullock"² و"هربرت ماركوز Herbert Marcuse"³ الذين يمثلون الجيل الأول لهذه المدرسة، والمرحلة الثانية التي ضمت من هابرماس وكارل أوتو آبل Karl-Otto Apel"⁴، أما المرحلة الثالثة فيمثلها اليوم "أكسل هونيث Axel Honneth"⁵ وهو رائد الجيل الثالث⁶، وانطلاقاً من رؤيتنا الفلسفية المحضة يمكننا أن نتساءل الآن: ماهي آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري للمدرسة فرانكفورت؟.

1- ماكس هوركهايمر: فيلسوف، وعالم اجتماع ألماني، اشتهر بمجهوداته في النظرية النقدية كعضو في مدرسة فرانكفورت الفلسفية للأبحاث الاجتماعية، ساهم كعضو في مدرسة فرانكفورت في التخطيط، والدعم لعدد كبير من الأعمال الفكرية للمدرسة و التنبيه لها، من موليد 1895-1973م.

2- فريدريك بولوك: هو سياسي أسترالي وبريطاني معروف، وحمل سابقاً جنسية المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا، من موليد 1851-1931م.

3- هربرت ماركوزه: فيلسوف، ومفكر ألماني أمريكي، معروف بتنظيره للييسار الراديكالي، وحركات اليسار الجديد ونقده الحاد للأنظمة القائمة، من موليد 1898-1979م .

4- كارل أوتو آبل: فيلسوف ألماني، يعتبر من المجددين للفلسفة المتعالية الكانطية، وذلك عن طريق ربطها بلغة الاتصالات الحديثة، يعتبر آبل أن اللغة هي الكم المتعالي الأول، بمعنى أنها تشكل شرطاً قلياً لكل صحة فهم مركز أبحاثه أيضاً على إقامة روابط وثيقة بين التقاليد الأنكلوساكسونية في الفلسفة التحليلية، وبين تقاليد أوروبا القارية في الفينومينولوجيا والوجودية ونظرية التفسير، كان قريباً جداً في تفكيره من هابرماس ومتميزاً عنه في نفس الوقت، من مواليد 1922-2017م.

5- أكسل هونيث: فيلسوف اجتماعي ألماني شهير، ومدير معهد الأبحاث الاجتماعية في جامعة جوتة في فرانكفورت، له الكثير من الكتب، والمقالات في حقول الفلسفة الاجتماعية والسياسية وعلم الاجتماع هو رئيس تحرير مشارك في المجلة الألمانية للفلسفة Deutsche Zeitschrift für Philosophie، الجريدة الأوروبية للفلسفة، European Journal of Philosophy، وأبراج Constellations نال عدة جوائز ثقافية مختلفة منها جائزة إرنست بلوخ 2015م، وجائزة برونو كرايسكي 2016م، من مواليد 1949م .

6 - كنزاي محمد فوزي: براديعم مدرسة فرانكفورت على المحك منظور اتصالي، ص 105.

نظرية المعنى البرغماتي عند هابرماس:

بالنظر إلى التحول اللغوي عند الفيلسوف الألماني المعاصر يورغن هابرماس Jürgen Habermas 1929م من وجهة نظر إيجابية، سنجدّه تحولاً برجماتياً أيضاً بالقدر نفسه يحاول هابرماس أن يحدث تحولاً في النظرية الاجتماعية بمساعدة ضرب خاص من نظرية المعنى أي النظرية البرغماتية للمعنى في السبعينيات توصل هابرماس متأثراً بالفيلسوف الألماني كارل أوتو آبل 1922 Otto Apel Karl – 2017م زميله في جامعة فرانكفورت إلى رأي مفاده أن المعنى اللغوي لم يستنفده المعنى الافتراضي، والبرغماتي كان متلازمين.¹ عندئذ ينبغي أن نتساءل: لماذا كانت نظرية هابرماس للمعنى برغماتية؟.

كانت نظرية هابرماس للمعنى برغماتية لأنها لا تركز على ماتقوله اللغة للمعنى بل على ماتفعله فهي نظرية لاستخدام اللغة، ينطلق هابرماس من تعريف للغة عند كارل بوهلر Karl Bühler² المنظر اللغوي الألماني، "باعتبارها أداة ينقل بها المرء فكرة لآخر عن العالم"، وينسب بوهلر ثلاث وظائف للغة تقابل منظور المتكلم والمخاطب، والغائب على الترتيب ألا هي: الوظيفة المعرفية للتمثيل الحال ووظيفة الإلتماس لتوجيه الطلبات إلى المتلقين، والوظيفة التعبيرية للإفصاح عن تجارب المتكلم.³ يقصد هنا أن نظرية هابرماس للمعنى كانت برغماتية لأنها لا تهتم بما نتكلّمه أي ماتقوله اللغة، وإنما على ماتنتجه، وتفعله من أفعال.

1- جيمس جوردن فينليسون: يورجن هابرماس مقدمة قصيرة جداً، ترجمة أحمد محمد الروبي مراجعة ضياء ورّاد مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2015م، ص48.

2- كارل بوهلر: عالم نفسي، ولغوي ألماني الجنسية تكلم عن وظائف اللغة في الثقافة الغربية سنة 1918م وتبعه في ذلك كارل بوبر سنة 1953م، ولا ننسى أن موضوع وظائف اللغة شغل بال العلماء العاملين في مجال العلوم الإنسانية منذ أفلاطون إلى يومنا هذا من أمثال فيجوتسكي السوفييتي، وهاليداي، الإيرلندي ورومان ياكوبسون الروسي من، موليد 1879-1963م.

3- جيمس جوردن فينليسون: يورجن هابرماس مقدمة قصيرة جداً، ص49.

ويطور هابرماس هذه الفكرة قائلا: " عن الوظيفة البرغماتية للكلام هي الإنتقال بالمتحاورين إلى فهم مشتركة، وتحقيق الإجماع الذاتي المشترك، وأن هذه الوظيفة تتمتع بأفضلية على وظيفة الدلالة على واقع العالم"¹، وبينما تتبنى نظرية المعنى المشروط بالصحة الفرضيات بإعتبارها الوحدات اللغوية الأساسية الحاملة للمعنى تتبنى نظرية المعنى البرغماتية الملفوظات بإعتبارها الوحدات اللغوية الأساسية الحاملة للمعنى.² يقصد هابرماس من الوظيفة البرغماتية للكلام من أنها تهدف إلى تحقيق مفاهيم مشتركة بين أكبر عدد من الناس.

يتكون اللفظ من كلمات ينطقها المتكلم، ويتلقاها المستمع في موقف بعينه، ولسبب محدد على سبيل المثال " النافذة مفتوحة"، والفرضية هي الفكرة التي تمثلها الكلمات وهي أن "النافذة مفتوحة" في المواقف الواقعية دائما ماتمطرالفرضيات في الملفوظات لايرفض هابرماس نظرية المعنى المشروط بالصحة بل أنه ينكر أولا أنها يمكن أن تكون تفسيراً عاماً للمعنى، وينكر ثانيا كونها الضرب الأساسي للمعنى ويرى بدلا من ذلك أن المعنى، والفهم من الأفضل تناولهما عبر تحليل للوظيفة البرجماتية للكلام.³ يرى هابرماس أن الوظيفة البرغماتية للكلام تعتمد على أساس تحليل المعنى والفهم تحليلاً برغماتياً عملياً.

بنى هابرماس إطاراً شاملاً للنظرية الاجتماعية، ورسم الفلسفة من خلال عدد من التقاليد الثقافية:

1- جيمس جوردن فينليسون: يورجن هابرماس مقدمة قصيرة جداً، ص 50.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*الفكر الفلسفي الألماني لإمانويل كانط، هيجل، إدموند هسرل¹، والفيلسوف الألماني هانز جادامير Gadamer.²

*التقاليد الماركسية Marxian نظرية كارل ماركس نفسه، بالإضافة إلى النظرية الماركسية الجديدة النقدية لمدرسة فرانكفورت، وبمعنى آخر: **ماكس هوركهايمر** Max Horkheimer، **تيودور أدورنو** Theodor W. Adorno.³

*الفلسفة اللغوية، ونظريات الفعل الخطابي speech act theories لودفيج ويتجينستين Wittgenstein، أوستن Austin.⁵

*علم نفس النمو development psychology لجين بياجي Piaget⁶ ولورانس كولبيرج Kohlberg.⁷

*التقاليد البرغماتية الأمريكية American pragmatist لتشارلز ساندرز بيرس Peirce، وجون ديوي Dewey.

1- إدموند هوسر: فيلسوف ألماني، ومؤسس الظاهريات، من مواليد 1859-1938م.

2- هانز جادامير: فيلسوف ألماني، اشتهر بعمله الشهير، الحقيقة والمنهج، وأيضاً بتجديده في نظرية تفسيرية الهرمنيوطيقا، من مواليد 1900-2002م.

3- ماكس هوركهايمر: فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، اشتهر بمجهوداته الكبيرة في النظرية النقدية، من مواليد 1895-1973م.

4 - تيودور أدورنو: فيلسوف، وعالم اجتماع، ألماني، اشتهر بنظرياته النقدية الاجتماعية كان أدورنو عضواً بارزاً ومشهوراً في مدرسة فرانكفورت النقدية، من مواليد 1903-1969م.

5- جون أوستن: فيلسوف لغة بريطاني، ويعرف في الأساس بأنه واضع نظرية أفعال الكلام، من مواليد 1911-1960م.

6 - جان بياجي: عالم نفس، وفيلسوف سويسري مشهور، وقد طور نظرية التطور المعرفي عند الأطفال فيما يعرف الآن بعلم المعرفة الوراثية، أنشأ بياجي في عام 1965م مركز نظرية المعرفة الوراثية في جنيف، وترأسه حتى وفاته يعتبر بياجي رائد المدرسة البنائية في علم النفس، من مواليد 1896-1980م.

7- لورنس كولبيرج: عالم أمريكي من أشهر المنظرين المعاصرين في هذا الميدان، حيث يعود اهتمامه بالحكم الخلقى إلى رسالته للدكتوراه التي تقدم بها إلى جامعة شيكاغو عام 1958م، وفيها حدد محكات السلوك الخلقى التي استمدتها من بياجي، وهير، ودوركايم، وميدن، من مواليد 1927-1987م.

*نظرية النظم الاجتماعية لتالكوت بارسونز Talcott Parson¹، ونيكلس لوهمان
2.Niklas Luhmann

*الفكر الكانتي الجديد Neo-Kantian³ وعلى هذا النحو كانت فلسفة هابرس
مبنية على أساس من التقاليد الثقافية، والنظم الاجتماعية هذا من جهة، أما من جهة
أخرى فإن جان فرانسوا ليوتاركان له دور واضح هو الآخر في نقد الحداثة وإستعار
مصطلح ما بعد الحداثة.

أما الفيلسوف الفرنسي المعروف جان فرانسوا ليوتار Jean-François
Lyotard 1924 - 1998 م فهو يعد من كبار المفكرين الذين وضعوا الحداثة
في قفص الإتهام، وهو من أعلن نهايتها معلنا عن ميلاد عصر ما بعد الحداثة لكن
السؤال الذي يتبادر في ذهني الآن: ممن إستعار ليوتار مصطلح "ما بعد الحداثة"؟
ومن خلال اجابتنا على هذا السؤال سيتضح مدى انعكاس الفكر البرغماتي الأمريكي
في صياغة الوعي الفكري المعاصر على هذا المصطلح.

فرنسوا ليوتار وما بعد الحداثة:

في الرابع عشر من أكتوبر عام 1979م نشر الكاتب الصحفي الفرنسي كريستيان
دوكا Christian Dokan في جريدة لوموند الفرنسية نص حديث أجراه مع المفكر
الفرنسي جان فرانسوا ليوتار الذي كان يعمل في ذلك الحين أستاذا بجامعة باريس
الثامنة، والذي يعتبر رائداً لحركة ما بعد الحداثة في فرنسا، وكان الحديث يدور حول

1- تالكوت بارسونز: عالم إجتماع أميركي معروف الذي عمل في هيئة التدريس في جامعة هارفارد منذ عام
1927م حتى عام 1973م وضع بارسونز نظرية عامة لدراسة المجتمع تسمى بنظرية السلوك، استنادا إلى
المبدأ المنهجي التطوعي، ومبدأ المعرفة من الواقعية التحليلية حاولت النظرية إنشاء توازن بين اثنين من التقاليد
المنهجية الرئيسية: التقاليد النفعية-الوضعية والتقاليد التفسيرية-المثالية، من مواليد 1902 - 1979م.

2- ونيكلس لوهمان : عالم اجتماع ألماني، ومتخصص في إدارة النظم الاجتماعية، وهو مؤسس لنظرية النظم
الاجتماعية، وتستند هذه النظرية على اتباع نهج متعدد ومختلف التخصصات الاجتماعية التي تؤدي إلى إنتاج،
وتحليل متعددة، من مواليد 1927 - 1998م.

3- بلقاسم مليكش : الديمقراطية الصورية، والديمقراطية التشاورية، التداولية، التواصلية عند يورغن
هابرماس بتاريخ 16 أبريل 2014م. <http://www.civicegypt.org/?p=47931>

الملامح الأساسية لتفكير ليوتار، وآرائه في الحياة، والثقافة، والمجتمع وارتياحه لحركة ما بعد الحداثة وإسهامه في تلك الحركة، ومدى تقبل الفكر العالمي لها.¹ إن تبني ليوتار لمصطلح ما بعد الحداثة كان له قبول، واستقبال شاسع وواسع من طرف الوعي الفكري العالمي المعاصر.

وقد لاحظ ليوتار في بداية الحديث أن العالم يمر بمرحلة تتميز بما أسماه "الإنفجار الاتصالي عن بعد"، وأنه يشهد تفكك المذاهب، والنظريات، والإتجاهات الفكرية الكبرى في المعرفة الأدبية والعلمية، ويعاني من اختفاء أنساق المعتقدات التي توجه الإنسان في تفكيره، وسلوكياته، وعلاقاته بالآخرين، وأن هذه المظاهر كلها تعتبر أهم العناصر التي تميز فترة، أو مرحلة أو حتى حالة "ما بعد الحداثة".²

وقد اعترف ليوتار في بداية المقابلة بأنه استعار مصطلح "ما بعد الحداثة" من الفكر البرغماتي الأمريكي لكي يصف حالة الثقافة في الوقت الراهن، وذلك على اعتبار أن المجتمعات الحديثة وهي التي بدأت في الظهور بعد نهاية العصور الوسطى مجتمعات تربط خطاب الصدق، وخطاب العدالة بعدد من الحكايات التاريخية الكبرى، وذلك على العكس من مرحلة ما بعد الحداثة التي نمر نحن بها الآن، فإنها تقتفر إلى مشروعية ما هو صادق وما هو عادل، وأن ذلك هو الذي أدى إلى ظهور الحركات الإرهابية، كما دفع الكثيرين إلى اعتناق الستالينية والمادية، وما إليهما وإلى تعرض رأس المال، والرأسمالية إلى أزمة حقيقية طاحنة كما أن التقدم يلاقي كثيرا من الصعوبات، بحيث يكاد يتوقف تماما أو حتى ينحسر، وينتسكس إلى الوراء³، ثم

1- أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع ما بعد الحداثي ، دار الفارابي بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2011م، ص9.

2- المرجع نفسه، ص9، 10.

3- أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع ما بعد الحداثي، ص10.

يردف ذلك بقوله إن الأزمة ليست في واقع الأمر مجرد أزمة ارتفاع أسعار البترول كان ذلك في عام 1979م، وإنما هي أزمة هذه القصص، والحكايات الكبرى ذاتها.¹

وهذه العبارات المستمدة من الحديث تكشف لنا عن نمط الفهم، والتفكير الذي يسود في كثير من الكتابات في فرنسا، وأمريكا خلال العقدين الماضيين، وهو نموذج لفكر ما بعد الحداثة الذي يثير حوله كثيرا من الحماسة، والتشجيع، والتأييد، كما يثير كثيرا من النقد، والدحض، بل والسخرية في بعض الأحيان.

وتمثل ما بعد الحداثة حركة فكرية تقوم على نقد، بل ورفض الأسس التي تركز عليها الحضارة الغربية الحديثة، كما ترفض المسلمات التي تقوم عليها هذه الحضارة أو على الأقل ترى أن الزمن قد تجاوزها، ولذا يذهب الكثيرون من مفكري ما بعد الحداثة إلى اعتبارها حركة أعلى من الرأسمالية التي تعتبر هي الطابع الأساسي المميز لتلك الحضارة، بل إن البعض يرون أن عصر الحداثة قد انتهى بالفعل، وأن ما بعد الحداثة تهيئ "باعتبارها مفهوما نقديا للفكر السابق" لقيام مجتمع جديد يركز على أسس جديدة تماما غير تلك التي عرفها المجتمع الغربي الحديث، ويبدو أن مفكري ما بعد الحداثة قد تأثروا في ذلك بأفكار بعض الفلاسفة الألمان بالذات مثل نيتشه، مارتين هایدغر Martin Heidegger² اللذين كانا قد أثارا فكرة إمكان قيام أسس جديدة للفكر الإنساني الحديث والمعاصر.³ معنى هذا أن مرحلة ما بعد الحداثة مرحلة تتخذ النقد وسيلة لها في رفض المذاهب والنظريات، والاتجاهات الفكرية الكبرى في المعرفة الأدبية، والعلمية التي كانت موجودة في المجتمع الغربي الحديث لأنها مرحلة نقدية للمرحلة السابقة ألا وهي الحداثة.

1- أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع ما بعد الحداثي، ص10.

2- مارتين هایدغر: فيلسوف ألماني معروف ، درس في جامعة فرايبورغ تحت إشراف إدموند هوسرل مؤسس الظاهريات ثم أصبح أستاذاً فيها عام 1928 م، وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود، والتقنية، والحرية، والحقيقة وغيرها من المسائل، ومن أبرز مؤلفاته: الوجود والزمان، دروب مُوصدة، ما الذي يُسمَّى فكراً المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا، نداء الحقيقة، في ماهية الحرية الإنسانية، من مواليد 1889-1976م.

3- أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع ما بعد الحداثي، ص11.

ولكن هذا لا يمنع من وجود اتجاهات أخرى ترى أن الأمر لا يعدو أن يكون بعض التعديلات في بعض عناصر الثقافة الغربية الحديثة مثلما يحدث في كل الثقافات والحضارات خلال تاريخها، وأن هذه التعديلات نشأت نتيجة لتغير الأوضاع التي تحيط بتلك الثقافات، ولكنها مهما يبلغ من عمقها، فإنها لن تخرج عن أن تكون تغيرات هامشية لا تؤثر في جوهر الثقافة الغربية ومقوماتها الأساسية.¹

وعلى كل حال فإن ثمة اختلافاً بين المفكرين، والفلاسفة حول إذا ما كانت ما بعد الحداثة تمثل مرحلة قائمة بذاتها، ولها مقوماتها ومقتضياتها الخاصة، أم أنها مجرد استمرار لمرحلة الحداثة رغم كل ما طرأ عليها من تغيرات ومستجدات، وبذلك تكون مجرد حالة للفكر، والثقافة تتميز بوجود أنماط ثقافية مختلفة لم يتم الإتفاق بعد على تحديد ملامحها.

ولم يتفق مفكرو ما بعد الحداثة فيما بينهم على تحديد المسار الذي سوف تسلكه الثقافة البرجماتية الأمريكية، وما سوف تنتهي إليه في ظل التغيرات الهائلة التي يمر بها العالم الآن، وخاصة العالم الغربي بتحولاته السريعة، كما أنهم لم يتفقوا حتى على تبين معنى الثقافة في المستقبل، وأهميتها بالنسبة لمجتمع الغد مما يعني أن الأمور لم تتضح تماماً في أذهان هؤلاء المفكرين، وأنهم لا يزالون في مرحلة إستكشاف جوانب المشكلة، ومحاولة تعرّف خصائصها وأبعادها، وهذا هو ما دفع أحد كتاب ما بعد الحداثة في أمريكا إلى أن يقول إن المفهوم يتضمن "إستحالة التحديد".² يمكننا القول هنا أن هناك إختلاف بين فلاسفة ما بعد الحداثة في تحديد الطريق الذي سوف تتخذه الثقافة البرغماتية الأمريكية، وكيف تكون نهايتها في ظل التطورات التي يعيشها العالم الآن، وخاصة العالم الأمريكي المعاصر، إذن هم مازالوا في طور الإكتشاف للمعضلة الفلسفية وجوانبها المتعددة.

1- أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع مابعد الحداثي، ص12.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وقد تكون هذه الإستحالة راجعة إلى غموض، وتعقيد المفهوم ذاته في أذهان أصحابه ولكنه قد يكون مؤشرا إلى مدى اتساع مجاله بحيث يشمل كل ما يتعلق بالمعرفة الإنسانية بمختلف فروعها، وتفرعاتها، وتنوعها، وما تحرزه من تقدم واسع وشاسع بفضل التقدم التكنولوجي الهائل في مختلف الميادين، وليس فقط في المجال العلمي الدقيق.

انعكاس أفكار ما بعد الحداثة على الواقع:

يشير ليوتار إلى أن أهمية، ومركز المعرفة بدخول المجتمعات إلى ما يعرف بالعصر ما بعد الصناعي، ودخلت الثقافة الى العصر المابعد حداثي حيث تعد المعرفة الشرط الجوهري لما بعد الحداثة، وهذا الشرط وجد كنتيجة لعملية معقدة من التطور الاقتصادي، والاجتماعي والثقافي فهذه المعرفة لا يمكن أن تظل جامدة دون تطور، ويربط البعض هذا التطور بسيطرة الكمبيوتر، وترجمة تلك المعرفة إلى برامج دخلت في تجارة المعرفة بحيث أصبحت الأبحاث موجهة لتلبية حاجات الأفراد أو الزبائن، والمعرفة ذاتها لم تعد مطلقة القيمة بل يتم انتاجها لكي تباع أو من أجل قيمتها التبادلية.¹ يظهر لنا جليا هنا أن انعكاس أفكار ما بعد الحداثة على الواقع الخارجي المعاصر من خلال البرمجة الصناعية، والتكنولوجيا المعلوماتية والثقافية، والتطور الاقتصادي، والاجتماعي في أقطار المعمورة.

وبالتالي فإن الحضارة الغربية غيرت مسارها الحضاري الذي إدعت الحداثة أنه موجه لخدمة الإنسانية، وفي رأي بعض الباحثين أن ما بعد الحداثة لا تعبر فقط عن المشروع الحضاري الجديد الذي يتشكل داخل الثقافة الغربية، وإنما هي وصف للمجتمعات الغربية الراهنة، والتي تقوم أساسا على تفكيك مؤسسات المجتمع

1- عبد الغفار رشاد القصبي : التطور السياسي، والتحول الديمقراطي، دار الأصدقاء للطباعة والنشر، مصر سنة 2003م، ص 87، 88.

الجماهيري، وتقليص دور الدولة، وإتاحة الفرصة الكاملة للفرد لكي يقوم بممارسة حرية اختياراته الوجودية، والمهنية، والاجتماعية.¹

والأسئلة التي تطرح الآن: هل هذه التغيرات تعني أن عصر الحداثة قد انتهى إلى غير رجعة؟، وأن حضارة الحداثة قد زالت واندثرت؟ أو أنها بسبيلها إلى الزوال والإختفاء بكل ما أنجزته من تقدم في مجالات الفكر الإنساني، والكشف العلمي والإبداع الفني؟، وأنا على أبواب حضارة أخرى جديدة هي حضارة وثقافة ما بعد الحداثة؟، وما مقومات هذه الثقافة، وما أثرها على الإبداع وعلى طبيعة المجتمع ذاته بوجه عام؟، الواقع أنه حتى الآن لا توجد إجابة قاطعة، وإنما تختلف وجهات النظر بين أنصار، ومؤيدي ما بعد الحداثة من ناحية، ومعارضيه من الناحية الأخرى.²

إن أنصار، وأتباع ما بعد الحداثة يوجهون كثيرا من الإنتقادات إلى إنجازات عصر الحداثة، وموقف الحداثة من الفكر، والفن، والسياسة، وهو موقف يعلي من شأن العقل، ويرى فيه مصدر كل تقدم في المعرفة، وفي المجتمع، وأنه وحده هو مصدر الصدق، وأساس المعرفة المنهجية، وأنه وحده هو القادر على إكتشاف المعايير النظرية، والعملية التي يهتدي بها الفكر، والفعل على السواء، وإن كانوا يعترفون في الوقت ذاته أن مبادئ فلسفة التنوير التي ساعدت على قيام الثورة الديمقراطية في فرنسا، وأمريكا وزوال عهد الإقطاع، وقيام النظام الاجتماعي الذي يؤمن بالعدل والمساواة.³

كما يعترفون بأن كثيرا من منجزات عصر الحداثة البرغماتية تغلغت إلى كثير من جوانب حياة الإنسان الحديث إبتداء من التكنولوجيا المختلفة، والسلع الإستهلاكية ووسائل النقل، والمواصلات إلى ظهور النزعات الفردية، والإتجاهات العلمانية والنظم

1- السيد يسين : الوعي التاريخي، والثورة الكونية حوار الحضارات في عالم متغير، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة ، الطبعة الثانية، سنة 1995م، ص192، 193.

2 - أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع مابعد الحداثي، ص14.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

البيروقراطية، والإتجاه نحو التصنيع وزيادة معدلات التحضر، وما ارتبط بذلك من تفاضل ثقافي في المجتمع الحديث.¹

نستخلص مما سبق أن الطرح الحداثي عند هابرماس، والطرح ما بعد الحداثي الذي يطرحه ليوطار من خلال رجوعه إلى ديوي يرى أن مجهود جون ديوي لوضع الإهتمام بالمشكلات اليومية للناس، أو فيما يسميه الهندسة الاجتماعية مكان الدين التقليدي وهو ما يتضمن الإنكار ما بعد الحداثي الذي يتبناه ليوطار حيال الروايات الكبرى، ويطرح من جديد دور المثقف في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية حيث يتقلص النفوذ، والدور الطلائعي للمثقف إجتماعيا.

ومع ذلك، فإن ما بعد الحداثة ترى أن الزمن قد تغير، وأن الظروف العامة قد تجاوزت كل هذه الإنجازات نتيجة لتقدم أساليب الإعلام، والاتصال بوجه خاص وما أدى إليه من ظهور حالة جديدة من التاريخ تتطلب قيام نظريات، ومفاهيم تتلاءم مع الأنماط المعرفية الجديدة، والتطورات التي طرأت على النظام الرأسمالي نفسه بعد ازدياد الإتجاه نحو العولمة، وتعدد الإتجاهات الثقافية، وتنوع المواقف الفكرية، بل وظهور إتجاهات جديدة في الفن تجاوزت المدارس الحديثة مثل الإنطباعية والتعبيرية والسريرية وما إليها، وتحررت من كل القيود التقليدية حيث يمكن الجمع بين عناصر غير متجانسة تخرج تماما عن المألوف، وإمتداد ذلك إلى بقية الفنون التعبيرية مثل الرقص، والأفلام السينمائية.² معنى هذا أن الفلسفة البرغماتية فلسفة فكرية معاصرة تهتم بالفنون، والصناعة المعاصرة العالمية مطبقة في ذلك المنهج المعملّي العملي للعقل، ومرّت بمراحل مختلفة أدت إلى تطور أفكارها إبتداء من بيرس، واتضحت برؤيتها المعاصرة لدى الفيلسوف جون ديوي.

ومن هنا يمكننا القول أن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر تهدف أساسا إلى المشاركة في الخبرة العملية، وهو بدوره ينعكس على الفكر

1- أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع ما بعد الحداثي، ص14.

2- المرجع نفسه، ص14، 15.

الجمالي البرغماتي الذي يعد أحد ركائز النظام الذي يتطلع نحو النفعية، وإرضاء المصالح وسد حاجات الكائن الحي، وقيمة العمل الفني يعتمد بالدرجة الأساس على امكانية استغلال كافة الإمكانيات الشكلية التي لا تؤثر، ولا تهدد حرية الإبداع والشروط اللازمة لنهوض العمل الفني الحقيقي.¹

إن الصلة التي تجمع الفكر البرغماتي في صياغة الوعي الفكري المعاصر بالفن² ليست وليدة الحاضر فالبرغماتية أحد الجسور التي تعتمد العلم، والتجريب كتقنية وفي العملية الإبداعية تلتحم أدوات الفنان المادية وفق تصوراته للوصول إلى الإنفعال، وهو النتيجة النهائية التي يسعى إليها كل فنان، يتمثل الغرض الرئيسي للفن من وجهة نظر الفلسفة البرغماتية بمدى قدرة الفنان للإفصاح عن مكنوناته الداخلية وإيصالها إلى المتلقي، إن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري الجمالي إنما تقوم على فكرة العمل، فقيمة أي فكرة تكمن في فائدتها العملية وبذلك تكون قيمة الفكرة بنتائجها.³ معنى هذا أن قيمة الفكرة الفلسفية البرغماتية بمدى نجاح هذه الفكرة على أرض الواقع .

"فالبرت بارنز" Albert C. Barnes كان حريصا على توسيع إدراك الرؤية الفنية، وتحليلها خاصة في ميدان التصوير"، وتوماس مونرو" Thomas Munro⁴ كان من أنصار تطبيق مبدأ التفكير العلمي في مضمار تدريس الفنون" ولورنس بو يريمير" Lawrence نجح في تفسير الخبرة الجمالية في ضوء أمثلة كثيرة من تاريخ التصوير، والأدب عبر التاريخ، وتعتبر هذه الموجة الأمريكية البرغماتية

1- إيلاف سعد البصري : الفكر الجمالي في الفلسفة البرجماتية، ص339.

2- الفن : يعتبر الفن أداة مهمتها تحسين ظروف الحياة الانسانية، فالفن رسالة للعمل على إضفاء صور أكثر دلالة للتجربة الإنسانية فهو يحمي الإنسان من التشتت، والتمزق، والضياح، ويمكنه من فهم الواقع ويساعده على ان يكون الواقع أكثر انسانية، انظر جون ديوي : الفن خبرة، ترجمة زكريا ابراهيم، و زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية القاهرة، نيويورك، سنة 1923 م ، ص27.

3 - إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرجماتي في فن البواهراس، ص1012.

4 - توماس مونرو: مؤرخ الفن، وعالم تربوي أمريكي مشهور، وعضو الجمعية الفلسفية الأمريكية، وعضو الجمعية الأمريكية لعلم الجمال، من مواليد 1897- 1974م.

ممتدة في التربية التقدمية، وسارت شوطا مضادا للتربية التقليدية وكان من آثارها دراسة الثماني سنوات، وثلاثون مدرسة تحكي قصتها وكان وراءها تجريب جديد في خطة الدراسة بالتعليم العام أثر في منهجه على تدريس الفن.¹

فن ما بعد الحداثة :

الفكر بمفهومه العام مصطلح شديد الإتساع، والبحث يلقي الضوء على الفكر البرغماتي بوصفه فكر له تطبيقاته العملية والفنية كل ما يمس ويتعاطف مع الحياة وأولوياتها، والفن في نظريتي هو موضوع له رسالة إنسانية يضطلع بتحقيقها في أي زمان ومكان، وظهر ذلك منعكسا في فن الباوهاوس.²

وقد إنعكست أفكار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر من خلال فن الباوهاوس على الوجه الآتي:

التغير: أكد جون ديوي من خلال نظريته على التغير في المفاهيم التربوية والفنية أي الاهتمام بما هو متغير ونوعي، وليس بما هو أزلي كلي، إذ لا يجب التسليم بمعيار مطلق للظاهرة الجمالية بل لابد من الأخذ بمبدأ التغير كونه بعد تربوي متفاعل مع مفهوم الحرية، والديمقراطية، فما يجوز إعجاب بعضهم قد ولا يجوز إعجاب بعضهم الآخر، كما أن معايير الحكم على الجمال مختلفة من مجتمع لآخر حسب الذوق والمزاج السائد لجمهرة المتذوقين، وهذا ما انعكس على فن الباوهاوس، حيث إعتنق فنانون الباوهاوس فكرة التغير الرادعة لفكر النازية باعتبار أن الباوهاوس أساسا قامت على أفكار ثورية رافضة للتسلط واستغلال الإنسان إلى جانب ثورتها الفنية، والجمالية التي أطلقتها في الفن الأوروبي، إذ أن

1- إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرغماتي في فن الباوهاوس، ص1021، 1022.

2- باوهاوس : هو مصطلح يعبر على مدرسة فنية نشأت في ألمانيا كانت مهمتها الأساسية الدمج بين الحرفة والفنون الجميلة أو ما يسمى بالفنون التشكيلية كالرسم، التلوين، النحت والعمارة من بين الفنون السبعة كان للبאוهاوس تأثير كبير جدا على الفن، والهندسة المعمارية، والديكور، والتصميم الخارجي، والطباعة، وتصميم الجرافيك.

التغير ضرورة ملحة على الصعيد الفني، ففنون الباوهاوس تجمع بينها إرادة التجديد، والتغير إستنادا إلى واقع متغير.¹

تغير المفاهيم الجمالية :

إنشاء بنية فنية جمالية مرتبطة بفكر، وذهنية معمارية تنتمي إلى نسق التفكير السائد في مدرسة الباوهاوس وتوجهاتها الجمالية، والفنية التي تمزج بين جماليات الفن والهندسة في طموح للخروج عن المعنى المحدود للعمل الفني ومحاولة الإشتغال على علاقات التحليل، والتركيب التي يمكن من خلالها الإعتماد على عناصر التكوين الفني، والعلاقات دون اللجوء إلى الإقتراب من الأشكال الواقعية المرتبطة بمضامين محدودة لا يمكن توسيع آفاقها كما في جميع نواحي العينة.²

تغير بالخامة: دعا إلى تغيرات تساعد على تحقيق الإصلاح الاجتماعي، وإن كانت التغيرات مرتبطة بقواعد سائدة في المجتمع، شريطة أن تحقق التغيرات الموائمة بين الإنسان ومتطلبات العصر، وبالتالي تقدم الفرد والمجتمع، لذا جاء التغير كضرورة ملحة، وهذا بدوره إنعكس على فن الباوهاوس، بإستخدام فنانيه خامات مختلفة، ومتنوعة كانت بمجملها تصب في قوالب معمارية، ونظرة كلية موحدة تجمع بين الحركية، والعملية، والوظيفية.³

المتعة المتحققة بفضل التجربة " أكد ديوي على التجريب " :

وبناء الخبرة كجزء من تقنيات العمل وتطوره، والتجريب المؤسس الحقيقي للعلوم والمعارف المختلفة ومنها الفنون، وهو ما انعكس على الإنتاجات الفنية للباوهاوس

1- إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرجماتي في فن الباوهاوس، ص1040.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، ص1041، 1042.

والتجريب لمواد وخامات جديدة، وتقنيات جديدة إبتغاء أشكال جديدة والمتحققة بفضل المتعة.¹

بين العلم والفن:

رفض ديوي الفصل بين العلم، والفن ذلك أن الفن لغة تسير بخط متواز مع خطاب العلم، وتقنياته المنظمة، فالمعرفة الإنسانية لا تتجزأ في مواجهة قدرة الإنسان الفنان، وإذا اختلف طريق العلم عن الفن فإن الهدف يبقى واحدا وهو مزيد من المعرفة عن الإنسان الفنان، وقد انعكست هذه الدعوة في التلاقح الحاصل بين المعطى العلمي، والمنتج الفني للباوهاوس من خلال سعي الفنانين إلى تدعيم ركائز أساليبهم الفنية بأسس علمية، فإستخدم فنانون الباوهاوس النظريات العلمية.²

تفعيل الذات:

أكد جون ديوي على فعالية الذات الإنسانية، ودورها في إبراز مادة العمل الفني وإكمالها التي نراها في الواقع الموضوعي، فقد أكدوا على أن الفن ليس محاكاة بل تعبير عن انفعال، وتعبير عن الذات، وهم بذلك فتحوا الباب للفنان ليكون حرا محلقا لاتحدده حدود أو قوانين في بناء عمله الفني، مما انعكست في فنون الباوهاوس التي أكدت هذا المنحى.³

التحول في المنهج:

أكد جون ديوي في نظريته على التحول في المنهج، فقد انعكس بدوره على فنانون الباوهاوس حيث أن الكثير من الفنون الشعبية يمكن استلهاها لإنتاج أعمال تنتمي إلى عالم الفن الحداثي، وذلك من خلال إدخال أساسيات الإبداع التشكيلي

1- إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرجماتي في فن الباوهاوس، ص1041، 1042.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- المرجع نفسه، ص1041.

ومستجدات علم الجمال التي تخضع للتطور، عبر العصور ولعل أهم عناصر الجمال في هذا العمل الفني هو عنصر البساطة والتجريد.¹

ويظهر جليا أن فنون ما بعد الحداثة حاولت أن تدمج الإنسان مع العالم وتسخر الفن لا لغايات عليا لأن الإنسان لا يستطيع أن يفهم إلا ما له علاقة بواقعه الحقيقي وبذلك يتجاوز الإنسان إغترابه من خلال تجسد إهتماماته بالحياة، فهو يتعرف على ذاته في العالم كنوع من المصالحة مع الوجود كما تعد الفلسفة البرغماتية من أكثر الفلسفات التي أسست المجتمع الأمريكي، وعملت على صياغة، وانتشار حركات ما بعد حداثة فيه، حيث أكدت الفلسفة البرغماتية على أن يكون للفكر أثر في الحياة والمعرفة أداة للعمل، والاستفادة من معطيات الواقع المادي، والأساس المادي للإغتراب هنا هو العلاقة بين الإنسان، والآلة كما يعبر عنه مخططوا السياسات الإنتاجية، ومخططوا السياسات الاقتصادية على الصعيد الكلي من خلال التعايش المنسجم بين الإنسان والآلة.² نستخلص من خلال هذا الطرح أن فنون ما بعد الحداثة حاولت أن تجعل من الإنسان فرد مندمج، ومنتج في المجتمع، وفعال فالفكر الذي لا يوجد له أثر نفعي في الواقع المادي الملموس لا فائدة منه.

في أوائل القرن العشرين كتب **وليم جيمس** في رسالة إلى أحد أصدقائه: "أن البرغماتية ستدمغ فكر العالم كله بطريقتها في خلال عشرة سنوات"³، وإن كانت تنبؤات **وليم جيمس** قد تأخرت بعض الوقت غير أن الواقع الذي تحقق أثبت أنها كانت صحيحة بالفعل، فبان انتقال مركز النقل الغربي إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية قادت الفلسفة البرغماتية الفكر الغربي بوجه عام، ثم كانت هي المسؤولة عن التدهور السريع في سقوط المعسكر الشرقي أيضا، والذي يؤكد إكتساح البرغماتية

1- **إيناس مهدي إبراهيم الصفار**: أبعاد الفكر البرجماتي في فن الباوهاوس، ص 1043.

2 - **إسراء حامد علي الجبوري**: سمات الإغتراب في فن ما بعد الحداثة، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية العراق، المجلد 22، العدد الخامس، سنة 2014م، ص1069.

3- **محمد عثمان**: ضغط العولمة، برجماتية ما بعد الحداثة في مواجهة الإسلام، سنة 2005م.

. <http://annabaa.org/nbhome/nba76/awlama.htm>

للمعسكر الشرقي أيضا أن أغلب الرؤساء الذين جاؤوا إلى تلك البلاد بعد سقوط الشيوعية عندما سألوا عن الفلسفة التي يؤمنون بها، أجابوا: إنها الفلسفة البرغماتية.¹

لكن المعضلة التي يواجهها الفرد الأمريكي المعاصر الآن أن البرغماتية التي إستطاعت بتأكيداتها على عجز الفكر الفلسفي الغربي عن إدراك الحقيقة المعرفية وتحطيم كل الفلسفات، والأيديولوجيات الغربية قد تولد عن تداعيات عجزها الفلسفي نفسه، وما تنطوي عليه من مضمون عشوائي، وتداعيات نتائج تطبيقاتها الطاغية على شعوب المجتمعات المعاصرة، تلك الأفكار الما بعد حداثة التي تؤكد على هذه التداعيات دون تقديم مشروع بديل لها، لكن ماهو تفسيرنا لذلك؟.

وتفسير ذلك أن البرغماتية تصنع إطارا إلهائيا لمضمون عبثي فهي تقول لك أبحث عن المصلحة والمتعة، واللذة بدلا من أن ترهق نفسك في البحث عن الإجابة على الأسئلة المصيرية في الحياة مثل: من أين جننا؟، وإلى أين نذهب؟، وهل الله موجود أم غير موجود؟، وما هي العدالة؟، وما هي القواعد التي يجب أن تحكم علاقتنا بالآخرين؟. فالبرغماتية تصنع من خلال الحث المستمر على المصلحة، واللذة إلهاء متواصلا عن التفكير في كل ذلك، ولكن العقول المفكرة في الغرب لا بد أن تنتبه إلى ذاتها، وتكتشف بعد مرحلة من الإلهاء أن البرغماتية لم تجب على شيء من تلك الأسئلة المصيرية.²

ومن هنا جاءت ما بعد الحداثة، لأننا إذا قمنا بطرح حالة الإلهاء الحسي من البرغماتية فلن يبقى منها غير العبث، وتقوم نزعة ما بعد الحداثة على رفض كل فلسفة تقوم على النسق الكلي أو على مفهوم التاريخ فضلا عن الأساس الموضوعي للمعرفة، وإذا كانت الحداثة تمثلت في إعتناق الرؤى الدينية، فإن الموقف المابعد حداثي الذي ينطلق من تداعيات اللامعرفية الفلسفية لا ينزع الموضوعية فقط عن

1- محمد عثمان : ضغط العولمة ، برجماتية ما بعد الحداثة في مواجهة الإسلام، سنة 2005م.

<http://annabaa.org/nbahome/nba76/awlama.htm>

2- المرجع نفسه.

الرؤى الدينية والأيدولوجيات الفكرية التأملية، ولكنه ينزعها عن المشروعات الانعتاقية المضادة لها أيضا.¹

ومما سبق نستخلص أن البرغماتية في تأرجحها بين الحادثة، وما بعد الحادثة أنها تبقى فلسفة للتطور، والنجاح، ولتحقيق الإجماع حتى وإن كان على أسس من التبرير غير العقلاني، وإنما هو إجماع يبنني على تبرير مستمد الممارسات العملية الموجودة في المجتمع، والتي لعبت فيها جهود الفلاسفة من بيكون إلى جون رولز John Rawls² مروراً بلوك هيوم، مل، جيمس، وديوي دوراً بارزاً ولموسافي التوجه نحو الحاضر، والمستقبل.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ماهي آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الماركسي، والمابعد الماركسية؟.

1- محمد عثمان : ضغط العولمة: برجماتية ما بعد الحادثة في مواجهة الإسلام، سنة 2005م
<http://annabaa.org/nbahome/nba76/awlama.htm>

2- جون رولز: فيلسوفاً أخلاقياً، وسياسياً معروفاً في التراث الليبرالي، حصل رولز على كل من جائزة شوك في المنطق والفلسفة، والميدالية الوطنية في العلوم الإنسانية في عام 1999م، أهداه الرئيس بيل كلينتون هذه الميدالية تقديرًا لأثر رولز الأدبي في "مساعدة جيل كامل من الأمريكيين المتعلمين على إحياء إيمانهم بالديمقراطية نفسها"، من مواليد 1921-2002م.

2- الماركسية وما بعد الماركسية :

تطورت الماركسية شأنها شأن الليبرالية على نحو ملحوظ منذ أن أرسى أفكارها الأساسية كارل ماركس Karl Marx¹، وفريدريك انجلز² Friedrich Engels في منتصف القرن التاسع عشر، وقد طرأ تغيير على تفكير ماركس أثناء حياته وكانت نظرياته دائماً عرضة لتأويلات متضاربة، ومع أن ماركس كان يعتبر الرأسمالية إقتصاداً شاملاً، فإنه لم يطور مجموعة منتظمة من الأفكار بشأن العلاقات الدولية وألقيت هذه المسؤولية على عاتق الجيل اللاحق من المؤلفين الماركسيين³، والمنطق الأساسي للمقاربة الماركسية هو أن كل تاريخ المجتمع البشري هو تاريخ صراع بين الطبقات كما جاء ذلك في البيان الشيوعي لعام 1848م، والصراع يأخذ أشكال عديدة "الصراع السلمي والعنف والإيجابي، والسلبي" كما يحدث على مستويات

1 - كارل ماركس : يعد الفيلسوف الألماني كارل ماركس من الشخصيات البارزة التي تركت بصماتها على التاريخ، وذلك من خلال نظريته التي طرحها في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتي أطلق عليها اسم "الماركسية" نسبة إليه، والماركسية هي خلاصة أفكار ماركس نتيجة لثقافته، ولدراسته العميقة للتيارات الفكرية الرئيسية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر وأهمها: الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، والاقتصاد الكلاسيكي الإنجليزي، والاشتراكية الفرنسية وريثة تقاليد فرنسا الثورية، وهي فلسفة تحمل في طياتها فكر سياسي، واقتصادي، واجتماعي، وتاريخي، مبني على أساس فهم الإنسان فهماً معيناً للحياة والوجود، والطبيعة ومن أبرز سماتها جعل أثر العوامل الاقتصادية في مكان الصدارة لكل تطور، وتعد النظرية الماركسية من النظريات المهمة التي طرحت أفكاراً عارضت المثالية، التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك، فعلى إن أن ننظر نظرة واقعية عقلية لهذه النظرية التي اعتنقها مئات الملايين من البشر منذ القرن التاسع عشر، وتبنتها أكثر من دولة عظمى في القرن العشرين، من مواليد 1818-1883م .

انظر حيدر صبري شاكرا الخيقا ني : كارل ماركس والماركسية (دراسة تحليلية- نقدية)، دراسات في التاريخ والآثار، جامعة بغداد، بتاريخ 2009م . <https://www.researchgate.net/publication>

2- فريدريك انجلز : فيلسوف ألماني مشهور يُلقب بأبو النظرية الماركسية إلى جانب كارل ماركس، اشتغل بالصناعة وعلم الاجتماع ، يعتبر أب نظرية الماركسية بالإضافة إلى كارل ماركس نفسه في عام 1845م نشر كتابه حالة الطبقة العاملة في إنجلترا اعتماداً على ملاحظاته، في عام 1848م أصدر مع ماركس، بيانهما المشهور والمعروف ببيان الحزب الشيوعي، والذي يسمى اختصاراً البيان الشيوعي، فيما بعد ساعد كارل ماركس مادياً من أجل أن يكتب هذا الأخير كتابه الرأسمال، بعد وفاة ماركس، نشر إنجلز الجزئين الثاني والثالث من هذا الكتاب، إضافة إلى ذلك، نظم إنجلز مختلف تخمينات كارل ماركس، مما أعطى الجزء الرابع من كتاب الرأسمال، من مواليد 1820-1895م.

3- روبرت غلبين: الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية، مركز الخليج للأبحاث الإمارات العربية المتحدة دبي سنة 2004م، ص56.

محلية، وإقليمية وعالمية.¹ إن الحديث عن الماركسية كنظام فلسفي وضع نفسه بديلاً للفكر الرأسمالي يدفعنا إلى عرض القواعد التي تقوم عليها الماركسية، قصد الكشف عن مكانة الإنسان المعاصر في الفكر الماركسي وهو ما نركز عليه في هذا المجال.

مذهب ماركس:

الماركسية هي منهج أفكار ماركس ومذهبه، لقد تابع كارل ما كس، وأتم على نحو عبقرى التيارات الفكرية الرئيسية الثلاثة في القرن التاسع عشر، والتي تعزى إلى البلدان الثلاثة الأكثر تقدماً في العالم: الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، والاقتصاد السياسي الكلاسيكي الإنجليزي، والاشتراكية الفرنسية المرتبطة بالتعاليم الثورية الفرنسية بوجه عام إن ما تتصف به أفكار ماركس من منطق رائع وانسجام تام إنما يعترف به له حتى خصومه، وتؤلف أفكار ماركس بمجموعها المادية الحديثة والإشتركية العلمية المعاصرة بوصفها نظرية الحركة العمالية، وبرنامجها في جميع البلدان المتقدمة في العالم كل هذا يحملنا على أن نقدم لعرض المضمون الرئيسي للماركسية، مذهب ماركس الاقتصادي، بلمحة موجزة عن مفهومه للعالم بوجه عام.²

المادية الفلسفية: لقد كان ماركس بوجه خاص، من أتباع فيورباخ لودفيغ Ludwig Feuerbach³ ولم يقرأ بما عند فيورباخ من نقاط ضعف حتى فيما بعد إلا من حيث عدم الكفاية في منطق ماديته وشمولها، لقد كان يرى أن الشأن التاريخي

1- غضبان مبروك : المدخل للعلاقات الدولية، شركة باتنيست للمعلوماتية والخدمات المكتبية، الجزائر، سنة 2005م ، ص 67.

2- وجدي حمدي : سيرة مختصرة، وعرض للماركسية، بتاريخ فيفيري 2004. <http://lenin.public-archive.net/ar/L2257ar.html>

3 - فيورباخ لودفيغ : فيلسوف ألماني مادي ، من مواليد 1804-1872م.

العالمي لفيورباخ الذي "شغل دهرًا" قائم بالضبط على مقاطعته النهائية لمثالية هيغل وتوكيده للمادية.¹

وعلى نحو تام الإنسجام مع فلسفة ماركس المادية كتب فريدريك إنجلز في كتابه "ضد دوهرنغ" الذي قرأه ماركس قبل الطبع بيوم يقول فيه:

"إن وحدة العالم ليست في كيانه بل في ماديته، وهذه المادية قد أثبتتها تطور طويل وشاق للفلسفة، وعلوم الطبيعة الحركة شكل وجود المادة لم يوجد قط، ولا يمكن أن يوجد أبداً في أي مكان مادة بدون حركة، ولا حركة بدون مادة، ولكن إذا تساءلنا عن ماهية الفكر، والمعرفة، وعن مصدرهما نجد أنهما إنتاج الدماغ الإنساني، وأن الإنسان نفسه هو نتاج الطبيعة الذي نما وتطور في محيط طبيعي معين، ومع هذا المحيط، وإذ ذاك يغدو من البدهة أن نتاجات دماغ الإنسان التي هي أيضاً عند آخر تحليل نتاجات للطبيعة ليست في تناقض بل في انسجام مع سائر الطبيعة."² يتبن لنا من خلال هذا الكتاب مساهمة إنجلز الرئسية في شرح وتطوير النظرية الماركسية من خلال قوله أن وحدة العالم ليست في كيانه، وإنما في مادته، بالإضافة إلى العلاقة الوطيدة بين الحركة، والمادة فكل منهما مكمل للآخر.

الديالكتيك:

لقد كان ماركس وإنجلز يريان في ديالكتيك هيغل أوسع مذهب من مذاهب التطور وأوفرها مضمونا، وأشدّها عمقا، وأثمن اكتسابا لحقته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية وكانت كل صيغة أخرى لمبدأ التطور تتراءى لهما وحيدة الجانب فقيرة المضمون

1 - وجدي حمدي : سيرة مختصرة، وعرض للماركسية، بتاريخ فيفيري 2004م. <http://lenin.public-archive.net/ar/L2257ar.html>

2- المرجع نفسه.

تشوه السير الواقعي للتطور الذي يتميز أحياناً بقفزات، وكوارث وثورات في الطبيعة والمجتمع.¹

قال إنجلز: "إن الفكرة الأساسية الكبرى التي تقول بأن العالم لا يتألف من أشياء تامة الصنع بل هو مجموعة من العمليات يطرأ فيها على الأشياء التي تبدو في الظاهر ثابتة، وكذلك على انعكاساتها الذهنية في الأفكار، تغير مستمر من الصيرورة والفناء، إن هذه الفكرة الأساسية الكبرى قد نفذت على نحو عميق منذ هيغل في الإدراك العام حتى أنه لا يوجد من يعارضها في شكلها العام هذا، ولكن الإقرار بهذه الفكرة كلاً ما شيء، وتطبيقاً في الواقع في كل حال من الأحوال وفي كل ميدان من ميادين البحث شيء آخر، ليس هناك من أمر نهائي مطلق مقدس أمام الفلسفة الديالكتيكية فيه ترى كل شيء وفي كل شيء خاتم الهلاك المحتوم وليس ثمة شيء قادر على الصمود في وجهها غير الحركة التي لا تنقطع، حركة الصيرورة والفناء، حركة التصاعد أبداً دون توقف من الأدنى إلى الأعلى، وهذه الفلسفة نفسها ليست إلا مجرد إنعكاس هذه الحركة في الدماغ المفكر."² فالمقصود هنا أن الديالكتيك في نظر ماركس هو علم قوانين تطور الطبيعة، والمجتمع والفكر مقابل الفكر الميتافيزيقي، والقوانين الجامدة، والثابتة سواء في العالم الخارجي أم في الفكر الداخلي البشري، وهذا كله من أجل معرفة الأشياء والظواهر المحيطة بنا ونصل إلى الحقيقة الصحيحة.

المفهوم المادي للتاريخ:

أدرك ماركس خلو المادية القديمة من المنطق، وعدم إكتمالها، وطابعها الوحيد الجانب فاقنتع بأنه يجب جعل علم المجتمع منسجماً مع الأساس المادي، وإعادة بنائه إستناداً إلى هذا الأساس، وإذا كانت المادية بوجه عام تفسر الوعي بالكائن

1- وجدي حمدي : سيرة مختصرة، وعرض للماركسية، بتاريخ فيفيري 2004م. <http://lenin.public-archive.net/ar/L2257ar.html>

2- المرجع نفسه.

وليس بالعكس فهي تتطلب عند تطبيقها على الحياة الاجتماعية للإنسانية تفسير الوعي الاجتماعي بالكائن الاجتماعي، يقول ماركس: "إن التكنولوجيا تبرز أسلوب عمل الإنسان تجاه الطبيعة أي العملية المباشرة لإنتاج حياته، وبالتالي الظروف الاجتماعية لحياته، والمفاهيم الفكرية التي تنجم عن هذه الظروف، وقد أعطى ماركس صيغة كاملة عن الموضوعات الأساسية للمادية في تطبيقها على المجتمع البشري، وعلى تاريخه.¹ وبهذا فتحت الماركسية الطريق أمام دراسة واسعة شاملة لعملية نشوء تشكيلات المجتمع الاقتصادية، وتطورها، وإنهيارها وذلك بتحليلها مجموعة الميول المتناقضة وردّها إلى ظروف الحياة اليومية التي يعيشها الإنسان والإنتاج البارز المعالم لمختلف فئات المجتمع.

يقول ماركس في "البيان الشيوعي":

إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا ثم يضيف إنجلز فيما بعد: ما عدى المشاعية البدائية لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات، فالحر والعبد، والمعلم والصانع، أي باختصار، المضطهدون والمضطهدين، كانوا في تعارض دائم وكانت بينهم حرب مستمرة، تارة ظاهرة، وتارة مستترة، حرب كانت تنتهي دائما، إما بإنقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره، وإما بانهيار الطبقتين معا أما المجتمع البرجوازي الحديث الذي خرج من أحشاء المجتمع الإقطاعي الهالك فإنه لم يقض على التناقضات بين الطبقات بل أقام طبقات جديدة محل القديمة، وأوجد ظروفًا جديدة للإضطهاد وأشكالا جديدة للنضال بدلا من القديمة إلا أن ما يميز عصرنا الحاضر، عصر البرجوازية هو أنه جعل التناحر الطبقي أكثر بساطة، فإن المجتمع أخذ بالانقسام، أكثر فأكثر، إلى معسكرين فسيحين متعارضين، إلى طبقتين كبيرتين العداء بينهما مباشر: هما البرجوازية والبروليتاريا.²

1 - وجدي حمدي: سيرة مختصرة، وعرض للماركسية، بتاريخ فيفيري 2004م. <http://lenin.public-archive.net/ar/L2257ar.html>

2- المرجع نفسه.

إن المقطع الذي تطرقنا إليه آنفا يبيّن بوضوح تام كم هي معقدة دائرة العلاقات الاجتماعية الإنسانية، والدرجات الإنتقالية بين طبقة وأخرى، وبين الماضي والمستقبل التي يحللها ماركس ليظهر حاصل كل التطور التاريخي، وبالرغم من أن مادية ماركس مادية دياكتيكية عملية تعبر عن تغيير العالم، وحركة الفكر من أجل بناء، وتطوير العالم، إلا أن هذا لا يعني أنها لا تخلو من سلبيات.

تعقيب:

فمن ناحية التحولات التي طرأت ضمن السياق التاريخي، والاجتماعي بدأت تحوم الشكوك، وتطرح التساؤلات بشأن مشروعية النموذج الأمريكي الذي ظل حتى تلك الفترة نموذجاً للبناء الاجتماعي الأحسن خاصة بعد أن إنكمش وهجر التقليد الليبرالي للحقوق الطبيعية، وتبين أن التيارين الكبيرين للفلسفة السياسية الأنغلو ساكسونية الماركسية، والنفعية لم يعودا مسافرين للأحداث، فقد إنحصرت الماركسية في صورة سوفياتية باهتة، وأصبحت ضحية لها بينما بدت النفعية وكأنها صيغة أدائية للأخلاق.¹

يعني هذا أن الفلسفة الماركسية، والنفعية لم يعودا متتبعين للمستجدات اليومية والعصرية، مما جعل النظام السياسي الأمريكي يحوم حول الشكوك والتناقضات.

إن البرغماتية تأخذ بدكتاتورية² الواقع الآن الذي يفرض على البشرية معنى الحقيقة وفي ذلك تعسف، وإزدراء لحرية الفكر فكل شيء مادي، وفكري يخضر في الحاضر

¹ -L aurent Bouvet: "La renaissance de la philosophie politique aux Etats-Unis", in, magazine littéraire, N°380 Octobre 1999, p 5

² - الدكتاتورية : هي شكل من أشكال الحكومة حيث السلطة السياسية للطبقة الحاكمة تعتمد اعتمادا كبيرا على السيطرة المباشرة للجيش، وهي تتشابه ولكنها غير متطابقة مع الارستقراطية، أي تحكم الدولة مباشرة من قبل الجيش مثل كل الأنظمة الدكتاتورية، ونتيجة لذلك قد لا يتأهل فعليا كأرستقراطي مثل بعض الدكتاتوريين العسكريين، مثل مانويل نورييغا، الذي خضع اسميا للحكومة المدنية، ظهرت الدكتاتوريات بأنواع مختلفة، مما أدى إلى البقاء طويلاً في السلطة من قبل بعض الحكام المستبدين.

انظر إسماعيل ميرشم : تعريف وأنواع الدكتاتوريات مجتمع مدني، الحوار المتمدن العدد 3425 بتاريخ 13 - 07-2011م. www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=267063

المبتور من الماضي، والمستقبل أن المنفعة العملية في النظام الرأسمالية هي المقياس لصحة الشيء الفعلي آنيا، والدغمائية ضد المنهجية العلمية الماركسية في المادية الديالكتيكية التاريخية.¹

ويحذر غسان الرفاعي Ghassan al-Rifai² بعد أن تشاكرت لدى البعض المفاهيم الماركسية بالمفاهيم البرغماتية قائلا: "علينا الاعتراف بأن طغيان هذا الميل البرغماتي على ممارساتنا نحن قوى اليسار عموما، والشيوعيين بخاصة إنما يعود أساسا في جذوره حسب ما أرى إلى التكوين الفكري النظري الذي قامت عليه أحزابنا إذ اقتصر هذا التكوين على حفظ بعض النصوص، وتلقين بعض العبارات العامة من الأدبيات الماركسية دون إستيعاب منهجية البحث الماركسي، وقد أضفنا إلى هذا التراث التشوهات التي أدخلتها المقاربات، والممارسات العملية ذات الطابع الذاتي والعمومي.³ يقصد هنا أن تطبيق الفلسفة الماركسية دون البحث، والتحليل في منهجية المادية الديالكتيكية الماركسية أدى إلى تأثير سلبي على العلاقات بين الأفراد والممارسات العملية.

نستنتج من كل ما سبق أن الفلسفة البرغماتية تعتبر نجاح الفعل المعياري الوحيد للوصول للحقيقة، فالرجل البرغماتي يظهر له أنه يعمل من خلال الوصول إلى النتائج العملية النافعة، فالبرغماتيون لا يؤمنون بالديمقراطية المثالية إلا أنهم في الواقع ينادون بأيديولوجية مثالية مختفية قائمة على الحرية والفردية، ونقد كل النظريات الشمولية وأولها الماركسية.

1- إسحاق يعقوب الشيخ : غسان الرفاعي مقاتلا فذا من أجل نقاء الماركسية، بتاريخ 17 أبريل 2014م.

<http://www.alayam.com>

2- غسان الرفاعي : هو خبير اقتصادي سوري معروف رائد عمل في البنك الدولي منذ فترة طويلة، وعمل كوزير للاقتصاد، والتجارة في سوريا من ديسمبر 2001 م إلى أكتوبر 2004 م، من مواليد 1942م.

3- إسحاق يعقوب الشيخ : غسان الرفاعي مقاتلا فذا من أجل نقاء الماركسية، بتاريخ 17 أبريل 2014م.

<http://www.alayam.com>

وفي ظل هذه الظروف يطفح سؤال آخر: ماهي آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الفكر المثالي، والفكر الواقعي؟، بمعنى آخر ماهي انعكاسات الفلسفة البرغماتية في صياغة هذا الوعي الفكري؟.

3- الفلسفة المثالية والفلسفة الواقعية:

لقد باتت البرغماتية اليوم تيارا فكريا قويا يشمل أسلوب العمل، والتصوير العام للكون، والوجود، والإنسان، وقد ظهرت هذه الفلسفة مع بداية القرن العشرين لردم الهوة بين الفلسفة المثالية¹، والفلسفة الواقعية² اللتين طبعتا المناخ الفكري الأوروبي في تلك الفترة فهي تجمع بين الواقعية، والمثالية بالنظر إلى الناس والمجتمع والدولة وهذا هو سر إنتشارها الواسع، إنها ببساطة تعبر عن رغبة الانسان في السيطرة والإملاك.³

1- تعد الفلسفة المثالية من أقدم الفلسفات في الثقافة الغربية والتي يمتد تأثيرها حتى عصرنا الحاضر، حيث يلاحظ أنها قد أثرت في كثير من النظم التربوية والتعليمية في العالم، وترجع نشأة الفلسفة المثالية إلى كتابات المفكر اليوناني أفلاطون الذي يعتبر أباً للمثالية (429-347 ق.م)، ثم ما لبثت أن أصبحت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر من أكثر الفلسفات انتشاراً وذبواً وربما يعود ذلك لكونها من أقرب الفلسفات للديانات السماوية، المثالية Idealism مأخوذة من المثال وتعني في اللغة الإغريقية الصورة أو الفكرة ويعرفها لالاند (lalande) في معجمه الفلسفي بأنها: "الاتجاه الفلسفي الذي يرجع كل وجود إلى الفكر بالمعنى الأعم لهذه الكلمة. وبمعنى آخر هي المذهب الذي يقول أن الأشياء الواقعية ليست شيئاً آخر غير أفكارنا نحن، وأنه ليس هناك حقيقة إلا ذواتنا المفكرة أما وجود الأشياء فقام في أن تكون مدركة عن طريق هذه الذوات ولا حقيقة لها وراء ذلك". ويتم ذلك عن طريق الحدس والإلهام وإن الحقائق التي تدرك بالعقول أكثر من الحقائق التي تدرك بالحواس، إنها رؤية شاملة للكون باستخدام العقل انظر مريم محمد الشهري : الفلسفة المثالية روادها وتطبيقاتها التربوية، بتاريخ 2019-07-01م. <https://www.new-educ.com>

2- الفلسفة الواقعية جاءت كرد فعل للآراء التي قدمتها الفلسفة المثالية، فبعد أن كانت المثالية ترى أن العقل هو مصدر المعرفة، وترسم صورة مثالية ونموذجية لعناصر المؤسسة التربوية، ظهرت الفلسفة الواقعية لتبين أن العقل لا يعد مخزناً للحقائق بذاته، وإنما هي موجودة خارج الذهن وعلى الإنسان أن يحصلها بنفسه، كما شددت على ضرورة أن يكون التعامل في المؤسسة التربوية واقعيًا، وليس مثاليًا كما يؤمن الواقعيون بأن العقل هو جوهر الإنسان أما جسمه فهو مادة، وبذلك تختلف طبيعة العقل عن طبيعة الجسم. انظر هاشم راضي جثير العوادي: فلسفة التربية الواقعية، بتاريخ 2015-05-15م. www.uobabylon.edu.iq

3- فضيل أبو النصر : الإنسان العالمي، ببسان للنشر والتوزيع والاعلام، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2001م ص 114 ، 115.

وبهذا المنطق أنتجت البرغماتية عدة تشكيلات بشرية ذات توجه عالمي كمنظمات المجتمع المدني، والمنظمات الغير الحكومية، والتجمعات العلمية، والتي يتشكل داخلها نوع من التضامن الوظيفي مع مورو الوقت، وبطبيعة الحال فإن هذه المجتمعات لها أهداف مشتركة، وطرق خاصة لبلوغ تلك الأهداف.¹

المقصود هنا أن الفلسفة البرغماتية تتقد المذاهب المثالية في صراعها مع الواقعية وترفض بحث مشكلة أسبقية الفكر على الواقع، أو العكس، لأن فلاسفتها يريدون أن يجعلوا المعرفة أداة للعمل، ووسيلة من للاستفادة من الواقع، التحكم فيها بدلا من النزاع حولها، لذلك كانت البرغماتية منهجا علميا قبل أن تكون فلسفة ميتافيزيقية وهي طريقة للعمل، والممارسة من خلال ماتثمره من آثار عملية نافعة تفيدنا في على أرض الواقع.

وهو ما يجعلنا نقول أن الفلسفة البرغماتية تعد إتجاها تقديما في الفكر الفلسفي وثورة على الفلسفات التي تؤمن بالتأمل العقلي، والأمور النظرية للوصول إلى الحقائق الأولية في الكون، فهي ترى أن كل شيء لا يكون صحيحا ما لم يخضع إلى التجربة، والبرهان لإثبات صحته.²

إن البرغماتيين يرون أن الطبيعة الإنسانية مرنة وظيفية، وأن الحقيقة يمكن معرفتها من نتائجها التجريبية عندما توضع في موقف عملي فعلي، وبهذا يلتقون مع الواقعيين، فالفهم عندهم ليس مجرد إسقاط من جانب العقل، وإنه ليس مستقلا عن الذات الإنسانية دائما، أما الحقيقة عندهم هي من صنع التفاعل بين الإنسان وما يحيط به وبهذا يخالفون المثاليين، والحقيقة هي المجموع الكلي لخبرة الإنسان وعليه فالإنسان وبيئته مسئولان عما هو حقيقي على حد سواء فيما ترى المثالية أن العقل الإنساني وحده هو الذي يدرك الحقيقة لذلك فإن البرجماتيين يؤمنون

¹ -John Baylis, Stive Smith :**The globalization of world politics**, UK, Oxford university press, 1st edition, 2001, p 618.

² - إيناس مهدي إبراهيم الصفار: أبعاد الفكر البرجماتي في فن البواهراس، ص1013.

بمبدأ التعلم بالعمل، والإبتعاد عن التلقين¹. هذا من جهة أما من جهة أخرى فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: ماهي انعكاسات الفلسفة البرجماتية في صياغة الوعي الفكري الليبرالي، والنيوليبرالي المعاصر؟.

4- الليبرالية و النيوليبرالية:

إتخذت الليبرالية ومنذ ظهورها مرتكزات، وأسس فكرية تمثلت في الحرية والفردية، والعقلانية، وقد كان لهذه الأسس النظرية العامل الهام في نشر الليبرالية كمنتظم فكري يحاول النهوض بالفرد، ويسهم في تعزيز مكانته على حساب المجتمع، إذ زعمت الليبرالية بأن الإنسان خير قاض بمصلحته، وينبغي عدم تقييد حريته، وعلى الدولة أن تضمن للفرد مما لا يستطيع ضمانه لنفسه منفردا وهو الأمن، وأن لا تتدخل في الحد من الحرية الفردية لأن في تدخلها هدر لإمكانات الفرد، وتقويض للنظام الاقتصادي الحر القائم على المنافسة العقلانية والسوق، إلا أن هذه الأسس، وأن حظيت ببريق تنظيري فإنها، وفي جانبها العملي منحت أفراد الحرية، وحرمت الأغلبية منها، ولم تكن عقلانية بالجانب الذي يضمن المساواة².
لكلمة الليبرالية مكانة بارزة، ومهمة فهي من الكلمات القيمة التي يزخر بها قاموس الفلسفة عامة، والسياسية منها خاصة، فمن الأهمية هنا أن نلنقت إلى مفهوم الليبرالية فما هو تعريف هذا المصطلح؟.

1- وجدي حمدي : سيرة مختصرة، وعرض للماركسية، بتاريخ فيفيري 2004م. <http://lenin.public-archive.net/ar/L2257ar.html>

2- طلال حامد خليل : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، مجلة دفاتر السياسة والقانون جامعة ديالى الجزائر، العدد الخامس عشر، سنة 2016م، ص154.

الليبرالية:

لغويا: الليبرالية مصطلح أجنبي معرب مأخوذ من "Liberalism" في الإنجليزية، و "Liberalisme" في الفرنسية، وهي تعني "التحررية"، ويعود اشتقاقها إلى "Liberaty" في الإنجليزية، أو "Liberate" في الفرنسية، ومعناها الحرية.¹

في **موسوعة لالاند الفلسفية:** "الليبرالية مذهب سياسي يرى أن من المستحسن أن تزداد إلى أبعد حد ممكن استقلالية السلطة التشريعية، والسلطة القضائية بالنسبة إلى السلطة الإجرائية التنفيذية، وأن يعطى للمواطنين أكبر قد من الضمانات في مواجهة تعسف الحكم."² ولهذا يسعى هذا المذهب إلى وضع القيود على السلطة وتقليل دورها، ومهامها، وإبعاد الحكومة عن السوق، وتوسيع الحريات المدنية.

ولكي لا نثقل على القارئ بكثرة التعاريف، وتشعبها نقول أن الليبرالية مذهب فكري يركز على الحرية الفردية، ويرى وجوب احترام إستقلال الأفراد، ويعتقد أن الوظيفة الأساسية للدولة هي حماية حريات المواطنين مثل حرية التعبير والتفكير، والحريات الشخصية وغيرها، ولهذا فإنه يضع القيود على السلطة وتقليل دورها، وإبعادها عن السوق وتوسيع الحريات المدنية.³ وهذا تعريف يركز على البعد الإيديولوجي، وما تحمله الليبرالية من صور للحرية الفردية.

ولهذا فنحن ننظر أن المنتظم الفكري الليبرالي من الإتجاهات الفكرية التي نجحت في الإعتماد على الأسس التي تمثلت في الحرية الفردية، والعقلانية وليس غريب ما لهذه المرتكزات من جاذبية لأن المجتمع الإنساني في مراحل كافة قد انقسم إلى فئتين فئة حاكمة، وأخرى محكومة فئة امتلكت كل الحقوق وفئة حرمت

1- أندريه لالاند : **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس المجلد الأول، الطبعة الثانية، سنة 2001م، ص 725.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3- طلال حامد خليل : **المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية**، ص156.

منها، والأخيرين أخذوا على عاتقهم السعي للحصول عليها على مستويين المستوى التنظيري، والمستوى العملي، والذي يحسب للمنتظم الفكري الليبرالي بأنه مهد للإجراءات العملية بتنظير استطاع من خلاله بث فكرة الحرية الفردية، وجاذبيتها ليكون السباق في مقارعة الأنظمة الإستبدادية الملكية المطلقة.¹ وهذا يعني أن الليبرالية تريد أن تجعل المجتمع الإنساني قائم على أساس الحرية الفردية والعقلانية مما جعل الفكر الإنساني واعي برسالته الكونية.

ولكن تاريخ تطور الشعوب أثبت أن الليبرالية لم تكن الحل لتطور المجتمعات فالماسي الهائلة التي أصابت البشرية، حتى في أكثر المجتمعات اعتمادا على الليبرالية، دفعت خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، بالحكومات الأكثر اعتمادا على الاقتصاد الليبرالي وبكبرى المنظمات الدولية إلى مراكمة تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي وتقييد حرية حركة السوق، وبديل حرية "السوق"، و"العرض والطلب" صارت الحكومات تتدخل في ضبط العمليات الاقتصادية: تحديد الأجر، الضمان الصحي جملة واسعة من الإجراءات التي فرضتها الحكومات في تنظيم النشاط الاقتصادي وتقييد حرية السوق.² و لاشك أن الليبرالية بهذه الصورة قد تخيف الكثيرين خاصة في ما يتعلق بالاقتصاد، وهذا من خلال تدخل الدولة في تسير المعاملات التجارية، والاقتصادية.

وبعد حوالي نصف قرن من تدخل الحكومات في حركة السوق قامت الشركات الاقتصادية الكبرى بعضها بعض الحكومات بإعادة النظر في استراتيجيات التدخل الحكومي، وعمدت إلى توحيد صفوفها، وتوسيعها من أجل العمل على إلغاء سياسات التدخل الحكومي التي تعدل من حدة سيطرة السوق على حياة المجتمعات وكانت بريطانيا، في ظل حكومة المحافظين برئاسة تاتشر في العام 1979م، ومن ثم

1 - طلال حامد خليل : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، ص155.

2- طارق عثمان الحسون : العولمة والتنمية الاقتصادية، ص106.

الولايات المتحدة الأمريكية عام 1980م، مع وصول ريغان إلى سدة الرئاسة، أول من اعتمد إستراتيجية النيوليبرالية منهاجاً اقتصادياً.¹

وهكذا فإن الليبرالية أول إيديولوجية وقفت مثل الفلسفة البرغماتية بين الإيمان الديني خاصة وبين العمل، وفي نفس السياق يمكن طرح السؤال التالي: ماهي آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الليبرالي، والنيوليبرالي المعاصر؟.

بدأت الليبرالية الأمريكية متأثرة بجون لوك، ولكن ما لبثت أن تطورت بعد الثورة الصناعية الهائلة لتصبح أكثر عملية، ومادية، ومن ثم اعتنقت فلسفة جديدة تعتمد على النتائج العملية في النظرة للحياة وهي البراجماتية، وقد أصبحت النظرة الأمريكية الجديدة لحياة "البرغماتي" بمثابة إصلاح، وتعديل للفكر الليبرالي ليكون موافقاً لروح العصر وظروفه المتغيرة، وليكون دعماً لتقدمه، ونموه في ظل المتغيرات التقنية.² ومهما كان الأمر، فإن والبرغماتية فلسفة أمريكية خالصة تركز على فردية الإنسان ونفعيته بصورة عملية، وهذا يدل على توافق الليبرالية والبرغماتية وفي هذا الصدد يقول وليام جيمس: "دع كل إنسان الجانب الذي يرتضيه أعني الجانب الذي يجلب له السعادة في نفسه، ويهيء له حياة مطمئنة يعيش فيها بمقتضى ما اقتنع به وترك للمستقبل أن يحكم على موقفه بالصواب أو الخطأ".³ وهذا النص يدل على إشتغال الفلسفة البرغماتية على الحرية والفردية، والنفعية.

نلاحظ هنا أيضاً اتفاق مفهوم الليبرالية مع الفلسفة البرغماتية، فالبرغماتية فلسفة عملية، ولهذا أخذتها الليبرالية الأمريكية كمعيار تقيس به نتائج الأفكار الليبرالية.

1- طلال حامد خليل : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، ص156.

2- سليمان بن صالح الخراشي : حقيقة الليبرالية، وموقف الإسلام منها، مركز التأصيل للدراسات والبحوث جامعة أم القرى، مكة المكرمة، سنة 2008م، ص 43، 44 .

3- المرجع نفسه، ص44.

وبهذا نستطيع القول بأن من آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر أنها وطدت دعائم الليبرالية في المجتمع الأمريكي البرغماتي من خلال التركيز على النفعية الفردية، والعمل كمقوم للحق، ومن خلال تقديم حلول للمشاكل اليومية التي تكتنف حياة الأفراد، وتوقف تقدمهم لأن هذه المشاكل تقيد حرية الأفراد في تشكيل الوجود الإنساني بصورة فعالة، ومؤثرة، وهذه الصورة تخدم التقدم العلمي وتفسح مجالاً أوسع للعمل الإنساني.¹

ويبدو أن الليبرالية تجعل الفرد مقياس الحقيقة، وتؤكد تمسك الأمريكيين بأفكار لوك بأقامتهم وثيقة الإستقلال على فلسفة لوك الليبرالية، فنظرية جون لوك في الدولة هي النظرية التي بنيا عليها إعلان الإستقلال² في الولايات المتحدة الأمريكية بناءً مباشراً فيما أن الإنسان الفرد حر حرية مطلقة، فالدولة إنما إتفاق الناس على أن تقوم لكي تصون حقوقهم.³

يتبين لنا من خلال هذا الطرح أن الليبرالية هي خيار المجتمع الأمريكي حتى يومنا هذا فهي قائمة بالدرجة الأساس على الحرية والنفعية الفردية، والتي تعني في هذا السياق أن الفرد هو القيمة العليا، وما السلطة إلا وسيلة لتأمين بينهما حقوق الأفراد، وحمايتهم، والموازنة بينهما.

من هنا يمكن القول أن الحرية الفردية التي نادى بها البرغماتية وطبقها وليدة التعدد العرقي والثقافي، والديني، والفكري للمجتمع الأمريكي قد تجسدت من بين ما تجسدت في تأكيد هذه الفلسفة أو المنهج الفلسفي خاصة السياسة، وذلك حين قالت "أن عبارتين مختلفتين لفظاً متفقتين نتيجة، وأثراً إنما هما في الحقيقة عبارة واحدة، وعلى العكس من ذلك فإن عبارتين متفقتين لفظاً ومختلفتين أثراً أو نتيجة هما عبارتين

1- سليمان بن صالح الخراشي : حقيقة الليبرالية، وموقف الإسلام منها، ص45

2- سعيد زيداني : اطلاله على الديمقراطية الليبرالية، ورقة مقدمة لندوة المسألة الديمقراطية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة 2000م، ص 76.

3- زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، ص7.

وليس عبارة واحدة.¹ معنى هذا الفلسفة البرغماتية كانت تركز على الحرية، والنفعية الفردية في تجسيدها للفكرة التي كانت تريد أن تطبقها على أرض الواقع، فالمجتمع الأمريكي إذن مجتمع عملي ومنتج، وهذا من خلال آثار فلسفته في صياغة الوعي الفكري المعاصر.

إن جاهزية المقدمات العملية الفلسفية لليبرالية، والسعي لتعميم قيمها على العالم هو قمة ما بلغته السياسة الأمريكية البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر التي مرت ضمن سيرورة تاريخية ساهمت الإيديولوجيا شيئاً فشيئاً في تكوينها فقد قامت في عالم اليوم هذه الفلسفة، وانطلاقاً من نواة إيديولوجية ذات محورين الأول الاعتقاد بأن أميركا مكلفة برسالة، والثاني، اليقين بأن أداء هذه الرسالة يستلزم استخدام كل الوسائل بلا تحريم، ومما يميز السياسة الأميركية البرغماتية منذ مولدها الثبات في العمل على قدر الديمومة في متابعة الهدف وكذلك مواصلة الجوهر الإيديولوجي المولد للعمل، ولا شك في أن هذه السياسة بلغت ذروة تحققها في فجر القرن الثامن عشر مولد الليبرالية، وزادت إضافي مطلع القرن التاسع عشر²، ومن خلال هذا نستطيع ربط موضوع المرتكزات الأساسية لليبرالية مع ما تحاول الفلسفة البرغماتية الأمريكية إثباته اليوم، إذ يمكن التوصل أن الليبرالية في صورتها المعاصرة تسعى إلى الآتي³:

*سعت الليبرالية الأمريكية البرغماتية من خلال خيمة الحرية "الأساس والمرتكز" أبعد في الغرب، وأبعد في الجنوب، مدعية إن الحرية تليق فقط بالشعوب التي تستطيع حكم نفسها، وأما الشعوب التي لا تستطيع فإن من واجب أمريكا "المقدس أمام الله" قيادتها إلى النموذج الأميركي في الحياة لأنه النموذج الحق مع الشرف.

1- حيرش سمية : الفلسفة الأمريكية بين الليبرالية، والبرجماتية شال بيرس نموذجاً، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، جامعة، وهران الجزائر، سنة 2012م، ص163.

2- طلال حامد خليل : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، 165.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*سوف لن يضمن التفوق الجيو سياسي، وممارسة دور القوة الفائقة في عصر الليبرالية الجديدة، سوف لن يضمن مطلقاً مستوى تنمية إنسانية مرضية لجميع المواطنين، فعلى سبيل المثال، ففي الولايات المتحدة الأمريكية، هناك 32 مليون شخص من بين السكان، يصل العمر المتوسط، إلى أدنى من الـ 60 عاماً كما يوجد 40 مليون مواطن ليس لهم تغطية صحية، ويعيش 45 مليون دون مستوى عتبة الفقر، وهناك 52 مليون أمياً، وبالطريقة نفسها في نطاق الإتحاد الأوروبي الغني هناك اليوم 50 مليون فقير، و18 مليون عاطل عن العمل.¹ وهذا ما يجعلنا نقول أن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر شكلت موقفاً معرفياً لليبرالية التي صارت إحدى مميزات الحياة الأمريكية المعاصرة، ملحتاً على فردية الإنسان من خلال حرية، ونفعية متحركة مقياسها الإنسان وحده، ولا شيء غير الإنسان وحده.

وإذا كنا قد ألقينا الضوء فيما سبق على هيكل الليبرالية الأمريكية، وآثارها في صياغة الوعي الفكري، فإنه لابد من الإشارة إلى التطور الجذري الذي لحق بها ليس فقط كنوع من الليبرالية البرغماتية بل كتعديل أساسي في الفكر الليبرالي الأمريكي ليظهر نوع جديد من الليبرالية تسمى بـ "الليبرالية الجديدة" أو كما يسميها **جون مينارد كينز John Maynard Keynes**² الليبرالية الاشتراكية، وهي تمثل أحدث أطوار الفكر الليبرالي، والتي تبنتها الدول الصناعية الكبرى، والمنظمات الدولية كمنظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولي لتبدأ أثاره في الظهور حتى على الدول التي تعتنق مذاهب اقتصادية مغايرة حيث لم يعد الاقتصاد السياسي

1- طلال حامد خليل : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، 165.

2- جون ماينارد كينز: اقتصادي، موظف رفيع المستوى، وكاتب بريطاني ذو شهرة عالمية كبيرة، ومن أعماله استخلص الاقتصاد الكينزي، الاقتصاد الكينزي الجديد، والكينزية الجديدة، أو ما بعد الكينزية، ونظراً لعظم شأنه كأحد أكثر المنظرين الاقتصاديين تأثيراً في القرن العشرين، من مواليد 1883-1946م.

الكلاسيكي هو الصورة الملائمة، والمناسبة للقطب الأمريكي البرغماتي الذي يسعى لتبرير التوسع الرأسمالي.¹

وانطلاقاً من رؤيتنا الفلسفية المحضة يمكننا أن نتساءل بعد كل هذا: ما المقصود بالنيوليبرالية؟.

مفهوم النيوليبرالية:

إذا كان مصطلح النيوليبرالية مناسباً لوصف النظام الاقتصادي الحالي، فهو أيضاً مصطلح إشكالي، فالنيوليبرالية معاني عديدة في الخطاب المعاصر بالإضافة إلى حملات سياسية يسارية قوية غالباً ما يستخدم مصطلح النيوليبرالية من قبل نقاد النظام الاقتصادي الحالي أكثر من مناصريه بالتأكيد، تستخدم النيوليبرالية كوصمة أكثر من كونها مفهوماً ذو جدوى تحليلية.² هذا تعريف يركز على البعد الاقتصادي وما تحمله النيوليبرالية من صور للهيمنة.

نحن لا نسعى هنا لتقديم تعريف "علمي" محايد لمفهوم سيبقى دائماً موضعاً للنزاع لكننا نعتقد أنه من المفيد تمييز ثلاثة أوجه للظاهرة النيوليبرالية: النيوليبرالية كنظرية اقتصادية، النيوليبرالية كأيدولوجيا سياسية، والنيوليبرالية كمخيلة اجتماعية، وفي الوقت ذاته، نسعى للإشارة إلى استخدامات معينة لمصطلح النيوليبرالية نعتبرها مضللة أو غير مجدية.³ يتبين لنا هنا أن النيوليبرالية تشمل العديد من المجالات فنجدها في الميدان الاقتصادي، والأيدولوجي، والسياسي، والاجتماعي.

1- طلال حامد خليل : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، 165.

2- خبيب زهير: إيفانز و سويل: النيوليبرالية، الأيدولوجيا، والسياسات، والآثار الاجتماعية، بتاريخ 2016م <http://nthar.net/neoliberalism>

3- المرجع نفسه.

ومن آثار النيوليبرالية في صياغة الوعي الفكري المعاصر نجد تحرير أسعار جميع السلع التي كانت تحددت سابقا إنطلاقا من معايير سياسية، وأجتماعية، وذلك بقرارات سياسية إتخذتها الحكومات بعد نضالات اجتماعية، وسياسية متعددة، بيد أن النيوليبرالية تعمل على خط تحرير هذه الأسعار من أي ضوابط خارجة عن حرية السوق، ومعادلة العرض، والطلب، وتنادي النيوليبرالية بأن يشمل تحرير الأسعار الخدمات العامة كالتعليم، والصحة، والنقل، وكذلك بعض الخدمات التي تقدمها الدولة جزئياً أو كلياً، أو السلع التي تدعم الدولة أسعارها.¹

وإعادة النظر بدور، ومهام الدولة ويكون ذلك من جهة أولى، بإلغاء دورها في المهام الاجتماعية، والاقتصادية التي تقوم بها الحكومات، وذلك عن طريق تخفيض وإلغاء السياسات، والبرامج الاجتماعية، وإعانات للمواطنين في ما يعرف باسم الحماية الاجتماعية، أو تقوم بتنظيم ومراقبة إجازات الإستثمار وشروطه وحماية الثروات العامة والبيئة، ومن جهة ثانية تعتبر النيوليبرالية أن توسيع الأسواق، وجعلها ميدانا عالميا متحررا من القيود القومية وحدود الدول يستلزم إعادة النظر بدور الدولة أيضا.² نستنتج أن النيوليبرالية لها أثار قوية، وفعالة لم تقتصر على الولايات المتحدة الأمريكية بل شملت العالم أجمع، إذا لم تشهد الحقبة النيوليبرالية زيادة في معدلات النمو، فقد شهدت تحولا ملحوظا في البنية المؤسسية وديناميكية الاقتصاد العالمي.

ومن آثارها أيضا سنورد مزاياها التي أجمعت النظم الفلسفية الأخرى في هذا العصر على أنها خدمت بها التفكير الفلسفي في هذا الزمان.

ومن هذه الخدمات بالطبع أنها أنزلت الأبحاث الفلسفية إلى مستوى تفكير الرجل العادي، أصرت على أن لهذا الرجل الحق في المساهمة في هذا التفكير والإستفادة منه، لقد كانت الفلسفة إلى ما قبل البراجماتزم تستعمل مصطلحات لا يفهمها أحد

1- طارق عثمان الحسون : العولمة، والتنمية الاقتصادية، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمان، سنة 2015م ص106.

2- المرجع نفسه، ص107.

سواها، وتصر على إستعمال هذه المصطلحات إلى أن إتسعت الهوة بين تفكيرها وتفكير بقية الناس، فصار الفلاسفة في واد، والناس أجمعون في واد آخر.¹

ثم أتت الفلسفة البرغماتية، وقضت على هذا الخلاف، ووضعت قنطرة متينة بين الفلاسفة وباقي الناس، فأصبح التزاور سهلاً ميسوراً، أو بتشبيه آخر قد وصلت بين العقل العادي، وعقل الفيلسوف فأصبح من المستطاع التقاهم بينهما.² معنى هذا أن الفلسفة البرغماتية بسطت المفاهيم لجميع الناس من أجل النهوض بمجتمع متفوق وناجح عالمياً قائم على أساس العمل، والنجاح المثمر.

وهناك خدمة أخرى جلية أدتها الفلسفة البرغماتية للتفكير الفلسفي وهي أنها بينت أثر هذا التفكير في النظم الاجتماعية للإنسان، لا بل أظهرت بوضوح أن الفلسفة يجب أن تؤدي الخدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، من سياسة إلى اقتصاد إلى تربية وتعليم يجب أن تنزل من ميدانها النظري المجرد المبني على الكلام وتركيبه أو كما يسميه ديوي النظام النحوي للوجود إلى نظام يعيش فيه الناس والخدمة في هذا المجال ظاهرة واضحة فقد قلبت البرغماتية نظم التعليم رأساً على عقب في جميع أنحاء العالم، ونظن أن هذه الخدمة للتعليم قائمة في الأصل على محاربة البرغماتية لنظرية المعرفة فهي لا ترى في الإنسان إلا حياة الإنسان على أتمها، فكل نظام نظري للتعليم لا يؤثر في هذه الحياة الراهنة، ويخدمها بكل الطرق المستطاعة نظام في رأيها عقيم.³ هذا التوكيد للنتائج العلمية للنظم الفكرية خطوة جريئة في حياة الإنسان الفكرية، ونرى أن لها آثار قيمة في ميادين النشاط الاجتماعي كما بينا وبعد فإننا نرى أن البرغماتية فلسفة تستقيم للناس العاديين أمثالنا هذا النوع من الناس الذي يشعر أن الحياة بين يديه، ويجب أن يقضيها على أحسن حالة.⁴

1- يعقوب فام : البرجماتيزم، ص 299 ، 300.

2- المرجع نفسه، ص 300.

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

4- المرجع نفسه، ص 302.

ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك نجد:

يُرجع كثير من المتابعين للشأن الأمريكي، والدارسين لفلسفته صمود المعسكر الليبرالي الرأسمالي إلى إستيعابه للأفكار البرغماتية النفعية، وبثها في كافة مناحي الحياة، حيث عمد منظرو الفكر النفعي أمثال جون ديوي، ووليم جيمس، وهربت ماركوز Herbert Marcuse "1898 - 1979م" وغيرهم إلى التسويق لهذه الفلسفة وتقديمها على أنها أعلى منتج حضاري يمكن الوصول إليه، والتوصل من خلاله إلى إشباع كل رغبة، وأية رغبة يحلم بها العقل الأمريكي.¹

تلك كانت إطلالة مختصرة على علاقة الفكر البرغماتي بالفكر الليبرالي عند منظري الفلسفتين والداعين لهما، وقد تبين لنا خلال هذا العرض مدى الارتباط الوثيق بين الفكر الليبرالي، وبين الفلسفة البرغماتية، ما أدى فيما بعد إلى نشوء ليبرالية جديدة مشبعة بروح البرغماتية النفعية، حيث سعى منظرو الفكر الليبرالي إلى ترقيع الفكرة الليبرالية، ومحاولة استبدالها بالأفكار النفعية لتتماشى مع روح العصر.

سعت الليبرالية منذ أن حطت رحالها في الأوساط العربية، والإسلامية حتى اليوم إلى التوجه نحو صنفين من المتلقين، تمثل الصنف الأول في طبقة المثقفين، باعتبارهم أرضية خصبة لنمو الفكر الليبرالي التحرري، لما لهم من خلفية تغريبية، وساهم النظام التعليمي، والسياسي، والإعلامي في تشكيلها، وتحديد أطرها ومعالها منذ زمن بعيد حتى أصبحت أرضاً ذلولاً لتقبل هذا الفكر.²

أما الصنف الثاني من المتلقين، الذي حرصت الليبرالية على ضمه وإجتهاده فتمثل في الطبقة الفقيرة مادياً، وتعليمياً من طبقات المجتمع المسلم، وبدأ هذا الأمر ظاهراً بقوة في الفترة الأخيرة، بعدما فشلت الليبرالية في أوساط النخب في تصدير أفكارها

1- رمضان الغنام : النفعية في الخطاب الليبرالي المعاصر، بتاريخ السبت 18 ذو الحجة 1433هـ.

<http://taseel.com/articles/1627>

2- المرجع نفسه.

إلى غيرهم من طبقات المجتمع.¹ فسعى الليبراليون ببرغماتية واضحة إلى دعم كل قيمة فردية، أو تقليد بمعزل عن الدين لنزع أية قداسة للجانب الروحي الديني من قلوب الناس.

والسؤال الذي يطرح الآن: هل كانت الليبرالية التي اتخذت من الحرية أساسها وبمعناها المطلق الإنساني وفقا لإدعاء مفكريها هي من أسهم في سلب الحرية؟ وهل أن القيم الفردية، وحقوق الإنسان ألهمت القادة الليبراليون لتحقيق فرديتهم وحريتهم على حساب المجتمع الدولي؟، أليس في كل ما طرحناه إثبات بأن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري الليبرالي قد انحرفت في الجانب العملي النفعي التطبيقي، وأصبحت مضادة لدلالاتها.

نقد الليبرالية على المستوى العملي:

تعد الأسس الفكرية التي قام عليها الفكر الليبرالي من السعة إذ أخذت مجالها للتطبيق ذلك لأن هذه الأسس القائمة على الحرية الفردية، والعدالة الطبيعية والقانون الطبيعي، والعقلانية هي غايات مثلى، ومطلب ضروري لحاجات الإنسان ومن هنا اندفع الناس إلى وضع هذه الأفكار موضع التطبيق الفعلي وفي مجالات عدة، ومن أجل عدم التوسع سنركز على إستعراض الإنتقادات في المجالين السياسي، والاقتصادي²:

أولاً: على الصعيد السياسي:

تأمن الليبرالية بأن الدولة ينبغي أن تكون دولة ديمقراطية، وقد تعرضت الديمقراطية الليبرالية إلى إنتقادات عديدة إذ أن التأكيد على أن الشعب يمتلك السيادة مقولة نظرية فقط، والديمقراطية الليبرالية الغربية ليست ديمقراطية كاملة

1- رمضان الغنام : النفعية في الخطاب الليبرالي المعاصر، بتاريخ السبت 18 ذو الحجة 1433 هـ.
<http://taseel.com/articles/1627>

2- طلال حامد خالد : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، ص163.

ذلك لأنها ديمقراطية سياسية فحسب، ومن أجل أن تكون ديمقراطية كاملة يجب أن تكون ديمقراطية اقتصادية، واجتماعية.¹ يتبين لنا هنا الجانب السياسي السلبي في امتلاك الشعب الحكم هذا قول نظري، وليس عملي مطبق على أرض الواقع.

ثانيا: على الصعيد الاقتصادي:

وجهت مجموعة من الانتقادات على الصعيد الاقتصادي لعل أبرزها كالاتي :

أ- بدلا من تحقيق المصلحة العامة أحدثت الممارسات الحرة لقوى السوق إفلاسات هائلة لعدد ضخم من المشروعات، وانعداما صارخا للمساواة فالمشروعات الصغيرة، والمتوسطة قاعدة نظام المشروع الحر التي وضعت عليها الليبرالية الاقتصادية آمالها تضائل وزنها، وأصبحت تابعة للاحتكارات العملاقة.

ب- أثبتت الليبرالية فشلها الذريع في تحقيق مصالح المجتمع، فالأزمات الطاحنة التي يعاني منه الكثير من أبناء المجتمعات الليبرالية تؤكد أن مصلحة المجتمع ككل لم تتحقق بل هي مصلحة فئة قليلة باتت تمسك بجميع مناحي الحياة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وثقافيا.² نلاحظ هنا الجانب السلبي للفكر الإيديولوجي الليبرالي في تحقيق غايات المجتمع، وإنما المنفعة التي كانت تتادي بها كانت تقتصر على مجموعة معينة من أفراد المجتمع.

أما الليبرالية الجديدة فقد جاءت بمنهاج جديدة لإدارة الرأسمالية في زمن العولمة وقد كشفت عن عدد من الحقائق أهمها:

تلعب الولايات المتحدة الأمريكية دورا رئيسا في صياغة هيكل القوة الاقتصادية من خلال قوتها السياسية، والعسكرية، ومنذ أن فرضت الولايات المتحدة الأمريكية هيمنتها المطلقة على النظام الدولي الجديد في ظل القطبية الأحادية حاولت أن تصبغ العالم على شاكلتها، وتنشر سلطتها في العالم الفوضوي الذي وصفه هوبز، والولايات

1- طلال حامد خالد : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، ص163.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المتحدة لا تثق بالقانون الدولي، ولا بالمواثيق الدولية وهي تزداد ميلا إلى العمل العسكري في شكل أحادي الجانب، وترفض المبادرات أو القرارات التي تتخذ تحت راية مؤسسات دولية.¹

صفوة القول، أن الفلسفة البرغماتية هي الواجهة الفكرية لليبرالية، والنيوليبرالية السياسية، فالليبرالية تظل مثل البرغماتية وليدة الفكر الإنساني العملي الحر، وازدهاره الذي لا يعرف توقفا كما جسدت كل من الليبرالية، ومن البرغماتية دورا لا نعتقد أننا نبالغ كثيرا حينما نصفه بأنه كان فعالا في ازدهار العديد من الدول الغربية، وفي مقدماتها الولايات المتحدة الأمريكية التي لا يجادل أحد أنها ستضل تشكل واحدة من أهم القوى العالمية المعاصرة.

من خلال هذا الطرح الفلسفي وجدنا مدى انعكاس الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري الليبرالي والنيوليبرالي المعاصر على أسلوب ونمط إيقاع الحياة اليومية للأمريكيين فقد باتت الفلسفة البرغماتية اليوم تيارا فكريا قويا يشمل أسلوب العمل والتصور العام للكون، والوجود، والإنسان، وحتى نقف على مكانة الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني ونتساءل الآن: ماهي آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري الوجودي المعاصر؟.

الوجودية:

تحتل الوجودية بشكل عام مركز السيادة المطلقة في الفترة المعاصرة ضمن الفكر الفلسفي، لأنها جاءت لمواجهة القلق الذي سيطر على العقول بعد الحربين العالميتين المدمرتين، وتعيد للإنسان استقراره، وتركيزه وقيمه، فإذا كانت المادية تضع المادة فوق كل اعتبار، والروحانية تجعل الروح فوق الكل، والمثالية تتطلق من عالم الفكر في حين

1- طلال حامد خالد : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، ص164.

الوضعية تعتمد الأوضاع القائمة كأساس فكري لتفسير كل الحقائق فالوجودية تضع الوجود كحقيقة فوق كل إعتبار.¹

الحديث في هذا المقام عن المكانة التي تحتلها الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني يضعنا أمام التغيير الذي أحدثته على مستوى الفكر المعاصر، وهذا يضعنا أمام آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر، بمعنى آخر ماهي انعكاسات الفلسفة البرغماتية على الوجودية؟.

لكن قبل أن نتحدث عن هذه الانعكاسات سوف نتطرق إلى مفهوم مصطلح الوجودية فما هو تعريف مصطلح الفلسفة الوجودية؟.

5- الوجودية: فلسفة تصورها رؤها كيركجارد على أساس أنها فلسفة الإنسان في مقابل فلسفة الأشياء، وفلسفة الأفكار، ولعل أهم خاصية تتميز بها هذه الفلسفة هي أنها تبدأ من الإنسان، ولا تبدأ من الطبيعة، فهي تبحث عن دور الإنسان في هذه الحياة إنها فلسفة للذات أكثر منها للموضوع، الوجود الحقيقي هو الوجود الذاتي، أما الوجود الموضوعي، فهو الوجود بين الموضوعات، والحياة على غرار الموضوعات فوجود زائف، وهو وجود تشتت، وضلال للذات الحققة، لأنني لا أكون فيه مالك لذاتي بقدر ماتكون الأشياء مالكة لي². وهذا يعني أن محور الفلسفة الوجودية هو الفرد في حد ذاته، وليس الوجود الموضوعي، ويركز المذهب على الوجود الإنساني الذي هو الحقيقة اليقينية الوحيدة في رأيه، ولا يوجد شيء سابق عليها، ولا بعدها، وتصف الوجودية الإنسان بأنه يستطيع أن يصنع ذاته وكيانه بإرادته، ويتولى خلق أعماله، وتحديد صفاته وماهيته باختياريه الحر دون ارتباط بخالق أو بقيم خارجة عن إرادته، وعليه أن يختار

1- خولة نكاش : الوجودية، بتاريخ 26 جانفي 2016م.

<http://tcs4.biof.over-blog.com/2016/01/56aa7447-24f5.html>

2- عبد الرحمن بدوي : الزمان الوجودي، ص 42.

القيم التي تنظم حياته.¹ وليكن المذهب الوجودي هو إبتدائنا: أليست رسالته في جوهرها ومضمونها هي حرية الإنسان؟.

إن الإنسان على يد الفلاسفة الوجوديين يمثل ذلك الكائن البشري الموجود في العالم وسط الأشياء، ولم يعد مجرد ذات عارفة، فلا بد أن يترتب على ذلك أن يصبح الإنسان "معيّاراً للأشياء"، وليس "عارفاً لها" ففلسفة الذات الموجودة، تقتضي إلى تأكيد الفرد في مقابل المعنى الكلي، والفرد هو بذاته عالم بكل إمكانياته في مقابل الغير الذين هم في الواقع جحيم بالنسبة إليه، ومن أخص خصائص هذه الذات المفردة الاختيار بين ما تتطوي عليه من ممكنات، إلا أن الاختيار يقتضي حتماً توفير شرط الحرية، فلا اختيار حيث لا حرية، والاختيار يجر بالضرورة إلى المسؤولية، ولكن لماذا يضطر الإنسان للاختيار؟.²

لأنه لا بد أن يفعل لتأكيد معنى وجوده، فحتماً لا يستطيع أن يفعل كل إمكانيات بل لا بد أن يختار وجهاً من وجوهها الممكنة على الرغم من قناعته بأن هذا الاختيار هو نبذ وإقصاء لإمكانيات أخرى متاحة أمام الفرد، ولهذا فالاختيار ينطوي على مخاطرة لأن المرء يجازف باختياره وجهاً أو وجهين من وجوه الممكنات المتعددة وأمام رسالة المذهب الوجودي في حرية الاختيار، وحرية القرار بالنسبة إلى الإنسان.³ نفهم من هذا الطرح الفلسفة الوجودية تجعل من الإنسان الفرد دور فعال في تحقيق وجوده واختيار قراراته بمفرده، وبالتالي يكون المسؤول الوحيد عن أفعاله ويحقق مكانته في الفكر الإنساني المعاصر.

1- مانع بن حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان، والمذاهب، والأحزاب المعاصرة، ص 888.

2- يوسف عيد: المدارس الأدبية ومذاهبها، القسم النظري، والقسم التطبيقي، دار الفكر اللبناني، بيروت الطبعة الأولى، سنة 1994م، ص 505.

3- مراد العبدى : الوجودية في الفلسفة المعاصرة سارتر نموذجاً، يتأريخ 7 يوليو 2012م.

<http://www.anfasse.org> .

قد يسأل سائل: أليس هنالك من القيود ما يقيد تلك الحرية عند الإنسان؟، ألا تنقيد مثلاً بما يقتضيه منطق العقل حتى لا تصبح كحرية المجنون؟، لنفرض أن مسافراً قرر السفر من مصر إلى أوروبا، ألا تنقيد حرية إرادته تلك بوسائل الانتقال المتاحة وبالقدرة المالية، والصحية، وغير ذلك مما يملكه أو لا يملكه؟، أو إفرض فرضاً آخر وهو أن إنساناً أراد أن يقسم مائة دينار على أربعة أشخاص بالتساوي، تلك هي إرادته الحرة، لكن هل تكون له كذلك حرية ناتج القسمة، وهو أن يكون نصيب كل فرد من هؤلاء الأربعة خمسة وعشرين ديناراً؟، إن إرادته مهما بلغت من حريتها لابد لها من الخضوع إلى قوانين الرياضة، وقوانين الطبيعة، وله بعد ذلك أن يتحرك بإرادته الحرة داخل إطار هذه القوانين.¹ المقصود بالحرية التي تتادي بها الفلسفة الوجودية هي حرية خاضعة لقوانين ذلك البلاد الذي يعيش فيه، وبهذا يستطيع أن يكون له عمل منتج، وأفكار برجماتية نفعية لنفسه، ولجميع طبقات المجتمع.

لا بل إنه، وهو يتخذ لنفسه قراره الحر بإرادته الحرة، مضطر أن يصوغ ذلك القرار في لغة يفهمها الناس، ولما كانت اللغة ليست من صنعه الخاص، فهو مضطر إلى الالتزام بالمفردات اللغوية، وطرائق التركيب اللغوي التي تواضع عليها الناس ليفهموا عنه ما أراد وما قرر، وإلا لما أحدث في العالم الخارجي الأثر الذي أراد أن يحدثه بقراره ذاك الذي اختاره حراً.²

1 - مراد العبدى : الوجودية في الفلسفة المعاصرة سارتر نموذجاً، بتاريخ 7 يوليو 2012م.

<http://www.anfasse.org>

2- أحمد الورداشي : الفلسفة التحليلية "نشأتها، أهدافها، اتجاهاتها"، الحوار المتمدن العدد 5498 ، بتاريخ

21 - 04 - 2017م. www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=555903&r

فإذا سأل سائل عن مدى الضوابط التي يفرضها منطق العقل فرضاً، أي تفرضها قوانين العلوم الرياضية، والعلوم الطبيعية، بل وتفرضها كذلك لغة العلم، ولغة التفاهم كان ذلك السائل باحثاً عن جواب لن يجده إلا عند من إهتم بفلسفة التحليل.¹

لأنها فلسفة توجه اهتمامها الرئيسي نحو تلك الضوابط، فتحاول أن تستخلص الصور المنطقية الخالية من مضموناتها، لعلها ترى في وضوح أنواع العلاقات التي تربط أطراف الفكرة الواحدة ربطاً يفيدنا في توليد النتائج، فإذا كان المشتغل بفلسفة التحليل لا يرفض حرية الإنسان كما وصفته الفلسفة الوجودية، فإن المشتغل بالفلسفة الوجودية من جهته لا يرفض أن تضطلع فلسفة التحليل بتحديد الضوابط التي لا مناص من التزامها عند عرض أفكارنا، إذن الفلسفة الوجودية، وإن لم توجه اهتمامها إلى ضوابط الأفكار في إطارها الصوري، فهي لا تنتكر لها ولا ترفضها كما أن الفلسفة التحليلية، وإن لم توجه إهتمامها إلى أركان الحرية الإنسانية عندما تريد وتعمل، فهي لا تنتكر لها ولا ترفضها.² نلاحظ هنا الاتفاق بين الفلسفة الوجودية والتحليلية في عدم رفض حرية الإنسان، وأفكاره التي نلتبس آثارها على أرض الواقع الفعلي.

وبهذا قيدت الفلسفة البرغماتية دلالة الفكرة المعينة بمقدار تحقيقها لهدفها، فإذا قلت عن فكرة ما إنها بغير هدف محدد تقصد إليه، وترسم معالمه كنت كمن لا يريد أن

1- الفلسفة التحليلية : نشأت فلسفة اللغة التحليلية على نقيض الفلسفة الكلاسيكية، بحيث أن هذه الأخيرة لم تكن تول اهتماماً إلى اللغة، ولا تهتم بالقضايا اللغوية الكبرى، لقد كانت نشأتها في العقد الثاني من القرن العشرين في فيينا- النمسا، على يد الفيلسوف "Gottlob Frege" 1848-1925م" في كتابه "أسس علم الحساب" قدم فريج عدة محاضرات لطلابه، فتم تقديم هذه المحاضرات في الجامعة الألمانية، وانطلاقاً من ذلك عدت مورداً للطلاب الباحثين في الفلسفة والمنطق ، قام فريجة بدراسات لغوية تحليلية أجراها على العبارة اللغوية، وعلى بعض قضايا اللغة، بحيث إنه ميز بين مقولتين وظيفيتين متباينتين، وهما: اسم العلم، والمحمول، إذ عد هذان الأخيران العنصران الأساس في القضية الحملية، تجدر الإشارة إلى أن هذا التمييز بين المقولتين "اسم العلم المحمول" كان من صنيع المنطق الحديث، لأن أرسطو كان يخلط بين القضية الحملية وغير القضية الحملية. أنظر محمد الورداشي : الفلسفة التحليلية "نشأتها، أهدافها، اتجاهاتها"، الحوار المتمدد العدد 5498 ، بتاريخ 21 - 04 - 2017م، www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=555903&r

2- مراد العبدى : الوجودية في الفلسفة المعاصرة سارتر نموذجاً، بتاريخ 7 يوليو 2012م.

<http://www.anfasse.org>

يفرق بين عاقل ومجنون، وإذا كان فيلسوف الوجودية وهو منغمس في البحث عن حرية الإنسان، لم يوجه اهتمامه كذلك إلى تحليل الأفكار الصحيحة تحليلًا يقيدها بالأهداف التي تتحقق بوساطتها على أرض الواقع الفعلي، فليس معنى ذلك أنه أي فيلسوف الوجودية يرفض هذا الذي تقوله البرغماتية، كما أن البرغماتية لم يكن ليرفض ما يقوله الوجودي عن صنع الإنسان لنفسه بإختياراته الحرة التي يمارسها في المواقف التي تعرض له في مسيرة حياته.¹ معنى هذا أن الفلسفة البرغماتية لا ترفض ما تقوله الفلسفة الوجودية بأن قيمة الفكرة تتحدد بمدى نجاحها في الواقع وهي بهذا لا تهتم بجوهر الفكرة، ومضمونها وإنما بمدى نجاحها، واستفادة الغير منها، إذن الفكرة الصحيحة هي الفكرة المثمرة والفعالة، والنافعة في المجتمع.

هنالك قيود تحد من إطلاق الحرية الوجودية، دون أن تنتقص من صميمها، فلقد ذكرنا قيود العقل بمنطقه، وقيود الوسيلة اللغوية التي نتقاهم بها حتى لا تذهب أقوالنا عبثًا مع الريح، وهنالك قيود الأهداف التي لا بد منها لتهتدي بها الحرية الإنسانية إذ هي تريد وتختار، ونريد الآن أن نضيف قيدًا آخر، هو قيد الظروف المادية التي تحيط بنا عند الاختيار وإرادة الفعل، فماذا يجدينا من حرية لا تضع في اعتبارها ظروف الواقع وضروراته؟² هكذا نجد أن المذاهب الفلسفية، والفكرية في عصرنا حين اختلفت، فهي إنما اختلفت في الجانب الذي تكون له أولوية النظر عند كل منها دون أن تكون الجوانب المتعددة متعارضة، ومختلفة في ما بينها، بل هي جوانب يكمل بعضها بعضًا ونستطيع أن نأخذ بها جميعًا.

1- مراد العبدى : الوجودية في الفلسفة المعاصرة سارتر نموذجًا، بتاريخ 7 يوليو 2012م.

<http://www.anfasse.org>

2- جون ماكوري : الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون، والأدب، الكويت، العدد 58، سنة 1982م، ص 35.

والواقع أن هناك وجوديين اقتربوا جدا من أحد أنواع البرغماتية فقد تبدو بضع فقرات من الفيلسوف ميجيل دي أونامونو Miguel de Unamuno¹ شبيهة بالمذهب البرغماتي غير أن هذه الفقرات لابد أن توضع جنبا إلى جنب مع العناصر الذاتية العاطفية في فلسفته، وإلى جانب ما يفهمه من المأساة كما أن مواطنه خوزيه أورتيجا آي جاست Jose Ortega Y Gasset² إقترب هو الآخر من المذهب البرغماتي بسبب انحيازه للفكري القومي إلى النزعة الحيوية الذي جعله يصف العلم والثقافة معا بأنهما: "أدوات أو وسائل للحياة"³، لكن إحساس أورتيجا بالأزمة وبالتحدي الثوري وضعه بين الوجوديين وبالغا ما بلغ اقتراب الوجوديين في بعض النقاط من البرغماتيين، وأصحاب النزعة الحيوية فإنهم يتميزون عنهم بأن اهتمامهم ينصب على تكثيف الحياة بل على تكثيفها المأساوي بدلا من أن ينصب على توسعها أو نجاحها الخارجي.⁴

وما نخلص إليه أن كلا الفلسفتان الوجودية، والبرغماتية تطرقت إلى جانب هام في الوجود الإنساني، ففي حين يأخذ العالم الخارجي جل وقتنا في العمل والمحاولة لعيش بنجاحات مادية، فإن البعد الداخلي لا ينفك أن يدفعنا إلى التساؤل، والتفكير في السبل الحقيقية لتحقيق وجودنا الحر، وبذلك نقول أن لكل مذهب من المذاهب حمل في طياته بناء منطقي متماسك، يعكس التفكير العميق لهذه التيارات حول الأبعاد الحقيقية للإنسان، لكن الخطر الذي يبقى قائما هو تشدد كل مذهب وإدعاء أتباعه بأنهم يملكون الحقيقة وغيرهم مخطأ، فالدغمائية "التوكيدية"، هي المرض الخطير لكل معرفة كونها إدعاء بامتلاك اليقين، ومعاداة من خالفهم، وهذا ما كان يحدث

1- ميجل ديه أونامونو : فيلسوف إسباني، عيّن أستاذًا للغة اليونانية بجامعة سلامنكا عام 1891م، ثم رئيسًا للجامعة في عام 1900م، بالإضافة إلى كتبه الكثيرة، والعديدة، كتب أونامونو ما يزيد على 3,000 مقالة قصيرة، من مواليد 1864-1936م.

2- خوزيه أورتيجا آي جاست : هو فيلسوف إسباني مثالي ليبرالي، ركز فلسفته على المشكلات والقضايا الاجتماعية، وهو يصنف ضمن ما يطلق عليه جيل 1914م، من مواليد 1883-1955م.

3- جون ماكوري : الوجودية، ص 35.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بكثرة في الحضارات وبين التيارات، وهذا هو الشيء الذي يجب تجنبه بقبول النقد والرأي الآخر.¹

تكونت الفلسفة البرغماتية الأمريكية شيئاً فشيئاً إنطلاقاً من نواة أيديولوجية ذات محورين أولاً كانت القناعة بأنها مكلفة برسالة، وثانياً كانت متأكدة بأنها لكي تستطيع أن تتجز هذه الغاية إنجازاً جيداً لديها السماح التام باستخدام كل الوسائل لذلك تميزت السياسة الأمريكية منذ ولادتها بتصميم على العمل، وتوصلت هذه السياسة لذروة قوتها بالتنفيذ مع مطلع القرن الثامن عشر، وأصبحت بوضع أفضل منذ القرن التاسع عشر.²

فالراهن المعاصر يواجه تحدياً قوياً، وهو اتجاه العولمة لقد فرضت ظاهرة العولمة نفسها في جميع الميادين، والمجالات، وعلى صعيد التخصصات جميعها بلا استثناء وهي كأي ظاهرة جديدة تحمل دلالات، ومفاهيم، ومضامين ذات شقين أحدهما سلبي، وآخر إيجابي، لكن السؤال الذي يستوجب طرحه في هذا الصدد يتعلق أساساً بآثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي العولمي المعاصر، فهل العولمة المعاصرة نتاج مباشر للفلسفة البرغماتية؟.

6- العولمة:

تتمتع الفلسفة البرغماتية بخصائص تجعلها تمتد أذرعها إلى حياة الإنسان بكل جوانبها فهي تدخل في الاعلام، والسياسة، والاقتصاد، والأخلاق، والموسيقى والفنون والآداب، والسينما، والطعام "الوجبات السريعة"، إنها الفلسفة التي صبغت الحياة الأمريكية بطابعها منذ تأسيسها إلى وقتنا الحاضر، فكانت الوسيلة التي دفعت بأمريكا إلى التطور العلمي، والصناعي، والتكنولوجي السريع سخرت هذه الفلسفة لتكون منهاجاً للعولمة، وأصبحت مصطلحاتها، ومفاهيمها، وأفكارها عابرة للقارات ومتجسدة

1- جون ماكوري : الوجودية، ص 35.

2- مشيل بوغنون مورديانت : أمريكا المستبدة الولايات المتحدة، وسياسة السيطرة على العالم "العولمة" ص211.

في العديد من بلدان العالم بادئ ذي بدء نعرج إلى تعريف مصطلح العولمة فما هو مفهومها؟.

لغويا: هي إحدى مشتقات الفعل "علم"، "عالم"، "يعالم"، عولمة على وزن فועلة وهي "تعميم الشيء إلى أبعد حد ممكن، وتطبيقه على أوسع نطاق".¹

اصطلاحاً: العولمة: "هي انفتاح عن العالم وهي حركة متدفقة ثقافياً، واقتصادياً و سياسياً، و تكنولوجياً حيث يتعامل مدير اليوم مع عالم تتلاشى فيه تأثير الحدود الجغرافية، والسياسي، فأمامنا رأس مال يتحرك بغير قيود، وينتقلون بغير حدود و معلومات تتدفق بغير عوائق حتى تفيض أحياناً عن طاقة استيعاب المديرين، فهذه ثقافات تداخلت، وهذه دول تكتلت فأزالت حدودها الاقتصادية، والجغرافية، وشركات تحالفت فتبادلت الأسواق، والاستثمارات عبر الحدود، وهذه منظمات مؤثرة عالمياً مثل: البنك الدولي، صندوق النقد الدولي، ووكالات متخصصة للأمم المتحدة تؤثر بدرجة أو بأخرى في اقتصاديات، وعملات الدول، وظروف معيشة الناس عبر العالم".² وبهذا بدأ مفهوم العولمة يحتل موقعا أساسيا في العلوم الاجتماعية المعاصرة، ويستخدم في عدد من فروع المعرفة مما جعله أحد المفاهيم التي تستدعي مدخلا تتفاعل فيه فروع المعرفة بشكل متبادل، وصادق لتحليل المجتمع ككل، لأنه يتضمن معظم الظواهر الاجتماعية، والاقتصادية المعاصرة.³

وتستخدم مصطلحات كثيرة للتعبير عن مفهوم العولمة منها الكوننة، والكوكبية والدولية والعالمية، وغيرها إلا أن المفهوم الأكثر شيوعاً واستخداماً هو العولمة وكان أول من

1- معن النقري: "العولمة، الكوكبية"، منهجياً، ونظرياً، وتطبيقياً"، دار النشر والتوزيع، سوريا، دمشق الطبعة الأولى، سنة 2003م، ص 134.

2- طارق عثمان الحسون: العولمة، والتنمية الاقتصادية، دار مجد للنشر والتوزيع، عمان، سنة 2015م ص 5.

3- عبد الله قلي: غايات التربية في ضوء العولمة، مجلة علمية محكمة تصدر عن مخبر التربية والابستمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر، العدد الأول، سنة 2011م، ص 18.

أطلقه معرفيا عالم الاجتماع الكندي مارشال ماك لوهان Marshall McLuhan¹ في الستينيات أبان صياغته لمفهوم القرية الكوني.² وانطلاقاً من رؤيتنا الفلسفية المحضة يمكننا أن نتساءل الآن: ماهي انعكاسات الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي العولمي المعاصر؟.

يقول الدكتور العراقي عماد الدين خليل: "إنّ العولمة تجعل العالم كله قرية صغيرة تتحكم فيها الزعامة الأمريكية، وبطانتها اليهودية بمصائر الأمم، والدول، والشعوب وتضع مقدراتها المالية، والاقتصادية في نهاية الأمر تحت قبضتها، تفعل بها ما تشاء من أجل تحقيق أهداف نفعية برغماتية صرفة لصالح مراكز الهيمنة الغربية على حساب الأمم والدول والشعوب."³ وهنا يتضح طغيان الجانب الاقتصادي البرغماتي في صياغة الوعي العولمي المعاصر.

إنّ الدول العربية كإحدى المناطق المستهدفة بالعولمة بلغت ديونها الخارجية عام 1995م 250 مليار دولار، وتتفاقم ديونها بمقدار 50 ألف دولار في الدقيقة الواحدة ولا شك أنه كلما ارتفعت وتيرة الديون كلما ترسّخت التبعية ووُجدت الذريعة للتدخل وبسبب هذه الديون التي بدأت بتشجيع من الغرب عن طريق البنك الدولي وصندوق النقد الدولي اللذين يعملان على إغراق الدول المستهدفة بالديون أصبح اقتصاد معظم هذه الدول متخبطاً يستطيع، وبصعوبة بالغة ملاحقة خدمة الديون وفوائدها المتراكمة فهي في الحقيقة وسيلة لبسط النفوذ على البلاد تماماً كما كانت في الماضي.⁴

1- مارشال ماكلوهان : فيلسوف كندي أحدثت نظرياته في وسائل الاتصال الجماهيري جدلاً كبيراً وواسعاً فهو يرى أن أجهزة الاتصال الإلكترونية - خاصة التلفاز - تُسيطر وتتحكم على حياة الشعوب، وتؤثر على أفكارها ومؤسساتها، من مواليد 1911-1980م.

2- عبد الله قلي : غايات التربية في ضوء العولمة، ص18.

3- إلياس فرح : الفكر الماركسي عرض ونقد، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة السادسة، سنة 1981م، ص 304.

4- خالد حسن هندواي : العولمة، بتاريخ 18-02-2015م.
<http://www.alhiwartoday.net/node/9315>

فإتجاه العولمة الاقتصادية يسود الآن متجسدا في ازدياد دور الشركات متعددة الجنسيات، وتنظيم عملية الانتاج بكافة مراحلها، وتكوين رأس مال عالمي من خلال السيطرة، والتحكم على شروط التبادل التجاري والتحكم في عملياته وشركات التأمين، ففي ظل عولمة الرأسمالية البرغماتية تحول رأس المال إلى نوع من الملكية التطبيقية غير الفردية على النطاق العالمي، فقد صارت السيطرة الاقتصادية إلى سيادة الشركات العابرة للقارات.¹ ووفقا للمنطق البرغماتي فالإنسان شيء متسلع، إذ تكمن قيمته في كونه مصدرا للربح، ووسيلة من وسائل التسويق والمحاولة قائمة دائما لصناعة الإنسان البرغماتي الجديد ذوي الهوية العالمية المعاصرة من غير أن يضل مرتبطا بقيم الغيب إلا إذا كان في ذلك منفعة.

وبتحليل بنية الفكرالقائد للحضارة الغربية الذي يقود العولمة الآن نجد أنه بانتقال مركز النقل الغربي إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، فإن قيادة الفكرالغربي بوجه عام انتقلت بدورها إلى الفكر البرغماتي الأمريكي الذي ينطلق من القناعة المسبقة بعجز الفكر الفلسفي الغربي "المادي والمثالي معا" عن إدراك الحقيقة المعرفية، ومن ثم اللاجدوى في مواصلة البحث في الأسس المعرفية الإستمولوجية أو العمل على الوصول إلى إجابات فلسفية عن الأسئلة المصيرية، والإعتياض عن ذلك بالإلهاء الحسي النفعي المتواصل، وعلى ذلك فالبرغماتية لا تعتقد بصحة الأفكار إلا بمدى ما تحققه من منفعة عملية، والحقيقة لديها هو كل ما يأتي عن تجربته، أو تطبيقه تلك المنفعة، وعندما تكون المنفعة العملية هي المعيار الوحيد للحكم على الأشياء فإن ذلك يؤول في التطبيق العملي إلى إحلال المصالح الخاصة محل المبادئ والقيم التي تحكم الأمور.²

1- إلياس فرح : الفكر الماركسي عرض ونقد، ص 304.

2- محمد عثمان : ضغط العولمة، برجماتية ما بعد الحداثة في مواجهة الإسلام ، سنة 2005 م
<http://annabaa.org/nbahome/nba76/awlama.htm> .

فالبرغماتية هي عملية انتقال بارعة من المذهبية الفلسفية المتمزمة إلى التبرير الفلسفي لكل ما هو قائم بالفعل على أنه هو ما تقرضه الإحتياجات الإنسانية، وهي في الوقت نفسه تعبير دقيق للغاية عما بلغه النسق الفكري العلماني للحضارة الغربية في أقصى نموها المادي، ومن هنا كان التركيز على اللذة والإستهلاك المادي فالإلهاء الحسي المتواصل صار بديلاً عن البحث الفلسفي الحقيقي، كما أن البرغماتية بإعتمادها على النفعية كمقياس للحقائق، لا تؤدي إلى تبرير الإنتهازية فقط، وإنما إلى صبغها بصبغة الحقائق الجديرة بالاحترام، والتقدير.¹ يتبين لنا هنا مدى دور الفكر البرغماتي في صياغة الوعي العولمي المعاصر القائم على أساس الإستهلاك المادي، والنفعي كمعيار للحقائق هذا من جهة، أما من جهة أخرى فبعد أن سلطنا الضوء على إنعكاسات الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي العولمي المعاصر نصل إلى الحديث عن سلبياتها.

تعقيب:

من مخاطر الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي العولمي المعاصر أنها تركز على حرية الإنسان الفردية إلى أن تصل للمدى الذي يتحرر فيه من كل قيود الأخلاق والدين، والوصول به إلى مرحلة العدمية، وفي النهاية يصبح الإنسان أسيراً لكل ما يعرض عليه من الشركات العالمية الكبرى التي تستغله أسوأ استغلال، وتلاحقه به بما تنتجه، وتروج له من سلع استهلاكية أو ترفيهية، ولا تدع للفرد مجالاً للتفكير في شيء آخر.²

يتبين لنا من خلال هذا الطرح أن الفلسفة البرغماتية المعولمة فلسفة مادية نفعية بحتة لا مجال فيها للروحانيات، إنها تهمل العلاقات الاجتماعية، والإنسانية القائمة

2- محمد عثمان : ضغط العولمة، برجماتية ما بعد الحداثة في مواجهة الإسلام ، سنة 2005 م
<http://annabaa.org/nbahome/nba76/awlama.htm> .

1- خالد حسن هندواي : العولمة، بتاريخ 18-02-2015م.
<http://www.alhiwartoday.net/node/9315> .

على التعاطف، والتراحم، والاهتمام بمصالح، وحقوق الآخرين، فهي تشكل عالما يجعل من التسلط، والبخل فضيلة، ويشجع على الجشع والانتهازية، والوصول إلى الأهداف، والحقائق بأي وسيلة دون أدنى النقائص إلى المعايير، والقيم الفاضلة السائدة في المجتمع.

ومما سبق نستخلص، أن فكرة العولمة البرغماتية هي من أكثر الأفكار، والقضايا التي استحوذت على أكبر اهتمام، فهي الفكرة التي يسير عليها في زمن واحد العالم برمته، وينقسمون حولها، ويتصادمون بشأنها أيضا، والمدهش في هذه الفكرة أنها عبرت بسرعة عن خطاب النخبة، والطبقة العالمة إلى خطاب الشارع، وتحولت إلى فكرة إنسانية بسيطة يتساءل عنها الناس بمختلف شرائحهم الاجتماعية، فالناس اليوم يتحدثون عن العولمة البرغماتية المعاصرة كما لو أنها تنتمي إلى قاموس كلماتهم ومفرداتهم اليومية، حيث دخلت بسرعة، وقوة إلى مجال التداول اللغوي الجماهيري.

وخلاصة لما سبق يمكن القول أن الفكر العولمي البرغماتي العملي المعاصر فكرا منفتحاً على بيئته يتفاعل معها ويحقق أهدافه من خلالها، فهو فكر يستند إلى الواقع، ويميل إليه أكثر من ميله إلى التقليد، والعودة إلى الماضي، ويعتمد على الممارسة العملية الفعلية في تحقيق الأهداف المرجوة كما، ويستند إلى الحقائق الخارجية أكثر من اعتماده على الخيال، والروحانيات في إيصال المعرفة للفرد كل هذا جعل منه فكرا يتناسب مع الوقت الحاضر المعاصر، وهذا ما أدى إلى نشر الفكر في مختلف بلدان العالم، معنى هذا أن تبني الولايات المتحدة الأمريكية للفلسفة البرغماتية المعولمة كان ولا يزال وراء العديد من أوجه التقدم الفكري والمادي الذي يعرفونه منذ قرون، مثلما يمكن أن تكون وراء التقدم الذي ينشده العالم العربي والإسلامي وغيرهم من الشعوب الأخرى، لكن ليس الوعي الفكري المعاصر وحده الذي تتجلى فيه آثار الفلسفة البرغماتية وقيمها، بل هناك وعي آخر يكون لهذه القيم والمفاهيم دورها الواضح في تغيير بنية الواجهة الثقافية لشعب ما أو أمة ما وهو المجال الثقافي. والسؤال الذي نطرحه الآن: ماهي آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر؟.

ثانيا: آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر:

توصف الفلسفة البرغماتية بفلسفة المنفعة، والأثر المتولدين عن العقل، وعن التجربة مما يحملانه من مبادئ خاصة للحرية، وللعمل، وللمبادرة، من هنا كان شعار هذه الفلسفة الفاعلية، والأثر كمعيارين لكل حقيقة يراد الوصول إليها، ولكل عمل لذلك جاءت البرغماتية معبرة عن الواقع الاجتماعي والثقافي الخاص بأمريكا، المتعدد الأجناس والثقافات التي شكلت الأسس الأولى لما يسمى بالعالم الجديد لقد جاءت البرغماتية كفلسفة معبرة، وإلى حد كبير عن الواقع الاجتماعي، والثقافي والديني الذي بناه أولئك المهاجرين، وعن أبعاده الإنسانية منها، والاقتصادية، والاجتماعية والعقائدية والثقافية المتميزة بذلك كانت البرغماتية أقرب فلسفة إلى المواطن الأمريكي المسكون بهاجس التفوق، والقوة المادية¹. كما تعرف أيضا أنها الفلسفة الأولى والوحيدة حتى الآن التي يلعب فيها الفعل، وآثاره العملية دورا سياسيا وثقافيا واجتماعيا في صياغة الوعي المعاصر. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فما هو مفهوم الوعي الثقافي المعاصر، وما هي آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة هذا الوعي؟.

مفهوم الوعي الثقافي:

الثقافة، والوعي مفهومان مرتبطان بتطور الإنسان، وبطبيعته الاجتماعية، ونشاطه العلمي، والإبداعي منذ القدم، الوعي يظهر، ويتطور كجانب من ممارسة الإنسان الاجتماعي، وتفاعله القائم ما بينه، وبين الموضوع الذي يجري التفاعل معه، وهو وثيق الصلة باللغة هذه الآلة التي تستطيع أن تقدم الإمكانيات الهائلة من أجل نقل ثمار نشاطه للأجيال القادمة، ومعرفته بطبيعة الأشياء المحيطة به، وهنا تبرز اللغة شكلا من أشكال التجسد المادي للوعي فضلا عن تجسده في موضوعات الثقافة فيما

1- حيرش سمية : الحقيقة البرغماتية بين الاعتقاد، والعمل شارل سندرز بيرس نموذجا، ص40.

يخص العمل وسائر الأعمال الفنية الأخرى.¹ معنى هذا أن الوعي الثقافي مرتبط بمدى تطور الإنسان، وعمله، ونشاطه في شتى ميادين الحياة.

ارتبطت الثقافة بالوجود الإنساني ارتباطاً متلازماً بتطور مع الحياة الإنسانية وفقاً لما يقدمه الإنسان من إبداع، ولقد تأثرت بفكرة النجاح البرجماتي فقد عبر البروفيسور الأمريكي رالف بارتون بيرري **Ralph Barton Perry 1876-1957** م، من جامعة هارفارد عن المغزي الثقافي لفكرة النجاح البراجماتي في المؤتمر الفلسفي الثاني للدول الأمريكية عام 1947م قائلاً: "من الخطأ الافتراضي بأن فكرة النجاح الأمريكية قاصرة على النجاح المادي، إن ما هو أمريكي بصورة متميزة على الأخص هو ليس استبعاد الفن، والعلم، والدين بالركض وراء الثروة بل هو أن تدخل في الفن، والعلم، والدين شيئاً من تلك الروح والموقف الذي يمثل الركض وراء الثروة، و إبراز خصائصها ليس إغراق الثقافة بضجيج الصناعة، بل فكرة إثارة الضجة حول الثقافة نفسها، ولهذا فليس النجاح المادي فقط هو المقبول بل أي نجاح كان من دون أن يكون ذلك موجهاً ضد اكتساب الثقافة بشرط إمكان قياس الثقافة لنفسها بمقياس النجاح إن المعيار ليس تجارياً من حيث الجوهر، بل أنه تنافس من حيث الأساس."² يتبين لنا هنا مدى تأثير الفكر البرجماتي في الوعي الثقافي لأن الهدف ليس الربح المادي فقط، وإنما إدخال الروح البرجماتية في الوعي الثقافي، الفني، التربوي، الديني المعاصر.

مرة أخرى تتسلل فكرة التفوق البرجماتي، وروح المنافسة إلى الوعي الثقافي المعاصر لأن الثقافة هي المحرك الأساس للفعل الإنساني، فمقياس تحضر الأمم و رقيها مرتبط بتقدمها الثقافي بكل دلالات اللفظ و محتوياته، وهذا ما تشهد به المدنية المعاصرة، فالأمم المتقدمة في عالمنا هي التي استطاعت أن تأخذ بتلابيب الثقافة

1- مصطفى محمد غريب : الثقافة، والوعي عند الإنسان، الحوار المتمدن، العدد 498، بتاريخ 25-05-2003م. <http://www.ahewar.org>

2- موريس كورنفوت : البرجماتية، والفلسفة العلمية، ص 143، 144.

في كافة جوانبها الإنسانية، والعلمية، وأن تحول وعيها الثقافي إلى فعل عام تتقدم به على غيرها على الرغم من الخلل الذي يلف بعض جوانب ثقافتها، فالثقافة هي الكل المعقد المتشابك من أساليب الحياة الإنسانية المادية، والروحية.¹ نلاحظ هنا آثار الفكر البرغماتي في صياغة الوعي الثقافي المعاصر.

إن البرغماتية هي الفلسفة التي وجد فيها رورتي الصورة الحقيقية للثقافة الأمريكية وهو يعتبر أن البرغماتية التي كانت فلسفة سيدني هوك - صديق لعائلة رورتي - ومن قبله ثلاثة من الفلاسفة الأمريكيين أمثال بيرس، وجيمس، وديوي هي كذلك في ظنه الفلسفة غير المعلنة، وغير الرسمية لمعظم المثقفين الآخرين في نيويورك والذين تراجعوا عن الماركسية، وماديتها الجدلية على الرغم مما كانت توصف به البرغماتية في أوقات من انحباسها، وتقهرها على يد بعض أساتذة الفلسفة في جامعة شيكاغو من أمثال كريستوفر هيتشنز² Christopher Hitchens، ألفريد وأدler³ Alfred Adler من أوصاف سلبية، وتتهم بكونها مبتذلة، عامية، نسبية ونافية لذاتها.⁴

1- ناظم عبد الواحد الجاسور: موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2009م، ص 143 .

2- كريستوفر هيتشنز: صحفي بريطاني أمريكي، كان هيتشنز المؤلف المساعد، والمحرر المساعد لأكثر من 30 كتاب، من ضمنها خمسة مجاميع من المقالات السياسية، والثقافية، والأدبية، لقد جعل منه الخطاب المناهض في الجدل موضوعاً رئيسياً في الخطاب العام، مما أدى إلى جعله شخصية فكرية مثقفة ومثيرة للجدل، ساهم بشكل كبير في مجلة نيوسنتيسمان، ذا نيشن The Weekly Standard، ذا أتلانتيك، لندن ريفيو أوف بوكس، The Times Literary Supplement، سلايت، Free Inquiry، وفانيتي فير، من مواليد 1949-2011م.

3- ألفريد أدler : هو طبيب عقلي نمساوي معروف، ومؤسس مدرسة علم النفس الفردي، اختلف مع فرويد وكارل يونغ بالتأكيد على أن القوة الدافعة في حياة الإنسان هي الشعور بالنقص، والتي تبدأ حالما يبدأ الطفل بفهم وجود الناس الآخرين، والذين عندهم قدرة أحسن منه للعناية بأنفسهم والتكيف مع بيئتهم، من مواليد 1870-1937م.

4 - محمد جديدي : الحداثة، وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الدولة في الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، سنة 2006م، ص 38.

لكن من المفيد الإشارة، وضمن سياق تاريخ الفلسفة البرغماتية، وعلى الرغم من تراجع رقعة انتشار البرغماتية، وتلاشي نفوذها وسط المفكرين الأمريكيين لفترة من الزمن تراوحت بين الثلاثين والأربعين سنة، إلا أن ذلك لم يمنع تواجد الأفكار البرغماتية، واستمرارها لذلك يشيد **كورنل ويست** ¹ Cornel West بمساهمات من حافظوا في حقل نشاطهم الفلسفي على بقاء التراث البرغماتي خلال فترة ازدهار الوضعية المنطقية ومن هؤلاء: **جون ماك درموت** ² John McDermott **ريتشارد برنشتاين** ³ Richard Bernstein، لقد فضل **ماك درموت** بشكل عام استخدام الأسلوب النقدي الثقافي المرتبط بالطابع البرغماتي لروح العصر الحاضر وأما **برنشتاين** فقد كتب أفضل الدراسات المقارنة المشرقة عن البرغماتية، والفلسفة القارية ومنها **الماركسية، الوجودية، والظواهرية**، علاوة على ذلك، فقد أثارت المعالم البرغماتية لعدد من وجهات النظر **الفلسفة التحليلية** بطريقة حادة وبصيرة لقد شدد ببراعة بإقناع على أن البرغماتية بمثابة المحاور، والمتكلم الجاد في المحادثة الفلسفية المهنية عندما لا يبدو ذلك جليا بالنسبة للكثيرين، أخيرا، فإن **مورتون وايت** ⁴ Morton White حافظ على تقليد بارز، ومميز للتاريخ الثقافي مبني، ومركز في الغالب على البرغماتية الأمريكية.⁵

يتبين لنا من خلال هذا التحليل إمكانية أن تصبح الأفكار البرغماتية الأمريكية فلسفة معاصرة مناسبة، ومتكيفة مع الثقافة التي يستوجبها تحولات ذلك العصر.

1- كورنل ويست: هو واحد من أهم المفكرين الأمريكيين المعاصرين الذين تخطت شهرتهم حدود بلادهم وصاحب رؤية نقدية فلسفية ثاقبة. انظرمنار الشوربجي: **كورنيل ويست**، بتاريخ 2016-06-29م. <http://democracy.ahram.org/News>

2- جون ماكديرموت : هو كاتب أمريكي، من مواليد 1919-1977م.

3- ريتشارد برنشتاين : فيلسوف أمريكي معروف حاصل على الدكتوراه بجامعة يال، أستاذ الفلسفة، وعميد أسبق للمدرسة الجديد (New School) في الولايات المتحدة، له عدة مؤلفات منها: "الممارسة والفعل" 1971م، و"حنة أرانت والمسألة اليهودية" 1996م، و"المنعطف البرغماتي" 2010م، من مواليد 1932م.

4- مورتون وايت : هو فيلسوف، ومؤرخ أمريكي، من مواليد 1917-2016م

5- محمد جديدي : الحادثة وما بعد الحادثة في فلسفة ريتشارد رورتي، ص 39 .

يعتقد جون ديوي بأننا نخطئ إذا ما اعتبرنا أن الثنائيات الفلسفية القديمة قد انتهت بل إنها تسربت من الفلسفة الإغريقية، وخاصة في صيغتها الأفلاطونية، والأرسطوطاليسية إلى الثقافة الغربية المعاصرة عبر قنواتها التاريخية الممتدة من الوسيط النهضوي، والأنواري.¹

فالحديث عن ذلك يذكرنا ديوي في نصه إذ يقول: "ومع أن الصياغة الإغريقية قد تمت منذ زمن بعيد، ومعظمها أصبح اليوم غريبا في عباراته الخاصة، إلا أن بعض ملامحها يتعلق بالتفكير الحاضر، وتدل على معنى كما كانت في صيغتها الأصلية في موضوع العلوم، ومناهجها، والتوسع الشاسع في ألوان النشاط العملي عن طريق الفنون، والصناعات، استمك التراث الأساسي للثقافة الغربية بهذا البناء من الأفكار، ولم يمسه بشئ فقد ظل جوهرها منقسما على نفسه بين يقين هو غاية الغايات في البحث البشري، ولا سبيل إلى الظفر به إلا عن طريق التمسك بعالم مفارق للوقائع لا يعترية الفساد، ولا تخالطه المادة بينما ما يحصله الإنسان بواسطة العمل أو الصنع فهو غير يقيني".² وهذا ما يثبت أن البرغماتية الأمريكية تريد بشكل من الأشكال أن تعيد الاعتبار إلى هوامش الفكر، وأن تعتمد إلى إحداث تسوية لميادين الثقافة البشرية المختلفة، فلا تصبح من ثم الفلسفة سوى مجرد عنصر محرك، وفاعل في عملية الوعي الثقافي كبقية العناصر الأخرى.

ويمكن توضيح آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر من خلال أنها تعبير عن الثقافة الأمريكية من وجهتين فهي أولا تقوم بتدعيم بعض النواحي المحددة لهذه الثقافة، وثانيا تقوم بنقد جوانب معينة أخرى منها، وهكذا يصدق على جميع البرغماتيين المؤسسين.³

1- جون ديوي : البحث عن اليقين، ص45.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

3- شالز موريس : رواد الفلسفة البرغماتية، ص 188.

يدور العمل الرئيسي في البرغماتية الآن في الولايات المتحدة الأمريكية، وبصفة مبدئية، ولكن ليس بطريقة شاملة حول التفسير، والتقرير، والتقييم وتناولت أعمال بيرس الجزء الأكبر من هذا النشاط بلاشك، وقد أضاف الناشر آرثر بوركس **Arthur Brooks** مجلدين آخرين لبحوث بيرس صدر عام 1958م، وأصبحت مخطوطات بيرس على **الميكروفيلم**² متاحة الآن في مكتبات جامعة هارفارد وأسفرت جهود محبي بيرس عن إنشاء جمعية **شارلز بيرس** تدور فيها المناقشات حول فلسفته وغيرها، وظهر حديثاً عدد من الكتب عن بيرس، وأنهى ماكس فيش في هذا الوقت قائمة طويلة طال انتظارها عن أعمال بيرس.³

وهكذا فإن البرغماتية في صيغتها الجديدة لم تكن بنفس مواصفات البرغماتية الكلاسيكية، وهي تختلف عنها أو على الأصح تتميز عنها بإدخال بعض التعديلات المنهجية، والفكرية، والفلسفية التي برزت ما بين فترة البرغماتية في نهاية القرن التاسع عشر مع بيرس، وهو ما يمكن أن نسميه البرغماتية الكلاسيكية، أما فترة إحياء البرغماتية فبدأت من نهاية سبعينيات القرن العشرين، وهو ما يمكن أن نصلح عليه بالبرغماتية الجديدة التي عبر عنها رورتي بمشروعه الفلسفي الذي بدأ يلوح في أفق الفكر الأمريكي المعاصر، حينما أتم الفيلسوف أطروحته عن الإمكانية أو القوة عام 1956م تبين أن مسعاه الرئيسي والحقيقي هو التأسيس لحوار بين الفلاسفة المعاصرين، والتراث الكبير للفلسفة الغربية، ولقد تعزز هذا

1- آرثر بروكس : هو سياسي أمريكي، نشط في الحزب الديمقراطي، وقد انتخب عضو مجلس نواب أوهايو من مواليد 8 مايو 1936م .

2- **الميكروفيلم** : هو عبارة عن شريط فيلمي ملفوف حول بكرة فيلمية وهو مقاس 16 ملم أو 35 ملم، أما من ناحية الطول فهو حسب انتهاء المادة مصور عليها كمية هائلة ومعتبرة من الوثائق مثل الدوريات والمخطوطات. انظر محمد رضوان هلال المستندات كأدلة في مسرح الجريمة : طرق جمعها و تحريزها الاستعراض بها تقسيمها معالجتها، وفحصها، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2015م، ص106.

3- شالز موريس : رواد الفلسفة البرجماتية، ص 181، 182.

المشروع أكثر بإصدار الفيلسوف لكتابه الأساسي عام 1979م، وعنوانه "الفلسفة ومرآة الطبيعة".¹

ومع هذا النص تتحول الفلسفة من ميدان الاستمولوجيا لتصبح فعلا منشأ غرضه إعادة بناء الفلسفة، فهو يشير إلى أن مشروعه ينطوي على الجمع أجزاء من دريدا ووضعتها إلى جانب ديوي، واقتطاف عناصر من ديفيدسون، وتقريبها من لودفيج فيتغنشتاين Ludwig Wittgenstein²، وأمور من هذا القبيل أكثر من أن يكون عملاً أصيلاً إلا أننا نرى في موقف رورتي تقارباً كبيراً وملحوظاً في مشروعه مع موقف جون ديوي الذي سعى فيه إلى التجديد في الفلسفة متخذاً من القاموس البرغماتي الذي يحتشد بمفاهيم: الخبرة والبحث التفاعل الكائن مع المحيط الديمقراطية، والتربية الفعل، والنتيجة، جدلية الغاية والوسيلة بوصفها أدوات منهجية، ومعرفية لتحقيق مشروعه.³ معنى هذا أن الفيلسوف جون ديوي يسعى إلى إعادة بناء الفلسفة معتمداً في ذلك على مضمون الأفكار البرغماتية التي تعتمد على الخبرة، والتجربة، والمنفعة، والتربية، وغيرها من الأدوات البرغماتية المعاصرة العملية.

أما الفيلسوف رورتي فقد هاجم، ودحض جميع معادل الميتافيزيقا، لكنه في نفس الوقت، أبرز آثار الحس الذرائعي على ألا نفهم الذرائعية بالمعنى السيء الذي يفيد الوصلية، وألغاية تبرر الوسيلة في محاولات الفلاسفة التحليليين وأسلافه الذرائعيين، والنتيجة أن العمل على تحويل الفلسفة من صانعة للمبادئ إلى محاورة في طاولة مستديرة لجميع مجالات الثقافة دون الاعتراف بمركزية إحداها،

1- عبد الستار الراوي : معجم العقل الأمريكي السياسي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص34.

2- لودفيج فيتغنشتاين: من أكبر فلاسفة القرن العشرين، ولد في فيينا بالنمسا ودرس بجامعة كامبردج بإنجلترا وعمل بالتدريس والتعليم هناك، وقد حظي بالتقدير، والإحترام بفضل كتابه "رسالة منطقية فلسفية" وتحقيقات فلسفية أنجز الكثير والعديد من أعماله اللاحقة على الساحل إيرلندا الغربي في عزلة ريفية يفضلها مع باتريك لينش بحلول عام 1949م، عندما شُخصت حالته بأنها سرطان البروستاتا، كتب معظم المواد التي نشرت بعد وفاته مثل "تحقيقات فلسفية"، من مواليد 1889-1951م.

3- عبد الستار الراوي : معجم العقل الأمريكي السياسي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص34.

إن ما نحتاج إليه ليس هو المعرفة بل الأمل بأن نعتقد في المستقبل دوماً دون تحديد لمواصفاته النوعية بأنه أفضل من الحاضر، والأمل ليس هو الوعود الكاذبة، والمخالفة للقوانين، بل ما يقتضي توفير جميع الشروط والإمكانات التي تساعد على النمو السوي لأفراد المجتمع.¹ إن هذه النظرة التي قدمها لنا روتي حول نقده للميتافيزيقا، لاتمنع أنه تجاهل الوعي البرغماتي بالعكس فهو يرغب أن نفهم الفلسفة البرغماتية بالشكل التحليلي الإيجابي، والطموح لمستقبل أفضل لجميع طبقات المجتمع.

من أكثر ما يلفت الإنتباه أيضاً في آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر المدى الذي بلغته الثقافة الشعبية الأمريكية من الإنتشار، والسيطرة على أذواق الناس في العالم، فالموسيقى الأمريكية، والتلفزيون والسينما، من مايكل جاكسون إلى رامبو إلى دلاس، أصبحت منتشرة في مختلف أنحاء العالم، كما أن النمط الأمريكي في اللباس، والأطعمة السريعة، وغيرها من السلع الاستهلاكية انتشرت على نطاق عالمي واسع، وبالأخص بين الشباب،² والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: ما هي أسباب نفوذ الوعي الثقافي التربوي المعاصر؟.

لقد برزت معالم فلسفة ديوي التربوية في المدرسة الأمريكية باعتبار الواقع الأمريكي هو الذي ساعد ديوي على توجيهه النفعي، والبرغماتي في التربية في ظل انتشار قيم الديمقراطية، والحرية، والتقدم العلمي، والتكنولوجي، والإيمان بالتغير الذي يطبع جميع الظواهر الخارجية، فكان بذلك تجديد المجتمع في نظره أمر ضروري يتطلب تغيير الأسس التربوية القديمة، وبناء تربية جديدة في مناهجها وطرقها ينطلق من الواقع المدرسي الذي هو جزء لا يتجزأ من الواقع الاجتماعي المعاش، ولم يقتصر ذلك على المجتمع الأمريكي فقط بل امتدت إلى

1- عبد الستار الراوي : معجم العقل الأمريكي السياسي المعاصر مصطلحات حرب العراق، ص34.

2- عبد الكريم بكر: العولمة طبيعتها، وسائلها تحدياتها التعامل معها، دار الإعلام، عمان، الطبعة الثانية سنة 2001م، ص25، 26.

خارج الولايات المتحدة الأمريكية وعلى هذا الأساس نتساءل: ماهي آثار التربية التقدمية وامتداداتها في العالمين الغربي، والعربي؟¹

إن المستقرى لأحداث التطور التربوي التعليمي في العالم المعاصر ابتداء من القرن العشرين لا يمكنه أن يغفل ذلك الأثر الذي تركته فلسفة ديوي التربوية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر على التربية الغربية، والعربية نظرياً وعملياً، وذلك من خلال الكثير من المربين في العديد من دول العالم، ويمكن أن نعرض بعض النماذج الغربية، والعربية فيما يلي²:

امتداداتها في العالم الغربي:

إن شهرة جون ديوي ونفوذه في الميدان التربوي نلمسها في الإشادة التي حملتها كتابات المربين المعاصرين، وفي مقدمتهم تلاميذه إيدمان، هوك، وغيرهم ولعل أكثرهم إشادة هو وليام كلباتريك WILLIAM KILPATRICK³ الذي شرح معظم أفكار أستاذه ديوي التربوية وقام هوك بمراجعة معظم مؤلفات جون ديوي قبل طباعتها، فكل هؤلاء ساهموا بقسط كبير في وصول معالم فلسفة ديوي التربوية.⁴

إن هذه التصورات التي رسمها ديوي للتربية هي محصلة التكامل بين توجهه البرغماتي، وبين ما استقرأه خلال رحلاته المتنوعة من الواقع التربوي الراهن في كل البلدان الغربية، وتبعاً لذلك بدأ تأثير فلسفته التربوية في الولايات المتحدة

1- سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، ص131.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- وليام كلباتريك : فيسلف أمريكي مشهور، متخصص بفلسفة التعليم والتربية ، وكان زميلاً وخلفاً لجون ديوي، كان شخصية رئيسية مهمة في حركة التعليم التقدمي في أوائل القرن العشرين، ابتكر " طريقة المشروع " التعليمية الخاصة بمرحلة الطفولة المبكرة، وهي شكلاً من أشكال التعليم التقدمي المشتمل على منهج منظم وأنشطة صفية تدور حول فكرة أساسية لموضوع ما، يعتقد بأن دور المعلم ينبغي أن يكون كدور "المرشد" كنقيض للشخصية السلطوية ، من مواليد 1871- 1965م.

4- أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي، ص92.

الأمريكية، ثم انتشرت آراؤه بعد ذلك في معظم أنحاء العالم الغربي بحكم نتائجها
المجدية، والنافعة في أمريكا، ويلخص لنا "وليام كلبا تريك" ذلك الأثر في صياغة
الوعي الثقافي المعاصر على التربية الأمريكية في أمور ثلاثة وهي¹:

* عرفت المدارس الأمريكية تغيراً جذرياً في صفوفها، وهياكلها، ومناهجها إذ
أصبح الاهتمام بالطفل، وجعل حياته المدرسية قريبة من حياته الاجتماعية
والفضل في ذلك يرجع إلى جون ديوي الذي جلب الاهتمام بالتربية العملية من
خلال التلميذ في حياته الخاصة.

* جعل المدرسة وسيلة اجتماعية بعدما كانت معزولة على الواقع الاجتماعي ونشر
مبادئ الديمقراطية فيها حيث استطاع بمساهمته هذه أن يتزعم الفلسفة التربوية
الأمريكية لأكثر من أربعين سنة على حد تعبير الناقد المشهور والأستاذ وليام
باجلي William Bagley²، وساهم في التخلص من تراث الماضي الغامض وإبراز
القيم، والمبادئ الإنسانية، وتطبيق المناهج العلمية على التربية.³

* وامتد تأثير فلسفة ديوي التربوية إلى خارج الولايات المتحدة بحكم الرحلات
المستمرة لـ ديوي للكثير من أقطار دول العالم الغربي، وكذا رغبة العديد من الدول
العالم بلوغ التقدم الذي شهدته أمريكا في الميدان التربوي بفضل المعالم التي
وضعها ديوي، وتأثيره لا يقل عن تأثير بعض الفلسفات التربوية التي أشاد بدورها
جون ديوي، وعرفت أوروبا فكان لها أثر كبير على أساليب التربية الأمريكية
والأوروبية.⁴

¹ - William H. Kilpatrick : **Dewey's Influence on Education**, in P. A. Schilpp , The
Philosophie of John Dewey, vol. XXVII, n° 3, septembre 1997 P 472.

²- Ibid , P471.

³- أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي، ص 65.

⁴- نازلي صالح وعبد الغني عبود : **في التربية المقارنة**، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 1974م
ص 200.

المكسيك:

تم الإعتماد على تعليم الحروف في الكثير من مدارسها لتنمية مهارات الأطفال ودمجت المدارس في حياة الريف، كما شهدت روسيا ثورة تربوية مستفيدة مما قدمه ديوي الذي لقي مكانة مرموقة، وفعالة هناك نظرا لقوة أفكاره التربوية التي تمثل ثورة حقيقية في عالم التربية، وهو ما اتسم به التعليم في المجتمع الشيوعي حيث وجدت البلاد الشيوعية في نظام التعليم السوفياتي نموذجا عمليا وفي هذا يقول فلاديمير لينين Vladimir Lénine¹: "إن من واجبنا في ميدان التربية هو أن نكافح أيضا للقضاء على البرجوازية، ونحن نعلن بصراحة أن القول بوجود المدرسة خارج دائرة الحياة، وخارج دائرة السياسة هو عين الكذب والرياء."² وهذا ماجعل جعل ديوي يعجب باهتمام الشيوعية بالتربية وأشاد بالثورة البلشفية التي تفوقت على غيرها في نظرتها إلى التعليم³، حيث اعتنوا بأساليب التعلم والتربية لتنمية العقول لأن التربية هي الوسيلة الفعالة في تنشئة المجتمع وفق أي توجه يتم تدبره.⁴ نلاحظ هنا مدى تأثير الفكر البرغماتي التربوي على النظام الثقافي والتعليمي في المكسيك وذلك من خلال الإعتماد على سياسة التجريب في المناهج وطرق التدريس، والتنظيم التعليمي العملي، وغيرها لبلوغ أفضل التطبيقات التربوية التعليمية المعاصرة.

أوروبا:

1- فلاديمير لينين: ثوري روسي ماركسي، وقائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعا شعاره "الأرض، والخبز، والسلام"، من مواليد 1870-1924م.

2- نازلي صالح وعبد الغني عبود : في التربية المقارنة، ص200.

3- لم تكن تلك الإشادة للثورة البلشفية من حيث توجهها الإيديولوجي كما يعتقد ويظن أولئك الذين اتهموا جون ديوي بالشيوعية، بل كانت تتعلق باهتمامها بالتربية والتعليم لتحويل اهتمامها السياسي كواقع حي معاش وذلك ما تحقق وتجسد فعلا، وأدى إلى انتشار الشيوعية.

4 - نازلي صالح وعبد الغني عبود: في التربية المقارنة، ص221.

لم تكن نظريات **جون ديوي** في التربية بمعزل عن تلك التطورات التي عرفتھا أوروبا، إذ شهدت هي الأخرى نهضة تربوية قادھا بعض أعلامھا، ولهذا عندما كانت أفكار ديوي تقود الحركة التقدمية التربوية في الولايات المتحدة الأمريكية كان الأمر نفسه في أوروبا يسير نحو تطوير نظريات جديدة تثري التعليم في أوروبا وغيرها من أنحاء العالم، وكانت **ماريا منتسوري** Maria Montessori¹ على رأس قائمة رواد الفكر التربوي في ميدان تربية الطفل نظريا وعمليا فالسيدة منتسوري تمثل شخصية قوية تمتاز بسعة الفكر، والثقافة مطلعة على أفكار روسو ومتأثرة بها حيث ناصرت فكرة تربية الطفل وفق ميوله.² يتبين لنا هنا أن نظريات جون ديوي البرغماتية التربوية كان لها صدى واسع وعميق وخاصة في أوروبا من خلال النظريات التربوية الجديدة التي أثري بها التعليم في مختلف أنحاء العالم.

السويد:

إن البناء التربوي السويدي الذي بُني على أساس نظريات **جون ديوي** وأفكار **ماريا مونتسوري** قد خلق، وبنجاح مجمل نظام التعليم في المدارس مع الأخذ بنظر الاعتبار ما أضافه التربويون السويديون ومحاولاتهم في تكييف هذه الأفكار والنظريات بحيث تتلائم مع مستوى التطور والتعليم في المجتمع السويدي.³

لقد كانت السويد، ولا زالت انتقائية في اختيار الأفكار، والنظريات في مجال التربية والتعليم المدرسي، وبما أنها لها علاقة مغللة في القدم مع الألمان جيرانهم فلذا سمع

1- ماريا منتسوري : ولدت ماريا مونتيسوري في بلدة كيارافالي بمقاطعة أنكونا وسط إيطاليا عام 1870 م وبعد معاناة مبكرة أصبحت أول امرأة في إيطاليا تتأهل كطبيبة، وكان أول أعمالها المهمة والأساسية مع الأطفال المعاقين عقليا وذهنيا ثم درست أعمال الطبيب جان إيتارد، وإدوارد سيجوان اللذان اشتهرا بأعمالهما عن الأطفال المعاقين ذهنيا، ومن أهم الأعمال التي تأثرت بها كثيرا كانت أعمال جان جاك روسو، ويوهان هابنرثش بستولتزي، وفريدريك فروبل، من مواليد 1870-1952 م .

2- طارق حرب : سلسلة مواضيع عن التربية فلسفة جون ديوي، وتأثيرها على نظام التربية في السويد الحوار المتمدن العدد 1520، سنة 2006م.

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=61348>.

3 - المرجع نفسه.

التربويون السويديون ب جون ديوي أول مرة عن طريقهم، ونشرت المقالة الأولى له مُترجمة عن اللغة الألمانية عام 1902م، وكانت بعنوان "الرغبة والأرادة المُجهدّة" وقد نُشرت في الجريدة التقديمية المسماة المدرسة، وكان المحرر هو تربوي سويدي يدعى آرثر بندكسون في ذلك الوقت كانوا يسمونه skolman أي موظف مدرسي وليس pedagog أي تربوي انتقل آرثر من ستوكهولم إلى يوتيبيوري لكي يشرف على أول مدرسة تعليمية مختلطة "طلاب، طالبات" في السويد.¹

تبعاً لذلك الأثر الفعال، والمرموق الذي تركته أراء ديوي في العالم أدى إلى ارتقائه إلى العديد من مراتب الشرف بلغت إحدى عشرة مرتبة علمية من درجات الدكتوراه الشرفية في الجامعات الأمريكية، وخارجها كجامعة باريس وبكين وأوسلو وغيرها حيث منحته هذه الأخيرة درجة الدكتوراه الشرفية في الفلسفة سنة 1946م، كما منحته من قبل جامعة باريس الدرجة العلمية سنة 1930م بملاحظة تضمنت كلمات تشير أنه خير من يمثل الينبوع الأمريكي المعاصر وخير من يعبر عن هذا الينبوع تعبيراً عميقاً.²

هذا التشريف جعل الكثير من رجال التربية يهتمون بما أسهم به ديوي من أفكار وآراء تربوية، فاتجهوا إلى ترجمة مؤلفاته التي لقيت رواجاً منقطع النظير وفي مقدمتها كتابه "الديمقراطية والتربية"، والذي وصفه أحد مؤرخي التربية في أمريكا إيرنست كارول مور إنه يمكن أن يحل محل كتاب "الجمهورية" الذي ألفه أفلاطون حتى وإن بدت هذه الإشادة فيها متطرفة نوعاً ما في التقييم، إلا أن هذا لا يمنع من تقدير هذا المؤلف العظيم في الميدان التربوي بدليل أنه ترجم إلى لغات عديدة ومختلفة منها، اليابانية، التركية، الألمانية، والكرواتية، والروسية والإسبانية

1- طارق حرب : سلسلة مواضيع عن التربية فلسفة جون ديوي، وتأثيرها على نظام التربية في السويد الحوار المتمدن، العدد 1520، سنة 2006م

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=61348>

2- جون ديوي وإيفلين ديوي: مدارس المستقبل، مقدمة وليام و. بريكمان، ص32.

والإيطالية، والصينية، والكورية، وكذا العربية.¹ نلاحظ هنا أن فلسفة جون ديوي التربوية التعليمية كان لها صدى بعيد المدى على الدول الأجنبية.

فهذا دليل على الأثر البالغ، والعميق الذي تركته الفلسفة البرجماتية العملية في العالم بشرقه، وغربه في صياغة الوعي الثقافي المعاصر بما فيها العالم العربي الذي لم تكن ميادينه التربوية بعيدة عن تأثير فلسفة ديوي التربوية التعليمية وانتسائل الآن: ما هي آثار الفلسفة البرغماتية على العالم العربي؟.

لا يمكن أن يغفل أحد منا عن الأثر الكبير الذي تركته على التربية العربية نظريا وتطبيقا، وذلك من خلال من عدد من رواد الأوائل في مصر مثلا اسماعيل القباني ومحمد فؤاد جلال وغيرهما، فقد إطلع القباني على تجارب البرغماتيين التربوية وأعجب واقتنع بها فبذل جهودا ضخمة، وجبارة للسير على منوالها في مصر، وحث تلاميذه على ترجمة بعض الكتب الذي كتبها البرغماتيون حتى أصبح صوت هؤلاء يعلو على غيره من الأصوات في ساحة التربية التعليمية في مصر ومنها إنتقل التأثير إلى مختلف البلاد العربية.²

والدارس لإنتاج الفكري التربوي المصري منذ ذلك الوقت يستطيع أن يلمس ذلك بوضوح فلم يحظ فيلسوف على سبيل المثال بترجمة عدد كبير من كتبه إلى اللغة العربية مثلما حظي جون ديوي، ولم يكن رجال التربية وحدهم في ذلك بل شاركه كذلك عدد من أساتذة الفلسفة في الجامعات المصرية، ولعبت مؤسسة أمريكية في النشر كانت تدعى "فرنكلين" دورا ضخما في تيسير سبل نشر الفكر الأمريكي البرغماتي في صورة طوفان ملحوظ استمر خلال تلك السنوات التي كان المد الاشتراكي فيها قد بدأ يتضح في الساحة المصرية في أوائل الستينيات، وحيث كانت العلاقات بين مصر والولايات المتحدة تشهد أسوء عهودها.³ وهذا مانلتمسه حقا في

1- جون ديوي وإيفلين ديوي: مدارس المستقبل، مقدمة وليام و. بريكمان، ص39.

2- سعيد إسماعيل على: فلسفات تربوية معاصرة، ص109، 110.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المجتمع المصري العربي من خلال حضور الفكر البرغماتي التربوي في المداس المصرية، وهذا بدوره ساهم في صياغة الوعي الثقافي المعاصر.

ولم تكن بقية الأقطار العربية بعيدة عن المد البرغماتي في التربية بحكم الترابط الوثيق بين هذه البلدان عن طريق الإتفاقيات، والمعاهدات إذ كانت العراق التي تعد مهد الحضارات التي عرفها الإنسان، وأسهم فيها بدور مرموق قبلة لأفكار جون ديوي التربوية، وحاولت الإستفادة منها في مجال التربية، فالذين درسوا في أمريكا حملوا معهم أفكار، وأعمال جون ديوي إلى العراق.¹

العراق:

تبدو الرغبة الكبيرة لرجال التربية في العراق منذ مطلع القرن العشرين في بلوغ ما بلغته التربية التقدمية من خلال الإتجاهات الرئيسية للسياسة التربية التي تم رسم أهدافها للتصدي للمشكلات التي تواجه النظام التربوي التعليمي العراقي وفق أسس علمية تطويرية تتناسب، والتقدم الذي عرفته المناهج التربوية، وتتمثل هذه الأهداف وفق تلك السياسة في إتاحة فرص التعليم للجميع، وتحسين نوعيته وفق متطلبات التنمية المستدامة، وتعزيز التسامح، وحرية التفكير، بالإضافة إلى التكوين وتأهيل المربين وتعزيز البعد التكنولوجي للتربية من خلال تطوير أداء المربين باستخدام المهارات التقنية الجديدة، والمعاصرة للإستفادة من التقنيات الحديثة في جميع التخصصات.²

وهذا الوعي الثقافي التربوي يظهر بصورة جلية التأثير بمعالم التربية البرغماتية، وما تضمنته فلسفة ديوي التربوية من خلال التركيز على مبادئ التربية الديمقراطية والسعي إلى تقريب المدرسة من المجتمع، وجعل الأنشطة الدراسية تعالج قضايا الحياة اليومية المعاصرة.

1- البار عبد الحفيظ : امتدادات فلسفة التربية البرغماتية " في العالم العربي من خلال الفيلسوف المربي " جون ديوي"، بتاريخ 26-06-2012م. <http://www.aswat-elchamal.com>.

2- المرجع نفسه.

سوريا:

انتشرت أفكار المربي المصري إسماعيل القباني 1898-1963م، وغيره من المجددين في التربية المصرية بسرعة بحكم الموثيق، وكذا الوحدة التي تمت بين مصر، وسوريا عام 1958م ومعها توحدت النظم التربوية، وكذا المناهج والمواد الدراسية، وعن طريقها امتدت التربية التقدمية نظرا للدور الذي لعبه "القباني" في تجسيد معالمها في مصر كما حدث توحيد المناهج، والخطط التربوية بين جمهورية مصر العربية، والجمهورية العربية الليبية، وحددت الأسس النفسية، والتربوية والاجتماعية من أجل أن تساعد المناهج الدراسية في كل مرحلة تعليمية على تنمية المتعلمين تنمية كاملة في كل الجوانب، وأن تتسم بالمرونة، والليونة التي تسمح لكل تلميذ اختيار أنواع النشاط التي يمارسها في حياته المدرسية.¹ هذه الأسس التي بني عليها التعليم في ليبيا تقترب كثيرا من المناهج التربوية البرغماتية الجديدة.

رسخ **جون ديوي** معالم هذه النظرية، ودفع بها إلى عالم الشهرة، والعالمية حتى أصبحت من أكثر المدارس الفلسفية البرغماتية العلمية في العالم الغربي، والعربي وقام العديد من المفكرين والباحثين المحدثين، والمعاصرين ببذل جهود علمية وعملية كبيرة لنشر نظرية جون ديوي التربوية في سائر أرجاء الوطن العربي وفي غيره.

أما في الأردن:

أظهرت نتائج العديد من الدراسات أن نسبة عالية من المعلمين، ومديري المدارس في العديد من البلدان العربية متأثرون بالفلسفة البرغماتية، ومتبنون لمبادئها وأفكارها، فلو أخذنا الأردن نموذجا نجد أن البرغماتية أثرت على الفلسفة التربوية لمديري المدارس والمعلمين، فعلى سبيل المثال بينت نتائج دراسة العمري، أن النظرية التقدمية، التي تركز كثيرا على البرغماتية هي السائدة لدى مديري ومديرات المدارس الأردنية الذين يحملون فلسفة تربوية واضحة المعالم والمعايير

1- نازلي صالح وعبد الغني عبود : في التربية المقارنة، ص363.

وأن التقدمية أثرت على نظرات المديرين، والمديرات المتعلقة بجوهر التربية، ولم تختلف نتائج الدراسة السابقة عن نتائج دراسة أخرى لنفس الباحث والتي أوضحت أن الغالبية العظمى من عينة المعلمين الأردنيين الذين أجريت عليهم الدراسة، وممن لديهم فلسفة تربوية واضحة يؤمنون بالتقدمية، والتغير حيث أشارت 44.4% إلى أن من أفراد عينة معلمي المرحلة الثانوية في الأردن الذين أجريت عليهم الدراسة يتبنون الفلسفة التربوية البرغماتية.¹

يمكننا القول أن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر كانت واسعة النطاق على الفكر التربوي، وتطبيقاته في الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها، وفي الوطن العربي تأثر عدد كبير من المربين، والمفكرين، والباحثين المحدثين منذ مطلع القرن العشرين بالأفكار البرغماتية العملية، وكان تأثيرها كبيرا على العديد من النظم التعليمية العربية، ولذلك فإن المستقرى للتطور التربوي العربي ابتداء من الربع الثاني من القرن العشرين لا يمكن أن يغفل عن ذلك الأثر الكبير، والمهم الذي تركته البرغماتية على التربية العربية فكرا، وممارسة مما جعل أحد التربويين العرب يعتبر البرغماتية أكثر فلسفات التربية انتشارا وتأثيرا في الوطن العربي في الوقت الحاضر.²

أما على صعيد الواقع لا يمكن التغافل عن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصرا باعتبارها هي التي تقف وراء التحولات، والتغيرات الكتابية في اللغات بوجه عام، واللغة العربية بوجه خاص، وعليه فإن ثمة قوانين برغماتية علمية عملية تتحكم في مثل هذه التحولات من مثل: قانون السياق، وقانون البساطة والجهد الأقل والسؤال المطروح هنا هل الفلسفة البرغماتية كان لها إنعكاسات فعالة وملحوظة

1- يزيد عيسى السورطي : تأثير الفلسفة البراجماتية على التربية العربية : ونتائجه أسبابه، ومصادره دراسات العلوم التربوية الزرقاء، الأردن، العدد 35 ، سنة 2008 م، ص 595.

2 - المرجع نفسه، ص 594، 595.

على التعديلات التي يجريها أبناء اللغة المعينة على كتاباتهم، ودراساتهم في صياغة الوعي الثقافي المعاصر؟.

يعد إبتكار الكتابة منجزا بشريا حقيقيا ينطوي على الكثير من التحولات، والتغيرات فقد أسهم الإبتكار في الرقي الإنساني عامة، وكان له أثر كبير في التاريخ اللغوي خاصة، فجاء الخط العربي الجنوبي المسند، وهو الممثل للمرحلة السابقة للكتابة الشمالية، خاليا من أي إشارة للحركات طويلة وقصيرة، وجاءت الكتابة العربية الشمالية خالية هي الأخرى من الإشارة للحركات مع التنبيه هنا إلى أن هذه الكتابة الشمالية هي التي ذاعت وانتشرت بين العرب، ومن ثم فإنه من المهم جدا الوقوف على إنعكاسات الفلسفة البرغماتية التي دفعت الكتابة العربية نحو حالات متعددة من التطور، ولعل أبرز الإنعكاسات¹:

قانون السهولة أو قانون الجهد الأقل: بما هو قانون برغماتي يمثل المنحى الاقتصادي في اللغة، إن قانون السهولة والتيسير، مظهر من مظاهر البرغماتية اللغوية، إذ نجد أنه يهدف إلى تحقيق حد أعلى من الأثر بحد أدنى من الجهد فاللغة سلوك بشري، والبشر ميالون بطبعهم إلى الاقتصاد في الجهد والوقت ما أمكنهم ذلك ومن تطبيقات ذلك في الأصوات تسهيل الهمزة، أو إلغائها من وسط الكلمة.²

قانون البساطة والوضوح: وهو ما ينبغي لنا أن نربطه بالعلاقة بين العلامات وما تشير إليه من مورفيمات ومقاطع وفونيمات، والعلاقة المزدوجة كذلك بين الحرف والفونيم مع الإشارة هنا إلى أن الحرف إذا ما أشار إلى فونيمات عدة، أو أن الفونيم

1- محمد أحمد أبو عيد : برجماتية الكتابة العربية، دراسة في اللسانيات الاقتصادية، جامعة البلقاء التطبيقية كلية إربد الجامعية، بتاريخ 2012-11-11م. <http://adabjournal.uofk.edu>

2- المرجع نفسه.

الواحد مثل بعدة من الحروف، فإن العلاقة تكون معقدة، وعليه فإن البساطة تتمثل في أن تكون علاقة الفونيم بالحرف هي علاقة واحد لواحد وبالعكس.¹

معنى هذا أن الهدف النهائي الذي تسعى إليه الفلسفة البرغماتية في مدار اللغة يتمثل في ترشيد الاستخدام للألفاظ، والعبارات، والكلمات بالدلالات الأكثر إختصاراً، والأقل جهداً، وكلفة في الكتابة، والطباعة، وانطلاقاً من رؤيتنا الفلسفية المحضة يمكننا أن نتساءل بعد كل هذا:

ماهي سلبيات انعكاس الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر؟.

إن سيطرة ثقافة ما على ثقافات أخرى هو خطر استراتيجي يهدد الهوية الثقافية وفي هذا الجانب لانغفل أن نسجل أن سيادة ثقافة ما على أخرى لا تكون حسب التفوق القيمي، والأخلاقي على غيرها، وإنما ترتبط بقابلية الثقافات الضعيفة على الذوبان وكذلك التبعية، والاندماج الذاتيين في الثقافة المسيطرة وفق شعار ابن خلدون: "المغلوب مولع بتقليد الغالب."² وهذا الوصف مصدره هذا الإنتشار السريع للثقافة البرغماتية المعاصرة الذي يهدد الهوية الثقافية، فنجد الناس في الغالب يقلدون دون معرفة نتائج هذه الأفعال، والتصرفات على حياتهم الشخصية، والذاتية مما يؤدي إلى ذوبان الهوية الثقافية في الموجات الجارفة بالتحويلات، والتطورات الثقافية والاقتصادية والعلمية، والبرغماتية، فهي تتهدد الخصوصيات، وترمي إلى تعميم أنموذج من السلوك، والقيم، والمفاهيم معين لا يمكن أن يشمل، ويتوافق مع جميع الناس، وبالتالي هي تزحف ببطء في الديار، والمؤسسات الاجتماعية.

ليس هناك أي غد مشرق أمام أمريكا المستبدة إن لم تتم عملية إخضاع العقول لهذه العملية فقد بدأت فعلاً بفضل العمل الدؤوب بالإفساد، وبإلغاء العادات الثقافية المميزة للشعوب إن سيطرة مشروب على الواقع، ويخرج اسمه آلياً من أفواه الأكثرية "كوكاكولا"

1- محمد أحمد أبو عيد : براجماتية الكتابة العربية، دراسة في اللسانيات الاقتصادية، جامعة البلقاء التطبيقية كلية إربد الجامعية، بتاريخ 2012-11-11م <http://adabjournal.uofk.edu>.

2- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، الطبعة السابعة، سنة 1989م، ص 147.

وانتشارنوع خاص من المطاعم التقليدية المحلية، والشعور المريح بالحلاقة مع **جيليت**، وبقص أعشاب الحديقة مع غابي، والسفر مع جنرال موتورز **General Motors**¹، وتهوية الأمعاء بأقراص كيلوغ كل هذا يساهم شيئاً فشيئاً بالثقافة الكاملة، ويهيئ الطريقة إلى أمركة التقاليد.² لاشك أن الفلسفة البرغماتية بهذه الصورة قد تخيف الكثيرين خاصة في ما يتعلق بالجانب الثقافي الاقتصادي حيث تشير أغلب الدراسات إلى أن هناك توقعات خطيرة تنتجها الفلسفة البرغماتية كزيادة البطالة، وضياع الشباب المراهقين في تناول المخدرات، وتدهور مستوى المعيشة وكثرة الأمراض، وتفاقم التفاوت في توزيع الثروة بين الأفراد، والتقليد الأعمى الذي يؤخذ صاحبه إلى الضياع، والتهلكة.

تهدف أيضاً الهجمة الأمريكية البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر كل مناطق الثقافة، ولذلك فقد تم شراء سلسلة الكتب البريطانية بوكس أتك في 28 كانون الأول 1997م بواسطة العملاق الأمريكي بوردرز **Borders** بانتظار منافسه في الولايات المتحدة برنرز، ونوبل لينقض بدوره على بريطانيا العظمى إن الحصول على بوكس أتك يمثل خطراً كبيراً فسيكون لبوردرز قدرة التحكم باثنين وعشرين مركزاً للبيع يوجد إحدى وعشرين منها في لندن وضواحيها وواحد في أديمبرغ، وهي تنوي نشرها في جميع أنحاء المملكة المتحدة، إن عدم استقرار السوق هو الذي سمح بخلق مثل هذا الوضع الذي يضاف للأوضاع الأخرى والذي من نتائجه فتح الأسواق الثقافية أمام المنتجات الأمريكية، والشركات الأمريكية المتخصصة، وخاصة في مجال المكتبات الكبرى.³ ركز إذن المستفيدون من البرغماتية الثقافية على ترويج الأيديولوجيات الفكرية الثقافية الأمريكية، وفرضها في الواقع من خلال الضغوط السياسية، والإعلامية، والاقتصادية والعسكرية أيضاً، وذلك في مجالات عدة كحقوق

1- هي شركة أميركية متعددة الجنسيات.

2- ميشيل بوغنون مورديانت : أمريكا المستبدة "الولايات المتحدة وسياسة السيطرة على العالم" العولمة ص 214 ، 215.

3- المرجع نفسه، ص 215.

الإنسان، وحرية الرأي، والمجال التجاري كعدم استقرار السوق وغيرها مستغلة في ذلك مظاهر وآليات التطور الحضاري المعاصر الذي يشهده العصر، فالهيمنة على عقول الأفراد بواسطة الكتب يشكل خطرا واضحا في جميع ربوع العالم.

ومن مخاطر آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر نجد أيضا أن الفلسفة البرغماتية يشاهدها الإنسان المعاصر، ويعيشها من خلال السياسة الأمريكية، والاقتصاد الأمريكي، ومعناها أن لا مجال للفكر التأملي، إن المجال الوحيد للحقيقة هو الحقيقة النفعية الملموسة، و لم تكتف أمريكا بغزوها لعالم التقاليد "العادات الغذائية، واللباس .. إلخ" بل حققت لنفسها تقدما حاسما على طريق الإحتكار الفكري فقد تبدلت جذريا التصرفات في مجال البحث العلمي والإجراءات في المواقف الذهنية المتعلقة بالمعرفة، وذلك منذ بروز العالم العلمي الأمريكي¹. وإذا كانت هذه هي الآثار السلبية للفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر فإن الجانب الآخر يجب ألا يغيب عن أي باحث، فلا شك أن للفلسفة البرغماتية آثارا إيجابية ونافعة في صياغة الوعي الثقافي المعاصر.

وهكذا يصل بنا الاستنتاج إلى أن الرغبات كانت لها مكانة رفيعة، ومرموقة في الفكر الإنساني فهي الفلسفة العملية الأكثر نفوذا في الولايات المتحدة الأمريكية فقد إرتبطت أشد الارتباط بالنشاط الفلسفي في ثوبه الأمريكي فكان تركيزها على ماهو عملي، وتجريبي مباشر واضح الفائدة في صياغة الوعي الثقافي المعاصر وإذا كانت الفلسفة البرغماتية أدت دورا مهما في المجال الثقافي المعاصر، فإنها أدت دورا بالغ الأهمية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصرومن هذا المنطلق نتساءل عن ماهي أهم انعكاسات الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر؟.

1- ميشيل بوغنون موردانت : أمريكا المستبدة "الولايات المتحدة وسياسة السيطرة على العالم" العولمة ص215.

آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر:

إن النظام الاقتصادي السائد في أمريكا هو الرأسمالية، وتعد أمريكا منذ زمن ليس بالقصير حصنا منيعا للرأسمالية العالمية، وقبل أن نخوض في الحديث عن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر لابد من الإشارة إلى أن الرأسمالية قامت في أوروبا في أعقاب الثورتين البورجوازييتين في القرنين السابع والتاسع عشر، وفي تعريفنا للرأسمالية نجد أنها نظام قانوني واجتماعي واقتصادي وثقافي يتبنى المساواة في الحقوق، وإتاحة فرص العمل أمام المواهب ويستحث الابتكار اللامركزي، وعمليات المحاولة، والخطأ ما أسماه المفكر الاقتصادي جوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter¹ التدمير الإبداعي من خلال العمليات التطوعية للتبادل السوقي تحتفي الثقافة الرأسمالية برائد الأعمال، والعالم والمخاطر، ومع أن بعض الفلاسفة أبرزهم الماركسيون يسخرون من الرأسمالية بوصفها مذهبا ماديا مع أنهم أنفسهم من الموالين للمذهب المادي، فإن الرأسمالية في جوهرها مشروع روحي وثقافي أيضا، وكما ذكرت المؤرخة جويس أبلباي Joyce Appleby² في دراسة حديثة لها بعنوان "الثورة القاسية تاريخ الرأسمالية:" لما كانت الرأسمالية نظاما ثقافيا، وليست نظاما اقتصاديا وحسب يستحيل تفسيرها من خلال العوامل المادية وحدها.³

لقد عبرت البرغماتية عن مطامح الرأسمالية الأميركية المعاصرة ببحثها وراء أقصى الأرباح والرغبة العارمة في اقضاء المنافسين والهيمنة، والتفوق، والسيطرة على العالم القديم، وحررت البرغماتية نفسها من المدرسية والصوفية، لتتفرغ كليا للحصول على

1- جوزيف شومبيتر : عالم أمريكي معروف في الاقتصاد، والعلوم السياسية من أصل نمساوي، اشتهر بترويجه لنظرية الفوضى الخلاقة في الاقتصاد، من مواليد 1883-1950م.

2- جويس أبلباي : هي أكاديمية، ومؤرخة أمريكية، من مواليد 1929-2016م.

3- توم جي بالمر: أخلاقيات الرأسمالية : ما لن يخبرك به أساتذتك، ترجمة محمد فتحي خضر مراجعة محمد إبراهيم الجندي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2013م، ص7، 8.

الأرباح، وإيجاد ميادين جديدة لمشاريع الأعمال، والمنافع التنافسية تحت ستار المبادئ الطنانة حول المعرفة، والحقيقة، والرفاه الاجتماعي.¹

يتبين لنا من خلال هذا الطرح أن الفلسفة البرغماتية الأكثر تعبيراً على جوهرها النفعي المربح لأنها الحركة التي يشهدها الاقتصاد في رأس المال، والعمالة وسعيها لجني الأرباح بشتى الوسائل وهذا مانراه واضحاً في ازدياد عدد الشركات الأمريكية وانتشار فروعها في العالم، وسعيها للسيطرة من خلال إنتاج السلع، وتسويقها بين مختلف المؤسسات لطالما تؤدي إلى نتائج نفعية، وعملية في مختلف أنحاء العالم.

وفي المقابل فالرأسمالية هي أيضاً تقوم على هاتين الركيزتين اللتين تقوم عليهما البرغماتية، فالعمل المنتج، والجهد العملي المبذول في النشاط الرأسمالي البرغماتي هو الأساس الأول في تكوين تلك الثروات الضخمة.²

أما الركيزة الثانية فهي فكرة النجاح العملي التي تقوم عليها الرأسمالية وهو عين هذا المفهوم في برغماتية جيمس، فلكي يتم تحقيق النجاح في النظام الرأسمالي فالأساس هو استخدام كافة الأساليب من أجل النجاح في تحقيق أكبر المكاسب بعيداً عن الوسائل الأخلاقية، وفي إطار التبشير بالمفاهيم البرغماتية وفلسفة النجاح الشخصية.³

وفي هذا الصدد نجد الفيلسوف الإنجليزي موريس كورتغورث **Maurice Curturg** قد عبر عن هذا الاتجاه الفلسفي الذي يربط البرغماتية بالرأسمالية وخدمتها، وبأمريكا بالذات فهو يقول: "لقد كانت ولا تزال لهذه المثالية البرغماتية العمل كفلسفة النجاح هذه استجابة قوية في الولايات المتحدة الأمريكية

1- سلام إبراهيم عطوف كبة : البرغماتية، والتدخلات الحكومية في العراق، بتاريخ 28-03-2009 م.
<http://www.gilgamish.org/printarticle.php?id=17342>

2- موريس كورتغورث : البرجماتية، والفلسفة العلمية، ترجمة إبراهيم كبة، مطبعة الرابطة، بغداد، سنة 1960م، ص140.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ولم تكن لها الاستجابة نفسها بالمرّة في أوروبا، لقد وجدها جميع الفلاسفة الأوروبيون من دون استثناء تقريبا، والحديث لموريس عسيرة الفهم وصعبة، غير مقنعة بشكل كافٍ مثال لذلك أن الفيلسوف والمفكر الإنجليزي برتراند رسل **Bertrand Russell 1872-1970**م في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية يجد أنها مثيرة على وجه التأكيد، وأنه يصف موقفها العام من الكون الحاد كوني وعالمي ويسمّيها فلسفة قوة، ومرتبطة بعصر الصناعة، وحتى أنه يقول عنها: "أنها تعبير عن التسمم بالقوة".¹ هذا الوصف للفلسفة البرغماتية يحمل في طياته الكثير من المعاني، ومن بينها أنها فلسفة لاتعرف الإنهزام، وإنما كل مبتغاها هو السعي لكسب أكبر قدر ممكن من الأرباح معتمدة في ذلك على آليات اقتصادية معاصرة وترتكز على مؤسسات مالية عالمية لتحقيق أهدافها.

ومن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر نجد أيضا أن المؤسسات الرأسمالية المتمثلة في القوي المالية، وشركاتها الكبرى في السلطة السياسية، وجدت وسيلة لتحقيق أهدافها، ومصالحها التجارية على حساب مصالح الأمم، ومن هنا تصاعدت النزعة الإستعمارية، وفتحت المفهوم الذرائعي الذي يعتمد على فرضية أساسية تعلق الأفكار بالنتائج العملية فقط فكانت الولايات المتحدة وطوال القرن العشرين ممثلة في سلطتها السياسية مكلفة بخدمة المصالح والمنافع الأمريكية التي حلت تدريجيا محل المؤسسات الاستعمارية والأوروبية القديمة ففتحت ذرائع حقوق الإنسان، والديمقراطية التي تقوم الإدارة السياسية للولايات المتحدة الأمريكية بتنفيذ الخطط العدوانية في أي مكان من العالم بغية

1- موريس كورنغورث : البرجماتية، والفلسفة العلمية، ترجمة إبراهيم كبة، مطبعة الرابطة، بغداد، سنة 1960م، ص140.

حماية مصالحها الاقتصادية.¹ نعتقد أن الفلسفة البرغماتية تمثل منهج اقتصادي نفعي رأسمالي، ويظهر ذلك واضحاً من خلال رغبتها في امتلاك القوة العالمية وبسط النفوذ، والسيطرة الاقتصادية الأمريكية، والدعوة إلى الحرية، فالبرغماتية تهتم بكل ماهو نفعي، ومربح، ولاسيما الجانب الاقتصادي فأصبحت بذلك لغة الأرباح هي السائدة في قاموس الشركات العالمية المعاصرة.

فأمريكا بإسم الحرية، والديمقراطية تقوم بفرض أقصى أنواع الحصار على الشعوب، وتشن الحروب، والجرائم، والتجربة الحية أمامنا وهي "شن الحرب على العراق"² بغرض إزالة النظام اللاديمقراطي حسبما تزعم أمريكا ذلك خير مثال على ذلك إن هذا التوجه يكشف أن الولايات المتحدة قد تحولت من إدارة مصالحها من الخارج إلى صيغة أكثر عملية ونجاحاً وهي صيغة الإستعمار فالشاهد في تلك التجربة يؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية حامية الحرية لا تطبق مبادئها على الشعوب المستعمرة، وإنما هي ليست إلا ذرائع وحجج حتى تستطيع شرعنة ما تقوم به من عدوان.³ يعني أن الفلسفة البرغماتية لا تتحرك إلا في الإطار النفعي

1- أم كلثوم يوسف إبراهيم أحمد : برامجياتية وليام جيمس دراسة تحليلية نقدية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الفلسفة، جامعة الخرطوم، سنة 2004م، ص142.

2- الغزو الأمريكي للعراق أو حرب الخليج الثالثة" أو احتلال العراق أو حرب تحرير العراق هذه بعض من أسماء كثيرة أستعملت لوصف العمليات العسكرية التي وقعت في العراق سنة 2003م، والتي أدت إلى احتلال العراق عسكرياً من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ومساعدة ومساندة دول أخرى مثل بريطانيا وأستراليا وبعض الدول المتحالفة مع أمريكا حسب تعريف مجلس الأمن لحالة العراق في قانونها المرقم 1483 في 2003م، وانتهت الحرب بسيطرة الولايات المتحدة على بغداد، ومن الأسماء الأخرى التي أطلقت على هذا الصراع هي "حرب العراق"، و"حرب الخليج الثالثة"، و"عملية تحرير العراق"، وأطلق المناهضون لهذه الحرب تسمية "حرب بوش" على هذا الصراع أو حرب احتلال العراق وبدأت عملية غزو العراق في 20 مارس 2003م، من قبل قوات الائتلاف بقياده الولايات المتحدة الأمريكية، وأطلقت عليه تسمية ائتلاف الراغبين، وكان هذا يختلف اختلافاً كبيراً عن الائتلاف الذي خاض حرب الخليج الثانية لأنه كان ائتلاًفاً صعب التشكيل، واعتمد على وجود جبهات داخلية في العراق متمثلة في الشيعة في جنوب العراق بز عامة رجال الدين، والأكراد في الشمال بز عامة جلال طالباني، ومسعود برزاني، وشكلت القوات العسكرية الأمريكية، والبريطانية نسبة 98 % من هذا التحالف. انظر لواء أركان حرب، عبد الحميد شرف : 14 قرناً من الصراع بين الشرق والغرب "رؤية جديدة"، سما للنشر والتوزيع مصر، الطبعة الأولى، سنة 2015م ص195، 196.

3- أم كلثوم يوسف إبراهيم أحمد : برامجياتية وليام جيمس دراسة تحليلية نقدية، ص142.

الإستعماري وهي صفة تدفع الفرد للتحكم بالأسواق تحقيقاً لمصالحهم الذاتية الخاصة دون تقدير لحاجة المجتمع، أو احترام للمصلحة العامة فصيغة القوة، والإستعماري الصيغة الأكثر نجاحاً.

وفي هذا الصدد يقول المؤلف، والخبير الاستراتيجي الأمريكي صموئيل هينجتون¹: "لسنا في حاجة إلى قوة لخدمة الأهداف الأمريكية، بل نحن بالأحرى في حاجة إلى العثور على مبررات لإستخدام القوة الأمريكية للقيام بدورها في قيادة العالم، ويقول مواصلاً: "أن الاستعمار هو النتيجة المنطقية الضرورية للعالمية."² معنى هذا أن الاستعمار هو ثمرة تفوق الغرب، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

ويقول أيضاً المؤرخ السياسي الفرنسي توكفيل Alexis de Tocqueville 1805 - 1859م في الأمر الملاحظ على الفلسفة التي أتت إلى الأرض الجديدة: "إن الفلسفة لم تؤخذ بأيّ قرن من قرون عالمنا المتحضر بصورة جدية بقدر ما أخذت بها في الولايات المتحدة الأمريكية وربما يعود هذا إلى أنّ الفلسفة قد بدت على درجة كبيرة من الغموض وبصورة بعيدة للغاية عن اهتمامات دولة ناشئة قوية."³ وهذه إشارة واضحة إلى نبذ الفلسفة المثالية، والإلتفات إلى الفلسفة العملية البرغماتية وهذا الفكر البرغماتي تبلور في هذه القارة عبر مراحل إدت إلى صياغة جديدة هيمنت على الفكر الأمريكي السياسي والاقتصادي، والفكري، فأصبحت أمريكا متشعبة بهذه الثقافة النفعية على المستوى الداخلي، وعلى المستوى الخارجي بحيث إنها استثمرت

1- صموئيل هينجتون : عالماً سياسياً أميركياً، بروفيسور في جامعة هارفارد لـ 58 عاماً، ومفكر محافظ عمل في عدة، ومختلف مجالات فرعية منبثقة من العلوم السياسية والأعمال، تصفه جامعة هارفارد بمعلم جيل من العلماء في مجالات متباينة على نطاق واسع، وأحد أكثر علماء السياسة تأثيراً في النصف الثاني من القرن العشرين من مواليد 1927- 2008م.

2- صامويل هينجتون : صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشائب، تقديم صلاح قنصوه، سطور، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1999م، ص502.

3- محمد مهران، محمد مدين: مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2004م، ص41.

هذه الفلسفة في مواقفها الاستراتيجية لا سيما في العلاقات الخارجية وفق المعيار القائم على المصلحة، والمنفعة، وللتأكيد على أن أمريكا هي الحاضنة لهذه النظرية الفلسفية فإنه ينظر إلى تطبيقاتها العملية التي تتجلى للناظرين لاسيما في حراكها السياسي، والاقتصادي في أنحاء المعمورة فكل عمل تزاوله هذه الدولة مع غيرها من الدول الأخرى، وبالذات مع دول الشرق الأوسط، فإنه عمل برغماتي نفعي بحت.¹

ومن تلكم الأمثلة التي لا حصر لها في الدلالة على هذا النهج الأمريكي البرغماتي تشويهه **الدب الروسي** من خلال السماح له بقتل الشعب السوري على مرأى ومسمع من الناس بحيث تظهر وحشية الروس للعالمين، وهذه نفعية في اتجاهين متعاكسين لا مبرر لها إلا أنها تعار بالمعيار البرغماتي الذي يصب في المصلحة الأمريكية بكل أبعادها، ومن طغيان الفكرة البرغماتية على هذه الدولة أنها ليست متفردة بالذرائعية هاته فحسب، بل أصبحت دول العالم تنهج هذا النهج على درجات متفاوتة.²

أجرت **شبكة بلومبرج** استطلاع للرأي لأربعة محللين أوضحوا فيه أن صادرات النفط الأمريكية من المتوقع أن تفوق إنتاج أربعة دول من الأوبك خلال 2017م، وقد يشهد الإنتاج مزيد من الإرتفاع في حالة تعهد الرئيس الأمريكي "ترامب" بخفض القيود على منصات الحفر، وزيادة الإنتاج، ومن المتوقع أن تقوم الولايات المتحدة ببيع 800,000 برميل يوميا خلال هذا العام.³

ويعتبر هذا الرقم أكثر من ما قامت ليبيا، وقطر، والأكوادور، والجابون بإنتاجه في ديسمبر وفي سياق متصل أوضح التقرير بشكل واضح أن إنتاج النفط الأمريكي سيرتد ليصل لأكثر من 9 مليون برميل يوميا في 2017 م بعدما تراجع بنسبة 5.6% بما

1- جمعان بن محمد الشهري : البرغماتية الأمريكية، وتطبيقاتها السياسية، بتاريخ 9-22-2016م
<http://www.nama-center.com/ActivitieDatials.aspx?id=30707>

2- المرجع نفسه.

3- ريهام منعم : الولايات المتحدة تعترم زيادة إنتاجها النفطي بشكل قوي، بتاريخ 02-02-2017م.

<https://souqelmal.com>

يقدر بواقع 8.87 مليون برميل يوميًا في 2016 م، وذلك حسبما ورد عن إدارة معلومات الطاقة.¹

وهكذا يصل بنا الاستنتاج هنا إلى أن رؤية الفلسفة البرغماتية للفكر الاقتصادي المعاصر تقوم على أساس التجارب من أجل المعرفة حول ما إذا كان الموضوع الاقتصادي يعمل كما هو مرجو ومتوقع له، فالنظام الرأسمالي الاقتصادي يسعى نحو إدخال تغييرات جديدة عليه فيستغل الوضع المناسب، والشكل الملائم حتى يصل إلى المطلوب، والغاية المرجوة، وهنا تحقق آثار الفلسفة البرغماتية الأمريكية في صياغة الوعي الاقتصادي من خلال هيمنتها على واقع الاقتصاد العالمي الذي يركز على الفرد في الحياة الاقتصادية، فالفرد وهو يمارس نشاطه الاقتصادي الحر يخضع لدافع المصلحة الذاتية، العملية، النفعية والتي بفضلها تتطور حركة النشاط الاقتصادي، إذ أن الليبرالية، والرأسمالية، والعولمة جميعها صارت ملامح تحدد هوية أمريكا صاحبة المواقف البرغماتية، والقرارات السياسية والاقتصادية، تحت ظل الهيمنة الأمريكية، والحرية الفردية، والأمركة، والسعي بالرغبة القوية في جني الأرباح، وتحقيق النجاح الاقتصادي البرغماتي العالمي وتكوين الثروة الضخمة.

وهكذا يمكن القول بأن النظام الرأسمالي نظام اقتصادي برغماتي يستند إلى الحرية و الفردية، فالفرد هو المحور الرئيسي، والأساسي لفكرة الرأسمالية، إذ الحرية لا ترتبط إلا بالملكية الفردية للأموال، و الوسائل الإنتاجية، والاستهلاكية، والتنافسية فالتوسع الرأسمالي البرغماتي يؤول بالضرورة إلى توفير الأموال والثروات وتطوير حركة السوق العالمية، وبالتالي تحسين ظروف المعيشة المالية للمواطنين إلا أن هذا لا يعني أن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر لا تخلو من سلبيات.

1- ريهام منعم : الولايات المتحدة تعتزم زيادة إنتاجها النفطي بشكل قوي، بتاريخ 02-02-2017م.

تعقيب:

فمن السلبيات، والمخاطر على مستوى النظام الرأسمالي البرغماتي نجد حدوث قفزة حضارية مذهلة في أمريكا في ظل النظام الرأسمالي، وذلك بفضل رقيه التكنولوجي، إذ أن التكنولوجيا قد تقدمت بقفزات مذهلة في أمريكا ولكن هل هذا كل شيء؟ والجواب على هذا السؤال لا، وذلك بإعتبار أن الرأسمالية نظام اقتصادي قائم على فلسفة النجاح الشخصية، وعلى المنافسة، ودحر المتنافسين فكانت نتائج كارثية وخيمة ليس على أمريكا وحدها بل وعلى كل البشرية¹.

فأولاً: في ظل الرأسمالية تتلف الآلاف الأطنان من الأغذية المختلفة أو في البحار في حين يوجد ملايين من الناس، يتعرضون لشتى أنواع الأمراض ويموتون جوعاً، وهذا يحدث في القرن العشرين ومطلع الحادي والعشرين وبهدف الحفاظ على الأسعار، وبالتالي على الأرباح.

ثانياً: وجود الآف من الأفكار، والمخترعات العلمية التي يمكن بعد نقلها إلى حيز التنفيذ تقدم خدمات كبرى للبشرية، ووجودها في صناديق مقفلة تموت من خلال حبسها الآلاف من الأفكار النيرة التي ابتدعتها عقول الإنسانية، ومنع الاستفادة منها لأسباب اقتصادية تتعلق بمصالح الاحتكارات الرأسمالية وأرباحها أيضاً². معنى هذا أن المشاكل التي تسببت فيها الرأسمالية البرغماتية أدت إلى الكثير من المشاكل، وهذا لأنها تعتمد بالدرجة الأولى على الحروب، والقتل وسعيها بشتى الطرق لتعظيم ربحها الاقتصادي المادي البحت، فنجد مئات الملايين من المواطنين يفترقون إلى أدنى متطلبات الحياة مما يتركهم فريسة للأمراض الخطيرة ويزهق أرواح

1- هانس بيترمارتين، وهارالد شومان: فخ العولمة الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة عدنان عباس الوطن للثقافة والأداب والنشر، الكويت، سنة 1998م، ص 64، 69.

2- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

الملايين منهم فالجريمة، وتجارة المخدرات، والفقر، والحرمان، وعدم الدراسة، والعنف الأسري عوائق ليس من السهل التغلب عليها.

لكن علينا أن نكون واضحين أيضاً بأن الأزمة الاقتصادية سمة من سمات النظام الرأسمالي الأمريكي، وأن كان أنصار الرأسمالية الحرة لايعترفون بوجود مثل هذه الأزمات في النظام الرأسمالي إلا أنهم يؤكدون قوى السوق قادرة على تصحيح الاختلالات التي تحدث بين الحين، والأخرانطلاقاً من مبدأ اليد الخفية، ولذلك طالب أنصارالرأسمالية الحرة بلا قيود بإبعاد الدولة عن التدخل في الشؤون الاقتصادية، والعمل وفق مبدأ دعه يعمل دعه يدمر، ولكن حقائق أزمة الكساد الكبير وأزمة بداية القرن الحادي والعشرين قد أثبتت خطأ هذه الرؤية فالأسواق باتت عاجزة عن تصحيح تلك الاختلافات على الصعيد الاقتصادي، وإن كان الإحتكارهو نسبي حسب حصص مجموعات المصالح المحلية الأخرى في العالم إلا أنه قائم تماماً منذ زمن من وجهة النظر الإيديولوجية الاقتصادية.¹

ويضيف الدكتور توفيق الطويل في تقييم هذه الفلسفة: "ويكفي أن نعتبر البرجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة في الأسواق، قيمتها لا تقوم في ذاتها بل في الثمن الذي يدفع فيها فعلاً، فالحق فيمايقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها، ولم يجد أصحاب البرجماتية غضاضة في النظر إلى الحق أو الخير كما ينظرون إلى السلعة التي تطرح في الأسواق، هذه هي العقلية الأمريكية في الفلسفة، وفي الأخلاق، وفي السياسة، وفي كل مجال".²

ومن الواضح عجز هذا المذهب عند كل فلاسفته عن استيعاب علاقات وروابط إنسانية رحيمة أبعد ما تكون عن تحقيق منفعة، أوالبحث عن تحقيق رغبات شخصية

1- ميشيل بوغنون موردانت : أمريكا المستبدة، وسياسة السيطرة على العالم، ص213.

2- مصطفى حلمي: الأخلاق في الفلسفة العملية "البرجماتية"، ونقدها، بتاريخ 15-09-2012م.

<http://www.alukah.net/sharia/0/44253/1>

وأهداف مادية بحتة بل على النقيض تنبعث من حب التضحية والفداء بالوقت والنفس،
والمال.

وفي نفس السياق نذكر أيضا:

- السيطرة على رؤوس المال العربية، واستثماراتها في الغرب، فالعالم العربي الذي تتفاقم ديونه بمقدار (50) ألف دولار في الدقيقة الواحدة هو نفسه الذي تبلغ حجم استثماراته في أوروبا وحدها (465) مليار دولار عام 1995م، بعد أن كانت (670) ملياراً عام 1986م، فنتيجة عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والتبعية النفسية للغرب؛ تصب هذه الأموال هناك لتدار حسب المنظومة الغربية¹.
- الهيمنة الأمريكية البرغماتية على اقتصاديات العالم من خلال القضاء على سلطة، وقوة الدولة الوطنية في المجال الاقتصادي بحيث تصبح الدولة تحت رحمة صندوق النقد الدولي، حين تستجدي منه المعونة، والمساعدة عبر بوابة القروض ذات الشروط المجحفة، والشركات الأمريكية الكبرى على اقتصاد الدول.
- إضعاف قوة موارد الثروة المالية العربية المتمثلة في النفط حيث تم إضعاف أهميته كسلعة حينما تم استثناءه من السلع التي تخضع لحرية التجارة الدولية أسوة بتجارة المعلومات من تخفيض الضرائب، والقيود الجمركية المفروضة عليه من الدول المستهلكة فما زالت هذه الدول، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ترفض اعتبار النفط، والمشتقات البتروكيمياوية من السلع التي يجب تحريرها من القيود الجمركية، والضرائب الباهظة التي تفرضها الدول المستهلكة، وبذلك تجني هذه الدول الأرباح الهائلة من وراء ذلك.²

1- عامر الأسمرى : مخاطر العولمة علينا، بتاريخ 28-01-2010م.

<http://www.alukah.net/sharia/0/9440>

2- المرجع نفسه.

وبهذا نستنتج مدى الإنعكاسات السلبية لصياغة الوعي الاقتصادي وعلاقتها مع الحياة اليومية العملية للمواطن، فلن نتبعد عن أنها تعكس الإنفعالات، والأفكار المرتبطة بشتى الأنظمة الرئيسية للحياة الاقتصادية.

من خلال عرضنا لأثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر فإننا قد توصلنا إلى ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الفلسفة البرغماتية تضع النتائج العملية مقياسا للحقيقة، فصدق الأفكار أو زيفها، إنما يعتمد بالدرجة الأساسية على نتائجها العملية، والتي تكون ذات نفع، وفائدة بل ومرضية للإنسان كفرد أو شخص فهي تشكل الموقف المعرفي لكل من الرأسمالية والليبرالية فكما رأينا الإثنين معا يرتكزان على الفردية البرغماتية، والعملية والنجاح كعقيدة لهما معا فالفلسفة البرغماتية هي فلسفة مبتعدة بذلك عن الفلسفة التي عهدناها، ولا غرابة أن تأتي متفقة مع الليبرالية، والرأسمالية ولكن المهم في تبني المجتمع الأمريكي لهذه القيم الليبرالية، والرأسمالية، ونسب البرغماتية نفسها إليها بإعتبارها تشكل موقفا معرفيا لها على أساس تلك الفرضية الأساسية، والواقعية والتي لا شك فيها وهي أن الفلسفة البرغماتية منهج مدروس لطبيعة المجتمع الأمريكي المعاصروهي ترجمة لتلك الأفكار، والاعتقادات والخلفيات التي يحملها الفرد الأمريكي البرغماتي من أجل إثبات ذاته وأفكاره، وتحقيق النجاح المادي النفعي المربح في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر.

وأخلص في آخر هذا الفصل، والذي تضمن البحث في مكانة الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني إلى الاستنتاجات الآتية:

لقد اعتمدت الفلسفات السابقة على الميل للنظريات، في حين الفلسفة البرغماتية جعلت مهمة الفلسفة تنحصر في وضع خطط للعمل المربح، وصياغة الوعي الفكري الأمريكي المعاصر من خلال العديد من التيارات الفكرية المعاصرة فمثلا نجدها ثورة على الفلسفات التي تؤمن بالتأمل العقلي والروحي، والأمور النظرية للوصول إلى الحقائق الأولية المطلقة في الكون فهي ترى أن كل شيء لا يكون صحيحا ما لم يخضع إلى التجربة الخارجية والبرهان لإثبات صحته وفاعليته، إن البرغماتيين يرون أن الطبيعة الإنسانية مرنة وظيفية، وأن الحقيقة يمكن معرفتها من نتائجها التجريبية عندما توضع في موقف عملي فعلي، وتحارب البرغماتية المذاهب المثالية في نزاعها مع الواقعية، وترفض بحث مشكلة أسبقية الفكر على الواقع أو العكس، لأن فلاسفتها يريدون أن يجعلوا نظرية المعرفة أداة للعمل ووسيلة للاستفادة من الواقع المعاش، والسيطرة عليه بدلا من النزاع حوله، لذلك خلقت الفلسفة التطبيقية مما رشحها فيما بعد للممارسة نفوذ واسع عميق لا مجال لحصره إذ عملت على نشر نوع من التفكير التطبيقي في شتى مجالات الحياة الخاصة والعامة في المجتمع الأمريكي، وبهذا لقد نجحت البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر لأنها كانت بمثابة جدل قائم بين التيارات الفكرية المعاصرة وكانت تحاول التقاط الإيديولوجية المبعثرة التي بشر بها مفكرو ما قبل الداروينية رافضة كل أنواع اليوتوبيا، والميتافيزيقا، والحقائق المطلقة مؤكدة على المجتمع التعددي النفعي البرغماتي.

و إلى جانب هذ نجد أيضا انعكاسات الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي المعاصر حيث تسللت فكرة المنفعة البرغماتية، وروح المنافسة، والتحدي إلى مجال الثقافة، فالثقافة السائدة في أمريكا اليوم هي ثقافة التكنولوجيا، والمعلوماتية وهي ثقافة إستهلاكية إعلامية، وهذا يعود إلى طبيعة المجتمع الأمريكي صاحب

المزاج العملي الشغوف بالتطبيقات العملية العلمية، وتوظيف آليات عصرية تتحكم في القوى العظمى، والرغبة المتوقدة في التأثير، والإنتاج، والنجاح وفرض النفوذ على الأطراف الأخرى من أجل تحقيق مصالحهم المختلفة.

فالفلسفة السائدة في المجتمع الأمريكي المعاصري البرغماتية، وأن الثقافة الأمريكية ثقافة برغماتية، وهذا يعطي هذه الفلسفة مكانة عالية، ومرموقة في صياغة الوعي الثقافي المعاصر لأن المجتمع الأمريكي يقود العالم كله اليوم وبقوته الثقافية، وقد وصل المجتمع الأمريكي إلى هذه المكانة العالية من النفوذ لأنه لاتهمه النظريات والمثل التي تخر الشعوب في العالم الثالث، وإنما يهتمه النتائج العملية، والسلوك الناتج عن هذه الفلسفة، والاعتماد على المعطيات التكنولوجية الثقافية، والاستناد إلى التطور العلمي والتكنولوجي، وبهذا يمكننا القول أن البرغماتية تدخلت في جميع مناحي الحياة في أمريكا، ووجهت قواها إلى تكوين الأهداف الإنسانية الثقافية والنهوض بالحياة وفق منهجها، ونظرتها الخاصة.

أما من جهة أخرى فإن آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي المعاصر تنوعت حسب مصالحها وأهدافها، فكنا نجدها تارة تصب في مصبات المنفعة، والمكاسب مع حلفاء الولايات المتحدة، وإزالة العوائق أمام حركة رأس المال، وتحويل المجتمعات إلى مجتمعات منتجة وناجحة، وتارة أخرى نجدها أي البرغماتية قد تحولت إلى آلة حربية تعسفية تستخدمها أميركا للهيمنة على شعوب العالم الثالث، فالعمل الاقتصادي ذرائعي بطبعه، فالوجه الاقتصادي الأمريكي هو الوجه المهيمن المسيطر، والفعال على العالم، وهذا من خلال حجم القدرات الاقتصادية الأمريكية من حيث ضخامة الدخل القومي الأمريكي، واحتفاظها بدورها المهيمن في التجارة العالمية الذي أصبح لا يستند إلى قدرة الولايات المتحدة الأمريكية فحسب، وإنما إلى ثقلها السياسي، والعسكري، والإعلامي إن تطلب الأمر، والذي يتكفل بفتح المزيد من الأسواق التجارية، وإزالة أكبر قدر ممكن من العقبات التي تواجه نمو صادراتها

الخارجية مايؤكد حقيقة احتفاظها بدورها كأكبر مقرض مباشر في العالم مع كل الإمتيازات المرتبطة بهذا الدورالبرغماتي.

وهكذا يمكن اعتبار أن الفلسفة البرغماتية مذهباً علمياً اقتصادياً ساعد في نشأتها استخدام الطريقة العلمية، وتقدم صناعي اقتصادي راجع إلى قدرة الإنسان على تفهم الطبيعة، والسيطرة عليها والإستفادة منها، لذلك وجدت البرغماتية في النظام الرأسمالي الأمريكي خير تربة للنمو، والإزدهار، لأن الرأسمالية عامة تقوم على مبدأ المنافسة الفردية الحرة التي يرتبط فيها العمل المنتج النافع، ومع أن الفلسفة البرغماتية إتخذت مسارها التاريخي من خلال متابعة الفلاسفة الأمريكيين للتراث الفلسفي العالمي عبر التاريخ، إلا أن تطورها تتميز بميزة أساسية هي شمولها لكل جوانب الحياة بما فيها السياسة والاقتصاد، والثقافة، والدين والأخلاق.¹ هذا كله يبين لنا مدى مكانة الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري الإنساني المعاصر.

1- مريم محمد الشهري : قراءة في الفكر التربوي ل جون ديوي، بتاريخ 27-04- 2018 م.

[/https://www.new-educ.com](https://www.new-educ.com)

الخاتمة:

إن ما نخلص إليه من نتائج لبحثنا يمكن أن نضمنه في هذه الصياغات الفلسفية التي نضعها على شكل استنتاجات عامة لما تطرقنا إلى معالجته، وطرحه لكل قضية من القضايا المطروقة في متن البحث على الصعيدين النظري، والعملي وليس من منطلق الموافقة، أو المعارضة الشخصية الذاتية بل وفق ما تستوجبه الضرورات المنهجية، والمعرفية العلمية.

لعل أول ما ينبغي أن نؤكد على أهميته، وهو من صميم الأطروحة التي تقدمنا بها في هذا العمل هو تعدد المفاهيم، والمصطلحات التي حاول مفكرها كشف حقيقة الفلسفة البرغماتية التي تباينت، واختلفت في بعضها، وتوافقت في البعض الآخر ولعل أبرز العناصر المشتركة بين المفاهيم على الرغم من تعددها مايلي:

* البرغماتية هي محاولة انصراف الفكر الإنساني عن التجريد، والروحانيات، وأن تحدث ارتباطا وثيقا بالعالم، والإنسان كباقي الفلسفات المعاصرة التي انتقلت بالبحث من مشكلات الوجود، وماهيته إلى الإنسان وقضاياها، وكيفية حل مشاكل حياته.

* توصف الفلسفة البرغماتية بفلسفة النجاح، والأثر النافع المتولدين عن العقل وعن التجربة لكل حقيقة، ولكل عمل إنساني.

* رفض الفلسفة البرغماتية للأفكار الثابتة المطلقة البحتة.

* البرغماتية ذات نزعة تجريبية فردية، فالتجربة، وما يترتب عليها من نتائج عملية نفعية هي المحك لقبول الأفكار أو رفضها.

* المصطلح البرغماتي مفهوما مرتبطا بالتجارة العالمية، والاقتصاد الرأسمالي الحر.

* الفلسفة البرغماتية تركز على المستقبل، من خلال التأثير على ذهنيات الأفراد داخل أوطانهم، فجعلتهم يفتحون على المعلومات المعاصرة.

* تهدف الفلسفة البرغماتية إلى تغيير الوقائع تغييراً فكرياً، وعملانياً بما يناسب التقدم العلمي والمعلوماتي، والصناعي التقني الذي تشهده الحياة.

* الفكرة الصائبة، والصادقة في الفلسفة البرغماتية يكمن معناها في نتائجها العملية النافعة.

* إن الحديث عن ميلاد، ونشأة البرغماتية كان مشوباً بالغموض، والتباين بين الفلاسفة، فالبرغماتية ومن خلال هذه الأطروحة العلمية لم تكن ثمرة عقل واحد وذلك لأن ميلادها جاء جماعياً ليس فردياً عبر ما يسمى بالنادي الميتافيزيقي.

ومن أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها من خلال رواد الفلسفة البرغماتية في الفكر الأمريكي مايلي:

* لم تكن برغماتية بيرس برغماتية نفعية فردية، وإنما كانت ذات بعد جماعي إنساني وبطرق علمية وعملية، ولم تجعل من العمل غاية في حد ذاته، وإنما وسيلة للوصول إلى غاية معينة.

* يبدو أن نظريتي "المعنى والاعتقاد" وهما جوهر الفلسفة البرغماتية بالنسبة لبيرس نظريتين لمشكلة واحدة، وهدفهما واحد، ومشارك وهو البحث عن النتائج والمنافع من معنى الفكرة، واعتقادك بفكرة ما.

* تبدو برغماتية جيمس نظرية في الحق، والحقيقة على خلاف برغماتية بيرس التي تعتبر نظرية في المعنى، فجيمس يبحث عن منفعة فورية سريعة من كل فكرة وبغض النظر عما تكون هذه المنفعة فردية، أم جماعية.

* تأرجح فكر وليام جيمس بين الفردية والاجتماعية، وفي بعض الأحيان يفضل الإجماع، والتوافق على الفرد، وهذا ما نراه واضحاً من خلال قاعدة الإتفاق التي يعتبرها جيمس الطريقة الأفضل، والأمثل لوصف النتائج المطلوبة الذي يفترض بها جيمس أن يكون هناك توافق من قبل الناس جميعاً على أنها صحيحة.

* لم تكن دراسة جيمس في الدين دراسة دينية تقليدية ميتافيزيقية، أو دراسة رجل دين، وإنما درس الدين وفق ما يتلائم مع مذهبه الفلسفي البرغماتي.

* لم يكن جيمس يولي السياسة إهتماما كثيرا إلا أن فكره السياسي تطور من خلال أفكاره الفلسفية البرغماتية، ومفهوم الحقيقة، والصدق العقلي، فأصبحت أفكاره لها تأثير كبير وواسع، ومنتشر في حكم واقعنا المعاصر.

* لم يكن ديوي فرديا، وإنما كان يعبر عن روح اجتماعية في معظم أفكاره، فالروح التي يقصدها هي روح المصلح، والمربي الناجح في معمله.

* إن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة وإن اتفقوا على أصول الفلسفة البرغماتية، وعلى أن ما يجعل أي فكرة ذات معنى صحيح هو كونها ذات نتائج عملية ملموسة نافعة ، إلا أن كل واحد منهم قد أعطاها شكلا مختلفا فإن تشارلز بيرس نظر للفكرة في البرغماتية باعتبار المعنى فإهتم بالتفكير المنطقي ، والفكرة الصادقة لديه هي التي يكون لها نتائج عملية مفيدة، أما وليم جيمس فمع موافقته ل بيرس، إلا أنه قد أدخل على معنى البرغماتية الطابع النفعي ، فتعامل مع صدق الأفكار من منطلق القيمة الفورية العملية، أما جون ديوي فقد أضاف الوسيلة في مفهوم البرغماتية حيث جعل المعرفة أداة للعمل.

* لقد مثل الفكر البرغماتي المرجعية الفكرية للفكر الأمريكي، والسياسات الأمريكية المعاصرة من خلال حضور الفلسفة البرغماتية حضورا واسعا في المستويات الفكرية والثقافية، والاقتصادية. أما بالنسبة لأثارها فنجدتها متجلية في كل الميادين التي تعيشها الشعوب في جميع أنحاء العالم، فبعضها يعيشها طرفا مؤثرا على فكر غيره ويعيشها الآخر متلقيا متفرجا لاسبيل للنقاش.

ترتبط الفلسفة البرغماتية بمجموعة من الأسس الهامة، التي تشكل في رأينا القواعد المهمة التي بنيت عليها هذه الظاهرة عبر تطورها، ولعل أبرز هذه الأسس ما يلي:

الأساس النظري البرغماتي:

لم تكن البرغماتية مختصة بمرحلة معينة محددة، بل هي تطورت بشكل فعلي كفلسفة على يد الفيلسوف الأمريكي تشارلس بيرس في الولايات المتحدة الأمريكية، نعم ربما يكون ولادة الفلسفة البرغماتية من الناحية النظرية في الولايات المتحدة الأمريكية ولكن لا يمكن القول عليها بأنها فلسفة منقطعة الجذور والأصول.

وربما يهاجم البعض الفلسفة البرغماتية ويجردها من الأخلاق، وهذا الأمر ليس له مجال من الصحة، فالبرغماتية كانت على يد مؤسسيها الأوائل بيرس، جيمس ديوي تضبطها قيم أخلاقية ودينية حتى وأن كانت هذه هذه القيم لاتخرج عن إطار المنفعة إلا أنها تعتبر من المبادئ التي تأسست عليها البرغماتية، فهي كانت تعطي للمعايير الأخلاقية، والدينية مضمون فكري برغماتي، والدليل على ذلك كان وليام جيمس قد جعل اهتمامه البرغماتي الفلسفي الأول في الميادين الدينية والأخلاقية، وكذلك بالنسبة لديوي فقد كان اهتمامه هو الأخلاق.

تؤمن أيضا الفلسفة البرغماتية الأمريكية بالأخلاق، ولكن ليس على نطاق الدولة وإنما على نطاق المجتمع الدولي، فواقع المجتمعات المعاصرة اليوم تحكمها نظرية "داروين" "البقاء للأقوى والأصلح"، والتي تعتبر من أهم المبادئ التي تأسس عليها الفكر البرغماتي الأمريكي العالمي.

هذه النظرية اليوم تحكم السياسة الدولية الخارجية فكل دولة تسعى إلى تحقيق نفوذها وقوتها، ومنفعتها أينما كانت، ولا يهمها القيم الإنسانية الأخلاقية، وهذا ما يدل على وصول الفكر العالمي إلى قمة الهرم البرغماتي.

على وفق هذا السياق المعاصر لمفهوم الفلسفة البرغماتية بوصفها مدرسة سياسية عالمية معاصرة، فلا بد أن نخرج باستنتاجات عامة عن الفكر البرغماتي من خلال هذه الدراسة، وهذه الاستنتاجات هي:

* لم تكن الفلسفة البرغماتية مختصة بمرحلة معينة ومحددة، بل هي تطورت بشكل فعلي كفلسفة على يد الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرس بيرس في الولايات المتحدة الأمريكية، نعم ربما يكون ولادة ونشأة البرغماتية من الناحية النظرية في المجتمع الأمريكي، ولكن لا يمكن القول بأنها فلسفة لا يوجد لها أصول تاريخية.

* لقد أصبح الفكر البرغماتي فكراً معاصراً من خلال تطوره التاريخي بدءاً من الفلسفة اليونانية، واستخدام مصطلح "براغما" في المجال العملي في الحياة، ومن ثم الفلسفة السوفسطائية التي اعتبرت الإنسان مقياس كل شيء مروراً "بسقراط وأفلاطون وأرسطو"، ومن بعدهم المدارس الفلسفية الأخرى "الأبيقورية والرواقية"، ثم فلسفة العصور الوسطى، والفلسفة الغربية الحديثة أمثال "كوبرنيق، وجاليلو، وميكافلي وباسكال"، بعدها جاءت المدرسة التجريبية على يد بيكون، ومن ثمة "لوك وهيوم وباركلي"، وغيرهم، ثم "كانط وكونت واتباع المدرسة النفعية"، "بنثام ومل"، ليصبح بعد ذلك الفكر البرغماتي فكراً عالمياً حاضراً، وملموساً في جميع المجالات الفكرية المعاصرة، وهذا ما جعل أمريكا اليوم أقوى دولة في العالم.

* يسعى الفكر البرغماتي إلى تحقيق الإنسجام، والإتفاق بين الفكر الإنساني الأمريكي، ومتطلبات المجتمع المعاصر، فهو فكر عملي، ونفعي لكونه يهتم بالعمل كقيمة عليا، وهذا ما بدا واضحاً لنا من خلال المعنى اللغوي للمصطلح، والمعنى الإصطلاحي للفكر البرغماتي.

* لقد كانت الساحة الفلسفية العالمية تعج بالجدال النظري بين المدرستين العقلانية والتجريبية، ومع ظهور البرغماتية خف ذلك الصراع بين هاتين المدرستين، وغيرهما فالعملية التوفيقية التي قامت بها الفلسفة البرغماتية لحل الصراع ساعدت بشكل كبير على فتح أبواب النجاح، والتغيير للعديد من الفلسفات.

* كان للفلسفة البرغماتية دور فعال، وحضور عالمي مميز، وملاموس أيضا، فهي التي شكلت الأساس الذي بنيت عليه السياسات الخارجية الأمريكية اللاحقة، من خلال سيطرتها على الفكر العالمي المعاصر ليبلغ قمة التفكير البرغماتي.

* لقد كانت للفلسفة البرغماتية الدور الكبير في الظهور من خلال البحثين الذي نشرهما "بيرس" في النادي الميتافيزيقي تحت عنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة لانفسنا"، و" تثبيت الاعتقاد "التي دعا فيها إلى توضيح معنى الفكرة، ومدى الآثار المترتبة عن تلك الفكرة.

* من بين الصفات المهمة للفكر البرغماتي الأمريكي الإعتماد على المنفعة والعمل والفردية، والنسبية، والتغير لتحقيق الغايات المرجوة من ذلك الفعل المطلوب.

* كان للدين الروحي الأمريكي والنظريات، والإتجاهات الثقافية المختلفة "عصر التنوير والرومانسية" التي سادت الولايات المتحدة الأمريكية خلال تلك الفترة دور حاسما وبالع الأهمية في صياغة الفلسفة البرغماتية الأمريكية.

وبالإضافة إلى الأساس النظري للفلسفة البرغماتية نجد أساس آخر ألا هو الأساس العملي.

الأساس العملي البرغماتي:

* جعلت البرغماتية مهمة الفلسفة تنحصر في وضع برنامج للعمل، وصياغة الوعي الفكري المعاصر للتغيير الفعلي الواقعي الملموس في شتى مجالات الحياة.

* التعامل الواقعي، والمصلحة القومية التي تتعامل بهما الفلسفة البرغماتية والسياسات الأمريكية على الصعيد الخارجي كانت نتيجة ذلك الإنسجام البرغماتي الذي أصبح الخلفية السياسية التي يعتمد عليها الفكر السياسي المعاصر فالأمريكيون اليوم يؤمنون بأن الفرد يجب أن يعمل بجهد، وجد من أجل مصلحته الفردية من جهة والجماعية من جهة الأخرى.

* أصبحت الفلسفة البرغماتية تمثل الفكر الاقتصادي الليبرالي الأمريكي، وهذا من خلال توجهاتها النفعية المادية، والرأسمالية التي تغلغت داخل جميع مفاصل الحياة الأمريكية المعاصرة وتوجهاتها الاقتصادية، والسياسية، والدينية، والاجتماعية، وهذا ما يجعلها تهيمن برغماتيا على العالم كله، وتسعى إلى تحقيق كل ما يتوافق مع متطلبات الفكر السياسي الأمريكي المعاصر بتطلعاته الجديدة.

* يبدو أن تغلغل الفكر البرغماتي في صياغة الوعي الثقافي المعاصر ليس اليوم وإنما من خلال جعل الفرد مسؤولاً عن نجاحه، ورسوبه الشخصي في الحياة.

أهم ما يلاحظ على الفلسفة البرغماتية أنها تبقى فلسفة للنجاح، وللتفاؤل، حتى وإن كان على مبادئ غير عقلية وموضوعية، وإنما هو إجماع ينبني على تبرير مستمد من المؤسسات الاقتصادية والمالية الكبرى، والممارسات الموجودة في المجتمع الأمريكي، والتي لعبت فيها أفكار، وأعمال الفلاسفة من بيكون مروراً بـ لوك وهيوم مل، جيمس، وديوي دوراً بالغ الأهمية في التوجه نحو الحاضر والمستقبل.

وأخيراً أقول: إن الدراسات المتعلقة بالفلسفة البرغماتية، أصبحت تشغل بال الفلاسفة وعلماء الاقتصاد، والاجتماع، والتربية، والسياسة في مختلف الجامعات، ومراكز البحث في العالم المعاصر أكثر من أي وقت مضى، وأن البحث في موضوع الفلسفة

البرغماتية ليس أمرا يسيراسهلا، لقد أصبح الباحثون، والمفكرون يستشرفون المستقبل باحثين عن بدائل احتمالاته، وإعداد كل المستلزمات، والمتطلبات للتعامل معها ومهما كانت النتائج التي توصلنا إليها فإنها لا تحيط سوى بجانب بسيط من الموضوع ويبقى الباب مفتوحا واسعا أمام الباحثين والمفكرين لمعالجة الجوانب الخفية التي تلامس اهتمامات الناس، وتعالج واحدة من أهم قضايا العصر.

التوصيات:

يعدّ موضوع الدراسة من المواضيع الحديثة، والمعاصرة التي باتت تشكل جانب مهم وفعال على صعيد الدراسات الإنسانية، والحضارة البشرية كون موضوع الدراسة يكشف عن التأصيل النظري للفكر البرغماتي الأمريكي، وعن مدى تغلغل الفكر البرغماتي المعاصر في العقلية الأمريكية فقد مثل الفكر البرغماتي الفكر الأمريكي بكل تطلعاته هذا من جهة، أما من جهة تمكنت البرغماتية من فرض هيمنتها على الصعيد العالمي، ومنطق العلاقات الدولية، وتعميم النموذج الأمريكي وهذا من خلال تجلياتها الثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والاعلامية فضلا عن إن التطرق إلى الفلسفة البرغماتية هو من الموضوعات المهمة، وذلك لإنعكاسها على طبيعة الحياة الأمريكية برمتها على الصعيدين الداخلي والخارجي وتفسيرها بكل وضوح لما يدور في عالم اليوم من صور الهيمنة السياسية للولايات المتحدة على العالم برمته، فلقد أعلنت البرغماتية منذ البداية برنامج طالبت فيه بإعادة البناء في الفلسفة حيث أنها اتهمت كل الفلسفات السابقة بالجمود، والعقم فإننا نوصي بما يلي:

إعادة بناء الفلسفات جميعا، والتكيف مع الواقع العملي الذي فرضته التغيرات المعاصرة، وعلى هذه الفلسفات أن تكف عن البحث في أصل الكون، والتحقيق في سماء المجردات، وأن تنزل إلى الوقع المعاش لتعالج مشاكل الناس بطريقة عملية وتحثك بهم أكثر، فغرض الفلسفة البرغماتية هو ربط الإنسان بالواقع الخارجي وشده نحو عالمه الحقيقي، فالمعرفة الصحيحة وليدة النتائج المثمرة، وليست العقل المتأمل البعيد عن مشاكل الحياة، ونشر الوعي الكافي للفلسفة البرغماتية، وتوسيع الإستقلال الذاتي من خلال الإعتماد على النفس في مواجهة الصعوبات اليومية وتشجيع الإختراعات التقنية المعلوماتية الجديدة للإستطلاع على مستقبل أفضل ودعم كل الدراسات، والبحوث العلمية، والبحثية من أجل جيل تربوي واعي ومتحضر، وعلى الدولة أن تتبّع أيضا معايير سياسية، واقتصادية، وثقافية صحيحة تخدم مصلحة المواطنين، والتخطيط لإستراتيجية إيديولوجية عملية فعّالة للاستفادة من كل الفرص التي توفّرها الفلسفة البرغماتية، ومواجهة كل التحديات التي تفرضها الرأسمالية

والليبرالية البرغماتية، والتداول على الحكم بطريقة سلمية مبنية على الإتيافق خالية من الحروب، والسعي وراء تحقيق مستقبل مفتوح أمام الخلق، والإبداع، والإضافات المعاصرة الجديدة.

فهرس المصطلحات:

الفردانية : هي التوجه الخلقي، التي تشدد على فكرة الاستقلالية، وإعتماد الفرد على نفسه في اتخاذ قرارته الحاسمة، ويدعو الفردانيون إلى تنفيذ الفرد لأهدافه ورغباته حتى، وإن عارضت المؤثرات الخارجية على اختياره الشخصي، سواء كان هذا المؤثر الخارجي هو المجتمع أو الدولة أو أي مجموعة أخرى من الناس أو المؤسسات غالبا ما يرمز إلى الجماعية "collectivis" كنقيض للفردانية، والجماعية تشدد على أن قيم وأهداف المجتمع، والدولة يجب أن تأخذ حقها قبل حق الفرد نفسه.

الحقيقة في الفلسفة البرغماتية:

الحقيقة في الفكر البرغماتي لا تكون حقيقة إلا إذا ساهمت في إنجاح الحياة الفردية، وهي تتحقق بملائمة حياة الإنسان الداخلية مع الظروف الخارجية، ولا يهم أن تكون الصورة الذهنية التي رسمها العقل عن الأشياء الخارجية مطابقة لأصلها أو مشوهة، فالحقيقة العليا في الوجود هي الاحتفاظ بالبقاء أولاً، ثم الإرتفاع بالحياة نحو الكمال والخلود.

وهكذا تتضح النظرة البرغماتية للحقيقة القائمة على الفائدة، والمنفعة، والربح، فكل ما يحقق المنفعة والفائدة للإنسان هو الحق، وكل ما عداه باطل، بغض النظر عن كونه حقاً من الناحية العقلية الداخلية.

الحرية: فلسفيا هي حالة التحرر من القيود التي تكبل الإنسان في حياته، و إنتاجه سواء كانت قيودا مادية أو قيودا معنوية، فهي تشمل التخلص من التبعية لشخص أو جماعة، والتخلص من الضغوط المفروضة على شخص ما لتنفيذ غرض ما، أو التخلص من الإجبار والفرض.

أما سياسيا فالحرية أيضا إحدى أهم قضايا الشعوب والأمم، و هي من أهم الأوتار التي يعزف عليها السياسيون، فالكل يطمح لاستقلال بلاده، وأن يكون شعبه حرا في اتخاذ القرارات لمصلحة الشعب، أو الجماعة، أو المجتمع الذي ينتمي إليه.

الديمقراطية: إن الديمقراطية في نظرنا هي منهج تقتضيه ضرورات الحياة يعتمد على مبادئ و مؤسسات تحقق بها الدولة مصالح الشعب، وخاصة إستقراره الاقتصادي، والسياسي إن الديمقراطية كما نجد تعريفها في التراث الإغريقي " تعني حكم الشعب" و هو تعريف مثالي في نظرنا لأنه لم يتحقق في التاريخ، ولا يمكنه أن يتحقق في المستقبل القريب لأنه حتى في الدول الأكثر تقدما في مجال الديمقراطية لم يتحقق حكم الشعب بصورة كلية كاملة، فلا يخل مجتمع

من المعارضة لكن الحد الأدنى الذي اكتسبته الدول المسماة ديمقراطية هو حكم الكثرة "Polyarchy" الذي يسعى إلى الإقتراب من حكم الشعب، وهذا بفضل نشر الثقافة الديمقراطية الاقتصادية، وإتساع دائرة المشاركة السياسية في صناعة القرار.

الأيديولوجيا: تناولت تعريفات عديدة جانباً أو أكثر من جوانب هذا المصطلح، بوصفه مفهوماً حديثاً، إلا أن التعريف الأكثر تكاملاً يحدد الإيديولوجيا بأنها "النسق الكلي للأفكار، و المعتقدات و الاتجاهات العامة الكامنة في أنماط سلوكية معينة، وهي تساعد على تفسير الأسس الأخلاقية للفعل الواقعي الخارجي، وتعمل على توجيهه، وإضفاء المشروعية على النظام القائم والدفاع عنه، فضلاً عن أن الإيديولوجيا أصبحت نسقاً قابلاً للتغير استجابة للتغيرات المعاصرة الراهنة والمتوقعة، سواء كانت على المستوى المحلي أو العالمي.

النفعية: مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأن صدق الفكرة في كونها نافعة مفيدة للإنسان، وأن الأخلاق متغيرة، ونسبية ذرائعية، يستعين بها الإنسان لتحقيق مصالحه الشخصية الفردية، وأن الغاية تبرر الوسيلة.

الحدثة: إتجاه فكري تخص الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية، والفكرية، والثقافية على حد سواء وهي بهذا المفهوم الاصطلاحي إتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على كل ما كان وما هو كائن في المجتمع.

مابعد الحدثة : استعمل مصطلح ما بعد الحدثة لأول مرة في سبعينيات القرن التاسع عشري مجالات مختلفة كالفن، العمارة، والأدب ثم استعمل في الفلسفة، وتحليل المجتمع والثقافة، فانتشر بشكل واسع، وفعال، واستعمل بمعاني مختلفة، تشكو أحياناً من التناقض، والتنافر.

وما يجمع دعاء ما بعد الحدثة، هو نقد، ودحض إنجازات الحدثة الغربية وميراثها التنويري والإنقلاب عليها، بحجة فشلها في تحقيق الوعود التي نادت بها هكذا أصبحت في نظرهم وعود كل من الليبرالية، والاشتراكية، ومفاهيم الحرية، والتقدم، والتحديث والعقلنة، مجرداً أوهام كبرى وما نتج من وعودها هو ظهور مآسي النازية، والفاشية ومخاطر السلاح النووي وآليات مختلفة للتدجين الثقافي، والسياسي، والاقتصادي لمكونات المجتمع الغربي.

الخبرة الحسية : الخبرة الحسية عند البرغماتيين تتجاوز ما تقدمه الحواس من الواقع الخارجي إذ تشمل الآثار الحسية، والأفعال السلوكية فهي كما يصورها لنا "ديوي" تتعدى الانطباعات الحسية المتفرقة إلى العلاقات الاجتماعية، فهي تنشأ من الخبرة أو التجربة مما يعني أن

البرغماتية قدمت معنى جديدا للتجربة فأخرجتها من دائرة المخبر إلى نطاق الفكر الذي يكون في خدمة الإنسان، فهي تمثل الترابط، والتداخل بين ما أنتجته العلوم، وما يحقق للفرد من خدمة عملية.

الخبرة الواقعية: تعني رفض التساؤل عن إمكانية المعرفة، والوسائل المؤدية إليها إذ ليس هناك موضعا للحديث عن ذات عارفة، وموضوع معروف، فهي مصدر المعرفة، والقيم وكل التفاعلات الفكرية، والواقعية، وما تتضمنه من معارف، ومواقف، وسلوك، وأفعال هو الكفيل بضمان استمرارية الحياة، لأن الخبرة اليوم تملك مناهج علمية عملية بما يمكنها من تنمية السلوك الإنساني وتنظيمه.

النزعة الإنسانية: هي اتجاه فكري عام تشترك فيه العديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية، والفكرية، والعلمية، ظهرت النزعة الإنسانية في عصر النهضة.

المنفعة: فكرة فلسفية لا تلتزم بالأصول الدينية، إذ تقيس صواب العمل بمقدار ما يحققه من منفعة، وسعادة بغض النظر عن توافقه مع الأخلاق أو مطابقته للدين، وترى أن كل ما يلزم به الدين، يمكن للقانون بقصاصه، والرأي العام بجزائه أن يأتي به، ولاشك أن في هذا تجاوزاً يهدم أسس العقيدة الدينية، ويحول المجتمعات إلى غابة تتصارع، وتتضارب فيها المنافع بلا ضابط أو رابط.

التجارة الالكترونية: تعرف التجارة الالكترونية بأنها مجموعة المعاملات الرقمية المرتبطة بأنشطة تجارية بين المشروعات بعضها البعض، وبين المشروعات والأفراد، وبين المشروعات والإدارة ويتوسع هذا المفهوم ليشمل كافة أوجه النشاط الإلكتروني للتجارة ما بين الأفراد و المؤسسات والإدارة، وتشمل التجارة الالكترونية أنشطة إنتاج السلع، والخدمات، وتوزيعها، وتسويقها وبيعها أو تسليمها للمشتري من خلال الوسائط الإلكترونية الحديثة.

البرغماتية:

البرغماتية كلمة يونانية "progma" وتعني العملية والواقعية، واقتبس الرومان هذا المصطلح الفلسفي، واستخدموا عبارة "progmaticus" وتعني المتمرس، وأول من استخدمها كتعبير فلسفي الفلاسفة الأمريكيون: ووليا جيمس 1842-1910م، شارل بيرس 1840-1914م وجون ديوي 1854-1952م.

والبرغماتية كمصطلح سياسي إيديولوجي فلسفي يركز على النتائج المترتبة على مقدمات الأفكار وتوجه الفكر نحو الحركة العملية، ونحو المستقبل، وتجد البرجماتية جذورها في أفكار ومذاهب شتى، مثل فكرة العقل العملي، وفكرة البقاء للأصلح، وفكرة ربط الإنسان بالواقع ووفقا للفلسفة البرغماتية، فإن الحقائق متغيرة ونسبية، ونفعية، ولا وجود للحقائق المطلقة والفكر الذي يحقق منفعة هو الفكر الصحيح.

الرأسمالية: الرأسمالية نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية، وسياسية يقوم على أساس تنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها متوسعا في مفهوم الحرية، الرأسمالية هي ثمرة التطور الصناعي في وسائل الإنتاج المتخلفة في العصور السابقة إلى الوسائل المتطورة في العصر الحديث، وما تزال الرأسمالية تمارس ضغوطها، وهيمنتها الاقتصادية، وتدخلها السياسي، والاجتماعي والثقافي وترمي بثقلها على مختلف شعوب الأرض.

الليبرالية: الليبرالية مذهب رأسمالي ينادي بالحرية المطلقة في الميدانين الاقتصادي، و السياسي و يعتبر الفرد هو المحور الرئيسي، والمهم لفكرة الليبرالية، ويرتبط جوهر الليبرالية بالتركيز على الفرد، مع التحرر من كل سلطان خارجي، والليبرالية عرفت في النصف الثاني من القرن العشرين، و تبلورت الأفكار الليبرالية على يد كثير من المفكرين، و الفلاسفة ففي جانب السياسي يعتبر **جون لوك 1632-1704م** من أكبر المساهمين في بلورته واقتصاديا كان لأدم سميث أكبر الإسهام، والعطاء في ذلك، كما ساهمت فلسفة **جان جاك روسو 1712-1778م** وكذلك **جون استوارت ميل 1806-1873م** في بلورة الفكر الليبرالي.

الليبرالية الجديدة: تعود النيوليبرالية في أصلها، كما يشير اسمها "الليبرالية جديدة" إلى الليبرالية والليبرالية هي أيديولوجيا، وتيار فكري اقتصادي، سياسي لعب الدور الأساسي في ظهور وتطور وازدهار الرأسمالية، كنظام اقتصادي، واجتماعي، وسياسي، والفكرة المركزية في الليبرالية تعتبر أن من شأن السوق، لوحدها فقط، وبدون تدخل أي جهة كائنا ما كانت، أن تؤمن بتوزيع الثروات بين الشعوب، والخدمات وتوفير الاستثمار، والتنمية.

البرغماتية السياسية : تقوم البرغماتية على جعل المحافظة على البقاء الغاية التي يسعى إليها الإنسان بشتى الوسائل، والطرق، وهذه الفكرة نفسها هي المحرك الأساسي، والجوهري لكثير من الصراعات، والحروب التي خاضتها القوى الكبرى في العصر الحديث بعد تبنيها للمبادئ الميكافيلية، والبرغماتية.

البرغماتية الاقتصادية :

ساهمت البرغماتية النفعية في ترسيخ النظام الرأسمالي بقوة، وجداره حيث يحرص كلاهما على تحقيق كل ما من شأنه جلب الربح، والمنفعة الشخصية، وباستخدام شتى الأساليب المشروعة وغير المشروعة وفق المبدأ الميكافيلي الغاية تبرر الوسيلة.

ثورة الاتصالات: الثورة الهائلة في تكنولوجيا الاتصالات التي قربت المسافات، واختصرت الأزمنة، وجعلت العالم قرية واحدة، ويعتبر مجال الاتصال من المجالات التي ولد فيها ما يعرف باقتصاد المعلومات، وهو العلم الذي يتخذ من شبكات المعلومات، والاتصالات اللاسلكية أدوات لتقدمه، وله القدرة، والتقنية الكافية على تجاوز عائق المكان من خلال الشركات متعددة الجنسيات وتكامل الاقتصاديات الإقليمية.

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: يرتبط موضوع حقوق الإنسان أشد الارتباط بالعلومة، وقد يكون الترويج للعلومة وراء الإدعاء أنها حامية لحقوق الإنسان، فقد دعمت العلومة هذه الحقوق بدرجة كبيرة التطور الحاصل على المستوى التكنولوجي العالمي حيث أدى انتقال المعلومات من شخص إلى آخر عبر الإنترنت إلى انتقال أخبار، ومعلومات الانتهاكات في كل مكان تقع فيه مما جعل الناس أمام سمع، و مرأى من بعضهم البعض، كما أن حقوق الإنسان بلغت مستوى متقدم وعصري بفضل تشابك مجموعة من المنظمات، والجمعيات المدافعة عن حقوق الإنسان والتي تعمل على مواجهة الانتهاكات المحلية، ومساندة الإنسان حيثما كان.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

القرآن الكريم.

أ – الكتب:

1. إبراهيم مصطفى إبراهيم : نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة، والنشر، الإسكندرية الجزء الأول، سنة 2001م.
2. ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، الطبعة السابعة، سنة 1989م.
3. أحمد عبد الحليم عطية : ليوتار، والوضع مابعد الحداثي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2011م.
4. أحمد فؤاد الأهواني : جون ديوي، دار المعارف بمصر، سنة 1968 م.
5. إسماعيل المهدي : معنى الديمقراطية في الإيديولوجية الجديدة، دارالنشر، القاهرة، سنة 1989م.
6. إسماعيل صبري مقلد : الإستراتيجية الدولية في عالم متغير قضايا، ومشكلات، شركة كاظمة للنشر والترجمة، والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، سنة 1983م.
7. آلان تورين : نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيت، المجلس الأعلى للثقافة، المطابع الأميرية، القاهرة سنة 1992م.
8. ألكسندر بانارين : الإغواء بالعولمة، ترجمة عياد عيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة 2005 م .
9. سؤدد فؤاد الألوسي : العنف، ووسائل الإعلام، دار أسامة للنشر، والتوزيع، عمان الأردن سنة، الطبعة الأولى، سنة 2012م.
10. إلياس فرح : الفكر الماركسي عرض، ونقد، دار الطليعة للطباعة، والنشر، بيروت، الطبعة السادسة، سنة 1981م
11. إمام عبد الفتاح إمام : توماس هوبز فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1985 م .
12. إميل بوترو : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1973م.
13. أمين محمود عبد الله: في أصول الجغرافية السياسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة 1976م.
14. أنطوان الخوري: أعلام التربية "حياتهم وأثارهم"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة 1964 م.
15. أنور الجندي : الفكر الغربي دراسة نقدية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى، سنة 2001م.

16. برتراند راسل: فلسفة القرن العشرين، ضمن، فلسفة القرن العشرين مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة، نشرها داجوبرت د. رونز، ترجمة عثمان نوية، مراجعة زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب، مصر، 1963 م.
17. برتراند رسل : حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الجزء الثاني، سنة 1983م.
18. برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية " الفلسفة الحديثة"، ترجمة محمد فتحي الشنيطي الجزء الثالث الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 1977 م.
19. برنار، غروتويزن : فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات بيروت، سنة 1982م.
20. بطرس غالي : مدخل إلى علم السياسة، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة 1986م.
21. بوب ودورد : القادة اسرار ما قبل وبعد أزمة الخليج ، ترجمة عمار جولاق، ومحمود العابد الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، سنة 1991م.
22. بول ها زار : الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من منتسكيو إلى ليسنج، ترجمة محمد غلاب، مراجعة إبراهيم بيومي مذكور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دمشق ، الجزء الأول سنة 1957م.
23. تشارلز موريس: رواد الفلسفة الأمريكية، ترجمة إبراهيم مصطفى ابرا هيم، مؤسسة شباب الجامعة إسكندرية، سنة 1996م.
24. تود، إيمانويل: ما بعد الإمبراطورية : دراسة في تفكك النظام الأمريكي، دار الساقى بيروت، سنة 2004م.
25. توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها، وتطورها، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الرابعة، سنة 1979 م.
26. توم جي بالمر : أخلاقيات الرأسمالية: ما لن يخبرك به أساتذتك، ترجمة محمد فتحي خضر مراجعة محمد إبراهيم الجندي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2013م.
27. جان جاك شوفالبيه : تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة محمد عرب صاصيلا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1985م.
28. جان فال : طريق الفيلسوف، ترجمة أحمد حمدي محمود، مراجعة أبو العلا عفيفي مؤسسة سجل العرب، القاهرة ، سنة 1967م.
29. جواد كاضم البكري : فخ الاقتصاد الأمريكي الأزمة المالية 2008م، مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2011م.
30. جوزيف ناي : مفارقة القوة الأمريكية، تعريب محمد توفيق البجيرمي، مكتبة العبيكان الرياض، الطبعة الأولى، سنة 2003 م .
31. جون ديوي : المنطق نظرية البحث، ترجمة زكي نجيب محمود دار المعارف، القاهرة سنة 1960م.

32. جون ديوي : الديمقراطية، والتربية، ترجمة منى عقراوي وزكريا ميخائيل نعمة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1946م.
33. جون ديوي : الفردية قديما، وحديثا، ترجمة ومراجعة خيرى حماد مروان الجابري منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، سنة 1979م.
34. جون ديوي : الفن خبرة، ترجمة زكريا إبراهيم مراجعة، وتقديم زكي نجيب محمود الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة 2011م.
35. جون ديوي : مدارس المستقبل، ترجمة عبد الفتاح المنياوي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، سنة 1962م
36. جون ديوي : نمو الفلسفة البرجماتية الأمريكية، في "فلسفة القرن العشرين"، نشرها داجوبرت د رونز، ترجمة عثمان نويه، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة 1963م.
37. جون ديوي : نوايغ الفكر الغربي، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة الطبعة الثالثة، سنة 1968م.
38. جون ديوي ، ليون تروتسكي، جورج نوافك : أخلاقهم وأخلاقنا "وجهتا النظر الماركسية والليبرالية في المثل الأخلاقية ترجمة سمير عبده، دار دمشق، الطبعة الأولى، سنة 1969م.
39. جون ديوي : البحث عن اليقين، ترجمة وتقديم أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العربية للطباعة والنشر، القاهرة - نيويورك، سنة 1960 م.
40. جون ديوي : التربية في العصر الحديث، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد، ومحمد حسين المقرجي مراجعة محمد بدران، مكتبة النهضة المصرية، الجزء الأول، سنة 1949م.
41. جون ديوي : تجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مراجعة زكي نجيب محمود مكتبة الأنجلو المصرية، سنة 1947م.
42. جون ديوي : الفن خبرة، ترجمة زكريا إبراهيم، و زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية القاهرة، نيويورك، سنة 1923م.
43. جون ديوي : المدرسة، والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر بغداد، سنة 1964م.
44. جون لوك : رسالة التسامح، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى سنة 1988م.
45. الجيار سيد إبراهيم: دراسات في تاريخ الفكر التربوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى سنة 1974م.
46. جبرار ديلودال : الفلسفة الأمريكية، ترجمة جورج كتورة، وإلهام الشعراني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2009م.
47. جيفري ريكورد : قوة الانتشار السريع، والتدخل العسكري الأمريكي في الخليج، ترجمة عبد الهادي ناصيف، دار الوحدة، بيروت، سنة 1983م.
48. جيمس جوردن فينليسون: يورجن هابرماس مقدمة قصيرة جداً، ترجمة أحمد محمد الروبي، مراجعة ضياء ورّاد مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2015م.

49. حارص صابر : الإعلام العربي والعولمة الإعلامية والثقافية والسياسية من الترويج والتنويم إلى الصارع والتدمير، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، الطبعة الأولى، سنة 2008م.
50. حسن الكحلاني : الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى سنة 2004م.
51. حسن حداد : تعال إلى حيث النكهة "رؤى نقدية في السينما"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2009م.
52. حسن حنفي : مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 1991م.
53. حسن عبد ربه حسن : عقل أمريكا مؤسسات صناعة الرؤية، والفكر في الولايات المتحدة الأمريكية، نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، سنة 2009م.
54. خالد فاروق : الإعلام الدولي، والعولمة الجديدة، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان الأردن سنة 2008م.
55. خلف الجراد: معجم الفلاسفة المختصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، سنة 2007م.
56. دافيد و مارسيل : فلسفة التقدم ديوي، بيرد جيمس وفكرة التقدم الأمريكية، ترجمة خالد المنصور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة 1987م.
57. رالف بارتون بيرري : أفكار، وشخصية وليم جيمس، ترجمة محمد علي العريان، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1965م.
58. راندال جون هرمان: مدخل الى الفلسفة، ترجمة ملحم قربان، دار العلم للملايين، بيروت سنة 1963م.
59. روبرت مكنمارا : جوهر الأمن، ترجمة يونس شاهين، المطبعة الثقافية، القاهرة، سنة 1970م.
60. روبرت غلبين: الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية، مركز الخليج للأبحاث الإمارات العربية المتحدة دبي، سنة 2004م.
61. زكريا إبراهيم : مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة 1967م.
62. زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة، القاهرة، الجزء الأول، سنة 1968م.
63. زكي رمزي: السياسات التصحيحية، والتنمية في الوطن العربي ، دار الرازي، بيروت، سنة 1989م.
64. زكي نجيب محمد : من زاوية فلسفية، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة 1993م.
65. زكي نجيب محمود : خرافة الميتافيزيقا، الأنجلو مصرية، القاهرة، سنة 1953م.
66. زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى سنة 2001م.
67. زكي نجيب محمود : نحو فلسفة علمية، الأنجلو مصرية، القاهرة، سنة 1958م.

68. زكي نجيب محمود : نافذة على فلسفة العصر، سلسلة فصيصة تصدرها مجلة العربي، الكويت، سنة 1990م.
69. سليمان بن صالح الخراشي : حقيقة الليبرالية، وموقف الإسلام منها، مركز التأصيل للدراسات والبحوث جامعة أم القرى، مكة المكرمة، سنة 2008م.
70. سماح رافع محمد : تاريخ الفكر الفلسفي في العصور القديمة، والحديثة، مؤسسة الفرسان طرابلس، سنة 1971م.
71. السيد يسين : الوعي التاريخي، والثورة الكونية حوار الحضارات في عالم متغير، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1995م .
72. شرف الدين عبد الحميد : العلاقة بين الفلسفة، والدين عند فلاسفة اليونان، دار الوراق للنشر و التوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2014م.
73. الشمري عبدالأمير سعيد : الفلسفة الأمريكية "برجماتية جون ديوي في الفكر، والعمل"، مطبعة دار الصنوبر، بغداد، سنة 2008م.
74. شوقي جلال : العقل الأمريكي يفكر من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات، مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة 2000م..
75. طارق عثمان الحسون : العولمة، والتنمية الاقتصادية، دار مجد للنشر والتوزيع، عمان، سنة 2015م.
76. عبد الأمير شمس الدين : الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأرقم، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1984م.
77. عبد الحي زلوم: حروب البترول الصليبية، والقرن الأمريكي الجديد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة 2005م.
78. عبد الرزاق الداوي : موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1992م.
79. عبد السلام أبو قحف : إدارة الأعمال الدولية، الدار الجامعية، الإسكندرية، سنة 2005م.
80. عبد العزيز صالح : تطور النظرية التربوية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1964م.
81. عبد العزيز صالح : التربية الحديثة مادتها، مبادئها، تطبيقاتها العملية، الجزء الثالث الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة 1985م.
82. عبد الغفار رشاد القصبي : التطور السياسي، والتحول الديمقراطي، دار الأصدقاء للطباعة والنشر مصر، سنة 2003م.
83. عبد القادر محمد فهمي: الفكر السياسي، والإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية : دراسة في الأفكار دراسة في الأفكار، والعقائد، ووسائل البناء الإمبراطوري، دار الشروق، عمان الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2008م.
84. عبد الكريم بكار: العولمة طبيعتها، وسائلها تحدياتها التعامل معها، دار الإعلام عمان الطبعة الثانية، سنة 2001م.

85. عبدالرحمن بدوي : الأخلاق عند كانط، وكالة المطبوعات، الكويت، سنة 1979م.
86. عبدالرحمن بدوي : شلنج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، سنة 1981م.
87. عزمي إسلام : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات الكويت، الطبعة الأولى، سنة 1980م.
88. عزمي عاشور : التحديث الموسوعة السياسية للشباب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2007م.
89. عصام محمد منصور: الفكر التربوي المعاصر، والبرغماتية، دارالخليج، عمان، الطبعة الأولى، سنة 2009م.
90. على عبد المعطي محمد: الفكر السياسي الغربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة 1996م.
91. علي زيعور : مذاهب علم النفس، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة 1980م.
92. علي عبد الهادي المرهج : الفلسفة البرجماتية أصولها، ومبادئها مع دراسة تحليلية في فلسفة مؤسسها تشارلس ساندريس بيرس، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2008م.
93. عمر أحمد الهمشري : مدخل إلى التربية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، سنة 2001م.
94. عادل عبد الحمزة ثجيل البدوي : الإدراك الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية دراسة في المبادئ الجيوبوليتيكية، دار الجنان للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2015م، ص36.
95. غليون برهان : العرب وعالم ما بعد 11 سبتمبر، دار الفكر، دمشق، سنة 2005م.
96. غضبان مبروك : المدخل للعلاقات الدولية، شركة باتنيسست للمعلوماتية والخدمات المكتبية الجزائر، سنة 2005م .
97. فضيل أبو النصر: الإنسان العالمي، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2001م.
98. فؤاد زكرياء : أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1993م.
99. فتحي حسين عامر: علم استطلاعات الرأي العام على الانترنت، العربي للنشر والتوزيع، مصر، سنة 2013م، ص153.
100. كاظم هاشم نعمة : دراسات في الإستراتيجية، والسياسة الدولية، دار الشؤون الثقافية بغداد، الطبعة الأولى، سنة 1990م.
101. مارسيل بريلو، جورج ليسكيه : تاريخ الأفكار السياسية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت سنة 1986م.
102. مصطفى حلمي : الأخلاق بين الفلاسفة، وعلماء الإسلام ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، سنة 1986م .

103. محروس سيد مر سي : التربية، والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي، وبعض الفلسفات الغربية، دارالمعارف، القاهرة، سنة 1988م.
104. محمد إبراهيم مبروك : الإسلام النفعي "الإسلام الذي تريده أمريكا"، والأثار المدمرة للأفكار النفعية علي المجتمعات الإسلامية، مركز الحضارة العربية للإعلام، والنشر، والدراسات القاهرة الطبعة الأولى، سنة 2010م.
105. محمد أحمد الدوري : محاضرات في الاقتصاد البترولي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1983م .
106. محمد النجحي : مقدمة في فلسفة التربية، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1981م.
107. محمد بن صالح العثيمين : شرح الأصول من علم الأصول، دار البصيرة، مصر، سنة 2001م
108. محمد بن صالح العثيمين : الأصول من علم الأصول، دار ابن الجوزي، الرياض، الجزء الأول سنة 2005م.
109. محمد جاسم ولي: مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثاني عشر "ثقافة الصور" الصورة وتأثيراتها النفسية والتربوية، والاجتماعية، والسياسية، مركز البحوث التربوية والنفسية، بغداد، سنة 2007م.
110. محمد جديدي : فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجا، تقديم فتحي التركي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، سنة 2004م.
111. محمد جلوب فرحان : دراسات في فلسفة التربية، مطبعة التعليم العالي بجامعة الموصل العراق، سنة 1989م.
112. محمد جلوب الفرحان : الخطاب الفلسفي التربوي الغربي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت سنة 1999م .
113. محمد جواد رضا : فلسفة التربية، ومعضلة القصور الذاتي في التربية العربية المعاصرة شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الثانية، سنة 1984م.
114. محمد سبيلا: الحادثة، وما بعد الحادثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2000م.
115. محمد عزيز سالم : الإسلام في مواجهة المذاهب الغربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية سنة 1996م.
116. محمد قطب : منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، بيروت، لبنان، الجزء الأول، سنة 1993م.
117. محمد مهران، محمد مدين : مقدمة في الفلسفة المعاصرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2004م .
118. محمد مهران رشوان : مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة الطبعة الثانية، سنة 1984م.

119. محمد ناصر : قراءات في الفكر التربوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الجزء الأول، الطبعة الأولى، سنة 1973م.
120. محمد رضوان هلال : المستندات كأدلة في مسرح الجريمة، طرق جمعها و تحريزها، الاستعراف بها تقسيمها معالجتها، وفحصها، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2015م.
121. محمود بكري : جريمة أمريكا في حرب الخليج الأسرار الكاملة، المطبعة الفنية، القاهرة، سنة 1991م.
122. محمود زيدان: وليم جيمس نوايغ الفكر الغربي، دار المعارف، القاهرة، سنة 1958م.
123. محمود فهمي زيدان: وليم جيمس، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى سنة 2005م.
124. مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة الطبعة الأولى، سنة 1998م.
125. مصطفى النشار: مدخل لقراءة الفكر الفلسفي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر، مصر، سنة 1998م.
126. مصطفى حلمي : الفكر الإسلامي في مواجهة الغزو الثقافي في العصر الحديث، دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الأولى، سنة 1997م.
127. معن النقري : العولمة، الكوكبة، منهجيا، ونظريا، وتطبيقيا، دار النشر والتوزيع، سوريا دمشق الطبعة الأولى، سنة 2003م.
128. ممدوح محمود منصور: العولمة دراسات في المفهوم، والظاهرة، والأبعاد، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، سنة 2007م.
129. منصور بن عبدالعزيز الحجيلي : البرجماتية عرض، ونقد ، دار الكتب الجديدة المتحدة، لبنان سنة 2004م .
130. مورتون وايت : عصر التحليل، فلاسفة القرن العشرين، ترجمة أديب يوسف شيش، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سنة 1975م.
131. موريس كور تغورث: البرجماتية، والفلسفة العلمية، ترجمة إبراهيم كبة، مطبعة الرابطة بغداد سنة 1960م.
132. ميكافيلي : الأمير، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة، سنة 2004م.
133. محمد الغزالي : عن التعصب "توثيق لتاريخ التعصب في الأديان السماوية والمجتمعات العربية" دار دؤن للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 2014م.
134. نازلي صالح وعبد الغني عبود : في التربية المقارنة، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى سنة 1974م .

135. ناصيف نصار: باب الحرية، انبثاق الوجود بالفعل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2003م.
136. هانس بيتر مارتين- هارالد شومان : فخ العولمة الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم رمزي زكي، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون، والآداب، الكويت، سنة 1998م.
137. هاني محمد رشاد بخيت : البرجماتية الأمريكية المعاصرة أصولها اليونانية، المكتبة المصرية الإسكندرية، سنة 2006م.
138. هيدسون جون هرنر مارك: العلاقات الاقتصادية الدولية، ترجمة منصور طعمة، ومحمد علي عبد الصبور، دار المريخ للنشر، السعودية، سنة 1987م.
139. هيربرت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، سنة 1963م .
140. هنري برغسون: بحث في المعطيات المباشرة للوعي، ترجمة الحسين الزاوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2009م.
141. هنري توماس، ودانيال توماس: المفكرون من سقراط الى سارتر، ترجمة عثمان نويه مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، سنة 1970م.
142. ول ديورانت : قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة، سنة 1988م.
143. وليام جيمس : إرادة الاعتقاد، ترجمة محمود حب الله، دار جياء الكتب العربية، مصر سنة 1897م.
144. وليام جيمس : بعض مشكلات الفلسفة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مراجعة زكي نجيب محمود المؤسسة المصرية العامة لتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة 1962م.
145. وليام جيمس: البرغماتية، ترجمة محمد علي عريان تقديم زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سنة 2008م
146. وليام كلي رايت : تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، تقديم ومراجعة إمام عبد الفتاح إمام، دار الكوثر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2010م.
147. لواء أركان حرب، عبد الحميد شرف : 14 قرناً من الصراع بين الشرق والغرب "رؤية جديدة"، سما للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، سنة 2015م.
148. يحي هويدي: قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر، والتوزيع، القاهرة، سنة 1993م.
149. يحيى الياحيوي: العولمة: أية عولمة؟، منشورات أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، سنة 1999م.

150. صامويل هينجتون : صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشائب، تقديم صلاح قنصوه، سطور، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة 1999م.
151. يعقوب فام: البرجماتزم أو مذهب الذرائع، مطبعة لجنة التأليف، والترجمة، والنشر، القاهرة، سنة 1936م.
152. يوسف عيد : المدارس الأدبية ومذاهبها، القسم النظري، والقسم التطبيقي، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1994م.
153. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، سنة 2012م.
154. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، سنة 2012م.

المجلات والصحف

1. أحمد إدريس الطعان: أخلاق القوة بين المفهوم الإسلامي والغربي دراسة مقارنة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 27، العدد الثالث، سنة 2011م.
2. أحمد عبد العزيز، جاسم زكريا : الشركات المتعددة الجنسيات وأثرها على التنمية، مجلة الإدارة والاقتصاد السفارة السورية في العراق، العدد 85، سنة 2010م.
3. أشرف يوسف أبوعطايا : دور القرآن الكريم في تشكيل وعي الأمة، القرآن الكريم ودوره في معالجة قضايا الأمة، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي مركز القرآن الكريم، والدعوة الإسلامية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، سنة 2008م.
4. إسراء حامد علي الجبوري : سمات الاغتراب في فن ما بعد الحداثة، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، العراق، المجلد 22، العدد الخامس، سنة 2014م.
5. إيلاف سعد البصري : الفكر الجمالي في الفلسفة البرجماتية، مجلة كلية التربية الأساسية الجامعة المستنصرية، العراق، العدد 50، سنة 2007م.
6. برتراند راسل : حكمة الغرب الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون، والآداب، الكويت، الجزء الثاني، سنة 1983م.
7. بنجامين كوهين : مستقبل عملات الإحتياط ، مجلة التمويل والتنمية، القاهرة، المجلد 64، العدد الثالث، سنة 2009م.

8. بومانة محمد : مكانة التربية في فلسفة كانط ، التربية والابستمولوجيا مجلة علمية محكمة تصدر عن مخبر التربية والابستمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة، الجزائر، العدد الأول، سنة 2011م.
9. جون ماكوري : الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 58، سنة 1982م.
10. حسام علي عبد الوهاب: المنهج العلمي بين تشارلز بيرس وكارل بوبر، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سوريا، المجلد 36، العدد 4، سنة 2014م.
11. حسين اغا وآخرون: قضايا الخليج العربي، سلسلة الدراسات الاستراتيجية العربية للدراسات والنشر، لندن، العدد العاشر، سنة 1982م.
12. حموش عبد الرزاق : العلاقات العربية الأمريكية في وسائل الاعلام خلال مرحلة الثورات العربية الأخيرة، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، الجزائر، العدد 11، سنة 2013م.
13. حميد الجميلي : عناصر قوة الاقتصاد الأمريكي وضعفه مع إشارة خاصة للمديونية الأمريكية، مجلة منتدى الفكر العربي، عمان، الأردن ، المجلد 28، العدد 258، سنة 2013م.
14. حنفي جميلة : دور المدرسة في بناء الديمقراطية لدى جون ديوي، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية قسم الآداب والفلسفة، الجزائر، العدد 10، سنة 2010م.
15. حيرش سمية : الحقيقة البراغماتية بين الاعتقاد والعمل شارل سندر بيرس نموذجاً، مجلة الحوار الثقافي، مستغانم، وهران، العدد التاسع، سنة 2016م.
16. راسل جاكوبي: نهاية اليوتوبيا السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة فاروق عبد القادر سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 269 سنة 2002م.
17. رعد حميد توفيق صالح البياتي : أثر البعد الديني في الإعلام الأمريكي العولمي الجديد، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العراق، العدد 37، سنة 2012 م.
18. روبرتو منغابيرا أونغر: يقضة الذات برجماتية بلاقيود، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، العدد 375، سنة 2010م.
19. زكي نجيب محمود: نافذة على فلسفة العصر، وزارة الإعلام مجلة العربي، الكويت، الجزء الثاني الطبعة الأولى، سنة 2014م.
20. سعد حقي توفيق : التنافس الدولي وضمان أمن النفط، مجلة العلوم السياسية، بغداد، العدد 43، سنة 2011م.

21. سعيد إسماعيل علي : فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون، والآداب، الكويت، العدد 198، سنة 1995م.
22. سعيد زيداني : اطلاله على الديمقراطية الليبرالية، ورقة مقدمة لندوة المسألة الديمقراطية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، سنة 2000م.
23. سلافة فاروق الزغبى : فلسفة الإعلام الأمريكي والشبكات الفضائية، مجلة الباحث الإعلامي الأردن، العدد 8، سنة 2010م.
24. سليم كاطع علي: مقومات القوة الأمريكية وأثرها في النظام الدولي، مركز الدراسات الدولية جامعة بغداد، العدد الثاني والأربعون، سنة 2014م.
25. شريف محمد عوض: صناعة الثقافة في عصر العولمة، وأثرها في تغيير ملامح الهوية الثقافية مجلة هرمس، القاهرة، المجلد الثاني، العدد الأول، سنة 2013م.
26. شبيخة بنت سيف آل نهيان : مفهوم العمل في القرآن الكريم، مجلة المسلم المعاصر، لبنان العدد 144، سنة 2012م .
27. صالح شاكر وتوت : أهمية وكالات الأنباء كمصدر من مصادر الاعلام، مجلة أهل البيت العراق، العدد الأول سنة 2004م.
28. طلال حامد خليل : المرتكزات الفكرية لليبرالية دراسة نقدية، مجلة دفاتر السياسة والقانون جامعة دبالى الجزائر العدد الخامس عشر، سنة 2016م.
29. عبد العزيز المنصور: العولمة والخيارات العربية المستقبلية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 25، العدد الثاني، سنة 2009م.
30. عبد القادر تومي: التربية والمجتمع في زمن العولمة وأسئلة الأولويات نحو رؤية تحليلية، مجلة علمية محكمة تصدر عن مخبر التربية والابستمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر العدد الأول، سنة 2011م.
31. عبد الله قلي : غايات التربية في ضوء العولمة، مجلة علمية محكمة تصدر عن مخبر التربية والابستمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، العدد الأول ، سنة 2011م.
32. عصام عبد الحسين نومان : الفكر التوسعي الأمريكي دراسة فلسفية في تأصيل المفهوم مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، العراق، المجلد الثالث، العدد الثاني، سنة 2013م.
33. عماد خالد رحمة: فلسفة الغزو الإعلامي الغرب أمريكي، مجلة الأسبوع الأدبي، بدمشق العدد 1299، سنة 2012م.

34. عزة محمد مصطفى الجندي: البرجماتية الأدائية عند جون ديوي "عرض ونقد"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر، الإسكندرية، العدد الخامس، سنة 2017م.
35. كرين برينتون : تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة الكويت، العدد 82، سنة 1984م.
36. كفح يحيى صالح العسكري: الغزالي وجون ديوي ونظريتهما للطبيعة الإنسانية، لجنة البحث، والدراسة في التراث النفسي العربي، سوريا، العدد الثاني، سنة 2010م.
37. محمد سعيد العشماوي : البرجماتية نظرة أمريكية للعالم، مجلة العربي مجلة الإعلام الكويتية الكويت، العدد 471 سنة 1998م.
38. محمود الآغا : المنهج البراجماتي - أصوله ومحتواه، مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت العددان الثامن والتاسع، سنة 1980-1981م.
39. موسى عبد الرحيم حلس ناصر علي مهدي : دور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدى الشباب الفلسطيني دراسة ميدانية على عينه من طلاب، مجلة سلسلة العلوم الإنسانية جامعة الأزهر، بغزة، المجلد 12 العدد الأول، سنة 2010م.
40. هانس بيتر مارتن، هالدشومان : فخ العولمة لاعتداء على الديمقراطية و الرفاهية ترجمة عدنان عباس علي مراجعة رمزي زكي، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، الكويت، العدد 238، سنة 1998م.
41. نزار نجيب حميد : الذريعة في الفلسفة البرجماتية، وانعكاسها على السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، مجلة كلية العلوم الإسلامية الموصل، العراق المجلد السابع، العدد الثاني، سنة 2013م.
42. يزيد عيسى السورطي: تأثير الفلسفة البراجماتية على التربية العربية : ونتائجه أسبابه ومصادره، دراسات العلوم التربوية الزرقاء، الأردن، العدد 35، سنة 2008 م.

القواميس والموسوعات

1. إبراهيم مذكور : المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، سنة 1983م
2. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، المجلد الأول، الطبعة الأولى، سنة 2008م.
3. أسعد محمد علي النجار : المحيط في أصول ألفاظ اللهجة الحلية، مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية، سنة 2012م.

4. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي : **معجم مصطلحات حقوق الإنسان**، دار النشر، مصر، سنة 2002 م.
5. إميل بديع يعقوب، ميشال عاصي : **المعجم المفصل في اللغة والأدب**، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، المجلد الأول، الطبعة الأولى، سنة 1987م
6. أندريه لالاند : **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة خليل أحمد خليل، أحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت باريس، المجلد الأول، الطبعة الثانية، سنة 2001م.
7. جبور عبد النور : **المعجم الأدبي**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1979م.
8. جلال الدين سعيد : **معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية**، دار الجنوب للنشر، تونس، سنة 2004م،
9. جميل صليبا : **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الجزء الأول، سنة 1982م.
10. رالف ن. وين : **قاموس جون ديوي للتربية "مختارات من مؤلفاته"**، ترجمة محمد علي العريان مكتبة الأنجلو المصرية مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، سنة 1964م.
11. روزونتال ويودين وآخرون: **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للنشر، بيروت الطبعة الثالثة سنة 1981 م.
12. زكي نجيب محمود : **الموسوعة الفلسفية المختصرة**، ترجمة فؤاد كامل، عبد الرشيد الصادق، جلال العشري دار القلم، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
13. شفيق الخطيب : **معجم مصطلحات البترول والصناعة النفطية**، مكتبة لبنان ساحة رياض الصلح بيروت الطبعة الجديدة، سنة 1990م.
14. طوني بينيت، لورانس غرو سبيرغ، ميجان موريس : **مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع**، ترجمة سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2010 م .
15. عبد الرحمن بدوي: **الموسوعة الفلسفية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الجزء الأول سنة 1984م.
16. كميل الحاج: **الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي**، دار النشر مكتبة، لبنان الطبعة الأولى، سنة 2000م.
17. مانع بن حماد الجهني : **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المجلد الأول، الطبعة الرابعة، 2000م.

18. نبيل موسى : موسوعة مشاهير العالم ، أعلام علم النفس أعلام التربية، والطب النفسي، والتحليل النفسي، دار الصداقة العربية، بيروت، لبنان، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، سنة 2002م.
19. ناظم عبد الواحد الجاسور : موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن الطبعة الأولى، سنة 2009م.
20. وين رالف بارتون : قاموس جون ديوي للتربية، ترجمة محمد علي العريان مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة سنة 1964م.

Références en langues étrangères

A- Ouvrages

1. Blanshard, Brand and others, **Philosophy in American Education**, 1 st Edition, American Book–Stratford press, Inc. , N. Y., 1960.
2. Blau Joseph : "**Men and movements in American philosophy** " **Prentice Hall philosophy series**, New York, 1953.
3. Buchler, Justus: **Charles Peirce's Empiricism**, Kegan Paul Trench **Trubner**, London, 1939.
4. Charles Senders Peirce: **How to make Our Ideas Clear**, in, Pragmatism A reader, edited by Luis Menand, New York, Vintage Books, 1997.
5. Christian Bouchindhomme :**Le vocabulaire de Habermas** , Paris, Ellipses Editions, Marketing S. A., 2002.
6. Haward Wilson :**Education foreigs in policy and international relations in Robert Blum cultural and affairs foreign relations**,N,J, Prentica, Hall, l.n.c1973.
7. Houser, NathanM : **The Fortunes and Misfortunes of the Peirce Papers** ... of the International Association for Semiotic Studies in **Perpignan**, France, in 1989
8. J.Dewey, **Intelligence in the Modern World**, John Dewey's philosophy, edited by Joseph Ratner, N.Y: Modern Library Giant, 1939.

9. John Baylis, Stive Smith : **The globalization of world politics**, UK, Oxford university press, 1st edition, 2001.
10. John Dewey : **The Influence of Darwin on Philosophy and Other Essays in Contemporary Thought**, Bloomingtown USA, Indiana University Press, 1 st Midland Book edition, 1965.
11. John Rajchman : **L a philosophie en Amérique in, L a pensée américaine contemporaine sous la direction de John Rajchman et Cornel west** t raduction del'américain par André Lyotard–May, PUF, 1re édition, 1991 .
12. John Rajchman : **La philosophie en Amérique, in, La pensée américaine contemporaine, sous la direction de John Rajchman et Cornel west**, traduction de l'américain par André Lyotard–May, PUF, 1re édition, 1991.
13. Peirce, C.S.: **How to Make our Ideas Clear, in The Philosophy of Peirce**, Selected ed Wñritings, by Justus Lachler, Harcourt, Brace and Company N.Y.1940.
14. Peirce. C.S : **How to make our Ideas Clear, Collected Papersof Charles Sanders Peirce** , HarvardUniversity press 1959 .
15. Richard Rorty : **L'espoir au lieu du savoir Introduction au pragmatisme**, Edition française établie par Claudine Cowan et Jacques Poulain, Paris, Editions Albin Michel, 1995.
16. W. B, Gallie: **Peirce and Pragmatism**, 1 st edition, Great britian for penguin books, Edinburgh, 1952.
17. W. James: **Varieties of Religious Experience Pragmatism**, Meridian Books, Newyork. 1959.
18. William James: **La Volonté De Croire**; Trad, Fr. Ed, Seuil, 2005.
19. William James : **Pragmatism's Conception of Truth** , in, Pragmatism A reader, edited by Luis Menand, New York, Vintage Books, 1997.

20. William James :**Le Pragmatisme et la religion ;in Le Pragmatisme** ,
Traduction Française , Introduction Bergson(h) ,Edition Flammarion ,1947.
21. William James: **Le Pragmatisme**, traduit par E. Le Brun, Introduction de
Henri Bergson, Paris , Flammarion, 1986

B- article dans les revues et les journaux

1. Benton, William: **Encyclopedia Britanica**, Vol. 12, by a society of
Gentlemen in Scotland , Inc. U.S.A. 1973.
2. Gauchotte Pierre : **Le Pragmatisme " que sais-je? "** , n°2688, 1re
édition , Paris presses universitaires de france 1992 .
3. Jan E. Servaes : "**European Press Coverage of the Grenada Crisis**",
Journal of Communication, 41, 4, Autumn 1991.
4. Jean-François Côte": **Le néo-pragmatisme et l'interprétation
postmoderne de la culture américaine contemporaine**",in, Cahiers de
recherche sociologique, n°15, automne 1990.
5. L aurent Bouvet: "**La renaissance de la philosophie politique aux
Etats- Unis**", in, magazine littéraire, N°380 Octobre 1999.
6. Peirce, C.S : **Writings of Charles S. Peirce**, a Chronological Edition ,
IndianaUniversity Volume 8, 1890-1892.
7. Peirce, C.S : **Writings of Charles S. Peirce**, a Chronological Edition ,
IndianaUniversity Volume 8, 1890-1892.
8. W. Lance Bennett : **Toward a Theory of Press-State Relations in The
United States** , Journal of Communication, vol 40, No 2, Spring 1990.
9. William H. Kilpatrick :**Dewey's Influence on Education**, in P. A. Schilpp ,
The Philosophie of John Dewey vol. XXVII, n° 3, septembre 1997.

10. William James :**The Principles of Psychology** ,ED Authorized, vol II , 1950.

مراجع من شبكة الانترنت:

1. أبو الحارث التميمي : البرجماتية تحليل وتعليق، بتاريخ 01-02-2006م.
<http://www.elthwed.com>
2. أحمد بن عبد الرحمن الشميمري : البرجماتية - نشأتها وأثرها على سلوك المسلمين، بتاريخ 01/01/2002م.
<http://www.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=120>
3. أشرف حسن منصور : الفلسفة الحديثة عوامل نشأتها و خصائصها العامة ، الحوار المتمدن العدد 3213 بتاريخ 12-12-2010م.
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=238064>
4. أشرف يوسف : الوعي والوعي الفكري ، ملتقى رابطة الواحة الثقافية، منبر الفكر والمعرفة، بتاريخ 19-03-2009م. <http://www.rabitat-alwaha.net/moltaqa/showthread.php?t=35504>
5. أنطونيوس نادر : منطق الغموض وحدوده في النظرية البرغماتية والدلائية "تشارل ساندرز بيرس أنموذجاً" بتاريخ 25 أغسطس، سنة 2019م. <https://mana.net/archives/2180>
6. إيمان بطمة : تعريف منظمة اليونيسكو، بتاريخ 3 يناير 2019م. <https://mawdoo3.com>
7. إسماعيل ميرشم : تعريف وأنواع الدكتاتوريات مجتمع مدني، الحوار المتمدن العدد 3425 بتاريخ 13-07-2011م. www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=267063
8. البار عبد الحفيظ : امتدادات فلسفة التربية البراغمتية " في العالم العربي من خلال الفيلسوف المرابي " جون ديوي" بتاريخ 26-06-2012م. <http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=27895>
9. بشار الجعفري : الجذور الفلسفية للبراغماتية السياسية، في تشرين الثاني 06- 2014م. <http://ncro.sy/?p=1262>
10. بلقاسم مليكش: الديمقراطية السورية والديمقراطية التشاورية، التداولية، التواصلية عند يورغن هابرماس بتاريخ 16 أبريل 2014م. <http://www.civicegypt.org/?p=47931>

11. تركي البيرماني: البرجماتية فلسفة وتربية الحوار المتمدن، العدد 2116، بتاريخ 1-12-2007م.
<http://www.ahewar.org/debat/print.art.asp?t=0&aid=117074&ac=1>
12. توماس جورجيسيان: حالة الإعلام الأمريكي، مستقبل الراديو والتلفزيون والأخبار الإلكترونية، تقرير واشنطن بتاريخ 4-8-2006م.
[http://siironline.org/alabwab/solta4\(17\)/44.htm](http://siironline.org/alabwab/solta4(17)/44.htm)
13. جمال على الدهشان: ما بعد الحداثة والتربية، ورقة عمل مقدمة إلى المؤتمر العلمي الأول لقسم أصول التربية "التربية في مجتمع ما بعد الحداثة"، كلية التربية - جامعة بنها الفترة من 21-22 يوليو 2010م، بتاريخ الخميس، 19 ديسمبر، 2013م.
http://geldahshancom.blogspot.fr/2013/12/blog-post_3671.html
14. جمعان بن محمد الشهري: البرغماتية الأمريكية، وتطبيقاتها السياسية، بتاريخ 9-22-2016م.
<http://www.nama-center.com/ActiviteDatials.aspx?id=30707>
15. خالد حسن هنداي: العولمة، بتاريخ 02-18-2015م.
<http://www.alhiwartoday.net/node/9315>
16. خبيب زهير: إيفانز و سويل: النيوليبرالية: الأيديولوجيا، والسياسات، والآثار الاجتماعية، بتاريخ 2016م.
<http://nthar.net/neoliberalism>
17. خولة نكاش: الوجودية، بتاريخ 26 جانفي 2016م.
<http://tcs4.biof.over-blog.com/2016/01/56aa7447-24f5.html>
18. خضر حيدر: ما بعد الغرب بحث في معاني ودلالات مفاهيم ومصطلحات تأسيسية، بتاريخ 2019م.
<https://istighrab.iicss.iq/files/investigations>
19. خالد أحمد الشنتوت: الراديكالية، بتاريخ 1 أفريل 2016م. www.dr-khaled.net/index.php?option
20. حسام حداد: إخوان الصفا، 10 نوفمبر 2018م. <https://www.islamist-movements.com>
21. حسين وحيد عزيز الكعبي: نظرية ماكندر، بتاريخ 27-12-2015م.
www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/lecture.aspx?fid
22. حيدر صبري شاكر الخيقاني: كارل ماركس والماركسية (دراسة تحليلية - نقدية)، دراسات في التاريخ والآثار، جامعة بغداد، بتاريخ 2009م.
<https://www.researchgate.net/publication>

23. دنحا طوبيا كوركيس: البرغماتية والفائداتية، الموصل/ العراق في 16/11/1985.
<http://www.ankawa.com/forum/index.php?topic=364183.0;wap2>
24. رمضان الغنام : أمريكا دولة المصالح، لا المثل والقيم، موقع طريق الإسلام، بتاريخ 2014/5/12 م. <http://ar.islamway.net/article>
25. رمضان الغنام: النفعية في الخطاب الليبرالي المعاصر، بتاريخ السبت 18 ذو الحجة 1433 هـ.
<http://taseel.com/articles/1627>
26. ريهام منعم : الولايات المتحدة تعتزم زيادة إنتاجها النفطي بشكل قوي، بتاريخ 02-02-2017م.
27. سعدي العنيزي: جون لوك وأثره في الفلسفة الغربية، بتاريخ 29 يناير 2016م.
<http://www.arabrenewal.info>
28. سلام إبراهيم عطوف كبة : البراغماتية والتدخلات الحكومية في العراق، بتاريخ 28-03-2009 م.
<http://www.gilgamish.org/printarticle.php?id=17342>
29. صادق جواد سليمان: البعد الفلسفي في الخبرة الأمريكية، اللجنة العربية لحقوق الإنسان، بتاريخ 09-02-2002م. <http://www.achr.eu/art577htm>
30. طارق حرب : سلسلة مواضيع عن التربية فلسفة جون ديوي، وتأثيرها على نظام التربية في السويد الحوار المتمدن العدد 1520، سنة 2006م.
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=61348>
31. الطيب بيتي العلوي: البراغماتية... ذلك المصطلح الفلسفي البغيض بتاريخ، 8 أيلول 2007م.
<http://www.odabasham.net/%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A9/56192-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7-5619>
32. عامر الأسمرى : مخاطر العولمة، علينا بتاريخ 28-01-2010 م. <http://www.alukah.net/sharia/0/9440>.
33. عبد اللطيف حني: التداولية الإبداعية في الشعر الثوري الجزائري، مجلة الأثر الجزائر، العدد الخاص أشغال الملتقى الرابع للتحليل الخطاب، بتاريخ 9 فيفري 2015م.
<https://dspace.univ-ouargla.dz/jspui/bitstream/123456789/6209/1/06.pdf>
34. عبد الله أبو هيف: الغزو الثقافي والمفاهيم المتصلة به، مجلة النبأ، العدد 63، سنة 2001م.
<http://annabaa.org/nba63/qazo.htm>
35. عبد الهادي الطهمازي : الغزو الثقافي، وأهم أدواته، بتاريخ الثلاثاء 11 كانون الأول 2018م.
<https://afaq.tv/articles/view/details?id=2337>

36. عدنان عويد : الفلسفة البرجماتية، بتاريخ الخميس 28 شباط 2013م.
saotaliassar.org/Writer/AdnanUwaied/PragmatPhilos.htm
37. عبد الكريم نصيف: خطاب الحق وخطاب القوة، بتاريخ 13-10-2018م.
<https://new.reefnet.sy/book/upload/old/fikr/21/3khitab.pdf>
38. عبد الله جمعان محمد الغامدي : الأيديولوجية السياسية الأمريكية : محدداتها.. اتجاهاتها الرئيسية.. وتأثيرها على السياسة العامة، مجلة البيان، 21-10-2014م.
albayan.co.uk/RSC/Article2.aspx?id=3344
39. غيضان السيد علي : الإستخدام النفعي للدين في الغرب، الحوار اليوم بتاريخ 4-18-2016م.
<http://www.alhiwartoday.net/node/10600>
40. غادة الحلايقة: أين تقع مدينة هوليوود، بتاريخ 8 نوفمبر 2012م. <https://mawdoo3.com>
41. غادة الحلايقة : ماهي اتفاقية كامب ديفيد، بتاريخ 16 افريل 2018م. <https://mawdoo3.com>
42. ماجد محمد حسن : الفلسفة البرجماتية، العدد 816 بتاريخ، 26-4-2004م.
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=174>
43. ماهر أحمد السوسي: مفهوم العمل في الإسلام ، بتاريخ 29-01-2016م.
www.alkhaleej.ae/supplements/page/b8611b28-30e9-4676-a140-9a237a78b3b
44. مجدوب: واشنطن تقرر مضمون الفيلم ونيويورك تمول وهوليوود تنفذ، دبي قناة العربية بتاريخ 19 نوفمبر 2012م. <http://www.alarabiya.net/articles/2012/11/19/250521.html>
45. محمد أحمد أبو عيد : برجماتية الكتابة العربية، دراسة في اللسانيات الاقتصادية، جامعة البلقاء التطبيقية، كلية إربد الجامعية بتاريخ 11-11-2012م. <http://adabjournal.uofk.edu>
46. محمد الجاغوت : الفلسفة البرجماتية، بتاريخ 17 مارس 2009م.
<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article17553>.
47. محمد الفرحان : مقدمة في الأبتمولوجيا تاريخ ومدارس، مجلة أوراق فلسفية جديدة، المجلد الأول، العدد الأول سنة 2011م. <https://philospaper.wordpress.com/2011/02>
48. محمد بن سالم الفيافي : إطلالة على البرجماتية، بتاريخ 2 ديسمبر 2011م.
<http://www.faifaonline.net/faifa/articles-action-show-id-1997.htm>.

49. محمد سعيد العشماوي : البرجماتية نظرة أمريكية للعالم، مجلة شهرية ثقافية مصورة تأسست، عام 1958م. تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت للوطن العربي، العدد 471، سنة 1998م.
<http://www.alarabimag.com/Article.asp?ART=5419&ID=204>
50. محمد عثمان : ضغط العولمة: برجماتية ما بعد الحداثة في مواجهة الإسلام، سنة 2005م.
<http://annabaa.org/nbahome/nba76/awlama.htm>
51. مراد العبدى : الوجودية في الفلسفة المعاصرة سارتر نموذجاً، بتاريخ 7 يوليو 2012م.
<http://www.anfasse.org>
52. مراد وهبة : رؤيتي لـ "القرن العشرين" 1907م ، الأهرام اليومي، سنة 2013م.
<http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=560240&eid=76>
53. مريم محمد الشهري : قراءة في الفكر التربوي لـ جون ديوي، بتاريخ 27-04-2018م.
<https://www.new-educ.com>
54. مريم محمد الشهري : الفلسفة المثالية روادها وتطبيقاتها التربوية، بتاريخ 01-07-2019م .
<https://www.new-educ.com>
55. مصطفى حلمي : الأخلاق في الفلسفة العملية (البرجماتية) ، بتاريخ 15-09-2012م.
<http://www.alukah.net/sharia/0/44253>
56. مصطفى حلمي : الفلسفة الرواقية ومعالمها الأخلاق والصلة بين الطبيعة والعقل ونقد المذهب، بتاريخ 29-12-2012م. <http://www.alukah.net/sharia/0/4838>
جمال سلطان : طالبان وأمريكا والتضليل الإعلامي، بتاريخ 29-1-2009م.
<http://articles.islamweb.net/>.
57. مصطفى محمد غريب : الثقافة والوعي عند الانسان، الحوار المتمدن، العدد 498، بتاريخ 25-05-2003م.
58. منار الشوربجي : كورنيل ويست، بتاريخ 29-06-2016م.
<http://democracy.ahram.org.eg/News>
59. منير الشواف : السياسة الأمريكية بين الأيديولوجية والبراغماتية، قضايا فكرية، بتاريخ 16/6/2005م.
<http://thawra.alwehda.gov.sy/>
60. مهدي فهمي التميمي: البراغماتية في الفكر السياسي الأمريكي المعاصر، بتاريخ الأربعاء، 29 فبراير 2012م
alsafeerint.blogspot.com/2012/02/1432-2011.html

61. محمد الورداشي : الفلسفة التحليلية "نشأتها، أهدافها، اتجاهاتها"، الحوار المتمدن العدد 5498، بتاريخ 21 - 04 - 2017م. www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=555903&r
62. هشام آيت باحسين: الفلسفة البرجماتية سر الهيمنة الأمريكية، بتاريخ 2013م. http://www.philopress.net/2013/07/blog-post_22.html
63. هاجر موحنيطو: فرادانية التجربة الدينية " وليام جيمس أنموذجاً"، بتاريخ 31 مايو 2014 . <https://www.mominoun.com/articles>
64. هاشم راضي جثير العوادي: فلسفة التربية الواقعية، بتاريخ 15-05-2015 م . www.uobabylon.edu.iq
65. وجدي حمدي : سيرة مختصرة وعرض للماركسية، بتاريخ فيفيري 2004 م . <http://lenin.public-archive.net/ar/L2257ar.html>
66. ياس خضير البياتي : الغزو الإعلامي و"تغليب الأفكار الفاسدة" للوطن العربي ، بتاريخ 21-04-2012م. www.alkhaleej.ae/alkhaleej/page/178dba4b-b232-4286-a2ca-15e106287b9f
67. فاروق خالد : التدفق الإخباري الدولي والإعلام الدولي، بتاريخ 12-01-2014م. <https://www.balagh.com/mosoa/article>
68. روبرت مارдох : فوكس نيوز، موسوعة الجزيرة، بتاريخ 22-10-2015م. <https://www.aljazeera.net/encyclopedia>
69. <https://www.aljazeera.net/encyclopedia>

الرسائل والبحوث الأكاديمية:

1. البار عبد الحفيظ : فلسفة التربية عند جون ديوي، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، سنة 2010م.
2. بن طرات جلول : اللغة وجدلية الفكر والمادة مقارنة فلسفية بين هيغل وماركس، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة الموسومة، جامعة، وهران الجزائر، سنة 2012-2013م.
3. حشماوي محمد : الاتجاهات الجديدة للتجارة الدولية في ظل العولمة الاقتصادية، أطروحة لنيل دكتوراه دولة في العلوم الاقتصادية كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، سنة 2006م.
4. حبرش سمية : الفلسفة الأمريكية بين الليبرالية، والبرجماتية شال بيرس نموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، جامعة وهران الجزائر، سنة 2012م.
5. عبد المنعم حسن محسن عواد : أصول الفكر التربوي عند أبي حامد الغزالي أصول الفكر التربوي عند أبي حامد وابن رشد، وابن ، وابن رشد، وابن، خلدون خلدون : مقارنة دراسة تحليلية مقارنة دراسة تحليلية الحديث، أطروحة دكتوراه في فلسفة التربية تخصص أصول التربية في جامعة، عمان العربية للدراسات العليا، سنة 2007م.

6. عزت إبراهيم : ورقة بحثية حول دور وسائل الإعلام في تشكيل صورة أمريكا، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة 2009م.
7. عشوش صبرينة: الأصول التجريبية للبرجماتية جون ديوي نموذجاً، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، سنة 2012م.
8. محمد جديدي : الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الدولة في الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، سنة 2006م.
9. محمد خصر عوص شبير : دراسة ناقدة للفلسفة البرجماتية في ضوء المعايير الإسلامية ، قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير قسم أصول التربية تخصص التربية الإسلامية بالجامعة الإسلامية، بغزة، سنة 2010م.
10. نايف عبد الرازق بن جمادي المطرفي : الفردية في الفلسفة البرجماتية دراسة تحليلية ناقدة من وجهة نظر التربية الإسلامية، مكل لنيل درجة الماجستير بقسم التربية الإسلامية والمقارنة كلية التربية، جامعة أم القرى السعودية، سنة 2011م.
11. أم كلثوم يوسف إبراهيم أحمد : براجماتية وليام جيمس دراسة تحليلية نقدية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الفلسفة، جامعة الخرطوم، سنة 2004م.

الصفحة	العنوان
04.....	مقدمة.....
18.....	الباب الأول الفلسفة البرغماتية "المفهوم، النشأة ، الرواد، التجلي "
20.....	الفصل الأول البرغماتية مقارنة مفاهيمية.....
22.....	المبحث الأول المفهوم اللغوي للفلسفة البرغماتية.....
34.....	المبحث الثاني المفهوم الاصطلاحي للفلسفة البرغماتية
	المبحث الثالث تطور المفهوم البرغماتي عبر التاريخ.....
63.....	الفصل الثاني رواد الفلسفة البرغماتية في الفكر الأمريكي.....
81.....	المبحث الأول فلسفة تشارلز ساندرس بيرس البرغماتية.....
97.....	القضية البرغماتية عند بيرس,.....
101.....	نظريتا المعنى والاعتقاد وأهم مناهج تثبيت الاعتقاد عند بيرس.....
113.....	نظرية المعرفة عند بيرس
116.....	المنهج البرغماتي عند بيرس
	أثر إيمانويل كانط في برغماتية بيرس وسبب تغير بيرس اسم البرغماتية إلى البرغماتيكية.....
119.....	المبحث الثاني فلسفة وليام جيمس.....
124.....	

132.....	المراحل الرئيسية في تطوره الفكري
138.....	المنهج البرغماتي عند وليام جيمس
143.....	الحقيقة في فكر جيمس البرغماتي
147.....	فردانية التجربة الدينية في فكر جيمس البرغماتي
159.....	المبحث الثالث فلسفة جون ديوي البرغماتية
170.....	الأداتية عند جون ديوي
174.....	موقف ديوي من مجالات الفلسفة
177.....	نظرة ديوي للعالم والمعرفة والقيم
197.....	نظرية ديوي السياسية في الديمقراطية
204.....	الفصل الثالث تجليات الفلسفة البرغماتية في الواقع الأمريكي
206.....	المبحث الأول التجليات الاقتصادية للفلسفة البرغماتية الأمريكية
239.....	المبحث الثاني التجليات السياسية للفلسفة البرغماتية الأمريكية
274.....	المبحث الثالث التجليات الثقافية للفلسفة البرغماتية الأمريكية
296.....	المبحث الرابع التجليات الإعلامية للفلسفة البرغماتية الأمريكية
322.....	الباب الثاني الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية
324.....	الفصل الأول الأسس النظرية للفلسفة البرغماتية عبر التاريخ
325	المبحث الأول الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث اليوناني
352.....	المبحث الثاني الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الروماني

المبحث الثالث الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الإسلامي	355
المبحث الرابع الأساس النظري للفلسفة البرغماتية في التراث الحديث.....	374
الفصل الثاني مكانة الفلسفة البرغماتية في الفكر الإنساني	418
المبحث الأول آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الفكري المعاصر	420
المبحث الثاني آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الثقافي	480
المبحث الثالث آثار الفلسفة البرغماتية في صياغة الوعي الاقتصادي	501
الخاتمة.....	515
فهرس المصطلحات.....	525

